II

د. حسن حنفي

من الفناء إلى البقاء

محاولة لإعادة بناء علوم التصوف

الجزء الثاني الوعي الذاتي



من الفناء إلى البقاء

محاولة لإعادة بناء علوم التصوف

2

الوعي الذاتي

الدكتور حسن حنفي

دار المدار الإسلامي

من الفناء إلى البقاء: محاولة لإعادة بناء علوم التصوف

الجزء الثاني: الوعي الذاتي

الدكتور حسن حنفي

© دار المدار الإسلامي 2009
جميع الحقوق محفوظة للناشر بالتعاقد مع المؤلف

الطبعة الأولى
حزيران/يونيو/الصيف 2009 إفرنجي

موضوع الكتاب في التصوف الإسلامي
تصميم الغلاف دار المدار الإسلامي
الحجم 17 × 24 سم
التجليد فنّي مع جاكيت

ردمك **ISBN** 978-9959-29-450-0
ردمك **ISBN** 978-9959-29-448-7 **للمجموعة**
(دار الكتب الوطنية/بنغازي ـ ليبيا)

رقم الإيداع المحلي 2008/763

دار المدار الإسلامي
الصنائع، شارع جوستينيان، سنتر أريسكو، الطابق الخامس،
هاتف 04 03 75 1 961 + **خليوي** 39 39 93 3 961 +
05 03 75 1 961 + **فاكس** 07 03 75 1 961 +
ص.ب. 14/6703 بيروت ـ لبنان
بريد إلكتروني szrekany@inco.com.lb
الموقع الإلكتروني www.oeabooks.com

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, or transmitted in any form or by any means, electronic or mechanical, including photocopyings, recording or by any information storage retrieval system, without the prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة للدار، لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب، أو جزء منه، أو نقله بأي شكل أو واسطة من وسائط نقل المعلومات، سواء أكانت إلكترونية أو ميكانيكية، بما في ذلك النسخ أو التسجيل أو التخزين والاسترجاع، دون إذن خطّي مسبق من الناشر.

توزيع دار أويا للطباعة والنشر والتوزيع والتنمية الثقافية
زاوية الدهماني، شارع أبي داود، بجانب سوق المهاري، طرابلس ـ الجماهيرية العظمى
هاتف وفاكس: 013 07 34 21 218 + **نقال** 463 45 21 91 218 +
بريد إلكتروني: **oeabooks@yahoo.com**

الباب الأول

التصوف الخلقي

الفصل الأول

من الفقه إلى الأخلاق

1 ـ تطبيق الشريعة

يعني الوعي الذاتي التجربة الصوفية أي التصوف كطريق في مقابل الوعي كطريق في مقابل الوعي الموضوعي أي التصوف كتاريخ. الوعي الذاتي هو التصوف عبر التاريخ في حين أن الوعي الموضوعي هو التصوف في التاريخ. قد يقع تقابل بين مراحل الوعي الموضوعي في التاريخ ومراحل الوعي الذاتي كتجربة صوفية. المرحلة الخلقية تعادل التصوف الخلقي. والمرحلة النفسية تعادل التصوف النفسي، والمرحلة النظرية تماثل التصوف الفلسفي. والمرحلة الطرقية تعادل التصوف العملي. ويبدأ التصوف الخلقي بتطبيق الشريعة مع التمييز بينها وبين الطريقة بين أعمال الجوارح وأعمال القلوب في أحكام التكليف الخمسة: الواجب والمحرم والمكروه والمندوب والمباح، ووصف أحكام الوضع الخمسة: السبب والشرط والمانع والغريمة والرخصة والصحة والبطلان، والتفرقة بين الطاعة والمعصية، والعبادة، والمعرفة، والتأكيد على أركان الإسلام الخمسة في العبادات، ثم جوانب المعاملات في الحياة الشخصية والحياة العامة.

لا يمكن الوصول إلى الحقيقة إلا بالشريعة. ولا يمكن الحصول على أفعال القلوب إلا بأعمال الجوارح. وقد يظل الصوفي أربعين عاماً في الأعمال ولكن يظل مربوطاً بالزنار أي بإزار الرهبان[1]. ومن لا يكون مأموناً بآداب الشريعة فإنه لا

---

(1) «غصت في بحار الأعمال أربعين سنة، فصعدت فإذا أنا مربوط بكل زنار». **شطحات**، ص84.

يستحق مقامات الأولياء والصدِّيقين[1]. ومن ترك الشعائر لأنه من الأولياء فهو مدع[2].

هلاك البشر في ترك الحُرمة ونسيان المنة أي في فعل الحرام ونسيان الفضل الإلٰهي[3]. وظل البسطامي أربعين سنة لا يستند إلا إلى حائط مسجد أو رباط. وقد غاص في بحور الأعمال أربعين سنة فصعد ولكن مازال مربوطاً بزنار الشريعة[4].

وفي المرحلة الخلقية عندما بدأ التصوف علماً للأخلاق الإسلامية كانت الأخلاق مرتبطة بالشريعة[5]. إذ تجب على الإنسان خمسون فريضة. وهي نفس الواجبات في العقائد المتأخرة، «يجب على المسلم خمسون عقيدة»[6]. واجبات دون حقوق تدور حول دوائر أربع: الإنسان، الآخر، العالم، الله[7]. وهي مجموعة من المقامات والأحوال، متناثرة ومتعددة.

---

(1) وبعد أن بصق رجل في اتجاه القبلة قال أبو يزيد «إن هذا الرجل ليس بمأمون على أدب من آداب الشريعة التي أدب بها رسول الله... فكيف يكون مأمونا على ما يدعيه من مقامات الأولياء والصديقين». السابق، ص85.

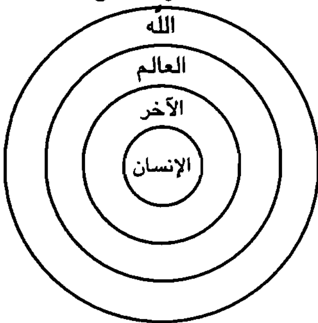
(2) «من ترك قراءة القرآن والتقشف بالجماعات وحضور الجنائز وعيادة المرضي وادعى في هذا الشأن فهو مدع». السابق، ص122.

(3) «هلاك الخلق في شيئين: في ترك الحُرمة، ونسيان المنة». السابق، ص132.

(4) السابق، ص150-151.

(5) الحسن البصري: في عمل اليوم والليلة (فرائض الإسلام).

(6) **من العقيدة إلى الثورة**، جـ1، المقدمات النظرية، ص194-202.



(7) الإنسان الأخلاقي: الذكر، الإيمان، القناعة، العبرة، التفكر، التوكل، الرضا بالقضاء، عدم الحلف بالله كذباً، الشكر، الصبر، التوبة، الإخلاص، العداوة مع الشيطان، العمل بالحجة، الاستعداد للموت، عدم العمل بالهوى، صفوة القلب، ترك الغلو، ترك المرح، الصدق، حرس السمع والبصر والفؤاد، التفقه، التفقه على المقدار.

شرط صحة الكرامة هو تطبيق الشريعة، أوامرها ونواهيها[1]. وقد يصل حد الالتزام بالشريعة وتجنب المحارم إلى حد الحساسية المفرطة. إذ يخشي البسطامي أن تكون أمه قد أكلت حراماً وهو يرضع من ثديها ووصل إلى قلبه فحجبه عن الله. فالله يحاسب عباده على مثقال ذرة[2].

وغير المأمون على آداب الشريعة لا يؤتمن على الولاية[3]. وقد دعا البسطامي في نفسه إلى طاعة الله فأبت فمنعها من شرب الماء سنة كفر أهل الهمة أسلم من إيمان أهل المنن[4].

والصوفي منذ أن يعرف الله يصرف وجهه عن كل مخلوق. ولا يقبل المال من أي إنسان دون أن يعلم مصدره، حلال أم حرام. وذات يوم رفت رابعة ثوبها في ضوء مصباح وضع زيته من بيت السلطان فأظلم قلبها. فأعادت رتق الثوب لأنها لا تعلم هذا الزيت حلالا أم حراما![5]. ودواء الإفاقة الكف عن محارم الله[6].

ويأتي التصوف الخلقي بعد تطبيق الشريعة وإتيان الفرائض والعمل بالأوامر والنواهي. وتظهر الأحوال مثل الخوف والرجاء لوعده ووعيده، وتحويل قواعد الإيمان إلى أحوال نفسية. والإيمان بالمتشابه في التنزيل مقدِّمة للتأويل، والاعتبار بالقصص والأمثال بداية الخيال الخلاق. ومن ثم يخرج المسترشد من الظلمات إلى

---

(1) «لو نظرتم إلى رجل أُعطي من الكرامات حتى ترّبع في الهواء فلا تغتروا به حتى تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهي وحفظ الحدود وأداء الشريعة». **شطحات**، ص90، 161.

(2) «يا والدتي، أقسم عليك هل تناولت شيئاً من الحرام بسببي أيام كنت ترضعينني فأني لا آمن من أن يكون قد وصل إليّ شيء من قلبي وأنا لا أعلم فيحجبني ذلك عن ربي.. إن الله يحاسب عباده على مثقال ذرة... وهذا أعظم من ذرة فأخشى أن يقطعني عن ربي». السابق، ص140.

(3) «فهذا غير مأمون على أدب من آداب الشريعة فكيف يكون مأمونا على ما يدعيه من الولاية؟»، **شطحات**، ص205.

(4) السابق، ص210، 225.

(5) «وأنا منذ عرفت اللّه صرفت وجهي عن كل مخلوق. والآن، فكيف أقبل المال من إنسان ونحن لا نعلم أهو حلال أو حرام؟ وذات يوم وضع في المصباح زيت من بيت السلطان. ورفوت ثوبي الممزق على ضوء هذا المصباح. فظل قلبي طوال أيام مغموراً بالظلمة. ولم يضئ إلا حينما شققت الثوب الذي رفوته». **رابعة**، ص154.

(6) السابق، ص180.

النور، ومن الجهل إلى العلم، ومن الشك إلى اليقين[1]. وكل أمر لاح ضوؤه بمنهاج الحق يعرض على الكتاب والسنَّة والآداب الصالحة. فاتفاق النص والخلق يبين صحة النص وسلامة الخلق[2]. والحق شاهد بقبول النفس له أي أن أساسه في التجربة الحية.

البدأ بالفرض المنصوص عليه في التلاوة قبل الشروع في السنَّة. البدأ بأوجب الفروض وبحلول الوقت مثل الأم قبل الأب ثم الذي يلونه. فهناك أولويات في أداء الواجب. وهنا يبدو التصوف ترتيباً للفقه، وأعمال القلوب مساوية لأعمال الجوارح[3]. وقد تقع رخص في أداء الفرائض وترتيبها[4].

وقد تطلب النوافل للقربى من الله بالاستعانة بما لا يحل مثل اكتساب المال بالولاية والظلم والخيانة والرشوة[5]. وقد يخاف المريد على النوافل من الضياع من غير تضييع للواجب. وهنا يظهر لفظ المريد كبداية لآداب الشيخ والمريد في التصوف كطريق دون الوصول إلى درجة الإثم لإمكانية الخلط بين الهوى والفضيلة[6]. وتبين «النوافل» خروج التصوف كرد فعل على الفقه. وتهدف إلى تكفير الذنوب وتكميل الفرائض وتكفير السيِّئات، وشكر المنعم، وتجريد القلوب وعمارتها، وهموم قصر العمر ألا يكفي للطاعات، والخشية من الغفلة عن الله، وخفة الحساب[7].

وقد يأتي الإنسان ما هو أقل فضلاً أو أكثر. وقد تترك الأعمال للآفة مثل الهراء. وقد يعرض للعبد في صلاته حديث النفس[8]. وإذا عُرض أمران فالبدء بأوجبهما ثم بالأخف على القلب[9]. وقد يعرض للعبد آفة ويترك طلب العلم الذي

(1) السابق، ص38.

(2) السابق، ص82-85.

(3) «باب ما يبدأ به من الفرائض». السابق، ص115-122.

(4) «باب شرح ما يتدأ به من أداء الفرائض». السابق، ص123-126.

(5) المحاسبي، باب معرفة من يطلب النوافل بالاستعانة بما يفسد عمله وما يلحقه الآفات. السابق، ص127-128.

(6) «باب ما يخاف على المريد في النوافل من غير تضييع الواجب». **رابعة**، ص129-131.

(7) السابق، ص121-126.

(8) المحاسبي، المسائل باب معرفة التمييز بين الفضلين وكيف تدعوه نفسه إلى ذلك. ص135-139.

(9) «باب في الأمرين من أمور اللّه تعالى يعرضان بأيهما يبدأ». السابق، ص140-143.

يجهله كفرض للأداء أو حرام للاجتناب[1]. وقد تعرض للنفس آفات في الصوم بتخيل الإفطار أفضل[2].

والنذور خمسة: نذر لا يسمى، ونذر لا يطاق، ونذر في معصية الله وفيه الكفارة، ونذر يسمى ويطاق ولا معصية فيه، ونذر فائت. الأول لا يلتزم بشيء، والثاني يستحيل، والثالث لا نذر في معصية، والرابع عليه الوفاء، والخامس به كفارة. فالنذور ليست على الإطلاق بل في سياق وموقف. والتعهد بالوفاء بها ليس مطلقاً بل طبقاً للظروف والأحوال. فالفقه فقه مواقف أو نوازل بتعبير المغاربة[3].

الشريعة شرط الحكمة. ومن جلس مع صاحب بدعة لم يُعط الحكمة. والخلق معذورون في العقل مأخوذون في الحكم[4]. وفي هذه الحالة يكون الحكم مضاداً للعقل، والعقل أساس التكليف[5]. ولا تظهر الحالة على الصوفي إلا لملازمته لأصل صحيح. فلا خلاف بين الشريعة والحقيقة[6]. ومن حكم الحكيم أن يوسع على إخوانه في الأحكام ويضيِّق على نفسه فيها فإن التوسعة عليه إتباع العلم. والتضييق على نفسه من حكم الورع[7]. الرخصة للآخرين، والعزيمة للذات. وأعرف الناس بالله أشدهم مجاهدة في أوامره، وإتباعهم لسنَّة نبيه[8]. الشرع أدب. ومن تأدب بآداب الشرع أدب به متبعوه. ومن تهاون هلك وأهلك[9]. من دقق النظر في أمر الدين وسع عليه الصراط في وقته. ومن وسع النظر في أمر دينه ضيَّق عليه الصراط في وقته فهل التدقيق في الدين أفضل من التوسع فيه؟ أليست أزمة العصر الحرفية والتشدد؟ وهل من يضحي بحقوقه ويثبت حقوق الله يعفى من كل عقوبة؟[10].

---

(1) «باب معرفة ما يعرض للعبد من الآفات وتركه طلب العلم الذي هو به جاهل». السابق، ص132.
(2) «باب ما يعرض للنفس من الآفات في الصوم». السابق، ص133–134.
(3) السابق، ص167–170.
(4) الفضيل بن عياض، **طبقات الصوفية**، ص10.
(5) المحاسبي، السابق، ص60.
(6) أبو حفص النيسابوري، السابق، ص121.
(7) أحمد بن رُويْم البغدادي، السابق، ص181.
(8) محمد بن الفضل البلخي، السابق، ص214.
(9) مظفر القرمسعيني، السابق، ص398.
(10) أبو العباس القاسم السياري، **طبقات الصوفية**، ص446.

وبالرغم من التحول من أعمال الجوارح إلى أعمال القلوب، ومن الظاهر إلى الباطن، ومن الشريعة إلى الحقيقة إلا أن الشريعة التقليدية مازالت حاضرة: الفرائض، علمها والإخلاص فيها، والنوافل. والسنة فرض وإن كانت السنة نافلة. وأول الإخلاص الخلاص من الزندقة والشرك والكفر والنفاق والبدعة والوعيد والمواربة والرياء. ولا ينسب للمبتدع عمل لأنه خارج على السنة. وكل أمر ونهي خارج السنة مردود(1).

وفي الفقه لا يوجد قرب ولا بعد، ولا غياب ولا حضور، ولا حياة ولا موت(2). إذن من الضروري قلب العين والتحول من الفقه إلى الرؤية، ومن الفهم إلى الكشف، ومن الصنعة إلى الطبيعة(3). العبادة حجاب دان. يحتجب الله وراءها(4). هي العبادة الوجهية، وجهاً لوجه، بين العبد والرب(5). وهي طريق المقربين إلى ظل العرش(6). تحضر الجنة وتتراءى للقلب. هي عبادة الخاصة دون العامة، أهل الصبر، ورفع الوجوه يوم القيامة، وأهل الشفاعة والزيارة، وأهل المشاهدة دون اسم أو عمل، ودون نطق لسان، لا يكتب كتبة العبادة الوجهية إلا إياها، الرحمانية، والحكمة الربانية، والنعماء الإلٰهية، والمعرفة الفردانية. وهم كتبة القدس المسطور، والنور المنشور، والعلم والإعلام، والرحمن والجلال في دار الجلال، والمجد المجيد، والحمد الحميد، والمنن والإحسان، والبيان والبرهان، والحضرة الدائمة، والقيومية القائمة(7).

2 ـ الشريعة والحقيقة

لا تساعد كثيراً أداء الشريعة من صيام وصلاة على الإدراك. بل يساعد على

---

(1) **التستري**، ص193.

(2) «موقف الفقه وقلب العين»، **المواقف**، ص133-134.

(3) «أخرج فأنت الفقيه. فخرجت أسعى في الفقه، وصح لي قلب العين فقلبتها بالفقه، وجئت بها إليه. فقال: لأنظر إلى مصنوع». **المواقف**، ص134.

(4) السابق، ص153.

(5) «موقف العبادة الوجهية»، السابق، ص195-199.

(6) الحوار بين الأنا والآخر. والآخر المطلق هو المحور الرئيسي في فلسفة كارل بوبر وفلسفة غبريال مارسيل.

(7) «من فقه أمري فقد فقه، ومن فقه رأي نفسه فما فقه». السابق، ص201.

ذلك سخاء الأنفس وسلامة الصدر والنصح للأمة[1]. وأفضل زينة للإنسان طالب الحلال والصدق فيه[2]. والبدعة هي التعدي في الأحكام والتهاون في السنن، وإتباع الآراء والأهواء، وترك الاقتداء والإتباع. وأصول الصوفية سبعة: التمسك بالكتاب، الإقتداء بالسنة، أكل الحلال، كف الأذى، اجتناب الآثام، التوبة، أداء الحقوق[3]. وهي تجمع بين الشريعة والأخلاق، بين العبادات والمعاملات. وقد أيس العلماء والحكماء من هذه الخصال الثلاث: ملازمة التوبة، ومتابعة السنة، وترك أذى الخلق[4]. ومن ثم فالصوفية أقدر من العلماء والحكماء. ولا معين إلا الله، ولا دليل إلا رسول الله، ولا زاد إلا التقوى، ولا عمل إلا الصبر. ويظهر الانتقال من الشريعة إلى الأخلاق.

والشعائر لها وجهان ظاهر وباطن، الظاهر في علوم الفقه، والباطن في علوم التصوف. التكبير بالتلبية، والقراءة بالترتيل، والركوع بالتعظيم، والسجود بالتواضع، والتسليم بالتودع[5]. والشعائر ليست في المكان بل في الزمان، ليست على الأرض بل في النفس، والبيت الحرام ليس في مكة لأن صاحبه أقرب من حبل الوريد[6]. وإن في الطاعات من الآفات ما لا يحتاج أحد لإتيان المعاصي. فالطاعة الظاهرية معصية[7].

والصوفي هو الذي ينتقل من بحر الأعمال إلى بحر البر[8]. وتبدأ الفرائض

(1) الفضيل بن عياض، **طبقات الصوفية**، ص10.
(2) ابو حفص النيسابوري، السابق، ص122.
(3) **التستري**، السابق، ص210-211.
(4) أبو عمرو الزجاجي، السابق، ص433. اتبع الناس في الجاهلية الحسن والقبح العقليين فجاء الوحي ورد الناس إلى الشريعة فالحسن والقبح من الشرع وليس من العقل.
(5) «أما باطن الحق فظاهره الشريعة. ومن يحقق في ظاهر الشريعة يتكشف له باطنها. وباطنها المعرفة باللّٰه». **أخبار**، ص15. **الولاية**، ص237.
(6) السابق، ص108.
(7) «إن في الطاعات من الآفات ما لا تحتاجون إلى أن تطلبوا المعاصي». **شطحات**، ص121، 182. «يا من باع كل شيء بلا شيء، ويا من اشترى لا شيء بكل شيء. إن في طاعتك من الآفات ما يشغلك عن السيئات». السابق، ص136.
(8) «ما من أحد إلا وقد غرق في بحر الأعمال غيري. فإني قد غرقت في بحر البر». **شطحات**، ص84.

من أعمال الجوارح إلى أعمال القلوب، من الظاهر إلى الباطن. ففرائض البدن عشر، من حركات الأعضاء إلى همسات القلوب، من أداء الفرائض واجتناب المحرمات إلى كف الأذى والنصيحة حتى التواضع والاستغفار والرضا، والسيطرة على الأهواء والسكينة[1]. وشعائر الأجساد لا تكون إلا بالله[2]. ثم يتم الانتقال إلى عشرة أشياء أخري حصنا للبدن تختلط فيها أعمال الجوارح مع أعمال القلوب، أفعال الشريعة مع أفعال الحقيقة أفعال الحواس وأفعال الشعور مثل حفظ العينين واللسان وكثرة العبادة ومتابعة السنة إلى محاسبة النفس واستعمال العلم، وحفظ الأدب، والابتعاد عن الدنيا، والعزلة من الناس، ومجاهدة النفس[3].

والاستعانة على العبادة بمعرفة الله[4]. وقد يكون العابد محجوباً من الله عندما تأتيه المنة فيلتفت إليها أكثر مما يلتفت إلى العبادة[5]. والعبادة في الزمان، والزمان شعوري. فليس المهم قيام الليل بل المهم السبق في الزمان[6]. ورفع القلب إلى الله أولى من رفع اليدين في الصلاة[7]. والسنة ترك الدنيا. والفرض صحبة للمولى[8].

وقد يظل التعارض بين الشريعة والحقيقة من الظاهر والباطن إلى الإيمان والكفر، الشريعة ظاهر والحقيقة كفر. ظاهر الشريعة كفر خفي وباطنها كفر جلي.

(1) عشرة أشياء فريضة على البدن: أداء الفرائض، واجتناب المحارم، والتواضع لله، وكف الأذى عن الإخوان، والنصيحة للبر والفاجر، وطلب المغفرة، وطلب مرضاة اللّه في جميع أموره، وترك الغضب والكبر والبغي والمجادلة من ظهور الجفا، وأن يكون وصيٍّ نفسه، يتهيأ للموت. السابق، ص133.

(2) السابق، ص110.

(3) عشرة أشياء حصن للبدن: حفظ العينين، ومعاودة اللسان بالذكر، ومحاسبة النفس، واستعمال العلم، وحفظ الأدب، وفراغ البدن من شغل الدنيا، والعزلة من الناس، ومجاهدة النفس، وكثرة العبادة، ومتابعة السنّة. السابق، ص133-134.

(4) «عندما سئل البسطامي بماذا يستعين على العبادة أجاب: باللّه إن كنت تعرفه». **شطحات**، ص209.

(5) «وأما العابد فهو الذي يرى منة اللّه عليه في العبادة أكثر من العبادة حتى تغرق عبادته في المنة». السابق، ص155، 162، 207-208.

(6) «ليس الرجل من يقوم طول الليل ثم يسبق إلى المنزل. إنما الرجل من ينام طول الليل على فراشه ثم يصبح وقد سبق القافلة». **شطحات**، ص211.

(7) «سنة من سنن رسول اللّه. . . ولكن اجتهد أن يرفع قلبك إلى اللّه فأنه أولى». السابق، ص148.

(8) السابق، ص210.

ويعرض الحلاج مسبقاً قبل أي مناظرة أن أهل الظاهر على حق، وأن أهل الباطن على باطل[1]. ويضم أهل الظاهر علماء الكلام الذين يقضون حياتهم في إثبات وجود الله[2]. والله يتجلى لمن يشاء ويستتر على من يشاء. لا نفيه مردود، ولا إثباته محمود. المهم عدم الاغترار بالله ولا اليأس منه، ولا الرغبة في محبته ولا في عدم محبته[3]. الشريعة ظاهر، والتوحيد باطن. وبعد الوصول إلى التوحيد تسقط الشريعة. وبعد حصول اللوائح والطوالع يصبح التوحيد زندقة، والشريعة هوساً. ورسماً، والتوحيد غلبة وقهراً[4].

صلبه تعصب. ولا يتقرب إلى الله بالقتل. القتل للظاهر، والحياة للباطن[5]. الصلب أسعد أيام العمر[6]. ولا يوجد فرق بين الكفر والإيمان. فالكافر مؤمن بالتنزيه، والمؤمن كافر به. ومع ذلك، هناك فرق بين الكفر والإيمان. الكافر كافر بالتشبيه، والمؤمن مؤمن به. فالتضاد الظاهر تجانس في الباطن. والتجانس في الظاهر تضاد في الباطن[7]. ويطلب الحلاج من الناس أن يشهدوا عليه بالكفر

---

(1) «ستر الله عنك ظاهر الشريعة. وكشف لك حقيقة الكفر. فإن ظاهر الشريعة كفر خفي. وحقيقة الكفر معرفة جلية». السابق، ص35، السابق، ص233.

(2) السابق، ص35. السابق، ص233.

(3) «حمدا لله الذي يتجلى على رأس إبرة لمن يشاء. ويستتر في السموات والأرضين عمن يشاء حتى يشهد هذا بأن لا هو. ويشهد ذلك بأن لا غيره. فلا الشاهد على نفيه مردود، ولا الشاهد بإثباته محمود.. أوصيك ألا تغتر بالله، ولا تيأس منه، ولا ترغب في محبته، ولا ترحب بأن تكون غير محب. ولا تقل بإثباته ولا تميل إلى نفيه، وإياك والتوحيد». السابق، ص233.

(4) «إن المرء قائم على بساط الشريعة مالم يصل إلى مواقف التوحيد. فإذا وصل إليها سقطت من عينيه الشريعة، واشتغل باللوائح الطالعة من معدن الصدق. فإذا ترادفت عليه اللوائح وتتابعت عليه الطوالع صار التوحيد عنده زندقة والشريعة عنده هوسا. فبقي بلا عين ولا أثر. أن استعمل الشريعة استعمل رسماً. وإن نطق بالتوحيد نطق به غلبة وقهرا». السابق، ص40-41. **الولاية**، ص234.

(5) «وهؤلاء عبادك قد اجتمعوا لقتلي تعصبا لدينك، وتقربا إليك. فاغفر لهم فإنك لو كشفت لهم ما كشفت لي لما غطوا ما فعلوا. ولو سترت عني ما سترت عنهم لما ابتليت بما ابتليت. . .». **أخبار**، ص10-11، 13. **الولاية**، ص246-247.

(6) «وأكثر أعدائي في بلادك، والقائمين لقتلي من عبادك». السابق، ص15.

(7) «من فرق بين الكفر والإيمان فقد كفر. ومن لم يفرق بين الكافر والمؤمن فقد كفر». السابق، ص41. **الولاية**، ص243.

والعون على مثله[1]. لا يوجد كفر إلا وتحته إيمان، ولا طاعة إلا وتحتها معصية أعظم منها[2]. والكفر بين يدي الله واجب، وعند المسلمين قبيح[3].

لا فرق بين الكفر والإيمان إلا الاسم فقد يكون المؤمن كافراً إذا كان كاذباً. وقد يكون الكافر مؤمناً إذا كان صادقاً. هناك جدل بين الكفر والإيمان، بين المعصية والطاعة، بين العبودية والحرية، بين الكراهية والمحبة. الإيمان من الله لا يزيد ولا ينقص، ومن الأنبياء يزيد ولا ينقص، ومن غيرهم يزيد وينقص[4].

ويشعر الصوفي الواصل أنه يستطيع أن يتكلم بمثل القرآن لأنه عاش تجربة النص، والتجربة هي الأصل، والنص هو الفرع. وما دام الصوفي قد حصل على التجربة فإنه ما أسهل عليه في لحظة إبداع أن يعبِّر عنها بنص مركَّز مثل **الشطحات**[5]. وهذا هو الإبداع الشعري. والقرآن نفسه صادر من اللوح المحفوظ. ويستطيع الولي أن يقرأ منه كرامة له. القرآن نفسه جزء من العلم الإلٰهي. ما دام الصوفي قد وصل إلى الكل فإنه يستطيع أن يحصل على الجزء. وذلك يدل على الثقة بالنفس، والقدرة على الإبداع، وتجاوز نقل المحدِّثين والفقهاء.

والقرآن لسان كل علم، مكوَّن من حروف مأخوذة من خط الاستواء. أصله ثابت وفرعه في السماء. وهو جوهر التوحيد. فالتوحيد نص وواقع، حرف وكون، سماء وأرض[6].

---

(1) السابق، ص47.

(2) السابق، ص49.

(3) كفرت بدين اللّه والكفر واجب   لدي وعند المسلمين قبيح
السابق، ص53.

(4) «الكفر والإيمان يفترقان من حيث الاسم. وأما من حيث الحقيقة فلا فرق بينهما». **الولاية**، ص243. «ليس على وجه الأرض كفر إلاّ وتحته إيمان، ولا طاعة إلا وتحتها معصية أعظم منها، ولا إقرار بالعبودية إلا وتحته ترك حرمة، ولا دعوى المحبة إلا وتحتها سوء الأدب، لكن اللّه تعالى عامل عباده على قدر طاقتهم». السابق، ص243.
إيمان من اللّه   لا يزيد ولا ينقص
إيمان الأنبياء   يزيد ولا ينقص
أيمان الناس   يزيد وينقص

(5) أُشيع عن الحلاج قوله: «يمكنني أن أتكلم بمثل هذا القرآن». **أخبار**، ص24.

(6) «القرآن لسان كل علم. ولسان القرآن الأحرف المؤلفة، وهي مأخوذة من خط الاستواء، =

ولأهل السنة والطريقة فضائل طرق السلف من الأئمة[1]. السنَّة اسم الطريق، والطريق الأقوم. وفضائل أهلها التقلل من الدنيا في كل شيء. والقناعة من الله بأدنى شيء. والتواضع لله بكل شيء. ويظهر التواضع بالقول والفعل والزي والأثاث والمنزل. وضده الكبر. وحقيقته في القلب، وظاهر في الأقوال والأفعال. والورع عن الشبهات. والشريعة اسم من أسماء الطريق، الطريق الواضح المستقيم. وللطريق أسماء أخري مثل: الصراط المستقيم، السبيل، المنهاج، الحجة، المنسك، ومنه يشتق أيضاً: شارع، مشرعة، شرعة، شريعة.

تشمل الشريعة اثنتي عشرة خصلة جامعة لأوصاف الإيمان: الشهادتان، الفطرة، الصلوات الخمس وهي الملة، والزكاة وهي الطهرة، والصيام وهو الجنة، والحج وهو الكمال، والجهاد وهو النصر، والأمر بالمعروف وهو الحجة، والنهي عن المنكر وهو الوقاية، والجماعة وهي الألفة، والاستقامة وهي العصمة، وأكل الحلال وهو الورع، والحب والبغض في الله وهو الوثيقة. فكل شريعة لها تأويل في الطريقة. وحسن إسلام المرء في محبته لله. وحق المسلم على المسلم عشر[2]. وهناك ستة للجسد[3].

كل شريعة غير مؤيدة بالحقيقة غير مقبولة. وكل حقيقة غير مقيدة بالشريعة غير معقولة. الشريعة جاءت بتكليف الخلق، والحقيقة أنباء عن تعريف الحق. ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ حفظ الشريعة، ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ إقرار بالحقيقة. الشريعة أن

= أصله ثابت وفرعه في السماء، وهو ما دار عليه التوحيد». السابق، ص31. **الولاية**، ص230.

(1) **قوت القلوب**، جـ2، ص282-302.

(2) السلام، والإجابة، والتشميت، والعود عند المرض، وشهادة الجنازة، وبر القسم، والنصح، السؤال حين الغياب، وأن يحب له ما يحب لنفسه، ويكره ما يكرهه لنفسه. ومن ثم لا يبتعد عن الناس بدعوى أن البعد عنهم سلامة كما هو الحال في المثل الشعبي «البعد عنك غنيمة».

(3) خمسة في الرأس: المضمضة، الاستنشاق، السواك، قص الشارب، فرق شعر الرأس. وسبع في الجسد: الختان، الاستحداد، الاستنجاء، نتف الإبط، تقليم الأظافر، غسل البراجم، تنظيف الرواجب ومن البدع المناخل والأُشْنان والموائد والشبع. واللحية من المعاصي والبدع المحدثة.

لا تعجبني بلحيته ... كبرت منابتها طويلة
يهوي بها عصف الرياح ... كأنها ذنب الحسيلة
قد يدرك الشرف الفتى ... يوما ولحيته قليلة

قوت القلوب، ص297.

تعبد، والحقيقة أن تشهد. الشريعة قيام بما أمر، والشريعة شهود لما قضي وقدر وأخفي وأظهر. الشريعة أمر بالتزام العبودية، والحقيقة مشاهدة الربوبية. الشريعة حقيقة من حيث أنها وجبت بأمره، والحقيقة شريعة من حيث أن المعارف به وأيضا وجبت بأمره[1]. ويرجع سر الشريعة إلى أسماء الله الحسنى، وأسرارها إلى أسرارها[2].

ويستعمل ابن عربي لفظين «أسرار» مثل الغزالي في **الإحياء**. والباطن هو لفظه الخاص. فعند وصف الشريعة في الظاهر يوضع حكم الباطن[3]. فيوضع حكم الباطن للوضوء ومسح الخف. والماء يستعمل في الطهارة، والطهارة وفي الإسار ونبيذ التمر والنوم فيه نقض الوضوء ولمس النساء والذكر أو النساء والتيمم وميتة الحيوان[4]. وأحياناً يظهر لفظ ثالث أقل مثل «الاعتبار» أو «وصل»[5].

3 ـ أحكام التكليف

التكليف ليس للبدن ولكن للقلب. وحفظه يحفظ القلب. ليس لأفعال الجوارح بل لأفعال القلوب. وقد يكون التقصير في الفعل والقلب. فإذا مرَّ يومان أو ثلاثة دون تقصير إلى ثلاثين يوما أو أكثر فلا يوقع ذلك في الغرور[6].

ويتحول الأمر والنهي في الشريعة إلى الأمر والنهي في الأخلاق. فالأمر الأخلاقي ثلاثة أشياء: عدم الشبع، عدم التقصير في العلم بأن الله مطلع على أفعال العباد، والاتكال عليه. والنهي الأخلاقي عن الطمع في الخلق وذمهم ومدحهم. وواضح أن الأوامر نواهٍ، وأن النهي هو الأساس، وأن الأمر أمر بالنهي. الرغبة في الطاعة زهد في المعصية، أمر ونهي، إيجاب وسلب. السلب سابق. ولا يغتر الإنسان من تأخر العلم. وترك النهي مرضاة الله[7]. والالتزام بالأمر والنهي

(1) **الرسالة**، ص43.
(2) «في معرفة سر الشريعة ظاهرا وباطنا وأي اسم إلٰهي وجدها». **الفتوحات**، جا، ص322-325.
(3) «في أسرار الطهارة»، السابق، ص329-331-340، 342، 344، 346، 356، 371، 379.
(4) تكرار لفظ الباطن 20 مرة، في معرفة سر الشريعة ظاهرا وباطنا. **الفتوحات**، جا، ص322-325.
(5) السابق، جا، ص358، 363.
(6) **التستري**، ص292.
(7) السابق، ص156.

يؤدي على انبعاث الروح والعبودية. وهو التزام بأربعة أمور: الصمت، والخلوة، وترك الشهوات، وسهر الليل[1].

ما قامت به الحجة على مأمور ومنهي عنه هو العقل فلا تعارض بين الأمر والنهي من ناحية والعقل من ناحية أخرى. الشرع ما حسنه العقل، والعقل ما حسنه الشرع[2]. والأفعال ثلاثة: أمر للإتمام، ونهي للاجتناب، وأمر للاشتباه للتوقف يُفوض إلى الله. ومناطق الاشتباه هي لغز الوجود. أمر الله العباد ونهاهم فأطاعوه. فخلع عليهم الخلع فاستخلفوا بالخلع عنه. والصوفي لا يريد من الله إلا الله[3]. من قام إلى أوامر الله كان بين قبول ورد. ومن قام إليها بالله كان مقبولاً ولا شك. القيام بالأوامر آلية وقهر. والقيام إليها بالطبيعة والفطرة.

الأمر والنهي جزء من منظومة كلية. فعلى الخلق أن يلتزموا بسبعة أشياء: الأمر والنهي أي الفرض، ثم السنة، ثم الأدب، ثم الترغيب، ثم الترهيب، ثم السعة. وبالتالي يكمل الإيمان، ويتمُّ العقل. وتهنأ الحياة. وقد استعبد الله الخلق بثلاثة أشياء: سره وهو النهي في القلب، وإتباع القلب وهو أشد لأنه مصاحب بالمكابدة، والتوبة في حالة التقصير[4]. خلق الله الخلق. وجعل النهي ساكنا في القلوب، وستر عليها، وأمر بعدم هتك السر. وجعل الأمر متحركا. فمن ارتكب النهي تحرك وكشف الستر. ومن لم يطع الأمر سكن[5]. الأمر والنهي هو جدل الحركة والسكون. وهو نفس التقابل بين العلانية والسر، والظاهر والباطن. كل أمر قهر يؤخذ على الأوسع، وكل نهي قهر يؤخذ بالأشد[6]. ويحب الله أن تؤتى رخصه كما تؤتى فرائضه. موضوع الأمر والنهي ليس موضوعاً شرعياً فقط «افعل» أو «لا تفعل» بل هو المعرفة والديانة والتعبد واليقين والعلم القدرة والرضا والتسليم والقوة. وتفسيره الفرض والسنة والأدب والإخلاص والمسارعة والمسابقة

(1) السابق، ص163.
(2) السري السقطي، **طبقات الصوفية**. ص51-52.
(3) أبو اسحق إبراهيم بن المولد، **طبقات الصوفية**. ص413.
(4) السابق، ص209.
(5) السابق، ص207.
(6) «كل أمر قهر، ومن الأنبياء قهر». السابق، ص208.

والسعة. وكله يرجع إلى الفرض[1]. فالأمر والنهي يكشفان عن عالم الشعور أكثر مما يستدعيان فعلين في العالم.

الأوامر والنواهي ظاهر يكشف عن باطن، وخارج يكشف عن داخل. فحركة الرجل فيما لا يعنيه من النهي. وهي عظة من الله وعظة من الصديقين[2]. الأوامر للتنفيذ دون تأخير في المكان. والنهي على الفور بترك المكان. ويساعد على ذلك الحول والقوة بالله. كل الطاعات جهاد مثل الجهاد بالسيف. ولا جهاد أشد من جهاد النفس. فبعد أن أصبحت المعركة في الخارج ميئوساً منها تحولت إلى الداخل فربما يعود الأمل فيها[3]. وأصل المعاصي طمع العبد في المغفرة. وهو طمع مع سبق الإصرار[4]. وأركان المعصية الدعوى أي دعاء الساعة في عبارة «الساعة أفعل» دون «إن شاء الله»[5]. فلكل قول استثناء رحمة من الله. وبهذه الطريقة لن يفعل الإنسان شيئاً إذا كان فعله محتملاً ليس لواقع عصي وموقف لا يسيطر الإنسان على كل عوامله بل لتدخل إرادة خارجية لها القول الفصل. أما إن كانت تعني ميدان الفعل المتشابك فنعم لأن الفعل في ميدان تسيطر عليه إرادات عديدة، ومنها العوامل المجهولة. وعلامة المؤلف اجتناب النهي وعلامة الرجاء المسارعة في أداء الأوامر. فأفعال الشرع أحوال النفس، وأفعال الجوارح حالات للقلوب[6]. والبشر عبيد لا يفقدهم مولاهم من حيث أمرهم، ولا يراهم من حيث نهاهم[7]. فوجود البشر عند الله في طاعة الأمر، وغيابهم في حالة المعصية وإتيان النواهي. وكل أمر به رخصة وعزيمة كما هو الحال عند الأصوليين في أحكام الوضع. وكل أمر يؤخذ دون توسع. وكل شيء يؤخذ بالأشد منه[8]. مع أن الله يجب أن تؤتى رخصه كما تؤتى عزائمه.

---

(1) «ثلاثة أشياء استعبد الله الخلق بها». السابق، ص208.
(2) **التستري**، ص208.
(3) السابق، ص241.
(4) السابق، ص171.
(5) السابق، ص202.
(6) السابق، ص249.
(7) السابق، ص326.
(8) السابق، ص381.

وتتحول الشرائع إلى أبدال، والأفعال إلى أشخاص. فالأبدال في الدنيا: الأمر، والنهي، والفريضة، والسنة، والترغيب، والترهيب. والآداب مثل: المسارعة، عزيمة ورخصة[1]. فالشريعة متشخصة في الأقطاب والأبدال. كما أن الرسالة مشخصة في الرسول.

ولكل شيء حد وكمال. ومن صحب الأشياء على حدودها أفلح ونجح. ومن قصّر ضيع حقها. ومن تجاوز أشرف على هلاك نفسه[2]. فالحد هو الطبيعة، والطبيعة هي الكمال. وتجاوزه هو الانحراف والنقص، وليس العقاب والردع. فالجسد ليس حكماً شرعياً لفعل بل هو مستوى لوجود.

والكبائر تحبط الأعمال، وتوبق العمال. وتجنب الكبائر شرط تكفير الصغائر. الصغائر هي اللمم، ما لا حد فيه. ويختلف عددها من أربع إلى سبع إلى تسع إلى إحدى عشرة كالمقامات. ويمكن تقسيمها طبقاً للجوارح: وهي ليست كبائر خارجية يمكن التكفير عنها بل هي كبائر داخلية توجب التوبة منها. والمعاصي في القلوب واللسان والبطن والفرج واليدين والرجلين وفي جميع الجسد[3].

وقد تلتبس النية بالأمنية فتخفي، والهمة بالوشوشة فتشتبه، والإرادة بالمحبة، والحاجة بالشهوة. والذكر بالقلب بالفكر في معاني القرب، والرجاء بالمحبة، والهوي بالنية، وذل القلب بضعفه، وذل الطمع بذل العقل، وذل النفس بذل القلب، وعزة القلب بمقلبه، وعزة النفس بعزة الإيمان، والعبادة بالعادة. المؤمن تبلغ نيته وتضعف قوته. والمنافق تضعف نيته وتبلغ قوته. وللعمل أربعة خصال: معرفة الله، ومعرفة الحق، والإخلاص، والعمل على السنّة. ومحاسبة الكفار عليها خلاف بين الإثبات والنفي لأن النية غير متوفرة[4].

---

(1) السابق، ص249.

(2) أبو علي الثقفي، **طبقات الصوفية**، ص363.

(3) أربعة من أعمال القلوب: الشرك، والإصرار على المعصية، والقنوط من رحمة الله، والأمن من مكره. وأربعة في اللسان: شهادة الزور، وقذف المحصن، واليمين الغموس والسحر. وثلاثة في البطن: شرب الخمر، وأكل مال اليتيم، وأكل الربا. واثنان في الفرج: الزنا، واللواط. واثنان في اليدين: القتل والسرقة. وواحدة في الرجلين: الفرار من الزحف. وواحدة في جميع الجسد: عقوق الوالدين. وأربعة أشياء منها لا تُعلم حقائقها منها الكبائر. واجتناب الكبائر مربوطٌ بالشهادتين أي بالنية.

(4) والدنيا بحر عاج والبحَار فيه غاصة. الأول يخرج درراً وهو من أبناء الآخرة. والثاني يخرج =

ويتحول الحلال والحرام من موضوع فقهي شرعي إلى موضوع أخلاقي حول الشبهات. وهي المنطقة الوسطى التي يختلط فيها الحلال والحرام. ليست القضية الحلال والحرام في الشيء بل الحلال والحرام في النفس كما فعل المسيح مع الشريعة اليهودية، وتحويلها من الخارج إلى الداخل، ومن الظاهر إلى الباطن. ليست القضية هي تحريم الربا بل أشباه الربا. الربا في الباطن والحلال في الظاهر على ما هو معروف في «الحيل» عند الفقهاء والأصوليين. فأفضل الأشياء عمل في سنَّة، ودرهم حلال، وصلاة في جماعة. وإذا كان الجهاد عشرة أشياء فتسعة منها في طلب الحلال. والحلال أيضاً على عشرة أوجه أو سبعة أو ثلاثة: تجارة بصدق، وصناعة بنصح، وعطية بحكم. والعطية أربعة أقسام: فئ وميراث وهبة وصدقة. والحلال ما ليس فيه عصيان للشريعة وعند أهل الباطن ما ليس فيه معصية لله، الحلال هو العلم به وليس وضع الشيء في الشريعة. والسلوك القويم هو «دع ما يريبك إلى ما لا يريبك»، و «الإثم ما حاك في الصدر»، و«الإثم جواز القلوب» و«الورع باب الزهد»، ومفتاح الخوف، وحقيقة الصدق. الحلال قصد ونية وليس بيعا وشراء. الحلال والحرام فرعان للتقوى والفجور، والعلم والجهل. والدنيا ثلاث حلال وحرام وشَبَه. الحلال حساب، الحرام عقاب، والشبه عتاب[1].

الحلال فضيلة والحرام رذيلة. فهما مقولتان شرعيتان في الظاهر، أخلاقيتان في الباطن[2]. وكلها تقوم على الورع واتقاء الشبهات والشكوك. ولا ينطبق فقط على المعاملات بل أيضاً في كيفية مخالطة السلاطين الظلمة، وتحريم مخالطتهم وغشيان مجالسهم والدخول عليهم والإكرام لهم[3]. أشر المواقف الدخول عليهم. وأقلها دخولهم على الإنسان. والأقل سوء اعتزالهم. الدخول عليهم مذموم في الشرع.

= أجراً وهو من عمال الدنيا. والثالث يخرج سمكا وهو المقتصد. والرابع يمكث في القاع. وهو المطرود من الطاعة إلى السوق. وخامس طاف مع الأمواج يطالب النجاة ترقصه الأمواج فينجو وتنزل به موجة فيهلك. وهو المريد الاستقامة من أهل هذا الزمان. **قوت القلوب**، جـ2، ص303-326.

(1) **قوت القلوب**، جـ2، ص582-604.

(2) كتاب الحلال والحرام، **الإحياء**، جـ2، ص89-154.

(3) السابق، ص40-151.

وهناك قسم خاص عن الصوفية في أكل ما يشتريه خادمهم من نقود جمعها حلالاً[1]. فالصوفية أهل صلاح وليسوا أهل خرقة. هم أهل قراءة ووعظ وعلم ودرس. هم أهل رباط. يقبلون الهدايا، وليس الرشاوى. ولا يجوز السير على الأرض المغصوبة أو الانتفاع بها أو البنيان عليها[2].

والمنفعة والضرر مقياسان شرعيان. فالحلال نافع والحرام ضار. ومن كان يسره ما يضره متى يفلح؟[3]. وهما ليس مقياس الصوفي الذي يفعل الأفعال لذاتها.

الحلال ما لا يعصى فيه الله، والصافي ما لاينسى منه. فالمعصية نسيان كما حدث لآدم. ليس الحلال مفهوماً وضعياً بل هو مفهوم أخلاقي[4]. الحلال إقرار بالربوبية وإلا ما ثبت الوحي. وهو التوحيد والديانة. وليس أبغض على الله من بطن امتلأ بالحلال نظراً للزهد والورع والتعفف. فكثير من الحلال يكون حراماً مثل البطنة والحلال ليس فقط في الأشياء بل أيضاً في الأقوال والأفعال. الحر الحلال هو القول الحلال. ليس الحلال شيئاً بل قولاً ولساناً، الحلال طلب الدنيا بشرط ثلاثة أشياء: قلب سليم، ولسان صادق، وفعل محمود. والقيام بالحلال ثلاثة أيام إفهام للعقل لا يوافق الهداية خشية من استمرار الحرام. إذ لابد من المراجعة المستمرة. ولا يكون الزهد إلا في الحلال لأن ترك الحرام فرض. ويصح ضبط النفس في شيئين: أكل الحلال، وعدم الخروج من السر إلى العلن إلا حلالا. فالدخول حلال والخروج حلال.

تعظيم حرمات المؤمنين من تعظيم حرمات الله. وبه وصل العبد إلى حقيقة التقوى[5]. ولا فرق بين الحرام عند الله والإنسان. وهو دليل على التقوى. من غض بصره عن محرم أورثه الله حكمة على لسانه. ينتفع بها سامعوه. ومن غض بصره عن شبهة نور الله يهتدي قلبه بنوره إلى طرق مرضاته[6]. لا يعظم حرمات الله إلا من عظم الله. ولا يعظ الله إلا من عرفه. ومن عرفه خضع له فإذا عظمه

(1) **الإحياء**، ج2، ص51-154.

(2) السابق، ص150.

(3) بنان بن محمد الحمال، **طبقات الصوفية**، ص293.

(4) **التستري**، ص123-124.

(5) أبو العباس بن مسروق القواس، **طبقات الصوفية**، ص241.

(6) أبو الحسين الوراق النيسابوري، السابق، ص301.

صغر كل ما سواه عنده فيتولد منه تعظيم حرمات المؤمنين لعظم حرمة الله في القلب[1]. وهو موقف الأشعرية في جعل الحسن والقبح من إرادة الله وليس في ذاتهما. ويتداخل الحلال والحرام مع الفضيلة والرذيلة. فمن ألقى إليه روح الصلاح التزم الحرمة الخلق. ومن ألقى إليه روح الصدِّيقين طلب الصدق في أحواله. ومن ألقى إليه روح المعرفة عرف موارد الأمور ومصادرها. ومن القى إليه روح المشاهدة أكرم بالعلم اللدني[2]. المعدة موضع الأطعمة إذا وُضع فيها الحلال صدرت الأعمال الصالحة. وإذا وضع فيها الشبهة اشتبه الطريق إلى الله. وإذا وضع فيها الحرام كان بين الإنسان والله حجاب[3]. فالشرعية في الشيء. والحلال لا يحتمل السرف بل الاقتصاد فيه[4]. ومن يصحب الأكابر على غير طريق الحرمة حرم فوائدهم وبركات نظرهم. ولا يظهر عليه من أنوارهم شيء[5]. فصحبة الأكابر قد تكون مدعاةً للفساد وعصيان القانون.

ويختلف الناس في تناول الحلال من تركه، وأخذه مع إيثار الله وطلباً للدرجات. والتمتع به من سعة بشرط العلم والتقرب إلى الله والاقتداء بالسنَّة. وكلها من أصل واحد، إرادة الله. فهي طرق متعددة مرضاة لله واقتداء بالنبي، وخروجا من الجهل إلى العلم، وأخذ النصيب من كل شيء[6]. وقد تصل مخالفة الهوى إلى ترك الحلال[7]. فالحلال هو ما لا يُعصى الله فيه. والصافي في عالم ينسى الله فيه. فالحلال، وهو ما شرعيته في وجوده، يُحال إلى العصيان أي إلى المحرم. وهي نظرة سوداوية للعالم. ولا يصح التعبد إلا بأكل الحلال بطبيعة الحال. ومن لم يأكل بالحلال لا يصحبه إيمانه إلى القبر. وقد يمسك لسان عن الشهادتين حتى يموت. الحلال هو المولى وكل مولى سواه حرام[8].

(1) أبو جعفر بن سفيان، السابق، ص334.
(2) جعفر بن محمد الخالدي، السابق، ص438.
(3) أبو بكر محمد بن داود الرقي، السابق، ص449.
(4) بشر الحافي، السابق، ص46.
(5) أبو علي الثقفي، السابق، ص363.
(6) **التستري**، ص168.
(7) السابق، ص240.
(8) السابق، ص244.

الحلال في أفعال الجوارح بداية للحلال في أحوال القلوب. فالحلال ضروري في المأكل والملبس، مع حفظ الجوارح، وكف الأذى والاستعانة بالليل والنهار حتى يتم الحلال[1]. ليس الحلال فعلاً واحداً بل هو سلوك ممتد من البدن إلى النفس، ومن الفم إلى الجسد إلى اليد إلى القلب، من أفعال الجوارح إلى أفعال القلوب. ولا يصفو الحلال إلا بكف الأذى. فالحلال ليس فقط فعلاً فردياً بل هو فعل جماعي[2]. وطلب الحلال كثرةً يمنع الحق، وفخراً إنفاقٌ في غير وجهه، ورياءً إعجابٌ بالمال[3]. الحلال ما لا عصيان لله فيه، والصافي ما لا نسيان لله فيه. ليس الحلال شيئاً بل هو حال. الحساب في الحلال على ما أخذ فوق القوام. فالحلال هو القسط دون الزيادة. الحر الحلال هو المولى الحلال وما دونه حرام. فلا فرق في الحلال بين الحر والمولى. الحلال في الطلب قلب سليم، ولسان صادق، وفعل محمود. من أقام ثلاثة أيام على غير الحلال فهو متهم في عقله. ولا يستشار في أي أمر فإنه لا يوفق إلى الهداية والرشد، ولا تنفع مشورته[4]. والثقة الزائدة بالنفس مدعاة للحذر.

يصح ضبط البطن في أصلين أكل الحلال وألاَّ يخرج من سره إلا الحلال كما قال السيد المسيح: «ليس ما يدنس ما يدخل في الفم فقط بل أيضاً ما يخرج منه».

ويأكل العباد الحلال والطلب داخل فيه، والحساب أخذ الفضل[5]. وقد يكون الحلال شبهة. لذلك حفت الجنة بالمكاره. ووجب الصبر على الشهوات. وحفت النار بالشهوات أي بالحلال الخداع. كما حفت الجنة بالمكاره أي بالصعاب، ويعني حديث «حفت النار بالشهوات» أي بالحلال كخدعة و«حفت الجنة بالمكاره» أي الصبر على هذه الشهوات[6].

---

(1) السابق، ص260.
(2) السابق، ص269.
(3) السابق، ص271.
(4) السابق، ص273.
(5) السابق، ص123-127.
(6) السابق، ص357-358.

والحلال جزء من كل. يدخل مع أصول أخرى. ويتكون من عدة عناصر متداخلة. فلا يصح الدين إلا بسبعة أصول: أكل الحلال، والصلوات الخمس، وصوم رمضان، والحج، والزكاة، وغسل الجنابة، وكف الأذى. فالحلال مثل أركان الإسلام الخمسة، وكذلك الطهارة وعدم إيذاء الناس. والمال الحلال يصفو من عدة خصال: الربا، والحرام، والسحت، والغلول، والمكروه، والشبهة، والجهل. والحلال عدة أشياء: تصحيح العلم، والنية، وما يوافق السنَّة، يكون لله، وما يكون لصلاح الدين والمسلمين، والصبر إلى الممات. ولا يكون الحلال كذلك حتى تجتمع فيه عدة خصال: الصدق، والنصيحة، والرحمة، والإنصاف، والتفضل، والإقتداء، والتمسك بالكتاب، والآثار، والصبر. والأصل ثلاثة: أكل الحلال، وإتباع الآثار، والإقتداء بالنبي. ومن كان همه ترك الحلال يُعطى أشياء يكمل العقل بها مثل الخشية في القلب، والورع. والناس في طلب الحلال على ثلاثة منازل: ترك الحلال لنفسه، إيثارا لله، وقصد الله. وبتعبير آخر، الناس في طلب الحلال على ثلاثة منازل. الترك أفضل، وأخذه إيثارا له عن الله، وأخذه إيثاراً لله عليه. وهذه الدرجة الثالثة تتطلب العلم والاقتداء بالله وسنَّة الرسول. وأخذ غير الحلال لا يرفع العقوبة عن القلب. فالعقوبة في الضمير وليست على البدن. والحلال شرط صحة العبادات. فالمعاملات أساس العبادات. والرغبة في الحلال ليست الرغبة في جمع الحلال. وهو الإنفاق في طاعة الله. الحلال مقدمة للعمل وليس غاية في ذاته[1]. وهو أحد الأصول مع إتباع الآثار والاقتداء بالنبي. ولا يصح الحلال إلا بثلث الأصل وهو الحلال المتبع للسنة وبه صلاح الخلق[2]. فالحلال ليس فقط حكماً شرعياً بل هو سلوك خلقي.

الحلال أصل لضبط البطن ولإخراج السر من الباطن إلى الظاهر[3]. الحلال في البدن والحلال في القول خوفاً من الشطحات. الحلال هو الله وطريق السنَّة والاقتداء به.

لا يكون في قلب العبد عناية بطلب المطعم والحلال إلا أُعطي قلباً سليماً،

(1) السابق، ص293.
(2) السابق، ص358.
(3) السابق، ص372.

ولساناً صادقاً، وفعلاً محموداً، والصافي الذي لا يُنسى الله فيه. والحلال الذي لا يعصى الله فيه. فالحلال علاقة طبيعية مع العالم.

ويقين الورع بترك الحلال. فالورع كف مطلق. وهو مناقض للشريعة. فالحلال أحد أحكام التكليف، الشريعة في الوجود، والوجود شرعيته. وهل أفضل الخلق من زهد في حلالها؟[1]. قد تكون هناك حالة روحية بالاكتفاء الذاتي ولكنها تجعل الدنيا كلها حلالاً.

وذكر القلوب للحرام حرام على القلوب[2]. فالحرام ليس هو النهي في أفعال الجوارح بل خاطر على القلب في أفعال القلوب. وهو ليس في الأشياء بل أيضا في النفوس. فالعبادة أربعة أشياء، ترك الحرام حتى لا تنهدم الدنيا وتجنب الأهواء والشهوات، وآداء حقوق الله إيثارا له وإيثار الآخرة على الدنيا[3]. ومن حرم نفسه، معلما أو صاحبا أو أخا في الله، شيئا من الدنيا من المطعم والملبس، ورأوا ضرورة في ذلك فهو شأوُ على نفسه وعليه[4].

وعبادة الله في السر تورث اليقين. ومن عبد الله بصدق اللسان استقر قلبه عند العرش. ومن عبد الله بالإنصاف كانت السموات والأرض والدنيا والآخرة والعرش والكرسي في ميزانه يوم القيامة[5].

ما الذي يصد الخلق عن رسوم الطبيعة؟ الحلال والحرام مستمران طبيعيا بالفعل أو عدم الفعل، بالإقدام والإحجام، بالإيجاب أم السلب[6]. الشبه والمكروه حكمان شرعيان[7]. الشبه مجرد حالة وقتية نظرا لتداخل الذات في الموضوع، والشهوة في الشيء وهو على الندب أي فعل حر سلبي. والمكروه على وجهين أيضا. كراهية السلعة في ذاتها، وكراهيتها بذم الآخرين لها[8].

---

(1) السابق، ص295.
(2) السابق، ص321.
(3) السابق، ص70.
(4) السابق، ص170.
(5) **التستري**، ص213.
(6) **أخبار**، ص25.
(7) **التستري**، ص129.
(8) **من النص إلى الواقع**، جـ2، بِنية النص، الباب الثالث: الوعي العملي، ص571-583.

4 ـ أحكام الوضع

وتعني أحكام الوضع ما يتعلق بالسبب والشرط والمانع والعزيمة والرخصة والصحة والبطلان في أصول الفقه[1]. ويبدأ بالمصادر الشرعية الأربعة، الكتاب والسنَّة والإجماع والقياس في الوعي التاريخي[2]. وكما تمَّ التركيز على الأمر والنهي في مباحث الألفاظ في علم أصول الفقه يتمُّ التركيز على السنَّة، المصدر الثاني للتشريع. فالأخلاق إتباع السنَّة، وإتباع السنَّة التحلي بالأخلاق. فإتباع السنَّة يغني عن الوقوع في الاشتباه.

والتمسك بالكتاب والسنَّة ليس بالأوامر والنواهي بل وملاحظة الأفعال في الأوقات، وعدم خفاء شيء من أمور الدين والدنيا أي الوعي بالعالم، مشاهدة لا غفلة، وأخذ الأشياء من معدنها ووضعها في معدنها أي وضع الأشياء في مكانها الطبيعي[3]. والكتاب والسنَّة دليلان على الدنيا والآخرة. فالصوفي هو الذي يأخذ الكتاب بيمينه، والسنَّة بشماله. وينظر بإحدىٰ عينيه إلى الجنة وبالأخرى إلى النار. ويأتزر الدنيا ويرتدي الآخرة. ويلبي من بيتهما المولى[4]. والطريق واضح وهو طريق الصحابة، صحبتهم في الظاهر وهجرتهم في الباطن[5]. السنَّة هي البيعة تحت الشجرة، وما وافق ذلك من الأفعال والأقوال[6]. فالحدث التاريخي قيمته تظهر في السلوك قولاً وفعلاً. يصح العمل بقدر الاهتمام والدخول فيه، والحزن على التقصير والجهد في اتّباع السنَّة[7]. ولا يقام بأعمال البر التي تقع تحت الاشتباه وترك سنة الرسول. فاليقين أولى من الظن. والواقع أن عمل البر البديهي الفطري يقين. وتقوم عمارة الدنيا على ثلاثة أمور: الطاعة للنبي وأصحابه والتابعين وتابعي التابعين والاقتداء بهم وهو تقليد، والتقليد ليس أصلاً من أصول الدين.

---

(1) **من النص إلى الواقع**، جـ2، بنية النص الباب الثالث: الوعي العملي، ص533-561.

(2) المصدر السابق، الباب الأول.

(3) أبو الحسين بن هند الفارسي، **طبقات الصوفية**، ص399.

(4) **شطحات**، ص124، البسطامي، السابق، ص74.

(5) أبو بكر الطحستاني، السابق، ص473.

(6) أبو الحسن البوشنجي، السابق، ص459.

(7) أبو بكر الفراء، السابق، ص508.

وإيمان المقلد لا يجوز. وعدم فتنه الناس إلا بالورع، وإقامة حدود الأحكام، والنصح، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر[1]. وهل إتباع السنَّة يؤدي بالضرورة إلى قصر الأمل، وقطع الهموم بالمضمون، والسكون إلى الضامن مع أن نداء مشايخ الخليج لبعضهم البعض «يا طويل العمر»، والعزاء بعبارة «الباقية في حياتك»؟ وعظم المسؤولية يتطلب طول الأمل وليس قصره[2]. والخروج إلى الجوارح والدنيا دون فرض أو سنَّة أو أخلاق أو سعة عذاب على نفسه وصحبه[3]. مثل السنَّة في الدنيا مثل الجنة في الآخرة. من دخل الجنة أمن، ومن دخل السنَّة نجا وسلم[4]. وهل الأمل فقط في الآخرة؟

والعمل المخالف للسنة باطل[5]. واتفاق الظاهر والباطن ضروري. والعمل الصائب هو العمل الخالص وهو الموافق للسنة[6]. والطرق كلها مسدودة على الخلق إلاً من اقتفى أثر الرسول، واتبع سنته، ولزم طريقته، ثم تفتح بعدها عليه طرق الخيرات كلها. يعلم الله كل ما فيه الشفاء وجوامع النصر وفواتح العبادة وما على الصوفي إلاً الاقتداء. فكيف يمكن الجمع بين التقليد والإبداع، بين السنَّة والباطن، بين التنزيل والتأويل؟ لزوم آداب السنَّة يؤدي إلى نور القلب بالمعرفة. وأشرف مقام متابعة الحبيب في أوامره وأفعاله وأخلاقه، والتأدب بآدابه قولا وفعلا، وعزما وعقيدة ونية[7]. ويصير الناس من أهل الهمة، وهم أهل المحبة بإتباع السنَّة، ومجانبة البدعة[8]. فقد كان الرسول أعلى الخلق همة، وأقربهم زلفة[9]. ومعرفة طريق الحق يسهل سلوكه. والمعرفة بتعليم الله في حين أن الاستدلال يخطئ ويصيب، والدليل الصادق الناصح يبلغ المقصد. ولا دليل إلا

---

(1) **التستري**، ص156-157.
(2) السابق، ص161.
(3) السابق، ص235.
(4) السابق، ص304.
(5) أحمد بن أبي الحواري، **طبقات الصوفية**، ص101.
(6) أبو علي الثقفي، السابق، ص363.
(7) الجنيد، السابق، ص159.
(8) عمرو بن عثمان المكي، السابق، ص202.
(9) أبو العباس بن عطاء الأدمي، السابق، ص268.

متابعة الرسول في أحواله وأفعاله وأقواله[1]. السنَّة ترك الدنيا، والفريضة صحبة المولى. فمن يعمل بالسنَّة والفريضة فقد كملت معرفته. فالكتاب يدل على صحبة المولى. والسنَّة تدل على الدنيا. ولله عباد لو احتجب عنهم ما عبدوه[2]. والنصيحة للصوفي الحرص على أداء الفرائض بأتم جهد والاحترام لجماعة المسلمين، واستبعاد الخواطر التي تخالف الحق. فالتصوف في البداية أداء الشريعة، وهو التزام بحق الجماعة، ثم تصفية النفس مما يعلق بها من خواطر وأهواء[3]. وقد يغلب الصوفي السنَّة على الفريضة لحرصه على الكمال[4].

ويتحول الفرع والأصل في القياس إلى التصوف. فذكر الإنسان للَّه فرع، وذكر الله هو الأصل. ذكر الإنسان منوط به أن يتصل بذكر الله، ويخلص من العلل. ثم يذهب الفرع ويبقى الأصل. مع أن الفرع هو الباقي في الأرض. والأصل مجرد نص الاستدلال[5]. وأحياناً أخرى يتم التركيز على الفروع[6]. الفروع الصحيحة لا تتفرع إلا من أصل صحيح. لذلك تصحيح الأفعال على السنَّة يكون على الإخلاص من القلب. تصحيح ظواهر الأعمال بصحبة بواطن الإخلاص[7]. فالفقه فرع والتصوف أصل. أفعال الجوارح فرع وأفعال القلوب أصل.

ويجوز القياس في شرائع الدين لمن يعرف المحكم والمتشابه في العلم والعمل في الكتاب والسنَّة. والمحكم والمتشابه ليس في النص بل في العقل والهوى، في النفس وفي القلب. وتجوز له الدعوة، وقيام الحجة به. يهيّجه العلم. فيأمر بالمعروف وينهى عن المنكر. وهو حكم الحق رحمة بالخلق. والغضب الذي يهيّجه الجهل ضرر وعقوبة على أهله، وفتنة وعقوبة لغيره[8].

---

(1) أبو حمزة البغدادي البزاز، السابق، ص298.
(2) «إن لله عبادا لو احتجب عنهم في الدنيا والآخرة لما عبدوه». **شطحات**، ص163.
(3) أبو الحسن الصيرفي، **طبقات الصوفية**، ص502.
(4) أبو القاسم المقري، السابق، ص512.
(5) أبو محمد الجريري، السابق، ص263.
(6) رؤية الأصول باستعمال الفروع، وتصحيح الفرع بمعارضة الأصل، ولا سبيل إلى مقام مشاهدة الأصل إلا بتعظيم ما عظم اللَّه من الوسائط والفروع، السابق، ص263.
(7) أبو علي الثقفي، السابق، ص364.
(8) **التستري**، ص331.

ولا يخرج أحد من المتشابه إلا بعلم محيط وقدر يقهر، ورحمة تسع[1]. فأحكام المتشابه ليس عملاً لغوياً فحسب بل هو عمل معرفي وإرادي وإلهامي.

ولا يصل أحد إلى لا إله إلا الله إلا عن طريق القرآن. ولا يصل أحد إلى القرآن إلا عن طريق (الرسول)، ولا يصل أحد إلا عن طريق الأركان (الإسلام). فمصادر الشرع الأربعة في الأصول تحولت إلى مراتب للوصول، من الإسلام إلى السنَّة إلى القرآن إلى الله.

ولا يُخار على القرآن والسنَّة ولا حتى القياس إلا إذا أمن الناس شره. فالقياس لا يقوم إلا على المصالح العامة[2]. واليقين الأخلاقي يقضي على التشابه الأصولي.

وصحبة أهل الأخلاق أفضل من صحبة أهل البدع التي تورث الإعراض عن الحق[3]. من كان الاجتهاد بدايته فإنه يكون نهايته[4]. فالاجتهاد لا يتوقف. هو مبدأ الحركة في الإسلام كما قال إقبال. وهو من نفس اشتقاق المجاهدة. كلاهما من جهد. في أصول الفقه الجهد المنطقي وفي التصوف الجهد الأخلاقي.

والفقيه الصوفي من لا يدخل تحت المنسوبات إليه من علم الظاهر لأنه يجمع بين الظاهر والباطن[5]. وكما هو الحال في الوعي العملي في علم أصول الفقه في مقاصد المكلف، لا عمل لمن لا نية له. ولا أجر لمن لا نيه له. فشرط العمل النية[6]. وإذا صدق الإنسان في العمل وجد حلاوته قبل مباشرة العمل أي الطاقة عليه والهم به والعقد له[7]. ولكل عمل قِبلة أي اتجاه وقصد. فالله قبلة النية، والنية قِبلة القلب، والقلب قِبلة البدن، والبدن قِبلة الجوارح، والجوارح قِبلة

---

(1) السابق، ص377.
(2) **طبقات الصوفية**، ص380.
(3) بندار بن الحسين الشيرازي، السابق، ص469.
(4) أبو اسحق إبراهيم بن المولد، السابق، ص411.
(5) علي بن سهل الأصفهاني، السابق، ص235.
(6) الفضيل بن عياض، السابق، ص14.
(7) **التستري**، السابق، ص208.

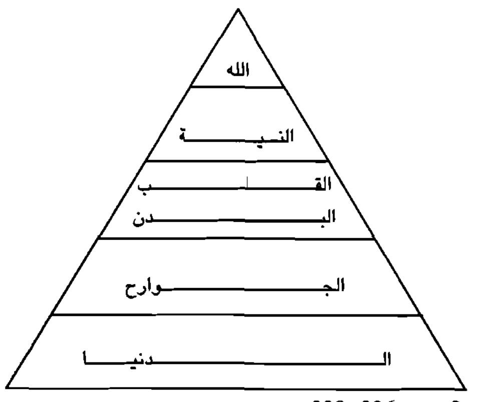
الدنيا[1]. وإذا كان الفقه يعتني بالفعل إلا أن التصوف يتجه إلى النية. فالنية شرط العمل كما هو الحال في علم أصول الفقه. وتتراوح النية بين القوة والضعف، والصفاء والكدر لما قد يطرأ عليها من الآفات في الأفعال النية صحة القصد. وحقيقة الإخلاص سلامته من الرياء والهوى. وقد يوقع اتباع سنة الرسول في الاشتباه. وقد اختار الرسول أخف الأمرين وإتباع الرخص رحمة بالناس. كما اختار أقربهما إلى الفضيلة. ونية المرء خير من عمله[2].

وفي موضوع العزيمة والرخصة في أحكام الوضع في علم أصول الفقه لا يأخذ الصوفي إلا بالعزائم. فالرخص تؤدي إلى التعطيل والإبطال[3]. ويأتي التضييق والحمل على النفس من الذين دخلت عليهم الآخرة فشغلتهم عن غيرها. وهم أصحاب الرسول، ولكن في الآخرة هم على السعة حتى وإن دام على ذلك وأفرط فيه ونسب إلى الجنون[4]. فالضيق والسعة بلغة الأصوليين العزيمة والرخصة.

5 ـ الطاعة والمعصية

والطاعة والمعصية هي لغة أخلاقية للأمر والنهي أو الحلال والحرام، بدلاً من

(1) أبو تراب النخشبي، السابق، ص149.



(2) **قوت القلوب**، ج2، ص326-338.

(3) إبراهيم بن شيبان القرميسيني، **طبقات الصوفية**، ص403.

(4) **التستري**، ص332.

اللغة الشرعية. تربة المعاصي الأمل. وبذورها الحرص، وماؤها الجهل، وصاحبها الشقي المصر[1]. فالأمل يجعل الإنسان يرغب أكثر مما يستطيع، والحرص على أخذ الأكثر دون الأمل عن جهل وإصرار. والأمل أصل كل مصيبة لأنه يدفع الرغبات إلى أقصى حد وما يتجاوز كل حد. أصل المعصية جهل الحال ثم نسيانه ثم الإصرار عليه أي العمل فوق القدرة ثم نسيان القدرة ثم الإصرار على العمل. أشد المعاصي حديث النفس. فالمعصية تبدأ في الداخل قبل أن تتحقق في الخارج. هو الدافع عليها، والباعث إليها، والنية فيها. وأدنى معصية مع طلب الزيادة منع للمعرفة. وكل طاعة مدعاة تمنع المزيد ولا تمنع العقوبة. وآخر المعاصي عمل الطاعات بالجهل وعمل المعاصي بالجهل[2]. وإذا كان حراما طاعة الله بالجهل فكيف بالمعصية؟[3]. وأشد معصية وأصل كل المعاصي نسيان الرب والجهل به. والصلاة مع النسيان معصية في حين أن الذِكر جلوساً دون صلاة وصوم طاعة. الذكر تمسك بالإيمان وحذر من العدو. وعمل الطاعات على أقتر وجه، والنظر إليها على أقتر وجه[4]. تربة الطاعة المعرفة. وبذورها اليقين، وماؤها العلم، وصاحبها السعيد المفوض[5].

والمعصية تمنع الحسنة، ولا تأتي الحسنة إلا بعد التخلي عن المعصية. وهو تشدد. فهناك قانون الموازنة والتكفير عند المعتزلة والإلغاء المتبادل بينهما. واعتبار المعاصي أكثر من الطاعات نظرية سوداوية للعالم، وكأن الفطرة شريرة وليست خيِّرة. ومعصية واحدة تُضاعف إلى عشر مع أن العكس هو الصحيح أن الحسنة بعشر أمثالها والمعصية بواحدة. وكل ذنب لا يُتاب منه يجرُّ إلى ذنب آخر. وكل حسنة تؤدي إلى حسنة أخرى، ويتوب العقل من التقصير في توالي الحسنات. العاقل يعترف بذنبه ويحس بذنب غيره. والكريم يعطي قبل السؤال فكيف يبخل بعد السؤال؟ ويعذر قبل الاعتذار فكيف يحقد بعده؟ ويعفو قبل الاتساع فكيف يطمع بعد الازدراء؟[6]. فالطبيعة تصحح نفسها بنفسها.

---

(1) السابق، ص203.
(2) أحمد بن عاصم الأنطاكي، **طبقات الصوفية**، ص138.
(3) **التستري**، ص253.
(4) شاه الكرماني، **طبقات الصوفية**، ص193.
(5) **التستري**، ص219.
(6) **التستري**، ص313.

والموت مع الإصرار على الذنب فلو كان إيمانه شعرة واحدة قسمت على كل كافر ومنافق ومشرك لكان لهم الرجا بالخروج من النار والدخول إلى الجنة. فالإصرار على الذنب يذهب الإيمان. ولا يعادله كفر الإنفاق ولا شرك[1]. والجري على الذنوب يؤدي إلى الندم.

وكل حلال يأخذه العاصي فهو حرام عليه لأنه قد يستعين به على المعاصي. ويُعبد الله بثوابه، ويُعصى بعقابه. وهو الموقف الأشعري وليس الاعتزالي في الحسن والقبح العقليين أو الصوفي عند رابعة.

وقد أخطأ آدم نسيان عمد وليس نسيان خطأ. خانته عزيمته. ومارس حرية الاختيار وأتى بفعل حر. والإصرار والعمد أكثر من الخطأ. والظالم تعجل له العقوبة إن لم يدع عليه، وتؤجل إلى الآخرة إن دعي عليه. أما من يرتكب الذنوب وليس عليه مظلمة لأحد فإنه يرجو الله العفو[2].

والاستغفار في الحال صدق، متصل بالعرش. أما الاستغفار من الإيمان فيؤدي إلى الهلاك. والاستغفار عند التقصير من علامات المحبة مثل الشكر عند النعمة. وإضعاف الذات هروبا من المعصية هو إضعاف لها في إتيان الإحسان[3].

وعدم المعصية مقدَّم على الطاعة كما أن درء المفاسد مقدَّمٌ على جلب الصالح[4]. وعافية اليوم عدم عصيان الله. فالطاعة قوة، والمعصية ضعف. الطاعة صحة، والمعصية مرض[5]. وأفضل زهد فضل قوة لطاعة الله[6]. فهل الضعف أفضل من القوة؟ وأيهما أفضل الزهد عن ضعف أم عن قوة؟ والعاصي يريد الكفر كما أن الحُمِّي يريد الموت. والمعاصي أفعال، والكفر إيمان. والتوحيد بين العصيان والكفر موقف خارجي متشدد وهو تكفير العصاة دون منزلة بين

(1) السابق، ص287.
(2) السابق، ص219-220.
(3) «ولا يوجد في القيامة أحد أعبد ولا أكثر عملا ممن عمل في نفسه ليضعفها ويسقط عنها فضل القوة إلا ما يؤدى به الفرض مخافة أن يعصى اللّه بهذه القوة التي أعطت للطاعات». السابق، ص221.
(4) بشر الحافي، **طبقات الصوفية**، ص45.
(5) أحمد أبي الحواري، السابق، ص101.
(6) **التستري**، ص221-222.

المنزلين[1]. ولا يصر المؤمن على أصل إيمانه لأن احتمال العصيان وارد، في حين يمكن الإصرار في العقل لأنه حكم نظري خالص[2]. وللطاعة ثلاثة شروط: الخوف والرجاء والحب. فهي طاعة قائمة على جدل الخوف والرجاء، والإحجام والإقدام بدافع المحبة. والمعصية لها ثلاثة دوافع: الكبر والحرص والحسد. الكبر هو الغرور، والحرص هو التكالب على الدنيا، والحسد تمنّي ما في أيدي الآخرين[3].

وإذا أراد الإنسان أن يعصي الله فكيف يختار موقعاً لا يراه فيه وهو يرى كل شيء ولا تخفى عليه خائنة الأعين ولا ما يكن في الصدور؟[4]. وكلما ارتفعت منزلة القلب كانت العقوبة إليه أسرع. فعلى قدر أهل العزائم تؤتى العزائم. السرور بالمعصية بعد الظفر بها أشر من مباشرتها لأن الأولى تتضمن فعل القلب، والثانية فعل الجوارح[5].

يقوم البر والفاجر بأعمال البر. ولا يجتنب المعاصي إلا الصدّيق[6]. فالسلب أصعب من الإيجاب. والنفي يتطلب جهداً أكثر من الإثبات. والمبادرة إلى الطاعات من علامات التوفيق. والتقاعد عن المخالفات من علامات حسن الرعاية. ومراعاة الأسرار من علامات التيقظ. وإظهار الدعاوى من رعونات البشرية. ومن لم يصحح مبادئ إرادته لا يسلم في منتهى عواقبه. المبادرة فعل وليس انتظار الأوامر لتنقيتها وعدم التخلف عنها. فالحياة إرادة. أما الدعاوى فهي حق حرية الفكر. وتحتاج إلى برهان[7]. من علامات السعادة على العبد تيسير الطاعة عليه، وموافقة السنَّة في أفعاله، وصحبته لأهل الصلاح، وحسن خلقه مع الإخوان، وبذل معروفه للخلق، واهتمامه للمسلمين، ومراعاته لأوقاته[8]. ومن علامات السعادة ضعف يمنع

---

(1) أبو حفص النيسابوري، السابق، ص116.
(2) **التستري**، ص299.
(3) حاتم الأصم، **طبقات الصوفية**، ص95-97.
(4) أحمد بن أبي الحواري، السابق، ص101.
(5) منصور بن عمار، السابق، ص134.
(6) **التستري**، السابق، ص209.
(7) علي بن سهل الأصفهاني، السابق، ص234.
(8) أبو علي الجوزجاني، السابق، ص247.

المعاصي، ويمنع النفس من تحقيق مناها، وانتظار ملك الموت، وكأن السعادة في كبت تحقيق الرغبات وإماتة النفس. والشقي من أظهر ما كتم الله عليه من معاصيه. ولماذا الكتمان؟ وأسوأ عبد من عصى الله بقلبه وجوارحه واعتذر إليه بلسانه من غير رجوع عما سلف؟[1].

مطالعة الأعواض على الطاعات نسيان للفضل. فنسيان الطاعة لا تعويض له[2]. وهو أخذ بالعزيمة دون الرخصة. وكل من أقام على معصية لا تصعد إلى الله حسنة إلا ممزوجة بالهوى. فالأهواء سبب المعاصي. ولما كانت الأهواء جزءا من نسيج الوجود البشري فالإنسان خطاء. والعاصي جيفة لأنه بلا روح. التوحيد الطاعة، وهو التوحيد العملي. والطاعة أكل الحلال، وهي الطاعة الشرعية[3]. وكل من كان مقيماً على أدنى معصية ويتركها إلى الغد فإنه همه لا يضيع. وفي جمع الهمم أمن الروح. والنعيم بالجد والاجتهاد في الجوع والعطش والعري[4]. فترك المعصية في الحال شرط التوبة.

من شغل جوارحه في غير طاعة الله حرم الورع أي الطاعة القلبية[5]. لا تسهل الطاعة إلا بعد الطهارة. أولها المخالفة المكابدة ثم الطهارة ثم السهولة ثم الراحة ثم المذاق ثم الحلول ثم اللذة ثم الشهوة. فالطاعة ليست فعلاً واحداً حركياً بسيطاً بل هي عدة أفعال متداخلة بين الداخل والخارج. والطهارة أساساً طهارة الروح وليست طهارة البدن بالماء ثم المعاناة ثم الراحة بعدها ثم تذوقها ثم حلول السكينة ثم السعادة بها ثم الإحساس برغبة الروح. والطلب من الدنيا لمن كان عند الله فهو طاعة. وإن كان للنفس فهي معصية. ولماذا لا يكون طلب شيء للنفس طاعة؟[6]. والعاصي يعيش في رحمة الحلم، والمطيع يعيش في رحمة القرب[7]. أهل المعصية في الحلم، وغاية الطاعة القرب.

---

(1) أبو عبد اللّه السجزي، السابق، ص255.
(2) أبو بكر الواسطي، السابق، ص306.
(3) **التستري**، ص287.
(4) السابق، ص332.
(5) السابق، ص344.
(6) السابق، ص359.
(7) السابق، ص377.

ليس كل من عمل بطاعة الله حبيب الله بل من اجتنب نواهيه[1]. فالنهي أولى من الأمر، والسلب أولى من الإيجاب. والخلق من الله في مقاماتهم على قدر قربهم في فرائضهم. والقرب في الفرائض على قدر التقويم في الأداء. ولا تصح معرفة الحال حتى يحصل العلم في الحال، متقيا في الحال، متوكلا في الحال، وإلا فهو حال آثم. والضعف الذي تباين به المعاصي هما الحول والقوة. فالقوة في المعصية ضعف[2]. وكل فعل لا يكون لا حول ولا قوة إلا بالله فإن الله يتولاه. وكل فعل لا يكون معه استثناء بالمشيئة الإلهية لا يثاب عليه حتى ولو كان خيرا. فالفعل ليس حسنا في ذاته كما هو الحال عند الأشاعرة. وكل معصية لا يكون عليها استرجاع أي توبة تمحى يوم القيامة والطاعة أولا ترك المعصية وبعد ذلك تكون خدمة الله أي طاعة في ذاتها[3].

إذا أطاع العبد أطاع الرب على مساوئ عمله فتشاغل به دون خلقه. فالعمل وسيلة لله، والطاعة أداة للرب[4]. وإذا أطاع العبد الرب أطاعه على مبادئ عمله فاشتعل بها دون الخلق[5]. فالإنسان وما يعمل. وطاعة الله وخدمته لا تغير من وضع عبد تجاه سيده مع أنه لا يمكن خدمة سيدين في نفس الوقت كما قال المسيح[6]. وقيام العبد ليلا إذا ما نودي في السحر[7].

وأدنى الطاعة أداء حقوق الله بالسنَّة[8]. العمل اقتداء بها. وأداء حق الله يترع الروح. والاستعانة بالله على أداء حقه[9]. ولا يوجد في القلب شيء أفضل وأعظم

(1) السابق، ص153.
(2) السابق، ص234.
(3) السابق، ص291.
(4) «أي أخي! أعلمت أن العبد إذا عمل بطاعة اللّه أطلعه الجبار على مساوئ عمله فتشاغل بها دون خلقه». **رابعة**، ص129.
(5) «إذا عمل عبد بطاعة اللّه أطلعه على مبادئ عمله فاشتغل بها دون الخلق». السابق، ص139-140، 177.
(6) «إلٰهي! أنت تعرف أن قلبي يتمنى طاعتك. ونور عيني في خدمة عتبتك. ولو كان الأمر بيدي لما توقفت ساعة عن خدمتك، لكنك تركتني تحت رحمة هذا المخلوق». السابق، ص144.
(7) «إنما أقوم إذا نوديت». السابق، ص140, 166، 177، 179.
(8) **التستري**، ص67، 103.
(9) السابق، ص68.

من النظر إلى الله والاستماع منه والكلام معه[1]. وأعظم معصية جر الحديث[2]. ولا يرى فضل الشرع على النفس إلا إذا انشغل الإنسان بعيبه عن عيوب الناس. فإصلاح النفس قبل إصلاح الآخر ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾. وفي المثل «فاقد الشيء لا يعطيه»[3]. والاستقامة في طاعة الله تؤدي إلى إطلاق الروح نحو معرفة الله[4]. وما لم تخرج الطاعة بالهوى شوهدت الآخرة بإخلاص، ووقعت الكرامات[5].

وهناك عهد الطاعة بين الإنسان والله، عدم تضيع الفرص[6]. وهي طاعة تتجاوز النفع والضرر. الإنسان مطالب للطاعة لله، ومن نفسه بالشهوة، ومن الشيطان بالمعصية. فالإنسان موزع بين ثلاث جهات الله والشيطان والنفس[7]. وقد أيده الله بالوحي والنبوة لتذكيره، وليس المؤذنين والمكبرين بنداء الله أكبر، لتذكيره بسيده فيخاف نفسه والشيطان ويتغلب عليهما لأن من بادر إلى باب الله ودخل في حرزه صار غالباً لا مغلوباً. فالله مع الإنسان والنفس والشيطان ضده. وهو افتراض أن النفس شريرة وأن الشيطان عاصٍ غاوٍ مع أنه يرفض بإرادة حرة، ويُعمل العقل بالقياس. وهل الوقوف على باب السيد حرية أم عبودية؟

تكبر المطيعين على العصاة بطاعتهم شر من معاصيهم وأضر عليهم[8]. فلا توجد معصية أعظم من الكبر. العاصي خير من المدعي لأن العاصي يطلب طريق توبته. والمدعي يتخبط في حبال دعواه[9].

6 ـ العبادة والمعرفة

ومن عرف الله لا يعبده. فالعبادة طريق إلى المعرفة. ومن عرف لا

(1) السابق، ص70.
(2) السابق، ص72.
(3) السابق، ص96.
(4) السابق، ص164.
(5) السابق، ص286.
(6) **المخاطبات**، ص215.
(7) أبو إسحق إبراهيم بن المولد، **طبقات الصوفية**، ص411-412.
(8) أبو جعفر بن سنان، السابق، ص333.
(9) أبو عثمان المغربي، السابق، ص480.

يعبد[1]. عبادة العارف حفظ نفسه مع معروفه لأنهم تركوا كل شيء[2]. وبالمعرفة يقدر العارف على كل شيء بمشيئته. والعارف ييأس بالمعروف. لا ينطق إلا عنده. ولا يفتح عينيه إلا عند لقائه[3]. ولا يرفع رأسه إلا عند النفخ في الصور أنسا به[4]. وإذا عرف العارف يصمت. وإذا أسر فإنه يسكن في معرفته[5]. وإذا عرفه العارف هل يهرب من الخلق أم يعود إليهم لإكمالهم؟[6]. ولا تجوز الصلاة خلف من لا يعلم أن الله هو الرزاق[7]. والإنسان مسلوب الإخلاص في العبادة. لا يقتدي بالسادة القادة. يقظ في الدنيا وعليم بالآخرة[8].

والعبادة ثمرة العلم، وسبيل السعادة والطريق إلى الجنة وعر صعب مهلك. والعبد ضعيف، والزمان صعب، والعمر قصير، والأجل قريب، والسفر بعيد. وعز من يصل إلى نهاية الطريق إلا من اصطفاهم الله[9].

وكما أن العبادة يوماً بيوم فكذلك الرزق يوماً بيوم. وكما يرضى الله بالتقسيط يرضى العبد أيضاً بالتقسيط[10]. وإرضاء الله ليس بالعبادة بل المحبة. صلاة العبادة

---

(1) «عجبت ممن عرف اللّه كيف يعبده». **شطحات**، ص109، 165.

(2) السابق، ص130.

(3) «ما أفرح العارف بقدر معرفته إذا أيقن أنه قادر على كل شيء. فيرى نفسه من قدرته محركاً بمشيئته. لا يبالي بأي تحريك يحركها بعد ما عرف أنه عليها بقدرته ولا يخرج من العبودية في القدرة». السابق، ص130.

(4) «إذا سكت العارف يريد أن لا ينطق إلا عند معروفه. وإذا غمض يريد أن لا يفتح إلا عند لقائه. وإذا وضع رأسه على ركبته يريد أن لا ينتفخ في الصور من شدة الأنس به». السابق، ص131.

(5) «إذا عرفوا أسروا. وإذا أسروا سكنوا في معرفته». السابق، ص131.

(6) «إذا علموه هربوا الخلق». السابق، ص131.

(7) «أصبر حتى اعيد الصلاة التي صليت خلفك فإنه لا تجوز الصلاة خلف من لا يعرف الرزاق». السابق، ص148.

(8) «لأنك مسلوب الإخلاص في العبادة، قليل النشاط في الاقتداء بالسادة والقادة. تتيقظ في أمور الدنيا، وتحلم بأحوال الدار الأخرى». **الإشارات**، ص269.

(9) «العبادة ثمرة العلم، وفائدة العمر، وحاصل العبد، وبضاعة الأولياء، وطريق الأقوياء، وقسم الإغراء، ومقصد ذوي الهمة، وشعار الكرم، وحرفة الرجال، واختيار أولي الأبصار». **الولاية**، ص264-265.

(10) **التستري**، ص162.

إيمان، وعشق المحبين كفر[1]. العبادة فعل الجاهل. أما المحب فإنه لا يعبد ما حد[2]. العبادة حجب عن المعبود. ورؤية المعبود حجب عن العبادة[3]. الحق هو المقصود بالعبادات، والمصدر إليه بالطاعات لا يدرك بالصفات بل بالجمع في الدرجات[4]. ويقف الإنسان أمام الله بعمله وعلمه وبقصده وقلبه وليس بعبادته[5]. والأمر والنهي غطاء وعلم ما على الإنسان. وما عليه غطاء كذلك. ورحمة الله سبقت كل ما في الغطاء[6]. ومفتاح العبادة الفكرة[7]. فالعبادة عالم مغلق. لا تُري الشريعة إلا أشكالها الخارجية دون النظر إلى ما في داخلها. والعبادة بالوحى، خوفاً من الله وليس مجرد أداء الشعائر[8]. العبادة بالحال، والمعرفة في الحال. الأوّلي ظاهر، والثاني باطن[9]. ويُستعان بالعبادة بالله بعد معرفته. وهي عبادة تجمع بين الظاهر والباطن. ويُستعان بالعبادة بمعرفة الله.

العبادة حرفة. حوانيتها الخلوة، ورأس مالها الاجتهاد بالسنَّة، وربحها الجنة[10]. ليست العبادة حركات وأشكالاً بل عملية ربحية، ولا تذاق حلاوة العبادة إلا إذا وضعت بين العابد والشهوات حائطاً من جديد[11].

---

(1) «ألا ترى أني أصلي أراضيه من ظن أنه يرضيه بالخدمة فقد جعل لرضاه ثمناً».
إذا بلغ الصب الكمال من الفتى ويذهل عن وصل الحبيب من السكر
فيشهد صدقا حيث أشهده الهوى بأن صلاة العاشقين من الكفر
أخبار، ص37.

(2) هذه صيحة الجاهل ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾. ومن ود المحب المحق ألا يعبد ما حد، السابق، ص39.

(3) «من لاحظ الأعمال حجب عن المعمول له. ومن لاحظ المعمول له حجب عن رؤية الأعمال». السابق، ص58. **الولاية**، ص245.

(4) «الحق هو المقصود إليه بالعبادات، والمحمود إليه بالطاعات. لا يشهد بغيره ولا يدرك بسواه. بروائح مراعاته تقوم الصفات. وبالجمع إليه تدرك الدرجات». السابق، ص59.

(5) **المخاطبات**، ص240.

(6) السابق، ص270.

(7) ذو النون، **طبقات الصوفية**، ص25.

(8) **التستري**، ص164.

(9) البسطامي، **طبقات الصوفية**، ص69-70.

(10) يحيى بن معاذ، السابق، ص109.

(11) بشر الحافي، السابق، ص43.

ولا تكون عبادة العبد للرب سبباً في أن يكون العبد معبوداً كما هو الحال في **الشطحات**[1]. هذا حكم العقل. أما الواقع النفسي فمن تركيز العبد إلى الرب يحدث التبادل بين العابد والمعبود. فالشطحة بقرآن حالة نفسية أصيلة مثل حكم العقل الشرعي. والرعاية والنفوس يصاحبان للإنسان من العبادة إلى الموت أي العبادة الباطنية. العبادات إلى طلب الصفح والعفو لأن تقصيرها أقرب إلى طلب الأعواض والجزاء منها[2]. فالعبادات ليست تجارة سلباً أم إيجاباً.

وخير العبادة الإخلاص، وما سواه باطل أي الظواهر الخارجية والحركات والأشكال والرسول ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾. ولا تصح عبادة ولا إخلاص عمل مع الجزع من الجوع والعري والفاقة والذل! فيمَ يجزع الإنسان إذن؟ وخير عبادة اتفاق السر والعلن. دون ما حاجة إلى عبادة أخرى وسؤال الله طهارة السر. واتفاق السر والعلن هو الجهر بالحق، وإعلان الشهادة فالساكت عن الحق شيطان أخرس. ومن عبد الله في سره ورثِ اليقين. ومن عبده بصدق اللسان لم يستقر قلبه دون العرش. ومن عبد الله بالإنصاف كانت السموات والأرض والعرض والكرسي في ميزانه يوم القيامة فالعبادة تعطي اليقين المعرفي، وترفع الدرجات في الكون، وتثقل موازين الحسنات يوم القيامة[3].

سر الله التعب والتفرغ له وإسقاط مؤنة الرزق عند العابد ونيل مقام عند الله، وهديٌ لإيثاره له على كل حال، وسلامته من الدنيا، وعدم الاتكال على أحد غيره. وتنفس واحد يذهب بعمل خمسين سنة. التنفس رمز الحياة والقلب النابض والوجود الأصيل الذي لا يرد إلى أحد أجزائه وهو الفعل الشعائري. إذا استقامت الجوارح أطلقت الأرواح. وتحول التصوف من أعمال الأخلاق أي من أعمال الجوارح إلى النفس أي إلى علم بواطن القلوب[4].

والإسراء في العمل بمعرفة قدر الطلب. ومن لقي الله وصح له مثقال ذرة من الضرورة أفضل من جميع العبادات، كلها باختياره. وأعبد الناس في الدنيا

---

(1) أبو حفص النيسابوري، السابق، ص121.

(2) عمرو بن عثمان المكي، السابق، ص203. أبو القاسم النصراباذي، السابق، ص487.

(3) **التستري**، ص299.

(4) السابق، ص292-293.

أشدهم اجتهادا في القيام بالأمر والنهي[1]. فالعبادة في المعاملة. والمعاملة عبادة. والقيام بالأمر والنهي سلوك. لا إقرار بالعبودية إلا وتحته ترك الحرمة. ولا دعوي حمية إلا وتحتها سوء الأدب. والله يعامل الناس على قدر طاقتهم[2]. والعبادة خارج المألوف عند الجمهور عبادة من يزعج ويعجب، ويعشق ويُعشق، يعشق ويتعب[3].

7 ـ أركان الإسلام

ينشأ التصوف نشأة طبيعية من الفقه، من الخارج إلى الداخل، ومن الظاهر على الباطن، ومن أعمال الجوارح إلى أعمال القلوب، ومن الأشكال الخارجية إلى المضمون الداخلي، ومن الفقه إلى الأخلاق. فالتصوف تطور شرعي للفقه بعد أن غلبت عليه الصورية والشكلية، عود إلى الصدق، الصدق مع النفس. يدل على النفاق والرياء أمام الآخرين. ويتمُّ ذلك أيضاً باللجوء إلى الآيات القرآنية والأحاديث النبوية وأقوال الصحابة والتابعين وآثار السلف الصالح، وسلوك الزهاد والعباد والبكائين وأوائل الصوفية. التصوف بهذا المعنى حركة إصلاح، وعدل كفتي الميزان. ويتم التدريب على ذلك بإعادة تأويل أركان الإسلام الخمسة تأويلاً أخلاقياً روحياً باطنياً[4].

والفرق بين الشريعة والحقيقة هو الفرق بين التوحيد بالشفتين وأسرار التوحيد بالقلب، بين الطهارة وأسرار الطهارة، بين الصلاة وأسرار الصلاة، بين الزكاة وأسرار الزكاة، بين الصوم وأسرار الصوم، بين الحج وأسرار الحج[5].

وإذا كان الإسلام هو الظاهر، فالإيمان هو الباطن، والإحسان هو باطن

(1) السابق، ص321.
(2) **أخبار**، ص49.
(3) «حدثوني عن معنى يزعجني ومع إزعاجه يعجبني، وأعشقه ويعشقني، ومع عشقه يتعبني، أمر خارج عن العبادة، وغريب في التعارف ومنكر عند الجمهور». السابق، ص358.
(4) دعائم الإسلام الخمسة التي بُنِيَ عليها، **قوت القلوب**، ج2، ص164–250:
أنـا حـي عـنـد حـي   لـم يـحـاسـبـنـي بـشـيء
الفتوحات، ج1، ص/ 426.
(5) **الإحياء**، ج1، ص130، 151، 215، 237، 246.

الباطن. الأول للعامة، والثاني لخاصة العامة، والثالث لخاصة الخاصة[1]. وإذا كان للإسلام أركان خمسة فللإيمان أركان سبعة: الإيمان بأسماء الله وصفاته، وبكتب الله وأنبيائه، وبالملائكة والشياطين، وبالجنة والنار وخلقهما قبل آدم، وبالبعث بعد الموت، وبجميع أقدار الله خيرها وشرها. وخلاص الإيمان من سبعة: الزندقة، والشرك، والنفاق، والاستكبار، والسحر، والارتداد، والخلاف، وخلاص العمل من سبعة: الكفر والشرك، والنفاق، والوعي، والوعيد، والبدعة، والرياء. ومن يتخلص من الكذب والدعوى والعجب يكون صدِّيقاً[2]. والإيمان أفضل من الإسلام. الإسلام الكلمة، والإيمان العمل، وما بينهما الفسق. وهناك استثناء في الإيمان، وإشفاق من النفاق. والنفاق مقامات. والشرك طبقات. والإيمان يزيد بالصالحات. ويُنقص بالسيِّئات.

والنعمة الإسلام والختم بها، ثم القرآن وبه الفرائض والسنَّة والأحكام[3]. الإسلام هو الإقرار. وهو الظاهر. والإيمان هو الغيب. والإحسان هو التعبد. الإيمان بالله يقين. وليس معه أسباب. إنما الأسباب في الإسلام. الإسلام فعل في العالم. والإيمان يقين نظري. الإسلام محبوب إلى الخلق والإيمان غني عن الخلق. فالإسلام شريعة والإيمان حقيقة[4].

يختلف الناس في الإيمان. ويتفقون في الإسلام وهو الشهادة والإقرار. فالإيمان ذاتي، والإسلام موضوعي. ويتفاضل الأنبياء والرسل والصديقون في الإيمان، ويتساوون في الإسلام. الإيمان أقرب إلى السر، والإسلام أقرب إلى العلانية. والسر لا يصوف[5]. الموت على الإسلام، سؤال ضرورة، إظهار فقر واختيار فرض. الإسلام دين الفطرة، دين التخلي، ودين الواجب[6].

ولماذا يكون الإسلام من التسليم والاستسلام والرضا والقبول دون معارضة؟

---

(1) **قوت القلوب**، جـ2، ص250-282.

(2) **التستري**، ص356.

(3) السابق، ص139.

(4) السابق، ص304-305.

(5) السابق، ص307.

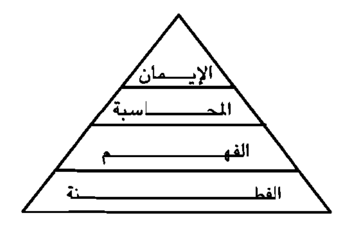
(6) «موقف الإسلام»، **المواقف**، ص200-201.

وقد عارض إبليس الله ورفض الامتثال لأمره بالسجود لآدم الذي خلق من طين وإبليس من نار. يقول إقبال: سألني الله يوما هل يعجبك العالم؟ فرد إقبال لا. فقال الله: إذن غيره. فلم يعترض الله على اعتراض إقبال وتحداه، وطلب منه أن يخلق عالما أفضل. ولماذا لا يطالب الإنسان بحقه؟ وكيف يكون السلوك الأمثل الإتباع وليس الإبداع؟ كيف لا يسمع الإنسان قوله، ويسلك طريقه، ويفكر في غيره، ويقيس الأشباه بالأشباه والنظائر بالنظائر؟ إذا كان علمه قاصرا اليوم فإنه أكمل في الغد نظرا لتقدم العلم جيلا وراء جيل، وعصرا بعد عصر؟ وهل المطلوب التسليم ثم الانصراف وعدم الاعتراض لأن الاعتراض تضاد مع أن التضاد هو حركة التاريخ، وهو الدفع والتدافع؟[1]. وكيف يكون التسليم مقام القوة؟[2]. قوة القوي أن يسلم ولا ينصرف، وضعف القوي أن يسلم وينصرف[3].

طبع الإيمان معاينة الغيب مكاشفة اليقين ومشاهدة الرب[4]. فالإيمان ملكة معرفية تتجاوز الشهادة والظن والعالم. الإيمان أصل كل شيء ثم العمل ثم المحاسبة ثم الفهم ثم الفطنة. فالإيمان والعمل قرينان، والمحاسبة والفهم والفطنة لحسن الأداء والمراجعة والنقد الذاتي[5].

والإصلاح بقية الكمال. يبدأ الإقرار ثم التوحيد ثم الإسلام ثم الإيمان ثم

(1) «سلم لي وانصرف. إنك إن لم تنصرف تعترض. إنك إن تعترض تضاد». السابق، ص201.
(2) «تسلم لي وتنصرف وهو مقام القوة». السابق، ص201.
(3) «أن تسلم ما أحكم لك، وما أحكم عليك... لا تعارضني برأيك، ولا تطلب على حقي عليك دليلاً من قبل نفسك فإن نفسك لا تدلك على حقي أبداً، ولا تلتزم حقي طوعاً... تتبع ولا تبتدع... تسمع قولي وتسلك طريقي... لا تسمع قولك، ولا تسلك طريقك». السابق، ص200.
(4) **التستري**، ص359.
(5) السابق، ص367.

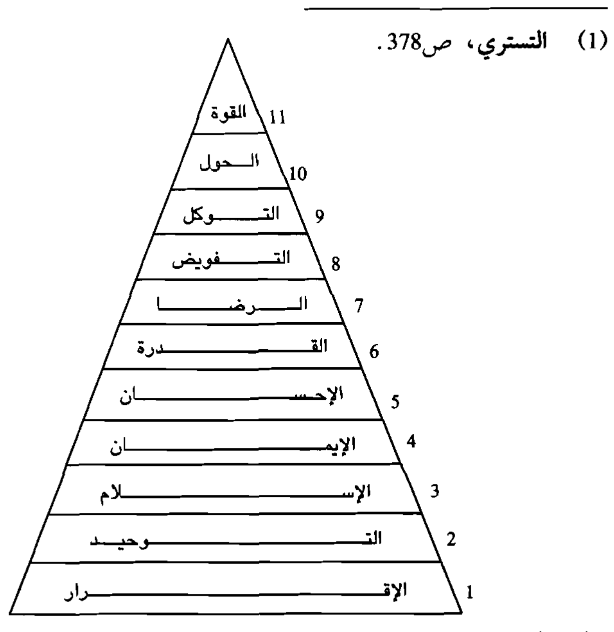


الإحسان ثم القدرة ثم الرضا ثم التعويض ثم التوكل ثم الحول ثم القوة. فالإيمان عمليات متدرجة من اللسان إلى القلب إلى الجوارح إلى الإرادة(1).

وفي شرائع الإيمان يأتي الإيجاب قبل السلب، والوجود قبل العدم. فالإنكار بعد المعرفة، والجحود بعد الإقرار، والكفر بعد الإسلام، والنفاق بعد الإيمان، والبدعة بعد السنَّة، والوعيد بعد الوعد، والرياء بعد الإخلاص(2). وكفر أهل الهمة أسلم من إيمان أهل المنة(3).

أ ـ التوحيد. التوحيد وهو أول ركن من أركان الإسلام، حضور الله الدائم بالقلب، وليس على طريقة التكليف في نظرية الذات والصفات والأفعال، واختلاف الفرق الإسلامية فيها بين التعطيل والتجسيم، بين التنزيه والتشبيه. والشهادة الثانية أن الإسلام خاتم الرسالات، وأن الرسول خاتم النبيين. ومحبة الرسول جزء من الشهادة الثانية، وهي الإضافة الصوفية. الشهادة الأولى توحيد الموقنين بالقلب وليس بحجم العقول والشكوك والظنون. فالله ليس كمثله شيء، لا أول له ولا نهاية له، ولا مكان ولا زمان له. لا وصف لله. يتجلى بصفات الجلال

(1) **التستري**، ص378.



(2) السابق، ص203.

(3) البسطامي، **طبقات الصوفية**، ص71.

والجمال[1]. ويتمُّ التعبير عنه باللغة الإنشائية وليس باللغة الخبرية. صفاته قديمة، زائدة على الذات. وهي الأشعرية الضاربة في الأسس النظرية للتصوف وليست حادثة زائدة على الذات كما تقول المعتزلة والجهمية. وتؤخذ من النقل دون اعتراض: أخبار الصفات، وأحوال العبادات، وفضائل الأصحاب وفضائل الأعمال. ومعرفة لا إله إلا الله هي الإيمان[2]. ويثبت التوحيد بالنظر العقلي وعن علم.

ب ـ الطهارة. وتنفصل الطهارة عن الصلاة باعتبارها أصل الأركان كلها. والانتقال فيها من طهارة البدن إلى طهارة الروح، من طهارة الجسد إلى طهارة القلب. وللطهارة أربع مراتب: تطهير الظاهر عن الأحداث والأخباث والفضلات، وتطهير الجوارح عن الجرائم والآثام، تطهير القلب عن الأخلاق المذمومة والرذائل الممقوتة، وتطهير السر عما سوى الله، وهي طهارة الأنبياء والصديقين. الطهارة صفة تنزيه، حسية ومعنوية، طهارة أعضاء وطهارة قلب، وطهارة نفس عن سفاسف الأخلاق، وطهارة عقل من دنس الأفكار، وطهارة سر من النظر إلى الأغيار[3]. والمضمضة طهارة اللسان من الكذب وصدقه والجهر بالقول الحسن[4]. وغسل الوجه أي المراقبة والحياء. وغسل اليدين الجود والسخاء والإيثار والهبات وأداء الأمانات[5].

الطهارة نصف العمل غايتها انكشاف السر لله. ومعرفة الله لا تتمُّ إلا بها.

---

(1) **قوت القلوب**، جـ2، ص164-180.

(2) «معرفة لا إله إلا الله محمد رسول الله». **الفتوحات**، جـ1، ص325-329.

(3) **الإحياء**، ص133، آداب الطهارة ومقدمتها، **عوارف المعارف**، جـ3، ص139-151. في أسرار الطهارة، **الفتوحات**، جـ1، ص329.

فكم طاهر لم يتصف بطهارة ... إذا جانب البحر اللدني واحتمى...
ولو غاص في البحر الأجاج حياته ... ولم يغن في بحر الحقيقة مازكا...
إذا صح غسل الوجه صح حياؤه ... وصح له رفع المستور متى يشا...
إذا مضمض الإنسان فاه ولم يكن ... بريئا من الدعوي وفيا بما ادعى...
فهذا طهور العارفين فإن تكن ... من أحزابهم تحظى بتقريب مصطفي
إذا كان هذا ظاهر الأمر فالذي ... توارى عن الأبصار أعظم منشأ

السابق، ص329-330.

(4) السابق، ص330.

(5) **الإحياء**، ص338-339.

ولكل ركن في الوضوء دلالة. فمسح الرأس العلو والارتفاع والنظر العقلي. فالرأس أعلى عضو في الجسد. والمسح على العمامة فرع لأصل. ومسح الأذنين لسماع القول الحسن. وغسل الرجلين لعدم السعي في الباطل. وترتيب أفعال الوضوء طبقا للإحساس في اللحظة. والمسح على الخفين تجاوز العجز عن فعل شيء إلى فعل شيء بديل. والخفان هما النشأتان، نشأة الجسم ونشأة الروح، وهي دلالة بعيدة. والخف من الخفاء حتى لو كان الخف أو الجورب مرقعا. ومكان المسح العلوي يدل على التنزيه. والمسح فوق الجورب يدل على صفة الحجاب. والسؤال هو: ألا يقضي ذلك على رمزية الشعائر. أو على موضوعية الشريعة[1].

الماء حياة القلوب. يطهر الإنسان من الجهل. ويبرد الجسم من حرارة الغضب. الماء النجس الذي لم تتغير أوصافه هو العلم الإلٰهي الذي يقتضي التنزيه بالرغم مما خلطه من تشبيه. والماء إذا خالطه شيء طاهر فهو العلم الإلهي القائم على العقل. والماء الطاهر على الإطلاق هو التوحيد الطاهر على الإطلاق. وطهارة إسار المسلمين والبهيمة فهو الإيمان، عين الحياة. الطهارة بالإسبار لأن الرجل قوام على المرأة. والوضوء بنبيذ التمر حكم عقلي وإن لم يكن حكماً شرعياً[2].

ونواقض الوضوء بما يخرج من الجسد هو ما يخرج من اللسان وهو ما قاله المسيح: «ليس ما يدنس الإنسان هو ما يدخل في جوفه فقط بل ما يخرج منه». ولها أيضا دلالاتها. نواقض الوضوء غفلة القلب، هي نواقض لطهارة القلب لمعرفة التوحيد وأسمائه. ومنها لمس النساء ويعني شهوة القلب. ولمس الذكر لأنه مشاركة الله في الإيجاد في فعل ﴿كُن فَيَكُونُ﴾. ومنها لمس النار إشارة إلى نار جهنم وهو بعيد الدلالة. ومنها حمل الميت لأن الوضوء هو الحياة. وطهارة الغسل لطهارة النفس ومنها زوال العقل لأن العقل أساس الشرع. طهارة القلب شرط وجوب وليس شرط صحة لأنها مناجاة لله. وطهارة صلاة الجنازة لأنها طهارة الإيمان. وطهارة الجنب لإحضار النية. والوضوء للطواف لأنه منسوب إلى العرش. والوضوء لقراءة القرآن لأنه كلام الله ونيابة عنه[3].

---

(1) وإذا كان حكم اللّه لا حكم العقل فكيف يتحول إلى حكم الباطن؟. **الفتوحات**، جـ1، ص340-351.

(2) السابق، جـ1، ص350-354.

(3) **الفتوحات**، جـ1، ص354-359.

والاغتسال من المني الخارج على غير وجه اللذة لأن الجنابة غربة، والغربة بُعد عن الوطن، ووطن الإنسان غير دينه. فإذا دخل الغريب الربوبية استوفى مقامها واستعد لتلقي اللذة الكبرى. الاغتسال من الماء دون احتلام لاستحضار الأحوال التي لا تحل إلا في طهارة. والغسل بالتقاء الختانين دون إنزال لأن الإنسان داخل في حدود الربوبية والاتحاد مع الله[1]. والغسل من الجنابة على وجه اللذة هو غسل القلب كي يتلقى مائةً وخمسين حالة ومقاماً على قلوب العوام والخواص[2]. وهو ما يفوق التصور والخيال. وتحميل الشيء الصغير دلالات كبرى.

والتدلك باليد في الغسل هو الاستقصاء في طهارة الباطن. والنية في الغسل لأنها روح العمل. والطهر من الوطء هو الاقتراب من المحبوب وخروج المني لذة

(1) السابق، جا، ص362-364.

(2) يصنِّفها ابن عربي في عشرة فصول وفي كل منها خمس عشرة حالة:

1 - الجبروت، والألوهية، والعزة والمهيمنية، والإيمان، والقيام، والشوق والولاء، والظلمة، والسحر، وعموم الرحمة وخصوصها، والسلامة، والطهارة، والملك.

2 - الكبرياء، والستر، والصورة، والخلق، والبراءة، والإخلاص، والإقرار، والبراء، والنصيحة، والحب، والقهر، والهبة، والرزق، والفتوح، والعلم.

3 - البسط، والقبض، والاعزاز، ورفع الدرج، وخفض الميزان، والشرك، والإنصاف، والطاعة، والرضى، والقناعة، والإذلال، والأصوات والرؤية، والقضاء، والعدالة.

4 - اللطف، والاختبار، ورفع المستور، والعظمة، والحلم، والشكر، والاعتلاء، والمحافظة، والتقدير، والزيادة، والحدود، والهوى، والمنازعة، والولاية، والتمليك.

5 - إدخال السرور والقطيعة، والخداع، والاستدراج، والحسبان، والجلالة، والكرم، والمراقبة، والإجابة، والاتساع، والحكمة، والوداد، والبعث، والشرف.

6 - الشهادة، والحق المحلوف به، والوكالة، والقوة، والصلابة في كل شيء، والنصرة، والثناء، والإحصاء، والابتداء، والإعادة، والصدقة،والقول، والعفو، والأمر والنهي.

7 - الأخلاق، والمال، والجاه، والزيادة، والإيمان، والحياة، والموت، والإحياء، والقيومية، والوجدان، والاستشراف، والوحدة، والصمداني، والقدرة، والاقتدار.

8 - التقديم، والتأخير، والدار الأولى والآخرة، والاختفاء، وأشالة الحب، و الإحسان، والرجوع، والانتقام والصفح، والحجر، والنكاح، والرياء، والاختلاق، والبهت.

9 - الرأفة، وملك الملك، والكرامات، والأمال، والتعالي، والمغالطة، والجمع، والاستغناء، والتصدي، والكفاية،والسخاء،والكذب، والسياسة، والنواميس.

10 - المنع، والهداية، والانتفاع، والضرر، والثورة، والابتداع، والبقاء، والتوارث، والرشد، والإيناس، والأذى، والامتنان، والحماسة، والمقاومة، والجاسوس.

الفتوحات، جا، ص363-364.

إلٰهية. ودخول الجنب المسجد هو المعرفة[1]. وهناك استرسال في أنواع الجنابة ودلالاتها التفصيلية. فالجنابة هي الغربة. والحوض التوبة، والحمل هو الخلق، والاستحاضة الكذب، والتيمم القصد إلى الأرض، والسفر بالفكر والروح، والمرض غياب الفطرة والنظر، والماء هو العلم والحياة.

طهارة البدن ظاهر تقع مرة أو عدة مرات في الشهر مثل الطهارة من الحيض، وطهارة النفس باطن قد لا يقع في حياة الإنسان إلا مرة واحدة[2]. وكلما أراد الصوفي ذكر الله تمضمض وغسل لسانه[3].

وموضوع «دخول الحمَّام» أُدخل في باب الطهارة في العبادات والفرائض: ستر العورة، وغض البصر، وألا يباشر الجسد غير اليد. ويعني الأمر بالمعروف والنوافل: الطهارة من أجل الدين، إعطاء الأجر لصاحب الحمام، والاقتصاد في الماء. تذكُّر النار بالماء الساخن. ويكره دخول الحمام عند الغروب وبين العشاءَيْن. ويستحب أهل الطب البول قائما في الحمام بعد الإتيان وقبل غسل العورة. وأمر بعض أطباء العرب بالنورة في كل شهر والاستحداء كل أربعين يوماً. ونومة صيف بعد الحمام مقابل شربة دواء. ولا يحل لمسلمة في الحمَّام أن يأتيها للخدمة ذمية. والسؤال المقابل: هل يجوز للذمية رؤية عورة المسلمة؟[4].

وفي كل خطوة من الوضوء دعوات وهي إضافات خارجية على أفعال البدن وتغطيتها بأدعية اللسان، وليست تحويل أفعال البدن إلى أفعال القلوب[5].

والصوفية هم أهل الخصوص. لهم آدابهم في الوضوء لإحضار القلب في غسل الأعضاء[6]. فحضور القلب في الوضوء قبل حضوره في الصلاة وغياب

---

(1) **الفتوحات**، جـ1، ص364-375.

(2) «إن المرأة تصير كل شهر طاهر. وربما تصير طاهرة في الشهر مرتين. فتغتسل من الحيض. ونحن لا نكاد نصير طاهرين في عمرنا مرة واحدة». **شطحات**، ص86، 204. «إن وقوفك بين يدي الطاهر ينبغي أن يكون طاهراً». السابق، ص125.

(3) «منذ ثلاثين سنة لم أزل كلما أردت أن أذكر اللّه أتمضمض وأغسل لساني إجلالا لله أن أذكره». السابق، ص137، 207.

(4) **قوت القلوب**، جـ2، ص529-533.

(5) «آداب الوضوء وأسراره»، **عوارف المعارف**، جـ3، ص151-121.

(6) «آداب أهل الخصوص والصوفية في الوضوء». السابق، ص162-173.

الوسوسة. وهذه ليست عادات أحدثها الصوفية من المحظورات أو المنكرات[1].

وأحيانا يبدو التصوف حرفياً جمعاً بين الظاهر والباطن مثل ابن عربي، ظاهري في الفقه باطني في التصوف. فلا يجوز التيمم في الحضر. وإذا حضر الماء بطل التيمم[2].

والطهارة ليست إزالة النجس عن البدن بالماء بل الطهارة من الحول والقوة أي إسقاط التدبير[3]. هي أن يطهر العبد من حوله وقوته[4]. ليست طهارة البدن بل التخلي عن الحول والقوة أي سلب الإنسان قوته وتدبيره والأخذ بالأسباب.

وهي طهارة العلم من الجهل، والذكر من النسيان، والطاعة من المعصية. فالطهارة معنوية، طهارة العقل والذاكرة والإرادة أي طهارة الروح[5]. وكل عقوبة طهارة إلا عقوبة القلب فقسوته[6]. الطهارة تطهر وتزيل الذنوب. وعقوبة القلب قسوته لأن القلب رقة وحنان.

النجاسة موت والطهارة حياة. والطهارة طهارة النفوس. والطهارة الفضائل. النجاسة الرذائل. والطهارة الخلق الحميد، الفضائل. ومحل النجاسة الباطن. والماء هو العلم. والخلاء القبلة المضادة[7].

جـ ـ الصلاة. الصلاة أكبر الأركان حجماً كما أنها أقرب إلى الفقه والموضوعات القديمة التي قتلها الفقهاء بحثاً مثل الاستنجاء والوضوء والطهارة والحدثان ونواقض الوضوء ومس الذكر والغسل والجنابة. وهي الموضوعات التي كان البدو في حاجة إلى تعلمها وأهم أهل الصحراء وندرة المياه، وأحكام الصلاة. ثم يتمُّ الانتقال تدريجياً من الشعائر إلى الصلاة إلى آدابها والحكمة منها، والتحول

---

(1) **الإحياء**، جـ1، ص133.

(2) البسطامي، **طبقات الصوفية**، ص70. **الشطحات**، ص121، 224.

(3) «عمارة الظاهر بالتنظيف بإفاضته بالماء وإلقائه وتخريب الباطن ولإبقائه مشحوناً بالأخباث والأقذار». **الإحياء**، جـ1، ص131.

(4) **التستري**، ص224.

(5) السابق، ص245.

(6) السابق، ص326.

(7) السابق، ص386-387.

بها من فعل خارجي للبدن إلى فعل داخلي للروح. فالتصوف تطور طبيعي للفقه. وسنده الشرعي هو فقه الباطن في مقابل فقه الظاهر. فالصلاة هم في القلب مع الرب توجب الإيمان والتسليم بها والتوبة إليها والصبر عليها والرضا بها والخوف منها والرجاء بها والشكر عليها والمحبة بها والتوكل فيها. ومن ثم يمكن استنباط المقامات العشرة من آداب الصلاة بل ومقامات أخرى مثل الذِكر والمناجاة. كل حركة في الصلاة مقام. فأهل المشاهدة في السجود على ثلاث مقامات: الجبروت الأعلى، ملكوت العزة أو ملكوت السموات والأرض، أعطية الملك وأنصبة المماليك. وأركان الصلاة خمسة عند الصوفية: التلاوة والحمد والاستغفار والدعاء والصلاة على النبي. تنقل المصلي إلى مقامات الشكر والخوف والرجاء والشوق والأنين والخشية والمحبة. تؤدي إلى الخشوع، وهو انكسار القلب وتواضعه وذلته ولين الجانب والمداومة والمواظبة. والصلاة أربع فرائض: إجلال المقام، وإخلاص السهام، ويقين المقال، وتسليم الأمر. وتهدف الصلاة إلى الخروج من الدنيا إلى الآخرة وليس تحقيق مصالح الدنيا مثل المحافظة على الوقت وأداء الواجب والتعالي وصحة الأبدان. وليس للمصلي من صلاته إلا ما عقل أي الجانب الباطني منها، منع الخواطر وعدم الانشغال بهموم الدنيا. فالصلاة فكر وتدبر وتأمل قبل أن تكون حركات ركوع وسجود، قيام وقعود[1].

وفي الصلاة سبعة أشياء: الوضوء، ونظافة الثياب، وصفاء المطعم، وحفظ الجوارح، وكف الأذى، الوقت والعلم، والإخلاص. تجمع بين طهارة البدن وطهارة الروح وعدم الإضرار بالغير[2]. والصلاة في الظاهر هو الفقر في الباطن[3].

الصلاة تركيز القلب على مضمونها. وإذا كانت في خلوة فليس لأن أحد لم يرها لأن ذلك يدل على الانتباه إلى الآخرين، بل لأن الله هو المُحاور فيها[4]. الصلاة راحة من أشغال الدنيا وحديثها[5]. وهو معنى حديث «أرحنا بها يا بلال»

(1) **قوت القلوب**، جـ2، ص180-213.
(2) **التستري**، ص269.
(3) «يا إبراهيم أنت جئت بالصلاة وأنا جئت بالفقر». السابق، ص246.
(4) أبو سليمان الداراني، **طبقات الصوفية**، ص79.
(5) يوسف بن الحسين البغدادي، السابق، ص191.

وحديث «وجعلت قرة عيني في الصلاة»[1]. دعا الله إلى هذه الصلوات الخمس رحمة بهم. بها ألوان من الضيافات ينال العباد من كل قول وفعل شيئاً منها. فالصلاة لمنفعة الناس روحاً وجسماً. ويتغير الصوفي عند التكبيرة الأولى في الفرائض إن لم تقم على الصدق. إذ يقول «الله أكبر» وفي القلب أكبر منه أو كبَّر سواه[2]. من لم يجعل قبلته على حقيقة ربه فسدت عليه صلاته[3]. فالقِبلة ليست المكان بل التوجه نحو الحقيقة. أصح ما في الصلاة صحة القصد ثم رؤية المقصود بإسقاط رؤية القصد[4]. ليست الصلاة مجرد حركة بل هي فعل له قصد، والقصد له مقصود. الخشوع في الصلاة علامة فرح المصلي. ليست الصلاة حركة جسدية أو قراءة وتمتمة بل هي حالة من الخشوع والتواضع.

القيام بين يدي الله في الصلاة، والصوم شكر لله على الصلاة[5]. فكل عبادة شكر لله على العبادة الأخرى. ولا يجده طالب إلا في الصلاة[6]. ويطلب الله في بداية الصلاة وليس في خاتمتها. وقد يطلب في خاتمتها وليس في أولها[7]. ورؤيته دون اسمه عبودية. ورؤيته بالاسم غلبتها، ورؤية الاسم دونه فلا شيء. إزاحة العلل ومعرفة النفس شرط الرؤية[8]. فلا يخرج الإنسان من العبادة مهما حاول. الصلاة عمل ظاهر له سر باطن، ومعنى خفي من معاني الخشوع والإخلاص والنية «ما لم تجربه العادة بذكره في فن الفقه»[9]. السجود هو الخشوع والركوع التواضع. الصلاة مخالفة الشهوة مثل السيطرة عليها في الصوم. الذكر محاورة ومناجاة. والأصوات امتحان للسان بالعمل[10]. الصلاة مواصلة لا مفاصلة.

---

(1) محمد بن على الترمذي، السابق، ص219.
(2) أبو عمر الزجاجي، السابق، ص431-432.
(3) ابن الحسين الشيرازي، السابق، ص469.
(4) أبو عبد اللَّه الروذباري، السابق، 499.
(5) «يجب أن نصوم اليوم شكرا على هذه الصلوات التي أقمناها هذه الليلة». السابق، ص156.
(6) «موقف بيته المعمور»، **المواقف**، ص109.
(7) السابق، ص139.
(8) السابق، ص104-106.
(9) **الإحياء**، جـ1، ص155.
(10) السابق، ص166.

تركها كفر وإتيانها شرك[1]. قد تكون الصلاة مجرد نصب البدن، والصوم جوع البطن[2]. تعني الصلاة ستة أشياء: حضور القلب، والتفهم، والتعظيم، والهيبة، والرجاء، والحياء[3].

ولا يغيِّر الصوفي الثوب الذي يصلي فيه للقاء الناس بخير منه[4]. فلا أخير من لقاء الله. وتعتمد معظم آداب الصلاة على الروايات وليس على تحليل التجارب الحية وهو منهج الصوفية[5]. ومنها معرفة الوقت والمحافظة عليها[6]. الدعوات في كل حركة. ومنها الإحساس بالجماعة. الصلاة والمصلي على أتمِّ الهيئات النفسية[7]. وليس للإنسان من صلاته إلا ما عقل منها.

وحكم الإمام ووصف الإمامة والمأموم ليس موضوعا مستقلا مثل الطهارة بل هو ملحق بالصلاة[8]. الإمام هو إمام الحي وقائده وحال مشاكله. وشروطه اجتناب الكبائر وعدم الإصرار على الصغائر. قراءة الكتاب للعلم بفرائض الصلاة وسننها. وهو عمل تطوعي دون أجر. فالعلماء وزثة الأنبياء، والأئمة ورثة العلماء. ولا يفضل الجمع بين الإمامة والأَذان. وتؤدى الصلوات في أوقاتها. والتخفيف في الصلاة ضروري، إذ لا يجوز تكليف ما لا يطاق. ويجوز الجهر بالبسملة أو الصمت فيها. ولا يخص الإمام نفسه بالدعاء دون غيره. والصلاة جماعة خير من صلاة الفرد. ولا يؤم الأُمي القراء، ولا الأعجمي الفصحاء، ولا المتيممون

(1) «إن زعمت أن صلاتك مواصلة في مفاصلة. إن تركتها كفرت وإن شاهدتها أشركت». **شطحات**، ص118.

(2) السابق، ص121، 224.

(3) السابق، جا، ص167-169.

(4) **طبقات الصوفية**، ص504.

(5) «فضيلة الصلاة وكبر شأنها». **عوارف المعارف**، ج3، ص173-189.

(6) «صلاة أهل المغرب». السابق، ص189-225.

(7) «كيفية الصلاة وهيأتها وشروطها وآدابها الظاهرة والباطنة على الكمال بأقصى ما انتهى إليه فهمنا علمنا على الوجه مع الاعتراض عن نقل الأقوال في كل شيء من ذلك إذ في ذلك كثرة، ويخرج عن حد الاختصار والإيجاز المقصود». السابق، ص189.

(8) «ذكر آداب الصلاة وأسرارها». السابق، ص325-247. «للصلاة أربع شعب: حضور القالب في المحراب، وشهود العقل عند الملك الوهاب، وخشوع القلب بلا ارتياب، وخضوع الأركان بلا ارتقاب». السابق، ص232.

المتوضئين. الإمامة للأقرأ ثم الأفقه. والانتظار حتى نهاية الصلاة. والصلاة في المسجد إذا كان قريبا وحان الوقت. ويستحسن تغيير مكان صلاة النفل عن صلاة الفرض للإحساس بالتمايز(1). وهي موضوعات فقهية خالصة لم يحدث فيها أي تأويل. إنما الحرص فقط على حسن الأداء.

والقنوط في الوتر ثابت ليوم القيامة. والقنوط في الفجر إذا أمر به السلطان! القيام عام، والجلوس خاص، والوزير خاص الخاص. القيام للعامة، والجلوس للخاصة. والوزير يقوم ويجلس. القيام لإيتاء الإرادة، والجلوس للعلماء، والوزارة للحكماء(2). فالصوفي يتقدم الحياة السياسية على حذر وبطريق الرمز بين القيام والجلوس. القيام للخدمة العامة مثل جهاز الدولة والجلوس للخدمة الخاصة كالعلم(3).

الصلاة التامة هي التي لا يشعر المصلي بعدها بأنه لا يحتاج إلى غيرها وقادر على المساعدة بعدها(4). فالصلاة ليست للرقابة والتكرار، وليست منفعة خاصة. وتمام الصلاة دخولها وكأنها آخر صلاة، وبعد إصلاح ما فسد منها(5). الصلاة فعل كامل وفريد، وليست مجرد حركات وسكنات وتمتمات.

وتعني أسرار الصلاة تضخم الدلالات الباطنية بحيث تصبح في حاجة على استيعاب ومعرفة باطن الباطن. الصلاة هي الفعل في الوقت على الفور أو على التراخي، أداء أم قضاء. هي ارتباط الأوقات بالطبيعة والزمن الكوني، الشروق والغروب، الظهر والعصر بحركات الأفلاك، ودوران الأرض حول نفسها وحول الشمس. الآذان والإقامة هما القيام والنهوض والمبادرة، نداء البطل، وتلبية الدعوة. والتشهد بلسان الجمال والجلال(6).

وقد تختلف الدلالات من فرد إلى آخر، ومن حالة إلى أخرى، ومن ثقافة

---

(1) **قوت القلوب**، جـ2، ص431-441.
(2) **التستري**، ص95.
(3) **التستري**، ص337.
(4) السابق، ص233.
(5) السابق، ص329.
(6) معرفة أسرار الصلاة وعمومها، **الفتوحات**، جـ1، ص386-546. وإن كنا لم نتعرض لذكر الأدلة مخافة التطويل. السابق، ص404، 430-431.

إلى ثقافة، ومن مستوى علمي إلى آخر، ومن مرحلة تاريخية إلى أخرى[1]. الدلالة تأويل للتجربة البشرية.

والسؤال هو لم تفصيلات الصلاة إلى هذا الحد؟. هل يستطيع أحد أن يعي كل هذه الدلالات التفصيلية للاعتبار بها؟ وهي دلالات بديهية يتعلمها الأطفال في باب الحكمة من الصلاة أو الصيام أو الزكاة والحج أكثر من التوحيد. يتوه القارئ في **الفتوحات** كما يتوه في **الشفاء** وفي **البحر المحيط**. وهل في النص أو في الشعائر ما يسمح بالدلالة أم أنها ذاتية خالصة؟. تفصيلات مملة وبديهية، وإعطاء نصائح للمصلي كي يتحقق بالدلالة. ليس من المعقول أن يكون لكل حركة وهمسة ولكل عضو مئات الدلالات. ويستطيع إنسان آخر أن يجد دلالات أخرى مشابهة أو مخالفة في الحوامل الجديدة لها نظراً لتغيُّر الزمان والمكان والعصر. وهل الدلالة أو الحكمة هو المعنى الباطن؟ ولماذا المعنى باطنٌ؟

وفي نفس الوقت الذي يتم فيه تحويل الظاهر إلى الباطن يكشف من البدع في الظاهر مثل لبس السواد إذا كانت السنَّة لبس البياض[2]. وصلاة السلاطين في مقصورة خاصة بهم، والصلاة في الأسواق، والرحاب خارج المسجد كما يحدث هذه الأيام لضيق المساجد وكثرة المصلين مما يؤدي إلى قفل الشوارع، وإظهار القوة، ورواج بضاعة الباعة المتجولين.

د ـ الزكاة. والزكاة في الفقه أصغر الأركان. لها فرائض أربع: الحرية، وصحة الملك، ووجود النصاب، واستكمال الحول. وفي التصوف هي فضائل الصدقة، وآداب العطاء، وما يزكو به المعروف، ويفضل به المنفقون[3]. وتقتضي السر، وعدم طلب المدح والثناء، وعدم التفاخر بها، وعدم انتظار مقابل. ولا تستوجب الشكر. وتقدم على صلة الرحم. فأفضل الأعمال صلة الإخوان. ويستصغر

---

(1) الركوع الخضوع، السابق، ص437. الجلوس بين العبد، إمامة المرأة صحيحة، لشهادة الرسول بالكمال، الصلاة في الدار الغصوبة لأنها تولد الحنق. السابق، ص477.

صلاة العارفين لها خشوع ومسكنة وذل وافتقار
دفاعها وحيد في شهود عليه في شهادته اضطرار

السابق، ص713.

(2) **الإحياء**، جـ1، ص187، 190.

(3) **قوت القلوب**، جـ2، ص213-227.

المتصوف ما يُعطى ولا يستكثره. وتُعطى للسائل والمحروم والقانع والمعتر الذي لا يصرح بالسؤال والبائس[1]. والزكاة لها أحكامها الظاهرة وشروطها الباطنة مع آدابها وفضلها. ومن شروطها النية، والبدار[2]. ولها آدابها الباطنية مثل التعجيل، والاقتداء، وعدم إفسادها بالمن والأذى، واستصغار العطية، وعدم التعلُق بها. أداء الزكاة فريضة ولكن بالنشاط الحر والرغبة.

وأسرار الزكاة في الوصل والإفصاح والوصل المؤيد والوصل والأصل المتمم والبيان والإيضاح، الزكاة في النفوس وليست في الأموال بل في الوجود أيضاً. وهي واجبة على كل مسلم حر بالغ عاقل مالك للنصاب، وليست على اليتيم والمجنون والعبد وأهل الذمة، وجوب الزكاة في كل عضو من أعضاء الإنسان: البصر والسمع واللسان واليد والبطن والفرج والرجل والقلب[3] وإخفاء الصدقة بدافع الإخلاص والصدق والسلامة عن تلبيس الحال والمراءاة[4].

هـ ـ الصيام. والصيام ليس فقط مجرد الامتناع عن الطعام والشراب والجماع منذ شروق الشمس حتى الغروب بل هي رياضة للنفس، وتقوية للإرداة، وتمرين لها على السيطرة على الأهواء والانفعالات. وهي الحكمة من الصيام. الصيام هو صيام القلب وليس صيام الفم والمعدة، غض البصر عن الاتساع في النظر، وضعف السمع عن المحارم، ورفض القعود مع أهل الباطل، وحفظ اللسان، ومراعاة القلب، وقطع الخواطر والأفكار، وكف اليد عن البطش والتجاوز وحبس الرجل عن السعي في الباطل. فالصوم بالجوارح الست. ومن فضائله تجنب حظوظ الجوارح الشبهات، ورفض الشهوات، وإفطار الحلال، وذكر الله «وكم من صائم حظه من صيامه الجوع والعطش»[5]. الصوم شكر لله على الصلاة[6]. فكل عبادة شكر لله على العبادة الأخرى. فلا يخرج الإنسان من العبادة مهما حاول. الصوم هو الإمساك والرفعة. وهو نفس المعنى الاشتقاقي للصلاة أي الارتفاع، هو التنزيه

---

(1) **الإحياء**، جا، ص216، 218-225.
(2) السابق، ص234.
(3) «باب الزكاة»، **الفتوحات**، جا، ص546-601.
(4) **الإحياء**، ص234.
(5) **قوت القلوب**، ج2، ص227-230.
(6) «يجب أن نصوم اليوم شكراً على هذه الصلوات التي أقمناها هذه الليلة». السابق، ص156.

عن الغذاء والذوق أول مبادئ التجلي الإلٰهي وقبلة الصائم علامة المحبة[1]. والصيام ليس بهدف الأجر والثواب[2]. الصوم لله وليس للإنسان[3].

ويعني الصوم في حديث «صوموا لرؤيته وافطروا لرؤيته» استواء الحال، عدم الرجوع عن الحق باتكال، وعدم الإقبال عليه بصوم. فالصوم كالإفطار، والإفطار كالصوم في دوام الحضور[4]. ليست الشعائر أفعالاً فردية بل حقائق كونية. الصوم ثلاثة: صوم الروح بقصر الأمل، وصوم العقل بخلاف الهوى، وصوم النفس بالإمساك عن الطعام والمحارم[5]. ليس الصوم فقط صوم الفم والمعدة بل أيضا صوم العقل والروح، والحفاظ على الصيام من الكذب والغيبة[6].

---

(1) **الفتوحات**، جـ1، ص601-665.

صومي عن الكون ولا تفطري — بذا له الخلق أولاك

السابق، ص601.

قال لي الحق في منامي — ولم يكن ذلك من كلامي
وقتا أناديك في عبادي — وقتا أنا جنبك في مقامي
وأنت في الحالتين عندي — في كنف الصوم والذمام
فمن صلاة إلى زكاة — ومن زكاة إلى صيام
ومن حرام إلى حلال — ومن حلال إلى حرام
وأنت في ذا وذاك مني — كمثل مقصورة في الخيام

السابق، جـ1، ص628.

(2) أجوع ولا أصوم فإن نفسي — تنازعني على أجر الصيام
فلو فنيت أجيرتها لقلنا — بإيجاب الصيام وبالقيام
فإن العبد عبد الله ما لم — يكن في نفسه هدف لرامي

السابق، جـ1، ص635.

(3) لولا مزاحمة الرحمن أعمالي — ما زاحمته على التكوين إخواني
يقول كن وحصول الكون ليس لنا — وماله في وجود الكون من تاني
يقول صم فإذا صمنا يقول لنا — هذا الصيام لنا فأين أعياني
إن قلت لي لم أخاطبكم بما هو لي — فلي شهود على التكليف آذاني
أسمعتني ثم بعد السمع تسلبني — فالصوم لي ولكم في الشرع قسمان
إن كنت تسلبني عنه فشأنكمو — في الصوم ما هو في التحقيق من شأني

السابق، ص657.

(4) أبو عمرو الدمشقي، **طبقات الصوفية**، ص278.

(5) مظفر القرمسيني، السابق، ص396.

(6) **رابعة**، ص133-135.

إذا دعا الصوفي أحد إلى الطعام واعتذر لصيامه فإنه يسقط من عين الله[1]. فالصوم ربع الإيمان[2]. وهو على ثلاث درجات: صوم العموم وهو كف البطن والفرج عن قضاء الشهوة. وصوم الخصوص وهو كف السمع والبصر واللسان واليد والرجل وسائر الجوارح عن الآثام. وصوم خصوص الخصوص هو صوم القلب عن الهمم الدنية والأفكار الدنيوية، والكف عما سوى الله بالكلية.

ويحدث الإفطار بالفكر فيما سوى الله. وهي رؤية الأنبياء والصديقين والمقربين. ويتم بغض البصر وحفظ اللسان وكف السمع وكف بقية الجوارح وعدم الاستكثار من الطعام الحلال وقت الإفطار، وعدم تعليق القلب بعد الإفطار بين الخوف والرجاء[3].

ولو صام الصوفي ثلاثمائة سنة وقام النهار والليل فإنه لن يصل إلى العلم ما دام محجوبا بنفسه لأنه لا يقبل ولا يعمل. فإذا عرف الناس الصوفي بأنه صوفي لا يكون صوفيا. ومن آدابه كتمانه إخلاصا لله[4]. فلابد من التخفي، حلق الرأس واللحية ولبس عباءة ووضع مخلة في الرأس وملئها بالجوز وجمع الصبية حوله ليصفعوه ويعطي كلا منهم جوزه. ويدخل السوق حتى يراه من يعظمونه على هذه الحالة[5]. الصبر نصف الإيقان، والصوم نصف الصبر أي أن الصوم ربع الإيمان[6]. وتتفاوت في الصوم قدرات الصوفية[7]. وكلها أخذ بالعزائم. وليس العيد هو عيد الفطر بعد الصوم بل قبول الله له.

و ـ الحج. ليس الحج هو مناسكه، الطواف حول البيت، الحج الشرعي بل هو الحج الروحي[8]. ليس العيد هو طواف المصلي فردا وجمعا بل هو مدي علاقته بالله وحبه له[9]. هو يوم تخليص النفس من العيوب وكشف الغطاء. الناس

(1) «دعوة فقد سقط من عين اللّه». **شطحات**، ص206.
(2) **الإحياء**، جـ1، ص237.
(3) السابق، ص241-242.
(4) «آداب الصوم ومهامه». السابق، ص265-278.
(5) **شطحات**، ص112-113.
(6) «فضل الصوم وحسن أثره». **عوارف المعارف**، جـ3، ص247-254.
(7) اختلاف أحوال الصوفية بالصوم والإفطار، السابق، ص254.
(8) التوحيدي: «كتاب الحج العقلي إذا ضاق الفضاء عن الحج الشرعي». **الإشارات**، ص يز.
(9) ليس عيد المحب طوْف المصلّى ووقوفاً بالجمع والوجدان.

لهم عيد، والمحب له عيدان، عيد الناس مثل عيد الفطر، ورؤية وجه الحبيب، وهو عيد الخاص جزاء على الشكر بل والمزيد منه[1].

والكعبة صنم معبود في الأرض، لم يلجها الله ولا خلا منها الله[2]. المراد من الحج ليس الكعبة بل رب الكعبة[3]. الكعبة بيت الله فأين الله فيها؟[4]. ومن الصوفية من يمضي أربعين سنة قاصدا الحج إذ أنه يتوقف في كل خطوة يصلي ركعتين. وصوفي آخر تأتيه الكعبة دون أن يتحرك[5].

في الحجة الأولى يُرى البيت. وفي الحجة الثانية يُرى صاحب البيت دون البيت. وفي الحجة الثالثة لا يرى البيت ولا صاحب البيت عندما يفنى الصوفي عن ذاته[6]. ليس المقصود من الشعائر نتائجها بل صاحبها[7]. أهل الحج يطوفون

---

(1) للناس عيد، ولي عيدان قد جُمعا وجه الحبيب ويوم الفطر إذا حضرا
فالحمد لله، شكرا، لا شريك له إن المزيد لمرجوّ لمن شكرا
السابق، ص241.

(2) «الصنم المعبود في الأرض، وإنه ما ولجه اللّه ولا خلا منه». **رابعة**، ص112، 131-132.

(3) «لا أريد الكعبة بل رب الكعبة، أما الكعبة فماذا أفعل بها؟». السابق، ص145.

(4) «يا إلٰهي! لا تدعني كي أبقى في بيتي، ولا تريد أن تقبلني في بيتك. فإما أن تدعني أقيم هادئة في بيتي في البصرة أو اسمح لي ان أدخل الكعبة وهي منزلك. لقد فتشت عنك قبل أن أحني رأسي أمام الكعبة. دعني إذن أذهب فلست جديرة بدخول بيتك». السابق، ص147.
وأهدي من القربان نفسا معيبة وهل رد خلق بالعيوب تقربا
تهدري الأضاحي وأهدي مهجتي ودمي
الفتوحات، جـ1، ص467.

(5) «يا إبراهيم (ابن أدهم) وأية جنحة تحدثها أنت في الدنيا بأن أمضيت أربعين سنة حتى بلغت هذا المكان لأن الكل يقولون: إبراهيم يتوقف كل خطوة ليصلي ركعتين... إذا كانت الكعبة قد أقبلت إليّ في العام الفائت أنا الذي سأقبل عليها هذا العام». **رابعة**، ص146. «يا إبراهيم، أنت جئت بالصلاة وأنا جئت بالفقر». السابق، ص146. «يا إلهي، دعوت بجزائين لشيئين: القيام بالحج، والصبر على الشدائد. فإذا لم يكن حجي صحيحاً عندك فما أكبرها مصيبة عندي، لكن ما جزاء هذه المصيبة؟». السابق، ص146.

(6) «حججت أول حجة فرأيت البيت. وحججت الثانية فرأيت صاحب البيت ولم أر البيت. وحججت ثالثاً فلم أر البيت ولا صاحب البيت». **شطحات**، ص102، 314.

(7) «إن اللّه تعالى أمر العباد ونهاهم فأطاعوه فخلع عليهم خِلعاً من خِلعه فشغلوا بالخلع عنه. وأني لا أريد من اللّه إلا اللّه». السابق، ص111.

حول البيت يطلبون البقاء. وأهل المحبة يطوفون حول العرش يطلبون اللقاء[1]. البيت مبيت وسكن رمي الجمرات لتطهير النفس. ومثل رابعة والبسطامي والحلاج هناك فرق بين الكعبة ورب الكعبة، بين المادة والروح، بين الحج الشرعي والحج الصوفي[2]. فالله والملائكة يصلون في البيت المعمور[3]. ويواصل الله وحده في صلاته وهم لا يواصلون. يخلو البيت من السوى حتى يظل هو وحده. البيت هو الطريق. وهو القهر والحشر. وهو الحرم الآمن. ليس الحرم في السماء بل على الأرض. يفكر فيه الطائف وهو حامل همومه. لا يدخله إلا العمل الخالص وليس الطقوس والشعائر.

والعجب من قطع الأودية والقفار والمغاور للوصول إلى بيت الله وحرمه وآثار أنبيائه ولا يقطع نفسه وهواه للوصول إلى القلب وآثار المولى. فالطريق الصوفي هو حقيقة الطريق إلى مكة. في البيت مقام إبراهيم، وفي القلب آثار الله. وللبيت أركان وللقلب أركان. أركان البيتِ من الصخر وأركان القلب من معادن أنوار المعرفة. مقام إبراهيم في القاع، والقاع في الزمان. أركان البيت على الأرض

(1) السابق، ص180. **الفتوحات**، جـ1، ص665-763. «وسأذكر إن شاء اللّه ما يختص بهذا الباب من الأفعال الظاهرة المشروعة في العموم والخصوص على السنّة علماء الرسوم بالظواهر والنصوص وما يختص به أيضا من الاعتبارات في أحوال الباطن بلسان التقريب والاختصار والإشارة والإيماء كما عملنا فيما تقدم من العبادات». السابق، ص668.

(2) جسم يطوف وقلب ليس بطائف ... ذات تصد وذات ما لها صارف
يدعى وأن كان هذا الحال حليته ... هذا الإمام الهمام المهم العارف
هيهات هيهات ما اسم الزور يعجبني ... قلبي له من خفايا مكره خائف
السابق، ص699.

ما كعبة اللّه سوى ذاتنا ... ذات ستارات التقى المعلمه
ما وسع الحق سماء ولا ... أرض ولا كلم من كلمه
وصاح للقلب فقال اصطبر ... فإنه قبلتنا المحكمه
منكم إلينا وإلى قلبكم ... منافيا بيتي ما أعظمه
فرض على كعبتنا حبكم ... وحبنا فرض عليكم دمه...
ما أصبر البيت على شر ككم ... لولا كمو كان لهم مشأمة...
ما أعشق القلب بذاتي وما ... أشده حبا وما أعلمه
السابق، ص700.

(3) «موقف بيته المعمور». **المواقف**، ص176.

وأركان المقام في القلب. أركان البيت من الصخر وأركان المقام من المعارف[1]. الحج ليس حركة في المكان بل بكاء من شوق اللقاء[2]. ليس الحج بيت الله لأن الله ليس له مكان. والقرب منه ليس في المكان. قد يكون القريب بعيداً والبعيد قريباً كما تعبِّر عن ذلك الأغاني الشعبية[3]. ومن جاور الحرم وقلبه متعلِّق بشيء آخر سوى الله فقد خسر. ومن تشوف بالحرم رفقاً أي استعانةً واستجارةً به بعَّده الله عن جواره وجعل قلبه شحيحاً، وأطلق لسانه بالشكوى، ومسح المعارف من قلبه، وأظلم أنوار اليقين، وأوكله إلى حوله وقوته ومقته عند خلقه. ولا ضير أن يكون الحرم للاستجارة والاحتماء به نظراً لأنه لا يجوز القتل لا للإنسان ولا للحيوان في حماه[4]. ومن هنا أتى لفظ «الحرام» للحرمة. ولماذا يكون الله منتقماً لهذا الحد؟[5].

والقدس موضوع رئيسي في التصوف **معارج القدس في معرفة مدارج النفس** للغزالي. وهو نقطة الانطلاق من الأرض إلى السماء في الإسراء والمعراج. القدس الناطق في السماء والمحتل في الأرض. يتحدث الصوفي مع القدس الناطق عن الحضرة الإلهية وليس الاحتلال والحصار والتجويع والجدار العازل والمستوطنات والحفريات تحت المسجد الأقصى[6]. القدس ليس كتاباً مسطوراً يُكتب بأقلام الرب على أوجه محامده. بل مدينة محتلة ومحاصرة. وللحج آدابه الدقيقة وأسراره الخفية وأعماله الباطنة. ليس المهم المكان. فالقدسية ليست في المكان بل في تداعي الذكريات وتهييج الشوق. شروطه الإسلام والحرية والبلوغ والعقل والاستطاعة[7]. ومن الآداب الباطنة أن تكون النفقة حلالاً، وعدم معاونة الأعداء

(1) محمد بن الفضل، **طبقات الصوفية**، ص214.
(2) أبو العباس بن عطاء الأدمي، السابق، ص267.
(3) ألا رُب من يدنو ويزعم أنه بحبك والنائي أود وأقرب
أبو بكر طاهر الأبهري، السابق، ص395.
(4) أنافعي دمعي فأبكيك هيهات، مالي طمع فيك
أبو الحسن الحزين، **طبقات الصوفية**، ص383.
(5) أبو عمرو الزجاجي، السابق، ص433.
(6) «موقف محضر القدس الناطق». **المواقف**، ص168-169. «يا كاتب القدس المسطور بأقلام الرب على أوجه محامده أنت في الدنيا والآخرة كاتب». السابق، ص198.
(7) **الإحياء**، جا، ص246.

بتسليم الحرم المكي لهم، والتوسع في الزاد، وطيب النفس بالبذل والإنفاق، ترك الرفث والفسوق، والحج سيراً، وركوب الزاملة، والتواضع في الثياب. له أعماله الباطنة. ووجه الإخلاص فيه بالنية والاعتبار بالمشاهدة الشريفة والافتكار والتذكر. وتتوالى المعاني ابتداءً من الفهم ثم الشوق إليه ثم العزم عليه ثم قطع العلائق النافعة ثم الإحرام ثم الزاد ثم الراحلة ثم الخروج ثم الإحرام ثم دخول مكة[1]. من سلم له يوم عرفة وحفظ فيه لسانه خاصة غفر الله له ذنوب سنة. فالحج حفظ اللسان[2]. والحج في الظاهر والصبر على الشدائد في الباطن[3].

وبعد أن تكون تكون الشعائر هي المركز والذات تدور حولها تُصبح الذات هي المركز والشعائر تدور حولها. وبدلاً من أن تطوف الذات حول الكعبة تطوف الكعبة حول الذات كما هو الحال في الثورة الكوبرنيقية عند كانط، بدلاً من أن تدور الذات حول العالم يدور العالم حول الذات[4].

الحج هو كمال الشريعة وتمام الملة. وهو مثل الصلاة شعائر خارجية، إحرام وطواف وسعي ونحر وهدي. وهي مناسك الحج. هو القصد والتوجه نحو الهدف المشترك. وفضائل الحج هي المقصود من مناسك الحج، الامتناع عن الرفث والفسوق والجدال، وسلوك الطريق الواضح، والإخلاص لوجه الله. أحدث الناس وزادوا المناسك مثل المحامل والقباب. بعضها ارتبط بعصرها مثل الأشعث الأغبر، والبعض تحول إلى دلالات مثل الاجتماع على هدف، والاتجاه نحو قصد واحد، ومساواة البشر جميعا بلباس واحد، والسعي لإنقاذ حياة الآخرين، وإنقاذ الإنسان من الذبح حتى لو كان بأمر الله، والحديث عما تعم به البلوى وفيم ينفع الناس[5]. ورمي الجمرات رمزاً هو منازلة العدو فعلاً[6]. والبيت الحرام والحج

(1) **الإحياء**، ص369-273.

(2) **التستري**، ص215.

(3) «يا إلٰهي، وعدت بجزاءين لشيئين: القيام بالحج، والصبر على الشدائد. فإذا لم يكن حجي صحيحا عندك فما أكبرها مصيبة عندي، لكن ما جزاء هذه المصيبة؟». السابق، ص146.

(4) «كنت أطوف حول البيت أطلبه. فلما وصلت إليه رأيت البيت يطوف حولي». **شطحات**، ص100.

(5) **قوت القلوب**، ج2، ص230-250.

(6) انظر مقالنا: «خواطر حاج»، **أخبار الأدب**، القاهرة، تشرين الثاني/ نوفمبر، 2005.

إليه بالملايين هو الآن القدس المحتل. ولا يجوز المقام بمكة، مكة مكان للتجميع ثم يفترق الناس للدعوة إلى فضائل الحرم. والتحرير مثل الأسرار والاعتبار والآداب ألفاظ متعددة للدلالة على باطن العبادات وليس ظاهرها[1].

8 ـ المعاملات

وتشمل المعاملات الأقوات وما يتعلّق بها من آداب المائدة واللباس، والتزويج وأحكام النساء، والكسب والمعاش.

أ ـ الأقوات والأوقات.[2] تقليل الأقوات كمّاً أو زيادة الأوقات زماناً أحد مظاهر الزهد ويلحق به. وقد يصل تقليل الأقوات إلى حد الجوع. وهو رياضة للمريدين. وهو ما يتفق مع مقتضيات الصحة. الثلث للطعام، والثلث للشراب، والثلث للنفس طبقا للحديث الشهير[3].

ليس الطعام فقط ما يؤكل، ما يكره منه وما يستحب بل سننه وآدابه[4]. ويدخل أيضاً في مقام الجوع والفقر والزهد. وقد أصبح الآن موضوعاً للطب الغذائي وآداب المائدة. وإذا كان الطب علماً فإن آداب المائدة عادات تختلف باختلاف الشعوب والعصور. وآداب الطعام جزءٌ من أدب العمل والآداب العامة. وكثير منها بديهي فطري يدل على الذوق العام مثل غسل اليد ودعوة الجار والاهتمام به. ومثل إطالة الجلوس على المائدة مع الإخوان للصحبة وليس فقط للطعام. ومجموع الحكايات لا يكوِّن نظرية. ومازالت بعض أمثال العرب سارية حتى الآن مثل: «اتعشَّ واتمشَّ»، «اتغدَّ واتمدَّ». كما جاءت أحاديث كثيرة في الإقلال من الطعام والحمية وذم البطنة. كما تُذكر مناسبات الطعام وأنواعه في المآتم والأفراح وموائد الرحمن القديمة والحديثة التي تُقدَّم من الأغنياء والغانيات من رجال الأعمال واللصوص.

---

(1) يقولون حج والعبد لم يحج ... وما حجّ إلاّ من له الفعل والأمر
وما ثمَّ إلا الله ما ثمَّ غيره ... فمنه العطاء الجزل والنائل الغمر
الفتوحات، جـ1، ص745.

(2) **قوت القلوب**، جـ2، ص339-366.

(3) لا توجد معاملات عند ابن عربي.

(4) **قوت القلوب**، جـ2، ص367-398.

وهو من العادات وليس العبادات أو المعاملات. وهي آداب وليست أسراراً أو سلوكاً يقوم على التحضر والذوق الرفيع. معظمه يُدرك بالبداهة أو بالنظافة أو بالصحة أو بحسن المعاملة، مثل آداب التقويم والضيافة[1]. ويخضع الطعام لقواعد علم الطب للحفاظ على صحة البدن اعتماداً على نظريات الطب القديم التي تقوم على العناصر الأربعة. الصحة في الاعتدال بينها والمرض في اختلال نسبها في البدن[2]. ومنها التسمية على الذبائح وهو من بقايا اليهودية. ومنها عادات تتغير بتغيُّر الزمان والمكان مثل الطعام على الخوان أو المائدة أو السفرة، ولعق الأصابع استحضارا للبركة، وعدم النفخ في الطعام وهو ما تفعله الأم لأطفالها[3].

ويُشترى اللباس بالدرهم الحلال ودون فضول فيه. فصحة الصلاة في صحة الثوب. ويستر العورة ودون بهرجه. وينظف دائما ويرفع في حالة البلى[4]. ولا يُتقيَّد بزي خاص كما يحدث هذه الأيام، واعتبار اللباس السعودي والخليجي منبع الإيمان.

ب ـ **التزويج وأحكام النساء**. والفقه عبادات ومعاملات. وإذا كانت أركان الإسلام الخمسة قلب العبادات فإن الأقوات وآداب المائدة، والتزويج وأحكام النساء، والمعاش والتجارة، والحلال والحرام من المعاملات[5]. والعنوان نفسه قديم وكأن النساء بضاعة للتصرف فيها مثل بيع النخل، وكأن النساء لا رأي لهن، وكأن الزواج ليس فعلاً تبادلياً حراً بين الرجل والمرأة. كما يعني عنوان «أحكام النساء» نفس الشيء وكأن النساء موضوعات تدخل في أحكام شرعية مفروضة وكأنهن لا إرادة لهن.

والتزويج فرض وسنَّة ضد الترهب والرهبنة والعزوف عن الزواج. ومع ذلك يُؤوِّل البعض آيات القرآن والأحاديث النبوية وظروف العصر ضد الزواج. فالأفضل للمريد عدم الزواج إذا آمن الفتنة ولم تنازعه نفسه إلى معصية، ولم ترد خواطر

(1) «آداب الأكل»، **الإحياء**، ج2، ص2-21.
(2) «الطعام وما فيه من المصلحة والمفسدة». **عوارف المعارف**، ج3، ص278-295.
(3) «آداب الأكل»، السابق، ص295-315.
(4) «ذكر آدابهم في اللباس ونياتهم ومقاصدهم فيه». السابق، ج3، ص315-340.
(5) **قوت القلوب**، ج2، ص489-529.

النساء على قلبه ويتشتت بهن. بالإضافة إلى إبعاد الفرج عن شهوة القلب، وفساد المكاسب، وقلة صلاح النساء وظلم النساء للرجال أو ظلم الرجال للنساء مثل ظلم الأغنياء للفقراء، وكثرة العيال وقلة المال. والوحدة خير من قرين السوء. وما أفلح قوم ولّوا أمرهم امرأة. ومن تعود أفخاذ النساء لم يفلح. وقد أبيحت العزبة للأمة في آخر الزمان. وكثيراً ما عصت زوجات الأنبياء. والصبر على نكاح الأَمَة خير من نكاحها، وتحريم الاستمناء بمسِّ الذَكَر، وضيق المكاسب، وقلة الحلال، وكثرة فساد النساء. فالتزويج تحميل ما لا يطاق[1].

يجوز تزويج النساء بناءً على أدلة أخرى مثل ضرورة إكمال نصف الدين، واتِّباع الشرع. وسنَّة الرسول «حُببت إليَّ من دنياكم ثلاث: النساء، والطيب، وجعلت قرة عيني في الصلاة». بل إن العلماء يكثرون من الجِماع والطعام والحلوى لكثرة غض البصر في الخارج فيتحول العشق إلى الداخل. ولطول الجوع إذا وجُد الطعام التهموه. وأكل الحلوى لحرمانهم من الخمر وباقي الملذات. فالحرمان يحتاج إلى تعويض.

وكان الجُنَيد يحتاج إلى الجِماع كما يحتاج إلى القوت. وكان الصحابة يفطرون على الجِماع. وكان أحدهم يدور حول نسائه الأربع من المغرب إلى العشاء ويغتسل ويتوضأ ويصلي ويفطر. وخير هذه الأمة أنها أكثر الأمم نكاحاً «تناكحوا تناسلوا فإني مُباهٍ بكم الأمم إلى يوم القيامة» سواءٌ نسبت إلى موسى أو إلى محمد. وما كان أسهل الزواج قديماً ولو بتمرة أو بآية من القرآن. وكان أحمد بن حنبل مشهور بكثرة النكاح، تزوج في اليوم التالي لوفاة أم ولده. وتزوج ابن مسعود آخر عشرة أيام من عمره حتى لا يلقى اللّه عازباً. ومن كان ذا طَوْل فليتزوج. ومن استطاع الباءة فليتزوج. ويشفع الأطفال يوم القيامة لآبائهم. وقد وُعد المؤمنون يوم القيامة بالحور العين. وكان تحت عليٍّ أربع نسوة وسبع عشرة سرية. والزواج من أربع طبقاً للطبائع الأربع مثل المطايا والخيل والبغال والحمير والفلك والأنعام للركوب بشرط العدل بينهن في الحب والجِماع. وكان الرسول يطوف على نسائه في ليلة واحدة. والله يحب الجِماع ويكره الطلاق. وكثرة النكاح من شدة

(1) السابق، ص490-494.

غض البصر. والله يحب الفقير المتعفف أبا العيال. وعليها الطاعة وعليه الرعاية وحسن العشرة[1].

ومن حقها الإشباع الجنسي والتأكد من ذلك[2]. ومن حق الرجل حسن الاختيار وعدم نكاح الأنَّانة، ولا المنَّانة، ولا الحنَّانة، ولا الحدَّاقة، ولا البرَّاقة، ولا الشدَّاقة[3]. ولا يُحبَّذ نكاح المُختلعة، والمُبارية، والعاهر، والناشز[4]. وشر خصال الرجال البخل والزهو والجبن.

وللجِماع فضائل. والعزل هو الموءودة الصغرى. ويُعتزل النساء في المحيض. ويمكن للرجل أن يتمتع بباقي جسد المرأة ما فوق الإزار أو تحته. ولا يتعريان تماماً. ولا يجامعان أول الشهر ووسطه وآخره. ويكون الجماع إذا اتفقت الشهوتان. ويتأخر الرجل في الإنزال حتى تنزل المرأة. والملاعبة والملاطفة واجبة قبل الجِماع[5].

وتُسمَّى أيضاً «آداب النكاح»[6]. وهو ترغيب وتشويق وأُلْفَة وسَكَن ومشاركة قبل أن يكون عقوداً، حقوقاً وواجبات. وكلها آداب ذوقية تقوم على الفطرة والذوق السليم. ويتجاوز أحياناً الأعراف والعادات المتغيِّرة.

وما يحلُّ من النظر إلى الحرة ما تبديه، الوجه والكفان، وإلى الأَمَة الوجه والشعر والنحر والصدر واليدين والذراعين والساقين. وقد انقضى عهد التفرقة بين الأَمَة والحرة. ويصعب النظر بلا شهوة باطنة أو ظاهرة. أما نظر «الفجأة» فهي النظرة غير المقصودة بالنية والقلب والعمد. هي النظرة الأولى.

---

(1) السابق، ص494-520.

(2) «وكان نساء العرب يعلمن أولادهن اختبار أزواجهن. كانت المرأة إن أنكحت ابنتها قالت: يا بنية اختبري حليلك قبل أن تقومي عليه. انزعي زج رمحه. فإن سكت لذلك فقطعي اللحم على ترسه، فإن أقر فكسري العظام بسيفه. فإن صبر فاجعلي الأكفاف على ظهره وامتطيه فإنما هو حمار». السابق، ج2، ص521.

(3) الأنَّانة كثيرة الشكوى والوجع وعصب الرأس. والمنَّانة التي تمنُّ على زوجها خدمته. والحنَّانة التي تحنُّ إلى حياتها السابقة مع زوج آخر أو أيام العزوبة. والحدَّاقة التي تحدِّق في كل شيء تريد شراءه. والبرَّاقة التي تبرُق في الطعام لقليلة مطعمها أو لكثرته فتأكل وحدها لشرهها.

(4) «المُختلِعة التي تطلب الخُلع، والمُبارية المُباهية لغيرها. والناشز التي تعلو على زوجها».

(5) السابق، ج2، ص521-529.

(6) **الإحياء**، ج2، ص22-62.

جـ ـ الكسب والمعاش. وموضوع حكم المتسبب للمعاش وما يجب على التاجر من شروط العلم «صلب المعاملات» التجارية القديمة المركَّزة حول السوق مثل المعاملات الحديثة المركزة أيضا حول السوق باسم المعاملة[1]. و«المعاش» و«التجارة» لفظان قرآنيان وفي الحديث أيضا. ومن الذنوب لا يكفرها إلا طلب المعاش. ولا خير من قوت من عمل الصانع بيده. والتاجر الصادق يمشي بين الشهداء. ومن يسعى على نفسه وعلى أبويه وعائلته كمن يجاهد في سبيل الله. والله يحب من يتخذ زينة يستغني بها عن الناس.

كان السوق هو النشاط الاقتصادي الأول عند القدماء ثم الصناعة ثم الزراعة لندرة المطر وقلة المياه. ومن ثمَّ احتاج التاجر إلى علم البيع والشراء والأخذ والعطاء. ومن ربح مثل الدنيا مالاً وخسر عُشر الدين فتجارته خاسرة. إذ تختلط الأموال، أموال التجارة والصناعة مع أموال الأجناد. وتؤخذ بغير استحقاق. ويدخل الحلال مستهلكاً غامضاً في الحرام.

والأخلاق شرط الربح. وأولها الكرم. إذ لا تُقبل شهادة الشحيح. ويُحرم الظلم حتى ولو كان من السلطان والتجارة معه حتى خيط ثوبه. وهناك بيوع فاسدة مثل الغرر والخطر والمجهول والمصارفة والمشارطة والنجش وهو شراء شيء ليضر به الآخرين، وبيع ما لا يوجد أو بيع الدين بالدين أو الشراء دون دفع الثمن، والثمار التي لم تثمر والحيوان غير المولود. ولا تتوسط المقابلات. ولا يباع الذهب مخلوطا بالخرز في القلادة، وما يكون سببا للمعصية أو أخذ الحرام أو الصناعات المحدثة المكروهة. ولكل بضاعة وقت لبيعها. فلا يبيع الهدية إلا الصابئة وأهل الذمة لأن المسلمين في المساجد قبل شروق الشمس[2].

ولا يشغل المعاش عن المعاد. فالناس ثلاثة: من يشغله معاده عن معاشه وهو الفائز. ومن يشغله معاشه لمعاده وهو الناجي. ومن يشغله معاشه عن معاده وهو الهالك. ومن أحب الله عاش. ومن أحب الدنيا طاش. والأحمق يغدو ويروح في لا شيء! ولا يُعرف الإنسان إلاَّ في سلوكه في الحياة اليومية في الجيرة

(1) **قوت القلوب**، جـ2، ص533-582.

(2) السابق، ص533-539.

أو في المعاملات حتى ولو كان قائماً بالمسجد. وعند سماع الأَذَان يتوقف البيع والشراء.

ويُتجنب عديد من الصنائع مثل الزخرف والصور والصياغة والكحل وكل أدوات التجميل. ويُكره بيع الطعام والدقيق وبيع الأكفان لتمني أصحابها الغلاء أو الموت. وتُورث صنعة الجزارة قسوة القلب. وبيع الحيوان أيضاً مكروه لتلفه. ومن المستحب التجارة في البر وهي تجارة أهل الجنة. في حين أن الصرف تجارة أهل النار أي سوق الأوراق المالية والمضاربة في البورصة. والصراف والبستاني والحمال والملاح وصاحب الحمام والخشاش والمزين حرفيون فسقة. ويتخلل ذلك بعض الأساطير مثل بيعة الشيطان أول لحظة وآخر لحظة في السوق وبالتالي لا يجوز البيع والشراء في هذين الوقتين. وهناك أعمال لله مثل تعليم القرآن والذكر والإمامة.

والاحتكار ملعون لأنه ربح يستغل ضيق الأسواق. كما أن مدح السلع بالكلام غش، أي كل ما يتعلق بالإعلام التجاري. ويُقتضى البيع الورع وعدم إخفاء عيوب المعروض. ولا يصح الغش في الميزان. وكلها مظالم للناس لا تجوز فيها الكفارة. السماحة في البيع والشراء والاقتضاء مطلوبة، وكذلك استعمال النصح والتبصرة بعيوب المعروض الظاهر والخفي. فالغش حرام. ومن غشنا فليس من الأمة.

وللكسب والمعاش آدابه. فالبيوع لها عقود. والربا حرام لأن المال لا يولد المال. ولا يستغل حاجة المحتاجين. ولا يتركز في أيدي قلة مستثمرة كقيمة في ذاته دون خطط للاستثمار ودون جهد. فالعمل وحده مصدر القيمة. والبيوع مثل الإجارات في العمل بالمقابل ومثل الشركات. وكلها تقوم على العدل في المعاملة واجتناب الظلم، تحقيق المنفعة وتجنب المضرة مع ضرورة الإحسان في المعاملة والتيسير على الناس[1].

ويكفي قوت اليوم وقدر الحاجة في المعاملات التجارية. فالإنتاج للاستهلاك وليس للوفرة والتصدير. والحذر من التجارة البحرية لمخاطر ركوب البحر. فلا يركب البحر إلا حاج أو غازي أو معتمر. وكذلك تمتنع المكوس أي الضرائب

(1) **الإحياء**، جـ2، ص62-89.

والجمارك لحرية التجارة وأرض الله. ولا يجوز تحويل المقابر إلى أسواق كما يحدث حالياً في تجارة الجنس والمخدرات. وأرض السواد ملكية عامة. كذلك لا تجوز التجارة في المصاحف. ولا يجوز استعمال الفضة في الأدوات المستعملة. ولا يجوز تقبيل يد والي المسلمين أو ضياع غلة الورثة. بل لا يجوز شم رائحة عطر ثم بيعه أو الغش في الشراب أو تشبه الرجال بالنساء أو النساء بالرجال. ويكره تجصيص الحيطان منعاً للغش والتزييف[1].

9 ـ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

ويتضمَّن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ثلاثة خصال: العلم بالأمر، والعلم بالنهي، والرفق بالأمر والنهي والعدل فيهما[2]. كل عالم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وهو عامل بها فهو متصل بهما بالعرض[3].

والمُنكرات هي عادات كل عصر ولا يمكن حصرها. يقوم بها علماء الاجتماع مثل منكرات المساجد والأسواق والشوارع والحمامات والضيافة والمنكرات العامة[4]. ويتجاوز الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر المجتمع إلى السياسة، ومن العادات الاجتماعية إلى سلوك الأمراء والسلاطين، ويجوز في فقههم التعريف والوعظ دون التخشين في القول والمنع بالقهر والضرب والعقوبة[5].

«والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر»، هو القطب الأعظم للدين رسالة الأنبياء أجمعين ضد الضلالة والجهاد، والفساد الاجتماعي، والخرق، وخراب البلاد، وهلاك العباد. وهو ركنٌ واجب. له أركانه وشروطه، والمنكرات المألوفة في العبادات تتغيَّر من عصر إلى عصر، وفي تطبيقها على الأمراء والسلاطين.

ومطالب الخلق في الدنيا أربعة في النفس مثل العلم، وفي البدن مثل الصحة

---

(1) «والأخبار في هذه المعاني تكثر، والفضائل فيها تطول. ولم نقصد جمع ذلك. فقد ذكرنا جملة، وهذا كله داخل في البر والتقوى، ومن العدل والإحسان. ومن تطوع الخير وفعل المعروف فقد أمر بذلك في مواضع من كتابه». **قوت القلوب**، ج2، ص550.

(2) **التستري**، ص290-291.

(3) السابق، ص335.

(4) **الإحياء**، ج2، ص330-337.

(5) السابق، ص337-351.

والسلامة، وفي المال مثل الثروة، وفي قلوب الناس مثل الاحترام والهيبة. والمعصية لها ثلاثة أحوال منصرمة لها الحد والتقرير من السلطان أو حاضرة يواجهها الأفراد والجماعات أو مستقبلة ومقابلتها بالوعظ والإرشاد. ولا يأتي لفكر وينهي عنه[1].

ويدخل «الأمر بالمعروف والنهي عن المُنكر» تحت شرط الحسبة، المحتسب والمحتسب عليه والمحتسب فيه ونفس الاحتساب[2]. وآداب المحتسب مصدرها ثلاث. صفات في المحتسب مثل العلم والورع وحسن الخلق[3]. وللمحتسب شروطه مثل الإسلام والتكليف والقدرة وتضم الوعظ بالكلام اللطيف دون السب والتعنيف أو أن يكون للمحتسب أي طمع في الدنيا[4]. وتؤدى الحسبة في كل مُنكر ظاهر في الحال أو بغير تجسس، وهو العلم بكونه منكراً، أو بغير اجتهاد. والاحتساب له درجات وآداب. أوله التعرف ثم التعريف ثم الوعظ ثم النصح ثم السب والتعنيف ثم التغيير باليد ثم التهديد بالضرب ثم إيقاع الضرب ثم شهر السلاح ثم الاستظهار بالأعوان وجمع الجنود. الثلاثة الأولى مقبولة، والستة الأخيرة تأباه الآن روح العصر[5].

وإذا ناصح الله العبد أضاء قلبه فتسطع الجوارح فيبصر الذر الأسود على الصفا في الليلة الظلماء. ومعرفته في الدنيا أعز من الكبريت الأحمر. عنده الخير العميم. ويقوى السماع فيسمع ما لا يسمعه الآخرون. فالنصيحة ليست فقط لأُولي الأمر ولأئمة المسلمين وعامتهم بل أيضاً في الأمور العملية بين العبد والرب في الأمور العرفية[6].

---

(1) لا تلم المرءَ على فعله وأنت منسوب إلى مثله
من ذم شيئاً وأتى مثله إنما يزري على عقله
السابق، ص329.

(2) «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر». السابق، ج2، ص302-351.

(3) «آداب المحتسب»، السابق. ج2، ص328-330.

(4) أرى الدنيا فمن هي في يديه هموماً كلما كثرت لديه
تهين المكرمين لها بصغر وتكرم كل من هانت عليه
إذا استغنيت عن شيء فدعه وخذ ما أنت محتاج إليه
السابق، ج2، ص313.

(5) السابق، ص302-328.

(6) **التستري**، ص346.

والنصيحة من كمال الرحمة، وترك الطعن من كمال النصح. النصيحة أحد أوجه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ومقدِّمة له ونصيحة العقل الا يدبر بعقله شيئا سوى حاله، وكأن العقل ميدان خاص مغلق وليس مجرد أداة أو منهج. ونصيحة القلب استعمال العلم، فالعلم في الباطن وليس في الظاهر. ونصيحة اللسان الإجابة بالحال صدقا. فاللسان دليل على الفؤاد. من لم ينصح الله في نفسه لم ينصحه في خلقه. ونصيحة الخلق أشد من نصيحة النفس. ونصيحة النفس أسهل من نصيحة الآخر. وأدني نصيحة النفس والشكر. والشكر ألا يعصى بنعمة[1].

والعلاقات بين الأنا والآخر تقوم على النصيحة، فالنصيحة للخلق حث الناس على الحسنة وتشجيعهم عليها، ورحمتهم في المعصية[2]. فالنهي عن المُنكر رحمةً وليس عقاباً، محبةً وليس كراهيةً. والبداية بالنفس، فعل المعروف والانتهاء عن المنكر كما قال المسيح: «إذا طلبت من أخيك نزع القشة من عينه فانزعها من عينك أولاً!». الأمر بيد الإنسان. إن نصح صافاه الناس وإن خلّط جافوه[3]. بداية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالنفس والصبر عليه والعلم به[4].

ويجمع الجهاد بين جهاد النفس وجهاد العدو، الجهاد في الداخل والجهاد في الخارج. فالجهاد ثلاثة: جهاد في السر مع الشيطان للتغلب عليه وهو جهاد النفس، ومقاومة الشهوات والانفعالات، وجهاد العلانية في أداء الفرائض وهو الجهاد في الطاعة، وجهاد الأعداء ضد غزو بلاد المسلمين[5]. وتمكن العدو بسوء الرأي يوجب الندم[6]. والجهاد جهاد النفس، وصفاء المطعم، ومباينة الأنام وإسباغ الوضوء. فأين جهاد العدو؟[7].

فإن لم يكن الإنسان من أهل الحضرة جاءه الخاطر. وكل هوى خاطر. ولا

(1) **التستري**، ص307-308.
(2) حاتم الأصم، **طبقات الصوفية**، ص95.
(3) بنان بن محمد الحمال، السابق، ص293.
(4) أبو بكر الفرَّاء، السابق، ص508.
(5) حاتم الأصم، السابق، ص95-97.
(6) أحمد بن أبي الحواري، السابق، ص101.
(7) **التستري**، ص171.

ينفعه إلا العلم. وللعلم أضداد. ولا تتخلص منها إلا بالجهاد[1]. فالجهاد هنا في العلم وليس في الواقع، جهاد الأضداد للتوضيح، وليس جهاد العدو للدفاع عن الأوطان. ولا جهاد إلا بالله ولا علم إلا به. وفي الرباط والغزو ثم الراحة، فإذا ملَّ العبد من العبادة استراح في الغزو.

والشهيد هو من شاهد نفسه بين يدَيِ الله. ففعل شَهِدَ يُشتق منه الشاهد والشهيد. الأول يشهد بالقول، والثاني يشهد بالفعل. الشهيد هو الذي شاهد بنيِّته مولاه في حركاته وسكناته. الشهيد هو الشاهد الذي يرى.

وشهداء البحر ليسوا هم الغرقى بل هم الذين يكابدون السر ولا يفترون عنه. ويشاهدون قلوبهم والله يقبض الأرواح. وليس شهداء البر الموتى في حوادث الطريق بل الذين يكابدون الظاهر. هم الذين شاهدوا القلوب بقدر ما حفظت الجوارح. الشهيد هو الذي يبذل روحه في سبيل الله[2]. الشهداء هم الذين يقبض الله أرواحهم مشتاقين إليه محبب لهم منتظرين البشارة وهو الموت. فالشهيد هو شهيد الحب الإلٰهي مثل رابعة والبسطامي والحلاج وابن الفارض وغيرهم. وأفضل شهادة وأكملها وأعلاها من مات على فراشه، وهو موت المرسلين والصدِّيقين لأنهم سَلِموا من الأحداث[3]. وهو عكس موت المجاهدين وقول خالد الشهير بأنه خاض مئات المعارك ولا يوجد في جسده إلا طعنة رمح أو ضربة سيف وهو يموت على فراشه كالنعاج. وهو ضد مدح القرآن للشهادة ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾، والشهيد الآن هو الذي يقاوم في فلسطين والعراق وأفغانستان والشيشان وكشمير وسبته ومليليه المُحتلتين في شمال المغرب.

(1) **المواقف**، ص180.

(2) **التستري**، ص214.

(3) «أفضل الشهادة وأكملها وأعلاها من مات على فراشه، وهو موت المرسلين والصديقين لأنهم اتقوا الأحداث فسلموا». السابق، ص259.

الفصل الثاني

الرذائــــل

1 ـ جدل الفضائل والرذائل

هناك جدل بين الفضائل والرذائل. تنكشف الفضائل من خلال الرذائل، وتنكشف الرذائل من خلال الفضائل[1]. يسبق السلب الإيجاب. فبعد التخلي عن الرذائل يأتي التحلي بالفضائل. وهو ما سُمِّي في الحديث «الإحياء» «المُهلكات» و«المُنجيات». لذلك يصعب الفصل بينهما، بين الغرور والتواضع، بين الرياء والصدق، بين الغيبة والتقوى. . . إلخ. ومع ذلك أمكن للقدماء فصلهما كما فعل **الإحياء**[2]. وقد توجد الرذيلة دون ما يقابلها من فضيلة. وقد توجد الفضيلة دون ما يقابلها من رذيلة. فيساعد هذا التقابل على وجود طرف إذا ما وُجد الطرف الآخر. فالأدب وحسن الخلق يقابلهما كسر الشهوتين، والنفاق والرياء والمداهنة يقابلها الصدق. والغرور والعَجَب يقابلهما التواضع. والغيبة يقابلها الإخلاص. والجود والكرم والسخاء يقابلها البخل والشح.

وقد تتداخل بعض الرذائل أو الفضائل لأنها في نفس الحقل الدلالي مثل الكبر والعجب والغرور، الرياء والنفاق والشهوة والجاه والادعاء والمداهنة والحسد والغيرة والغيبة والنميمة في الرذائل، والعزة والكرامة، والصدق والإخلاص، وحسن الخلق والأدب، والوفاء وحفظ الأمانة والكتمان، والتقوى والورع، والعفو والرفق، والشفقة والحياء، والتواضع والخشوع، العزة والكرامة، والكرم والصفح والعدل والمروءة والإنصاف والاستقامة في الفضائل. ولا يوجد عدد خاص للرذائل

---

(1) **الإشارات**، ص197.

(2) «وهو ما يفعله الغزالي في «**الإحياء**»: الوسواس في عجائب القلب، وسوء الخلق في رياضة النفس وتهذيب الأخلاق وكسر الشهوتين في فضيلة الجوع». **الإحياء**، ج3، ص2–103.

أو الفضائل متساويان أو غير متساويين، ونظراً لأنه يمكن قلب أحدهما إلى الآخر، فلا يهمُّ العدد. ومع ذلك يفوق عدد الفضائل عدد الرذائل. فإذا كانت الرذائل أربعاً فإن الفضائل تصل إلى اثنتي عشرة فضيلة. ولا يوجد ترتيب خاص للرذائل في نسق عقلي أو وجداني، لكن يوجد ترتيب كمِّي طبقاً للأهمية. كما يمكن وضع نسق يقوم على البداية بالفردية ثم الجماعية، بالداخلية ثم بالخارجية.

وليس التقابل بين الفضيلة والرذيلة هو تقابل بين الخير والشر. فالفضائل والرذائل مكتسبة في حين أن الخير والشر فطريان[1]. وكيف يكون الخير ذلة لأن الشر صفة والفطرة خيِّرة (فطرة الله التي فطر الناس عليها)، و(صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة)؟. وترصد الرذائل والفضائل من النص دون دراسة لأي واقع اجتماعي تتحقق فيه هذه الفضائل. فالأخلاق معيارية. تقرِّر ما ينبغي أن يكون ولا تصف ما هو كائن. ويقتصر التصوف الخلقي على رصد قوائم بالرذائل وأخرى بالفضائل. وهو ما يفعله أيضاً بعض المعاصرين في الغرب[2].

2 ـ النفاق والرياء والجاه والشهرة والادعاء

النفاق أسوء رذيلة. وهو ضد الإيمان. هو ازدواجية بين الداخل والخارج، والإيمان صدق وتطابق بين الداخل والخارج. ولا يقبل من المنافق كفارة لأنه لا دين له. وهنا يجبُّ التصوف الفقه[3]. قوة الإيمان في القلب، وقوة النفاق في الركبتين من كثرة الجثو عليها أمام الخلق[4]. والمؤمن بشره في وجهه، وحزنه في قلبه. والمنافق حزنه في وجهه، وبشره في قلبه[5]. يقوى المؤمن بذكر الله. ويقوى المنافق بالطعام[6].

من كانت له حاجة من الناس يداهنهم ويداهنونه. ومن لم تكن له حاجة يداريهم ويدارونه. أما إذا كانت حاجته من الله فإنه لا يحتاج إلى مداهنة ورياء.

(1) أبو الحسن البوشنجي، **طبقات الصوفية**، ص461.
(2) مثل لوي لافل ولوسين.
(3) **التستري**، ص222.
(4) السابق، ص67، 122-123.
(5) محمد بن على الترمذي، **طبقات الصوفية**، ص220.
(6) أبو العباس بن مسروق الطوسي، السابق، ص240.

وقد يمارس البعض الشعائر لا شعورياً لتحقيق هذه الوظيفة. وأصل النفاق في شيئين: نزول الحاجة إلى الناس وبالناس أي إذلال النفس في طلب الحاجة[1]. النفاق إنزال الحاجة إلى الناس لنيلها ثم التذلل لمن يمتلكها[2]. يقوم النفاق على أن رهبة العبد من غير الله، في حين يقوم الصدق على أن مطلب السلامة من الله. وفي غياب الإخلاص لله يكون الإخلاص للنفس والدنيا والشيطان مما يوقع في الأنانية والمادية والشر. ومن لم يدار ولم يواس ولم يكاف أي المخلص المستقيم فهو كَلٌّ على الناس، عيَّال على الخلق. ومن يداري ويواسي ويكافي فالخلق عيال عليه[3]. وليس صعبا التمييز بين المداراة والمداهنة، وبين الظن واليقين[4].

علامة المنافق ذِكر النبي والصلاة عليه عند المذاكرة. وبعد انتهائها يغيب عن البال. فالذِكر حركة باللسان وتمتمة بالشفتين وليس بالقلب أو بالفعل. ونشاط المنافق كله في الإحداث أي في البدع، والخروج على السنَّة والاقتداء. ويغالي حين السؤال مزايدة في السنَّة ولا يوجد عنده حال[5]. ولا تثبت للمنافق والمرائي والمبتدع والكافر حسنة. بل تثبت لأصحاب الكبائر والمظالم وتذهب عند القصاص والموازنة. فالنفاق والمراءاة مثل الكفر والبدعة. وهو أكبر من الكبائر والمظالم. لا تذهب بالقصاص والموازنة[6]. وأسوأ شيء في أخلاق السوق هو خشوع المنافق[7].

والسمت والتنوق في ثلاثة من الناس: منافق، ومرائي، وحروري. والحروري هو الرافض الذي يأبى النفاق والرياء. أما الصادق فهو خال من كل ذلك بإتباعه السنَّة والاقتداء بالنبي. النفاق أخذ الدنيا بالحرص، والمنع بالشك، والنفاق بالرياء على عكس الصدق، الأخذ بالخوف، والإمساك بالسنَّة، والإنفاق طاعة لله[8]. لو صح لعبد في عمره نَفَس من غير رياء ولا شرك لأثرت البركات عليه إلى آخر الدهر[9].

---

(1) **التستري**، ص212.
(2) السابق، ص215.
(3) السابق، ص150.
(4) «مداراة الناس خير كثير مثل زيادة العقل، وروح القلب ومعونة اللّه». السابق، ص156.
(5) السابق، ص346.
(6) السابق، ص355.
(7) أبو بكر الشهبي، **طبقات الصوفية**، ص506.
(8) حاتم الأصم، السابق، ص95.
(9) عبد اللّه بن محمد بن منازل، السابق، ص398.

فالصدق مستمر في التاريخ. والفرق بين الرياء والإخلاص أن المرائي يعمل ليُري، والمخلص يعمل ليصل[1]. وقد يصبح الرياء المقام الأربعين من مقامات الشاهدين على نحو فلسفي خالص. الرياء طلب النفس حظها بعد كدها في العبادة من غير الحق[2]. والرياء قرين بالنفاق. وهو على وجهين. الأدنى وهو ما بين العبد والرب وهو الشرك في حال النفس. والأعلى هو الافتخار في الدنيا مما لا تثبت معه الحسنات، والرياء مع الناس أشد من الرياء مع الله لأن الأول علن، والثاني سر. الرياء طبع وهو السلوك المزدوج. وهو ما يجعل الشر أصل، والخير فرع. مع أن الإنسان الطبيعي صادق مع النفس. الرياء ضرورة اجتماعية عن خوف أو مصلحة. هو شرك أي وجود ولائين للشعور وقطبي جذب له. فيه زيادة ونقصان مثل الإيمان وهو المناقض للرياء. ويتشعب إلى أوجه عديدة منها الشح أي الخوف من البذل والعطاء[3].

الرياء هو كل فعل يُريد به غير الله أو النفس. وكما يُبطل الشرك التوحيد، كذلك يُبطل الرياء الأعمال. يزيد وينقص مثل الإيمان. ويكون في الفرض مثل الإيمان فيتحول إلى نفاق. كما لا تجوز الصلاة لغير الله لا يجوز القول لغير الله، ولا يجوز العمل لغير الله. وإذا كان العمل لله في البداية ثم أصبح لغيره في الوسط أو النهاية فإنه يفسد. ولا يكون الأدب إلا مع الله وإلا كان رياء. لذلك كان العجب والكبر والفخر من الرياء. والأصل الجهل. والكبر أشد. وحب الرياسة أضرّ على الإنسان من حب الثناء والحمد[4].

الرياء أصل التصنع. الرياء سر، والتصنع علانية. والمرائي لا يعتب عليه أحد في ظاهره وسره غير ذلك. الرياء متعدد الجوانب أهونه التنحنح أي تصنع الأدب والأخلاق كالشيخ مارا على النساء ويتنحنح أو يقول يا ساتر من أجل إثارة الذكر للأنثى. ويتم التخلص من الرياء بدوام الكراهية، والتبري من النفس مما تأتي به[5].

(1) جعفر بن محمد الخلوي، السابق ص436.
(2) روزبهان، **مشرب الأرواح**، ص184.
(3) **التستري**، ص345.
(4) السابق، ص345.
(5) السابق، ص143-145.

الرياء نوعان، قليله شرك وكثيره ليس بشرك. الأول عمل يقصد به عبادة غير الله. والثاني رياء أهل التوحيد الذين وحدوا الله سراً وعلانية، وأظهروا الخير على أنفسهم. أهل الدنيا بالدنيا يراءون وأهل الدين بالدين يراءون. وقد تكون المراءاة بتبني مذهب. قد يُعمل عمل يراد به الآخرة ولكن يظهر على من يعمله. إن كان عالما فهو ليس رياء وإن كان جاهلا فإنه لا يسلم من رياء[1]. الرياء نوعان، الأول أعظم من الثاني وهو إرادة العبد بطاعة الله. والثاني إرادة العبد طاعة الله والثواب معا كقصدين في القلب كالشرك. وهو ما حذَّرت منه رابعة[2]. الدافع على الرياء ثلاثة عقود في ضمير الإنسان: حب المحمدة، وخوف المذمة، والطمع فيما أيدي الناس[3]. ويظهر الرياء في العمل واللباس. فالرياء بالبدن، وبالصوت واللون، بالزي وبالقول، بالعمل وبالدين[4]. وتبدأ الرعاية لحقوق الله بتطهير النفس من الأهواء والانفعالات مثل الرياء والعجب والكبر والعزة والحسد. والرياء والعجب مذمومان[5]. و«الرياء والوسوسة» رذيلتان[6]. الرياء طبع، والوسوسة إحدى مقاماته.

الرياء وهو أول ما يخاف منه الإنسان لإبطال ثوابه[7]. وهو ظهور الإنسان على غير ما هو عليه، إذدواجية الشخصية، إنفصام الداخل عن الخارج[8]. وهو لفظ قرآني موروث وليس وافدا. والإخلاص في العمل نقيض الرياء أي وحدة الشخصية، وتجانس الظاهر والباطن[9]. ويجوز للعبد أن يقطع أنه أخلص لله في عمل قبل أن يشرع فيه وأثناء الشروع فيه وبعده[10]. الرياء هو التظاهر بعمل يقصد

---

(1) **المسائل**، ص64-66.

(2) معرفة أن الرياء على وجهين، أحدهما أعظم، والأخر أهون. وكلاهما رياء. السابق، ص188-191.

(3) هيجان الرياء والدواعي إليه. السابق، ص192-194، 206-211.

(4) شرح ما يراءى به من العمل واللباس وغير ذلك. السابق، ص206-211.

(5) ذم الرياء والعجب. السابق، ص275-277.

(6) السابق، ص64-68.

(7) السابق، ص177-357.

(8) صفة الرياء وذكره. السابق، ص177-180.

(9) حض العاصي على الإخلاص في عمله. السابق، ص181-183.

(10) ما يجوز للعبد أن يقطع أنه أخلص فيه لله وما لا يجوز منه. السابق، ص278-279.

به غيره «ألا تعمل بما أمرك الله به تريد به الناس». ويتم الاستشهاد بأقوال السابقين مثل الحسن البصري بعد أن ظهر بدايات الوعي التاريخي[1].

ويتمُّ الحذر من العدو إبليس بثلاث طرق: الأول أمر الله بمجاهدته وهو ما يستدعي الانتظار. والثاني إلزام القلوب بالآخرة. والثالث اشتغال القلب بذكر الله وهو الأسلم[2]. وقد يقع الغلط في الحذر من العدو إبليس عندما لا يؤدي إلى الأمن أو ترك العمل المرائي. وهناك فرق بين الدعوى للباطل والدعوى للحقيقة[3].

وللرياء منازل وأوقات. فالرياء خطرة عند الهمِّ بالعمل ليعظم القدر عند الناس ويُحمد عندهم. وتكون قبل العمل أيضاً دون قصد النيَّة، ومع عدم الرغبة فيه. وقد تأتي خطرة من الله للتنبيه، مرة ومرتين وثلاث وأربع. وقد تأتي الخطرة من العمل فتتغير النية من الإخلاص إلى حب المحمدة. فالرياء كالاستطاعة عند المعتزلة، قبل الفعل ومع الفعل وبعد الفعل[4]. وهو على درجات بين الأعلى والأدنى. أعلاها التظاهر بالإيمان وإضمار التكذيب والشك أو الريب وهو النفاق، ثم المراءاة بالفرض، ثم بالسنَّة الواجبة، ثم بإكمال الفرائض منعا للحرج، ثم المراءاة فريضة واحدة، ثم بالتزيد في السنَّة الواجبة، ثم بالطاعة النافلة، ثم بالنوافل، ثم بعمل بغية محمدة الخلق، ثم المراءاة بالعمل يريد الله، ثم بالعمل يريد الحمد والثواب، ثم بالنوافل تكلفا، ثم بتوهم الطاعة أنه عملها ولم يعملها[5].

وما يورث الرياء من الأخلاق المذمومة المباهاة بالعلم والعمل، والتفاخر بالدين والدنيا، والرئاسة وحب التعظيم والتسخير للعباد واحتقارهم، والتفاخر للاستطالة على الناس والتحاسد، وحب الغلبة[6]. وعلامة المرائي في نفسه حب الحمد على طاعة الله وكره الذم[7].

---

(1) شرح الرياء ما هو الدليل عليه. السابق، ص184-187.
(2) وصف الحذر من العدو إبليس. السابق، ص233-236.
(3) الغلط في الحذر من العدو إبليس. السابق، ص237-240.
(4) منازل الرياء وأوقاته. السابق، ص241-246.
(5) وصف أعظم الرياء وأدناه. السابق، ص247-257.
(6) ما يورث الرياء من الأخلاق المذمومة وشرحها. السابق، ص258-264.
(7) علامة المرائي في نفسه. السابق، ص265.

وما يكسر دواعي الرياء والحمد والطمع المعرفة بشيئين. الأول ما يحرم أو ينقص من خوف الله أو من ثوابه. والثاني تحصيل ما يأتي من العباد مع ما ينزل من الله[1]. وينال الاهتمام والحذر من الرياء بالعناية، والمعرفة بقدر منفعة الإخلاص في الدنيا والآخرة. والاهتمام والحذر يوقظان القلب[2].

ويعني خوف المذمة قتال العدو، وتقدم الصفوف، وترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كراهية ذم الناس. والطمع لما في أيدي الناس هو أن يرى الناس فضائله ليعطيه الآخرون ويصلونه ويبروه[3].

الرياء هو طلب الجاه والمنزلة بالعبادات[4]. وهو مذموم وممقوت. وهو لفظ قرآني نبوي، مشتق من الرؤية مثل اشتقاق السمعة من السماع. وأصله طلب المنزلة في قلوب الناس بإيراهم خصال الخير بالعبادة وبغيرها مثل ما يتزين به العبد للناس وهو البدن والزي والقول والعمل والإتباع والأشياء الخارجة. المراءاة بالبدن مثل النحول والصفار من العبادة. والآن الزبيبة والذقن، والهيئة والزي مثل الجلباب والطاقية أو العقال، والقول مثل الوعظ وهو حال معظم مشايخ الفضائيات، والعمل مثل إطالة الصلاة وطول السجود والركوع وبموائد الرحمن ومظاهر التدين، والمراءاة بالأصحاب والزائرين من العلماء والوجهاء.

وللرياء درجات من أخفِّها إلى أشدِّها حتى الشرك الأصغر. ولما كانت أركانه ثلاثة: المراءى به، والمراءى لأجله، وقصد الرياء، وكان قصد الرياء إما مجرداً دون إرادة العبادة والثواب وإما أن يكون مع إرادة الثواب أضعف أو أشد كانت الدرجات أربعاً: الأولى وهي الأغلظ الخالية من إرادة الثواب. والثانية أن يكون قصد الثواب ضعيفاً. والثالثة تساوي قصد الرياء والثواب. والرابعة ترجيح إطلاع الناس للثواب. والمراءى به هي الطاعات. إمّا رياء بأصولها وهو الأغلظ لأنه رياء بأصل الإيمان أو بأصول العبادات مع التصديق بأصل الدين أو بالنوافل والسنن. أما الرياء بأوصاف العبادات فإما بفعل محبب أو مكمّل أو بزوائد على النوافل. أما

(1) ما يكسر به دواعي الرياء والحمد والطمع. السابق، ص200-205.
(2) معرفة ما ينال به الحذر من الرياء. السابق، ص219-222.
(3) وصف خوف المذمة والطمع مما في أيدي الناس. السابق، ص195-199.
(4) **الإحياء**، ج3، ص285-326.

المراءى لأجله فهو المقصود طمعا في مال أو جاه. وهو أيضا على ثلاث درجات: التمكن من معصية أو نيل حظ مباح أو خوفا من أن ينظر إليه على أنه ليس من الخاصة[1].

وقد يكون الرياء جليّاً أو خفيّاً أخفى من دبيب النمل. الجليُّ هو الذي يبعث على العمل بقصد الثواب أو بدونه. والخفيُّ لا يبعث على العمل ويقلل منه. وهو أقرب إلى التمثيل والتصنع والمراءاة. والسرور محمود ومذموم. المحمود مثل إخفاء الطاعة، وإظهار الجميل، وستر القبيح، وإقتداء المطيعين به، وفرح الله بمدح المطيعين. والمذموم نقيضه. وقد يحبط الرياء الخفي والجلي العمل قبله أو بعده. وهو ما يناقض الإخلاص.

ودواء الرياء وعلاجه بقطع عروقه مثل حب المنزلة والجاه والذي يقوم على لذة المحمدة والفرار من ألم الذم، والطمع مما في أيدي الناس. والدواء العملي التعود على إخفاء العبادات. وكذلك دفع المعارض أثناء العبادة ضد إطلاع الخلق، والشهوة والرغبة في الإعلام. وهي معركة خواطر النفس[2].

ونفي الرياء بمعنيين: الأول نفي ما قد قبل من الرياء، والثاني نفي العارض بالدعاء ولم يقبله من العدو أو من هوى النفس. فالعدو له ثلاث خطرات، الرياء بذكر إطلاع الخلق أو علمهم، والترغيب في حمدهم، والدعاء إلى القبول. وأقواهم الأول. ونفي ذلك بمعرفة الكراهة. ويقبل الرياء بخصلتين إرادة النفس له والشهوة. ونقيضها الكراهة ضد الشهوة والإباء ضد الإرادة[3]. ونفي الرياء ليس على درجة واحدة. بل يتفاوت في السرعة والبطء، وفي الفضل والنقص على أربع درجات: الأولى نفي الرياء بسرعة لقوة العزم أو الاستمرار في المجاهدة أو نفي الخطرة. والثانية الرد بالتكذيب. والثالثة الاستمرار في هيجان الكراهة والإباء. والرابعة العلم قبل الرياء أنه ضد نعمة الرب[4].

---

(1) السابق، ص285-297.

(2) السابق، جـ3، ص297-308.

(3) «باب ما ينفى به الرياء». السابق، ص212-218.

(4) «باب في معرفة قوة الإخلاص على منازعة النفس عند العارض والنفي له». السابق، ص223-232.

وهناك بطبيعة الحال رخص في إظهار الطاعات مثل الرغبة في إظهار الخير. كما أن هناك رخصاً في كتمان الذنوب، وكراهة إطلاع الناس عليها، وكراهة ذمهم له وهو الحياء. وقد تترك الطاعات خوفا من الرياء ودخول الآفات. وهناك ما يصح من نشاط الإنسان للعبادة بسبب رؤية الخلق وما لا يصح. لذلك ينبغي للمريد أن يلزم نفسه قبل العمل وبعده وفيه وهي القناعة[1].

وإخفاء الأعمال رد فعل طبيعي على التظاهر والرياء. وهو ما عبَّر عنه المسيح بقوله: من أراد أن يصلي فلا يصلي في العراء حتى لا يراه الناس ويأخذ جزاءه بل يدخل غرفته ويُغلق عليه الباب ويصلي حتى لا يراه إلا أباه الذي هو في السموات.

و«الإسرار بالعمل» من المخلوقين وليس من الخالق. وهو الإتيان بالعمل سرا[2]. وهو نوعان: الأول إخفاء عمل الجوارح عن الخلق. والثاني إخفاء ما تمن به القلوب عن الأبصار. والأفضل الاستواء بين السر والعلن كما جاء في الحديث: «إن العبد إذا أظهر العمل بجوارحه فاستوت سريرته وعلانيته قال الله: هذا عبدي حقاً».

وقد يأخذ أحد أشكال الرياء وهو الخلق معنى إيجابياً بمعنى التقرب للوصول إلى صدق المقام وهو المقام التاسع عشر من مقامات المحبين. فالتخلق وصف المحب عند المحبوب من غاية حبه وشوقه. والتملق حركة الحدث بنعت الفناء إلى القدم[3].

وقد توضع رذيلتان مختلفتان في نسق واحد مثل «الجاه والرياء». الجاه هو الكبر والغرور والخيلاء، والرياء هو النفاق والمداهنة. والعلاقة بينهما جدلية. الجاه السلطة من أعلى، والرياء السلطة من أسفل. الجاه التربع على القمة، والرياء النفاذ إلى القاعدة والتسلل إليها[4].

أصل الجاه هو انتشار الصيت والاشتهار. وهو مذموم. في حين أن الخمول محمود. والخمول شهرة عند الله لنشر الدين من غير تكلف وطلب للشهرة عند الناس. وحب الجاه مذموم. واللفظ القرآني «وجيهاً» من نفس الاشتقاق ولكنه يعني الوجاهة الروحية والصدارة الأخلاقية. إنما ما يفيد معنى الجاه هو لفظ «العلو».

(1) السابق، ص308.
(2) السابق، ص99-102.
(3) روزبهان: **مشرب الأرواح**، ص103.
(4) **الإحياء**، جـ3، ص268-326.

الجاه والمال ركنان في الحياة الدنيا. المال ملك الأعيان المنتفع بها. والجاه ملك القلوب المطلوب تعظيمها وطاعتها. المال ملك للمصالح والمنافع، والحياة ملك القلوب. وملك المصالح بالحِرف والصناعات، وملك القلوب بالآراء والاعتقادات. المال علو الدرجة في الطبقات الاجتماعية، والجاه علو المنزلة في المراتب الروحية. وثمرته المدح والإطراء. الجاه محبوب بالطبع. لا يخلو منه قلب إلا بشدة المجاهدة. المال كمال وهمي، والجاه كمال حقيقي. الكمال الوهمي في الحيازة، والكمال الحقيقي في العلم. ومن حب الجاه ما هو محمود وما هو مذموم، ما هو فضيلة وما هو رذيلة. جاه القلوب أيضا مرتبط بالدنيا والوجاهة الاجتماعية. أما حب الجاه الأبدي فهو حب الله. المذموم في الجاه هو اعتقاد الناس في ملك القلوب بصفات ذاتية فيه. والمحمود هو جعل الصفات بتوفيق من الله مثل صفات الأنبياء وستر العيوب[1].

وخطورة حب الجاه والاقتصار على الخلق وطلب المدح قد يؤدي إلى التساهل في العبادات والمراءاة بها واقتحام للمحظورات. ويرتبط الجاه بالشهرة و«الشهرة» عكس «الإسرار في العمل». الشهرة هي أداء الفعل العلني مع الناس ولهم والتزيي بزيهم. منها ممدوح ومنها مذموم. الممدوح النِعَمُ الظاهرة، والمذموم مثل لبس الحرير والديباج والمتشبهين بالنساء والمتشبهات بالرجال «أخرجوهم من بيوتكم». والشهرة على قدر الأزمنة. ويختلف الناس فيها. ويشير المحاسبي إلى الحسن البصري مما يدل على بداية التراكم الصوفي والوعي التاريخي عند الصوفية، «بحسب أمرئ من الشر أن يشار إليه بالأصابع في دينه أو دنياه». المهم نقاء القلب: «نق قلبك والبس ما شئت» و«إماطة الأذى عن الطريق صدقة»، «الإيمان بضع وسبعون درجة باب أدناها إماطة الأذى عن الطريق». وإيقاظ الوسنان شهرة «أوقظ الوسنان، وأطرد الشيطان»[2].

والبداية حب المدح والثناء وارتياح النفس به وميل الطبع إليه وبغضها للذم ونفورها منه[3]. والسبب في ذلك شعور النفس بالكمال بالمدح، وأن قلب المادح

(1) السابق، ص278-281.

(2) السابق، ص103-110.

(3) «بيان ذم الشهرة وانتشار الحديث». السابق، ج3، ص269-271.

ملك للمدوح، وتوسيع نطاق ملك قلوب الآخرين بسماع المدح، ودلالة المدح على خشية الممدوح، والتستر واضطرار المادح للإعلان والبيان[1]. وعلاج حب المدح وكراهية الذم هو الرجوع إلى النفس لمعرفة مدى صدق المادح أو ريائه. وكلما كان المدح للصفات الخلقية والروحية كان أبقى. وعلاج كراهية الذم بمدى صدق الذم. فإن كان صادقاً فهو نوع من النصح. وتختلف أحوال الناس في المدح والذم. قد يفرح الممدوح ويغضب المذموم وهو الأغلب. قد يفرح في سره ويحزن في سره. وقد يستوي عنده المدح والذم وهي أولى درجات الكمال. وقد يكره المدح والذم لأنها فتنة، وإعطاء بعض الناس أكثر مما يستحق، والبعض الآخر أقل مما يستحق. ويرتبط بالنفاق والرياء والشهرة والدعوى والادعاء التظاهر[2]. وأدناها الالتزام بحق من حقوق الله، ذنب للتوبة أو بر للعمل في الغد. الادعاء مضيعة لحقوق الله في الظاهر والباطن. الله هو المطلب. وهو ليس دعوى أو بدعة أو غلط أو جهل. وهي مضادات للمعرفة[3]. المدعي ليس خائفاً، وليس أميناً. ولم يطلع على الخزانة. لا يقهر بالحق بل يدعيه. وأصل الخير الافتقار. وهو ضد الادعاء.

المذنب المقرُّ بالذنب ويسأل العفو مطيع. ومدعي الطاعة عاصٍ لأنه يحكم على نفسه بدلا من حكم الله. الدعوى والمعصية يذهبان الخوف من الله. لا يكون المدعي خائفا. ومن لا يخاف لا يكون أميناً. لا يطلع على خزائن العلم المكنون والحكمة التي خص الله بها الصالحين[4].

ودعوى التوكل الاقتداء بالنفس. والمدعي رواح البدن والنفس. اسقط عن نفسه العبودية والورع والتقوى. لا يفعل شيئا إلا التلذذ بالكلام. والتبرؤ من مدعي التوكل والرضا والحب، وليس من العشاق والفجار والقتلة والزانين. فالدعوى أعظم الكبائر[5]. ولا يوجد شيء أكثر فتنة من الدعوى. وأعزُّ منه كلُّ من قام.

---

(1) السابق، ص279، 285.

(2) وتعادل بالإنكليزية Claim.

(3) **التستري**، ص278، 282.

(4) السابق، ص371.

(5) السابق، ص248-249.

فالدعوة قول بلا عمل. والناس نوعان إما مسترشد أو مدع. يُطعم المسترشد وإن أبى. والمدعي لا يقبل من الله أو من الناس[1].

يزكي المدعي نفسه، وهو منهي عنه. يجهل نعم الله عليه كما يجهل حاله. ويكون الهلاك لطلاب الخير بالدعوى في المقام، وقلة الرغبة في المسارعات، والرضا في الحال. فالهلاك في الطموح. وعلاج الدعوى قصر الأمل. فقلب المدعي خال من الخير لا يخاف الله، طموح بلا حدود[2]. والمدعي هو من أطاع الله واجتهد في طاعته ولا يرى ذلك من نعم الله، ولم يتب عن التقصير في أداء الشكر. لم يتخلص من العجب والكبر والدعوى إلا صديق وعبد عرف نعمة الله عليه في مسالك الروح، وعرف تقصيره في أداء الشكر[3].

3 ـ الكبر والعجب والغرور

الكبر أن تبصر الحق وتغمض الناس[4]. وبطر الحق رده وبخس الناس أشياءهم. الكبر نعمة المنعم والاستعلاء عليه، والنظر إلى الآخرين نظرة الأستصغار. وهو ما فعله إبليس ﴿أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ﴾ ﴿خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ﴾. وإذا صغر قدر العبد تكبر، وإذا عظم قدره تواضع. وإذا تكبر حل به الذل، وإذا تواضع حلت به العزة[5]. والباعث على الكبر نسيان النعمة. والدافع على الكبر فقر العبد وشدة الحاجة. وهو من عظيم الآفات[6]. تتشعب منه أكثر البليات. يستوجب العقوبة والغضب لأنه صفة لله وحده. والحجج النصية كثيرة من القرآن والحديث القدسي والحديث وأقوال الصحابة. ويتشعب من العجب والحقد والحسد والرياء. وسببه الجهل بالقدر. الكبر هو التعظم والاستكبار[7]. والكبر بالدنيا هو الكبر بالحب والجمال والقوة والمال والعدد[8]. وهو يُقال بلغة العصر «العزو» وبالمثل

(1) السابق، ص376.
(2) السابق، ص250.
(3) السابق، ص272.
(4) **المسائل**، ص58-63.
(5) السابق، ص58-59.
(6) السابق، ص446-506.
(7) وصف الكبر وشعبه وشرح وجوهه. السابق، ص446-456.
(8) الكبر يكون عن العجب وتفسير الكبر بالعلم. السابق، ص457-464.

الشعبي «يا بخت من كان النقيب خاله». والدافع على التكبر بالعلم والعمل عظم قدرهما عند الناس[1].

يكون الكبر عن العَجَب في الدين بالعلم والعمل. والكبر بالعلم يذهب بمعرفة أن العلم نسبي، وأن فوق كل ذي علم عليم. وما زال الرجل عالما ما طلب العلم حتى إذا ظن أنه علِم فقد جهل. التواضع يذهب الكبر، وقد يكون الكبر عن الرياء برد الحق وعدم الخضوع له. وقد يكون عن الحقد[2].

وينتفي الكبر بمعرفة الإنسان قدره في الدين والدنيا، بمعرفة بدايته وحياته وعاقبته. فقد وُجد من لا شيء وينتهي إلى لا شيء إلا من الجزاء عن الأعمال، وأنه حصيلة نِعَم الله عليه. فابن آدم من تراب، هش ضعيف، وجود من أجل الموت بلغة المعاصرين ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ﴾، «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حب من خردل من كبر»[3]. ويعلم الإنسان أن نفسه قد تخلت عن الكبر على الصدق وأنه لا خدعة منها بتفقدها الباعث على الكبر وأعمال التكبر مثل الإعجاب بالنفس. ويدخل الرياء مع الكبر[4]. ومن ظن نفسه أفضل من نفس فرعون فقد أظهر الكبر. لذلك يكون السؤال لا عن قوة وعزة نفس بل عن ضعف وفقر وتضرع والتجاء[5]. وهو ما يعارض العزة والحياء والتعفف.

وينقسم الكبر إلى ظاهر وباطن، الظاهر في أعمال الجوارح، والباطن خلق في النفس. وهو إلى الباطن أحق. والمتكبر عليه هو الله. وقد يكون على الرسل أو على العباد باستعظام النفس. وما به التكبر عند استعظام النفس لِما بها من صفات الكمال الديني والدنيوي. الدين هو العلم والعمل. والدنيوي هو النسب والجاه والجمال والقوة والمال وكثرة الأنصار.

وأسباب الكبر الباطن والبواعث عليه هو العَجَب بالنفس. أما الأسباب الظاهرة فهو عَجَب المتكبر ثم الحقد والحسد على المتكبر عليه ثم الرياء. ويظهر الكبر في الشمائل كصعر الوجه والنظر شزراً وإطراق الرأس، والجلوس متربعاً أو

---

(1) التكبر بالعلم والعمل خاصة. السابق، ص483-488.

(2) ما يكون من الكبرياء عن الرياء، وما يورثه من الأعمال المذمومة. السابق، ص465-467.

(3) نفي الكبر وتعريف العبد قدره. السابق، ص472-482.

(4) بِمَ يعلم العبد أن نفسه قد تركت الكبر على الصدق ولا خدعة منها. السابق، ص489-494.

(5) حمدون النصار، **طبقات الصوفية**، ص125، 128.

متكئاً، وفي الأقوال في الصوت والنفحة والصيغة، وفي المشية والتبختر، والقيام والجلوس، والحركات والسكنات والأفعال، وتقلبات الأحوال والأقوال والأعمال.

الكبر سمة الأغنياء، والتذلل والتواضع من أخلاق الفقراء[1]. فالغنى يورث التكبر والغرور، والفقر يورث التواضع، وأحياناً المذلة. فهناك صلة بين الأخلاق والاقتصاد، بين السلوك الأخلاقي والمستوى الاقتصادي[2].

وعلاج الكبر واكتساب التواضع عن طريق استئصال الأصل أو دفع العارض بالعلم والعمل، والعلم بأنه الله هو الخالق، والعمل بالعبادات اليومية، طبقاً للبسطاء وعامة الناس. فالتكبر بالنسب والكل لآدم وآدم من تراب. والتكبر بالجَمال. فالجَمال باطني وليس ظاهرياً. والتكبر بالقوة والإنسان هش لِما ينتابه من العلل والأمراض والموت، والتكبر بالغنى وكثرة المال وكثرة الأتباع والأنصار وولاية السلاطين. وهي أوضاع خارجية وقتية، ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾. والكبر والعلم أعظم الأوقات ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾، ولذلك عدة امتحانات مثل الدخول في جدل علمي كي يعلم أن الخصم أعلم منه، وأن يتأخر في الجمع، وإجابة دعوة الفقير، وقضاء حاجة النفس والغير.

وقد يتكبر على أهل البدع وأهل الكفر والشرك. وأهل البدع من أهل التوحيد قد يرجعون إلى الحق. والتكبر على الناس لا يجوز على الإطلاق بصرف النظر عن الإيمان لاستحالة الشق على قلوب الناس[3].

وقد يُضم الكبر والعجب في كتاب واحد[4]. والكبر لفظ قرآني ونبوي وهو مذموم مثل ذم الاختيال وإظهار آثار الكبر في المشي وجر الثياب[5].

وشر الطاعات طاعة أورثت العجب[6]. المعجب بعمله مستدرج، والمستحسن لأحوال ممكور به. والظان الوصول مغرور. والأفضل أن يُخجل

(1) أبو عمرو إسماعيل بن عطاء الأُموي، السابق، ص455-456.
(2) أبو عبد الله التروغبذي، السابق، ص495.
(3) في بيان الكبر على أهل البدع وغيرهم من أهل الكفر والشرك. السابق، ص504-506.
(4) «كتاب ذم الكبر والعجب»، **الإحياء**، جـ3، ص326-367.
(5) السابق، ص327-330، 334-358.
(6) أبو العباس بن عطاء الأُموي، السابق، ص269.

الإنسان في أفعاله وأحواله. ولا يشاهد إلا الواحد، ولا يأنس إلا به، ولا يشتاق إلا إليه[1]. فهل يمكن للفعل أن يكون مسلوب الإرادة؟

تتولد الدعاوى من الاغترار، وتستوطن الأسرار[2]. وتتولد من فساد الابتداء. فمن صحت بدايته تصح نهايته ومن فسدت بدايته يهلك في أرجاء أحواله.

والعجب من أسباب الشقاء ويدل على الاستغناء، والاكتفاء بالذات. وهو على مستويات عدة. أدناها إبليس فدخل النار[3]. فقد أُعجب بنفسه. فما بال أعلاها. «لا يدخل الجنة من كان في قلبه ذرة من كبر». وهو من فعل الشيطان أي من أهواء النفس[4]. وهو ما يؤدي إلى معرفة النفس. وهو الغرة بلفظ المحاسبي. وهو الغرور، بلفظ المحدثين. ويؤدي العجب إلى الافتخار والتكبر والاختيال مما يؤدي إلى هلاك الأُمة. والآيات كثيرة مثل ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ﴾. والأحاديث كثيرة في التنبيه على ذلك مثل «إذا رأيت شحاً مُطاعاً، وهوىً متبعاً، وإعجاب كل ذي رأي برأيه فعليك نفسك». وعن الصحابة أن الهلاك في اثنين: القنوط والعجب. بجمع العجب بين عدة خصال: العمى عن الذنوب والأخطاء، نسيان ذنوب أخرى واستصغارها، والقول بغير الحق، والكبر والتعظيم على رقاب الناس، والاغترار بالله والمن عليه[5]. وقد يكون العجب بالدين، بالعمل والعلم والرأي الصواب والرأي الخطأ. العلم من الكتاب والسنَّة والإجماع. والرأي الصواب قياساً واستنباطاً ونقيض الرأي الخاطئ العجب بالدين حمد النفس ونسيان نعم الله[6].

والكياسة تورث العجب إذا كانت غروراً وادعاء وليس حقاً طبيعياً في استعمال الذكاء[7]. يتولد العجب من رؤية النفس وذكرها، ورؤية الخلق وذكرهم ﴿وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ إِنَّكَ لَن تَخۡرِقَ ٱلۡأَرۡضَ وَلَن تَبۡلُغَ ٱلۡجِبَالَ طُولٗا﴾[8].

---

(1) السابق، ص272.
(2) أبو الحسن المزين، السابق، ص385.
(3) **التستري**، ص250.
(4) السابق، ص379.
(5) ما يؤدي إليه معرفة النفس وشرح العجب والإدلال بالعمل. السابق، ص398-401.
(6) العجب بالدين، السابق، ص402-404.
(7) منصور بن عمار، **طبقات الصوفية**، ص136.
(8) أبو عثمان الحيري النيسابوري، السابق، ص172، 175.

وإضافة العمل إلى النفس دون ذكر النعم والتوفيق من الله أحد مظاهر العجب، والاستشهاد بأحاديث قدسية على لسان الصحابة دون إسناد[1]. والإذلال بالعمل معنى زائد في العجب، إعجاب الإنسان بعلمه أو عمله ويتصور أن له عند الله قدراً عظيماً استحق به الثواب دون رجاء لمغفرة أو إظهار لخوف. هي الثقة الزائدة اعتزازا بقانون الاستحقاق[2]. وهو نوع من الأشعرية أن الجزاء رحمةٌ لا عدلاً.

ومن صحب نفسه صحبه العجب. ومن صحب أولياء الله وُفِّق في الوصول إلى الطريق. والعجب والكبر في النفس يقطعان عن الله. واحتقار النفس مرض لا يداوى[3]. ويكون العجب بالرأي الخطأ. وهو ليس نعمة تُنسى ولكن بلاء وخذلانا ونقصاً دائماً طبقاً لأهواء النفس[4].

وقد يكون العجب بالدنيا، بالجَمال، والقوة والعقل، بالعظمة والتمام، بالعمل وحسن الصوت. وذِكر النعمة قادر على إذهاب هذا العجب ومعرفة حدود الإنسان ونسبيته[5]. والعجب بالحسب هو استعظام القدر من أجل الآباء والأصل، أهل الشرف في الدنيا والدين. والشكر لله بذهبه[6]. والعجب بكثرة العدد من الولد والخدم والوالي والعشرة والأصحاب والأتباع، كمٌّ بلا كيف مثل يوم حنين. ويذهب الإحساس بالضعف وبأن الجمع قد يتفرق ويبقى الفرد وحيداً[7]. والإعجاب بالمال من كثرته يذهب لأنه قد يكون فتنة وامتحانا، وأنه واجب أكثر من حق، وأن الفقير له حق معلوم فيه، وأنه قد يكون نقمة لا نعمة[8].

ويمكن للإنسان أن يتطهر من العجب بالدين، بذِكر النعمة في حالة العجب بالحق والطاعة من العمل والعلم والرأي الصائب، بالإضافة إلى الفكر والذكر

(1) لإضافة العمل إلى النفس، السابق، ص405-409.
(2) أحمد بن عاصم الأنطاكي، **طبقات الصوفية**، ص138.
(3) الإدلال بالعمل، السابق، ص410-412.
(4) العَجَب بالرأي الخطأ، السابق، ص413-415.
(5) العَجَب بالدنيا والنفس، السابق، ص429-432.
(6) العَجَب بالحب، السابق، ص433-438.
(7) العَجَب بكثرة العدد، السابق، ص439-440.
(8) العَجَب بالمال، السابق، ص441-443.

بالقلب للآخرة. ومن عرف نفسه فقد زال منه العجب[1]. وينفى العجب بالرأي الخطأ باتهام النفس وترك استحسان الشيء إلا بدليل من كتاب أو سنة أو قياس. وهي مصادر الاجتهاد وفي علم أصول الفقه. فربما يتمُّ اكتشاف سهوها وغفلتها. وهو ما يسمى في عصرنا بالنقد الذاتي[2]. وعلاجه المعرفة بأن ما لدى الإنسان ليس له، إنما هو مستخلف فيه. فعلاج الجهل العلم.

والعجب مذموم، آفاته كثيرة، يدفع إلى الكبر. وهو وصف لكمال في علم وعمل ومال إما خوفا على زوالها وهذا ليس عجبا، أو فرحا بها كنعم لله، وهذا ليس عجبا أو فرحا بها مطمئنا عليها ككمال ذاتي. وله أقسام كثيرة. لكل منها علاج على التفصيل. فيكون العجب بالبدن وجماله، وبالقوة وبطشها، وبالعقل وكياسته وفطنته، وبالنسب الشريف، وبنسب السلاطين، وبكثرة البنين، وبالمال والثروة، وبالرأي الخطأ[3].

ويمكن اتقاء العجب والكبر بالتواضع. فالناس نوعان، مستورة لا يعلم أحد عنها شيئا، ومعلنة عاصية. والمستور أفضل من المعلن. والخوف على النفس أولى من الخوف على الغير، والباطن أولى من الظاهر[4]. من عرف نفسه لم يعجب بعمله. فالغرور ضد تكوين النفس بالرغم من عظمتها ﴿إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا﴾[5]. ويتولد الإعجاب من العمل من نسيان رؤية المنة التي تساعد على الطاعات[6]. فكيف يثق الإنسان بنفسه وبفعله إن لم يكن صاحبه؟

وقد يأتي الغرور كرذيلة مستقلة عن الكبر والعجب[7]. وهو رذيلة مذمومة. وكل ما قيل في ذم الجهل هو ذم للغرور لأن الغرور جهل. والكفر غرور. والغرور انفعال سلبي. آخره الويل والثبور[8]. ﴿إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا﴾، ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا﴾.

---

(1) ما ينفى به العجب بأعمال الطاعة، السابق، ص416-423.
(2) ما ينفى به العجب بالرأي الخطأ، السابق، ص424-428.
(3) **الإحياء**، ج3، ص358-367.
(4) ما يجب من التواضع للمطيعين والعاصين لينفى به العجب والكبر. السابق، ص495-503.
(5) أبو بكر محمد بن داود الدقي، **طبقات الصوفية**، ص449.
(6) يوسف بن حسن البغدادي، السابق، ص188-189.
(7) **الإحياء**، ج3، ص367-402. «كتاب ذم الغرور».
(8) «هذا والله الغرور. وآخر الغرور الويل والثبور». **الإشارات**، ص33.

والمغترون أربع فرق. الأولى أهل العلم بأفعال الجوارح أي الفقهاء دون أفعال القلوب أي الصوفية مما قد يوقع في التلبيس، والوعاظ المهرة في تزويق الكلام والجدل، وحفاظ كلام الزهاد وحملة الأسفار. والثانية أرباب العبادة والعمل غرورا بكثرة العبادات والوسوسات وقراءة القرآن، والقيام بالحسبة، وبالجوار في مكة أو المدينة. والثالثة المتصوفة في الإكثار من الزي والهيئة والسلوك أو إسقاط الأحكام. والرابعة أرباب الأموال مثل بناء المساجد والرباطات والقناطر. ويمكن النجاة من ذلك بالعقل والعلم والمعرفة. العقل هو الفطرة. والعلم هو البديهي. والمعرفة هي الإدراك المباشر.

وقد يذم الكبر بناء على حكايات ومرويات وإسرائيليات وأساطير دون تعريفات أو تصورات أو تحليلات نظرية[1].

4 ـ الحسد والغيرة

أ ـ الحسد. الحسد مذكور في الكتاب والسنَّة. وليس كله محرما[2]. بعضه فرض، وبعضه نفل وبعضه مباح وبعضه يقترب من الحرام. الحسد المباح هو المنافسة والسابقة في الخير ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾. الحسد في العلم والمال في الخير. والحسد المحرم هو الغش وكراهية الخير للآخرين[3]. ومن الحسد ما ليس بحسد بل تمني منع الخير وحدوث البلاء للآخرين. في حين أن الحسد كراهة النعم وتمني زوالها. الحسد المحرم كالكبر والعجب والحقد والعداوة[4]. فأشد عدو للإنسان هو الحاسد[5].

وقد يكون الحسد على الرياسة وحب المنزلة[6]. والشجاعة في الحرب[7].

---

(1) **نزهة المجالس**، جـ1، ص142-146. «باب ذم الكبر».

(2) ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾. وفي الحديث «إياكم والحسد فإن ابن آدم إنما قتل أحدهما صاحبه حسدا». **الإشارات**، ص72.

(3) السابق، ص570-605.

(4) في ذكر الحسد ووصفه، وتفسير محرمه من مباحه. السابق، ص570-578.

(5) **القشيرية**، ص73.

(6) ما يكون من الحسد على الرياسة وحب المنزلة. السابق، ص581-582.

(7) من الحسد وليس بالحسد بعينه. السابق، ص579-580.

وقد يكون عن حب ظاهر الدنيا مثل تحاسد الإخوة أو الأقرباء أو الأصحاب أو الشركاء أو تحاسد الضرتين كما تحاسد إخوة يوسف لنيل الحظوة عند أبيهم أو تحاسد أولاد العم، وكتحاسد التجار والصناع على كسب الأسواق[1]. ويكون في الأشكال والأمثال، وفي النسب أو في القدر، وفي الغنى أو التجارة، وفي الصناعة أو الولاية، وقد يحسد العالم العالم، والعابد العابد. وعقوبته في الدنيا الغم وضيق الصدر وكثرة الهم[2]. وقد ينشأ الحسد عن العجب. وأشد أنواع الحسد ما يكون عن حقد وعداوة وبغضاء[3]. والحقد هو احتقان الغضب وكظم الغيظ عن التشفي في الحال ويعني اشتغال القلب والبغض له والنفور عنه فترة من الزمن[4]. وهو لفظ نبوي[5]. فالحقد ثمرة الغضب. ويثمر بعدة أمور: الحسد بدافع الحقد على تمنّي زوال النعمة، الشماتة في البلاء، الهجر، الإعراض استصغاراً، الكلام كذباً وغيباً ونميمةً وإفشاء السر وهتك ستر، ومحاكاة استهزاء وسخرية، الإيذاء بالضرب، منع الحق، قضاء دين أو صلة رحم أو رد مظلمة[6].

والحسد غُمَّة لا تضر إلاً إذا بدأ الإنسان. هو كراهية القلوب للحسنات التي يحن بها على المؤمنين. فالحسد في النفس دون الجوارح. واستعماله بالجوارح عمل من الحسد لا الحسد نفسه[7]. هو ما بطن من الفواحش[8]. وما كان من القلب دون استعمال الجوارح ذنب بين الإنسان وربه. أما إذا خرج إلى الجوارح فهو ذنب تجري عليه المظالم إلى درجة القصاص[9]. الحسد مذموم. وهو الذي

---

(1) ما يكون من الحسد عن حب ظاهر الدنيا. السابق، ص585-586.

(2) ما يكون من الحسد عن العجب. السابق، ص587-598.

(3) ما يكون من الحسد من الحقد والعداوة والبغضاء. السابق، ص583-584.

(4) **الإحياء**، ج3، ص177-182.

(5) «المؤمن ليس بحقود».

(6) روزبهان: **مشرب الأرواح**، ص155-156.

(7) «باب الرد على من قال أن الحسد بالجوارح وأنه لا يضر إذا كان في القلب ما لم بيده بفعل جارحة وبيان خلافه للعلم». السابق، ص601-603.

(8) **القشيرية**، ص73.

(9) هل على الحسد مظلمة للحسود عند الحاسد إذا أصابه ما تمناه له أو هو ذنب بينه وبين الله عز وجل. روزبهان: **مشرب الأرواح**، ص155-156.

حمل قابيل على قتل هابيل. يضم جميع الآفات. والحاسد جاحد لا يرضى بقضاء الواحد[1]. والحسود لا يسود[2].

الحسد والغش واحد. يشيران إلى شدة الحرص. الحسد مع النعمة، والغش مع البلية. الحسد هو الاعتصام بالنعم إذا كانت للغير وتمني صرفها عنه. والباعث عليه هو شدة الشره، وقلة الرحمة وشدة القسوة. ومنع النعمة من الغير. والباعث عليه مهانة النفس البشرية وشدة الحرص[3]. الحسد عدو النعمة[4]. والحاسد إذا رأى نعمة بُهت. وإذا رأى عثرة شمت. وهو ما تحول إلى مثل شعبي. ويظهر أثر الحب في الحاسد قبل أن يظهر في المحسود، في النفس قبل أن يؤثر في الآخر[5]. الحسد عدل لأنه يقتل الحاسد قبل المحسود.

ومن علامات الحسد أن يتملق الحاسد إذا اشتهر، ويغتاب إذا غاب، ويشمت حين وقوع المصيبة[6]. كل إنسان يمكن إرضاءه إلا الحاسد فإنه لا يرضى إلا بزوال النعمة[7]. الحاسد ظالم، والحسد ظلم لأنه يناقض العدل والاستحقاق[8]. وهو ظلم للنفس قبل أن يكون ظلما للغير، غم للنفس ولهث وراء الآخرين. الحاسد مغتاظ لمن لا ذنب له في نعمة، بخيل بما لا يملكه[9]. ولا يقبل الحاسد إحسان المحسود. ومن ثم لا نفع في التودد إليه[10].

وقد حذَّر سليمان من حسد أحد الناس[11]. ومن لا يحسد الناس يعيش في

(1) السابق، ص72.
(2) السابق، ص73.
(3) لذلك قال الحكماء: «من سقم الناس منه حل في البلاء». **المسائل**، ص58-59.
(4) **القشيرية**، ص73.
(5) السابق، ص73.
(6) السابق، ص73.
(7) السابق، ص73.
(8) السابق، ص73.
(9) السابق، ص73.
(10) السابق، ص73.
(11) السابق، ص73.

غبطة وسعادة[1]. وترك الحسد يطيل العمر[2]. والحسد لا يكون في قلب الأمير لأنه يتمنى الخير لكل من في إمرته[3]. والتخلص من الحسد بمعرفة أن الحاسد ليس عليه أمر الناس، وأن النفع والضرر ليس في مقدوره[4].

ويستطيع الإنسان أن يعلم أنه نقَّى نفسه عن الحسد بجعلها لا تغفل ولا تسهو ولا تنازع إلى محبوب أو مكروه، وتصفية القلب من نوازع الشر وخطرات العدو[5].

ويُقترن الحسد بالغبط[6]. وهو وصفٌ جِبِلّي في الإنس، وكذلك الغضب والضبط والحرص والشره والجبن والبخل. وما كان في الجِبِلَّة من المحال عرفه وهو محمود إذا وظف توظيفا محمودا، ومذموم إذا وظف توظيفا مذموما[7].

وقد يدخل الحسد في منظومة أعم مع ذم الغضب والحقد والحسد[8]. الحسد مذموم لأنه رذيلة. وهو ناتج عن الحقد، والحقد عن الغضب. فهو في النهاية فرع من الغضب. وهو لفظ قرآني ونبوي[9]. وقد رُوي في ذمه الكثير. لا حسد إلاَّ على نعمة على آخر مع كراهتها وتمنِّي زوالها. فالحسد كراهة النعمة وحب زوالها عن المنعم عليه. وقد يكون الحسد فقط مجرد اشتهاء مثلها للنفس. وتسمَّى غبطة أو منافسة. والمنافسة إما في أمر ديني، حب الله وطاعته أو في أمر دنيوي. والحسد المذموم أسبابه سبعة: العداوة، التعزز، الكبر، التعجب، الخوف

(1) السابق، ص73.
(2) السابق، ص73.
(3) السابق، ص73.
(4) السابق، ص73.
(5) «باب ما يعلم العبد أنه قد نفي الحسد؟»، روزبهان: **مشرف الأرواح**، ص599-600.
(6) **الفتوحات**، ج2، ص195-196.
(7) حسد القلب حصاد وهوى النفس بعاد...
فأنا أحسد مثلي وبهذا القوم سادوا
السابق، ص195-196.
(8) **الإحياء**، ج3، ص183-196.
(9) ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾، «الحسد يأكل الحسنات».

من فوت المقاصد المحبوبة، حب الرياسة، خبث النفس وبخلها. ويكثر الحسد بين الأمثال والأقران والإخوة وبني العم والأقارب. وقلته وضعفه في غيرهم. والدواء الذي ينفي مرض الحسد من القلب العلم والعمل، العلم بضرره على الحاسد قبل المحسود. والقدر الواجب في نفي الحسد عن القلب هو عدم الغلو.

والغضب لفظ قرآني ونبوي[1]. لا يفسر فسيولوجيًّا طبقاً للتراث الفلسفي القديم بنسبة العناصر الأربعة بل نفسيًّا، وهو دفع الحالة النفسية إلى حدها الأقصى، في الإفراط أو التفريط. وقد يكون رد فعل على غضب آخر في سياق اجتماعي. ويمكن إزالته بالرياضة إلى حد ما وليس كلية. والأهم هو منع الأسباب المهيجة له ثم علاجه بعد هيجانه بالتفكر والخوف من العقاب، والحذر من عواقب العداوة، وقبح الصورة. خطورة الانتقام عند استحالة كظم الغيظ، عدم سير الأمور إلا على مراد الله وليس على مراد الإنسان. وكظم الغيظ فضيلة. والحلم فضيلة مساعدة[2].

ب ـ **الغيرة**. وهو لفظ نبوي[3]. ويعني مشاركة الغير فيما هو حق له[4]. وهي قريبة من الحسد، من صفات أهل البادية. لا تصيب الموحد لأن الله أولى بكل شيء[5]. هي عمل المريدين وليس أهل الحقائق. وهي غيرتان: غيرة بشرية على النفوس، وغيرة إلهية على القلوب[6]. الغيرة الإلهية على الأنفاس الضياع فيما سوى الله. الله غيور لا يحب أن يبقى في قلب عبد سواه[7]. الغيرة إذن لها معنيان غيرة العبد من غيره وهو الحسد، وغيرة الله على عبده إذا ما كان في قلبه شيء لسواه. الغيرة متبادلة: غيرة الحق على العبد وهو ألا يجعله للخلق فيضنُّ به عليهم، وغيرة العبد للحق وهو ألا يجعل شيئاً من أحواله وأنفاسه لغير الحق. فلا يُقال أغار على الله بل أغار لله. الغيرة على الله جهل قد يؤدي إلى ترك الدين،

(1) ﴿غَضْبَنَ أَسِفًا﴾، «لا تغضب»
(2) **الإحياء**، جـ3، ص160-177.
(3) **القشيرية**، ص115-117.
(4) أبو علي الدقاق، السابق، ص115.
(5) أبو عثمان المغربي، السابق، ص116.
(6) الشبلي، السابق، ص116.
(7) النصراباذي، **القشيرية**، ص18.

والغيرة لله توجب تعظيم حقوقه وتصفية الأعمال له. غيرة الله على العبد أن يصفي قلوبهم ويعيدها خالصة إليه. ثم تتحول الغيرة إلى المقام الواحد والعشرين من مقامات العاشقين[1]. وتعني رفض المشاركة في الحبيب. وهو حجاب ولا أحد أغير من الله.

والغيرة مشتقة من الغير. لا يوصف بها إلا من يراه ولا يحسن بها إلا من يراه. وله مرتبتان: غيرة رجل فيه بقايا من رسوم الخليقة لم يصل بعد إلى حضرات الحقيقة، وغيرة رجل وصل ثم رجع بربه إلى خلقه للتكميل. وهي على أقسام: غيرة العابد على تضييع وقته في غير عبادة، وغيرة مريد على تضييع وقته في المسامرة، وغيرة العارف على نفس علقت برجاء وإلى المعطي الحق دون الخلق. الغيرة في الخلق لتعدي الحدود، وغيرة السر بإزاء كتمان الأسرار، وغيرة الحق ضنًّاً على الأولياء. والغيرة قد تكون على المحبوب. وقد تكون دافعاً على الحسد. أصلها منافسة المحبوب عند المحب. في البدايات الغيرة على ضياع عباده. وفي الأبواب على الخشوع للغير، وفي المعاملات على وقت المريد. وفي الأخلاق على فضيلة يسبق بها الغير. وفي الأصول على قصد لغير المحبوب. وفي الأدوية على تعظيم الغير. وفي الولايات على إثبات الحياة للغير. وفي النهاية على إثبات وجود غير الحق[2]. الغيرة إحدى مقامات السائرين وهي من الأحوال. وتعني إزالة الغيرية ونفض آثار الخلقية عن الحقية[3].

ويعطف الحق بأوليائه لغيرته عليهم[4]. والغيرة عاطفة إنسانية، وهي نوعان: غيرة بمعنى الحسد وتمنّي أن يكون لدى الإنسان ما لدى الآخر أو أن يفقد الآخر ما يفقده الإنسان[5]. وهذه لا يوصف بها الله بل الإنسان وحده، وغيرة على الحق يوصف بها الإنسان وليس الله، تدعوه إلى الحماس دفاعا عن الحق. ومع ذلك، الغيرة انفعال سلبي لأنها تود إعدام ما يوجد عند الغير وإيجاد ما عدم عند الأنا،

(1) روزبهان: **مشرب الأرواح**، ص155-156.
(2) **جامع الأصول**، ج3، ص172-173.
(3) **لطائف الأعلام**، ج2، ص549-550.
(4) «لطائف الحق بهم في غيرته عليهم». **رابعة**، ص109.
(5) **الفتوحات**، ج2، ص244-246.

هو تَعَدٍّ على حقوق الغير وعجز عن تحقيق الأنا لغايتها[1]. وهذا معنى مقام ترك الغيرة.

5 ـ الغيبة والنميمة

الغيبة. وهي مذكورة في القرآن والحديث[2]. وهي غير الغيبة في مقابل الحضور من الأحوال. الغيبة هنا وصف سلبي لأحد غائب. وإن لم يستطع أحد نفع أحد فلا يضره أو يسره فلا يغمه أو يمدحه فلا يذمه[3]. الغيبة عدوان على الأخ أكثر من العدوان في الحرب[4]. الغيبة ذكر الغائب بما لو سمعه ساره[5]. وهي مذمومة. والحق لا يغتاب. وقد تكون مرسلة في غيبة أهل الزمان دون تعيين، وغيبة المشايخ المريدين. فلا غيبة في فاسق. واللحمي هو المغتاب الذي يأكل لحم أخيه[6].

من أراد أن يسلم من الغيبة سد عليه باب الظنون كي يسلم من التجسس والزور والبهتان[7]. من سَلِمَ من الغيبة قدر على الكرامات مثل المشي في الهواء أو على الماء. وكذلك من سلم من الحسد أدرك ما فاته من خير. ومن سَلِمَ من كليهما مَلَكَ الدنيا.

---

(1) من يوق شح نفسه فهو الذي — بنوره في كل أمر يهتدى
وغيرة العبد إذا حققتها — شح طبيعي من أسباب الردى
وغيرة الحق إذا علمتها — من رؤية الغير ولا غير بدا
وأين عين الغير وهو عدم — فاسلك هديت الرشد أسباب الهدى
السابق، ص246.

(2) في القرآن ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضاً﴾، وفي الحديث «أكلتم أخاكم واغتبتموه». **القشيرية**، ص73.

(3) السابق، ص73-74.

(4) **جامع الأصول**، جـ2، ص119-120.

(5) **الفتوحات**، جـ2، ص196-198.
فغيبتك الحق في ذكره — بما لم يقل وهي المشأمة
وإن كان حقا ولكن — إذا قاله قائل قال مه
السابق، ص196.

(6) كما في الحديث «إن اللّه يبغض أهل البيت اللحميين». **القشيرية**، ص74.

(7) **التستري**، ص67-68، 168.

ليس للفاسق فيما يفتخر به من فسوق. وله غيبته فيما يكتمه من المعاصي. والمبتدع ليس له غيبة فيما يبتدعه. وله غيبة إذا أخفاها. والسلطان له غيبة فيما يخفي. وفيما لا يخفي ليس له غيبة. الغيبة إعلان خفي عما يخفيه المغتاب، سراً بسر. ليس للغيبة قصاص. فهي ليست جريمة شرعية بل رذيلة أخلاقية. ولها مقامات أي درجات، منها ما يستحل ومنها ما يستغفر منه. ما يستحل منها هو النقد الخفي، وما يستغفر منها هو ظن السوء. وقد يكون القصاص من الحسنات وليس توقيع العقوبات خاصة في المال والضرب. ويثيب الله المغتاب، ويعاقب من يغتاب. وإساءة الظن بالنفس أولى من إساءة الظن بالناس[1]. وعتق مائة رقبة والتصدق بالألوف وفي نفس الوقت يتكلم بغيبة فإنه ليس من الشاكرين. ليس في الغيبة قصاص بل مقامات أي درجات، منها الحلال ومنها ما يقتضي الاستغفار[2]. الغيبة هي إحضار القائم بالمدح وهو ذكر المناقب أو بالذم وهي النميمة. ولا تستدعي حضور صاحبها للدفاع والرد.

وترك غيبة أفضل من خمسين حجة، ومن عتق عشر رقاب، ومن إنفاق جبل من ذهب. فطهارة القلب خير من إتيان الشعائر. واحترام الآخر في غيابه جزء من احترام النفس[3]. الغيبة تُذهب الحسنات واغتياب الآخر لإنسان يضيف له حسنات. والوالدان أحق بالاغتياب لأنهما أحق بالحسنات[4]. ويحتاج من اغتاب إلى مكافأة لأنه يزيد من حسنات المُغتاب. والمُغتاب مغفور له نصف الذنوب.

وقد أوصى سليمان بعدم الغيبة ومن تاب من الغيبة آخر من يدل الجنة. ومن أصرَّ عليها أول من يدخل النار. ومن يغتاب يلقى جزاءه بلقاء المخنثين[5]. فالغيبة تنقص في الرجولة.

الغيبة آفة من آفات اللسان[6]. وهو لفظ قرآني ونبوي[7]. وتعني ذكر الأخ

(1) السابق، ص139-141.
(2) السابق، ص344.
(3) التستري ص255.
(4) السابق، 74.
(5) **القشيرية**، ص74.
(6) **الإحياء**، ج3، ص138-151.
(7) ﴿وَلَا يَغْتَب بَعْضُكُم بَعْضًا﴾، «إياكم والغيبة».

بما يكرهه. وهي لا تقتصر على اللسان فقد تكون بلغة الجسد وقد تكون بالقلب. والأسباب الباعثة عليها شفاء الغيظ، موافقة الأقران، ومجاملة الرفقاء، والتفكه بذكر الأعراض، والرد على القبيح بقبيح، بتبرئة النفس واتهام الغير، وإرادة التصنع والمباهاة، والحسد، واللعب والهزل، والسخرية والاستهزاء. وقد تكون هناك بواعث عند الخاصة مثل إنكار المنكر، والغم بسبب البلاء، والغضب من الله. وعلاج ذلك بالعلم والعمل. فالمغتاب يناله سخط الله. وقد يرخص بالغيبة لصاحب الحق، التظلم أمام القاضي، وتغيير المنكر، والاستفتاء، والتحذير، واستعمال اسم الشهرة المعاب، والمجاهرة بالفسق. وكفارة الغيبة التوبة والندم. وإذا حفظ عيب اللسان في الغيبة والرياء والنفاق والتملق والمداهنة حفظت الجوارح[1]. فاللسان هو البداية.

وتدخل الغيبة في رذيلة أكبر هي «آفات اللسان». ويشارك فيها الرياء[2]. وفضيلته المقابلة الصمت. وهو لفظ نبوي. والآفات عديدة منها: الكلام فيما لا يعني، فضول الكلام، الخوض في الباطل، الهراء والجدال، الخصومة، التقعقر والتشدق والتفهيق وتكلف السجع والفصاحة والتصنع بالتشبيهات والمقدمات وعادة المتفاحصين والمدعين للخطابة والتصنع المذموم والتكلف الممقوت، والفحش والسب وبذاءة اللسان، واللعن، والمزاح، والسخرية والاستهزاء، وإفشاء السر، والوعد الكاذب، والكذب في القول واليمين، الكذب بالمعاريض والأعذار، والغيبة باللسان وبغيره، والنميمة، واللسانان، والمدح، والغفلة، والكلام عن الغيب للعوام. وقد يضيف البعض الغناء والشعر. وقد يرخص في الكذب للصلح أو للمريض أو في الحرب للعدو.

ثم يتحول «اللسان» إلى المقام الحادي والثلاثين من مقامات الواصلين فإذا ارتفعت عجمة الإنسانية عن لسان العارف يتكلم بجميع الأسرار لأن لسانه ملتبس بلطائف الأنوار[3]. اللسن ما يقع به الإفصاح الإلهي للأسماع في آذان العارفين من جانب إفصاح الحق وإعلامهم. ولسان الحق هو الإنسان المتحقق بمظهرية الاسم

(1) **التستري**، ص283.
(2) **الإحياء**، ج3، ص104-160.
(3) روزبهان: **مشرب الأرواح**، ص226.

الذي تصدر منه جميع الألفاظ والمعاني والحروف. ولسان العالم هو لسان الحق لتحقيقه بمظهرية الاسم. واللسان الناطق بالصواب هو لسان العالم[1].

وقد يؤلَّف في موضوع واحد كتاب مستقل مثل **رفع الريبة فيما يجوز وما لا يجوز من الغيبة**[2]. للشوكاني (1250هـ) في موضوع الغيبة ليس في تحريمها بل في أوقات جوازها وهي ستة: التظلم والاستعانة على تغيير المنكر، والاستفتاء، تحذير المسلمين، والمجاهرة بالفسق، والتعريف. والنميمة مثل الغيبة[3]. وهو مصطلح قرآني ونبوي[4]. النميمة هي الغيبة المزدوجة أي القول لأحد ما يقوله الآخر فيه فيما يكرهه بالقول أو الفعل أو الإشارة أو الكتابة أو الإيماء أو الرمز سواءٌ كان المنقول من الأقوال أو من الأعمال. والباعث على ذلك إرادة السوء وإفشاء السر وهتك الستر وذكر الإنسان بما يكره. ورد الفعل على ذلك عدم التصديق لأن النميمة فسق، والفاسق مردود شهادته، والنهي عنها، وبغض النمام، وعدم الأخذ بالظن لأن بعض الظن إثم، ومنع التجسس، وعدم الرضا للنفس ما يُقبل للآخر.

وتبقى بعض التحليلات النظرية المتأخرة للغيبة والنميمة[5]. ضابطها ذكر الأخ بما يكره حتى ولو كان مسلماً أو ذمياً. وهي مذمومة في الدنيا والآخرة. وقد تكون لفظاً أو إشارة أو خطأً يعني وجود نقص في مسلم. والنمام أشر عباد الله. وعذاب القبر ثلاثة: ثلث من الغيبة وثلث من النميمة وثلث من البول.

6 ـ فساد العصر

وعلى عكس ما هو شائع يصف التستري الأخلاق في زمانه. ويتكرر لفظ الزمان بضمائر وأسماء إشارة عديدة، زماننا «هذا الزمان»، «زمان»، «زمانهم»، «آخر الزمان». ولا تعبر الرؤيا عن الكتب ولا وساوس المتقدمين بل عن حال الرجال ووساوسهم أي أحوال العصر كما هو الحال في التحليل النفسي الاجتماعي

---

(1) **لطائف الأعلام**، ج2، ص604.

(2) دار الكتب العلمية، بيروت، 2005م-1426هـ.

(3) **الإحياء**، ج3، ص151-154.

(4) ﴿هَمَّازٍ مَّشَّآءٍ بِنَمِيمٍ﴾، «لا يدخل الجنة نمام».

(5) **نزهة المجالس**، ج1، ص146-148. «باب ذم الغيبة والنميمة».

في العصر الحديث، وفي تحليل أخلاق «هذا الزمان» هناك العيوب وطرق الخلاص أو بتعبير الغزالي فيما بعد «المهلكات» و«المنجيات». فالمهلكات مثل: دعوى المقامات، وقلة الرغبة في المسارعات، والرضا، والوقوف في الحال. الأولى ادعاء وغرور. والثانية تباطؤ ونكوص. والثالثة التسرع دون اليقين. والمهلكات أيضا تضييع الموتى أي احترام العلماء، وتضييع وصاياهم أي عدم الاقتداء بهم، وإذا حرموا السؤال في المساجد والمنازل أي التفكير النقدي المستقل. وإذا كثر التدبير في السر بالمكر والخديعة حل بهم البلاء، ونزعت منهم البركة[1].

والزمان فئات ومجموعات أو بلغة العصر طبقات وهو سبب الهلاك. فمنها العلماء «فقهاء السلطان»، والزهاد «المزيفون»، والعباد «المنافقون»، والأمراء وهؤلاء هم العلماء حول السلطان[2]. وهناك الأغنياء الذين يبتعدون عن الحلال، ويكوِّنون ثروتهم من الحرام. ويتنازعون ويتنافسون ويتصارعون فيما بينهم، فيذهب عنهم صفاء العيش، ويعمُّهم الكدر. يخافون من ضياع الثروة، وشماتة الأعداء. ويعوِّضون عن ذلك بمتع الحياة من الغلمان والإماء. وهم في عناء وشقاء. وبلغة العصر الرأسمالية والعدوان قرينان أو بلغة أحد مذاهبه الاستعمار أعلى مراحل الرأسمالية[3].

وهناك القراء المتكسبون بالقرآن، تلاوةً وتفسيراً. وهم على ثلاثة أصناف كلهم في النار إلا أن يتوبوا: الواقفون على باب السلاطين يتشبهون بالقراء، ويدعون كثرة الصلاة والصوم، ولا يتورعون عن إتيان المحارم. والواقفون على أبواب الأغنياء لطلب الدنيا وحب الثناء والمحمدة، يطلبون المروءة بين الناس. وآخرون يطلبون السلامة لم ينهوا عن المنكر أو يأمروا بمعروف. ولم يغيروا على معارفهم ولا على الصالح العام[4]. أما القراء في هذا الزمان كلهم حطب جهنم

---

(1) **التستري**، ص133، 135.

(2) السابق، ص134-135.

(3) «أما الأغنياء فيذهب عنهم الحلال. فتكون أموالهم من غير حلها ووجوهها ويسلط عليهم من فوقهم أو بعضهم على بعض فيذهب عيشهم ويكونون في كدر. ويلزم قلوبهم فقر الدنيا، وخوف شماتة الأعداء، ويجدون لذة العيش في غلمانهم ومماليكهم. وهم في بلاء وعناء وشقاء». السابق، ص134.

(4) «إنكم ترون القراء في زمانهم هذا على ثلاثة أصناف. كلهم حطب جهنم أيضا إلا أن يتوبوا. فقوم منهم يأتون أبواب السلاطين. يتشبهون بالقراء. ويتعرفون بكثرة الصلاة =

حتى التوبة. منهم الواقفون على أبواب السلاطين مدَّعين العلم، الموظفون الإيديولوجيون المستعدون لتبرير أي نظام للحكم. وهم بلغة عصرنا «ترزية القوانين». يُكثرون من الصلاة والصوم، ويرتكبون كل المحرمات. ومنهم من يقف أمام أبواب الأغنياء طلباً للدنيا والوجاهة والثروة والتفاخر أمام الناس. ومنهم المتعايشون الذين لا تهمهم إلا مصالحهم فيوافقون الناس، ولا يقومون بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وهناك من الناس والصالحين في آخر الزمان من يرفع عنهم علم الخشية والورع والمراقبة. وتبقى وساوس الدنيا بدل الحقيقة، ووساوس العدو بدل الورع، ووساوس النفس بدل المراقبة. وتظهر في القراء والزهاد دعاوى التوكل والرضا والزهد والحب والمقامات وترك الأصل وهو «الكُن» أي الاستقامة. ومنهم من يتعبد ويصلي ويصوم عشرين عاما وهو يأكل الربا، ولا يحفظ لسانه من الغيبة مما نهى عنه الله[1].

والعلماء آخر الزمان ثلاثة أصناف. العارفون بالمنكر والمنكرون له بقلوبهم، والعارفون بالمنكر مخالطو الناس عليه، والعارفون بالمنكر المجاهدون له بالعلم وهم ندرة «أعز من الكبريت الأحمر». فالمحك هو الموقف من المنكر أي من الواقع بين الممالأة والرفض والسكوت[2].

وفي آخر الزمان لا يقيم أحد السنَّة بعلم. ولا يتحملونها كما كانوا يفعلون في حداثة الصبا. ولو اجتمع اثنان لإقامة السنَّة دخل بينهما منافق ليفسد العمل الجماعي. وفي آخر الزمان يظهر قوم موتهم مثل موت البهائم وهم الجهال.

= والصوم. ولا يتورعون عن محارم اللَّه. وفوق منهم يأتون أبواب الأغنياء، ومناهم الدنيا وحب الثناء والمحمدة. يطلبون المروءة بين الناس، وقوم منهم أرفع من أولئك، كانوا يطلبون السلامة. فإن وجدوا من الناس المنكر لم ينكروه عليهم، ولم يغيروا على معارفهم ولا على العام». السابق، ص134.

(1) «يظهر في القراء الزهاد دعوى التوكل والرضا والزهد والحب والمقامات. . . لأنهم تركوا الأصل وهو الكُن أو المكن واستقامته وعلمه وتفسيره. فنرى أحدهم يتعبد ويصلي ويصوم عشرين سنة وهو يأكل الربا وهؤلاء يحسن أن يحفظ لسانه من الغيبة، ولا غيبة مما نهى اللَّه عنه». السابق، ص135.

(2) **التستري**، ص135.

فذهاب العلم أحد علامات آخر الزمان وليس علامات الساعة في العقائد الشعبية، خروج الدابة من جحرها[1].

وفي هذا الزمن الرديء لا نجاة إلا بذبح النفس وقتلها بالورع والضر والجهد[2]. وعيوب الناس في هذا الزمان ذهاب الورع والخشوع، ونقص العلم لإظهار الكلام، وادعاء الزهد لإظهار الحكمة، وعيوبه أيضاً المغالاة في النوافل لإظهار الإيمان، ونقض العهود، وخيانة الأمانة، وتضييعها بين الناس «فاحذروا فإنكم فيه»[3]. ولا يوجد في هذا الزمان عالم يعمل بعلمه. وأكثر الناس علما أسوأهم حالا لأنهم تاجروا بالعلم، وباعوه بثمن بخس. ويبقى الأمر كذلك إلى خروج العبد الصالح[4]. وقد يطلب المنافقون المقامات لأنفسهم وهم القراء التاركون الأمر والنهي. فما فائدة قراءة القرآن؟ ولا يوجد إلا قليل من القراء في الجنة ما لا يزيد على واحد في الألف. وهو من أقام علمه على التقوى، وترك الآثام في السر والعلانية طبقاً لحديث «وأكثر منافقي أمتي قراؤها»[5][6]. والقراء نموذج البطالين الخداعين الذين يسألون عن المقامات تركوا الأمر والنهي علما وتعليما. تركوا علم الأمر والنهي مع أن تعليمه فرض[7]. وهم مثل السوفسطائيين عند اليونان[8].

لو سأل غني عن شيء ينجو به فيجاب وإلاً كان الناصح خائناً وخاسراً[9].

---

(1) السابق، ص291.

(2) «إعلموا أن هذا الزمان لا ينال به أحد النجاة إلا بذبح النفس، وقتلها بالورع والضر والجهد لفساد ما عليه أهل هذا الزمان»، السابق، ص186، 188.

(3) «تظهر ثلاثة أشياء بين الناس: ينزع الورع والخشوع، وينقص العلم لإظهار الكلام، وقول الزهد بإظهار الحكمة. وثلاثة أخرى فيها هذه الفرائض بالاجتهاد في النوافل، ونقض العهود، وخيانة الأمانة وتضيعها بين الناس عام. فاحذروا فإنكم فيه». السابق، ص65.

(4) «إعلموا يقيناً أنكم لا تجدون في زمانكم عالما يعمل بعلمه إلاً ما شاء اللّه عز وجل. وكل من كان أعلم وأكثر علماً كان أسوأ حالاً...لأنهم صيَّروا علمهم مأكلة لهم، وتركوا الأمر الأول بهدم الدنيا وإقبالهم ... إلى خروج العبد الصالح». السابق، ص165-166.

(5) **التستري**، ص159.

(6) السابق، ص236.

(7) السابق، ص207-208.

(8) السابق، ص249.

(9) السابق، ص169.

وهو مثل سؤال غني للسيد المسيح عن كيفية نيل الحياة الأبدية وإجابته «اترك ما معك واتبعني» ورفض الغنى. وأنجح وسيلة للتخلص من هذه المهلكات هو ذبح النفس أي الانتحار. وقد يكون التصوف انتحاراً معنوياً أي قتل النفس بالجوع والضر والجهد تجنُّباً لفساد أهل هذا الزمان. ولا ينجو الإنسان من غوائل هذا الزمان ويحرص على دينه إلاّ إذا تجرأ وقام بثلاثة أشياء: طلاق امرأته لأنها تجره إلى الدنيا وهو يدعو إلى الآخرة كما عرض الرسول بالتخيير بين عرض الدنيا وبين نفسه، وترك الدنيا على من ينازعه فيها والإبقاء على الدين، والتعاون مع من يصون دينه فيبذل نفسه وروحه. وفي هذه الحالة لا يجوز الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لضياع الناس. وقد يكون ذلك يأساً من رحمة الله. فالساعة لا تقوم مادام في الدنيا رجل واحد يعبد الله.

ويكون الهلاك لطلاب الخير في «زماننا» بثلاثة أشياء: دعوى المقامات، وقلة الرغبة في المسارعات، والرضا والوقوف في الحال، وهي عيوب العصر من ادعاء التصوف وقلة التسابق نحو الخير والرضا بالأمر الواقع. ولا يوجد في هذا الزمان عالم يعمل بعلمه. ومن كان أعلم فهو أسوء حالاً لأنه صيَّر علم مأكله وترك الأمر الأول وهو هدم الدنيا والإقبال على الآخرة. فإذا جاء هذا الزمان فيمتنع عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. فقد جار السلطان على الرعية وأخذ الرشوة وتابعه العلماء. يفتخرون بمجالسته[1]. وإذا تاب العاصي المذنب ردوه إلى المعصية. فتعظم بلية الناس، ويرفع المعروف، ويعم المنكر، وعلى الإنسان شراء نفسه ودينه بماله أو شراء الدين بالنفس والمال فإن ذهاب النفس والمال أيسر مع سلامة للدين. والفرار منهم كالفرار من الأسد واجب[2]. ومن ترك الحرام في هذا الزمان يلحق بالزمان الأول الذين تركوا الحلال. فالأخلاق عود إلى الماضي. وهذا ما يفعله الصوفية.

(1) إذا جار السلطان على الرعية، وأخذ الرشوة، وتابعه على ذلك العلماء، يفتخرون بمجالسته وإذا تاب المذنب ردوه إلى المعصية قهراً فقد عظمت بلية الناس، ورفع المعروف وغمر المنكر. فإذا كان ذلك فأيسره نفسك، فإن ذهاب النفس والمال مع سلامة الدين يسير. وفر منهم فرارك من الأسد. السابق، ص136.

(2) السابق، ص276-277.

ليس في هذا الزمان أقل عن التوبة. وقد يقوم البعض بكل أفعال البر من الحج والجهاد وغير ذلك من الطاعات دون توبة. فالتوبة فعل القلب، شرط كل الأفعال. وقد يأس العلماء من أن يروا في هذا الزمان تائب[1].

وعلامات أخر الزمان ثلاثة: الجهل بالأمر والنهي ومعرفته دون ممارسته أو ممارسته دون الصبر عليه. ويهرون كالكلاب في الدنيا، ويتركون العبادات والمقامات والنوافل[2]. وقد يأتي يوم على الناس يطلع فيه الله على أهل المدينة والقرية ليقسم بينهم الرحمة وينظر في القلوب فلا يوجد من يستحقها لا في القراء ولا في الزهاد ولا في العباد ولا في العلماء فيقسم لهم ويرغبهم في العمل ويزيدهم من الفضل والعطاء. مل الناس من العبادة، وانفضوا من الورع، وخف عليهم الكلام واشتغلوا بغير الله وجعلوه هواهم[3]. ليس هذا زمان العمل إنما هو زمان الترك. وترك المنهى لا يكون إلا بعمل البر، وهو الإحسان[4]. ومن أخلاق هذا الزمان عدم التوبة[5]. والعصر عمل فيه الدود. أصبح أهله موتى، جيفة بلا قبور[6].

كل ذلك من أفعال إبليس ولا يوجد أعلم منه بين العرش والثرى. إبليس رمز الفساد. ومع ذلك تزداد الأمة عقلا وعلما وفهما وبصرا. تعرف أصول السر وهو غير علم الخبر. وكل عالم بالسر لا يجانب الشر فهو ليس بعالم. وكل عالم بالطاعات غير عامل بها فهو غير عالم[7].

لا تزال الناس بخير مادام فيهم الأئمة من ولد العباس وثبات السواد للسلطان، وكسوة البيت ديباجا، والفتيا للكوفيين! وهي دعوة صريحة لبني العباس وطاعة الرعية للسلطان، وطلب الكساء والإيواء، ومنصب الفتوى لأهل الكوفة[8].

---

(1) السابق، ص283-284.
(2) السابق، ص276-277.
(3) السابق، ص283.
(4) السابق، ص292.
(5) السابق، ص312.
(6) السابق، ص 322.
(7) السابق، ص134، 136-137.
(8) السابق، ص277.

الفصل الثالث

الفضائل

1 ـ الأدب وحسن الخلق

الفضائل أكثر تفصيلاً من الرذائل وأكثر عدداً. ويصعب حصرها وترتيبها وإيجاد نسق لها. ومع ذلك تنتظم في مجموعات طبقاً للحقل الدلالي مثل الأدب وحسن الخلق، التقوى والورع، التواضع والخشوع، الكرم والصفح، الجود والإحسان، الرفق والشفقة، الحياء والتقيَّة، العزَّة والكرامة.

وقد توضع أكثر من فضيلة في حقل دلالي واحد مثل العدل والمروءة والإنصاف والاستقامة. وقد يجمع بعض الفضائل من حقول دلالية مختلفة مثل: السخاء، التواضع، النسك، حسن الخلق. كأصول الخيرات[1]. ويتداخل البعض مع المقامات مثل الورع والزهد، والقناعة والتوكل، والحرية والعبودية. فالمقامات والأحوال تصفية للفضائل للحصول على زبدتها وتركيز على البعض من أجل تحويل التصوف الخلقي إلى التصوف النفسي. لذلك تظهر بعض مصطلحات العلوم الأخرى مثل علوم أصول الفقه: الإخبار، والعام والخاص. على الصوفي أن يعلم هل هو خاص أم عام؟ ويتحول الاشتباه اللغوي إلى اشتباه اجتماعي، الخاصة والعامة. الخاصة أفضل من العامة. الخاصة رؤية والعامة إقرار. كل يفتقر إلى الآخر. الخاصة الربح، والعامة رأس المال. والله خاصة الخاصة، والأولياء الخاصة[2]. وليس بين الله والعامة أي نسب[3].

---

(1) أبو الحسين بن هند الفارسي، **طبقات الصوفية**، ص400.

(2) **المواقف**، ص69، 94، 116-117، 120، 129.

(3) «لي من كل شيء خاصيته، ولك عاميته. فعاميته تنسب إليك، وخاصيته تنسب إليَّ». السابق، ص120.

أ ـ الأدب. الأدب ترجمان العقل لأن العقل هو العقل العملي[1]. وتأديب النفس سابق على تأديب الغير. ومن عجز عن تأديب نفسه فهو عن تأديب غيره أعجز. النفس أقوى قوة قادرة على الغلبة. ومن علامة الاستدراج العمى عن عيوب النفس وتكبير عيوب الغير[2]. يعرف الناس عيوبهم ولا يغيِّرونها لأنهم اشتغلوا بالمباهاة بالعلم وليس بتحقيقه. وبآداب الظواهر وليس بآداب البواطن. فعميت القلوب عن الصواب، وقيدت بالجوارح عن العبادات[3]. وأفضل سلوك البكاء على الذنوب، وإصلاح العيوب، وطاعة علام الغيوب، وجلاء الدين عن العيوب، وألاَّ يركب الإنسان كل ما يهوى[4].

التصوف كله آداب. ولكل وقت أدبه، ولكل مقام أدبه. فمن لزم آداب الأوقات وهي الأحوال بلغ مبلغ الرجال. ومن ضيع الآداب فهو بعيد من حيث يظن القرب، ومردود من حيث يرجو القبول[5]. ويستحيل تقويم ما لا يستقيم وتأديب ما لا يتأدب[6]. فكل فعل للتغيير يكون في إطار الممكن أي طبقاً لقدرات الطبيعة. الأدب من أجل الإصلاح. فالزمان زمانان. زمان يذكر فيه بالصلاح، وزمان لا يرجى فيه صلاح. ويذهب الأدب بذهاب المؤدبين[7]. فإذا ذهب الصوفية ذهب الأدب. ومن لم يتأدب للوقت فوقته مقت[8].

والأدب هو أفضل ما يناله الصدِّيقون في مقابل الطاعات الكثيرة[9]. وكمال

---

(1) السابق، ص139.

(2) «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»، «أثقل ما يوضع في الميزان حسن الخلق»، في الحديث «حق الولد على والده أن يحسن اسمه، ويحسن مرضعه، ويحسن أدبه». وأيضاً «أدبني ربي فأحسن تأديبي»، **القشيرية**، ص128.

(3) السري السقطي، **طبقات الصوفية**، ص52-53، 54.

(4) أبو محمد عبد الله الرازي، السابق، ص453.

(5) أبو حفص النيسابوري، السابق، ص119. السهروردي: **عوارف المعارف**، ج2، الباب 29 ـ في أخلاق الصوفية، ص353-388.

(6) أبو علي الثقفي، **طبقات الصوفية**، ص364.

(7) ابن المبارك، **القشيرية**، ص129.

(8) الثوري، السابق ص130.

(9) **التستري**، ص297.

الأدب للأنبياء والصديقين[1]. وإذا كانت الحكمة عامة، والفطنة في الحكمة خاصة فإن الأدب من الفطنة في الحكمة خاص من خاص الخاص[2].

من حُرم الأدب لم ينل كثيراً من الخير. ولم ينتفع بعلمه إلا أن يُعفى له. وإذا بلغ الرجل أربعين سنة ولم يؤدب نفسه قبل ذلك بالجوع والسهر وطلب إعلام حاله فإنه لا يزداد إلا قساوة القلب والنفاق[3]. فالأدب ليس فقط سلوكاً بل هو طريق المعرفة، والانتفاع بالعلم. ويكون التأدب بالجوع والممارسة وإلا فإن القلب يزداد قسوة ونفاقاً. ويؤدي تحريم الأدب إلى عدم الانتفاع بالعمل، بالتالي امتناع العفو.

وإساءة الأدب على البساط توجب الطرد إلى الباب ثم إلى سياسة الدواب[4]. الأدب للعارف كالتوبة للمستأنف[5]. فلا معرفة بلا أدب، ولا أدب بلا معرفة. أعظم أدب أدب العارف لأن معروفه مؤدب قلبه[6]. فالأدب بداية التصوف الخلقي، والتوبة بداية التصوف النفسي. أدنى الأدب الوقوف عند الجهل. وآخر الأدب الوقوف عند الشبهة[7]. فالجهل معرفة سلبية وتواضع. والشبهة حذر وتخوف.

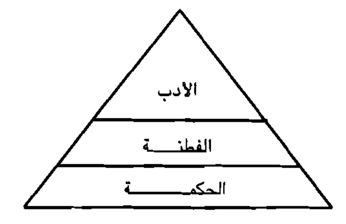
والعمل الصالح يكون كذلك دون ظن. فقد يظن البعض في إساءته أنه محسن[8]. من تأدب بآداب الصالحين فإنه يصلح لبسط الكرامة. جمال الرجل في

---

(1) **القشيرية**، ص129.

(2)





(3) **التستري**، ص334. أبو بكر الوراق، **طبقات الصوفية**، ص225.

(4) أبو علي الدقاق، **القشيرية**، ص129.

(5) ابن المبارك، السابق، ص129.

(6) ذو النون، السابق، ص129.

(7) **التستري**، **طبقات الصوفية**، ص207، 209، 211.

(8) محمد بن أبي الورد، السابق، ص251.

حسن مقاله. وكماله في صدق أفعاله[1]. واجتناب دناءة الأخلاق مثل اجتناب الحرام[2]. فالشريعة أخلاق. والحلال والحرام هما الفضيلة والرذيلة. أصل كل خير ملازمة الأدب في جميع الأحوال والأفعال[3].

ومن ضمن الأدب آداب الطعام. فالأدب في الطعام ألا تُمد اليد إلى الأرفاق إلا حين الضرورة وعلى قدر إمساك الرفق[4]. من لم تهذبه رؤيته فهو غير مهذب فالتهذيب بناء على الرؤية ليس من الأدب سؤال الرفيق إلى أين وفي أي شيء[5]. الأدب سند الفقراء وزين الأغنياء[6]. فالأدب غنى الفقراء، وفقر الأغنياء.

والسفلة من لا يخافون الله ويعصونه ويقبلون العوض ويمنون بعطائه[7]. وقلة الأدب أفضل من كثير من العلم[8]. وحسن الأدب مع كف الأذى ومجانبة أهل الريب يقضي على الغربة[9]. وحسن الأدب في الظاهر عنوان لحسن الأدب في الباطن[10].

عدم تأديب النفس بالجوع والسهر يؤدي إلى قساوة القلب والنفاق. وتكون التوبة ضعيفة[11]. ويصح الأدب في أشياء كثيرة إلا في كمال الأدب في التوبة ومنع النفس من الشهوات، والصمت، والخلوة. وبدون عدم منع النفس عن الشهوات لا يكتمل العقل.

(1) أبو جعفر بن سنان، السابق، ص333.
(2) أبو الحسين بن بناء، السابق، ص390.
(3) أبو الحسين بن هند الفارسي، السابق، ص240.
(4) أبو إسحق إبراهيم بن المولد، السابق، ص413.
(5) أبو عمرو إسماعيل بن نجيد، السابق، ص454.
(6) بندار بن الحسين الشيرازي، السابق، ص468.
(7) نـــواب الـــدهـــر أدبـــتـــنـــي وإنـــمـــا يـــوعـــظ الأريـــب
السابق، ص470.
(8) أبو عثمان الحيري النيسابوري، السابق، ص173.
(9) إبراهيم بن شيبان القرمسيني، السابق، ص404؛ والسفلة من لا خلاق لهم. ومن يسميهم سارتر الأوساخ Les Salauds.
(10) أبو حفص، السابق، ص129.
(11) **التستري**، ص234-236.

وعدم الأدب في الدنيا يوجب العذاب في الآخرة إن لم يسعف العفو. الآداب كثيرة، أهمها فرار الشياطين وحضور الملائكة وعون الله[1]. والتقوى والأدب من مكارم الأخلاق[2].

والناس في الأدب على ثلاث طبقات: أهل الدنيا في الفصاحة والبلاغة والعلوم والتاريخ والأشعار، وأهل الدين في رياضة النفوس وتأديب الجوارح وحفظ الحدود وترك الشهوات، وأهل الخصوص في طهارة القلوب ومراعاة الأسرار والوفا لرب العهود وحفظ الأوقات وقلة الإلتفات على الخواطر وحسن الأدب في مواقف الطلب وأوقات الحضور، ومقامات القرب[3]. أكثر الأدب في معرفة النفس[4]. وترك الأدب بين أهل الأدب أدب[5].

وإذا صحَّت المحبة سقطت شروط الأدب طبقاً لنظرية إسقاط التدبير[6].إذا صحت المحبة تأكدت ملازمة الأدب[7]. وإذا خرج المريد عن استعمال الأدب فإنه يرجع من حيث جاء[8].

ومع كثرة تعريف الآداب عاجلا وآجلا فإن جوهرها التفقه في الدين، والزهد في الدنيا والمعرفة بحقوق الله على الإنسان[9]. من أدبه ربه لا يغلبه أحد[10]. وكيف يعرف الإنسان أن أدبه من الرب أم من نفسه؟ ولماذا عدم الثقة بالتأديب الذاتي؟

ومن تأدب بآداب الله صار من أهل محبته[11]. الاستعانة بالله للصبر على

(1) السابق، ص256.
(2) السابق، ص276.
(3) الطوسي، **القشيرية**، ص129.
(4) ابن المبارك، السابق، ص129.
(5) ابن عطاء اللّه السكندري، السابق، ص129.
(6) الجنيد، السابق، ص130.
(7) أبو عثمان، السابق، ص130.
(8) ذو النون، السابق، ص130.
(9) الحسن البصري، **القشيرية**، ص129.
(10) أبو العباس بن مسروق الطوسي، **طبقات الصوفية**، ص240.
(11) يحيى بن معاذ، السابق، ص129.

آداب الله[1]. قهر الأدب يؤدي إلى الإخلاص في العبادة[2]. الانبساط مع الله بالقول ترك الأدب[3]. والالتزام بأسماء الله وصفاته قيام مع الأدب. والكشف عن حقيقة ذاته التزام بالعطب وعلى الإنسان أن يختار[4].

وحقيقة الأدب اجتماع خصال الخير. الأدب طاعة لله، وطاعة الله طريق إلى الجنة[5]. التوحيد يوجب الإيمان. والإيمان الشريعة، والشريعة توجب الأدب[6]. وأقرب الآداب إلى الله معرفة ربوبيته والعمل بطاعته، والحمد له على السراء والصبر على الضراء[7]. الأدب الوقوف على المستحسنات، ومعاملة الله بالأدب سرا وعلانية. وحسن الأدب مع الله أولى[8]. من صاحب الملوك بغير أدب أسلمه الجهل إلى القتل[9]. إذا ترك العارف أدبه مع معرفته فقد هلك مع الهالكين[10]. والأدب هو المقام الحادي عشر من مقامات العارفين. الله يؤدب العارف بالهدية وسطوة العظمة وصدمة نظر من عين الضرة. وأعز أدب ألا تطرف العين إلى غيره فقط ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾. ومن أساء أدبه مع الملوك هلك مع الهالكين «أدبني ربي فأحسن تأديبي». الأدب في المعرفة أن يكون مع الله بمراد الله[11].

وقد يكفي لفظ «الأدب»[12]. وهو لفظ متشابه. يعني حسن الخلق والعمل الأدبي. الأديب هو الجامع لمكارم الأخلاق ولمراتب العلوم[13]. فالأدب جامع

---

(1) **التستري**، السابق، ص129.
(2) **التستري**، السابق، ص129.
(3) الشبلي، السابق، ص129.
(4) السابق، ص129.
(5) **القشيرية**، ص128.
(6) أبو علي الدقاق، السابق، ص128.
(7) الجلاجلي البصري، السابق، ص128.
(8) ابن سيرين، السابق، ص129.
(9) السابق، ص129.
(10) يحيى بن معاذ، السابق، ص129.
(11) روزبهان: **مشرب الأرواح**، ص152.
(12) **الفتوحات**، ج2، ص284-286.
(13) إن الأديب هو الحكيم لأنه مجموع خير والمساب مجمع السابق، ص284.

الخير، أدب الشريعة هو الأدب الإلٰهي الذي يعلم بالوحي والإلهام «أدبني ربي فأحسن تأديبي». وأدب الخدمة، خدمة الملوك «أدب البروتوكول»، والله ملك الملوك، يتعلّق بحق الله وليس بحق الخلق كما هو الحال في أدب الشريعة. أدب الحق عند من يظهر عنده عند الخاصة، وأدب الحقيقة وهو ترك الأدب بالفناء وإسقاط التدبير، ورد كل شيء إلى الله[1]. الأدب هو حفظ الحد بين الغلو والجفاء، بين الإفراط والتفريط[2]. والأدب مع الحق عدم تعدي الحدود بالتفريط في الخدمة حتى يصير من أهل المخالفة واقتراف المعاصي، ولا بالإفراط فيها إلى حد يوجب العجز عن القيام بما افترض الله. والأدب مع الخلق أخذ طريق وسط بين الغلو في الإكرام والتقصير. والجفاء التقصير في الحقوق. الأدب طريق وسط بين الغلو والجفاء والتعدي على حدود الشرع لأن الشرع هو كل الأدب. الأدب هو الذي يقوّي على دخول الحاضرة، يظهر الخوف بصورة القبض والرضا بصورة البسط. وأدب الشريعة هو الوقوف عند مرسومها. وأدب الخدمة هو الفناء عن رؤيتها مع المبالغة فيها. وأدب الصبيان هو أدب الأحداث، والقيام بأوامر الحق. وأدب الشيوخ هو أدب البالغين. هو القيام بالحق ظاهراً وباطناً. وأدب الحقيقة هو معرفة الحقوق والواجبات تجاه الله. والأديب هو العارف الرباني. وهو من أهل البساط أي الحضرة الإلٰهية.

والأدب هو الاعتدال. في البدايات حفظ العلو والجفاء في الطاعة. وفي الأبواب تعديل الخوف والرجاء دون اليأس والأمن. وفي المعاملات إقامة حقوق التهذيب. وفي الأخلاق ملازمة الأوساط بين الإفراط والتفريط. وفي الأدوية عدم الاتكال على حكم العقل. وفي الأحوال السير فيها بحكم الحال وليس بمقتضى العلم. وفي الولايات الترقي عن السرور إلى المشاهدة، وفي النهايات الغنى عن التأدب بتأديب الحق والخلاص عن شهود أعباء الأدب[3].

ثم يتحول الأدب إلى حكايات ومرويات وتفسيرات لآداب الأنبياء والأولياء

(1) أضف الأمور إلى الإلٰهة جمعها وإذا فعلت فلا يقال أديب
السابق، ص286.

(2) **لطائف الأعلام**، جا، ص163-167.

(3) **جامع الأصول**، ج3، ص158-159.

حول السلوك المتأدب مع استطرادات عن طب الأدوية من الحيوان والحشرات اعتماداً على كتاب **الحيوان** للدميري، ومداواة لدغة العقرب بالخنفس مع بعض الأشعار، حول الموضوع وليس فيه[1]. وهو ما استمر في الشعر العربي الحديث[2].

ولا خلاف بين الصوفية والفقهاء حول التصوف الخلقي. فقد أعطى أبو حنيفة لابنه حمّاد تسع عشرة نصيحة في التقوى والعلم والسلم والرضا والنية وكتم السر... إلخ[3]. ويختلط الأدب عند الصوفية بالآداب في الطرق الصوفية. الأول عام والثانية خاص[4]. ويضم الفقه الخلقي مع الأخلاق والعامة. كما يختلط مع آداب المريدين. الأدب في الاصطلاح اجتماع خصال الخير، ومعاملة الله بالمستحسن سراً وجهراً، ومعرفة النفس[5].

التهذيب في البدايات تحسين العمل بموافقة العلم. وفي الأبواب تزكية النفس عن الميل على المخالفات. وفي المعاملات تهذيب الخلقة من الجهالة. وفي الأخلاق تهذيب النفس عن الرذائل وتزينها بالفضائل. وفي الأصول تحسين الأدب مع الله. وفي الأدوية تهذيب العقل بالاستنارة بروح القدس والتنزه عن أحكام الوهم والحس. وفي الأحوال تهذيب الحال عن الميل إلى العلم والخضوع للرسم، والالتفات إلى الخطر. وفي الولايات تهذيب الوقت عن مداخلة الرسم وكدورات الكون، وتهذيب التمكن عن التلون. وفي الحقائق تهذيب السكر عن المحو. وفي النهايات تهذيب عن الجمع والفرق بالغيبة في الجمع عن رؤية الجمع[6].

---

(1) **نزهة المجالس**، جـ1، ص75-87.
ما وهب اللّه لأمرئ هبة ... أفضل من عقله ومن أدبه
هما جمال الفتى فإن فقدا ... فإن فقد الحياة أجمل به
السابق، ص87.

(2) مثل البيت الشهير لأحمد شوقي:
وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت ... فإن همو ذهبت أخلاقهم ذهبوا

(3) **جامع الأصول**، جـ2، ص267-269.

(4) **الآداب عند الشاذلية**، السابق، جـ2، ص93-95 وهي عشرون: خمسة سابقة على الذِكر، واثنا عشر في حالة الذكر، وثلاثة بعد الفراغ من الذِكر.

(5) السابق، ص245-248.

(6) السابق، جـ3، ص137-138.

وملازمة الأدب ومفارقة الهوى والغضب، واليقظة، والرفق والتأنى في كل ذلك عوامل لتقوية الذات[1]. ويضم كل ذلك جهاد النفس[2]. والحذر من مواطن الغفلة ومخاتل العدو وضربات الهوى وضراوة الشهوة وأماني النفس يقوّي الذات[3].

وقد يستعمل لفظ «التهذيب» بمفرده[4]. ويعني الإصلاح أو التطهير أو التصفية. ويعني تهذيب القصد أو الخدمة أو الحال أو التحقيق. وتهذيب القصد تصفية من كدر الإكراه. وتهذيب الخدمة هو استجماعها لثلاثة شروط، ألا يصحبها جهالة، ألا يشوبها عادة، ألا تقف الهمة عندها. وتهذيب الحال عدم الاحتياج إلى علم لأن العلم خبر أو استدلال والحال ذوق ووجدان. وتهذيب الحقيقة هو تهذيب أهل التحقيق.

وقد خصصت مؤلفات للأخلاق الحميدة وتقرب من الألف[5]. وقد بلغت قدراً من التفصيل بحيث أصبح البعض منها أقرب إلى المترادفات.

والخلق في الطبيعة واصطلاح أهل الحقيقة هو ما اختاره الله للنبي. فالخلق موهبة وليس اكتساباً. هو قضاء الحق وقبول ما يفض بلا قلق ولا اضطراب ولا

---

(1) السابق، ص79.

(2) السابق، ص104.

(3) السابق، ص81-82.

(4) **لطائف الأعلام**، جـ1، ص285-287.

(5) مثل كتاب **جامع المتون في بحث الحرام، جامع الأصول في الأولياء**، ص127، مثل: الحلم، العلم، التواضع، الرأفة، اللين، البشاشة، العذوبة في الصحبة، العفو، الإحسان لمن ظلم، الوصل لمن قطع، الرحمة على الضعفاء، توقير المشايخ، خدمة الإخوان، العقائد الصحيحة، التوبة، الإعراض عن المعصية، الندم على ما فعلها، الحياء من اللّه، الإنابة إليه، الطاعة، الصبر، الورع، الزهد، القناعة، الرضا، الشكر، الثناء، صدق الحديث، الوفاء، أداء الأمانة، ترك الخيانة، حفظ حق الجوار، وإطعام الطعام، بذل السلام، حسن الكلام والعمل، حب الآخرة، بغض الدنيا، الجزع من الحساب، حفظ الجناح، كف الأذى، إحتمال البلاء، مراقبة الحق، الإعراض عن الخلق، طمأنينة القلب، كسر الأنف عن هواها وقواها، هجرها عن لذتها وشهواتها، الخوف، الرجاء، الجور، الصفح، التجاوز، المودة، الغيرة، المواساة، المداراة، الإيثار، النصيحة، الصفوة، الإحتساب، التسليم، التوكل، الشجاعة، الهمة، الفتوة، المروة، محبة اللّه وأنبيائه وأوليائه والمؤمنين لله كافة، رجاء الوصول على اللّه، خوف الفراق منه، التأدب، التعقل، التفقه في القرآن، الالتجاء إلى اللّه، الإخلاص في كل مال. السابق، ص127-128.

ضجر، وبالتالي تمحى المسؤولية. هو استقلال ما للذات، واستكثار ما لغيرها. وهو احتمال المكروه بحسب المداراة. هو كف الأذى واحتماله. وهو أفضل مناقب العبودية. به يظهر جواهر الرجال. والإنسان مستور بخُلقه، مشهور بخلقه[1]. الخلْق نعمة ظاهرة، والخُلق نعمة باطنة. وحسن الخلق مثل الصيام والقيام. وسعي الإنسان يبسط الوجه. والخلق الحسن ليس بالأموال. والبخل وسوء الخلق لا يجتمعان في مؤمن. وأكثر الناس هم أسوأهم خلقاً، ويعتق العبد ذو الخلق الحسن. والسيِّئ يضيق صاحبه لأنه لا يسمعه إلا مراده. وحسن الخلق مع الصيانة ومع الديانة ومع الأمانة من المحاسن. التصوف خلق. فمن زاد عليه زاد في التصوف. ومن تخلق بخلق أربعين صباحاً أصبح طبيعة له.

والطبيعة أفضل من التصنع[2]. ولماذا الحكم على الطبيعة بأنها دنيئة تستلزم تجنبها؟ أليست الطبيعة خيِّرة (صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة)؟ الفطرة في الإسلام، وكل دين آخر زيادة عليها. «كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه»[3].

ب ـ **حسن الخلق**. ويعني الأدب مكارم الأخلاق تحسين الخلق[4]. فالخلق صورة الإنسان. وقد يستحيل تغيير الخلق لأنه طبع ولكنه مقدور[5]. فالأدب استخراج ما بالقوة إلى الفعل. وهو المقصود بتهذيب الأخلاق. الأخلاق لفظ صوفي وليس فقط اسماً للمرحلة الأولى للتصوف كتاريخ وكطريق. والعلاقة بين الصوفي، نموذج الإنسان الكامل، والله هي مكارم الأخلاق. وهو لفظ شرعي في الحديث الشهير «إنما أوتيت لأتمم مكارم الأخلاق». ومن تغافل عنها لم يهنأ له عيش في الدنيا ولا في الآخرة، وعصى الله. وتُنال مكارم الأخلاق بالنظر في الشيء، أوانه ووقته. وربما تقتضي الصمت. فالأخلاق في واقع، في زمان ومكان معيَّنين وعلى وجه وبطريقة معيَّنة بالرغم من أنها سلوك مثالي. والغرض من التخلق

(1) السابق، ص228-229.
(2) بشر الحافي، **طبقات الصوفية**، ص43.
(3) أبو عبد الله بن سالم البصري، السابق، ص416.
(4) «في ذكر الأدب ومكانه من التصوف»، **عوارف المعارف**، ج3، ص110-122.
(5) طبقاً لحديث «حسنوا أخلاقكم»، السابق، ص111.

بها ثلاثة أشياء: الإقرار باللسان وهو الاستسلام للرب، والإيمان وهو اليقين بالجزاء، وحسن العبادة وهو الإحسان. وهي أخلاق الله. وتتطلب ستة أشياء: الاستجابة، والاستخارة، والاستغفار، والشكر، والتوبة، والشكوى من النفس[1].

ويعني حسن الخلق عدم الطمع فيما بين أيدي الناس، وأن يكون هدفه هو الله[2]. ومكارم الأخلاق هي العلاقة بين الإنسان والله حتى يهنأ العيش في الدنيا والآخرة، والسبيل إلى روح الطاعة لله. والطريق إلى ذلك النظر في «إبان الشيء وأوانه». ومنه يأتي الصبر[3]. حسن الخلق على ثلاثة معانٍ: ترك الشكوى مع الله، والقيام بأوامره بنشاط وطيب نفس، والبر والحلم بالخلق[4]. والله يحب الاعتراض والشكوى، وقبِل من إبليس ذلك. وكتب إقبال «جوابي شكوى». والقيام بالأوامر الطبيعية وليس بالصدفة، والبر بالخلق وليس القسوة عليهم.

ويتخلق الإنسان بثلاث صفات: الإقرار بالإسلام أو الاستسلام لله وقبول دعوة الرسل، والإيمان أي اليقين بالثواب والعقاب وحسن العبادة أي الإحسان. وهي من أخلاق الله. خُلِقَ الخَلْقُ بخُلق ثلاث: الإقرار بالإسلام وهو الاستسلام للرب، والقبول من الرسول، والإيمان واليقين بالثواب والعقاب، وحسن العبادة وهو الإحسان، وهي أخلاق الله[5]. فأين أخلاق الإنسان؟

ويستعمل الصوفية لفظ «الأخلاق» و «مكارم الأخلاق» و«الخلق» إحساس بأن التصوف في هذه المرحلة هو التصوف الخلقي. فمن أخلاق الإسلام والإيمان الحياء وكف الأذى وبذل المعروف والنصيحة والتعبد[6]. وأدنى حسن الخلق عدم العسر على الناصح وهو الله. والعسر هو الكسل والتباطؤ. وأدنى الأدب الوقوف عند الجهل وآخره الوقوف عند الشبهة حتى تتبين[7].

(1) **التستري**، ص133.
(2) السابق، ص154.
(3) السابق، ص165.
(4) أبو الحسين بن هند الفارسي، **طبقات الصوفية**، ص400-401.
(5) السابق، ص167.
(6) السابق، ص198.
(7) السهروردي: **عوارف المعارف**، جـ2، الباب 29 «في أخلاق الصوفية»، ص353-388.

بالأدب يُفهم العلم، وبالعلم يصح العمل. وبالعمل تُنال الحكمة، وبالحكمة يُفهم الزهد، وبالزهد تُترك الدنيا، وبترك الدنيا تُرغب الآخرة. وبالرغبة في الآخرة ينال الرضا[1].

والأخلاق هي أخلاق الصدِّيقين. ومنها عدم الحلف بالله، لا صدقاً ولا كذباً، وعدم العقاب أو الغيبة أو الشبع، وعدم الخلف بالوعد، وعدم الكلام إلا بالاستثناء، وعدم المزاح، وإذا كان عيش الملائكة في الطاعة، وعيش الأنبياء في العلم وانتظار الوحي فإن عيش الصديقين في الاقتداء، وعيش سائر الناس عالما أو جاهلا، زاهدا أو عابدا أو في الطعام والشراب. الضرورة للأنبياء، والقوام للصديقين، والغوث للمؤمنين، والعلوم للبهائم[2].

وقد يُسمَّى حسن الخلق الصلاح مثل صلاح الصبيان في الكُتَّاب، وصلاح القطاع في السجن، وصلاح النساء في البيوت، وصلاح الفتيان في العلم، وصلاح الكهول في المساجد[3]. ومن حسن الخلق المعاشرة بالمعروف مع العيال فيما يسيئ ومع من تكره صحبته، ومقابلة السيِّئة بالحسنة كما هو الحال في الأخلاق المسيحية. وحسن الخلق ليس ادعاء لأن الإنسان مازال يغضب وإن لم يُظهر غضبه، ومازال غير سخي لأنه غير آمن على نفسه أن يُلاحِظ فعله أو يَلتفت إليه أو يذكر عطاءه في وقت ما. ويضاد الرفق العنف والحدة نتيجة الغضب والفظاظة. والرفق واللين من حسن الخلق. وهما لفظان قرآنيان ونبويان.

وحسن أدب الظاهر علامة حسن أدب الباطن. فلو خشع القلب لخشعت الجوارح[4]. ولا يتعامل الإنسان مع من أهم منهم فضلا[5]. وهو استعلاء أخلاقي يتعارض مع أمانة التعليم ونخبوية تجعل أهل الملامة موضعاً للوم.

ومن استطاع ألا يعمى عن نقصان نفسه فليفعل رغبةً في الكمال. وأكثر الناس علماً بالآفات أكثر آفات. العلم بطبيعته يتحول إلى عمل. كما ينتج عن

---

(1) يوسف بن الحسين البغدادي، **طبقات الصوفية**، ص189.

(2) **التستري**، السابق، ص207، 209، 211.

(3) محمد بن على الترمذي، السابق، ص219.

(4) أبو حفص النيسابوري، السابق، ص120-122.

(5) حمدون القصار، السابق، ص125، 129.

خبرة[1]. ولا يكمل الإنسان حتى يستوي في قلبه المنع والعطاء، والعزل والذل أي يستقل بوعيه عن العالم[2]. والناس على أخلاقهم ما لم يخالف هواهم. فإذا خولفت هواهم بان ذوا الأخلاق الكريمة من ذوي الأخلاق اللئيمة[3].

ويتطلب حسن الخلق ثلاثة أشياء أو على الأقل اثنين منها حسن الخلقة، وطيب الرائحة، وطيب الطعمة[4]. وكلها صفات حسية للوجود. ويؤكد ذلك حديث «حبب إليّ من دنياكم ثلاث، الطيب، والنساء، وجعلت قرة عيني الصلاة». وأقرب الخلق إلى الله أدمثهم خلقاً. والخَلق والخُلق من نفس المصدر مما يدل على الأخلاق الطبيعية. فالخَلق خُلق، والخُلق طبيعة[5].

وحسن الخلق هو احتمال الأذى، وقلة الغضب أو بسطة الوجه، وطيب الكلام[6]. يكفي من حسن الخلق عدم حزن بريء[7]. ويتضمن كمال الأخلاق، والتمسك بالحق، وعدم التآمر على أحد وعدم ذم أي ابتلاء[8].

ومن أخلاق الصوفية البِشر وطلاقة الوجه. يبكي الصوفي في خلوته وبشره وطلاقة وجهه مع الناس. والبِشر على الوجه من آثار النور في القلب[9]. ومن أخلاق الصوفية السهولة ولين الجانب والنزول مع الناس إلى أخلاقهم وطباعهم، وترك التعسف والتكلف. فالتصوف ترك التكلف. التكلف تخلف عن شأو الصادقين[10]. ومن أخلاق الصوفية ترك الهراء والمجادلة والغضب إلا بحق

(1) الجنيد، السابق، ص161. كما هو الحال في المثل الشعبي: «اللي يجاور الحداد ينكوي بناره».
(2) أبو العثمان الحيري النيسابوري، السابق، ص172-173.
(3) **الإحياء**، جـ3، ص181-182.
(4) **التستري**، ص370.
(5) هذا هو قول المحاسبي، **طبقات الصوفية**، ص59.
(6) هذا هو رأي أحمد بن خضرويه، السابق، ص106.
(7) أبو بكر الشهبي، السابق، ص506.
(8) **التستري**، ص234-236.
(9) **عوارف المعارف**، جـ3، ص52.
(10) السابق، ص53-80.

واعتماد الرفق والحلم[1]. فالمجادل المجاري يخوض في الجدال ولا يصطنع أحدا ولا يقتنع بأحد فيستحيل العلم مثل نقد إخوان الصفا لعلم الكلام[2].

ويُوضع «موضوع الأدب وحسن الخلق» في إحدى المهلكات في باب بعنوان «رياضة النفس وتهذيب الأخلاق ومصالحة أمراض القلب». فأمراض القلب هي الرذائل، وتهذيب الأخلاق هي الفضائل. والنفس كالبدن تمرض وتصح وتحتاج إلى علاج، حسن الخلق فضيلة، وهو خلق الرسول في مقابل سوء الخلق وهي مذمة ورذيلة، وهما لفظان نبويان. ويتطلب بيان حقيقة حسن الخلق وسوء الخلق بيان أربعة أمور: فعل الجميل والقبيح، والقدرة عليهما، والمعرفة بهما، وميل النفس إلى أحدهما. والأخلاق قابلة للتغير بطريق الرياضة، وليست جواهر ثابتة. وينال حسن الخلق على الجملة أي اعتدال قوة العقل وكمال الحكمة إلى اعتدال قوة الغضب والشهوة. وطاعتها للعقل والشرع إما بجود إلٰهي وكمال فطري أو بالاعتبار والكسب والجهد وتزكية النفس وتهذيب الأخلاق. والطرق إلى تهذيب الأخلاق مثل الطرق إلى صحة الأبدان. ولأمراض القلوب ولصحتها علامات. ويستطيع الإنسان معرفة عيوب نفسه عن طريق الجلوس بين يدي شيخ أو صديق أو عدو أو من الناس. والطريق في معالجة أمراض القلوب ترك الشهوات. ومرضها إتباع الشهوات. وما أكثر الأدلة النقلية على ذلك. ولحسن الخلق علاماته. وتتحول الأخلاق النظرية إلى أخلاق عملية وبيان الطريق في رياضة الصبيان في أول نشوئهم، ووجه تأديبهم، وتحسين أخلاقهم، وبيان شروط الإرادة، ومقدمات المجاهدة، وتدريج المريد في سلوك سبيل الرياضة[3].

وبدلاً من رصد الرذائل ثم الفضائل على نحو نظري يتمُّ الجمع بينهما. وبيان طرق التحول من الرذائل إلى الفضائل، من الأخلاق النظرية إلى الأخلاق العملية في «كسر الشهوتين»، شهوة البطن وشهوة الفرج، وبيان رذيلة الشبع وآفاته، وفضيلة الجوع وفوائده وهي عشر: صفاء القلب وإيقاد القريحة، وانفاذ البصيرة،

(1) السابق، جـ3، ص80-110.

(2) **من النقل إلى الإبداع**، مج3، «الإبداع»، جـ1، «نشأة علوم الحكمة»، فصل 1، «نقد علم الكلام»، ص11-190.

(3) «كتاب رياضة النفس وتهذيب الأخلاق ومعالجة أمراض القلب»، **الإحياء**، جـ3، ص47-77.

ورقة القلب وصفائه، والانكسار والذل، وزوال البطن والفرج، وتذكر بلاء الله وعذابه، وكسر شهوات المعاصي، ودفع النوم ودوام السهر، والمواظبة على العبادة، وصحة البدن ودفع المرض، وخفة المؤونة، والإيثار، والتصدق بما فاض.

وطريق الرياضة في كسر شهوة البطن أربعة: أكل الحلال، والإقلال من الطعام في كل مرة، وفي اليوم ونوعه. ويختلف الناس في حكم الجوع وفضيلته وفي أحوالهم. وقد تتطرق آفة الرياء إلى من ترك الشهوات وقلل الطعام. صحيح أن شهوة الفرج لها فوائد مثل لذة الاجتماع بالآخر، وبقاء النسل، ولكن لكل شيء إفراط وتفريط واعتدال. الإفراط والتفريط رذيلة، والاعتدال فضيلة. والمريد في البداية لا يشغل نفسه بالتزويج إلا إذا اضطر إلى شيء أعظم وهو اللواط نظرا أو مصافحة أو فعلا. ومن يخالف شهوة الفرج والعين يكون صاحب فضيلة[1].

الخلق حسن الصحبة مع الحق والوفاء بوعده، والشكر على نعمه. ومع الخلق بذل المعروف وكف الأذى. في البدايات الوفاء بالعهود الشرعية وفي المعاملات التخلق بتحسين الخلق. وفي الأصول حسن التوجه إلى الحق بالكلية. وفي الأدوية معرفة حكمة الخلق والعمل بها. وفي الأحوال الجري بحكم الحال مطلقا والنظر إلى الخلق يعين الفناء. وفي الولايات تصفية الخلق. وفي الحقائق تجريد التصفية. وفي النهايات التحقق باختلاف الحق عند البقاء بعد الفناء[2].

2 ـ التقوى والورع

أ ـ التقوى. لفظ قرآني ونبوي[3]. وهي اسم من أسماء الله.لا يقل عمل مع التقوي بالأخذ والمنع والكلام، أخذ القليل وعدم منع الكثير، والكلام دون الإيذاء[4]. ومِلاك النفوس بكمال التقوى[5].

---

(1) **الإحياء**، جـ3، ص77-104.

(2) **جامع الأصول**، جـ3، ص154-155.

(3) مثل ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾، وفي الحديث «عليكم بتقوى الله»، التقوى جمع الخيرات.

(4) السري السرقسطي، **طبقات الصوفية**، ص52.

(5) شقيق البلخي، السابق، ص63.

والتقوى أجلُّ شيءٍ يفتح الله بها. تتشعب منها جميع الخيرات وأسباب القربة. أصلها الإخلاص، وحقيقتها التخلي عن كل شيء إلا الله[1]. أصلها اتقاء الشرك ثم اتقاء المعاصي والسيئات ثم اتقاء الشبهات[2]. بصحة الإيمان وكمال التقوى يفتح الله على الإنسان خير الدنيا والآخرة. التقوى مجانبة ما يبعدك عن الله[3]. ومن لم يحكِّم بينه وبين الله التقوى والمراقبة لم يوصل إلى الكشف والمشاهدة. التقوى هي الوقوف مع الحدود[4]. في الظاهر مع النية والإخلاص في الباطن[5].

المتقي هو من اتقى ما لهج به العوام من متابعة الشهوات وإتيان المخالفات، ولزوم الموافقة. وأنس براحة اليقين[6]. واستند إلى التوكل، وأتته العوائد من الله في كل حال فلم يغفل منها[7]. التقوى مجانبة ما يبعدك عن الله[8]. ومن لم يحكِّم بينه وبين الله التقوى والمراقبة لم يصل إلى الكشف والمشاهدة[9]. والسؤال هو: هل التقوى خارجية أم ذاتية؟

التقوى هي الوقوف مع الحدود. في الظاهر مع النيَّة والإخلاص في الباطن. ولا تعني تقوى الحدود الدنيوية الحدود الشرعية بل وضع الإنسان في العالم أي البرازخ[10].

---

(1) شاه الكرماني، السابق، ص193.
(2) **القشيرية**، ص52.
(3) أبو عبد اللَّه محمد بن خفيف، **طبقات الصوفية**، ص465. المريدي، **القشيرية**، ص52.
(4) أبو عثمان المغربي، السابق، ص481، 483. النصرأباذي، السابق، ص52. الواسطي، السابق، ص52.
(5) محمد بن علي الترمذي، السابق، ص220؛ وهو مثلُ مذهبِ التَّقَوِيِّ والقُنُوتِ Piétism في المسيحية البروتستانتية، الذي اعتنقه كانط.
(6) مظفر القرمسيني، السابق، ص397.
(7) أبو الحسين الوراق النيسابوري، السابق، ص300-301.
(8) أبو بكر الكتاني، السابق، ص376.
(9) أبو عبد اللَّه محمد بن خفيف، السابق، ص465. المريدي، **القشيرية**، ص52.
(10) المتقون في حدود اللَّه أفراد بهذه الدار والأفراد آحاد...
فلتتقي حدك الرسمي أن له غورا وفي غور ذاك الغور إلحاد
الفتوحات، ج2، ص160.

بين العبد والوجود سكون التقوى في القلب. فتنزل بركات العلم، وتقصي الرغبة في الدنيا. في حين أن الدنيا جوهر الوجود[1].

من آثر على التقوى شيئاً آخر حُرم لذتها. فالتقوى قيمة قائمة بذاتها[2]. التقوى أن يتقي من تقواه يعني من رؤية تقواه. التقوى قيمة باطنية في ذاتها. التقوى أن يتقي العبد ما سواه. والسؤال هو: كيف تتولد من الخوف حتى من الله؟

المتقون هم الأبرار، والأبرار هم المتقون[3]. التقوى في الترغيب عدم إظهار السر، وفي الترهيب عدم الجهل، تؤدي إلى ترك الاهتمام لأنها التبري أي الإخلاص أي السكينة والطمأنينة والحياد.

وعلامات التقوى ثلاثة أشياء: حُسن التوكل فيما له نيل، وحسن الرضا في ما لم ينال، وحسن الصبر على ما فات[4]. من كان رأس ماله التقوى قلت الألسن عن وصف ريحه[5].

حقيقة التقوى هو باطنها. وفي الاصطلاح اجتناب الشهوات خوفاً من الوقوع في المحرمات. هو الوقوع مع ظاهر الشرع في غير تأويل، ترك كل شبهة ومحاسبة النفس كل طرفة. التقوى والتقي واحد في اللغة بمعني الاتقاء. وهي ما يقي الإنسان نفسه ويحفظه، ويحول بينه وبين ما يخافه. والوقاية فرض الصيانة، وشرعا الاجتناب عن حضرة الدنيا والآخرة[6]. وعند أهل الحقيقة التقوى التنزه عما يشغل السر عن الحق. اجتناب كل ما يبعد عن الله، وكل ما سوى الله. هي الاحتراز بطاعة الله عن عقوبته، والاحتراز عن الشر الجلي والخفي[7]. ثم تختفي التعريفات لصالح روايات وحكايات ولطائف ومنقولات من السابقين إبرازاً لكرامات الأولياء

(1) جعفر بن محمد الخلدي، **طبقات الصوفية**، ص438.
(2) أبو عثمان المغربي، السابق، ص481، 483. النصرأباذي، **القشيرية**، ص52. الواسطي، السابق، ص52.
(3) أبو بكر الفرار، السابق، ص508.
(4) **القشيرية**، ص52.
(5) الزنجاني، السابق، ص52.
(6) **لطائف الأعلام**، جـ1، ص353.
(7) **جامع الأصول**، جـ2، ص374-376.

والأدلة النقلية حول التقوى، مثل: «الإيمان عريان، ولباسه التقوى»، وخلاصتها أن التقوى منازعة الهوى. ومعظمها حكايات عن الجنس ومراودة المرأة عن نفسها، وإنقاذها بتدخل إلٰهي[1].

«التقوى» هي اتقاء الشرك وما دونه من كل ذنب منهي عنه اعتماداً على النص القرآني والحديث القدسي. يسبقها الخوف[2]. وهي شبيهة بالحذر خوفاً من الوقوع في المهلكات[3]. فالنجاة بصدق التقوى[4].

ويعني «لا زاد إلا التقوى» صفاء الضمير، والتحرر من الهوى، ويقظة الشعور الدائمة[5]. الزاد التقوى، والدنيا سوق، والآخرة قرار[6]. الزاد تقوى للقلوب، والدنيا سعي وكدح، والآخرة مثوى وخلود. قسمت الدنيا على البلوى، وقسمت الآخرة على التقوى. من لزم التقوى اشتاق إلى مفارقة الدنيا. ومن تحقق في التقوى هون الله على قلبه الإعراض عن الدنيا، التقي لا يدنس ظاهره بالمعارضات، ولا باطنه بالعلامات، ويكون واقفاً مع الله موقف الاتفاق. التقوى ظاهرة وباطنة. الظاهر الحدود، والباطنة النية والإخلاص[7]. وللباطن الأولوية على الظاهر. الباطن هو الجوهر، والظاهر العَرَض. ولا يعني إلا الله، ولا دليل إلا الرسول، ولا عمل إلا الصبر.

من أراد التقوى فليترك الذنوب كلها. وكل شيء يقع عليه الذم تدخل عليه التقوي. فالتقوى هي ترك الذنوب. ويوجد تعارض بين التقوى واقتراف الذنوب. التقوى إيجاب، والذنب سلب. وفعل التقوى ترك النهي والفواحش. التقوى أعلى مقام في العبادات، وكل العبادات أدنى منها. هي في الأمر ترك التسويف، و في النهي ترك الفكرة فيه، وفي السنَّة ترك الحدث. التقوى إذن إتيان الفعل في الحال

---

(1) «باب التقوى وفعل الخيرات والكف عن المنكرات». **نزهة المجالس**، جـ1، ص94-102.
(2) «باب معرفة التقوى وما هي؟». السابق، ص40-42.
(3) «باب معرفة الحذر وما تخوف النفوس حتى تحذر وتجانب وتباين المهلكات»، السابق، ص43.
(4) الجريري، **القشيرية**، ص53.
(5) **التستري**، ص96. **القشيرية**، ص52.
(6) السابق، ص295، النصر أبا ذي، **القشيرية**، ص52.
(7) السابق، ص297، ابن عطاء اللّه، **القشيرية**، ص52.

وليست على التراخي، أداء لا قضاء، بتعبير الأصوليين. وهي ترك الزلة في الحال بتعبير الصوفية في تعريف التوبة، وترك البدعة والالتزام بالسنَّة بتعبير الفقهاء[1].

التقوى هي المحافظة على الحدود والوفاء بالعهود. وهي على أقسام تقوى العوام وهي طاعة العبد للرب في الأوامر والنواهي، وتقوى الخواص وهي موافقة العبد للرب فيما قدَّر وقضى، وتقوى خاصة الخاص وهي معرفة الحقوق والواجبات تجاه الله. هي الانخلاع من إضافة التقوى إلى الإنسان لمشاهدته قيومية الحق. وتقوى المنتهين هي طهارة القلوب على أن يحل بها غير الحق. وهذا القلب هو البيت المحرم. وتقوى المحققين هي التقوى كاسم من الأسماء الحسنى مثل النافع والغفار. وتقوى الحقيقة هي عدم إضافة شيء إلى الله ضد قدسيته[2].

التقوى أولها علم ثم خشية ثم عمل ثم توكل[3]. فالتقوى تجمع بين العلم والعمل، والخشية ما بينهما. غايتها التوكل. ثم تتحول إلى المقام الثامن والعشرين من مقامات السالكين. وأصلها تجريد السر في مطالعة شواهد الصفاتية ولوائح الذاتية عن الالتفات إلى القرضات بذوبانه في إجلال كشوف الندم. «الإيمان عريان ولباسه التقوى». فالتقوى معيار قلوب العارفين وظهور أسرار الصديقين[4].

وهي أول ما يجب على العبد معرفته والتفكر فيه، أنه مربوب لا نجاة له إلا بتقوى سيده. والتفكر في المصير والغاية من الوجود في هذا الكون وفي هذه الحياة[5]. وهي موضوعات يتسلسل بعضها من بعض. ويبرز الطريق وسط التاريخ في «باب معرفة ما يبدأ به العبد من العدة للمقام بين يدي اللَّه تعالى»[6]. والبداية هي التقوى القائمة على الخوف. وهي أساس العمل وأصل الطاعة ومناط التعاون. وهي الحذر من الله بالمجانبة من المكروه. فما زالت التقوى عند المحاسبي تقوم

---

(1) السابق، ص285-286.

(2) **لطائف الأعلام**، جـ1، ص277-278.

(3) **التستري**، ص188، 376. الكتاني، **القشيرية**، ص52.

(4) روزبهان: **مشرب الأرواح**، ص39.

(5) «باب أول ما يجب على العبد معرفته والفكر فيه». السابق، ص52-53.

(6) «باب معرفة ما يبد آية العبد من العدة للمقام بين يدي اللَّه تعالى». السابق، ص44-46.

على الخوف وليس على المحبة كما هو الحال عند رابعة. والحذر في موضوعين، تضييع واجب حقه، وإتيان ما حرم عنه سراً وعلانية. وما يتطلب الاثنان القيام بما أوجب الله، وترك ما نهى الله عنه. وهما نفس الموضوعان على الفعل والترك. والتقوى ظاهرها في الجوارح، وباطنها في الضمير. وهي شرط قبول التوبة لأنها خلاص الإرادة[1]. هي عمل بطاعة الله على نور من الله مخافة عقاب الله[2]. تتحقق بالحلال المحض لا غير[3].

ويختلف الناس في طلب التقوى وفي رعاية الأعمال على ثلاثة طرق. الأول الاعتماد على الخبر ولا كبوة له إلا الزلة عند السهو، رعاية الحقوق على هذا النحو أسهل، والمحنة أخف. والثاني التوبة بعد الصبوة والرجوع إلى الله من الجهالة والندم على ما سلف من الذنوب. ويعتمد على الآية والحديث القدسي. والثالث الإصرار على الذنب والإقامة على السيئات وغلبة الهوى وضعف الخوف[4].

التقوى توجب الإيمان. والأمان يوجبه الإيمان[5]. وهما من نفس الاشتقاق. والتقوى للكل حتى يصل إلى الكل.

وقد يغيب التحليل اللفظي أو المعني في التقوى. ويُكتفي بالمنقولات والمرويات والحوم حول الموضوع دون الدخول فيه[6].

وفي القسم الثاني «المعاملات» أي المقامات تظهر التقوى باعتبارها تقوي الله، وتقوي الحجاب والستر، وتقوي الحدود الدنيوية، وتقوي النار[7]. تعني التقوى هنا الخوف من شيء وليست التقوى في ذاتها. تقوى الله هي الجامع لكل

---

(1) «باب شرح التقوى». السابق، ص47-48.
(2) طلق بن حبيب، **القشيرية**، ص52.
(3) **القشيرية**، ص52.
(4) «باب اختلاف الناس في طلب التقوى وفي رعاية الأعمال للَّه تعالى. الرعاية ما هي؟». السابق، ص63-67.
(5) ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ﴾. ابن عربي، **التفسير**، ص143.
(6) الدريتي: **طهارة القلوب**، ص118-128.
(7) **الفتوحات**، ج2، ص157-162.

شيء، تقواه في نعمته ونقمته[1]. وهي مكتسبة. لذلك كانت من المقامات. وهي قسمان: مطلق، تقوى الله على الإطلاق كفعل من أفعال الإيمان، ونسبي، تقوي الله قدر الاستطاعة. أما تقوى الحجاب والستر فهي تقوى النفس لأن الستر والحجاب من النفس[2]. لم تعد التقوى موضوعاً أخلاقياً بل وجودياً ومعرفياً. وتقوى النار تعني صراحةً مخافة النار واتقائها. فالتقوى والاتقاء من مصدر واحد، ثم التحول من تقوى النار إلى تقوى الله عود على بدء[3].

ومن التقوى التقية. والتقية ليست هي المعروفة عند الشيعة كآلية للتخفي بل ترك الشبهات والسير على الواضحة بعيداً عن الالتباس. ونور في القلب يفرق بين الحق والباطل. فهي أداة معرفية للتمييز بين الصواب والخطأ. هي أداة للحكم. هي حَرَم المؤمن كما أن الكعبة حَرَم مكة. وهي استعمال الأمر والنهي وليس عصيانهما للتخفي. وهي استواء السر والعلانية ومطابقة الداخل والخارج.

ب ـ **الورع**. ومن التقوى يتخلق الورع. وفي اللغة هما شيء واحد. وفي الاصطلاح الورع مجانبة ما ذكره الله. والتقوى أول منزلة، العابدين والورع أخرها[4]. الورع علامة التقوى. فالتقوى ليست فقط باطنية ولكنها تتحارج وتظهر في السلوك في طريقة التعامل في العالم مع الأشياء. ولا يصل الإنسان إلى شيء من التقوى وعليه بقية من الزهد والورع. فالتقوى نتيجة إكمال الزهد والورع. وهي مفروشة بالراحة والطمأنينة وعدم حمل الهم[5]. الورع تقوى التقوى، التقوى إلى

---

(1) ما يتقي اللّه سوى جامع ... لكل ما في الكون من حكمته
فيتقي النقمة في نعمته ... ويتقي النعمة في نقمته
السابق، ص157.

(2) من يتق الستر فذاك الذي ... يعلم أن الستر من نفسه...
لأجل هذا يتقي المتقي ... كمتقي الشيطان من مسه
السابق، ص159.

(3) من يتق النار فذاك الذي ... يحشر للرحمن من قبره...
لاتقي النار ولا مثلها ... فإن تقوى النار من مكره
لا تقي غير الإله الذي ... أبطن نفع الشخص في ضره
السابق، ص161.

(4) «باب معرفة الورع». السابق، ص49.

(5) مظفر القرمسيني، **طبقات الصوفية**، ص397.

الحد الأقصى، هو ترك الشبهات[1]. بل ترك كل شبهة وترك ما لا يعني وترك الفضلات[2]. ومن لم يصحبه الورع أكل رأس الفيل ولم يشبع[3].

الورع الخروج من كل شبهة ومحاسبة النفس في كل طرقة[4]. هو ترك ما حاك في النفس[5]. هو ترك ما سوى الله، داخل الورع جلساء الله. الورع سيد العمل. ومثقال ذرة من ورع خير من ألف مثقال ذرة من صوم وصلاة[6].

التورع من الكلام أشد من التورع عن الذهب والفضة[7]. وأشق الأعمال الورع في الخلوة، والجود في القلة، وكلمة حق من يخاف ويرجى. التورع الكامل بالقلب واللسان والسمع والبصر وسائر الأعضاء عن المباح إلا بقدر الضرورة[8].

وفي نظرة ارتقائية الورع في البدايات تجنب المحرمات، وفي الأبواب تجنب القبائح، وفي المعاملات الترقي عن الفضول الشاغلة عن المراقبة، وفي الأخلاق صون النفس عن دنس الطباع، وفي الأصول التورع عن الالتفات، وفي الأدوية التحرح عما لا تحققه البصيرة، وفي الأحوال التحرز عما لا يستحسنه الذوق، وفي الولايات التورع عن كل داعية إلى الشتات، وفي الحقائق التورع عن كل ما يمتنع من المعاينة، وفي النهايات التولي عن كل ما يعارض الجمع[9].

وكما يرتبط الورع بالتقوى من الفضائل فإنه يرتبط بالزهد من المقامات. الورع زهد في الذهب والفضة وفي الرياسة[10]. هو أول الزهد كما أن القناعة

---

(1) **القشيرية**، ص53.
(2) السابق، ص54-55.
(3) الشبلي، السابق، ص54.
(4) تونس بن عبيد، السابق، ص54.
(5) سفيان الثوري، السابق، ص54.
(6) الحسن البصري.
(7) إسحق بن خلف.
(8) الشبلي، **جامع الأصول**، ج2، ص374-376. **القشيرية**، ص354.
(9) السابق، ج3، ص123.
(10) ابن خلف، **القشيرية**، ص54.

طرق من الرضا[1]. هو الوقوف على حد العلم من غير تأويل[2]. وثواب الورع خفة الحساب[3].

الورع ظاهر وباطن، الظاهر عدم التحرك إلا لله، والباطن ألا يدخل القلب سوى الله. ومن لم ينظر في الدقيق من الورع لم يصل إلى الجليل من العطاء[4]. وأشد الأعمال ثلاثة: الجود في القلة، والورع في الخلوة وكلمة الحق عند من يخاف منه ويرجى. أصل الورع معرفة العبد أن الله قائم على أفعاله فيصلحها[5]. من كان همه هم الخبز فلا رجاء فيه[6].

وعلى عكس التقوى والورع والخوف والحذر هناك الغرور بالنفس وطول الغرة[7]. فالمغتر بظاهر طاعته عليه الرجوع إلى الزهد والتقشف وحفظ جوارحه مما كره الله، والقيام بما أوجبه عليه. وهي مجرد نصائح علمية دون تأسيس نظري أو تحليل إنساني.

3 ـ الصدق والإخلاص

أ ـ الصدق. هو لفظ قرآني نبوي. يتطلب إعلام الحال، وحفظ الإيمان، وحذر العدو، وإيثار الرب، والإخلاص[8]. الصدق أن يكون الإنسان كما يرى نفسه أو يرى نفسه كما يكون[9]. ويأتي مقام الصدق بالتوكل[10].

وللصدق سبع مراتب. الأولى حال لا تبالي بصيف أو شتاء أو أرض أو سماء. وهي حالة اللاوعي. والثانية استئناس السباع والوحوش والطير فلا يؤذي

(1) الداراني، السابق، ص54.
(2) أبو عثمان، السابق، ص54.
(3) يحيي بن معاذ، السابق، ص54.
(4) يحيى بن معاذ، السابق، ص54.
(5) **التستري**، ص89.
(6) «باب في تعريف المغتر بنفسه وطول غرته». السابق، ص50-51.
(7) السابق، ص91.
(8) السابق، ص172.
(9) أبو علي الدقاق، **القشيرية**، ص98.
(10) **التستري**، ص226.

بعضها بعضاً. وهي حالة السلام الطبيعي الأولى. والثالثة حالة السماء حين تنتهي إلى العرش. وما خلق اللّه خلقاً أكثر تواضعاً من العرش. لذلك رفعه الله ونقله ونسبه إلى أسماء العزّ والكبرياء. به قهر الأشياء. ولا يقدر أحد على حمله. والكرسي منسوب أيضاً إلى أسماء الجلالة والرحمة، لا يسعه شيء. وهذا هو الصدق الكوني وهو تشبيه وتجسيم للصدق الإنساني. ولا يُسأل أهل الصدق عن مقام أو درجة فضيلة بل يُسألون عن حالاتهم والضرورة والأمر والنهي. فالصدق صدق نفسي. وأول خيانة للصديقين حديثهم مع أنفسهم[1]. وبيت ليلة مع اللّه في الصدق أفضل من الجهاد في سبيل الله[2].

الصدق منع الحرام من الاصل[3]. وهذا هو التحول من الخارج إلى الداخل. ويصعب الصدق على الصادقين كما يصعب الإخلاص على المخلصين وكما تصعب التوبة على التائبين لأن الله حكم عليها بالروح ويتعامل العبد معها بالروح. لا يتعرض الصادق للبلاء، ويقوم بما يلزمه من أعمال البر من قِبل الله من الفرائض والسنن والنوافل. علامته إعطاء خير الآخرة لا خير الدنيا. يصف أخلاق الله لا أخلاق المخلوقين. ويعطي قلبه لا جوارحه. رأس نجاة الصادق الإيمان. ولهم في أسواقهم وتجارتهم عمى من قلوب الزهاد والعباد[4]. والصدق عماد الأمر، وبه تمامه وفيه نظامه. وهو تالي درجة النبوة[5].

ولا يُخرج الله صدِّيقاً أو نبياً حتى يثبت له جميع حسنات أهل المشرق والمغرب. وميزانهم ترك جميع النواهي، وإنكارهم الدنيا، وإقبالهم على الآخرة، وتمسكهم بأمر الله. لم ينل أهل الصدق من الله شيئا بالصوم ولا بأعمال البر بل بطرح نفوسهم بين يديه. فهو في أرواحهم ودنياهم وآخرتهم ويطلبون استعبادهم وتولي أمورهم وحفظهم. يقبلهم الله ويعطيهم ما يأملون. عرض عليهم الدنيا كلها فرفضوها مع الآخرة إيثاراً له. فكشف نفسه لهم. لا يوجد طعم الإيمان ولا رائحة الصدق من لم يترك خصالاً ويتمسك بأخرى مثل ترك الربا والحرام والسحت

(1) السابق، ص97.
(2) يوسف بن أسباط، السابق، ص98.
(3) القناد، **القشيرية**، ص97.
(4) **التستري**، ص308-309.
(5) أبو علي الدقاق، **القشيرية**، ص96-97.

والمكر والشبهة والجهل، وطلب العلم والعمل وصدق القلب واللسان، وصلاح الخلق بإتباع السنَّة والإخلاص للَّه أي جمع كل الخير. الصدق شدة وصلابة في الدين وغيرة الله[1]. هو قوة الهمة والإيمان، اسم من أسماء الله، وسيفه في الأرض[2]. هو نعت إلٰهي لا يكون إلاً لأهل الله[3]. هو قوة يخرج من أتُّون الضعف[4]. هو استقامة الطريق في الدين، وقول الصدق في كل موطن دون الفضول[5]. يهدي إلى البر، والبر يؤدي إلى رضا الله، في حين أن الكذب يؤدي إلى الفجور، والفجور يورث السخط[6].

ولا يُنال الحق والصدق أو يتصل المخلوق بالخالق إلا بعد وفاء دين الخالق، دين الروح والنفس. الصدق سيف الله في الأرض يقطع كل شيء[7]. ومن أراد أن يكون للَّه يلزم الصدق[8]. ولا يتم خوف صديق ولا رجاء حتى يخاف على نفسه ما يخاف الكافر، ويرجو الكافر ما يرجو الصادق. وعلامة ذلك رفض الدنيا وإسقاط التدبير والعقل والاستطاعة، وجعل النفس مقام العبد الذليل الضعيف لا يملك لنفسه ضرا ولا نفعا[9]. يذهب الصدق حين يداهن العبد نفسه أو غيره ودخول الآفات عليه[10]. فالصدق والمداهنة نقيضان.

الصدق ألا يكذب اللسان. والصديقية ألا يكذب القلب. كذب اللسان أن يقول ما لا يقل أو ما لا يفعل. وكذب القلب أن يعقد ولا يفعل. الكذب لغة

---

(1) **الفتوحات**، جـ2، ص222-223.
(2) الصدق سيف اللَّه في أرضه فاصدق ترى الصادق من عرضه
السابق، ص222.
(3) فلولا الصدق ما كان الوجود ولولاه لما كان الشهود
السابق، ص223.
(4) الصدق يخرج عن ضعف العبودية إذ هو الصدوق الشديد القهر للنفس
السابق، ص223.
(5) أبو الحسن الوراق، **طبقات الصوفية**، ص300.
(6) السابق، ص72-73.
(7) ذو النون، السابق، ص23.
(8) ابن خضرويه، **القشيرية**، ص97.
(9) **التستري**، ص309-310.
(10) السابق، ص369.

السوء، والصدق لغة الحق. والتمني من كذب القلب وغرس العدو[1]. الكذب ضعف والصدق قوة. الوارد الصادق يتطابق فيه ما على اللسان مع ما في القلب. ولو أراد الصادق أن يصف ما في قلبه ما نطق به لسانه[2].

ولا يُذكر الله عند الكذاب بل فقط عند الصادق المخلص[3]. الصادق من صدق في أقواله. والصديق من صدق في أقواله وأفعاله وأحواله[4]. الصدق ينفع ولا يضر. والكذب يضر ولا ينفع. مصداقة الكاذب لا شيء. علامة الكاذب جودة باليمين بغير مستخلف. الكلام أوسع من أن يكذب ظريف[5]. وما أملق التاجر الصدوق[6].

ومن كان الصدق وسيلته كان الرضا من الله جائزته. وكان الرضا أيضاً من الناس بالإقدام عليه صداقةً وتعاملاً. ولكل شيء صدق. فلماذا يكون صدق اليقين الخوف من الله؟ وهل هناك صدق دون ثقة بالنفس وقدراتها على المعرفة؟[7]. لو أن الصدق والإخلاص كان عبدين للصوفي لباعهما زهدا فيهما لأنه إن كان عند الله مقبولا فإنه لم يقترف الذنوب والآثام. وإن كان شقيا مخذولا لا تسعده التوبة والإخلاص والصدق[8].

ومن صدق كوفئ، ومن أحسن كوفئ. فالصدق له نتائجه الإيجابية. والإحسان له أيضاً نتائجه الإيجابية عن طريق السلب أي الإبراء وصحة النفس. ولكل شيء حلية، وحلية الصوفي الخشوع. الخشوع هو الصدق مع النفس ومعرفة قدرها وقدراتها الفعلية والممكنة. ولكل شيء معدن. ومعدن الصدق قلوب الزاهدين. فالصدق تطابق النفس مع ذاتها دون وسيط من العالم. ويقوى الصدق إذا كان أيضاً تطابق النفس مع الواقع. الأول صدق ذاتي. والثاني صدق موضوعي.

(1) **المواقف**، ص110.
(2) الداراني، **القشيرية**، ص97.
(3) **المواقف**، ص145.
(4) **القشيرية**، ص97.
(5) السابق، ص98.
(6) ابن سيرين، السابق، ص98.
(7) أبو سليمان الداراني، السابق، ص77، 81-82.
(8) يوسف بن حسين البغدادي، السابق، ص190.

الأول صدق صوري. والثاني صدق مادي. ولا يكفي الصلاح إن لم يكن قائماً على الصدق. فما أكثر الصالحين، وما أقل الصادقين في الصالحين[1].

ويقال الصدق على معنيين: صدق الخبر وهو موافقة نطق اللسان لما في الجنان، وتمام قوة الشيء. وعند الصوفية الموافقة للحق في الأقوال والأفعال، والأحوال لقوة ضبط النفس في العلم والعمل. صدق الأقوال موافقة الضمير للنطق. وصدق الأفعال الوفاء لله بالعمل من غير مداهنة. مصدق الأقوال اجتماع الهمم على الحق بحيث لا يختلج في القلب تفرقة عن الحق. وصدق الهمم هو بلوغ الهمة إلى حد عدم صرف القلب عما انتبه إليه. وصدق النور هو الكشف الذي لا يستتر[2].

الصدق في مقابل الكذب. وفي الاصطلاح قول الحق في مواطن الهلاك، واستواء السر والعلانية، وإسقاط ما سوى الخلق، والوفاء والصفاء. وهو الصدق في موضع لا ينجيه إلا الكذب، والصادق لا يحب أحد الإطلاع على عمله. وهو لا يستحي من سره أن يكشف. وهو ثلاثة أنواع: صدق النية وصدق اللسان وصدق العمل[3]. الصدق في البدايات القصد في الأقوال والأعمال. وفي الأبواب في النيات والدواعي. وفي المعاملات في الرعاية والمراقبة. وفي الأصول المبالغة في الجد، وفي الأدوية حد في الفراسة. وفي الأحوال الجري بحكم الحال. وفي الولايات تصفية الوقت. وفي الحقائق الطمس بنور القدس، وفي النهايات محق الرسم في عين الحق[4].

والصدق في القول وفي الفعل. فلكل قول صدق، ولكل صدق فعل[5]. لكل تاجر رأس مال ورأس مال صاحب الحديث الصدق. وهو أحد شروط الراوي[6]. ولا تستغني الأحوال عن الصدق في حين أن الصدق مستغنٍ عنها. ولو

(1) معروف الكرخي، السابق، ص87.
(2) **لطائف الأعلام**، جـ2، ص459-461.
(3) **جامع الأصول**، جـ2، ص328-329.
(4) السابق، جـ3، ص152-154.
(5) حاتم الأصم، **طبقات الصوفية**، ص94.
(6) عبد اللّه بن حبيق الأنطاكي، السابق، ص144.

صدق العبد في علاقته بالله لطلع على خزائن الغيب ولكان أميناً في السموات والأرض. فالصدق مع النفس ومع الواقع، مع الأنا ومع الغير. هو أساس الفتح ومعرفة خزائن السموات والأرض[1]. الصدق في الورع مفترض كافتراض الصبر في الورع. وهو الاعتدال والعدل[2]. يمنع الرياء. وهو على قدر موزون. من تكلم فيما لا يعنيه حرم الصدق[3]. الصادقون يعيشون في قرب الله[4]. الصدق صحة التوحيد مع القصد[5]. الصدق سيف الله، ما وضع على شيء إلا قطعه[6].

الصدق موافقة الحق في السر والعلانية. وحقيقة الصدق القول بالحق في مواطن التهلكة[7]. وحقيقته أهم من تعريفه. وأقل الصدق استواء السر والعلانية[8]. هو موافقة السر النطق. ومن عامل الله بالصدق استوحش من صحبة المخلوقين[9]. من قابل الله بالفعل قابله الله بالعدل. ومن قابله بالإخلاص رده الله إليه بالفضل. الصدق أتم عمل. وهو الوفاء لله بالعمل[10]. وكل من استعمل الصدق بينه وبين ربه شغله صدقه مع الله عن الفراغ إلى خلق الله[11]. مع أن الصدق مع النفس أولاً، ومع الخلق ثانياً، ومع المثل الأعلى ثالثاً لمعرفة مدى المسافة بين الواقع والمثال. وإذا طلب الإنسان الله بالصدق أعطاه مرآة يبصر فيها كل شيء من عجائب الدنيا والآخرة[12].

يزول القلب عن ظلم الرياء بنور الإخلاص، وظلم الكذب بنور الصدق. الصادق يتقلب في اليوم أربعين مرة. والمُرائي يثبت على حال واحد أربعين

---

(1) عمرو بن عثمان المكي، السابق، ص103.
(2) **التستري**، السابق، ص210.
(3) محمد بن الفضل البلخي، السابق، ص214.
(4) علي بن سهل الأصفهاني، السابق، ص324.
(5) الواسطي، **القشيرية**، ص97.
(6) ذو النون، السابق، ص97.
(7) أبو يعقوب النهرجوري، **طبقات الصوفية**، ص378.
(8) **القشيرية**، ص97.
(9) مظفر القرمسيني، **طبقات الصوفية**، ص378.
(10) عبد الوهاب بن يزيد، **القشيرية**، ص97.
(11) أبو بكر الطمستاني، السابق، ص474.
(12) **القشيرية**، ص98.

سنة[1]. والصدق يقوِّم الإنسان في كل أحواله[2]. ولا يشم رائحة الصدق عبد داهن نفسه أو غيره[3].

لا يبلغ بالإنسان مراتب الأخيار إلا الصدق. وكل وقت وحال خلا من الصدق فباطل[4]. ولا يصحب الإنسان إلا أمينا أو معينا. فالأمين يحمل على الصدق. والمعين يحمل على الطاعة[5].

الصدق القول بالحق في مواطن الهلكة[6]. وعلامة الصدق عدم مبالاة الصادق لو خرج على قدر له في قلوب الخلق من أجل صلاح قلبه، ولا يحب اطِّلاع الناس على مثاقيل الذر من حسن عمله. ولا يكره أن يطَّلع الناس على السيِّئ من عمله فإن كراهيته لذلك دليل أنه يحب الزيادة عندهم. وليس هذا من أخلاق الصديقين[7]. الصدق هو الفرض الدائم. ومن لم يؤده لا يجوز له تأدية الفرض المؤقت[8].

والاستغفار من عدم الصدق في القول[9]. والاستغفار يحتاج إلى استغفار لعدم الصدق فيه[10]. والصدق هو نسيان الضرب في مشاهدة المولى مثل نسوة مصر عندما نسين آلام أيديهن لما رأين وجه يوسف[11].

إذن تتعدد معاني الصدق، صدق في القول وفي النيَّة والإرادة وفي العزم وفي الوفاء بالعزم وفي العمل، وفي تحقيق مقامات الدين. فمن تحقق بذلك كله

---

(1) الجنيد، السابق ص97.
(2) أبو عبد اللّه بن سالم العدي، **طبقات الصوفية**، ص415-416.
(3) **التستري**، السابق، ص97.
(4) ما أحسن الصدق في مواطنه والصدق في كل موطن حسن
أبو العباس الدنيوري، **طبقات الصوفية**، ص478.
(5) أبو عثمان المغربي، السابق، ص482.
(6) **القشيرية**، ص97.
(7) السابق، ص98.
(8) السابق، ص98.
(9) «استغفر اللّه من قلة صدقي في قولي، استغفر اللّه»، **رابعة**، ص126-169، 175، 181.
(10) «استغفارنا يحتاج إلى استغفار لعدم الصدق فيه»، السابق، ص436.
(11) «ليس بصادق في دعواه من لم ينس الضرب في مشاهدة مولاه مثل نسوة مصر اللاتي نسين آلام أيديهن لما رأين وجه يوسف»، السابق، ص156.

فهو صديق. صدق اللسان في الأخبار وربما في الوفاء بالوعد. وصدق النية والإرادة هو الإخلاص. وصدق العزم هو صدق العمل. وصدق الوفاء بالعزم تحملا لمشقة الفعل. وصدق العمل هو الاجتهاد في الأعمال الظاهرة. والصدق في مقامات الدين أعلى درجات الصدق[1]. ثم يصبح الصدق المقام الثالث والثلاثين من مقامات الصديقين. وهو صنو النبوة، ونتيجة المحبة، وتهذيب المعرفة. هو تقديس الهمة عن غير الله في مشاهدته[2].

وقد يزدوج مقامان مثل الفقر والصدق. فالفقير الصادق. وهو ما سماه إقبال الفقر الغيور، يكون مع الله في حكم ما أوجب. وحداني الذات لم يشهد الحق غيره. أعمى عن الكون. يكون له مع الحق نسب يحمل به الواردات. والفقير الصادق لا يختار بصحة الرضا ما يرد عليه من الأسباب[3].

ومن الصدق الصادق والصديق. فالصادق هو المتكلف في حالة بين الاستقامة والزلة. والصديق هو المستقيم في كل أحوالهِ دون كلفة في شواهده بمشاهدة الحق[4]. الصديق أعلى مقاماً من الصادق. والصادق من يترك إرادته لإرادة الله واختياره وحبه وتدبيره حتى لا يريد إلا بإرادته بقلبه ونفسه وجميع حواسه. والصادق الظاهر له القدرة. يظل عند ربه. يطعمه نوراً. ويسقيه شراباً طهوراً، وهم الأقوياء. لا يحتاجون إلى شراب وطعام. ولا يموتون[5].

لا طريق أقرب من الصدق[6]. ولكل من الأحوال ثلاث علامات يُعرف بها. فالصدق يشمل صدق القلب بالإيمان تحقيقا، وصدق النيَّة في الأعمال، وصدق اللفظ في الكلام[7].

---

(1) **الإحياء**، جـ4، ص374-380.

(2) روزبهان: **مشرب الأرواح**، ص84.

(3) **الولاية**، ص239.

(4) ﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ﴾، ﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِدْرِيسَ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا﴾، ابن عربي: **التفسير**، ص128.

(5) ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾، ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ﴾ ﴿وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ ﴿وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ﴾ ﴿وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ﴾.

(6) السابق، ص161.

(7) السابق، ص170.

الصدق هو الوفاء بالعهد أي الصدق مع الآخر، الطرف الثاني في العهد. هو حب الانفراد ومناجاة الرب، وموافقة السر والعلانية مع صدق اللهجة، والانشغال بالنفس دون رؤية الخلق بعد همة النفس، وتعلم العلم والإتباع مع تصحيح الطعام واللباس وأخذ القوت. الصدق هنا التخلي، ولكن لماذا الإتباع. والإتباع تقليد والصدق تحرر؟ الصدق كتمان الطاعة ضد الرياء والنفاق. هو عفو اللّه وحسن الظن به. هو سيف الله في أرضه ما وضع على شيء إلاّ قطعه. هو فاعلية في العالم. وهو في جميع الأحوال موافقة الله في كل حال. هو موقف دائم لا يتغير. هو قول الحق في موطن الهلكة. والساكت عن الحق شيطان أخرس. وأعظم شهادة كلمة حق في مواجهة إمام ظالم. هو صحة التوجه في القصد. هو الصدق مع النفس، صدق النية[1].

ويدخل الصدق مع بعض الفضائل الأخرى مثل الأمانة والأخوة الصالحة وحفظ السريرة. وهي خصال العاقل[2]. وبالرغم من أهمية موضوع الصدق في الإخلاص والصبر والورع والزهد والتوكل والخوف والحياء والمحبة والرضا والشوق والأنس إلا أن الموضوع الآن ليس في النفس بل في الخارج، وليس في المقاومة السلبية بالإبقاء على طهارة النفس إن استعصى تغيير العالم بل في العودة إلى العالم الخارجي والدخول في تحديات العصر مثل تحرير الأرض، وحرية المواطن، والعدالة الاجتماعية، وتوحيد الأمة، وهويتها، وتنميتها المستقلة، وحشد جماهيرها. وكما بدأ التصوف من الخارج إلى الداخل فإنه يعود من الداخل إلى الخارج. فالمقاومة ليس ميؤوساً منها بعد نجاحها في لبنان وفلسطين والعراق وأفغانستان والشيشان وكشمير. لا توجد معارضة سياسية مباشرة بل رد فعل على ظروف العصر. خطوة إلى الخلف «الطريق إلى الله» رد فعل على الانحدار نحو الدنيا. والصدق رد فعل على الكذب والنفاق والبهتان وشهادة الزور.

ب ـ الإخلاص. والإخلاص لفظ قرآني. ومعناه خلوصه من الشوب. فيه أقاويل كثيرة للمشايخ. ومع ذلك فيه درجات من الشوائب والآفات المكدرة للإخلاص. بعضها جلي وبعضها خفي. منها الرياء. ومع ذلك قد يستحق العمل

---

(1) **اللمع**، ص287-288.

(2) أبو علي الثقفي، **طبقات الصوفية**، ص365.

المثوب الثواب. وهو ليس مثل العمل الخالص[1]. الإخلاص هو التخلص من الآفات. وهو المعنى الخلقي.

ثم يتحول الإخلاص إلى المقام الرابع عشر من مقامات السابقين إلى شاهد على أفراد التوحيد بعد حظ المحبة ولذة المشاهدة، هو إفراد الخدمة وإسقاط التهمة. هو وصف للدين ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾، وسر من أسرار الله[2]. وهو لفظ متشابه يعني الصدق والصفاء بمعنى الخلاصة في آن واحد[3]. والغالب هو المعنى الأول[4].

الإخلاص تصفية كل عمل قلبي من كل شوب بحيث يكون العمل لله وحده ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾ من كل شوب أو رياء أو تزين عند الناس للحصول على الجاه[5]. وهذا هو إخلاص العوام أي تصفية الأعمال عما يشوبها من حظوظ الدنيا. وإخلاص الخواص وهو عمل لذاته دون افتخار به أو انتظار ثواب أو عوض. أما إخلاص خاصة الخاصة فهو إخلاص من رؤية الإخلاص[6]. هو التجرد والصدق.

وقد يكون الإخلاص مادة عامة، مجرد حقل دلالي لا يقوم على تصورات وتعريفات وتقسيمات، مجرد مدخل عام أشبه بنظرية العلم في «الإحياء»[7]. الإخلاص تصفية العمل عن شوائب الكدر[8]. والإخلاص مثل الصدق. فإذا كان

(1) **الإحياء**، جـ4، ص364-374.
(2) روزبهان: **مشرب الأرواح**، ص49-50.
(3) **الفتوحات**، ص220-223.
(4) من أخلص الدين فذاك الذي   لنفسه الرحمن يستخلصه
فكل نقصان إذا لم يكن   في كونه فإنه ينقصه
السابق، ص220.
(5) وهو نفس المعنى المزدوج في **تخليص الإبريز في تلخيص باريس** للطهطاوي، فالملخص في العبادة مخلَّص من شوائب الكون. فالإخلاص للمخلَّصين من الشرك.
من أخلص الدين فقد أشركا   وقيد المطلق من وصفه
السابق، ص222.
(6) **لطائف الأعلام**، جـ1، ص160-161.
(7) **نزهة المجالس**، جـ1، ص3-6.
(8) ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ﴾، ابن عربي: **التفسير**، ص156.

الصدق تطابق الذات مع نفسها، وتطابق الذات مع الواقع في الحكم فإن الإخلاص هو التحول من التطابق النظري إلى التطابق العملي، ومن النظر إلى العمل ومن صدق النفس إلى التزام الإرادة.

وقد توضع النيَّة والإخلاص والصدق في نسق واحد[1]. النيَّة لفظ نبوي. وهي فضيلة. وحقيقتها الإرادة والقصد. فكل عمل يتم بثلاث أمور: علم وإرادة وقدرة. ونيَّة المؤمن خير من عمله. فالأعمال بالنيَّات. والعمل بنيَّة خير من نيَّة بلا عمل. الأعمال طاعات ومعاصي ومباحات. المعاصي لا تحتاج إلى نيَّة. أما الطاعات والمباحات فتحتاج. ولماذا لا تدخل النيَّة تحت الاختيار حتى لا تتحول إلى ضرورة ذاتية؟[2]. ليس بين الإخلاص والله حجاب إلاَّ النيَّة وهو الشكر[3]. فالشكر نتيجة الإخلاص.

يُعرف الإخلاص بالاستقامة، والاستقامة بالرجاء، والرجاء بالإرادة، والإرادة بالمعرفة. بالتالي تتمُّ الدورة من النظر إلى العمل ثم من العمل إلى النظر. لذلك تطلب النفس العمل الصالح بغير رياء، والأخذ بغير طمع، والعطاء بغير منة، والإمساك بغير بخل[4]. الإخلاص هو العمل الصالح الذي لا يحب صاحبه أن يُذكر به أو يُعظَّم بسببه، ودون انتظار ثواب من أحد.

الإخلاص تصفية الفعل عن ملاحظة المخلوقين. وهو الترقي عن ملاحظة الأشخاص، وأنفع الإخلاص ما نفى الرياء والتزين والتصنع[5]. ورياء العارفين أفضل من إخلاص المريدين[6]. ترك العمل من أجل الناس رياء، والعمل من أجل الناس شرك، والإخلاص أن يعافي الله الإنسان منهما[7]. الإخلاص أعز شيء في الدنيا. ومهما اجتهد الإنسان في إسقاط الرياء

(1) «كتاب النية والإخلاص والصدق»، **الإحياء**، ج4، ص350-380.
(2) السابق، ص351-364.
(3) **التستري**، ص355.
(4) حاتم الأصم، **طبقات الصوفية**، ص94-95.
(5) أحمد بن عاصم الأنطاكي، السابق، ص138. **القشيرية**، ص95. التستري، السابق، ص96.
(6) الخراز، **القشيرية**، ص96.
(7) الفضيل، السابق، ص96.

عن القلب فإنه يعود في شكل آخر، إذا أخلص العبد انقطعت منه كثرة الوساوس والرياء[1].

الإخلاص ارتفاع الرؤية والفناء من الفعل إلى تصديق النفس وتطابقها مع نفسها[2]. ليس الفوز بكثرة الأعمال، إنما الفوز بإخلاص الأعمال وتحسينها[3]. الإخلاص في العمل هو الذي لا يريد صاحبه عليه عوضاً من الدارَيْن، ولا حظاً من المَلَكَيْن[4]. وتصحيح العمل بالإخلاص، وتصحيح الإخلاص بالتبري من الحول والقوة[5]. في حين أن الإخلاص يتطلب الجهد. ويحتاج إلى إخلاص[6]. وهو أشد شيء على النفس لأنها ليس له فيها نصيب[7].

الإخلاص هو الذي لا يقبل عمل عامل إلا به[8]. فهو شرط العمل. ومن تكلم في الإخلاص ولم يعمل به هتك سره عند إخوانه وأقاربه[9]. وتحول من ذات إلى موضوع. الإخلاص الإغماض عن رؤية الأعمال خوفا من التزين والتفاخر بها[10]. وحقيقته ألا يحب أحد على ما يفعل من خير حتى يكون الإخلاص خاصا للإخلاص ذاته[11]. يذهب بوحشته العُجب ويؤكد حلاوة الطاعة[12]. نقصان كل مخلص في إخلاصه رؤية إخلاصه. فإذا أراد الله أن يخلص إخلاصه سقط عن إخلاصه رؤيته لإخلاصه فيكون مخلصاً لا مخلصاً[13].

وعكس الإخلاص الدعاوى الكاذبة. والتخلص منها بالالتزام

(1) **القشيرية**، ص96.
(2) رُوَيْم بن أحمد البغدادي، السابق، ص183.
(3) محمد بن علي الترمذي، السابق، ص218.
(4) رُوَيْم، السابق، ص96.
(5) محفوظ بن محمد النيسابوري، **طبقات الصوفية**، ص274.
(6) **القشيرية**، ص95.
(7) **التستري**، السابق، ص96.
(8) خير التاج، **طبقات الصوفية**، ص324.
(9) إبراهيم بن شيبان القرمسيني، السابق، ص405.
(10) **القشيرية**، ص96.
(11) **لطائف الأعلام**، جـ1، ص353-356.
(12) أبو إسحق إبراهيم بن المولد، السابق، ص412.
(13) أبو بكر الدقاق، السابق، ص96.

بالأوامر[1]. الإخلاص أن يكون ظاهر الإنسان وباطنه، سكونه وحركته خالصا لله لا يشوبه حظ نفس ولا هوى ولا خلق ولا طمع[2]. هو التحرر التام، أن تستوي أفعال العباد في الظاهر والباطن[3]. وله علامات ثلاث: استواء المدح والذم من العامة، نسيان رؤية الأعمال في الأعمال، ونسيان اقتضاء ثواب العمل في الآخرة[4]. وله ثلاث درجات: ما لا يكون للنفس فيه حظ وهو إخلاص العوام، وما يجري على الناس وليس بهم فتبدو منهم الطاعات وهم عنها بمعزل، ولا يقع لهم عليها رؤية ولا بها اعتداء وهو إخلاص الخواص[5].

الإخلاص توحد العلم مع الاسم. هو علم القيام[6]. ولا يتم علم الحال إلا به[7]. ومن أخلص أربعين يوما ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه[8]. أصل الإخلاص نور من الله، استودعه في قلب العبد، فقطعه من غيره. أما إرادة الإخلاص فالتعظيم لأمر الله وإرادته، ولطالب الأجر والثواب، ولتصفية العمل عن الشوائب. أهل لا إله إلا الله كثير. والمخلصون منهم قليل[9]. وهو تقابل الكم والكيف. الإخلاص ما لم يعلم به ملك فيكتبه أو عدو فيفسده. الإخلاص مع النفس دون غاية أو غرض وبصرف النظر عن الحلال والحرام.

الإخلاص للصادقين لطلب الأجر والثواب، وللصدِّيقين بنظر وجود الحق مقصوداً به[10]. وهو في اللغة والإصلاح ترك الرياء في الطاعة، تصفية الطاعة عن ملاحظة المخلوقين، وأن يكون المقصود بالطاعة وجه الله فحسب، وكل عمل لا يُراد به الدنيا أو الآخرة، استولد العبادة في الظاهر والباطن، إخفاء الحسنات

(1) جعفر بن محمد الخلدي، السابق، ص437-438.
(2) أبو بكر محمد بن داود الدقي، السابق، ص450.
(3) حذيفة المرعشي، **القشيرية**، ص96.
(4) ذو النون، **القشيرية**، ص95-96.
(5) أبو عثمان المغربي، السابق، ص96.
(6) **التستري**، ص224.
(7) السابق، ص 284.
(8) **التستري**، **القشيرية**، ص96.
(9) السابق، ص96.
(10) **جامع الأصول**، جـ1، ص149-150.

والسيئات[1]. الإخلاص في البدايات عدم الشرك. وفي الأبواب ألا يشوب الفرض شائبة. وفي المعاملات إخراج رؤية العمل من العمل. وفي الأخلاق التصفية من كل شيء دون الله. وفي الأصول رؤية القصد والعزم. وفي الأدوية تخليص العقل بنور البصيرة. وفي الأصول التصفية عن أحكام العلم. وفي الولايات تصفية القلب. وفي الحقائق وضع المعلوم مع محو المفهوم. وفي النهايات إخلاص التوحيد بنفي الفرق من الجمع في مقام الأحدية[2].

وسكون حركات العلم في الإخلاص بالمعرفة. فالإخلاص في المعرفة يؤدي إلى العلم. وسكون حركات العقل في الإخلاص بالسنَّة، واطمئنان العقل في الإخلاص بالسنَّة. وهي طريق الحركة. وصيانة الإخلاص وحفظه أشد من الإخلاص. وما من عبد اعتقد شيئا إلا ظهر عليه[3]. فالإخلاص للإخلاص أشد وأهم للإخلاص. وهو الذي يبقي عليه. والصدق في الاعتقاد يولِّد موضوعه. فالموضوع في الداخل وليس في الخارج. الإخلاص التوقي عن ملاحظة الخلق. والصدق التوقي عن ملاحظة النفس. فالمخلص لا رياء له. والصادق لا إعجاب له[4]. الإخلاص لا يتمُّ إلا بالصدق فيه والصبر عليه. والصدق لا يتم إلا بالإخلاص فيه والمداومة عليه[5].

وهو لفظ مزدوج المعنى يحدد الفعل والطريق، المقدِّمة والنتيجة، البداية والنهاية. البداية الصدق مع النفس، والنهاية النجاة. ويتم ذلك بفعل داخلي وليس بمخلص خارجي مثل السيد المسيح أو تأسيس مملكة سليمان. الإخلاص استجابة، رد فعل على فعل. والخلاص من ثلاثة أشياء يقوم به المخلص الصدِّيق: العجب، والكبر، والدعوى، ولا يستطيع ذلك إلا الشاكر. ويخلِّص الإيمان من ثمانية أشياء: الشرك، والكفر، والنفاق، والإباء، والاستكبار، والسحر، والارتداد، وخلاف الجماعة حفاظا على وحدتها. وتخلص الأعمال من سبعة أشياء: كفر

(1) السابق، جـ2، ص275-276.
(2) السابق، جـ3، ص135.
(3) **التستري**، ص368.
(4) أبو علي الدقاق، **القشيرية**، ص95.
(5) ذو النون، السابق، ص95.

النعم، والشرك، والشك، والدعوى والنفاق، ووعيد القصاص، والبدعة، والرياء[1].

الإخلاص جوهر العبادة، وليس كثرة الصلاة والصوم، والاستعانة بالله والاقتداء بالرسول. وهو خارج النفس الأمارة بالسوء[2]. وهو عدم الاهتمام بالخبر بل بالاعتماد على اليقين الداخلي لا على يقين الرواية[3]. هو من مقتضيات الإيمان والضرورات واليقينيات. هو ما حفظ من العدو أن يفسده[4].

الإخلاص أول خطوة في الدين. هو فرض من الله. مع أنه أيضاً نزوع من النفس. هو نسيان رؤية الخلق بدوام النظر إلى الخالق[5]. هو فريضة أي علاقة الإنسان بالله عن طريق النية. هو الشكر، إفراد الحق في الطاعة بالقصد. وإرادة طاعته التقرب إليه دون أي شيء آخر من تصنع لمخلوق أو اكتساب لمحمدة عند الناس أو محبة مدح من الخلق[6]. هو ما أريد به الحق وقصد به الصدق[7]. هو سر بين الله والإنسان لا يعلم ملك فيكتبه ولا شيطان فيفسده، ولا هوى فيميله[8]. وباقي تعريفات الإخلاص نحو الصلة بالله، إخراج الخلق من معاملة الله. والنفس أولى الخلق. الإخلاص إذن هو توحيد القصد والهدف. هو إفراد القصد إلى الله. هو ترك الموافقة للخلق.

الإخلاص شرط الطمأنينة، فقد خلق الله الجنة وجعل الطريق إليها أربعة أشياء: العلم، والإرادة، والنيَّة للعمل بصحة العقل ثم الإخلاص. فالإخلاص المستمر هو الطريق الأخير للنجاة. والمخلصون متصلون بعلم الساعة. ومن لم تمتزج طاعته بهواه شاهد الآخرة بالإخلاص بالإضافة إلى الكرامات. فالإخلاص في المشاهدة.

---

(1) **التستري**، ص122.
(2) السابق، ص272-273.
(3) السابق، ص288.
(4) ذو النون، **القشيرية**، ص96.
(5) أبو عثمان، السابق، ص96.
(6) السابق، ص95.
(7) السابق، ص96.
(8) الجنيد، السابق، ص96.

الإخلاص ضد الرياء. لا ينبت الكفار والمنافقين والمرائين. ولا يعرف الرياء إلا المخلص. فالنقيض يحيل إلى النقيض. وهو المشاهدة والاستعانة والتبري. ومن كانت حاجته إلى الله كان الله وليّه في الحاجة. ومن لم يكن صار بدل الله النفس والعدو والدنيا[1]. فالإخلاص رؤية وفعل وتجرد واعتماد على الله وإلا فالاعتماد على النفس والهوى والدنيا. وهل يقتضي الإخلاص بالضرورة الاعتماد على الغير دون الذات؟ ويرتبط الإخلاص بالاستقامة والهوى فلا إخلاص بلا استقامة. ولا استقامة دون مقاومة الهوى[2]. الإخلاص جهاد مثل معرفة الله وترك الشهوات قيم مطلقة لا يقاس عليها. فالاتصال بالله بالقلب، ومع الخلق بالجوارح. وصيانة الإخلاص أهم من الإخلاص[3]. وعلامة المخلص محبة الخلوات لمناجاة الله، وقلة التصرف إلى الخلق بعبودية الله، وكراهية علم الخلق في معاملة الله.

4 ـ التواضع والخشوع

أ ـ التواضع. بالرغم من أن التواضع ثمرة الخشوع إلا أنه أبرز في الفضائل. ويعني الخضوع للحق، والانقياد له، وقبول الحق من أي جهة كانت، وهو التواضع المعرفي. والتواضع نتيجة التوجه كلية إلى عظمة الله. والنظر إلى سلطان الله ينيب سلطان النفس لأنها فقيرة أمام غناه، قليلة أمام هيبته. التواضع قيمة ناتجة عن حدودها في الخارج، وليس عن قيمتها الذاتية في الداخل. هو صنع الكبر. والتواضع تكبر على من يكبر[4].

وأحسن لسان العبد التواضع والانكسار[5]. والتواضع غير الانكسار، التواضع فضيلة، والانكسار رذيلة. التواضع رفعة، والانكسار ذل. والتواضع غير المذلة والاستكانة. يقودان إلى الخُلّة العلياء.

---

(1) **التستري**، ص357.
(2) السابق، ص288.
(3) السابق، ص207.
(4) الفضيل بن عياض، **طبقات الصوفية**، ص12، 20. الترمذي، السابق، ص282. ابن عطاء، **التستري**، ص70. الفضيل بن عياض، **القشيرية**، ص69. يحيى بن معاذ، **التستري**، ص70.
(5) السهروردي: **عوارف المعارف**، ج3، «الباب 30. تفاصيل أخلاق الصوفية»، ص2-21.

وأنفع التواضع ما نفى الكبر وأمات الغضب[1]. وفَرْق بين الاثنين. الكبر رذيلة لكن الغضب أحياناً فضيلة يعبِّر عن الاستياء العملي بدلاً عن الرضا المهين. الخير كله في بيت، مفتاحه التواضع. والشر كله في بيت، مفتاحه الكبر. تواضع آدم في ذنبه فنال الكرامة. وتكبر إبليس فلم ينفعه شيء[2]. التواضع نعمة لا يحسد عليها، والكبر محنة لا يرحم عليها. العز في التواضع. فمن طلبه في الكبر لم يجده[3]. والادعاء ضد التواضع. وسقوط الإنسان درجة يدل على ادعائها[4]. والتواضع فضيلة محمودة عكس الكبر، الرذيلة المذمومة[5]. وهو لفظ نبوي. التواضع رعاية الاعتدال بين الكبر والضعة[6]. من تكبر أخبر عن نذالة نفسه، ومن تواضع أظهر كرم طبعه[7].

من شرائط الخدام التواضع والاستسلام[8]. والحقيقة أن التواضع ليس من شرائط الخدام بل من صفات السلوك الفاضل، سواءٌ كان صاحبه خادماً أم سيداً. وهناك فرق بين التواضع والاستسلام. فالتواضع لا يمنع من الرفض والمخالفة. التواضع ترك التمييز في الخدمة.

ولا يعجز الإنسان عن رؤية ضعفه[9]. وماذا عن قوته؟ التواضع تصفية الباطن، يرمي بركاته على الظاهر. فالتواضع يتخارج، من إلى شعور باطني إلى سلوك ظاهري، وهو جزآن: الإنصاف لكل أحد، والإيثار على النفس. من رأى لنفسه قيمة فليس له في التواضع نصيب[10]. التواضع خفض الجناح للخلق ولين الجانب لهم[11]. يكون الإنسان متواضعاً إذا لم ير لنفسه مقاماً ولا حالاً ولا رأى

---

(1) أحمد بن عاصم الأنطاكي، **طبقات الصوفية**، ص138.
(2) يوسف بن الحسين البغدادي، السابق، ص188-189.
(3) **التستري**، ص69.
(4) يحيى بن معاذ، السابق، ص111.
(5) **الإحياء**، ج3، ص330-334، 344-348.
(6) البسطامي، **عوارف المعارف**، ص10-11.
(7) السابق، ص19.
(8) محمد بن على الترمذي، السابق، ص218. يحيى بن معاذ، **التستري**، ص69. **عوارف المعارف**، ج3، ص9.
(9) مظفر القرمسيني، السابق، ص396.
(10) الفضيل بن عياض، **القشيرية**، ص69.
(11) الجنيد، السابق، ص69. **عوارف المعارف**، ج3، ص5.

أنه في الخلق من هو أشر منه[1]. ومن التواضع أن يشرب الرجل من سوء أخيه. التواضع للفقراء، والتكبر للأغنياء[2]. ومن صدق التواضع التواضع للفقير مثل التواضع للغني. أعز الخلق خمسة: عالم زاهد، وفقيه صوفي، وغني متواضع، وفقير شاكر، وشريف سَني[3]. والغني المتواضع مع العالم الزاهد والفقيه الصوفي والفقير الشاكر والشريف السَني أعز خلق الله[4]. التواضع حسن في كل أحد لكنه في الأغنياء أحسن. والتكبر سمج في كل أحد وفي الفقراء أسمج[5].

التواضع هو عدم التعرض للبلاء[6]. وهذا أقرب إلى الخوف والتراجع والنكوص. والحياة إقدام واقتحام. الشرف في التواضع، والعز في التقوى، والحرية في القناعة[7]. ومن رأى لنفسه قيمة فليس له في التواضع نصيب، التواضع هو أن يرى الإنسان كل الناس خيرا منه[8]. من أحب أن يتواضع قلبه فليصحب الصالحين وليلتزم بحرمتهم. ومن شدة تواضعهم في أنفسهم يقتدي بهم ولا يتكبر[9].

التواضع للبدن وللنفس. وللدين رأس مال، خمسة في الظاهر، وخمسة في الباطن. في الظاهر صدق اللسان، وسخاوة الملك، وتواضع الأبدان، وكف الأذى واحتماله. وفي الباطن حب السيد، وخوف الفراق، ورجاء الوصول إليه، والندم على الفعل، والحياء من الرب[10]. ومن علامات التواضع تصغير النفس معرفة بالعيب، وتعظيم الناس حرمة التوحيد، وقبول الحق والنصيحة من كل واحد[11].

---

(1) البسطامي، السابق، ص69. ابن عباس، **التستري**، ص70.
(2) ابن المبارك، السابق، ص69. يحيى بن معاذ، **التستري**، ص70.
(3) إبراهيم بن شيبان، **القشيرية**، ص69.
(4) الثوري، **عوارف المعارف**، ص9.
(5) ابن عباس، السابق، ص70.
(6) **التستري**، ص222.
(7) السابق، ص283.
(8) يوسف بن أسباط، **عوارف المعارف**، ص7.
(9) أبو حفص، السابق، ص6.
(10) الجريري، السابق، جـ3، ص8-9.
(11) ذو النون، السابق، ص9.

المتواضع من لا يرى لنفسه مقاماً ولا حالاً من علمه بشرها وازدرائها. ولا يرى في الخلق شراً منه[1].

ثم يتحول التواضع إلى المقام الثاني والثلاثين من مقامات السالكين وهو ميراث الخشوع، فناء العبد في عظمة الله، والتذلل لكبريائه في رؤية ما يبصر من شواهد فردانية ووحدانية حتى يفنى في الله. «ومن تواضع لله رفعه»[2].

التواضع أن يتضع الإنسان لصولة الحق. وهو على أقسام: التواضع للمريد وهو عدم معارضة معقول لمنقول. والتواضع للإرادة وهو ترك جميع المرادات والمطالب إلا الحق. والتواضع للحقيقة وهو فناء النفس أمام الحقيقة. وهو غير مكتسب، ولكن الرياضات والمجاهدات إعداد له[3]. والرياضة قادرة على خلق التواضع. فهي القادرة على جعل الإنسان في حد الاعتدال دون إفراط أو تفريط[4].

التواضع مع الخلق هو عدم الخضوع لأحد من الخلق عند الحاجة إليه. التواضع إذن وصف حميد وحسن كريم. والرسول نموذج التواضع. وهو ما ينفي بعض مظاهر الكبر. والرسول نموذج التواضع أنه أول من يبعث، سيد ولد آدم، مخلوق وآدم بين الماء والطين[5].

ب ـ الخشوع. كما يقرن الورع بالتقوى كذلك يقرن الخشوع بالتواضع[6]. والخشوع لفظ قرآني. والخشوع هو التواضع والتواضع هو الخشوع. وهو عدم استحسان شِسْع النعال حين المشي. التواضع والخشوع في اللغة بمعنى واحد. الخشوع انقياد إلى الحق، الخوف الدائم في القلب، قيام القلب بين يدي الحق بهَمٍّ الجميع، ذبول يرد على القلب عند اطلاع الرب، إطراق السريرة لمشاهدة

(1) البسطامي، السابق، ص9.
(2) روزبهان: **مشرب الأرواح**، ص40.
(3) **لطائف الأعلام**، جـ1، ص296-297.
(4) **الإحياء**، جـ3، ص330-334، 344-348.
(5) **جامع الأصول**، جـ2، ص265-270.
(6) **القشيرية**، ص68-71. أبو علي الدقاق، السابق، ص68.

الحق، أدب القلب وانخفاسه والقهقرى عن سلطان الحقيقة. هو مقدمات غلبة الهيبة، قشعرة ترد على القلب فجأة عند مفاجأة وكشف الحقيقة[1]. و يؤدي خشوع القلب إلى خشوع الجوارح. وهو في الاصطلاح الاستسلام للحق وترك الاعتراض على الحكم، والخشوع للحق والانقياد وقبوله. وعلامته الاعتقاد أن الغير أفضل من النفس. والفرق بينهما أن الخشوع الانقياد للحق، والتواضع الاستسلام له وترك الاعتراض على الحكم.

الخشوع قيام القلب بين يدي الحق[2]. ومن خشع قلبه لم يقرب منه الشيطان[3]. خشوع القلب قيد العيون عن النظر[4]. هو الخوف الدائم اللازم للقلب[5]. محله القلب، وليس انقباض الظاهر وانكسار الشاهد وانحناء القامة. الخاشع من خمد ميزان شهوته، وسكن دخان صدره، وأشرف نور التعظيم في قلبه، فماتت شهوته، وحي قلبه، فخشعت جوارحه[6]. ومن علامات الخشوع أن الإنسان إذا أُغضب أو خولف أو رُدَّ عليه أنِ يستقبل ذلك بالقبول. الخشوع تذلل القلب لعلام الغيوب[7]. هو ذبول يرد على القلب. هو ذوبان القلب وانخناسه عند سلطان الحقيقة، قشعريرة ترد على القلب بغتة عند مفاجأة كشف الحقيقة، مقدمات غلبات الهيبة[8]. هو إطراق السريرة بشرط الأدب بمشهد الحق[9]. قراء الرحمن أصحاب خشوع وتواضع، وقراء القضاء أصحاب عجب وتكبر[10]. هو خمود النفس، وهمود الطباع لمتعاظم أو مفزع. خشوع العامة رهبة من الوعيد وخوف من التهديد[11]. وخشوع الخاصة لدواعي الحقيقة إلى حفظ الحرية مع الحق، وتجريد

(1) **جامع الأصول**، جـ2، ص265-270.
(2) أبو علي الدقاق، **القشيرية**، ص68.
(3) **التستري**، السابق، ص68.
(4) السابق، ص68.
(5) الحسن البصري، السابق، ص68.
(6) الترمذي، السابق، ص68.
(7) الجنيد، السابق، ص68.
(8) السابق، ص69.
(9) السابق، ص68-69.
(10) الفضيل بن عياض، السابق، ص69.
(11) **لطائف الأعلام**، جـ2، ص367-368.

القصد له وحده من دون الخلق. خشوع العامة له هيبة من الوعيد، وخشوع الخاصة لحفظ الحرمة مع الملك الشهيد[1].

شرط الخشوع في الصلاة عدم معرفة الجالس على اليمين أو اليسار. وهو في البدايات خضوع الجوارح في الصلاة. وفي الأبواب إنكسار لحن النفس وسكون قواها الطبيعية. وفي المعاملات تصاغر القلب عند المراقبة. وفي الأحوال خمد نار الطبيعة بنور الحق، وإذعان بحكم الحال وانسلاخ عن أحكام العلم. وفي الأصول إسلام لوجه الله. وفي الولايات تنسيم نسيم الغناء ببلوغ العناية في الصفاء. وفي الحقائق التنافي عن الصفاة بانمحائها في صفات الحق. وفي النهايات التجرد عن اليقين وأصله انقطاع العبد لصولة الحق. في البدايات للدين. وفي الأبواب باطنٌ. وفي المعاملات احتشامٌ واحترامٌ. وفي الأصول حُسن أدب الحضرة. وفي الأدوية الاهتداء من نور البصيرة لا من العقل. وفي الأصول الانضمام لصولة الحق. وفي الولايات الانقهار تحت تجليات الأسماء. وفي الحقائق محو الاسم والرسم. وفي النهايات الرجوع إلى العدم الأصلي[2].

والخشوع من غير تصنع هو هجوم أمر يتحول إلى حالة بحضور جلالة الرب[3]. هو حق الله الذي يضيعه فقد العلم[4]. يُبعد الشيطان أي الأهواء. ويكشف عن عدم وجل القلب حين الوقوف بين يدي الله والصبر على ذلك. يكتسب الخشوع بعد وجل القلب، وهو الوقوف بين يدي الله، والصبر على ذلك. فالخشوع موقف أمام شيء في الخارج وليس موقفا من الداخل[5].

الخشية باطن، والخشوع ظاهر. لو خشع القلب لخشعت الجوارح. فالأولوية للداخل على الخارج. والخشوع مع الالتجاء والافتقار. والتضرع من علامات الراحة. والمعافاة ضد الشهوة واللغو والغفلة والابتلاء والضر والجهد والتعب[6].

(1) **جامع الأصول**، جـ2، ص342.
(2) السابق، جـ3، ص118، 155.
(3) **التستري**، ص96.
(4) السابق، ص237.
(5) السابق، ص257.
(6) السابق، ص314.

ثم يتحول الخشوع إلى المقام الحادي والثلاثين من مقامات السالكين. خشوع القلب مقدمة لخشوع الجوارح «لو خشع قلبه خشعت جوارحه». هو رقة القلب بنور الحزن وصفاء السر وسناء القرب حتى تتصف الروح بلباس العظمة، وتبصر العين جلال القدم فيخشع السر في الأزل والروح في الأبد، والقلب في الملكوت، والعقل في الجبروت. الخشوع في الطاعة، والسكون تحت مجاري القدرة[1].

ويظهر الخشوع مع المقامات[2]. وهو مقام الذلة والصغار. وهو من صفات المخلوقين وليس من نعوت الألوهية. وهو محمود في الدنيا على محمودين، ومحمود في الآخرة على مذمومين من المفسدين في الأرض. ولا يكون الخشوع إلا من تجل إلهي في قلب المؤمن عن تعظيم وإجلال، وفي الكافر عن قهر وخوف وبطش[3]. يورث الخشية، والخشية تعطي الخشوع، والخشوع يعطي التصدع[4]. ويُترك الخشوع إذا كان الإنسان في نعت إلٰهي وورد التجلي عليه، وأورث الفرح والابتهاج والسرور، ولم يجد خشوعاً ولا ذلةً. فالخشوع لا يجوز حين النصر والثقة بالنفس والفرح العميم.

5 ـ الكرم والسخاء والجود والإيثار

وكلها من حقل دلالي واحد في مقابل البخل والتقتير والأثرة[5]. والكرم بلا حدود. فقد مات التستري وعليه أكثر من خمسين حجة، وعتق عشر رقاب، وإنفاق جبل من ذهب[6]! وهو لزوم ما لا يلزم. ويخرج عن حدود الاستطاعة. وهو أقرب إلى التمني منه إلى الفعل.

---

(1) روزبهان: **مشرب الأرواح**، ص40.

(2) **الفتوحات**، جـ2، ص193-194.

(3) لا يكون الخشوع إلا إذا ما يبصر القلب من تدلى إليه
السابق، ص193.

(4) من تجلى لنفسه كيف يخشع وبه تنظر العيون إليه
السابق، ص194.

(5) **القشيرية**، ص112-115.

(6) **التستري**، ص364.

الكريم لا يبالي بمن أعطى. ومن لا يحوج إلى وسيلة لأن الكرم من طبع الكريم وليس نتيجة لسؤال المحتاج. ودفع دينار لآخر خير للدافع، وعدم دفعه خير للمدفوع إليه[1]. وقد يدخل الكرم مع الفتوة ورد السلام دون تحليل نظري بل اعتماداً على حكايات المرويات وإسرائيليات وأساطير وخرافات عن الجن. فالموضوع وسيلة لتجميع مواد موسوعية بين التفسير والحديث والفقه وحكايات الأنبياء وطب الأعشاب، وهو جزء من الطب النبوي مع تركيز على حكايات الجنس. معظمها خارج الموضوع مع إحساس بتغيُّر الزمان[2]. والكرامة إعطاء فوق المأمول، وبلوغ المراد قبل ظهور الإرادة. المعنى القديم فيض من الكرم. والمعنى التداولي الجديد كرامة الإنسان، وكرامة الأوطان، وكرامة الشعوب[3].

والسخاء لفظ نبوي. وهما مترادفان في اللغة. وفي الاصطلاح السخي من أعطى بعض ماله وأمسك البعض. والجود عطاء أكثر وإمساك أقل. والإيثار أعلى المراتب لدرجة الإضرار بالنفس[4]. ولا يوصف الله بالسخاء والسماحة عند أهل التوقيف، ويجوز عند أهل الاصطلاح. والسخاء قبل الجود ثم الإيثار[5].

سخاء النفس عما في أيدي الناس أفضل من سخاء النفس بالبذل[6]. ليس السخاء أن يعطي الواجد المعدم إنما السخاء أن يعطي المعدم الواجد[7]. السخاء فضيلة من فضائل الأنبياء. وحكاياتهم كثيرة[8]. والجود عدم صعوبة البذل. وهو استجابة للخاطر الأول[9].

والإيثار فضيلة. وهو أعلى درجة من درجات السخاء وهو الجود بالمال

---

(1) أبو عبد اللّه السجزي، **طبقات الصوفية**، ص254.
(2) **نزهة المجالس**، جـ1، ص210-225 «باب الكرم والفتوة ورد السلام»، «فصل في كرم اللّه تعالى».
(3) **اللمع**، ص302.
(4) **جامع الأصول في الأولياء**، جـ2، ص220-221.
(5) **القشيرية**، ص112-115.
(6) السابق، ص113.
(7) أبو علي الدقاق، ص115.
(8) **الإحياء**، جـ3، ص237-246.
(9) **القشيرية**، ص112-115.

بالرغم من الحاجة إليه. في حين أن السخاء مجرد إعطاء مال لمحتاج. كما أن البخل هو تقتير الإنسان على نفسه مع الحاجة[1].

وقد يأتي الإيثار وحده. ويعزُّ في الأخلاق إيثار الغير على النفس حتى وإن كانت بها حاجة. في البدايات اتفاق ما فضل من الوقت. وفي الأبواب قطع التعلق بحب المال. وفي المعاملات اختيار رضى الله على رضى الغير. وفي الأصول بذل المال والروح في سبيل الله. وفي الأدوية رفع الهمة عن التعلُّق بما دون الحق. وفي الأحوال عدم الالتفات إلى ما سوى المحبوب. وفي الولايات الغناء عن الأفعال والصفات. وفي الحقائق الانفصال عن الكونين وإفناء البكاء. وفي النهايات محق الآتية وفقد البغتة[2].

والعطاء أفضل من الأخذ إلا حين الضرورة. وهي حالة روحية تُسمَّى الإحسان في الأخلاق المسيحية[3]. والصوفي سخي. كلما أعطاه الله شيئاً تصدق به.

وأيهما أفضل العطاء في السر أم في العلن؟ إخفاء العطاء أقرب إلى التعفف والتصون وإلى سلامة القلب وصلاح النفس وتجنب الغيبة والتهمة، والاحتياط للأخ وعونه على البر والتقوى «أفضل صدقة جهد العقل إلى فقير في سر». وإظهار الصدقة إذلال للعلم وامتهان للعلماء. وعلى المعطي ألا يحب ذكر معروفه وشكره خوفاً من التزين والتصنع. وقد يكون الإظهار أفضل لأنه أقرب إلى الإخلاص والصدق. وقد يستوي السر والعلن لصحة النية في الحالتين[4]. وأخذ الواجب أفضل من التطوع. فالواجب قسمة لله ﴿وَٱلَّذِينَ فِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ مَّعۡلُومٞ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ﴾. وفضل البعض الأخذ من التطوع أي من النوافل كالهدية للتآلف والتحاب[5].

---

(1) السابق، ص251.

(2) **جامع الأصول في الأولياء**، ج3، ص153-154.

(3) **التستري**، ص295-296.

(4) **قوت القلوب**، ج2، ص417-422.

(5) «فعلى العبد أن ينظر لدينه، ويحتاط لأخيه فيعمل بما يوجب الوقت من الحكم من أيهما كان. فسواء ذلك. ولا ينظر بظلمة النفس في هوى الحظ. ففي ذلك سلامته»، السابق، ص422.

أما البخل فهو ترك الإيثار عند الحاجة إليه. وقد يكون بخلا بالمال أو بالنفس[1]. البخل ثلاثة أحرف. الباء للبلاء، والخاء للخسران، واللام للوم. وهي بداية علم الحروف. البخيل بلاء في نفسه، وخاسر في سعيه، وملوم في بخله[2]. نصير السخاء ما وافق الحاجة. فالسخاء ليس فقط فعلا ذاتيا من السخي بل هو أيضا فعل موضوعي لسد الحاجات[3]. وهو إيثار ما يحتاج إليه عند الإعسار إلى الآخرين. لا يذكر العطاء ولا يلمحه بقلبه لأنه أعلى محنة[4]. لا يصفو للسخي سخاوة إلا بتصغيره ورؤية فضل من يقبل منه[5]. فلا كريم إلا وله أكرم منه حرصا على التواضع ومنعاً من الغرور دون إقلال النفس.

وما دام الكرم والسخاء من الفضائل فإن البخل وحب المال من الرذائل[6]. وما من قبيح إلا وأقبح منه صوفي شحيح[7]. المال مذموم وحبه مكروه. وفي نفس الوقت المال ممدوح. وتتوقف الحالتان على كيفية استخدامه. فالمال الصالح للرجل الصالح. والفقر يمكن أن يكون رذيلة وكفرا أو فضيلة ونعمة. المال له آفات وله فوائد. فوائده دنيوية معروفة ودينية ثلاث: الإنفاق على النفس في العبادة، وما يصرف على الناس صدقة ومروءة ووقاية العرض وأجرة الاستخدام، وما يصرف لقضاء الحاجات العامة وتنمية المجتمع. والآفات دينية ودنيوية ثلاث، الانقياد إلى المعاصي، والانقياد إلى المباحات والتنعم فيها، والإلهاء عن ذكر الله[8].

والحرص والطمع مذمومان، والقناعة واليأس مما في أيدي الناس ممدوحان. ويمكن علاج الحرص والطمع ووصف الدواء الذي يعطي القناعة. ويقوم على ثلاثة

---

(1) أبو حفص النيسابوري، **طبقات الصوفية**، ص120.
(2) أبو علي الجوزجاني، السابق، ص146.
(3) أبو سليمان الداراني، **طبقات الصوفية**، ص43.
(4) معروف الكرخي، السابق، ص88.
(5) محمد بن عليان السنوي، السابق، ص418.
(6) **الإحياء**، ج3، ص225-268.
(7) أشرت إلى الحبيب بلحظ طرفي ... فأعرض عن إجابتي المليح
فقلت أضاع مذهبه المزجّي ... وحرمه ذلك العهد الصحيح
ألم تسمع بالأقبح إلا ... وأقبح منه صوفي شحيح
أبو عبد اللّه الروذباري، **طبقات الصوفية**، ص498.
(8) **الإحياء**، ج3، ص225-237.

أركان: الصبر والعلم والعمل. الاقتصاد في المعيشة وعدم حمل هم المستقبل، معرفة أن القناعة عز واستغناء على نقيض ذل الحرص والطمع، اليهود والنصارى وأراذل الناس والحمقى من الأكراد والأعراب الأجلاف ومن لا دين ولا عقل لهم وانغماسهم في نعم الحياة مقارنة بأحوال الأنبياء والأولياء والخلفاء الراشدين[1].

البخل مذموم. وحكايات البخلاء كثيرة[2]. هو منع الواجب، واستصعاب العطية. والواجب قسمان: واجب بالشرع وواجب بالمروءة والعادة. والسخي لا يمنع الواجبين. وسبب البخل حب المال لحب الشهوات أو لحبه في ذاته. المال وظيفة لها قصد، مصدره حلال، دون إقلال أو اكتفاء، وفي الصرف دون تبذير أو تقتير، وتوافر النية الحسنة في الصرف والإنفاق. والكرم والبخل لهما نفس الدلالة مرة إيجاباً ومرة سلباً. والنظر إلى البخيل يُقسِّي القلب[3].

وفي المقامات يظهر الجود والكرم والسخاء والإيثار في نسق أعم يشمل الصدقة والصلة والهدية والهبة وطلب العوض وتركه[4]. فالجود ليس مجرد الكرم بل هو أصل الوجود. كلاهما من نفس الاشتقاق الجود هو المطر الكثير، وهو وجود ذاتي لا امتناني. هو العطاء قبل السؤال. أما الكرم فهو العطاء بعد السؤال. وهو نوعان: سؤال بالحال عن كشف من الطرفين. وسؤال بالمقال من الإنسان معلوم. ويطلق اسم السخي على الله. وعطاء السخاء عطاء على قدر الحاجة، عطاء الحكمة، عطاء الحق للخلق. وعطاء الخلق إعطاء كل ذي حق حقه إنصافا على نفسه وأهله. والإيثار لا يقال على الله لأنه حقيقة إنسانية إلا عند أهل الشطح فإن الإيثار قد يكون عطاء محتاج. أما في الحق فهو عطاء، جوهر الوجود[5].

وقد يأتي الموضوع في «باب الحِلْم والصفح عن تراث الإخوان» فالحِلْم مع المسيء. والصفح من كرم النفس. الحِلْم أفضل من كظم الغيظ[6]. وتذكر فضيلتا

(1) السابق، ص247-251.
(2) السابق، ص253-258.
(3) بشر الحافي، **طبقات الصوفية**، ص43.
(4) **الفتوحات**، ج2، ص179-180.
(5) بالجود صح وجودنا في عيننا بل غنى منه على الحقيقة مظهر
السابق، ص179.
(6) **نزهة المجالس**، ج1، ص206-209. «باب الحلم والصفح عن تراث الإخوان».

العفو والإحسان كعلاج لآفات الغضب والحقد والحسد. ويعني العفو إسقاط الإنسان حقه وتبرئة الآخر من أي قصاص أو غرامة. وهو غير الحِلْم وكظم الغيظ[1]. والتجاوز والعفو ومقابلة السيِّئة بالحسنة من أخلاق الصوفية، وهو معنى «فالإحسان لمن أساء وهو أول الإحسان إلى المحسن طبقا لقانون السوق»[2]. وهنا يتحد الفقه والأخلاق في حكايات ومرويات وتفسيرات وإسرائيليات مع بعض المسائل.

لقد يسر الله المعذرة ووعد بالعفو والمغفرة[3]. وإن أنزل الإنسان الله في حسنته نزل في سيِّئته. يثبت الأولى ويمحو الثانية. فالإنسان ذو مقام رفيع، مقام الأمان والظل، مقام العقد والحل، مقام الولاية والأمانة[4]. وواضح بقايا التصوف الخلقي في التصوف النفسي.

6 ـ الصفاء والحياء والشفقة

وقد تقترب الحقول الدلالية للألفاظ مثل الأدب وحسن الخلق، التواضع والخشوع، التقوى والورع، الكرم والجود والسخاء، قد تبتعد مثل الصفاء والحياء والشفقة.

أ ـ الصفاء. هو ما خلص من ممازجة الطبع ورؤية العقل من الحقائق في الحين. وقد يكون في صفاء العبودية نسيان الربوبية لأنهما ممتزجان بالطبع. الصفاء إزالة المذمومات والابتعاد عن الشبهات. وهو في المعاملة والعبادة[5]. فالعقل دلالة، والحكمة إشارة. وللمعرفة شهادة على أن صفاء العبادة لا ينال إلا بصفاء المعرفة، معرفة الله والنفس والموت وما بعد الموت من وعد ووعيد. ومراعاة حق الله على ثلاثة أوجه: الوفاء والأدب والمروءة[6]. أما صفاء الصفاء فهو إزاحة

(1) **الإحياء**، جـ3، ص177-180.
(2) **عوارف المعارف**، جـ3، ص48-52.
(3) «موقف الصفح الجميل»، السابق، ص191-194.
(4) «موقف الصفح والكرم»، **المواقف**، ص185.
(5) **اللمع**، ص414.
(6) السابق، ص301-302.

الأحوال والمقامات والدخول إلى النهايات. وهي أمانة الأسرار عن المحدثات لمشاهدة الحق بالحق على الاتصال بلا غفلة[1].

الصفا اسم للبراءة من الكدر. ويصفو القلب عند انطواء حظ العبودية في حق الربوبية، والانتقال من الظلمة إلى النور، ومن البقاء إلى الفناء[2]. ويعني خلاصة خاصة الخاصة، والتحقق بمقام الأكملية. وصفوة صفا خلاصة خاصة الخاصة، صفاء الخلاصة أو صفوة الصفا. وصفوة الصفاء الأفق الأعلى، مقام أَحدية الجمع. وقد يُقرن الصفاء بالإخلاص[3]. والصفوة المحققون بالصفاء. ولهم مراتب في حضرة الصفاء. وصفوة أهل الله الصفوة على اختلاف مراتبهم. والصوفي من صفت سريرته[4].

وينتج عن صفاء القلب ثماني فضائل: قلة الأمل، بغض الدنيا للتوجه إلى الآخرة، حب العلم والعبادة، قلة الكلام، وإيثار الصمت، قلة النوم ليقظة الشعور، قلة الضحك، فالضحك الكثير يميت القلب، وكثرة التذكر والتأمل المستمر، وكثرة الدعاء والتضرع في حوار متبادل بين الإنسان والله. وثمانٍ أخرى مضادة من ظلمة القلب وقساوته: طول الأمل، حب الدنيا، الزهد في العلم والعبادة، كثرة النوم، كثرة الضحك، كثرة الكلام فيما لا يعني، التقرب إلى أهل المعاصي. وعلامة سخط الله على الإنسان ثلاث: العصيان، عدم الرضا بالموجود، والسخط على المفقود[5].

ب ـ **الحياء**. وهو لفظ قرآني[6]. ويعني الاستدراك والحذر والحيطة، سراً وعلناً. وأخلاق المؤمن عدم الاستحياء في العلن مما يُستحى منه في السر[7]. والعلم الأكبر الحياء والهيبة. فإذا ذهبت الهيبة والحياء لم يبق خير[8]. الحياء وجود الهيبة في القلب مع وحشة ما سبق إلى الرب[9]. الحياء والأنس يطرقان القلب.

(1) السابق، ص414-415.
(2) **لطائف الأعلام**، جـ2، ص461-462.
(3) **جامع الأصول في الأولياء**، جـ1، ص149-150.
(4) السابق، جـ2، ص379.
(5) **التستري**، ص93.
(6) «استحوا من اللّه حق الحياء»، «الحياء من الإيمان»، **القشيرية**، ص98.
(7) **التستري**، ص268-269.
(8) ابن عطاء، السابق، ص98.
(9) ذو النون، السابق، ص98.

فإن وجدا فيه الزهد والورع حطا ورحلا[1] ومن الحياء وعظ النفس قبل وعظ الغير[2].

ومَنْ هذا حاله لا يرجع إلى العبادات. يكفيه ذكر الموت وقيام الله عليه، والدعاء والتضرع وسؤال الرب طهارة السر. فاتفاق السر والعلن أفضل عبادة. فيتحقق الحياء وهو طريق النجاة.

من تكلم في الحياء ولا يستحي من الله فيما يتكلم فيه فهو مستدرج. ومن لم يستح من الله لا يتكلم في الحياء[3]. ويستحي العاصي أن يدخل بيت الله، ويستحي المؤمن أن يخاف من غير الله. كما يستحي أن يسأل الرب حاجة له يقضيها[4]. وقد يكون الحياء متبادلا بين الإنسان والله. فكما يستحي المذنب من الله يستحي الله منه[5]. وهو نوع من الإنصاف. يدعو الإنسان الله فيستحي أن يرده ويعصاه ولا يستحي منه. ومن استحى من الله استحى الله منه. ومن علامات المستحي ألا يُرى بموضع يستحي منه[6]. وقلة الحياء مع القسوة في القلب، والرغبة في الدنيا، وطول الأمل، وجمود العين، من علامات الشقاء[7].

والحياء أحد مراحل تطور ممارسة الدين. فقد تعامل الناس في القرن الأول بالدين حتى رق. ثم تعاملوا في القرن الثاني بالوفاء حتى ذهب. ثم تعاملوا في القرن الثالث بالمروءة حتى ضاعت. ثم تعاملوا في القرن الرابع بالحياء حتى انفض. ثم صار الناس يتعاملون بالرهبة والرغبة بالتخويف والترغيب[8]. الحب ينطق، والحياء يسكت، والخوف يقلق[9]. والحياء يوجب التذويب. فالحياء ذوبان الحشا لإطلاع المولى. المستحي يسيل منه العرق. وهو الفضل الذي فيه وما دام في

(1) السرقسطي، **القشيرية**، ص98.
(2) الجريري، السابق، ص99.
(3) أبو عثمان، السابق، ص98.
(4) السابق، ص99.
(5) يحيى بن معاذ، السابق، ص99.
(6) السرقسطي، السابق، ص99.
(7) الفضيل بن عياض، السابق، ص99.
(8) الجريري، **القشيرية**، ص98-99.
(9) ذو النون، السابق، ص98.

النفس شيء. وهو مصروف عن الحياء[1]. الحياء انقباض القلب لتعظيم الرب، وينشأ الحياء من رؤية الآلاء ورؤية التقصير[2]. الحياء ترك الدعوى بين يدي الله[3]. وإحياء الحياء بمجالسة من يستحي منه[4]. ثم تحول الحياء إلى المقام الثامن عشر من مقامات العارفين. وهو محل الإجلال ورؤية العظمة والكبرياء، فنار العارف في رؤية المعروف، بنعت الخجل من وجوده في وجود الحق. تذيبه الهيبة. صورته الإيمان، وحقيقته المعرفة. الحياء إرادة الزوال في رؤية جمال الأزل[5].

وهو من الفضائل وليس من الأحوال[6]. وهو عام وخاص. العام وهو الحياء العام من الوجود من المقامات. والخاص وهو الحياء الشخصي في مواقف معيَّنة من الأحوال.

يطوف الحياء والأنس بالقلب فيحطان إذا وجدا فيه الزهد والورع والتذاذ الروح بكمال الجمال. الحياء وجود الهيبة في القلب[7]. الحياء والهيبة العلم الأكبر. إذا ذهب الأول ذهب الثاني[8]. الحياء أشرف سلوك إنساني مع الخوف والرجاء والتعظيم[9]. وهو إطراق الروح إجلالاً يجلب على قلوب المستحين الإجلال والتعظيم[10]. والإجلال والتعظيم بالنسبة للحياء كالرأس من الجسد. إذا استحى العبد من ربه أَجَلَّه. وأفضل الحياء المراقبة لله[11].

الحياء أدنى مقام القرب. فكلما اقترب المحب من الحبيب ازداد حباً أو زاد

---

(1) الواسطي، السابق، ص99.
(2) الجنيد، السابق، ص99.
(3) أبو علي الدقاق، السابق، ص99.
(4) **القشيرية**، ص53.
(5) روزبهان: **مشرب الأرواح**، ص154.
(6) **عوارف المعارف**، جـ4، ص423-427.
(7) ابن عطاء، السابق، ص426.
(8) الداراني، السابق، ص326.
(9) ذو النون، السابق، ص426.
(10) السابق، ص427.
(11) السابق، ص180-181.

أو كشفاً[1]. الحياء أول مقامات القرب من الله[2]. وهو متبادل بين العبد والرب. حياء الرب أزال عن قلوب أوليائه سرور المنة. وحياء الطاعة أزال عنها سرور الطاعة[3].

والحياء من المقامات[4]. وهو اسم من أسماء الله الحسنى[5]. وهو من صفات الإيمان لأن الحياء من الإيمان. وهو خير كله. يدخل في الصدق، ويظهر في الوجه. وهو مثل الإيمان. أرفعه الشهادة، وأدناه إماطة الأذى عن الطريق. وأحيانا يترك الحياء إذا ما كشف الحجاب[6]. فما في الوجود إلا الله. ولا مكان لشيء آخر سواه. فالحياء للأخذ، والترك للإثبات والنفي.

الحياء في البدايات من المخالفات والتقصير في المجاهدات. وفي الأخلاق انكسار يعتري من علم القرب واستحقار النفس عن استسهال حب الرب. وفي الأبواب من أشرق على علل المعاملات. وفي الأصول عن الفتور في السلوك والقصور عن رعاية أدب الحضور. وفي الأدوية، العجز في الجري على مقتفي العلم وإيفاء حقوق التعظيم. وفي الأحوال مع ظهور النفس بوجودها. وفي الولايات انكسار مشوب بهيبة الإجلال. وفي الحقائق من حجب اليقين عند المعاينة. وفي النهايات من العجز في القيام بحقوق العبودية عند أوائل مقام البقاء قبل كمال الاستقامة[7].

جـ ـ الشفقة. وهو لفظ قرآني ونبوي. الشفقة هي الفضيلة. والإشفاق هو فعل المشفق. هي حجاب للدعوى لأنها تقوم العاطفة على الفعل. وهي فرع للحذر إذا

---

(1) **التستري**، ص96.
(2) السابق، ص202.
(3) **الولاية**، ص258.
(4) **الفتوحات**، ج2، ص223-226.
(5) إن الحياء من الإيمان جاء به ... لفظ النبي وخير كله فيه...
إن الحي من أسماء الله وقد ... جاء التخلق بالأسماء فأحفظ به
السابق، ص223.
(6) ترك الحياء تحقق وتخلق ... جاءت به الآيات في القرآن...
السابق، ص225.
(7) **جامع الأصول**، ج3، ص152.

كانت استدراجاً[1]. الشفقة على الخلق إعطاؤهم من النفس ما يطلبون، وعدم تحميلهم ما لا يطيقون أو مخاطباتهم بما لا يعملون[2].

والإشفاق دوام الحذر مقروناً بالترحم. وفي العرف هو الخوف. الشفقة فرع الحذر لأنها تعطي أكثر مما تأخذ، والحذر اسم من أسماء الله مع أنها ليست كذلك إلا قياساً لأن الأسماء توقيفية. ويحذر العبد لأنه لا يعلم من أين تأتيه البلوى. لذلك يكون دائم الحزن. وإذا علم بلواه تحول الحزن إلى خوف. والخوف موضع العلم. والرجاء موضع القدرة[3].

الإشفاق هو الحذر المقرون بالترحم. إشفاق العوام على أنفسهم من الميل إلى المخالفات، وإشفاق المريدين على أوقاتهم من التفرقة. وليس على الخصوص إشفاق[4]. حد دوام الحذر مقروناً بالترحم في البداية. والحذر من الموبقات في الأبواب. وإشفاق على النفس أن تريد غير الحق في الأخلاق. وإشفاق على القلب أن يعرض لرسالة أخرى في الأصول. وإشفاق على العقل أن يمنعه شيطان الوهم في الأدوية. والسلو عن المحبوب في الأحوال. وإشفاق على الوقت في الولايات، وإشفاق على المقام الخفي أن يبقى في السُكْر دون الصحو في الحقائق. وإشفاق في مقام التحقق أن يمنعه عن محض التوحيد في النهايات[5].

وإشفاق العامة على أنفسهم جنوحهم إلى المعاصي وترك الطاعات يتداخلها العجب. وإشفاق المريد خوفاً على وقته من تفرق القلب عن الحضور مع الرب[6]. وقد يدخل فضل الشفقة على خلق الله مع منظومة أعم تشمل فضل العدل واجتناب الظلم وإكرام المشايخ وفضل الخطاب، ونموذج الشفقة على الضرير. الشفقة حجاب الدعوى لأنها أقرب إلى التواضع والتعاطف مع الآخرين وتخلو من الغرور والكبرياء. وتعتمد على الحكايات والمرويات والأساطير والمعجزات وقصص الجنس[7].

---

(1) **التستري**، ص223.
(2) **اللمع**، ص303.
(3) **التستري**، ص249.
(4) **جامع الأصول**، ج2، ص342.
(5) السابق، ج3، ص116-117.
(6) **لطائف الأعلام**، ج2، ص180-181.
(7) **نزهة المجالس**، ج2، ص67-76.

7 ـ الغرة والوفاء وحفظ العهد، والأمانة

الغرة من حقل دلالي. والوفاء وحفظ الأمانة والكتمان من حقل دلالي آخر.

أ ـ الغرة[1]. وهي الاغترار. ويكون من الكافرين والعاصين الذين غرهم بالله الغرور ومن المسلمين ومن الديانين والنساك وكل من اغتر بشيء دون حذر أو تخوف. هو خداع النفس بصنيع الله بالبشر أو برجائه أو بالعبادة والعلم فيغتر العباد حتى يعصون الله. الغرة من الكافرين خدعة من عند أنفسهم. وهي غرتان، غرة الدنيا عن الآخرة، وغرة بالله وبالآخرة. وقد يغتر المسلمون معهم بتأخير العقوبة. وقد يغترون بسوء أعمالهم. الغرة من الكافرين خدعة النفس والظن بأن المغتر له عند الله قدر[2]. وقد تكون الغرة من عوام المسلمين وعُصاتهم. وهي خدعة للنفس وللعدو في آن واحد، معتمدين على الرجاء والجود والكرم طاعة لأنفسهم فيزداد جرأة على الذنوب[3].

والغرة بالفقه، العلم بالحلال والحرام، والفتيا والقضاء. فهو وحده القائم بالدين. في حين أن الفقه علم اجتهادي له وللآخرين. الفقه بلا خوف غرور وإدعاء[4]. وقد تكون الغرة بالعلم به، ومعرفة حقوق الله، وحسن التوكل عليه، والرضا بقدره، وتجنب الرياء، والعجب والكبر والحسد وسوء الظن، وكل الأهواء البشرية والالتزام بكل الفضائل من صبر وتوكل وورع ورضى. ويأتي الغرور من الإحساس بالأمان من سخط الله وعقابه. هي الثقة الزائدة دون خوف أو تخوف[5]. وقد يغتر النساك بالعلم وبقليل من العمل وبمعرفة مآل الحجاج والجدل، وبالستر والإمهال، وبالثناء من الناس والتعظيم لهم، وبذكر آبائهم الصالحين. والعلم لديهم كثرة الرواية وكأنها تحفظه من الذنوب. العلم حجة عليهم لا لهم[6].

---

(1) كتاب **الغرة**، السابق، ص508-567.

(2) **الغرة بالله عز وجل**، السابق، ص508-513.

(3) **الغرة من عوام المسلمين وعصاتهم**، السابق، ص514-515.

(4) **الغرة بالفقه**، السابق، ص530-534.

(5) **الغرة بعلم العمال لله تعالى من علم الصدق والإخلاص**، ونفي الرياء والأخلاق المذمومة ووصف الخوف والرجاء والحب، السابق، ص535-542.

(6) **الغرة من أهل النسك وأصنافهم واختلافهم وغرة أهل العلم**، السابق، ص525-529.

ومع ذلك. الغرة فضيلة وليست رذيلة. وقد تكون الغرة بحفظ كلام المذكرين والقصص وأحاديث الزهد وتذكير الناس به والإفاضة به للجلساء والإخوان. فالحفظ كاف بذاته. فأين الخوف وأين ورع القلب وأين تواضع العلماء، وفهم العلم؟[1]. وقد تكون الغرة بالجدل والقدرة على الحجاج والرد على الخصوم والفرق الإسلامية وغير الإسلامية وعلى أهل الأهواء والملل والنِحل. وهي صنفان: الجدال بالباطل، والجدال بالحق[2]. وقد تكون من التكلف بالرضا والتوكل والحب، ومظاهر التقشف والزهد، والخروج إلى الحجج وادعاء التوكل[3].

وقد يغتر البعض ويقصر الورع في الغذاء والكساء دون القلوب والجوارح[4]. وقد تكون الغرة بالعزلة والفرار من الناس تصنعا وطلبا للشهرة ويمنعها التفكر في حق الله ووجوب طاعته[5]. وقد تكون بالغرو والحج وقيام الليل وصوم النهار. ويمكن تجنب ذلك بالطاعة بالفرائض والنوافل[6]. وقد تكون بإمامة التقوى. وتجنبها بشهادة الناس عليهم[7]. وقد تكون بتقديم القربة بإخلاص الأعمال والعزم على الرضى والتوكل ومجانبة دنو الأخلاق. فالغرة من الغروم. ويمكن تجنبها بربط الغرومة بالوفاء بحق الله[8]. وقد تكون بطول ستر الله على عبده وإمهاله وظن المغتر أنه قُدِّر له النجاة. ولا يمكن تجنبها بالاستحياء من الله[9].

وتظهر مصطلحات جديدة مثل الكبرياء مناقضة لمصطلحات التصوف المألوفة مثل الرضا والطاعة والتوكل والتسليم[10]. والكبرياء صفة من صفات الغرة والعظمة

---

(1) **الغرة بحفظ كلام المذكرين والقصص وأحاديث الزهد وغيره**، السابق، ص543-545.

(2) **الغرة بالجدل وحسن البصر بالاحتجاج والرد على أهل الأديان**، السابق، ص546-550.

(3) **الغرة بالعبادة والعمل**، السابق، ص551-554.

(4) **الغرة بالورع في المطعم والملبس دون سائر الأشياء في أعمالها الباطنة والظاهرة**، السابق، ص555.

(5) **الغرة بالعزلة والفرار من الناس**. السابق، ص556-558.

(6) **الغرة بالغزو والحج وقيام الليل وصيام النهار**. السابق، ص559.

(7) **الغرة مَن أَمَّ التقوى وأحسن التفقد لظاهره وداخله**. السابق، ص560-562.

(8) **الغرة بتقديم الغروم بإخلاص الأعمال والعزم على الرضى والتوكل ومجانبة دناءة الأخلاق**. السابق، ص563-564.

(9) **الغرة بطول ستر اللّه وإمهاله للعبد**. السابق، ص565-567.

(10) ويتضح ذلك في بعض الأغاني العربية عند فيروز على عكس أغاني أم كلثوم التي تتضح =

بمعنى العزة إيجاب[1]. وتقترن بالرحمانية حتى لا تتحول إلى جبروت. وإذا كانت العزة لله فهل للإنسان عزة؟[2]. ما سُلم شيء لله وأذله[3].

ثم تصبح الغرة المقام التاسع عشر من مقامات الواصلين. فهي وصف للقدم. يتجلى منها في مقام الوصلة ويصير الواصل منعوتا بوصف الحق[4].

والمماليك في الجنة والأحرار في النار لأنهم استرقوا العبيد[5]. والله غني. رب بلا عبد، وعبد بلا رب. والله رؤوف يجعل العبيد يتعلّقون به[6]. وهذا الخلق لا يصلح لهذا الرب. فشتان بين الواقع والمثال[7].

وقد توضع الغرة مع الخلوة، وترك الدنيا وما فيها[8]. فالغرة لله ولرسوله وللمؤمنين. غرة المؤمنين عدم تغيُّر النفس بالهوى. على عكس المنافق الذي لا يعرف الوسائط والتعبد للأرباب وهناك فرق بين الرجاء والغرة. الرجاء حسن الظن بالله، والغرة سوء الظن به. الرجاء أمل يقوم على الثقة بالنفس، والغرة قنوط يقوم على خداع النفس[9]. وهناك إمكانية لقلب القيم والتحول من السلب إلى الإيجاب، ومن الذل إلى الغرة[10].

ب ـ **الوفاء وحفظ العهد**. هو لفظ قرآني ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ﴾. ويعني إفاقة السر عن رقدة الغفلات، وفراغ الهم عن فضول الآفات[11]. هو اليقظة الدائمة

= فيها مصطلحات التصوف التقليدية، الحب، الهجر، الضنى، اللوعة، البكاء، السهر، **المواقف**، ص67-68.

(1) «موقف العظمة»، السابق، ص136-137.

(2) موقف العزة، السابق، ص100-101.

(3) «ما سلمت إليّ شيئاً فأذللته لشيء»، السابق، ص113.

(4) روزبهان: **مشرب الأرواح**، ص124.

(5) «موقف العظمة»، **المواقف**، ص138.

(6) وقال لي: أنا الغني. فرأيت الرب بلا عبد، ورأيت العبد بلا رب. وقال لي: أنا الرؤوف. فرأيت الرب في وسط العبيد. وقد تعلق كل واحد منهم بحجرته، السابق، ص139.

(7) «خلق لا يصلح لرب بحال»، السابق، ص140.

(8) **جامع الأصول في الأولياء**، جا، ص143-144.

(9) باب التمييز بين الرجاء والغرة، السابق، ص516-524.

(10) فما لك قد أقمت بدار ذل ... ودار العز واسعة الفضاء
أبو العباس الدنيوري، **طبقات الصوفية**، ص475.

(11) معروف الكرخي، السابق، ص88.

والتركيز على الأهم. وطريق الوفاء الدوام على الصفاء[1]. ومراعاة الوفاء طريق النجاة. ثم أصبح المقام الثاني والثلاثين من مقامات السابقين مقروناً بتوفيق العمل للعبد وموافقة السنَّة فاستشرف العبد على أحكام الغيب، ووجد لذة الصفاء، وصار أهلاً للحق وفاء بالوعد بين العبودية والربوبية[2]. وهو أيضاً فعل إلٰهي ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ﴾. الوفاء في الحقيقة أن لا يختار المحب على محبوبه شيئا دونه[3].

والوفاء بالعهد هو الخروج عن عهدة ما قيل عند الإقرار بالربوبية إجابة على ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾. والوفاء بعهد التصرف هو عدم الذهول عن العبودية والعجز في أوقات التصرفات وخرق العادات[4]. والرجال هم القائمون مع الله بالوفاء بالعهود[5]. ومن ضيع عهود الله فهو لآداب شريعته أضيع لأن الله يطالب بالوفاء بالعهود والمسئولية عنها[6]. ويعني للعامة العبادة رغبة في الوعد ورهبة من الوعيد. ويعني للخاصة العبودية على الوقوف مع الأمر وفاء لا رغبة ولا رهبة ولا غرضاً. ويعني لخاصة الخاصة العبودية على التبري من الحول والقوة. وتعني للمحب صون القلب عن الاتِّساع لغير المحبوب. ومن لوازم الوفاء رؤية كل نقص راجعاً إلى الإنسان حتى يتفرد الله وحده بالكمال.

وفاء العهد يشير إلى ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾. وفاء عهد العامة رغبة في وجد الحق ورهبة من وعيده. وفاء عهد الخاصة الوقوف مع الأمر للأمر لا عوضا لعوض. وفاء عهد خاصة الخاصة هو التبري من الحول والقوة. وفاء عهد المحب هو صون القلب عن الإمتاع لغير حبه .

الوفاء بعهد العبودية هو إرجاع كل نقص إلى الذات، وإرجاع كل كمال إلى الله. الوفاء بحفظ عهد التصرف هو عدم الذهول عن العبودية والعجز عن

(1) أبو الحسين بن هند الفارسي، السابق، ص400.
(2) **القشيرية**، ص53.
(3) روزبهان: **مشرب الأرواح**، ص15-56.
(4) الكاشاني: **اصطلاحات الصوفية**، ص52-53.
(5) أبو حفص النيسابوري، **طبقات الصوفية**، ص122.
(6) حمدون القصار، السابق، ص126.

التصرفات وخرق العادات[1]. والعهد هو الخروج من عهدة ما قيل عند الإقرار بالربوبية بقول بلي وللعامة رغبة في الوعد ورهبة من الوعيد. وعند الخاصة العبودية والالتزام بالأمر دون رغبة أو رهبة أو غرض بل على التبرؤ بالحول والقوة[2].

وحفظ العهد هو الوقوف على ما حده الله للعباد. فلا يفقد حيث ما أمر ولا يوجد حيث ما نهى. وحفظ عهد الربوبية والعبودية هو عدم نسبة كمال إلا إلى الرب ولا نقصاً إلا إلى العبد[3]. وحفظ عهد العبودية هو الوعي بالحقوق والواجبات بالنسبة إلى الله. وحفظ عهد الربوبية وهو الوجه الآخر لحفظ الربوبية. حفظ عهد التصرف وهو حفظ الأنبياء والأولياء للأدب والتصرف في العالم بظهور الآيات. وحفظ عهد الحقيقة هو تحقق العبد بالرضا بالواقع بحيث لا يطلب مفقودا أو يعدم موجودا. وحفظ عهد المعاينة وهي رؤية الحسن الجميل في كل شيء محبوباً أو مكروهاً[4].

جـ ـ **الأمانة**. ويتحمل الصوفي الأمانة. إذا انشغل بها شغلته عن كل أمانة أخرى[5] ومن مقتضياتها ألاّ يُفشى من أحد شيءٌ بحيث يحب الإنسان أن يكون مستوراً[6]. فكتمان الحسنات أولى من كتمان السيِّئات وأكثر مدعاةً للنجاة[7]. ويقترن حفظ الأمانة في المؤلفات المتأخرة بترك الخيانة، وذكر النساء، وفضل الزواج، وذم الطلاق، والتحذير من اللواط، وفضل الزراعة. وكلها أشكال من الخيانة[8]. وكلها روايات وحكايات ولطائف وخرافات وخيالات تدور حول الجنس والخيانة دون أي تحليل نظري، مع دوران حول الموضوع دون الدخول فيه.

---

(1) السابق، جـ2، ص414-415.
(2) **جامع الأصول**، جـ3، ص75.
(3) الكاشاني: **اصطلاحات الصوفية**، ص59.
(4) **لطائف الأعلام**، جـ1، ص 344-346.
(5) حمدون القصار، **طبقات الصوفية**، ص125.
(6) السابق، ص128.
(7) أبو بكر الفرَّاء، السابق، ص508.
(8) **نزهة المجالس**، جـ2، ص2-23.

8 ـ العدل والمروة والاستقامة

أ ـ العدل. هو إما ظاهر فيما بين البشر وإما باطن فيما بينهم دين الله. وطريقه الاستقامة والفضل والفضيلة. يخاف الصوفي سطوة العدل، ويرجو رأفة الفضل لأنه لا يأمن من المكر حتى لو نزل الجنان. فقد كان آدم فيها ولم يأمن. فقد يشغلهم الطعام والشراب كما شغل آدم[1]. ويقرن العدل بالإنصاف. فلا يكون الإنصاف إلا بالفضل أي بالقدرة على الإنصاف دون طمع أو حاجة[2].

وقد يقرن العدل بموضوعات قريبة مثل اجتناب الظلم أو الشفقة أو بعيدة مثل إكرام المشايخ وفضل الخطاب[3]. فالعدل هو الإنصاف من النفس والإحسان إلى المسيء. والظلم سلطة الله على الظلم[4]. وهذا يعني أن الله يظلم ويدفع إلى الظلم. يعتمد على الحكايات أو المرويات والإسرائيليات والأساطير تاريخ الأنبياء وحديث سليمان إلى النمل مع بعض التصريفات النظرية.

ب ـ المروءة. هي عدم استكثار من الله عملاً[5]. جل كل عمل له كأن لم يتم من أجل الاكثار منه[6]. ويقرن بهذا البر. فالبر والمروءة حفظ الدين، وصيانة النفس، وحفظ حرمات المؤمنين، والجود بالموجود، وقصور الرؤية عنه وعن جميع الأفعال. المروءة معنى شامل بين الدين والدنيا والنفس. هي ترك استعمال ما هو محرم مع الكرام الكاتبين. المروءة مجرد سلب وترك. فأين المروة كفعل إيجابي كالنجدة والشهامة والمبادرة لفعل الخير؟ والمروءة حسن السر والبشر[7]. وهي مروءة باطنية. فالسر لا يتخارج. والبِشْر هشاشة وابتسام وحسن استقبال. والمروءة ألا يكون في الباطن شيء يعيبه عليه الظاهر[8]. المروءة هي الشجاعة الأدبية

(1) أبو عثمان الحيري النيسابوري، **طبقات الصوفية**، ص175.
(2) أبو حمزة الخراساني، السابق، ص327.
(3) **نزهة المجالس**، جـ2، ص58-67. «باب فضل العدل واجتناب الظلم والشفقة على خلق الله تعالى وإكرام المشايخ وفضل الخطاب».
(4) أحمد بن عاصم الأنطاكي، **طبقات الصوفية**، ص139.
(5) أبو العباس بن عطاء الأدمي، السابق، ص267.
(6) **اللمع**، ص296.
(7) أبو الحسن البوشنجي، السابق، ص460.
(8) **التستري**، ص290.

لتوحيد الظاهر والباطن، الداخل والخارج، القول والعمل[1]. ثم تصبح المروءة المقام التاسع من مقامات السابقين. وهي رؤية الأشياء بنعت الرضا من الحق، والإعراض عن زلة الإخوان[2].

ومثل المروءة والبر المعروف. وهو كنز في متناول البر والفاجر[3]. هو قصد ونيَّة واتجاه بصرف النظر عن المتلقي.

جـ ـ الاستقامة. هو لفظ قرآني ونبوي. وتَقوُّم الناس في أحوالهم ولا تُقوِّمهم الأحوال[4]. الاستقامة هي الأساس الخلقي للأحوال. في الأقوال ترك الغيبة، وفي الأفعال ترك البدعة، وفي الأعمال نفي الفترة، وفي الأحوال نفي الحجة[5]. والاستقامة روح تحيا بها الأعمال، وتزكو بها الأحوال. هو الائتمار بجميع الأوامر والنواهي. وهي على ثلاثة أقسام: استقامة العامة وهو الاجتهاد في الاقتصاد في الأعمال، والتوسط بين الغلو والتقصير، وعدم تجاوز أحكام الشرع، واستقامة الخاصة، وهي استقامة الأحوال بأن يشهد الحقيقة كشفا لا كسبا لأن الكسب من أعمال النفس، والحقيقة لا تبدو مع بقاء النفس. النفس مظلمة، والحقيقة نور وفردانية. النور ينفي الظلمة، والفردانية تنفي الغيرية. واستقامة خاصة الخاصة وهي مشاهدة قيام الحق بذاته لا بغيره. وترك رؤية الاستقامة والغيبة عن تطلب الاستقامة بمشاهدة قيام الحق بذاته[6].

الاستقامة درجة بها كمال الأمور وتمامها. وبوجودها حصول الخيرات ونظامها. ومن لم يكن مستقيماً في حالته ضاع سعيه وخاب جهده[7]. ومن لم يكن مستقيماً في صنعته لم يرتقِ من مقامه إلى غير. ولم يبنِ سلوكه على صحته. فمن شرط المستأنف الاستقامة في أحكام البداية كما أن من حق العارف الاستقامة في

(1) **من العقيدة إلى الثورة**، مجـ5، الإيمان والعمل والإمامة، ص5-162.
(2) روزبهان: **مشرب الأرواح**، ص48.
(3) أبو علي الثقفي، **طبقات الصوفية**، ص365.
(4) أبو الحسن بن هند الفارسي، السابق، ص400.
(5) الشبلي، **القشيرية**، ص95.
(6) **لطائف الأعلام**، جـ1، ص179.
(7) أبو علي الدقاق، **القشيرية**، ص94.

آداب النهاية[1]. وطبقاً لعلم الحروف السين في الاستقامة سين الطلب أي طلبوا من الحق أن يقيمهم على توحيدهم ثم على استدامة عهودهم وحفظ حدودهم[2].

والاهتداء إلى الصراط المستقيم في الدنيا يؤدي إلى النجاة في الآخرة. من استقام لا يعوج به أحد. ومن أعوج لا يستقيم به أحد[3]. والاستقامة والإخلاص ومخالفة الهوى مع الرجوع إلى الله وطاعته ثلاثة أصول[4].

الاستقامة في البدايات الوفاء بعهد التوبة. وفي الأبواب استسلام قوى النفس لحكم القلب. وفي المعاملات التوجُّه إلى الله بالثبات. وفي الأخلاق سلوك العدالة وملازمة الصراط المستقيم في ظل الوحدة. وفي الأحوال الاستقامة في القصد عند السلوك في طريق الولاية. وفي الأصول الاستقامة في الحب لشهود الحقيقة لا كسباً بل انجذاباً وجذباً. وفي الأدوية تحصيل العلم والحكمة في البلوغ إلى علو الهمة. وفي الولايات في الحق بالحق، وفي الحقائق في المشاهدة. وفي النهايات في البقاء بعد الفناء[5]. الاستقامة أن يشهد الوقت قيامها[6].

والاستقامة من ضمن المقامات[7]. وهي وصف للصراط ونعت للأُلوهية وللنبوة[8]. هي الاستقامة المطلقة التي لها الحكم. وهي أيضاً في الكون. هي سلوك إنساني أمري ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾. والإقامة من نفس الاشتقاق مثل إقامة الصلاة. في غيابها يظهر العوج والميل. الوجود والحق ربها، والرسل هم

---

(1) السابق، ص94.
(2) ابن فورك، السابق، ص95.
(3) أبو عمرو إسماعيل بن نجيد، **طبقات الصوفية**، ص457.
(4) **التستري**، ص209-210.
(5) **جامع الأصول**، ج3، ص139-140.
(6) السواطي، **القشيرية**، ص95.
(7) **الفتوحات**، ج2، ص216-220.
(8) للمستقيم ولاية مخصوصة ... شغلت جميع الكون في تخصيصها
للمستقيم تنزلت أرواحه ... بالطيب المكنون في تنصيبها
الاستقامة نزلت أربابها ... منها منازل لم تنل بخصوصها
السابق، ص216.

المعلمون، والطلاب هم المذنبون. وفيها تلقى دروس الكلام والتصوّرات الذهنية والعلوم الإلٰهية.

الاستقامة لها ثلاثة مدارج: التقويم من حيث تأديب التقوى والإقامة من حيث تهذيب القلوب والاستقامة من حيث تقريب الأسرار[1]. والأفضل أن يكون الإنسان صاحب الاستقامة لا طالب الكرامة. فالنفس تتجه نحو الكرامة، والله يطالب بالاستقامة[2]. الاستقامة توجب إدامة الكرامة[3].

الاستقامة على انفراد القلب بالله. ولا يطيقها إلا الأكابر لأنها خروج على المعهودات ومفارقة الرسول والعادات، والقيام بين يدي الله على حقيقة الصدق[4]. هي الخصلة التي بها كملت المحاسن وبفقدها قبحت المحاسن.

وتتغيّر أشكال الاستقامة طبقاً للبيئة الجغرافية والإقليم. فمن أمارات استقامة أهل البادية ألا تشوب معاملاتهم فترة. ومن علامات استقامة أهل الوسائط ألا يصحب منازلهم وقفة. ومن علامات استقامة أهل النهاية ألا تتداخل مواصلتهم حجبة.

---

(1) **القشيرية**، ص94.

(2) الجوزجاني، السابق، ص94.

(3) ابن فورك، السابق، ص95.

(4) ابن عطاء، السابق، ص94-95.

الباب الثاني

التصوف النفسي

الفصل الأول

النفـس

1 ـ الجسم والنفس

والعلاقة بين الجسم والنفس هي: بداية الطريق ومحله. فالطريق «روحي»، «قلبي» وجداني، شعوري. وهناك صلة بين النفس والجسم ما دامت النفس في جسم، ومراتب النفس والفرق بين الروح والقلب والعقل، وهو ما سمَّاه الفلاسفة قوى النفس. ثم تتنوع النفس إلى النفس النزوعية، وما بها من صراع ووسوسة، والنفس الأخلاقية وارتقائها من النفس الأمَّارة بالسوء إلى النفس اللوَّامة إلى النفس المطمئنة، والنفس الناطقة التي تعرفها ذاتها فتكتشف الله فيها. فمعرفة النفس معرفة الله. وأخيراً الوصول إلى العلم الإلٰهي من مجموع قوى النفس حتى يستولي عليها كلها، ومعرفة أفضل من «أحوال» نظراً لتحول لفظ «الأحوال» إلى موضوع خاص، علامات الطريق[1].

أ ـ الجسم. وأول ما يبدو من النفس هو الجسم، النفس المرئية التي تتحرك وتتحدث من خلال الآلة. وهو أول هيكل من الهياكل السبعة في «هياكل النور». ولا يعني الجسم الجسد. فكل جسد جسم، وليس كل جسم جسدا. النفس علة الجسم، والجسم معلولها. ولا يجوز أن يكون الجسم علة للجسم لأن المعلول لا يكون علة لنفسه في حين أن العلة قد تكون علة لنفسها[2]. قد تكون النفس معلولة

---

(1) وهو طريق سقراط «أعرف نفسك بنفسك» والذي حوَّله يحيى بن معاذ إلى «من عرف نفسه فقد عرف ربه»، وطريق أوغسطين «في داخلك أيها الإنسان تكمن الحقيقة»، وطريق القدِّيس بوناڤنتورا «طريق الروح إلى اللّه»، في العصر الوسيط، وهو الطريق الذي استأنفه أنسِلم في «الإيمان باحثاً عن العقل»، ثم ديكارت في «الدليل الأنطولوجي»، في بداية العصر الحديث. انظر «نماذج من الفلسفة المسيحية».

(2) **هياكل النور**، الهيكل الأول: الجسم، ص47-48.

من الأوصاف في العبد لأنها غير مرئية في حين أن أوصاف العبد مرئية[1]. وقد تكون أوصاف العبد معلولة لأن السلوك الإنساني من فعلها وحركتها. والجسم متناه لأنه محدود في المكان والزمان طبقاً للمشاهدة الحسية في حين أن النفس لا يمكن الحكم عليها بالتناهي لأنها من حيث هي وحي مستقلة عن البدن، أو باللاتناهي، لأنه افتراض يعبِّر عن أمل ورغبة في تجاوز الموت إلى الحياة، والفناء إلى الخلود[2]. النفس على المستوى الأول تعني الجسد أو القوة المدبرة للبدن[3]. أدوات الجسم هي الصفات الظاهرة. وأعراض القلب هي المعاني الباطنة.

والحقيقة أن الجسم ليس هو الشيء بل هو البدن. والبدن ليس شيئاً إلا بمعنى أن الله شيء في ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾، ولكنه هو أول تعيُّن للذات. الذات المرئية، الأنا الحسي. فالجسم نوع من الحضور المرئي، والتحرك في المكان، والدخول في صراع إرادات مع أجسام الآخرين كما هو الحال في القتال لنفي كل جسم الجسم الآخر أو في حال اتحاد وضم كما هو الحال في الحب والعشق والهيام.

وينهار شرف البدن إلى تخريب البدن إلى إماتة البدن إلى ذلك البدن. ولكل مرحلة عشر صفات. شرف البدن بالحلم والحياة والعلم والورع والتقى والخلق الحسن وغيرها من بقايا المرحلة الخلقية[4]. ويخرب البدن بالرذائل[5]. ويموت البدن برذائل أخرى[6]. ويذل البدن بالانفعالات[7]. وكلها تنسب إلى المرحلة الخلقية.

---

(1) **الفتوحات**، جـ2، ص568. **رسائل**، جـ2، ص7، 29.
(2) **المشارع والمطارحات**، ص415-449.
(3) **مقامات الصوفية**، ص28-29.
(4) «عشرة أشياء شرف البدن: الحلم، والحياء، والعلم، والورع، والتقى، والخلق الحسن، والاحتمال، والمرارة، وكظم الغيظ وترك السؤال». **شطحات**، ص134.
(5) «وعشرة أشياء تخرب البدن منها: مصاحبة من لا يهمه دينه، ومفارقة أهل الخير، ومتابعة النفس، ومجانبة الجماعة، ومجالسة أهل البدعة، وطلب ما لايعنيه، وتهمة الخلق، وطلب العلو، وهم الدنيا». السابق، ص134.
(6) «وعشرة أشياء تميت البدن منها: قلة الأدب، وكثرة الجهل، ونعمة الخلق، وشهوة البدن، وطلب الرئاسة، والميل إلى الدنيا، ومحاباة النفس عند الحق وكثرة الأكل». السابق، ص134.
(7) «وعشرة أشياء فيها ذل البدن: الحدة والغضب، والكبر، والبغي، والمجادلة، والبخل، وإظهار الخفاء، وترك حرمة المؤمن، وسوء الخلق، وترك الإنصاف». السابق، ص131.

ب ـ **النفس**. ويبدأ تعريف النفس بوظيفتها العضوية، فالنفس هو البخار اللطيف الحامل لقوة الحياة والحس والحركة والإرادة. هي الواسطة بين القلب والبدن وهي الشجرة الزيتونية في القرآن[1]. هي «الرقيقة» اللطيفة الروحانية. وتطلق أيضا على الواسطة اللطيفة الرابطة بين الشيئين كالمدد الواصل من الحق إلى العبد[2]. هي اللطيفة الإنسانية التي في الجسم ومفارقة له. هي من ضمن البرازخ بين النور والظلمة، بين المعرفة والوجود. لها حواس خمس ظاهرة. ولكل صفة في النفس نظير في البدن. هناك إذن مناسبة بين النفس الناطقة والروح الحيواني[3]. وهي من عالم البرازخ[4]. ممر بين عالمين.

والنفس مجموعة من القوى، الحواس مثل العين، والأعضاء مثل اللسان والقلب، والانفعالات مثل الهوى. وسلامتها تؤدي إلى سلامة النفس. فالعين تنظر إلى ما يحلو لها. واللسان لا يقول ما لا يعلم خلافه، ويخلص القلب من الغل والحقد على أحد، وعدم هواية شيء من الشر[5]. من سمع بأذنه حكى. ومن سمع بقلبه وعى. ومن عمل بما يسمع هدى واهتدى[6]. فالحواس مرتبطة بالقلب، والقلب بالعمل. والحسوس حواس فقرت عن أوائلها فتخلفت عن أواخرها. وعذبت بما لا خطر له. كيف تذكر بارءها[7]. ولماذا يُقصر الحسوس وهو وعي وانتباه لحظة الوعي بالذات وبالعالم؟

---

(1) وهي ما سماه الحكيم (أرسطو) الروح الحيوانية.

(2) **اصطلاحات الصوفية**، ص150-151.

(3) **هياكل النور**، الهيكل السادس، ص80-84.

(4)
النفس من عالم البرازخ فكل سر منها يبين
مقامها في العلو شامخ وكل صعب بها يهون
وروحها في العماء راسخ يمده روحه الأمين
منسوخها بالنكاح ناسخ وسره في الورى دفين
سامي العلى مجدها وباذخ سبحانه ما يشاء يكون

السابق، ص568.

(5) عبد اللّه بن خبيق الأنطاكي، **طبقات الصوفية**، ص143.

(6) أبو بكر بن أبي سعدان، السابق، ص421.

(7) أبو العباس القاسم السياري، السابق، ص445.

وتفارق النفس البدن وتخلص إلى عالم النور[1]. وهذه النفس المفارقة لا دليل على وجودها إلا في لحظات الوعي المفارق للجسم مما يثبت تميُّز النفس عن البدن دون تحديد مصير النفس. مصير البدن معروف بالمشاهدة منذ التوقف عن الحركة، والتحول من الحرارة إلى البرودة، ومن الوقوف إلى الاستلقاء، ومن فوق الأرض إلى تحت الأرض، ومن قدرة على الفعل الإيجابي إلى العجز عن الفعل والتحول إلى مفعول[2].

سُمِّيت كذلك لترويح المتنفس. فالعلاقة بين المعنى الحسي النفسي والمعنى الروحي النفسي لأنهما من نفس الاشتقاق. ولها مستويات مثل درجات الوقت. الأول الكظم وهو متعلق بالعلم. تنعش بالأسف والحزن ووحشة الاستتار. وهي ظلمة. والثاني نفس التجلي. وهو نفس مسرور مملوء بنور الوجود، شاخص إلى مقام السر. والثالث نفس مطهر بماء القدس قائم بإشارات الأزل. الأول للمريد سراج، والثاني معراج، الثالث تاج[3].

ويستعمل الصوفية ألفاظ النفس والقلب والروح على التبادل بالرغم مما بينهما من فروق. وهي تدل في عمومها على عالم الباطن. النفس دابة قد تموت في الطريق. وإذا كان الإنسان فارس القلب فإنه راجل النفس[4]. النفس تنظر إلى الدنيا، والروح تنظر إلى العقبى، والمعرفة تنظر إلى المولى. فمن غلبت عليه نفسه فهو من الهالكين، ومن غلبت عليه روحه فهو من المهتدين، ومن غلبت عليه معرفته فهو من المتقين[5]. النفس والروح مكانان للقاء العدو، والملك، للفجور والتقوى. مكانهما العقل والهوى، التوفيق والإغراء، هما أدوات القلب وحواسه ومعانيه وآلاته. القلب مركزها.

ويصعب تعريف النفس بمفردها نظراً لأنها علاقة بين النفس والبدن، بين النفس والروح، بين النفس والقلب، بين النفس والعقل، بين النفس والعالم.

---

(1) **هياكل النور**، الهيكل السادس: في مفارقة النفس للبدن وخلاصها إلى عالم النور، ص80-85. الهيكل الثاني: في النفس، ص49-56.

(2) **حكمة الإشراق**، ص203-215.

(3) الهروي: **منازل السائرين**، ص38.

(4) **شطحات**، ص131.

(5) السابق، ص184.

والنفس على أقسام: النفس الحيوانية وقواها المدركة والمحركة. والإدراك ظاهر بالحواس الخمس الخارجية، وباطن بالحواس الخمس الداخلية: الخيال والحافظة والوهم والذاكرة والمفكرة. وللنفس الإنسانية قوتان: عالمة وعاملة. وهي قسمة النفس عند الفلاسفة[1]. وهي عند الفلاسفة ستة أقسام: نباتية وحيوانية وإنسانية وناطقة وفلكية وقدسية.

وقد تعرف مجازاً مثل: النفس وقفة مع الحياة الدنيا. وهي أفضل زينة فيها، كلاهما حياة. حياة في حياة، خلقها الله على نفسه وصورته. هو الخالق وهي المخلوق. هو الرب وهي المربوب. ملّكها ملكه وقسمته لها ونسب إليها الأشياء مثل الأمر والنهي، والقيم والفضائل كما هو الحال في النفس الخلقية[2]. لما أراد الله إظهار ملكة ملْكه للنفس. وأمر الإنسان بمخالفتها إظهاراً لقدرته وتحدياً لإرادته. ولا تعرف عيوب النفس إلا بعد محاسبتها في أحوالها كلها[3].

وهي أيضاً مسكن العدو، النفس الأمّارة بالسوء، محل الرذائل كالعجب والكبر والحسد والغرور. وتموت على السنَّة، وتدفن على السنَّة. وكل شيء من مقامات وأحوال له منتهى مثل الخوف والحب والشوق والزهد والتوكل والرضى إلا السنَّة فإنها بلا غاية ولا نهاية[4]. رق النفس التدبير. ودفن النفس ترك التدبير. ووصل التدبير يؤدي إلى عبودية النفس. إن ترك التدبير هو الذي يؤدي إلى دفنها. النفس هي الرضا والتدبير. وهما على طرفَي نقيض. الرضا التسليم، والتدبير التفكير والاختيار. والراضون النفس والتدبير أعز الصابرين وهم أعز الصادقين. وهم أعز المؤمنين، وأعز الخلق. من يصحب نفسه هلك. ومن صحبته نفسه لم يسلم. ومن سلَّم نفسه إلى الله حكم الله على النفس أن تقوم بأمره. والسؤال هو هل الوعي الذاتي مضيعة والوعي بالآخرة نجاة؟

هي ليست صنماً يعبده الإنسان. من عبد نفسه فقد عبد الصنم إلا على نحو مجازي أخلاقي أي حب النفس بمعنى الأنانية. النفس هي الذات، والذات هي

(1) السابق، ص199.
(2) **التستري**، ص279.
(3) السابق، ص226.
(4) السابق، ص265.

الحقيقة الأولى. والله ذات، من نفس الاشتقاق. في الأوردية «خود»، «خودى» النفس، «خودا» الله[1]. والسؤال هو: لماذا النظر إلى النفس عيب ومذلة؟ فإن لم ينظر الإنسان إلى نفسه وإلى العالم، في الداخل وفي الخارج، فأين ينظر؟ ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾، ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْآفَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾[2].

والعدل بين النفس والنفس مثل العدل بين الإنسان والله، مرة أفقياً، ومرة رأسياً. أفقياً في حالة القدرة، ورأسياً في حالة العجز، أفقياً في حالة الوجود في العالم، ورأسياً في حالة الاغتراب عنه. والفضل من العدل بشرط أن يكون متساوياً بين الناس حتى يتحقق[3]. ليست النفس بؤرة الإدراك فقط، بل هي أيضاً مربط الأهواء والانفعالات التي يُرمز إليها بالشيطان أو إبليس[4]. وللنفس خمسة أنواع: حيوانية، وأمَّارة، ومُلهمة، ولوَّامة، ومُطمئنة. وكلها أسماء الروح. فالروح حقيقة النفس[5].

والعلاقة الأكثر شيوعاً هي علاقة النفس بالروح. كلاهما مخلوقان بالرغم من أن للنفس رأياً وللروح رأياً. النفس جزء من ألف جزء من الروح وربما أقل النفس ومع ذلك هما متمايزان. النفس غير الروح، والروح غير النفس. ومع ذلك هما شريكان، النفس للدنيا، والروح للآخرة. وعلاقة النفس بالروح مثل علاقة الظاهر بالباطن[6]. وإذا كانت النفس هي الباطن فربما لقربها من البدن وبُعد الروح عنها. النفس تخالف، والروح تطيع. فالنفس مرتبطة بالإرادة في حين أن الروح اقرب إلى التعالي.

وهناك أيضاً علاقة النفس بالقلب. النفس تهيج والقلب يُهَديّ، فإذا احتاج

---

(1) محمد إقبال، **فيلسوف الذاتية**. (تحت الطبع).

(2) **ميزان العمل**، ص34-40.

(3) **التستري**، ص375.

(4) «في النفس وأنها محتد إبليس ومن تبعه من الشياطين من أهل التلبيس». **الإنسان الكامل**، ج2، ص36-43.

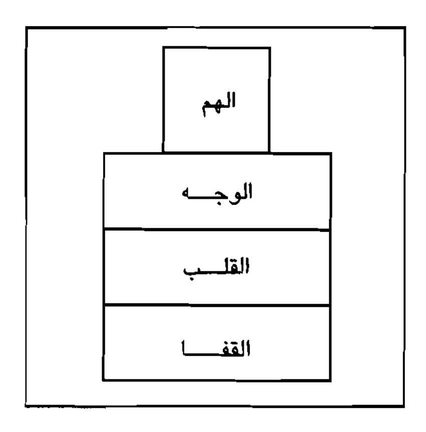
(5) السابق، ص43-44.

(6) السابق، ص87.

القلب شيئا مما تهوى النفس قد يعوق ذلك ما نزل على القلب. ويحتاج إلى صدق النية حتى يكون من أهل الصدق، ويكون عالما بالكتاب والآثار وبالاقتداء[1]. وأحيانا يهيج القلب وتبرد النفس هيامه. النفس تطفئ شرر نار القلب. ترويح القلوب بلطائف الغيوب[2]. وبصور مجازية خلق الله ابن آدم من أربعة أشياء: الحياة، والروح، والنور، والطين. النور هي النفس أو حياة النفس. والروح حياة الروح بالتسبيح والتهليل، والتمجيد والتحميد. وبالذكر تصير النفس أو الروح روحانياً أي إنسانياً. الطين مادة والروح ليس بمادة. والحياة جميع بينهما. ومنها يشع النور[3]. والنفس الكلية هي الزمردة[4].

وتدرج النفس فيما يُسمَّى البطون السبعة: وهي تعيُّنات مراتب القوى والمدارك الظاهرة بصورة الإنسان: اللسان ثم العقل ثم الروح ثم الوجود ثم القلب ثم الوجود المطلق ثم الذات المقيمة لجميع الذوات والمتضمنة لجميع الأسماء والصفات[5]. وكلها قوى للإنسان، أسماؤها باختلاف وضع الإنسان في الوجود

(1) **التستري**، ص159.
(2) **اصطلاحات الصوفية**، ص94-95.
(3) السابق، ص279-280.
(4) **رسائل**، جـ2، ص29. **اصطلاحات الصوفية**، ص18.
(5) **لطائف الأعلام**، جـ1، ص236-237.



دائرة الأسماء والصفات

ومستقره[1]. والنفس الرحمن هو الوجود الإضافي الوحداني بالحقيقة[2]. إذن النفس والروح والقلب بمعنى واحد.

2 ـ الروح

الروح متصل النفس من الأجسام اللطيفة. وهي جملة الحواس الداخلية والخارجية. وتعادل الإنسان. الروح أو القلب محل الفضائل، والنفس محل الرذائل، الروح هي الحياة في الغالب مادامت في البدن. الإنسان حي بالحياة، والروح مودعة في القلب. ترقى في الندم. تفارق ثم تعود. والإنسان مجموع الاثنين، والبعث والحشر لهما معاً وكذلك الثواب والعقاب. والروح مخلوقة وليست قديمة «عين لطيف»[3]. وعند الأطباء. هو البخار اللطيف المولِّد في القلب، قوة الحياة والحس والحركة. ويسمَّى النفس أيضاً والقلب متوسط بينهما، المدرك للكليات والجزئيات. ولا يفرِّق الحكماء بين الروح والقلب. ويسمُّونها أيضاً النفس الناطقة، وإذا كان المقصود بالروح المعنى العضوي، الحرارة والدوم والبخار والنفس فإنه يكون المعنى السفلي. وإذا كان المقصود الروح الذي نفخ في آدم وعيسى فإنه المعنى العلوي[4]. في الأول تشارك جميع الحيوانات. والثاني من الله، سوَّى به المادة، ويشتعل بالنفخ. وهو معنى أن الله تعالى خلق آدم على صورته. الروح هو اللطيف المركب مع الجسد الكثيب. هو جسم لطيف سارٍ في جميع أجزاء البدن. وهو التصور العضوي[5]. هو واحد والأبدان كثيرة[6]. وله تسعة أنواع[7]. والسؤال هو: لماذا الروح شريك وهي مثل النفس، والروح لا

(1) «للعبد مستقر في المسح، ومستقر في الاستخراج، ومستقر في الرد والإعادة. والمستقر للنفس في الرد، والمستقر في المسح للروح، والمستقر في الاستخراج للعقل والأمر والنبأ، والنفس رأس الإنسان. له رأس في النفس، ورأس في الأمر، ورأس جامع للرأسين في النبأ العظيم». ابن عربي: **المقصود من الوصل الحمود**، ص67.

(2) «النفس روح يسلطه اللّه على نار القلب ليطفئ شرورها». **رسائل**، جـ2، ص7، 29.

(3) **القشيرية**، ص45.

(4) **روضه الطالبين**، الرسائل الفرائد، ص135، 139-146.

(5) **المسائل**، ص96.

(6) السابق، ص110.

(7) وهي: 1- روح كلية حاملة نظام العالم. 2- روح المعدن والنبات والحيوان والإنسان. =

شريك لها مثل الله؟ ولماذا عبادة الله في روحه يتطلب هدم الدنيا وليس إعمارها؟ وهل الإخلاص لله يقتضي عدم الإخلاص للدنيا؟[1].

الروح مخلوقة، وليست قديمة، وهي لطيفة عاملة مدركة من الإنسان، راكبة على الروح الحيواني[2]. وهو أشرف من القلب، قد تكون النفس محل الأخلاق الذميمة، والروح محل الأخلاق الحميدة. وهو تقابل الشيطان والملاك. وقد يكون الروح أحد مقامات النفس[3].

وقد يتضخم الروح إلى الحد الأقصى، ويصبح الروح الأعظم والأقدم والأول والآخر. هو العقل الأول والعلم الأعلى والروح الإنسانية. الروح الأول هو روح العقل الأول. والروح الأوحد هو الروح الأعظم. والروح المضاف هي النفس الكلية. واللوح المحفوظ، روح العالم. أي الروح بالنسبة للعالم مثل الروح بالنسبة للجسد[4].

وروح الإلقاء هو جبريل الملقي على القلوب علم الغيوب، ويطلق أيضاً على القرآن، روح الإلقاء هو الملقى إلى القلب من علم الغيب إلى المضمون[5].

والروح الخيالي له خواص ثلاث: أنه من طينة العالم السفلي الكثيف الثماني، إذا صفى ورقّ وهُذّب صار موازياً للمعاني العقلية، والحاجة إليه لضبط المعارف العقلية[6].

= 3- روح كلية لكل نوع. 4- روح النبات. 5- روح الحيوان. 6- روح الإنسان. 7- روح الإنسان، النفس الإنسانية المشتركة، الحاملة للفضائل والرذائل. 8- الروح الناطقة الخاصة بالإنسان. 9- روح الأرواح وهو العقل الإنساني الهيولاني، الجوهر المفارق، الملاك الكروبي، مدبر الحكمة الإنسانية، القابل للفيض الإلٰهي والوحي الإلهامي والتعليم الرباني والخطاب العلمي. . . إلخ، السابق، ص111-112، الروح يُطلق بإزاء الملقى إلى القلب، علم الغيب على وجه مخصوص. **رسائل**، جـ2، ص8، 29.

(1) السابق، ص268، 281.

(2) **جامع الأصول في الأولياء**، جـ2، ص385، 391.

(3) **مشرب الأرواح**، جـ1، ص41، 137.

(4) **اصطلاحات الصوفية**، ص151-152.

(5) **لطائف الأعلام**، جـ2، ص407-410. **جامع الأصول**، جـ3، ص39.

(6) **مشكاة الأنوار**، «القصور العوالي من رسائل الإمام الغزالي»، ص216-217.

وقد يكون الروح سراً ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾، والسر لطيفة مودعة في القالب كالروح. وهي جمل المشاهدة. كما أن الروح محل المحبة. والقلب محل المعارف. ولسان السر هو المالك وليس الروح أو العقل أو النفس وليس العبد. فالأعلى هو الذي يعز ويذل، السر عليه إشراف[1]. السر ألطف من الروح، والروح أشرف من القلب، وتعتق الأسرار عن رق الأغيار من الآثار. السر مضمون ومكتوب بين العبد والرب في الأحوال. السر بكر لم يفضه داهم، وصدور الأحرار قبور الأسرار، وسر السر لا يطلع عليه إلا الحق. ولا يعرف الزر السر، والزر كناية عن الصدور[2]. خلق الله القلوب وأودعها سره، وسترها بستره. وابتلى العباد بها، وأمرهم بعدم كشفها[3].

الهمة في الروح، والهزيمة في النفس، والموت في البدن[4]. وللهمة ثلاثة معانٍ: الهوى، والجهل الغريزي، ودعوى حركة أو سكون، آفة العقل، ومحبة القلب. والكل يؤدي إلى الوسوسة تصدر عن جهل أو غفلة أو طلب فضول الدنيا. الروح لا شأن له بالبدن بل بالتنزيل والإعلام. فهو حامل الوحي. مهمته الزجر والتحذير في حين أن المعرفة سكينة واطمئنان[5]. وقد يعني الروح، روح المجذوبين ومقاماتهم[6]. سريان في الجسد بنعت الفيض، يدرك لذة مباشرة الفعل. تتجلى فيه الصفات والذات. استعداد للمعرفة بنعت الكمال في الروح. يسمع خطاب الحق. ويدرك لذة الخطاب. يتسم بالهيبة ويدرك مستويات الحق. يتجلى فيه العام والخاص. وهو قادر على المعاينة والدخول في الملكوت وعالم الصورة. متصل بالعقل ويدرك نوره. يؤمن بالغيب. ويحد بالفطرة، ويرقى مراتب الكمال. يشعر بالعبودية والقهر، وهو ما لا يتفق مع مطالب العصر الحديث في الحرية والتحرر. يحتجب بالهوى، وتعتريه وساوس الشيطان، ويمرُّ بالامتحان، ويرى الروح إذا تخلص من عوارض البشريات. مقام الروح مقام العشق والمعرفة

---

(1) **التستري**، ص215.
(2) **القشيرية**، ص45.
(3) **التستري**، ص171.
(4) الغزالي: **أيها الولد**، «القصور العوالي من رسائل الإمام الغزالي»، ص128.
(5) **الفتوحات**، جـ2، ص568-570.
(6) **مشرب الأرواح**، ص11-27.

ورؤية الجمال. هو مقام ظهور أنوار القدم والبقاء. الروح يعلو ويهبط[1]. فهو عجلة الطريق.

الأبدان بظلمها كامنة والأرواح بأنوارها مشرقة. من طالع الأشخاص أظلم عليه الوقت ومن شاهد الأرواح دلته على مصدر نورها. وإذا كانت الأبدان هي الأشخاص. فالشخص ليس بظلماء[2]. وإذا صفت الأرواح أثرت على الهياكل أنوار الموافقات. فالروح يسري في البدن. وإذا كان البدن هو الهيكل فإن الهيكل هو حضور الرب وليس مجرد جسم[3]. إذا تمكنت الأرواح في السر نطقت الجوارح بالبر[4]. فالروح هو الذي يوجِّه الفعل، هو مزرعة الخير لأنها معدن الرحمة. والنفس والجسد مزرعة الشر لأنهما معدن الشهوة. الروح مطبوعة بإرادة الخير، والنفس مطبوعة بإرادة الشر. العقل يدبر الروح، والهوى يدبر الجسد، والمعرفة حاضرة بين العقل والهوى. وهي في القلب. يتصارع العقل والهوى. يقود الهوى جيش النفس. ويقود العقل جيش القلب. التوفيق الإلٰهي عدو العقل، والخذلان عدو الهوى. والظفر لمن أراد الله سعادته. والخذلان لمن أراد الله شقاءه[5]. وهي الثنائية التقليدية الموجودة في كل دين بالإضافة إلى تدخل الإرادة الإلٰهية طبقاً للأشعرية.

الفرق بين النفس والروح أن من أُلبس ذل العجز فقد مات من شاهده. ومن ألبس عز الاقتدار فقد حيَّ بشاهده. وجُعل سببا لحياة الهياكل[6]. فالعجز والاقتدار حياة. الوقاية للأشباح وهي الأجساد، والرعاية للأرواح[7].

الأرواح من الأفراح. تعلو إلى محل الفرح للمشاهدة. والأجساد من الأكماد تقود إليها وتنكص عن بلوغ الغاية[8]. خُلقت الأرواح من النور. وأُسكنت ظلم

(1) السابق، ص232، 275، 316.
(2) أبو عمرو الدمشقي، **طبقات الصوفية**، ص279.
(3) وكما هو الحال في الشخصية المعاصرة Le Personalisme.
(4) أبو بكر بن حامد الترمذي، السابق، ص282.
(5) أبو بكر بن يزدانيار، السابق، ص408.
(6) بنان بن محمد الحمال، السابق، ص294.
(7) أبو بكر الواسطي، السابق، ص305.
(8) أبو إسحق إبراهيم بن المولد، **طبقات الصوفية**، ص412.

الهياكل. فإذا قوي الروح جانس العقل، وتواترت الأنوار، وأزالت عن الهياكل ظلمتها، فصارت الهياكل روحانية بأنوار الروح والعقل، فانقادت ولزمت طريقها. ورجعت الأرواح إلى معدنها من الغيب تطالع مجاري الأقدار. فهذه تطالع الجاري من الأقدار وهذه ترضى بالقضاء والقدر. وهذا من لطائف الأحوال. والروح قسمة خيرة من النفس لتروح بها الإنسان من مساكنة الأغيار ثم العلم ليدله على رشده، ثم العقل ليشير إلى العلم ودرجات العارف، ومشيراً إلى النفس لقبول العلم ومصاحبة الروح في الجولان في الملكوت(1). روح المؤمن كالمصباح في الزجاجة تضيء في الملكوت لأن الله موجود عند الناظر في ذاته(2).

3 ـ القلب

ومنذ وقت آدم إلى يوم الساعة يتحدث الناس عن القلب ومازال معناه غير معروف. من فقه قلبه أعرض عن الدنيا. ومن جهل متابعة سرور لا يدوم(3). كثرة النظر في الباطل تذهب بمعرفة الحق من القلب(4). قساوة القلب أن يكل الله العبد إلى تدبيره فيألفه. ولا يسأله حسن الكلاءة والرعاية(5). القلب منبع القوى الطبيعية والمزاجية وما يتبعها من الصفات والأخلاق. وهو القلب العضوي، والقلب يحمل ما لا يحمله البدن(6). وعلم القلب ذوقي وجداني. وهو دائم التغلب من حال إلى حال، وفي نفس الوقت يعني العقل. فالقلب جامع بين الذوق والنظر، بين الكشف والاستدلال. فعل القلب العلم بالشيء. القلب محل العلم، وليس العقل أو الحس(7). ما يقع في سمع القلب فهم. وما يقع في بصر القلب نظر ومشاهدة. وما يقع في لسان القلب كلام وذوق. وما يقع في شم القلب علم وفكر، العقل

(1) أبو بكر بن أبي سعدان، السابق، ص422-423.
(2) **شطحات**، ص131.
(3) علي بن سهل الأصفهاني، السابق، ص235.
(4) أبو العباس بن مسروق الطوسي، السابق، ص239.
(5) أبو عمرو الدمشقي، السابق، ص279.
(6) حملته القلب ما لا يحمل البدن   والقلب يحمل ما لا تحمل البدن
الديوان، ص323.
(7) **لطائف الأعلام**، ج2، ص204، 213-214، 384، 390.

المكتسب من العقل الغريزي. والقلب هو أداة المعرفة[1]. وهي معرفة باطنية غير المعرفة الظاهرية. ومعرفة الصوفي لله معرفة قلبية، من القلب للقلب[2]. بالتالي يكون الذات على التبادل والموضوع على التبادل أيضاً. كلاهما مجرد عن المكان، والقلب هو الوعي الذي يجعل الحواس قادرةً على الإدراك.

وعادةً ما تُقرن النفس والروح والقلب والعقل في موضوع واحد، هو المعرفة بمستوياتها الأربعة الحسية والعقلية والقلبية والروحية، وهي معانٍ مشتركة لمسميات مختلفة. ويختلف ترتيب التناول طبقاً للمعنى. فلو كان القلب هو العضو، اللحم والدم فإنه يأتي أولاً، من أدنى إلى أعلى. وإذا كان المعنى هو معنى الشعراء والصوفية، المعنى الروحي فإنه يأتي في النهاية[3].

وجنود القلب ثلاثة أنواع: الأول باعث مثل الشهوة، وضار مثل الغضب. ويسمَّى أيضاً الإرادة. والثاني محرك الأعضاء وهي القدرة. والثالث المدرك مثل الحواس الخمس العضوية والنفسية. والقلب لا يهدأ له بال. ويبدو أنه حتى مصيره هو الكدر[4]. وهناك حواس خمس أخرى داخلية: الحس والخيال الذي يعتمد على المخزون الحسي، والوهم، والحافظة، والمتصرفة، كل منها لها مركز في الدماغ طبقاً للنظرية العضوية[5]. وجنود القلب البصر والبصيرة مفرداً أو الأبصار

---

(1) إني لأرمقه والقلب يعرفه ... فما يُترجم عنه غير إيماني
الديوان، ص289.
فما أسمع بقلبك يأتيك من ثقة ... وأنظر بفهمك فالتمييز موهوب
السابق، ص292.

(2) وكما هو الحال في الأغاني الشعبية مثل «من القلب للقلب رسول».
رأيت ربي بعين قلبي ... فقلت من أنت قال: أنت
فليس للأين منك أين ... وليس أين بحيث أنت
أنت الذي خسرت كل أين ... بنحو «لا أين» أين أنت
وليس للوهم منك وهم ... فيعلم الوهم أين أنت
فحزت حد الدنو حتى ... لم يعلم الأين أين أنت...
السابق، ص295-296.

(3) الغزالي: **روضة الطالبين**، الرسائل الفرائد، ص134-156.

(4) وما وجدت لقلبي راحة أبدا ... وكيف ذاك وقد هيئت للكدر؟
السابق، ص306.

(5) السابق، ص134-144، 136-139.

والبصائر جمعاً. ولها أدوات في الأعضاء مثل اليد والرجل أو الحواس مثل الأذن والسمع أو أدوات الكلام مثل اللسان[1].

قلب الجمع والوجود هو الإنسان الحقيقي، صورة البرزخية الكبرى[2]. قلب القلب وهي البرزخية الجامعة بين الوجوب والإمكان. هو الروح الإلٰهي المشار إليه في حديثه «وسعني قلب عبدي المؤمن»، القلب صورة العدالة الحاصلة للروح الروحاني[3].

ويسمَّى القلب أيضاً «بيت الحكمة». وهو القلب الذي يغلب عليه الإخلاص، ويسمَّى أيضاً «البيت المقدس». وهو القلب الطاهر الذي وسع الحق بذاته وصفاته وأسمائه، ويسمَّى ثالثاً «البيت المحرم» وهو قلب الإنسان الكامل الذي حُرم على غير الحق. ويسمَّى أيضاً «بيت العزة» وهو القلب الواصل إلى مقام الجمع حال الفناء في الحق. والذي أعزه الله بالخاطر[4]. القلب جوهر نوراني مجرد يتوسط بين الروح والنفس الناطقة. الروع باطنه، والنفس الحيوانية مركبة ظاهرة متوسطة بينه وبين الجسد في التشبيه المشهور، الشجرة النفس، والمشكاة البدن[5]. القلب هو النور الأزلي، وانطباع الصورة الكونية في القلب المانعة لقبول تجلي الحق هو الآن هو ما يسمى بالحجاب[6]. وهو الحجاب الحائل بين القلب وعالم القدس[7]. فتح القلب أهم الفتوحات نفعاً وأشملها. فتح القلب من مضيق النفس[8]. القلب أعرف الأدلة. هو المؤشر إلى التوفيق، والمنبه على المخالفة على دوام الأوقات[9]. القلب هو الضمير اليقظ. من حفظ قلبه مع الله بالصدق أجرى الله على لسانه بالحكمة[10].

---

(1) وقد نقدها برغسون. أنظر كتابنا: **برغسون فيلسوف الحياة**، ص223-254.

(2) **لطائف الأعلام**، جـ2، ص585.

(3) السابق، جـ1، ص239-240.

(4) **اصطلاحات الصوفية**، ص38. **لطائف الأعلام**، جـ1، ص239-240. **جامع الأصول**، جـ3، ص19.

(5) **اصطلاحات الصوفية**، ص57.

(6) السابق، ص145. **جوامع الأصول**، جـ3، ص67.

(7) **اصطلاحات الصوفية**، ص146.

(8) **لطائف الأعلام**، جـ2، ص560.

(9) أبو عمرو الزجاجي، السابق، ص432-433.

(10) أبو العباس القاسم السياري، السابق، ص445.

وهو قانون معرفي بصرف النظر عن التدخل الجراحة وهو صدق القول. والقلوب المنزهة عن العيوب لما ورد عليها من الغيوب وكأن الأخلاقية واحدة من الخارج وليست نابعة من الداخل[1].

والقلوب ثلاثة. قلب مثل الجبل لا يزيله شيء، وقلب مثل النخلة أصلها ثابت والريح تميلها، وقلب كالريشة يميل مع الريح[2]. والقلوب خمسة: ميتة، ومريضة، وغافلة، ومتنبهة، وصحيحة سالمة[3]. الغفلة والانتباه والصحة والمرض ضدان. وينقص ضد للميتة وهي القلوب الحية.

والقلب في القلوب كالثوب في الثياب أي أنه وسطها ومركزها وعنصر اتزانها، وما يحدث في القلب من إلهام لا يصح إلا بشاهدَي عدل هما الكتاب والسنَّة. فلا يعارض الباطن الظاهر، ولا المعرفة المباشرة المعرفة المتسنبطة. إذا جاع القلب وعطش صفا ورق. وإذا شبع وروي عمي. فثقل البدن وانشغاله بالطعام والشراب يؤثِّر على شفافية القلب وقدرته على الرؤية. وإذا كان لكل شيء صدأ فصدأ نور القلب شبع البطن. فلا يعرف الله إلا ببطن جائع وبدن عار. وماذا عن برامج مكافحة الجوع الذي يحصد الملايين في أفريقيا وآسيا وأميركا اللاتينية؟ هل الجوع وسيلة للمعرفة أم باعث على الثورة؟[4]. قلوب الطاهرين تُشرح بالتقوى، وتزهو بالبر. وقلوب الغي تظلم بالفجور وتعمى بسوء النيَّة. ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ فالمعرفة فضيلة والجهل رذيلة كما قال سقراط من قبل وكانط من بعد في التوحيد بين المعرفة والأخلاق[5].

يرى القلب إذا صفا عن آثار النفس وحجابها عن عالم الملكوت[6]. قد تنام العين ويتيقظ القلب[7]. ويُسمَّى الفؤاد. وهو ملكة للرؤية الباطنية[8].

---

(1) أبو بكر محمد بن داود الدقي، السابق، ص449.
(2) السرقسطي، **طبقات الصوفية**، ص53.
(3) حاتم الأصم، السابق، ص97.
(4) أبو سليمان الداراني، السابق، ص77-79، 81.
(5) معروف الكرخي، السابق، ص90.
(6) **مشرب الأرواح**، ص137.
(7) السابق، ص233.
(8) **مشرب الأرواح**، ص231.

والقلب ليس فقط مهبطاً للمعرفة بل هو أيضاً أساس للسلوك. داؤه القسوة ويمكن التخلي عنها بمجالسة الزاهدين، ومصاحبة الذاكرين والإقلال من الطمع، واجتناب المراء، وترويض النفس على المكاره[1]. والحكمة تنطق في قلوب العارفين بلسان التصديق. فالحكمة في القلب على اللسان، وفي قلوب الزاهدين بلسان التفضيل. فالحكمة في النظر وفي العمل، وفي قلوب العباد بلسان التوفيق، فالحكمة ليست للخاصة وحدهم بل أيضاً للعامة، الحكمة في الحياة العملية، وفي قلوب المريدين بلسان الفكر. فالحكمة أصل وتدبر، وفي قلوب العلماء بلسان التذكر ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾.

وإن لم ينشغل القلب بالأعلى فإنه ينشغل بالأدنى. إما يحوم حول العرش أو حول الحس. القلوب أوعية. إذا امتلأت بنور الحق أضاءت الجوارح. وإذا فرغت أظلمت الجوارح[2]. فنور القلوب شرك الإدراك. وقلوب العباد كلها روحانية. إذا دخلها الشك الخبيث امتنع الروح[3]. وهي نظرة أفلاطونية، ثنائية متعارضة. هناك الوعي اليقظ والوعي القائم. وكلاهما درجتان للوعي، والشك بداية المعرفة وليس من الخبائث.

وإذا حرس الصوفي قلبه عشرين عاماً ورعاه وتعهّده فإن القلب بدوره يحرس الصوفي عشرين عاماً أخرى يرعاه ويوجّهه. ثم يحرسهما اللّه معاً ما بقي من العمر ويصبحان محروسين[4].

ويقوم حفظ القلب على خمسة أصول. تدور كلها على أن لا أسرار في القلوب. إذ أن اللّه مطلع على كل شيء. ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ﴾[5]. والقلب مثل الملك المطاع يأمر باقي أعضاء الجسد. وهو خزانة وذاكرة الحس والعقل والوجدان. وله عدة أحوال: قصد العدو إليه وهو الشيطان،

---

(1) أحمد بن أبي الحواري، **طبقات الصوفية**، ص102.

(2) أحمد بن خضرويه، السابق، ص104-105.

(3) أبو حفص النيسابوري، السابق، ص119.

(4) منصور بن عمار، السابق، ص135.

(5) **منهاج العابدين**، ص51-52، وأيضاً ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾، ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى قُلُوبِكُمْ﴾، وحديث «إن اللّه لا ينظر إلى صوركم وأبشاركم وإنما ينظر إلى قلوبكم»، «إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ألا وهي القلب».

صراع العقل والهوى عليه، كثرة العوارض والأفكار فيه، سرعة الآفات فيه، صعوبة علاجه[1]. قسوة القلب ونسيان الآخرة آفتان[2]. والعلاج رجاء القلب، واستشراف المستقبل، والقلب أصل الكل[3]. إن صلح صلح الكل، وإن فسد فسد الكل، كالشجرة بالنسبة إلى الأغصان.

وشرط وجدان القلوب البُعد عن الدنيا بلا ضرورة. وهي حجة الله على الخلق. ويصبح شريك الكفار في الشرك بالله. القلب موحِّد بالله لا يشرك به أحدا، ومخاطبة الله بالقلب تنزيه، وقلب النظرة من الخارج إلى الداخل. في حين أن مخاطبة الخلق بالجوارح.

وقرة العين وسعة الصدر، وروح القلب، وطيب النفس. من أمور أربعة: الاستبانه للمحجة، والأنس بالأحبة، والثقة بالقدوة، والمعاينة للغاية[4]. الأربعة الأولى معرفة بالعين والصدر والقلب والنفس. والأربعة التالية وسائل المعرفة، الحجة والأنس والثقة والمعاينة. خلق الله القلوب مساكن للذكر فصارت مساكن للشهوات. ولا يمحو الشهوات منها إلا خوف مزعج أو شوق مقلق[5]. والخوف ليس وسيلة للتغيير على عكس الشوق. فالمحب للمحب مطيع. وطول الاستماع إلى الباطل يطفئ حلاوة الطاعة من القلب. فالطاعة عادة وأشرف القلوب قلب حي بنور الفهم عن الله. فالقلب يفهم بنور داخلي وليس بنور خارجي[6]. والله يخلص إلى القلوب من بره كما خلصت القلوب إليه من ذكره. فالله يتكشف طبقاً لدرجة الذاتية. الله يتجلى بالذِكر والمعرفة وبالعبادة. ولماذا يكون الفعل لله ما دام الفعل للذات؟ الحمية في القلوب تصحيح الإخلاص وملازمته، وفي النفوس ترك الدعوى ومجانبتها[7]. الحمية إذن عامل إيجابي عوداً إلى الإخلاص، وترك الادعاء.

(1) ما سمي القلب إلا من تقلبه والرأي يضرب بالإنسان أطوارا
السابق، ص54.
(2) السابق، ص57-59.
(3) السابق، ص84.
(4) أحمد بن عاصم الأنطاكي، **طبقات الصوفية**، ص137، 139.
(5) عبد اللّه بن خبيق الأنطاكي، السابق، ص144-145.
(6) أبو تراب النخشبي، السابق، ص149. وهو ما عرضه أوغسطين في «محاورة المعلم».
(7) أبو سعيد بن الأعرابي، السابق، ص429.

القلب إذا امتُحن بالتقوى نُزع عنه حب الدنيا، وحب الشهوات وأُوقف على المغيبات. فالقلب موضع المعرفة والأخلاق يفهم ويتدبر ويريد ويقاوم. تأتيه معارف حدسية[1].

ويخطر في القلب خاطران، واحد من الله والثاني من الشيطان. وصمود القلب بحفظ اللسان. فالقلب خطاب داخلي واللسان خطاب خارجي. وقد لا يعبِّر اللسان عن القلب فيساء الفهم. ولتجنب وسواس الشيطان يخرس اللسان، وتصم الأذن، ويوثق بالنفس. وأنفع العبادات إصلاح خواطر القلوب. فالعبادة إصلاح النفس وليس لها هدف آخر خارجها[2]. وعلى هذا النحو يوضع الله والشيطان على نفس المستوى. وإذا رمزا إلى الخير والشر فهل تتم مقاومة الشر بالعفة وصمم الأذن وخرس اللسان دون وعي بالمقاومة؟[3]. القلب الساكن، والكف الفارغ يذهبان النفس حيث شاءت. ملاء القلب وفراغ اليد بداية الطريق[4]. القلوب ظروف. والقلب المملوء بالإيمان علامته الشفقة على جميع المسلمين والاهتمام بهم ومعاونتهم على صلاحهم. وقلب منافق علامته الحقد والغل والغش والحسد[5]. الأول القلب المنفتح، والثاني القلب المنغلق. وللقلوب خواطر يشوبها الهوى على عكس العقول المقرونة بالتوفيق فإنها تستبعد الأهواء. ولماذا لا يكون القلب هو الطبيعة المتجهة بفطرتها نحو الخير؟

ولأهل القلوب خواطر. فالقلوب أنوار وجواهر. بها خاطران. خاطر النفس وخاطر العدو، وهما مذمومان. وخاطر الروح وخاطر الملك لخصوص المؤمنين. وهما محمودان. وخاطر العقل متوسط بين الخواطر الأربعة. مطلبه الخير والشر، والخاطر السادس اليقين. وهو روح الإيمان، ومزيد العلم للموقنين والشهداء والصدِّيقين. وهو الاعتماد على القلب «استفت قلبك وإن أفتاك المفتون» وأيضاً «البر ما اطمئن إليه القلب وسكنت إليه النفس وإن افتك وأفتوك». وتجتمع في كل قلب ثلاثة معانٍ لا تفارق خواطر اليقين: الإيمان، والعلم، والعقل. الموقنون من

(1) أبو محمد الراسبي، السابق، ص513.
(2) الجنيد، السابق، ص157.
(3) **التستري**، ص264.
(4) أبو إسحق إبراهيم الخواص، **طبقات الصوفية**، ص286.
(5) أبو الخير الأقطع التيناقي، السابق، ص371.

المؤمنين أعلى إيماناً. والعالمون من الموقنين أرفع مقاماً. ومن خواطر اليقين ما يرد بشيء ولا تظهر دلالته في الظاهر لخفائه فلا يعلم إلا بباطن العلم[1]. ولا يصل العبد إلى مشاهدة علم التوحيد إلا بعلم المعرفة وهو نور اليقين الذي لا يُعطى حتى تتمخض الجوارح بالأعمال الصالحات وهي المجاهدة حتى يصل إلى هداية السبيل. يتدخل بالتوبة النصوح في أحوال المريدين. وإذا كانت الخواطر عن أواسط الهداة وهي الملك والروح كانت تقوى وهدى ورشداً. وإن كانت من أواسط الغواة، العدو والنفس كانت فجوراً وضلالاً. ويحدث صراع بين الخواطر طبقاً لضعفها أو قوتها، ولزيادتها ونقصها أو لتقدمها وتأخرها. وقد يتساويان ويترادفان وقد يتتابعان، والخواطر أقسام: ما وقع في القلب من عمل الخير إلهام. وما وقع من عمل الشر وسواس. وما وقع في القلب من مخاوف حساس. وما وقع من تقدير الخير وتأصيله نيَّة. وما وقع من تدبير الأمور والمباحات أمنية وأصل. وما وقع من تذكر الآخرة فهو تذكر وتفكير. وما كان من معاينة الغيب مشاهدة. وما كان من حديث النفس وهم. وما كان من خواطر العادات لمم. وترتيب الخواطر المقاومة في القلب ستة معان. ثلاثةٌ صفوة، وثلاثةٌ مطالَبٌ بها. المعنوة الهمة، والوسوسة وإضفاء النفس للعدو. والثلاثة المُطالب بها: النيَّة والعقد والقصد. وأعمال العبد ثلاثة أنواع: فرض وفضل ومعصية.

وللقلب عرقان: يمين للعقل، ويسار للعدو. وهو تشبيه اليمين فيه أفضل من اليسار على عكس تشبيه المحدثين. وعليه ملكان. فإذا نام العبد عن ذكر الله قبض ملك اليمين روحه، وحال به بين السماء والأرض حتى يبلغ السماء ويتحذر من العدو وأخلاق السوء. وهو ضعيف فيتمكن منه العدو. وهو جمع بين الأسطورة والحكاية. ويعكس التشبيه الصراع بين الخير والشر في الإنسان[2].

والقلب مضغة أي استعداد، طبيعة للخير والشر، كما في حديث «إلا أن في القلب لمضغة، إذا صلحت صلح القلب كله، وإذا فسدت فسد القلب كله». خير ما أُعطي الإنسان فراغ القلب عما لا يعنيه ليتفرغ لما يعنيه أي حشد الطاقة وشحذ

(1) الفصل الثلاثون: ذكر تفصيل الخواطر لأهل القلوب، وصفة القلب وتمثيله بالأنوار والجواهر، **قوت القلوب**، جا، ص231-262.

(2) وهو أساس الدين كما تصوره كانط. انظر دراستنا: «الدين في حدود العقل وحده لكانط»، **قضايا معاصرة**، ج2، في «الفكر الغربي المعاصر»، ص131-170.

الهمة[1]. عمارة القلب في أربعة: العلم، التقوى، الطاعة، ذكر الله. وخرابه في أربعة: الجهل، المعصية، الاغترار، طول الغفلة[2]. القلوب أوعية وظروف. ولكل مضمون. قلوب الأولياء أوعية المعرفة. وقلوب العارفين أوعية المحبة. وقلوب المحبين أوعية الشوق. وقلوب المشتاقين أوعية الأنس. ولكل منها آداب تستعمل في أوقاتها وإلا هلك الإنسان[3]. إذا أقبلت القلوب روحت بالأرفاق. وإذا أدبرت ردت إلى المشاق[4]. فالوعي المُعطى يحتاج إلى رفقة أي إلى تجربة مشتركة. وإذا تقلص يعود إلى وحدته وذاتيته.

والصلاة وأداء الفرض بالقلب. وهو أصل الإيمان، وللقلب قلب وهو قلب القلب. وهو «جمهور الشيء» أي الشيء في وعي الجمهور أي الوعي الجماعي، القلب الموضوعي. ومن نظر إلى الله بقلبه عن قرب أبعد الله عنه كل شيء سواه. فبقدْر ما تقترب الرؤية من موضوعها بقدْر ما يتقدم موضوعها إليها. ومن طلب مرضاته أرضاه الله بحكمه. فالرضا من طلب العبد وعطاء الرب. ومن سلم إلى الله قلبه تولّى الله جوارحه وقومها وحمد أفعاله. فأفعال القلوب شرط أفعال الجوارح. والقلب قراءة القرآن بالتدبر، وخلاء البطن، وقيام الليل، والتفرغ عند السحر، ومجالسة الصالحين[5]. ولا يصفو القلب إلا بتصحيح النية. ولا يصفو البدن إلا بخدمة الأولياء.

والمشتاق محجوب لا يرى بسبب عمى الحب. وأحياناً يضيء الحب القلب ويوقظه ويجعله أقدر على الرؤية. وللقلب سبعة حجب سماوية وسبعة أرضية. ولا تكشف الحجب حتى يدفن الإنسان نفسه أي يتخلى عن ذاته. وكلما دفن نفسه في الأرض انكشفت له السماء. وإذا صار إلى الثرى صار إلى الملأ الأعلى. كلما اتجه إلى أسفل اندفع إلى أعلى.

---

(1) مظفر القرمسيني، السابق، ص298.

(2) السابق، ص400.

(3) أبو الحسين بن هند الفارسي، السابق، ص401.

(4) أبو سعيد بن الأعرابي، السابق، ص429.

(5) **منهاج العابدين**، ص51-52، وأيضاً ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾، ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمۡۚ﴾، وحديث «أن اللّه لا ينظر إلى صوركم وأبشاركم وإنما ينظر إلى قلوبكم»، «إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ألا وهي القلب».

ولا يفتح الله عين قلب يحب البقاء والغنى ويهتم بالغد لأن الوعي مرتبط بالفناء والفقر وقصر الأمل. البقاء غريزة والغنى مطلب والاهتمام بالغد هو أساس علم المستقبليات وإدارة الكوارث قبل وقوعها. بل هو أساس الإيمان. فالآخرة ضد الدنيا، والقلب لا يملكه إلا الله ولا يطيع إلا الله أي أن القلب له اتجاه واحد وإرادة واحدة. والشبهة في القلب تحجب عن الله. والشبهة في اليد. والإثم والطاعة والمعصية والذكر والنسيان والإيمان في الكفر. وهي درجة عالية من الشفافية وسلامة القلب ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾. والقلب المحجوب هو الذي لا يتولّى الله أمره. فلا يتجول في الملكوت ولا تظهر له القدرة، ولا يشاهد الله. والقلب القاسي هو الذي يتكل على نفسه. القلب هو الوعي وحضور الله فيه. هو اليقظة. والملكوت آفاق المعرفة. القلب القاسي هو القلب الخاص المنغلق المُصمت، وكلما زاد نور القلب قلَّ نور الرأس. فإذا ما استكمل نور القلب عاد نور الرأس. والسؤال هو: هل العلاقة بين حدس الشعور وتحليل العقل عكسية أم طردية؟ ألا تؤدي قوة الحدس إلى دقة التحليل العقلي؟ والقلب قادر على عمل سبع سموات وسبع أرضين والعرش والكرسي وكل مخلوقات الله والثرى. فالقلب هنا بالمعنى المجازي يحمل كل شيء فيه معنوياً، وليس شيئاً[1].

وذكر القلب لشيء مشاهدته بما في ذلك البدن. وذكر السر مع الله دون سواه وإلاً هلك. فالذكر معرفة، والمعرفة مشاهدة، والسر لا يكون إلا مع النفس دون الغير. وكيف لا يطلع الله على قلب عبد أربعين سنة فيمتلِئ بالغم والغيبة والافتراء ثم يسأل كيف يخرج من ذلك؟ ووجود شيء في القلب دون معرفته يقتضي الالتزام بالتوحيد. وعلامته التبرئ والاجتهاد في الخدمة والتفويض. والأفضل قلب النظرة والمجاهدة للمعرفة، ويقظة الشعور وصفائه. ملاك القلب في التبرئ من الحول والقوة[2]. وهو تناقض. فاحتلال الذات يقتضي الحول والقوة. أفواه قلوب العارفين فاغرة لمناجاة القدرة[3]. والقلب ليس وعياً خالصاً خارج الزمان والمكان. بل هو وعي اجتماعي. ففساد القلوب على حسب فساد الزمان وأهله[4].

---

(1) **التستري**، ص265-266.
(2) أبو الحسين الحزين، **طبقات الصوفية**، ص384.
(3) أبو عثمان المغربي، **طبقات الصوفية**، ص483.
(4) أبو الحسن الصيرفي، السابق، ص503.

والقلب على درجات متفاوتة من العمق: القلب، وقلب القلب، وقلب قلب القلب، ثلاث دوائر متداخلة، مركزها واحد. وهو الوقوف بين يدي الله من أجل مزيد من الثبات دون حيرة، والسكون إليه دون حركة. وقد تكون المسيرة والتردد والحركة من مقدمات البحث عن اليقين. والقلب ليس فيه إفراط. فالإفراط ضيق القلب وضيق العلم. هو خروج على قدرة الله. في حين أن الإفراط هو إفراط مضاد. والثورة إفراط في التغيُّر الاجتماعي. والإبداع إفراط في الاجتهاد. وبعد المعرفة بالقلب تكون المعرفة بالنظر علة[1].

ولا يستقيم القلب إلا باستغناء الله عما سواه. وهو معنى التوحيد في أَول الدين المتأخر، وقطع الأسباب والحيل المؤدية إلى غيره. وهو معنى تركيز الشعور على الهدف. والأخذ بالأسباب جزء من الشريعة. ويشعر القلب بأسماء الله. ومعالجة القلب أشد شئ عند العارفين. فهو مع الله وإبليس، في الآخرة وفي الدنيا. لا يخضع إلا لله وفي نفس الوقت يقاوم إبليس. وهو جدل طبيعي بين دافعين، الإقدام والإحجام، الاعتماد على الخارج والاعتماد على النفس، إيثار العاجل أم إيثار الآجل[2].

القلب رقيق، يُؤْثِر اليسير. فالحذر من الثقل عليه، والشعور بسيط يدرك البسائط. القلوب جوالة. إما تجول حول العرش أو في الحشى، بين الأعلى والأدنى[3]. والقلب مع الله مهما كانت الجوارح مع الطعام والشراب والوصايا حتى تُستبعد الوسوسة[4]. والإنكار بالقلب أقوى من الإيمان. فالإيمان فعل قلبي. والسلب مقدَّم على الإيجاب. والنفي له الأولوية على الإثبات. المُراعي للقلب لا يدخل في قلبه شيء يحجبه عن الله لأن القلب عزيز أي أنه رائق شفاف، وحجاب قلوب الصدِّيقين من الوسوسة. والقلب على الطبيعة والفطرة دون تكلف أو تزين حتى يسمو ويرتفع بين ضياء

---

(1) نظري بدء علتي ويح قلبي وما جنى السابق، ص331.

(2) السابق، ص266-267.

(3) السابق، ص267.

(4) السابق، ص288-290.

العرش[1]. وقد يؤدي تكلف القلب إلى التشبيه بالتفكير في صفته أو بتوهم ذاته[2]. والله في القلب. وهو كل القلب[3]. وصلاح القلب في التواضع لله، والفقر إلى الله، والخوف من الله والرجا في الله أي في علاقة أَحادية الطرف بالله[4]. أي ما من قلب ولا نفس إلا والله مطلع عليها ليل نهار. فأي قلب أو نفس وأي الله فيه حاجة سواه سلط عليه إبليس. الله هو الخالص أي القيمة. وإبليس هو الشائب أي الانفعال والهوى. للقلب حياة وموت، وصحة وسقم، يقظة ونوم، حياته الهدى، وموته الضلالة. وصحته الطهارة والصفاء، وسقمه الكدورة والعلاقة، ويقظته الذكر، ونومه الغفلة[5]. ولكل واحد علامة. فعلامة الحياة الرغبة والرهبة والعمل بهما والموت على الضد. وعلامة الصحة القوة واللذة، والسقم على الضد. وعلامة اليقظة السمع والبصر، والنوم على الضد[6].

للقلب ثواب وللبدن ثواب. ثواب القلب التنوير. وثواب البدن التسهيل. عذاب القلوب في التدبير، وظلمتها في الوسوسة. وهو عذاب واعٍ لأنه يقوم على التدبير والإحساس بالمسؤولية. والوسوسة حديث النفس الداخلِي. قد يفيد في معرفة أوضاع العالم وموقف الإنسان منها[7]. وعقوبة القلب أشد العقوبات. ومقامها أعلى المقامات، وكرامتها أفضل الكرامات. وذكرها أشرف الأذكار، وبذكرها تستجلب الأنوار، وعليها وقع الخطاب. وهو المخصوص بالتنبيه والعقاب[8]. ما دام لأعراض الكون في القلب خطر فلا خطر عند الله[9]. فالله لا

---

(1) «إقطع قلبك عن التصنع والتملك والتزين والتدبير حتى ترى قلبك فوق الملكة بين ضياء عرشه، مستغنياً عن كل ما دونه». **شطحات**، ص130.

(2) «لا تكلف بفكرة قلبك فيه فتهلك بالتشبيه فإنه موجود عند المفكرين في صفته ومفقود عند المتوهمين في ذاته». السابق، ص13.

(3) مكانك من قلبي هو القلب كله فليس لشيء فيك غيرك موضع
السابق، ص313.

(4) أبو عثمان الحيرة النيسابوري، **طبقات الصوفية**، ص172.

(5) **التستري**، السابق، ص208.

(6) أبو بكر الوراق، السابق، ص223.

(7) السابق، ص292-294.

(8) أبو إسحق إبراهيم الخواص، **طبقات الصوفية**، ص286.

(9) أبو محمد المرتعش، السابق، ص349.

يحل في قلب مملوء بغيره. وحرام على قلب مأسور يحب الدنيا أن يسبح في روح الغيب[1]. فالدنيا رباط وربط. والقلب حرية وسياحة، ولكن ألا يمكن السياحة في الدنيا؟ وقد يعني القلب العقل. فالقلب مرآة الجوارح، والنوم نجاة اليقظة، والدنيا مرآة الآخرة. إذا كانت الجوارح في القلب تنعكس الآخرة في مرآة الدنيا، فالمعرفة انعكاس، موضوعها انعكاس، وشرطها اليقظة[2].

4 ـ العقل

وفي «ما هية العقل وحقيقة معناه» يتضح أن للصوفية أيضاً آراء في العقل وأنه ليس حكراً على المتكلمين أو الفلاسفة أو الأصوليين، وهو تأليف بطريقة التجميع مثل «معاني العقل» للفارابي. يعتمد على الحجج النقلية بالإضافة إلى التنظير العقلي[3]. وبطريقة السؤال والجواب والفتاوى الفقهية. فقد سئل عن العقل ومقاييس الإجابة من اللغة والمعقول من الكتاب والسنَّة. ولا يظهر الوافد على الإطلاق على عكس الفارابي الذي جعل معاني العقل هي معانيه في كتب أرسطو وليس اعتماداً على الموروث أو العقل البديهي، وهو أقرب إلى المقال الواحد الذي لا يتضمن إلا موضوعين: العقل عند الله، مسائل في العقل[4].

وللعقل معانٍ ثلاثة: الأول عزيزة في الخلق يُعرف بها المنفعة والضرر وهو المعنى الحقيقي وإن غاب فهو الجنون. وهو ما رآه بعض المتكلمين. فالكلام من مصادر التصوف. وهو اللب بمصطلح القرآن. والمعنيان الآخران مجازيان. الأول الفهم لإصابة المعنى والبيان لكل أمور الدنيا والدين ويسمَّى السمع أيضاً. وهو معنى يشترك فيه الخلق جميعاً. والثاني البصيرة، ومعرفة قدر الأشياء النافعة والضارة في الدنيا والآخرة، ومنه العقل عن الله. ويسمَّى الوعي أيضاً[5].

---

(1) أبو الخير الأقطع النيتاني، السابق، ص371.

(2) **التستري**، ص270.

(3) **العقل**، ص237-259، وفي رأي الجويني «ما هو عليه أحد من أصحابنا إلا الحارث المحاسبي».

(4) الآيات (43)، الأحاديث (2)، الشعر (1).

(5) **العقل**، ص237-246، المحاسبي: **ماهية العقل، وحقيقة معناه، شرف العقل وماهيته**، ص17-47.

وفي **مسائل في العقل** الحجة حجتان: عيان ظاهر أو خبر قاهر، ويتضمَّن العقل الدليل كما يتضمَّن الدليل العقل. والعقل هو المسؤول، والعيان والخبر علة الاستدلال. العيان شاهد يدل على الصدق، والخبر قد يدل على الغيب. ولا غناء عن النظر والتنكر والتذكر ليكثر الاعتبار ويزداد العلم ويعلو الفضل. والعلم يدخل السرور على النفس، ويؤدي إلى المعرفة والسعادة، إلى الإيمان والفضيلة، «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت»[1]. العقل مرتبط بالوجدان. فإذا أفرط الحب والبغض ضاع الاعتدال ومال العقل. وأول العقل إلهام وهو الحدس[2]. وما يمنع من الفهم الأنفة التي تمنع من الخضوع. وتعرف معاني العقل من اللغة والكتاب والسنَّة. العقل غريزة، والغريزة تعادل الحياة والوجود. وظيفتها «الفهم والبيان» على حد الاعتدال، وليس هو صنو الروح أو المعرفة بل هو ملكة للتفكير والمعرفة. سماه القرآن اللب والفؤاد والقلب والصدر، عكس الحمق أو الجنون. ويتضمن الدليل الذي يستدل العقل عليه. والعيان والخبرة طريق الاستدلال. وقد يعني العقل العلم بحقائق الأمور أي صفة العلم. وقد يعني اللطيفة في الإنسان[3]. ملكة المعرفة ومرتبط بالبدن. العقل شريف وشرف العلم يأتي من شرف العقل، وهو منه بمثابة الثمرة من الشجرة. والعقل والحمق شيءٌ واحد. مرة إيجاباً ومرة سلباً. والنظر إلى الأحمق سُخنه العين[4]. والفرق بين العاقل والأحمق أن الأحمق يقبل الحديث بالمحال[5]. فالعقل هو الإمكان، والحمق الاستحالة.

والعاقل هو الذي يطالب نفسه بالإخلاص، ويبدأ بالنفس قبل أن ينصح الغير[6]. العاقل من تأهبَ للمخاوف قبل وقوعها[7]. فالعقل ليس هو العقل النظري فحسب بل هو العقل الوجداني العملي.

(1) **مسائل في العقل**، السابق، ص256-259.
(2) **التستري**، ص340.
(3) **روضه الطالبين**، الرسائل الفرائد، ص136.
(4) بشر الحاقي، **طبقات الصوفية**، ص43.
(5) يوسف بن الحسين البغدادي، السابق، ص189.
(6) أبو حفص النيسابوري، السابق، ص121.
(7) أبو عثمان المسيري النيسابوري، السباق، ص173.

وأنفع العقل ما عَّرف بنعم الله وأعان على شكرها وقام بخلاف الهوى. فهو العقل العملي الأخلاقي الإرادي وليس العقل الاستدلالي النظري النطقي[1]. والعاقل من عقل عن الله مواعظه، وعرف ما يضرُّه مما ينفعه. فهو العقل المستقبل وليس العقل المعطي. من عقل الأشياء بالله فرجوعه في كل شيء إلى الله[2].

والعاقل إما أن يكون خائفا لما سلف من ذنوب أو لا يدري ما ينزل به ساعة بعد ساعة أو يخاف من غموض العاقبة وخواتيم الأفعال[3]. والكيِّس هو العاقل الذي يحفظ حده مع اللَّه ويترك العلم على مجاريه. فالعلم يأتي دون أن يُطلب. العاقل من اتقى ربه وما سب نفسه[4]. فالعقل تقوى ومحاسبة وليس فقط نظراً واستدلالاً. والحق نظري وعملي. العقل والروح يدعوان إلى الآخرة، ومخالفة الهوى والشهوات[5]. ومن لم يحترز لعقله من عقله لعقله هلك بعقله. فالعقل مجرد إمكانية وسيلة للنجاة أو للهلاك.

وينطق العلماء في كل زمان بما يشاكل أعمال أهل ذلك الزمان. فالعالِم ابن وقته مثل الصوفي، وتعبير عن عصره وزمانه[6].

أصل العقل الصمت. وباطن العقل كتمان السر. وظاهر العقل الاقتداء بالسنَّة. فالعقل رؤية دون نطق، وعالم داخلي لا يتخارج إلا في الاقتداء بالسنَّة أي في الإتباع[7]. في حين أن العقل ثورة وإدراك المسافة بين المثال والواقع. ومصاحبة العقلاء بالاقتداء[8]. والعقل ليس تقليداً بل برهاناً.

وهو ليس عقلاً نظرياً فقط بل هو أيضا عقل عملي. ينتهي إلى الحقيقة كما يوصل إلى السعادة. وللعقل أربعة معان: الأول الوصف الذي يفارق الإنسان به سائر الحيوان، والقابل للعلوم النظرية، وتدبير الصناعات كما وصف المحاسبي. والثاني

(1) أحمد بن عاصم الأنطاكي، السابق، ص138-139.
(2) أبو الحسين النوري، السابق، ص169.
(3) شقيق البلخي، السابق، ص63.
(4) محمد بن علي الترمذي، السابق، ص219.
(5) علي بن سهل الأصفهاني، السابق، ص235.
(6) أبو تراب التخشبي، السابق، ص151.
(7) يوسف بن الحسين البغدادي، السابق، ص189.
(8) أبو بكر الوراق، السابق، ص223.

العلوم بجواز الجائز واستحالة المستحيل أي العلوم البديهية الخالصة. والثالث علوم تجريبية بمجاري الأحوال. والرابع معرفة عواقب الأمور، وهو العلم بالحياة من خلال التجارب الذاتية. وتتفاوت النفوس في العقل طبقاً لوظائف العقل الأربع[1].

أصح العقول عقل وافق التوفيق[2]. فالعقل هو العقل العملي، يستر عورات المرء عقله وحِلمه وسخاؤه. فالعقل هو العقل الأخلاقي أو العقل العملي بتعبير المعاصرين. العقل ما يبعد عن مراتع الهلكة[3]. فالعقل عملي إرادي خلاصي. من خدم الملوك بلا عقل أسلمه الجهل إلى القتل[4]. فالعقل هو أساس السلوك.

والعاقل من تبرَّم بعشرة المخالفين وزهد في صحبة أبناء الدنيا. فإن يشغلوه بها شغلوه عما هو فيه. وماذا عن الحوار مع المخالفين؟ وماذا عن معرفة الدنيا والدخول فيها؟ والانشغال بالدنيا جزء من الالتزام بها، والخروج عن الذات ضد العزلة[5].

العاقل يتكلم قدر الحاجة، ويدع ما فضل عنه[6]. ما قل ودل اللسان على قدر العقل. ويضع العقل أحكامه الثلاثة: الواجب والممكن والمستحيل. والعلة والمعلول مثل المبادئ النظرية في علم أصول الدين المتأخر: الوجود والعدم، الجوهر والماهية، الواحد والكثير. وهي أمور عقلية في الظاهر، إيمانية في الباطن. تقوم على التمييز بين المستويات التي ترجع في النهاية إلى ثنائية الله والعالم. وأحيانا يتموضع العقل في الدماغ كما يتموضع العلم في المخ[7].

والرجل لا يعقل لأن العقل ليس من أفعال الصدِّيقين دون أن يشتغل بالعبادة أو بالعلم أو بالذكر. فهل العقل لا يكتمل إلاَّ بالعبادة والمعرفة والذكر، وكلها مشروطة بالعقل؟[8].

---

(1) الغزالي: **في العقل وشرفه، شرف العقل وماهيته**، ص51-70.
(2) أبو العباس بن عطاء الآمدي، **طبقات الصوفية**، ص272.
(3) جعفر بن محمد الخلدي، السابق، ص438.
(4) أبو عبد اللّه الروذباري، السابق، ص499.
(5) أبوعبد اللّه بن سالم البصري، السابق، ص416.
(6) أبو بكر الطمستاني، السابق، ص474.
(7) **التستري**، ص287.
(8) السابق، ص295.

ونصيحة العقل من أصول ثلاثة مع إجابة العلم وإيثار الرب[1]. فالعقل يرشد والعلم يستجيب، وإيثار الرب يحدد الاتجاه.

وللعقل ألف اسم. عقل في عقل، وعقل من عقل، وعقل لعقل[2]. وأول اسم له لا يحتاج إلى الدنيا فما بال الأخير. فهل هو عقل يعقل نفساً أو كما قال الفلاسفة في وصف الله عقل وعاقل ومعقول؟ ألا يبدأ العقل من الحواس أي من إدراك العالم؟

ولا تتناهى آثار العقول في حين تتناهى آثار النفوس، نظرا لارتباط النفس بالبدن، وتعلق العقل بالعقل الأول[3]. والعقول أرباب الأنواع[4]. الروح أول اسم من أسماء العقل. وللنفس ألف اسم. وللعقل ألف اسم كذلك. العقل ما يمكن الاستغناء عن كل شيء سواه. الروح والنفس والعقل إذن أسماء متداخلة. والعقل لا يعمل بمفرده دون الرؤية أو الإحساس في الوجدان[5]. ومن استرشد بالعقل فإنه يلهو. فالعقل يخلط وتلتبس عليه الأمور ويتساءل في حيرته عن الله[6].

ويقارب بين العقل والنفس والعدو. العقل ساكن هادئ، والنفس مقهورة أسيرة، والعدو محجوب[7]. ويخطر بالقلب شيء مع إعلام الحال. الفرض والسنَّة أو النافلة من الحال. وغير ذلك من النفس شريطة في الدين ومعه في الحال. ولا يخطر من القلب في النفس الشيء حتى يعتري الإنسان الفتور، ويجهل قوته.

والعقل هو أساس الأمر والنهي، والتوبة من المعصية والعصمة. والشكر والعلم حالان. وهو بداية تأسيس الخارج على الداخل. العلم اكتساب

---

(1) السابق، ص368.
(2) السابق، ص377-378.
(3) **حكم الإشراق**، ص167-170. **مقامات الصوفية**، ص42-45.
(4) **المشارع والمطارحات**، ص453-464.
(5) وما خلوا من طرق إن عقلوا ... وما خلا منهم في كل أوقات
الديوان، ص295.
(6) من رامه بالعقل مسترشداً ... أبرحه في حيرة يلهو
قد شاب بالتلبيس أسراره ... يقول في حيرته: هل هو؟
السابق، ص334.
(7) **التستري**، ص151-152.

العقل. فلا علم مكتسب. وهناك عقل آخر تقوم به الحجة لا هو اكتساب ولا هو معرفة[1].

وأول ما يتخلق به الإنسان ثلاثة أمور: اكتساب العقل، واحتمال المؤونة، والرفق في كل شئ، والحذر من الميل إلى الهوى. ويضاف إلى ذلك ثلاثة أشياء أخرى: العلم، والحلم، والتواضع. وثلاثة أخرى: اكتساب السكينة، والوقار، والإنصاف[2].

وأصل العلم العقل، وأصل العقل المعرفة، واشتق العلم من العقل[3]. تفسير العقل حسن النظر للنفس في عاقبة الأمر[4]. فالعقل والنظر موجِّه نحو السلوك.

ويسمَّى العقل المنور بنور القدس الصافي عن الأوهام والتخيلات «اللب». «ولب اللب» هي مادة النور الإلٰهي القدسي الذي يتأيد به العقل فيصفو، ويدرك العلوم المتعالية[5]. و«اللبس» هي الصورة العنصرية التي تلبس الحقائق الروحانية. ذو العقل هو الذي يرى الخلق ظاهراً والحق باطناً. فيكون الحق عنده مرآة الخلق لاحتجاب المرآة بالصورة الظاهرة فيه احتجاب المطلق بالمقيد.

وذو العقل والعين هو الذي يرى الحق في الخلق، والخلق في الحق. ولا يحتجب بأحدهما عن الآخر بل يرى الوجود الواحد بعينه حقاً من وجه وخلقاً من وجه[6]. أما ذو العين فهو الذي يرى الحق ظاهراً والخلق باطناً. فيكون الخلق عنده مرآة الحق بظهور الحق عنده، واختفاء الخلق فيه اختفاء المرآة بالصورة. لا يصلح الحق إلا بالسكون، ولا الكون إلا بالعقل، ولا العقل إلا بالفضل الإلٰهي.

---

(1) السابق، ص158.

(2) السابق، ص160.

(3) السابق، ص206.

(4) السابق، ص260.

(5) **اصطلاحات الصوفية**، ص72.

(6) السابق، ص162-163.

ففي الخلق إن كنت ذا عين وفي الحق عين الخلق إن كنت ذا عقل
وإن كنت ذا عين وعقل فما ترى سوى عين شيء واحد فيه بالشكل

(ابن عربي)، السابق، ص163. **لطائف الأعلام**، ج2، ص388-389. **جامع الأصول**، ج3، ص34-35.

العاقل من يقتبس العلم بالعقل[1]. وهو بين الناس على السواء وهو سبيل النجاة. والذهن طبع مركب. والفهم اكتساب على قدر الزمن. والفطنة الميراث والسر. أدنى العقل يوجب الأمر والنهي والنجاة. والناس متفاوتون فيه، لكن يوجب الربوبية. ويتفاوتون في إجابة الوحي والإقرار بالتوحد والاقتداء بالسنَّة. الأصل هو المعقول الذي يشارك فيه البشر جميعاً بل والبهائم، كفاراً ويهوداً ونصارى ومجوساً وفرنجة. الاقتداء بالعلم، وأصل العلم الإقرار والتوحيد وسر العواقب[2].

أراد الله إظهار ملكه فأودع فيه العقل. وهو سبيل الوصول إلى أي شيء فيه، وبالتالي إلى العلم. والخلط في العقل لا يوصل إلى شيء من مقامات الصدّيقين[3].

العقل نور رباني[4]. وهو العقل الإشراقي. إذا كمل في جولاته في الآيات على جناح الفكر تظهر له أنوار الصفات. وهو أُمُّ الكتاب[5]. العقل نور وللإيمان نور. فنور العقل يصل إلى وجود الله[6]. الله منزه عن تنزيه العقل، العلم بأن الله واحد مجرد عن العقول[7]. والعقل له حدود تجعله يترك مجاله للكشف[8]. أول وجود مقيد فقير هو العقل الأول. ويُسمَّى الروح الكلي والفكر والقلم والعرش والحقيقة المحمدية وروح الأرواح والإمام المبين، وأسماء أخرى كثيرة[9]. وأول ما خلق الله خلق العقل، هذا اعتقاد الحكماء الإشراقيين[10]. ويعقل الإنسان عن الله فيكون عقلاً كاملاً. الخوف منه، وقوة اليقين به.

يُعرف العقل بثلاثة أشياء: العفة، والاتقاء، والاقتداء بالنبي[11]. فهو العقل الأخلاقي التقليدي. فالعقل الاقتداء وليس المعقول. والعقل ليس العاقل بل الذي

---

(1) «لذلك صاروا كلهم خاضعين مستكينين مقهورين، **التستري**، ص75.

(2) السابق، ص76.

(3) السابق، ص77-78.

(4) **مشرب الأرواح**، ص137، 164.

(5) **جامع الأصول**، جـ3، ص15.

(6) السابق، ص33.

(7) السابق، ص74، 78.

(8) **رسائل**، جـ2، ص22. **كتاب المسائل**، ص2.

(9) السابق، ص9-10.

(10) **رسالة في اعتقاد الحكماء**، ص262-265.

(11) **التستري**، ص79.

يستجيب للعقل أي الطاعة. العقل مرآة الجوارح إلى الأخلاق، والجوارح والقوة مرآة اليقظة أي الوعي الأخلاقي، والدنيا مرآة الآخرة أي المصير. العقل حسن الظن بالعاقبة، وإذا لم يصرف العقل في ذات الله صار عدوا له.

صفات العاقل ثلاث: عدم التفتيش عن أحوال الخلق، والاستعانة بالله على الأحوال، والاقتداء بالنبي. والعقل هو الدليل على الأمر والزجر عن النهي[(1)]. العقل هاد، والنفس مقهورة، والعدو محبوب[(2)]. ولا يصح أداء الحق إلا بالعقل. ولا يصح العقل إلا بالفضل، هبة من الله للعباد[(3)].

والأصول ثلاثة: مناصحة العقول، والحاح العلم، وإيثار الرب[(4)]. فالعقل أساس التناصح. وهو أساس العلم. ويعني إخلاص الرب صدق النيَّة.

والعقل تعقل. ليس العقل جوهراً أو آلة بل هو فعل الوعي. وهو على درجات، وكل درجة حضرة. حضرة العقل الأول هو حضرة العلم الذاتي، وحضرة الارتسام، والحضرة العمائية حضرة العلم والارتسام. وهي التعين الثاني. وسميت عمائية لأنها تحوِّل إضافة ما فيها من حقائق إلى الحق والخلق. والعماء هو الغيم الرقيق بين الناظر وعين الشمس. وحضرة المعاني هو التعيُّن الثاني لتحقيق جميع المعاني الكلية والجزئية، وحضرة العلم الأولى المرئية الثانية والتعين الثاني. وحضرة العلم الذاتي المرتبة الأولى. فتح العقل يلي فتح الإسلام، فتح الفهم والعلم والاستدلال على معرفة وجود الصانع[(5)]. ويسمَّى الرجل عاقلاً عند الله إن كان مؤمناً خائفاً ويكون كامل العقل ليس لغاية بل ولا بالتحديد والإحاطة بالعلم بحقائق صفاته ولا بثوابه وعقاب لكن بالأغلب من الأسماء أي بقدرة الإنسان على المماثلة، بالخوف منه، وباليقين به. فالعقل الكامل له خصال ثلاث: الخوف واليقين والبصيرة، وأثر ذلك على القلب والجوارح.

وهو العقل الكامل بأحسن الصفات، المتنزه عن الآفات، لا يملك لنفسه

---

(1) السابق، ص80.

(2) السابق، ص90.

(3) «وكذلك صاروا كلهم خاضعين مستكينين مقهورين». السابق، ص151.

(4) السابق، ص201.

(5) السابق، ج2، ص560.

نفعاً ولا ضرراً وكأنه عقل آدائي. وهو خاضع لمولاه. وهو عقل أخلاقي. طويل الحلم، دائم التأني، جميل الستر، مقبل للفراق، محسن لمن بغضه، ومتقرب إلى من تباعد عنه عقل يشتاق إلى ربه[1].

ومن أطاع الله بالعلم لم يفقد عقله[2]. العقل موجَّه بالإيمان، والحذر من التخليط في العقل حتى يصل إلى مقام الصدِّيقين، والتخليط بين العقل والحس والهوى. وإذا أطمئن قلب العبد بالله سكن العقل ولم يتحرك. وهنا يتحول إيمان العقل إلى ثبات وسكون.

والعقل في العقل ومنه وله. فالعقل منهج وموضوع وغاية. وللعقل ألف اسم، ولكل منها ألف اسم. وأول اسم منها لا يحتاج إلى الدنيا. فالأولى الاسم المليون. العقل قائم بذاته عقل وعاقل ومعقول كما قال الفلاسفة.

ومن صفات العاقل أنه لا يفتش عن أحوال الناس، ويستعين بالله في أحواله، ويقتدي بالنبي. وإن أفشى إليه سراً أو أدخل عليه علماً فقد علم الله بأقوال الخلق ولم يمنعه بل رغبّه فيه، ويفتح له أبواب التوبة. فالعقل هو العقل الأخلاقي المنكفئ على الذات تاركاً عيوب الغير، والمستعين بالله والمقتدي بالنبي. هو العقل المفتوح، ليس العقل المغلق. والوافر الدماغ هو الذي يأمن الناس شره. فالعقل هو العقل الأخلاقي الاجتماعي. وفي هذه الحالة يُسمَّى الدماغ.

والعقل أوله العلم وأوسطه السنَّة وآخرة الإخلاص. فالعلم بداية، والسنَّة وسط، والإخلاص نهاية. العلم نور، والسنَّة طريق، والإخلاص نهاية أي العقل الصادق.

والعقل والوجود واجهتان لعملة واحدة[3]. فحضرة الوجوب هي الحضرة العمائية التي تلي التعيُّن الأول حضرة تعيُّن أسماء الحق واجبة لذاتها دون تعيُّن حقائق الخلق لذاتها[4]. وحضرة الامتناع هو المقابل لحضرة الوجوب. وهي قراءة

(1) **العقل عند الله**، السابق، ص247–255.

(2) **التستري**، ص270.

(3) كما هو الحال عند أرسطو وتوما الأكويني وهيغل ويوسف كرم.

(4) **لطائف الأعلام**، جـ1، ص339.

وجودية على أحكام العقل الثلاثة. وحضرة الإمكان متوسطة بينهما[1]. وحضور العقل باجتماع الهمم لأن العقل يشتغل عن الفهم والفكر في المعاد وبتفريق الهم في الدنيا. وينال اجتماع الهم بصفتين، قطع شغل الجوارح عن كل شيء سوى موضوع التفكر، فالحواس تلهي القلب، ومنع القلب النظر والتفكر في شيء من أمور الدنيا سوى موضوع التفكير. وبعد اجتماع الهم يأتي التوكل على الله، وليس على العقل. فكل وسائل المعرفة النظرية تقود إلى التوكل العملي. ويتم الاعتماد على حديث سليمان من الإسرائيليات. والتفكر في المعاد بتخويف النفس من عظم قدر العذاب. فإذا هاج الخوف تحرر القلب من الإصرار على الذنوب. وثاب وخشع وأناب كالوقود الذي يؤدي إلى الغليان[2].

5 ـ النفس النزوعية

وتعني البواعث والدوافع والرغبات والميول والاحتياجات والغرائز، أي كل ما يتعلق بالاستعدادات الطبيعية في النفس ما قبل النفس الأخلاقية. وهي التي سماها القرآن الزيتونة المستعدة للاشتعال بنور القدس بقوة الفكر. وهي مجبولة على طلب المنافع ودفع المضار[3]. وتسمّى النفس «البقرة»، إذا استعدت للرياضة وبدت فيها صلاحية قمع الهوى. وتسمّى أيضاً «الكبش» و«البدنة»[4]. وما يطهّر النفس من دنس الطبائع هو العلم القدسي. هو الذي يساعد على الشهود الحقيقي بتجلي القديم. والزاجر هو واعظ الحق في القلب. وهو الداعي[5].

وتتضمن مسائل الوسوسة، والشبهة، والحذر، والغفلة، والنسيان، والجوع، كأمثلة للنزوع. سؤال وجواب يعتمد على التحليل النفسي الصرف دون الاستعانة بالحجج النقلية. باستثناء آية قرآنية واحدة[6]. والوسواس من الشيطان. وواضح أن التحليل النفسي ما زال مرتبطاً بالغيبيات والأوهام. ودفعه بالإعراض عنه، وعدم

(1) **جامع الأصول**، جـ3، ص15.
(2) «باب ما يُنال به اجتماع الهم». السابق، ص77-80.
(3) **المسائل**، ص73.
(4) **جامع الأصول**، جـ3، ص9، 40.
(5) اصطلاح الصوفية، **رسائل**، جـ2، (29) ص9.
(6) **المسائل**، ص55-57.

الإصغاء إليه، وتهوين الأمر واستصغاره، وقد تكون الوسوسة بترك الطاعة أو ترك النفل أو بالمعصية أو بالشبهات ﴿إِذَا مَسَّهُمْ طَـٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾. الوسوسة من النفس فيما يعنيها وفيما لا يعنيها[1]. فهي مذمومة وعيشها مذموم. وهو التصور السلبي للنفس[2].

الوسوسة خاطر سلبي. وهي على أنواع وسوسة الشرك عند المسلمين، ووسوسة النفاق عند المؤمنين، ووسوسة الجهل عند العالم. ولا يكون مع العقل وسوسة. وليس للعاصي وسوسة معصية، وكما لا ينسى إلا الذاكر، ولا يعصى إلاَّ المطيع كذلك لا يعرف وسوسة الدنيا إلا من عمل للآخرة.

الفكرة في الفريضة فيما يستقبل ويقدر من القرآن وغيرها وسوسة، والفكرة فيما مضى من وعد ووعيد ليس وسوسة. وقد تؤدي الوسوسة إلى الشك الذي يؤدي بدوره إلى اليقين، لذلك قد تكون الوسوسة أول مقام الإيمان وآخره. الأول العلم بالعدو، وآخره الاتقاء من العدو. الوسوسة من العدو. ويقوم العدو مقام العقل ومقام العلم، وعلم الإنسان. إن كل شيء غير الله وسوسة. ويكون مع العلم وسوسة للصديقين والأنبياء، ومن ناله شيء من الدنيا وسوسة. الوسوسة فعل العباد. ومقامها من العبد هو ابتلاء. وليس الفرج منه إلا بالله[3]. وإذا دخل الإنسان الصلاة مع الوسوسة فإنه يخرج منها مع العقوبة[4]. لأنها لا تجوز. فالصلاة اطمئنان داخلي وليست حركات شكلية. وتحدق الوسوسة في الصلاة لتذهبها فتبطل. وأصل الوسوسة من الإنابة أي أنها شك وحيرة وتردد وقتي تنتهي إلى اليقين.

وتذهب الوسوسة بقصر الأمل. فإذا وقف الإنسان فلا تحدثه نفسه بالجلوس. وإذا كان قاعداً فلا تحدثه نفسه بالقيام، فهل هموم الحياة تحل بالموت؟ وهل يمكن القضاء على الوسوسة بالإبقاء على الوضع القائم دون تغيير؟ ويذهب الوسواس من الصدِّيقين ويبقى مع المحدِّثين والمتكلمين وكأن الوسواس عيب مع أنه حساسية مفرطة ويقظة للقلب والضمير. وغيابه يحوِّل الإنسان إلى كتلة صماء وصحراء ساكنة

(1) المحاسبي، **المسائل**، ص66-68.
(2) عند الوجوديين المعاصرين، الوعي وحب الاستطلاع من مكوِّنات الوجود الإنساني.
(3) **التستري**، ص109-111.
(4) السابق، ص292.

لا ريح فيها ولا أمطار. الوسوسة للمؤمنين والصدِّيقين دون الكافرين والعصاة، وهي من فضول الحلال. فمن أراد الدنيا لم يسلم منها. ولا توجد مع العقل في حين تكون مع العلم والفكر[1]. للوسوسة إذن جانبان: إيجابي، وسلبي. الإيجابي الرغبة في الكمال. والسلبي الميل نحو النقص. ولا تكون مع العقل لأنه يقين في حين تكون مع العلم والفكر لأنهما مازالا في طريق البحث[2].

ولا تنتاب الوسوسة القلب المشغول بالله نظراً للإحساس بما يخالف السنَّة وهو المهم. وتأتي الوسوسة من ادعاء الإنسان ما ليس له كما اهتم آدم بالخلد فانتابته الوسوسة. والأفضل التسليم إلى أمر الله والتبرؤ مما سواه[3]. الوسوسة ساعة ثم ساعة أخرى بعد الملل. وهو إفراط في الأمل لأنه لا ساعة زائدة. فقد يجيء الموت[4].

الوسوسة من إبليس عدو الله. وهي أول مقامات الإيمان، العلم بالعدو. وآخرها أعلى مقامات الإيمان، الاتقاء من العدو، والعدو هو سبيل التقرب إلى الله عن طريق التضاد، الوسوسة من العدو والاستماع من العبد، من حديث النفس أولاً ثم الاستماع ثانياً هوى، والاستماع ثالثاً شهوة، والاستماع رابعاً معصية. تصاحب الوسوسة من أراد الدنيا لأنها من توابع همومها. وهي من فضولها طبقاً لأحكام القلوب.

الإيمان وسوسة، والآخرة وسوسة، والدنيا وسوسة، ولله وسوسته. والإيمان والدعاء وسوسة. فالوسوسة حديث النفس بالخير أو بالشر، بالمعرفة أو بالجهل، بالله أو الشيطان، ليس للعصاة وسوسة معصية، ولا للكفار وسوسة كفر. بل الوسوسة من الطبع ثم النفس ثم الهدى ثم التدبير. الوسوسة بناء نفسي محايد[5].

وعقاب الموسوس سكون قلبه بالعدو، وغياب الورع، وعدم عيشه في الدنيا[6]. الوسوسة درجات مع الطمع أدنى درجات الدنيا لأنه رجاء الوعي بشيء

(1) السابق، ص293.
(2) السابق، ص354.
(3) السابق، ص161.
(4) السابق، ص179.
(5) السابق، ص242.
(6) السابق، ص242-243.

خارج عنه. والوسوسة فراغ في الشعور بلا مضمون[1]. هي حجاب قلوب الصدِّيقين. ووجود القلب مع الله في كل فعل يمنع من الوسوسة[2].

والشبهة نوع من الوسوسة، وأدنى الأدب الوقوف عند الشبهة. فالحلال بين والحرام بين وبينهما أمور متشابهات[3]. مع أن الشبهة أكثرُ أغراءً ومدعاةً للاجتهاد.

ومن أمَّ قوماً فألزم قلبه الحذر «خشية الخطأ، والخطأ نوعان: الأول له طلب للكمال. والثاني عليه هو تملك الخوف على قلبه من الخطأ أو اللحن. فيتأرجح القلب بين الخوف والرجاء. وتعطي سور الخاتمة نموذجاً على ذلك آية آية. ظاهرها تلاوتها، وباطنها تأويلها»[4].

و«الغفلة والنسيان» آفتان. الغفلة غفلتان، غفلة من نسيان وهي أخفها، وغفلة مع الذكر وهي الأعظم[5]. وهي من المؤمن سهو ونسيان.وقد رفع عن الأمة الخطأ والنسيان.

روعة الانتباه بعد الغفلة. والانقطاع عن خط النفسانية والارتعاد من خوف القطيعة أفضل من عبادة الثقلين[6]. والاعتصام بالله هو ما يمنع الغفلة والمعاصي والبدع والضلالات. وبالغافل الناظر ثلاثة عيوب: أولها الجدال والصياح، ثانياً حب العلو على الخلق، وثالثاً الحقد والغضب. والكل منهي عنه، على عكس المناصحة أولها موعظة، وأوسطها دلالة، وآخرها بركة[7]. خلق الله ابن آدم من الغفلة، وركّب فيه الشهوة والنسيان. إلا أن يرحم عبداً فينهه. فإن لم يكن الإنسان مسؤولاً فلماذا الحساب؟ وأقرب الناس إلى التوفيق من عرف نفسه بالعجز والذل والضعف وقلة الحيلة مع التواضع لله. وقلَّ من ادعى في أمره قوة إلا خُذل ووُكله إلى قوته! وهل العجز والذل والضعف توفيق؟ وهل إذا استرد الإنسان قوته يكون

(1) السابق، ص297-345.

(2) السابق، ص290.

(3) السابق، ص269.

(4) السابق، ص111-117، ويحيل المحاسبي إلى كتابه **أخلاق الحكيم**، السابق، ص157.

(5) السابق، ص155-158.

(6) أبو بكر الكتاني، **طبقات الصوفية**، ص374.

(7) أبو بكر بن أبي سعدان، السابق، ص422.

ضعيفاً مخذولاً؟[1]. ولا نوم أثقل من الغفلة، ورق أملك من الشهوة. ولولا ثقل الغفلة لما ظفرت الشهوة[2]. فالنفس يقظة.

وإذا سلمت النفس أُدِّيَ حقها. وإذا سلم الحق أُدّيت الحقوق[3]. رؤية النفس نسيان منن الله[4]. ولماذا لا تكون المنن في أعماق النفس ومضمونها وبالتالي رؤيتها بعد انقلاب النظرة؟

علامة الهوى متابعة الشهوات[5]. فعالم الأهواء هو عالم الرغبات والميول، وأفضل الأعمال خلافاً هو النفس. ولماذا تكون الأعمال باستمرار على غير هوى النفس؟ أليس فعل العشق تعبيراً عن حالة العشق؟ الصورة التقليدية لصلة الفعل بالدافع أن الفعل يأتي ضد الباعث وليس تحقيقاً له. وتعليم النفس الرضا بمجاري المقدور وسيلة للمعرفة. وكيف يكون الرضا والاستكانة والتسليم والقبول والاستسلام لكل ما يحدث في الواقع وسيلة للمعرفة[6].

وقد يصل الحذر إلى حد المبالغة مثل غض البصر ليس عن النساء بل عن أنثى شاة[7]. والشهوات ثلاث: شهوة الطعام، وشهوة الكلام، وشهوة النظر. والسيطرة على الأولى بالثقة، وعلى الثانية بالصدق، وعلى الثالثة بالصبر[8].

وسلامة النفس في مخالفتها، وبلاؤها في متابعتها[9]. فإذا كانت الطبيعة خيرة فلماذا تكون السلامة في المخالفة والبلاء في المتابعة؟

والجزع من الدنس. والتوبة تذهب الجوع في الإيمان. يبقى جزع الطبع وهو أمر ميسور[10]. وكيف يكون الطبع ميسوراً وهو ضرورة، والإيمان صعباً وهو

(1) أبو سعيد بن الأعرابي، السابق، ص430.
(2) أحمد بن خضرويه، السابق، ص106.
(3) أبو حمزة البغدادي البزاز، السابق، ص298.
(4) أبو الحسين الوراق النيسابوري، السابق، ص301.
(5) ذو النون، السابق، ص25.
(6) أبو سليمان الداراني، السابق، ص81.
(7) معروف الكرخي، السابق، ص88.
(8) حاتم الأصم، السابق، ص88.
(9) منصور بن عمار، السابق، ص136.
(10) السابق، ص189.

حرية؟ والجزع نوع من الفزع. ويقضي على الفزع أداءُ الأوامر واجتناب النواهي إذا نَظَرَ العبد إلى الله واقتدى بالرسول[1].

والرعونة هي الوقوف مع حظ النفس ومقتضى ضياعها دون تجاوزها[2]. وتشمل النفس النزوعية الأهواء والشهوات والرغبات والغرائز. الهوى اسم للنفس[3]. وهو ردٌّ للكل إلى الجزء. فالهوى أحد ظواهر النفس وليس النفس كلها. الهوى والشهوة، والعفة والابتلاء، والضر والتعب تؤدي إلى الالتجاء والافتقار والتفرع[4]. للنفس هوى. وللروح هوى، وللقلب هوى، ولكل جارحة هوى[5]. والتقوى هي المخلِّص من كل هذه الأهواء. ولا يكون الهوى مع الفريضة، ويكون مع النوافل كلها[6]. الفريضة واجب، والنافلة اختيار تتصارع فيهما الأهواء. ويغلب الهوى النفس والجوارح عندما تغيب في السر المعرفة أو اليقين أو الخوف أو الحياء أو المجاهدة أو المحاسبة. حينئذٍ يدبر العدو العقل ويتحكم الجهل في النفس[7]. من تخلص من الهوى خلص عمله وشاهد قلبه. تغلب الشهوة والهوى العقل والعلم والبيان. مخالفة الهوى هي عبادة الله[8]. فالعبادة تطويع النفس. ولا يُبطل الله صفات من يأخذ الشهوات في هوى النفس لكرمه، ولكنه يحرم أن يجدوا شيئاً في القلوب مما وجد الصدِّيقون على الضرورة. والله لا يعطي شيئاً لأصحاب الشهوة من مواريث القلوب.

وقد تعني النفس القوى الغضبية والشهوية. وهي النفس الخلقية التي يعتني الصوفية بتصفيتها ومجاهدتها. فهي أعدى الأعداء بين الجنبين[9]. إن عين الهوى عوراء لأنها ترى العالم بعين واحدة[10]. والمصاحبة والموافقة على المحبة،

(1) السابق، ص224.
(2) **اصطلاحات الصوفية**، ص105.
(3) **التستري**، ص226-227.
(4) السابق، ص257.
(5) السابق، ص286.
(6) السابق، ص328.
(7) السابق، ص370.
(8) السابق، ص354.
(9) **روضة الصالحين في الرسائل الفرائد**، ص1335-1336.
(10) يوسف بن الحسين البغدادي، **طبقات الصوفية**، ص189.

والمخالفة على الكراهية ومصاحبة للهوى وراحة الدنيا لخلو الحياة من الصراع[1]. أصل غلبة الهوى مفارقة الشهوات. فإذا غلب الهوى أظلم القلب ثم ضاق الصدر، ثم ساء الخلق، ثم بغض الخلق، ثم بغض الله، ثم جفاه ثم تحول الإنسان إلى شيطان[2]. ويترك الهوى لصالح الأمل[3]. والسفر ليس في المكان بل هو السفر عن الشهوات والمراد. السفر غربة، والغربة ذلة، والمؤمن لا يذل نفسه[4]. من بذل نفسه لهواه، وشغل عمره بمناه استعبده هواه واسترقه مناه[5]. فالإنسان سيد أهوائه وليس خادمها. ويشتمل الهوى اللذة والشهوة. فمن استولت عليه النفس صار للشهوات محصوراً في سجن الهوى، وحرم القلب من الفوائد، وفهم الكلام وإن كثر الورد على اللسان[6]. والشهوة أغلب سلطان على النفس ولا يزيلها إلا الخوف الشديد[7].

والأسير على أنواع: أسير النفس والشهوة، وأسير الشيطان والهوى، وأسير ما لا معنى له لفظه أو لحظه وهم الفساق. وما دام للشواهد على الأسرار أثر، وللأعراض على القلب خطر فهو محجوب بعيد عن عين الحقيقة. وما تورع المتورعون، ولا زهد المتزهدون، إلا لعظم الأعراض في أسرارهم. فمن أعرض عنها أدبا أو تورع عنها ظرفا فذلك الصادق في ورعه، والحكيم في أدبه[8]. أخف خلق من ضعف عن رد شهواته. وأقواهم من قوي على ردها[9]. الشهوة زمام الشيطان. فمن أخذ زمامه كان عبده[10]. ولماذا لا تكون الشهوة تعبيراً عن الرغبة، والرغبة عاطفة، والعاطفة وجدان، والوجدان حياة؟

(1) شاه الكرماني، السابق، ص192.
(2) أبو بكر الوراق، السابق، ص226.
(3) بندار بن الحسين الشيرازي، السابق، ص468.
(4) أبو عثمان المغربي، السابق، ص480.
(5) أبو عبد اللّه التروغبندي، السابق، ص494.
(6) أبو محمد الجريري، السابق، ص262.
(7) أبو الحسين الوراق النيسابوري، السابق، ص300.
(8) أبو بكر الواسطي، السابق، ص303.
(9) إبراهيم النصار، السابق، ص321.
(10) أبو بكر الكتاني، السابق، ص374.

والمحاسبة والموازنة في خمسة مواطن، الإيمان والكفر، والصدق، والكذب، والتوحيد، والشرك، والإخلاص، والرياء[1]. وأبلغ الأشياء بين الله والإنسان المحاسبة. فالله هو الضمير. وهو الذي يقوم بالمحاسبة ومراقبة الأفعال[2]. ومن صحّح باطنه بالمراقبة والإخلاص زيَّن اللّه ظاهره بالمجاهدة واتّباع السنَّة[3]. والمراقبة لمن لا يغيب عن النظر. في حين أن المراقبة للنفس المراقبة للذات. والمراقب هو الذات. رقابة داخلية وليس رقابة خارجية تبرر الرقابة الفكرية والإعلامية والسياسة. من راقب الله في خطرات قلبه عصمه الله في حركات جوارحه[4]. ولماذا لا تكون تنمية الفعل الإنساني من جهده أيضاً؟ فإذا كانت المراقبة القلبية عهده فعصمة الجوارح نتيجة طبيعية لها.

6 ـ النفس الأخلاقية

وتبدأ النفس الأخلاقية بتزكية النفس وقواها وأخلاقها نظراً لارتباط قوى النفس بعضها بالبعض الآخر. ولها مراتبها في مجاهدة الهوى والوصول إلى العقل[5].

النفس الأخلاقية هي الحامل للأخلاق وأداة للمعرفة في آن واحد. النفس الأخلاقية في التصوف الخلقي. والنفس المعرفية في التصوف الفلسفي[6]. النفس هي موطن الأخلاق[7]. وفي اللغة نفس الشيء وجوده، أي أن الأخلاق وجود. النفس حامل الفضائل والرذائل فطرةً أو اكتساباً. وفي الوقت نفسه، النفس أعدى الأعداء، تلزم مجاهدتها وتدبيرها[8]. إذا عرف العبد عيوب نفسه يقربه الله على

(1) المحاسبي، السابق، ص58، 60.
(2) محمد بن علي الترمذي، السابق، ص220.
(3) أبو سليمان الداراني، السابق، ص80.
(4) أبو العباس بن مسروق الطوسي، السابق، ص240.
(5) **الرسالة اللدنية**، **القصور العوالي**، ص97-122.
(6) ويحيل المحاسبي إلى كتاب **أخلاق الحكيم**، السابق، ص157. والمقامات والأحوال هي الخيط الرابط والمسار الطبيعي من المرحلة الأخلاقية إلى المرحلة النفسية. **ميزان العمل**، ص13-23.
(7) **القشيرية**، ص44-45.
(8) الغزالي: **سر العالمين**، ج2، ص86-90، 94-95.

قدر همته وإشرافه على نفسه الأمارة[1]، والتخلي عن الكبر والتكبر[2]، والسيطرة على الشهوات[3].

والنفس الخلقية على ثلاثة أنواع: النفس الأمَّارة بالسوء التي تتبع البدن وتلبِّي مطالبه، وهي أقرب إلى النفس النزوعية أو ما سماه الفلاسفة النفس الشهوية. والنفس اللوَّامة وهي التي تنورت بنور القلب، وانتبهت من الغفلة[4]. وهي صحوة الضمير، والمراجعة والمحاسبة والنقد الذاتي. والنفس المطمئنة، وهي التي استطاعت أن تخلع من الرذائل وتتمثَّل الفضائل. هي النفس الصافية الخالصة الكاملة التي في طريقها إلى الإنسان الكامل، النفس الأمارة بالسوء تأمره بالسيئات، والنفس اللوامة ترى أن الصواب في ترك السيئات، والنفس المطمئنة تداوم على الطاعات[5].

والنفس الأمَّارة بالسوء إحدى العوائق للوصول فإنها أضر الأعداء[6]. ويكسر هوى النفس ثلاثة أشياء[7]. قمع الشهوات، وحمل أثقال العبادات، والاستعانة بالله. ومن العقبات اشتغال النفس بالرزق. والحل التوكل والتفرغ للعبادة. والرزق مضمون ومقسوم ومملوك وموعود. والعلاج الانشغال بترويض النفس وألا تكون كحمار السوء إن شبع رمح وإن جاع نهق[8]. ويعني ذلك السيطرة على انفعالاتها وتهذيب شهواتها وأمن غوائلها[9].

---

(1) «إذا ما عرف عيوب نفسه فحينئذ يبلغ حد الرجال في هذا الأمر. فهذا مبلغه. ثم يقربه الحق تعالى على قدر همته وإشرافه على نفسه الأمَّارة». السابق، ص142.

(2) «ما دام العبد يظن أن في الخلق من هو أشر منه فهو تكبر». السابق، ص169.

(3) «لا يعرف نفسه من صحبته شهوته». السابق، ص169، 224.

(4) وتتداخل المرحلتان الخلقية والنفسية في القرن الثالث. فشطحات البسطامي (261هـ) إحدى أشكال التعبير في المرحلة النفسية وفي نفس الوقت ذروة المرحلة الأخلاقية عند المحاسبي (243هـ)، والترمذي (270هـ)، وأبي سعيد الخراز (277/ 299هـ). وفي المرحلة النفسية بقايا المرحلة الخلقية عند أبي سعيد الخراز، واستعداد للمرحلة الفلسفية عند أصحاب الشطحات وابن مسرة.

(5) **اصطلاحات الصوفية**، ص685-687.

(6) الغزالي: **منهاج العابدين**، ص38-40.

(7) السابق، ص89-91.

(8) كحمار السوء إن أشبعته رمح الناس وإن جاع نهق
السابق، ص80.

(9) توق نفسك لا تأمن غوائلها فالنفس أخبث من سبعين شيطانا
السابق، ص81.

مخالفة النفس جهاد وفرض عين[1]. وهي النفس صاحبة الأهواء، النفس الأمَّارة بالسوء نفس الشهوات[2]. ومنها تبدأ المجاهدة والرياضة، جوهرها الحرية وهي إحدى المقامات.

ومكابدة الهوى ضربان، مكابدة ما يدعو إليه الشيطان، ومكابدة تحمل الشدة والألم رغبة في طلب الرحمن. الأولى سلب والثانية إيجاب، وهي على وجهين: الأولى مكابدة من لم يتم له العلم بما يطلب وما يتطلب ما يطلب. والثانية يعرف قيمة ما يطلب. الأولى سلب والثانية إيجاب. وقد تكون في العاجل أو في الآجل. والثانية أفضل من الأولى. ويقوِّي على الطاعة ضروب: طاعة القلوب، وقوة العزيمة. وما أسهل من تحويل ومكابدة الهوى في النفس إلى مجاهدة العدو في الخارج[3].

ويظهر علاج النفس في المهلكات، وكفها عن الغيبة، وذلك بالتفكير في الوعيد[4]. ومن الأفضل عدم مطاوعة النفس. وللنفس حديثها الباطني. وهو ما يُسمَّى مناظرة النفس[5]. وهي قطعة أدبية تُغني عن الحوار الداخلي. أقرب إلى «المونولوج» منها إلى «الديالوج». هو خطاب موجَّه إلى القارئ لاستدراجه تحذيراً من تجربة اليهود السابقة، الانكباب على الدنيا أو من محاولات الحنفية والشفعوية والمعتزلة.

وعلاج النفس بالأدب والرياضة والمخالفة والمجاهدة. وعلاج الروح بالحق[6]. للنفس هوى، وللروح هوى، وللقلب هوى، ولكل حاجة هوى[7]. والصوفي هو الذي يسيطر على أهواء النفس والروح والقلب والجوارح.

النفس مثل الظل لو اتَّبعه الإنسان لن يلحقه. وإن تركه وراءه تبعه. فالإنسان

(1) **جامع الأصول في الأولياء**، ج2، ص203-212.
(2) السابق، ص384-387.
(3) المحاسبي، **المسائل**، ص69-72.
(4) **الأربعين في أصول الدين**، ص115-116، 124.
(5) السابق، ص264-266.
(6) **التستري**، ص339-340.
(7) السابق، ص365.

لا يتبع نفسه بل نفسه تتبعه. ولماذا النظر إلى النفس عيب ومذلة؟ وإن لم ينظر الإنسان إلى نفسه أولا وإلى العالم ثانيا فلمن ينظر؟ ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ وَفِيٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾، ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾[1].

وتتلقى النفس الأخلاقية المواعظ. تُرى النفس إذا شربت من مَعين القلب[2]. وتُرى النفس إذا انقطعت عن شهواتها. قتل النفس هو السيطرة على شهواتها[3]. الأنفس الصادقة هي النيات الخالصة عما يشوبها من الأكدار الموجبة لغيب القلب عن حضرة الرب[4]. والنفس الأخلاقية قاعدة على العلم. فالأخلاق شرط العلم[5]. والأخلاق شرط التصوف. ومفتاح لا إله إلا الله أربعة أشياء: صدق اللسان، القلب، والبطن، والعمل[6]. هو معرفة عيوب النفس وقوة الهمة عليها[7].

ولأهل الرعاية لحقوق الله منازل سبعة: الأولى عند ورود الخاطرات على القلب، العلل، والأسباب، والأوقات، والإرادات. والثانية إغفال الرعاية ضد الخاطرات في أعمال القلوب دون الجوارح. والثالثة إغفال الرعاية والمراقبة بسبب الكبر والعجب والحسد والشماتة وسؤ الظن. والرابعة إغفال المراقبة والرعاية لحقه، الهم دون التنفيذ. والخامسة إغفال المراقبة والبدأ بالعمل بالجوارح دون القلوب. والسادسة إغفال المراقبة والتقوى والاستخفاف والتوبة. والسابعة إغفال رعاية حقوق الله ثم الفزع والإقلاع[8]. ويكون ذلك بالاقبال على الله بالكلية، والوقوف بين يديه، والمسؤولية عن الأعمال، والاستعداد للمعاد، وعدم الغفلة،

---

(1) السابق، ص268.

(2) **مشرب الأرواح**، ص35-36، 138، 184، 204.

(3) السابق، ص209.

(4) **لطائف الأعلام**، جـ1، ص211.

(5) هي النفس إن ألفت هواها تضاعفت وأعطت فعلها كل ذرة
ابن الفارض، **نظم السلوك**، السابق، ص306.

(6) «صدقوا، ولكن لا يفتح المفتاح بغير مغلاق، ومغلاق لا إله إلا اللّه أربعة أشياء: لسان بغير كذب ولا غيبة، وقلب بغير مكر ولا خيانة، وبطن بغير حرام ولا شبهة، وعمل بغير هوى ولا بدعة». **شطحات**، ص182.

(7) السابق، ص183.

(8) «باب منازل أهل الرعاية لحقوق اللّه تعالى». السابق، ص144-147.

وضرورة التيقظ، والاستسلام لله، ودوام ذِكره وخدمته وحسن الظن به، وعدم إيثار أحد عليه، والصبر على البلاء، والرضا بحكم القضاء، والقناعة بعطاياه، والثقة بوعده ووعيده والتوكل عليه، والاستعانة به، والحذر منه، والهرب إليه، وتفويض الأمر له[1].

7 ـ النفس الناطقة

وقد يبلغ موضوع «النفس» درجة رئيسية وكأنه موضوع مستقل عن التصوف مثل وضع النفس وقواها في علوم الحكمة[2]. تجمع بين النفس المعرفية والنفس الأخلاقية. مستقلة عن البدن ومفارقة له، تثبت النفس أولاً باعتبارها جوهراً واعياً وملكة للإدراك، وبتميُّزها عن البدن كما هو الحال في الفلسفات المثالية المعاصرة. قواها إدراكية حسية أو ظاهرية باطنية أو عقلية. ويختلف الناس فيها بين الحس والتجريد[3]. وهي حامل العلم، أما النفس كمبادئ للأفعال فهي النفس الأخلاقية حاملة الرذائل والفضائل[4].

ويصعب التمييز بين النفس الخلقية والنفس المعرفية. فغلبة النفس وعداوة الشيطان في النفس الخلقية. وهي النفس الشهوية والغضبية التي تجوع وتعطش. هي النفس البهيمية. مهمة النفس العاقلة السيطرة عليها. فالأخلاق شرط المعرفة، والنفس الأخلاقية مقدمة إلى النفس المعرفية[5].

والإنسان حس وعقل وقلب ووهم وخيال وفكر أي قدرات معرفية قادرة على استقبال المعارف. لا تتكشف الذات الإلٰهية إلا في مرآة الذات الإنسانية، في علاقة متبادلة بين الذوات. وأقوى شر في الإنسان القوة الوهمية، والخيال هيولى العالم. مادة الوجود. الخيال ذات يخلق موضوعه[6]. الخيال أصل الوجود.

---

(1) **شطحات**، ص154.

(2) الغزالي: **معارج القدس في مدارج النفس**. انظر أيضاً: **من النقل إلى الإبداع**، مجـ3، **الإبداع**، جـ2، **الحكمة النظرية**، الفصل الثالث: «النفس»، ص547-675.

(3) السابق، ص19-61.

(4) السابق، ص61-106.

(5) الغزالي: **مكاشفة القلوب**، ص13-15.

(6) **الإنسان الكامل**، جـ2، ص13-29.

وهو خيال فردي وجماعي، فكل أمة من الأمم مقيدة بالخيال[1]. ويترقى الإنسان في وسائل المعرفة من أدناها إلى أعلاها حتى النفس الناطقة. وهي مفتوحة على العلم التام نقلاً وعقلاً[2]. وهو تنزل الروح من رتبة قريبة من النفس مناسبة لها بوجه ومناسبة للروح بوجه. ويسمَّى الوجه الأول الصدر، والثاني الفؤاد[3]. النفس الناطقة هي اللطيفة الإنسانية. وهي القلب والروح والصدر والفؤاد واللب وهي التي تتصدر العلم.

النفس الناطقة هي الكلمة الرحمانية[4]. والنفس الرحماني هو حضرة المعاني، التعيُّن الثاني. ينسب النفس إلى الرحمن في «النفس الرحماني»، أي ظهور الوجود الحقاني في مراتب التعيُّنات[5]. وهي النفس الكلية، الزمردة، الكوكب الدُّرِّي. وكوكب الصبح، أول ما يبدو من التجليات. ويطلق على الشخص المتحقق بمظهر النفس الكلية[6]. هي الياقوتة الحمراء.

وتتحول النفس إلى نظرية في السعادة. وتتمثَّل السعادة في اللقاء والرؤية[7]. فقد خلق الله الإنسان عن شيئين الجسم المظلم والنفس الجوهري (النوراني). النفس الروحاني هو الجوهر الكامل الفرد. وظيفة التذكر والتحفظ والتفكر والتمييز والرؤية. ويُسمَّى في النص «النفس المطمئنة»، وهي الروح أيضاً أو القلب بلغة الصوفية[8].

---

(1) لا تحقرن قدر الخيال فإنه — عين الحقيقة للوجود الحاكم....
إن الخيال حياة روح العالم — هو أصل فيك وأصله ابن الآدم
ليس الوجود سوى خيال عند من — يدري الخيال بقوة المتعاظم...
الإنسان الكامل، جـ2، ص25.
ألا أن الوجود بلا محال — خيال في خيال في خيال
السابق، ص26.

(2) **لطائف الأعلام**، جـ2، ص560.

(3) **اصطلاحات الصوفية**، ص73.

(4) **المسائل**، ص73.

(5) **مصطلحات الصوفية**، ص88.

(6) **لطائف الأعلام**، جـ2، ص415، 721. **جامع الأصول**، جـ3، ص88-89.

(7) **معارج القدس**، ص125-147.

(8) السابق، ص79-106.

وللنفوس مراتب في تحصيل العلوم[1]. النفس الفطرية هي نفس الأنبياء القادرة على العلوم الصحيحة في مقابل النفس المريضة. وتصح النفس بالرياضة والمجاهدة والمراقبة والتفكر، وليس فقط علم الآدمي هو العلم باللّه وبملائكته ومنقوشة بالحقائق[2]. بل أيضاً هو العلم بالله والتعظيم له، بالفكر والتفكر والانتقال من حال إلى حال. ولا يكون ذلك فقط بالصلاة «وجعلت قرة عيني في الصلاة»، بل بالتحول من الرأسي إلى الأفقي، ومن علاقة الإنسان بالله إلى علاقته بأخيه الإنسان كما يبدو ذلك من الأحاديث الثلاثة المستعملة. فأفضل الأعمال «أن تغيث ملهوفاً، أو أن تنصر أخاً لك»، وكذلك «الساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله القائم ليله، الصائم نهاره»، وأيضاً «الخلق عيال الله، فأحسن الخلق إليه أنفعهم لعياله». أفضل الأعمال نصرة المستضعفين، وإدخال الرفيق في الدين، والعطف على المساكين، وهو نوع من الجهاد في سبيل الله، المجاهدة لنيل ثوابه ولتجنب عقابه.

وأفضل الأعمال لكل زمان تعليم السنن والعطف على أهل العدم لأن الله لا تنفعه طاعة ولا تضرُّه معصية. طاعته جلب المنفعة لغيره ودرأ الضرر عنهم. والنفع على مراتب أعلاها العلم ثم مواساة أهل الحاجة الأرامل والأيتام. وأفضل عبادة بعد العلم بالله وإدخال السرور على قلب العباد الوقوف أمامه خشوعاً في الصلاة، «وجعلت قُرَّة عيني في الصلاة». لأنها الطريق إلى أعمال البر. «المصلي محرم، والمصلي ملب، والمصلي مجاهد، والمصلي صائم». والإخلاص في الصلاة ضربان: التوحيد أي لا يراد بالعمل إلا الله، والإخلاص في العمل، وإبعاد حديث النفس، وخواطرها من الوسواس عمداً أو سهواً. ومن همَّ بحسنة ولم يفعلها كُتبت له. ومن همَّ بها ولم يفعلها لم تُكتب له مما يدل على النزوع نحو الخير بالقصد والفعل.

ولكل عمل وإن قلَّ ثلاثة معانٍ: التوفيق، والقوة، والصبر. بداية الفعل ووسطه ونهايته. والطريق إلى الله الصدق والإخلاص وليس الذل والافتقار.والخلق محجوبون عن الله بثلاثة حجب: إياب معترضة، وشهوات جاذبة، وعادات راجعة صادرة.

---

(1) السابق، ص118.

(2) **رسالة في اعتقاد الحكماء**، ص270.

8 ـ معرفة النفس

التنبيه على معرفة النفس وسوء أفعالها ودعائها إلى هواها يكون عن طريق العزم في حال الرضا مبذولاً على الحلم. والإخلاص قبل العمل يساعد على ذلك، والورع في حال العدم. والزهد قبل الملك، والرضا في حال الرخاء، والتوكل على الله، وتذكر الوعد والوعيد. ومن ثم الحذر في النفس ضروري بعد معرفتها[1]. وينتهي الموضوع بإعطاء بعض النصائح. فلا فرق بين التحليل النفسي والنصح الأخلاقي.

و«معرفة النفس» بقدرها وسوء رغبتها وأفعالها هو «ازدراء على النفس»، واستثقال لطريق النجاة وكراهة حمل المؤن، واستخفافها بهلاكها، وانكبابها على الدنيا، «الجنة حفت بالمكاره، والنار حفت بالشهوات»، فطريق النجاة إقدام النفس، وطريق الهلاك إتباع أهوائها[2].

وحديث النفس عند الصدِّيقين جريمة. والسكون إلى النفس القول بأنهم يفعلون. وهو ما لا يمكن ضمانه. فعلى أي شيء يعتمد الإنسان إن لم يعتمد على نفسه؟ والقول بلا فعل رذيلة بنص القرآن ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ﴾[3]. وأسوأ المعاصي حديث النفس وكأن النفس شريرة بالضرورة مع أن النفس خيرة بالطبع[4]. ومن علم من النفس ما يعلم ثم حثها على غيره قد أحب ما أبغض الله[5].

ومن أزال التدبير بينه وبين نفسه رفع الحجاب فيما بينه وبين ربه. وهل رفع الحجاب يتمُّ بترك فعل الذات؟ خلق الله الخلق، ولم يحجبهم عن نفسه. وجعل حجابهم تدبيرهم. الخلق منقطعون عن الله بتدبيرهم. من ترك التدبير فهو بديل، بديل عن الله أو البدل الصوفي، نسي العبد مولاه فدبر. ترك التدبير أسباب الهلاك، وهو الطريق إلى الحلال. والنفس تحت حجب. وكشف الحجاب من أجل

---

(1) كتاب **التنبيه على معرفة النفس وسوء أفعالها ودعائها إلى هواها**. السابق، ص384-395.

(2) السابق، ص148-154.

(3) **التستري**، ص296.

(4) السابق، ص299.

(5) أبو حمزة الخراساني.

رؤية النفس وتدبيرها[1]. وأقسى عذاب ذل الحجاب[2]. وإذا ظهر الحق تلاشى كل ما حجب وستر[3]. والعجب بالنفس يؤدي إلى الحجب عن الرب[4]. كل مدع محجوب بدعواه عن شهود الحق، فالحق شاهد على التقوى. ويُدعى فقط إذا كان غائباً بعيداً، وليس حاضراً قريباً[5].

ومعرفة النفس شرط عدم الغرور. معرفة النفس معرفة لقدرها وإمكانياتها دون الدعاء. إنما الجهل بها هو الذي يؤدي إلى الغرور أي ادعاء قدرات وإمكانيات ليست فيها. وأعظم ابتلاء للعبد الغفلة والقسوة أي عدم الانتباه أو الانتباه الزائد[6].

وإذا كان العلم قائدا والخوف سائدا فالنفس حرون به ذلك. جموح خداعة رواغة. الحذر منها. والسياسة بالعلم ترعاها. وتهديد الخوف يسرقها لتحقيق المراد[7]. العلم يتوجه نحو العمل، ولكن الخوف انفصال سلبي، لا يدعو إلى الاطمئنان. والنفس ليست بهذا السوء جموح خداعة مراوغة. والنفس هي أيضاً الإرادة، إرادة الاستغناء عن الأشياء. هي استقلال الوعي الذاتي الذي يعطي الثقة بالنفس والعزة ويحميها من التبعية والذل[8].

النفس مثل ماء واقف طاهر صاف. فإذا ما تحرك ظهر ما تحته من الحمأة. والنفس أيضاً تظهر عند المحن والفاقة والخالفة. ومعرفة النفس معرفة الرب[9]. النفس كالنار. إذا أطفئت من موضع تأججت من موضع آخر. إذا هدأت من جانب ثارت من جانب آخر[10]. النفس شعلة، نور ونار، تضيء وتحرق.

---

(1) ذو النون، **طبقات الصوفية**، ص18.
(2) السرقسطي، السابق، ص51.
(3) أبو الحسن الثوري، السابق، ص167.
(4) شاه الكرماني، السابق، ص194.
(5) ذو النون، السابق، ص22.
(6) أحمد بن أبي الحواري، السابق، ص101.
(7) عمرو بن عثمان المكي، السابق، ص203.
(8) محمد بن الفضل البلخي، السابق، ص217.
(9) أبو سعيد الخراز، السابق، ص230-231.
(10) أبو بكر الطمستاني، السابق، ص474.

والنفس بين العقل والهوى، يتنازعان. وعين العقل التوفيق، وقرين الهوى الخذلان. والنفس بينهما. فأيهما ظفرا انضمت إليه وكأن النفس ليست بواعث ودوافع وإرادات ورغبات وقدرة على الاختيار[1]. النفس أولى شيء بالإمساك، والهوى أولى شيء بالغلبة[2]. وهل الأخلاق بالضرورة أخلاق منع وقهر وغلبة؟ ألا يكون هذا النوع من الأخلاق مقدمة للقهر السياسي؟

ونصيحة النفس كرم لها، والتشاغل عنها هوان[3]. ليس للإنسان في عمر واحد إلا نفس واحدة تفنى فيما له ولا تفنى فيما عليه[4]. ويعني الفناء «لـ» نفي الذات. ويعني البقاء «على» بقاء الذات.

والسياحة بالنفس لآداب الظواهر علما وشرعا وخلقا، والسياحة بالقلب لآداب البواطن حالا ووجدا وكشفا[5]. والسبيل إلى العمل بذلك لزوم منهج الأئمة المتقين والنظر في آداب المسترشدين. والعمل بالإنصاف، وكف الأذى، وترك المنّة والقناعة وطول الصمت والتواضع والأنس. وهو أحد الأحوال والمراقبة والاستقامة[6]. النفس سائرة بالإنسان، والقلب طائر به، ويختار الإنسان الأسرع وصولاً.

والتحول من أعمال الجوارح إلى أعمال القلوب استمرار للفرائض على السمع والبصر واللسان والغذاء واللباس. فضول السمع والبصر يخرج إلى السهو والغفلة، وترك تسرق الكلام والنظر. وفضول البصر يخرج إلى الغفلة والحيرة. وفرض الغض عن المحارم،وترك المستور، وفضول اللسان يخرج إلى التزيد والبدعة. وفرض الصدق في الرضا والغضب، وكف الأذى في السر والعلانية، وترك التزيد في الخير والشر، وفضول الغذاء يخرج إلى الشره والرغبة. وفضول اللباس يخرج إلى المباهاة والخيلاء، وفرض الشح كل ما حل استماعه ونظره، وفرض اليدين والرجلين عدم السعي إلى محظور أو الإحجام عن الحق[7].

(1) علي بن سهل الأصفهاني، السابق ص235.
(2) أبو علي الثقفي، السابق، ص365.
(3) أبو حمزة الخراساني، السابق، ص326.
(4) مظفر القرمسيني، السابق، ص398.
(5) أبو إسحق إبراهيم بن المولد، السابق، ص413.
(6) **المسترشدين**، ص122-129.
(7) السابق، ص111، 114، 122.

ويُطلب الإيمان من الروح، والإقرار من النفس دون زيادة. خلق النفس من طين، وغذاؤها من طين، وثبات العقل فيها قوامه من الطين، وآخرها الطين، ولكنها مدعاة إلى الوحي واتّباع الأمر واجتناب النهي.

معرفة النفس: هي مراقبتها ومحاسبتها للوصول إلى الطمأنينة والسكينة قبل معرفة الله. فالطريق هو من الخارج إلى الداخل ثم من الداخل إلى أعلى. والمراقبة مذكورة في القرآن والحديث[1]. وشرطها العلم واليقين بأن الله مطلع على ما في القلوب، يلقي فيها ما يشاء. وذرة من الله في القلب خير من طلوع الشمس أمام العين. وكل الأحوال على ثلاث درجات قبل كل المقامات، والمراقبة على ثلاث مراتب؛ وعلى الإنسان حفظ السرائر، والله مطلع على الضمائر. الأولى البداية وهو حال العامة، والثانية حال الخاصة مراقبة الحق بالحق في نفاء ما دون الحق، ومتابعة الرسول في أفعاله وأخلاقه وآدابه. والثالثة حال خاصة الخاصة، مراقبة الله وسؤاله الرعاية، مراقبة الله فيما أخذ وفيما أعطى[2].

والمراقبة ليست مقاماً ولا حالاً بل مراجعة النفس في النظر والعمل. ومن لاحظ الأعمال تحجب عن المعمول له. ومن لاحظ المعمول له تحجب عنه رؤية الأعمال. ومن لاحظ الأعمال حجب عن الجَمال. ومن غمض عن الله طرفة عين لم يهتد إليه. ومن راقب اللّه عند خطرات قلب عصمه عند حركات جوارحه. وتقترن المراقبة بالحياء. وكلاهما يقرنان بالإحسان لأنه غايتهما. كما أن الرعاية والحرمة والأدب من نتائجها. الحياء أول مقام من مقامات المقربين كما أن التوبة أول مقام من مقامات المتقين، الحياء هو الخجل من النفس ومن الله[3]. هو سلوك إنساني مع الحقوق والرجاء والتعظيم. والمراقبة درجتان[4]. مراقبة الصدِّيقين ومراقبة أصحاب اليمين. الأولى للمقربين والثانية للورعين. توقظ النائم. والفقراء ليسوا بنيام. فقد يظل الوعي يقظاً بصرف النظر عن الوضع المادي للجسم.

---

(1) **اللمع**، ص82-83.
(2) ابن عربي، **الوصايا**، ص32.
(3) **الولاية**، ص245.
(4) **روضه الطالبين، الرسائل الفرائد**، ص153-159.

والمحاسبة النظر والتثبت بالتمييز بين ما كرهه الله وما يجب. وواضح أن الأخلاق لم تعد بُعداً في ذاتها بل هي دائماً من وجهة نظر الله. فهي أخلاق الهيبة لم تتحول بعدُ إلى أخلاق إنسانية. وهي على وجهين. الأول في مستقبل الأعمال والثاني في مستدبرها. وكلاهما منصوص ومجمع عليهما. واللفظ قرآني مما يدل على خروج التصوف من الموروث على مستوى اللفظ بل والمعنى من الشيء أيضاً. ويدعمها أقوال الصحابة الأوائل. وتعود الذاكرة إلى أقوال الأنبياء والحكماء السابقين. فالحكمة واحدة. ويتحول الخطاب بهذه المصادر إلى خطاب ديني وعظي أشبه بخطب الجمعة الآن. وقد يضيع التحليل النظري والنفسي وراء هذا الركام الضخم من الأقوال والروايات المجمعة. بل وقد تدخل الإسرائيليات في روايات اللَّه مع موسى[1].

والمحاسبة وزن الأعمال وتقييمها. وجعل الذات حَكَماً ومحكوماً في نفس الوقت، ذاتاً وموضوعاً. والدافع معرفة الإنسان ذنوبه، والرغبة في الكمال، وإصلاح النفس بالنفس تدريجياً نحو الأفضل. المحاسبة أصل. قد يرتكن على الإيمان. الإيمان باطن، والمحاسبة ظاهر. تكتفي المحاسبة بالأساس الأخلاقي دون الديني. المحاسبة هي الإنابة والمراقبة، الإنابة أي تفويض الأمر إلى الله. والمراقبة، مراقبة النفس. ومحاسبة النفس سابقة على محاسبة الغير لها[2]. والالتزام بالمحاسبة يجعل الله يرى وينظر جميع الأحوال فتُرفع المحاسبة.

والمحاسبة نوعان، محاسبة الإنسان بينه وبين الله في القلب، وهو سر المحاسبة بين الإنسان والخلق في الجوراح، في الأخذ والعطاء والمعاملة والمعاشرة. المحاسبة ليست فقط أخلاقاً بل هي أيضاً حقوق[3].

والمحاسبة سر بين الإنسان ونفسه. أما الموازنة فللتمييز بين الفرض والسنَّة والنوافل. المحاسبة أخلاق، والموازنة شريعة. المحاسبة إذا وقع شيء في السر لا يظهر في العلن، والموازنة بين الفرض والسنَّة والنوافل في العلن[4].

(1) «باب محاسبة العبد نفسه في أعماله». السابق، ص54-62.
(2) **التستري**، ص118-119.
(3) السابق، ص201.
(4) السابق، ص271-272.

ويعرف العبد ذنوبه إذا حفظ أبواب قلبه فلم يترك شيئاً عليه ولا يخرج منه إلا بوزن. وهذه هي الموازنة.

المحاسبة الوقوف عند الهمِّ بعلم القيام. وعند قيام الله ينظر إلى ما يدعو فإن كان خيراً أجابه وإن استعان به وتضرع وجعل وقوفه على علمه فهو حاله[1]. ألزم قوم أنفسهم المحاسبة حتى ورثوا هذا العلم فينظر إليهم الله في جميع أحوالهم ويرفع عنهم المحاسبة. فالمحاسبة طريق إلى الله[2].

والمحاسبة في كل خطوة تساعد على الاطمئنان إلى صفاء الضمير. وترك محاسبة النفس أصل فساد القلب، والاغترار بطول الأمل. هي علم النفس بخطيئته وعدم الإصرار على صغيرة، والحذر من مدح النفس، وخوف الفقر بقرب الأجل، وإخفاء الأثر قدر الاستطاعة، وعدم إظهار الشكوى لأحد، وعدم أكل الدنيا بالدين، وعدم أكل إلا الحلال، ومجانبة الإسراف، والامتناع عن الدنيا بالكفاف[3].

والمراقبة مثل المحاسبة، وحساب النفس لذاتها قبل أن يحاسبها غيرها ووزنها لنفسها قبل أن يزنها غيرها. المراقب لا يخاف قوت الدنيا، إنما يخاف قوت الآخرة، والمراقبة حال، والثقة شعار[4].

والطمأنينة لفظ قرآني، يعني الطمأنينة بالإيمان. وإحراز القوت ومعرفة مصدره يدعو إلى الاطمئنان. هو حال رفيع لإنسان رجح عقله، وقوي إيمانه، ورسخ عليه، وصفا ذكره، وثبتت حقيقته. وهي على ثلاثة ضروب. الأول للعامة وهي الطمأنينة بذكر الله لحظوظهم منه، والاستجابة لدعواتهم باتساع الرزق ودفع الآفات. والثاني للخاصة وهو الرضاء بقضاء الله، والصبر على بلائه، والإخلاص والتقوى والسكينة، والاطمئنان إليه. والثالث لخاصة الخاصة الذين لا تقدر سرائرهم على الاطمئنان لله أو السكون معه هيبة وتعظيماً.

الطمأنينة سكون يقوِّيه الإحساس بالأمن. السكينة صولة تورث الهيبة والطمأنينة سكون أمن وراحة أنس. السكينة نعت حيناً بعد حين والطمأنينة نعت

---

(1) السابق، ص284.
(2) السابق، ص310-361.
(3) **رسالة التصوف**، ص46، 110، 130-132، 151-153، 168-170.
(4) السابق، ص48، 91، 105-106.

مستمر لا يزول وهي على ثلاث درجات: الأولى طمأنينة القلب بذِكر الله، وطمأنينة الخائف إلى الرجاء، والضجر إلى الحلم، والمبتلي إلى التوبة. والثانية طمأنينة الروح في القصد إلى الكشف، وفي الشوق إلى العدة، وفي التفرقة إلى الجمع. والثالثة طمأنينة شهود الحضرة والجمع إلى البقاء أو المقام إلى نور الأزل[1]. الطمأنينة إلى الخلق عجز لأنها لا تكون إلا الله[2].

الطمأنينة راحة داخلية، لسلامة القلب، وصفاء الضمير ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾، وهي أيضاً السكينة التي تملأُ القلب[3]. ولا تبدأ الطمأنينة إلا بعد التوقف عن مطالبة النفس وإثارة القلق والهمم والخوف. وهل الإنسان بلا قلق يكون إنساناً؟ إنها فضيلة في الديانات الشرقية في حالة «النيرفانا»، حالة الفناء[4]. وهي لا تختلف من حالة الفتور أو اللامبالاة التي حاربها الكواكبي في **أم القرى**. والعقل يدل على ثلاثة مطالب: علم يدل على العمل، وعلم يدل على التعليم، ثم اطمئنان القلب وسكون العقل. لا تُعطى الطمأنينة إلا إذا قُطعت عن النفس مطالبها. مع أن مطالب النفس إمكانية للتحقق[5]. ولا تُعطى الطمأنينة إلا بطلب العلم من متورع مخلص موقن بالثواب والعقاب. فالطمأنينة بعد الخوف. ولا يعرف الرياء إلا مخلص، ولا الإخلاص إلا نبي أو صديق، ولا النفاق إلا مؤمن، ولا الشك إلا موقن، ولا الكفر إلا مسلم، ولا الجهل إلا عالم، ولا المعصية إلا مطيع. فالمعرفة بالتضاد[6].

وكل سكينة لا تنقل بالطمأنينة فهي باطلة[7]. وهما من نوع واحد، وكل سكون يتصل بالسكينة، وكل طمأنينة تتصل بالله[8].

---

(1) **اللمع**، ص98-99. الهروي: **منازل السائرين**، ص31.

(2) أبو عمرو إسماعيل بن نجيد، **طبقات الصوفية**، ص457.

(3) وهو مذهب Quiétisme الذي عُرف في القرن السادس عشر في الغرب في التصوف الأخلاقي.

(4) «إذا أطمأن العقل بالله سكن بالعقل، ولم يحركه شيء». **القشيرية**، ص119.

(5) **التستري**، ص272.

(6) السابق، ص119.

(7) السابق، ص355.

(8) السابق، ص271.

والسكينة لفظ قرآني، يعني ثلاثة أشياء. ريح هفافة عند بني إسرائيل، ومعجزة للأنبياء وكرامة للملوك، وإثر نصر تهب على تابوت العهد. تخلع قلوب العدو بصوتها رعبا. والثاني عند المحدثين من صنع الحق، وتنزل على قلوب الأنبياء. والثالث ما ينزل على قلب النبي وقلوب المؤمنين، أقرب إلى النور والقوة. ومنها خرجت سكينة الوقار. وهي على ثلاث درجات: الأولى الخشوع حين الخدمة رعاية وتعظيماً وحضوراً[1]. والثانية السكينة عند المعاملة، محاسبة للنفس، وملاحظة للخلق، ومراقبة للحق. والثالثة الرضى بالقسمة، تنزل في قلب كل نبي أو ولي[2].

وإذا كانت السكينة تعني اللّه والصفاء والاطمئنان فهي قيمة إيجابية. وإذا كانت تعني الاستكانة واللامبالاة فهي قيمة سلبية. السكينة هي الوجد بالله. والوجد حالة من السكينة، الدخول إلى باب المعرفة وعدم الخروج منه. السكينة تقوى وكشف حجاب. والصبر من السكينة. فالسكينة أم الفضائل[3].

9 ـ معرفة اللّه

ومعرفة النفس طريق إلى معرفة الله. ليست فقط نظرية في المعرفة أو السعادة بل هي أيضاً نظرية في الوجود[4]. وهو أسلم طريق لعدم الوقوع في الحلولية[5]. ولا يتطلب ذلك الفناء عن النفس[6]. بل إن إثبات الوجود وإثبات الفناء شرك.

---

(1) السابق، ص271.

(2) الهروي: **منازل السائرين**، ص30-31.

(3) «موقف السكينة»، **المواقف**، ص150-151. انظر بحثنا: «عن اللامبالاة، بحث فلسفي»، **قضايا معاصرة**، جـ1، في «فكرنا المعاصر»، ص177-195.

(4) لذلك سمّى ابن عربي رسالته، «من عرف نفسه فقد عرف ربه»، **الرسالة الوجودية**.

(5) «فأفهم هذا لئلا تقع في غلط الحلولية، لا هو في شيء وشيء فيه لا داخلاً ولا خارجاً ينبغي أن نعرفه بهذه الصفة، لا بالعلم ولا بالعقل، ولا بالفهم، ولا بالوهم ولا بالعين ولا بالحس الظاهر ولا بالعين الباطن ولا بالإدراك. لا يراه إلا هو، ولا يدركه إلا هو، ولا يعلمه إلا هو. بنفسه وبنفسه يعرف نفسه، يرى نفسه، لا يراه أحد غيره...». السابق، ص2.

(6) «وأكثر العراف أضافوا معرفة اللّه إلى فناء الوجود، وفناء الفناء. وذلك غلط وسهو واضح. فإن معرفة اللّه لا تحتاج إلى فناء الوجود ولا إلى فناء فنائه لأن الشيء لا وجود له وما لا وجود له لا فناء له. فإن الفناء بعد إثبات الوجود. فإذا عرفت نفسك بلا وجود ولا فناء =

إثبات وجود النفس هو إثبات وجود الله في آن واحد[1]. ولهذا شطح بعض الصوفية في قولهم «أنا الحق»، «سبحاني» ولا يجوز سب الدهر لأن الله هو الدهر[2]. الحق هو الخلق. الرائي هو المرئي، والواجد هو الموجود. العارف والمعروف واحد[3]. ولا يعرف الحب بالنظر العقلي بل بالكشف.

معرفة الله مشروطة بمعرفة النفس طبقاً للقول المأثور: «من عرف نفسه فقد عرف ربه»[4]. حديث النفس عن المولى يُرد إلى النفس. فالحديث من الله حديث عن النفس[5]. واتصال الروح بالروح أو الشيء بالشيء هو القادر على تجاوز الموت. فلا يموت في الدنيا من يعرف الله. الذاكرة لا تموت. ويبقى اتصال الإنسان بالله. ومن هنا نشأت الكرامات. الاتصال بالله، ومنح الله قدرة المشي على الماء والهواء، والذهاب إلى مكة قاعداً دون أن يتحرك.

يدعو الله العبد إلى رحمة الرحمانية، وشراب الرأفة، والخروج من الهم للخروج من الحد. وأحياناً تكون المعرفة متبادلة. بقدْر ما يعرف الإنسان نفسه يعرف الله. وبقدْر ما يعرف الله يعرف نفسه. ويدعو الله العبد إلى معرفته نفسه بمعرفة الله. فمن عرف ربه عرف نفسه، وليس من عرف نفسه فقد عرف ربه. ومن لم يعرف الله لا يعرف كيف يعمل. وإذا عرف منزلته من الله عرف المراتب والمقامات، مراتب العزة والتحقيق. ومعرفة النفس تثبيت للإقدام، وتسكين للقلب، وتحمل للصبر. وأشهده الله محل العلم، وكان من شهوده على العالمين، ورفيق

= عرفت اللَّه». السابق، ص3. «ولظنهم أنهم بمجرد الشرك أشاروا طوراً إلى نفي الوجود أي فناء الوجود، وطوراً إلى الفناء، وطوراً إلى فناء، والفناء طوراً إلى المحو، وطوراً إلى الاصطلاح. وهذه الإشارات كلها شرك محض. فإن من جوز أن يكون شيء سواه ويفنى بعده وجوز فناء فنائه فقد أثبت شيئاً سواه، ومن أثبت شيئاً سواه فقد أشرك به». السابق، ص10.

(1) «ومتى يكشف لك هذا السر علمت أنك لست ما سوى اللَّه، وعلمت أنك كنت مقصوداً، وأنك لا تحتاج إلى الفناء، وانك لم تزل ولا تزال بلا حين ولا أوان». السابق، ص5.

(2) وهو معنى حديث «لا تسبُّوا الدهر فإن اللَّه هو الدهر». السابق، ص6.

(3) «إن الرائي والمرئي، والواجد والموجود، والعارف والمعروف، والموحد والمدرك واحد. هو يرى وجوده بوجوده، ويعرف وجوده بوجوده، ويدرك وجوده بوجوده، بلا كيفية إدراك ورؤية ومعرفة...». السابق، ص11-12.

(4) الغزالي: **معارج القدس**، ص148-158.

(5) وهو موقف أوغسطين نفسه في محاورة «المعلم»، **نماذج من الفلسفة المسيحية**، ص34-99.

النبيين. وتعرف الله على الإنسان لمعرفة مدى القُرب والبُعد عنه. ويدعوه إلى اللجوء إليه في كل حال، والقصد إليه، والتحقق به، ورفع الحجاب بينه وبينه. والله أولى من العبد في علمه وعمله ورؤيته[1].

وبقاء العبد في رؤية الله تجعله قادراً مثله، الله صاحب السر والعلن، الوحدة والجمع، الخلوة والملاء[2]. وإن لم يدر العبد من هو بالنسبة إلى الله فلا هو منه، ولا الله منه[3].

وللقلب السليم ثلاث خصال: إتيان المقدور فيأمن الإنسان ما يفوته، وعدم اليأس مما فاته، والحذر من الله لإيقاظه، وحضور الله في ضميره.

النفَس وهو ليس الهواء الداخل في الصدر أو الخارج منه، بل هو دلالة على «ترويح القلوب بلطائف الغيوب». وصاحب الأنفاس أرقى وأصفى من صاحب الأحوال. صاحب الوقت مبتدئ، وصاحب الأنفاس مُنْتهٍ، وصاحب الأحوال بينهما. فالأحوال وسائط. الأوقات لأصحاب القلوب، والأحوال لأرباب الأرواح، والأنفاس لأهل السرائر. وأفضل العبادات عند الأنفاس مع الله. العارف لا يسلم له النفس لأنه لا مسامحة تجري معه. والمحب لا يدله من نفس وإلا تلاشى لعدم طاقته. خلق الله القلوب وجعلها معادن المعرفة. وخلق الأسرار وراءها وجعلها محل التوحيد. فكل نفس حصل من غير دلالة المعرفة إشارة التوحيد اضطراراً فهو ميت[4].

والمعراج الأول في «معارج السالكين» هو معراج النفس لرفع الحجب عنها، وفك ارتباطها بالجسم. والإنسان الأصلي ليس هو هذا الهيكل الظاهري بل هو الحقيقة الكبرى وراء هذا الشكل. اختاره الله لنفسه، وخصّه بتجليه[5]. والمعراج الثاني أيضاً في النفس والاستدلال على بقائها حتى تثبت النبوة وأمور المعاد، ابتداء من إثبات قوى النفس وأنها جوهر قائم مستقل عن البدن ومحركة له[6].

---

(1) مخاطبة، ص206-208.

(2) السابق، ص244.

(3) «يا عبد إن لم تدر من أنت فلا أنا منك ولا أنت مني». السابق، ص226.

(4) **القشيرية**، ص43، وهي المعروف في الثقافة اليونانية باسم Π ν ευma.

(5) **معراج السالكين، الرسائل الفرائد**، ص224-236.

(6) السابق، ص236-249.

لا يخرج العبد من ذكر الله في غيبته. وفي نفس الوقت محبة الله للعبد نصره له. فكل شيء متبادل، المعرفة والمحبة والإرادة والوجود.

والله هو الناطق الحاكم، الصامد الكاتب[1]. لا تحيط به العلوم فتحصره. لا يُدرك تقلب القلوب فيشير إليه. علامة معرفته الزهد في كل معرفة وعدم المغالاة بأي معرفة سواه، في الله لا توجد أضداد. يتساوى فيه الخوف والأمن.

ولا أعجز من عبد نسي فضل ربه، وعدًّ عليه تسبيحه وتكبيره. وهو ما يتجاوز الحياء أكثر مما هو طلب ثواب أو تجنب عقاب[2]. لا يجد الإنسان لذة المعاملة مع لذة النفس لقطع أهل الحقائق العلائق عن الحق والخلق[3]. ولا يمكن الخروج من النفس بالنفس بل يمكن الخروج من النفس بالله بصحبة الإرادة[4]. فالنفس هنا رغبة وقوة وإرادة للاتجاه إلى أعلى. وعدم مخاصمة النفس لأنها لمالكها يفعل بها ما يريد، وكأن النفس ليس لها استقلالها الذاتي، لا تملك ذاتها بل يملكها غيرها. بل إن المالك المتخيل جزء من النفس[5].

ولماذا الإشغال بالنفس انقطاع عن عبادة الرب؟ وماذا عن حديث «من عرف نفسه فقد عرف ربه»؟ وماذا عن الدليل الأنطولوجي عند المحدثين، ووجود فكرة موجود كامل في النفس؟

وكيف تكون النعمة العظمى الخروج من النفس لأن النفس أعظم حجاب بين الإنسان والله والنظر إلى النفس اكتشاف للعالم ولله ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ وَفِيٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾. ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمْ﴾.

ويُعرف التثبيت عندما تدعو النفس وعدها إلى عمل فينظر إذا كان مما كرهه الله أو أحبه. ويستدرك هذه الخلال الست إذا ما عرض له البلاء. والشواهد على ذلك كثيرة من القرآن بتفسير أخلاقي له. وهنا يقلُّ التنظير، ويكثُر الاستشهاد بالنصوص مما يبرِّر نشأة المرحلة الفلسفية مثل الكلام الفلسفي.

---

(1) **مخاطبة 1**، ص206، 212-213.
(2) أبو سعيد بن الأعرابي، **طبقات الصوفية**، ص429.
(3) جعفر بن محمد الخلدي، السابق، ص436.
(4) أبو بكر الطمستاني، السابق، ص471-472.
(5) بندار بن الحسين الشيرازي، السابق، ص468.

إن التزم القلب بالاهتمام والحذر أيقظاه في المستقبل(1). والدليل على ذلك أن المستقبل يوقظ كما يستيقظ النائم قبل الفجر في نهاية الليل وقبل إشراق الصباح(2).

وحقوق النفس هي حقوق الله. وحقوق الله هي حقوق النفس. ومعرفة التذكر بمعرفة الأحوال الماضية عن طريق استدعاء الذكريات، فقد يتم اكتشاف التضييع لحقوق الله وكثرة الذنوب(3). وتعرف حقوق الله بأسبابها وأوقاتها وعللها وإرادتها وترتيبها في القيام بها وعللها. فهي ليست مجرد أفعال صورية آلية بل أفعال قائمة في الواقع تعبر عن بنية الوجود الإنساني في العالم. فلكل فرض سبب وعلة وإرادة وترتيب وطريق لرعايته(4).

ويفزع العبد إلى الله فيفتقر إليه عندما يهيج الرجاء. والمثل من الإسرائيليات حول سليمان. والفزع إليه يدل على التوبة المفاجئة في الحال، والحركة الفجائية لسلوك الطريق، والرجوع إلى الله وتغيير التوجه والقصد «خلفاً در» والتوكل عليه. ويعجب الشيطان من هذه القفزة كما تعجب النفس باستعظام هذه «المقامات». ويظهر لفظ «المقام» جمعا لأول مرة من خلال وصف الطريق. وتتم معرفة التنبيه واليقظة من الله على الخطر العظيم. فالله يتدخل في أحوال النفس(5).

وما يجب أن يلزم القلب عند معرفة النفس والخلال التي يكون عنها نقض العزم عن الطاعة والاهتمام بالتيقظ والحذر بتصحيح التوبة أن يعلم أن اللَّه تعالى معنا في المستقبل، وأن عدوه مازال بالمرصاد، وأن طبعه مازال قائماً، وأن الدنيا مازالت بزينتها، وأن الطريق مازال طويلاً لرعاية حقوق الله. وليس أمامه إلا التيقظ من الغفلة والذكر من النسيان. والطريق إلى ذلك الاهتمام والحذر. هنا ينقلب الصراع من الخارج إلى الداخل، ومن العالم إلى النفس. وماذا يفيد الإنسان أن يكسب العالم ويخسر نفسه؟ والاهتمام بالوفاء بالعزم والحذر من نقضه. ونقض

(1) «باب معرفة هل يعطي الحذر والاهتمام فيما يستقبل وبالدليل على ذلك؟»، السابق، ص94-95.
(2) «باب معرفة التثبيت وعند ماذا يثبت»، السابق، ص96-102.
(3) «باب معرفة التذكر بمعرفة أحواله»، السابق، ص84-86.
(4) «باب معرفة حقوق اللَّه بأسبابها وأوقاتها وعللها وإرادتها وترتيبها في القيام بها والرعاية لها»، السابق، ص103-104.
(5) «باب معرفة متى يفزع العبد إلى اللَّه تعالى فيفتقر إليه»، ص87-90.

العزم يوجب القلب الحذر بست خصال: الحذر من العود إلى الذنب الذي عقد العزم على تركه، قضاء الذنب عن العمر يستره الهوى والشهوة بعد التوبة، عرض ذنب جديد، تضييع حق الله بما أوجب العمل به، تضييع الحق وستر النفس عليه والارتكان إلى الراحة، الابتلاء بشيء لم يبتل به من قبل، فإن تحذر من ذلك تيقظ القلب وأتى الذِكر، وحضر التثبيت، وأتى التفقد، وحضر العلم، وتبين الذِكر، وحضر الخوف، وظهر التمييز[1].

وتراعى حقوق الله أيضاً عند الخاطرات في اعتقاد القلوب. والمعرفة بحركات الجوارح. فالحق ظاهر في الجوارح، وباطن في القلوب. يمكن التثبت بالخاطرات بالعلم. تبدأ من النفس أو العقل أو من العدو. وهي على ثلاثة أنواع: تنبيه من الله، وأمر من النفس، وتزيين ووسوسة من الشيطان. والتثبيت حبس النفس قبل الفعل، وترك العجلة أي الصبر قبل الفعل. وهنا يتخلق الصبر كموضوع قبل أن يصاغ كمقام. وحبس النفس بذكرها الله والخوف منه. وباجتماع العقل والعلم والتثبيت يُرى الضرر والنفع[2]. والراغبون لحقوق الله في رد الخاطرات وقبولها في أعمال القلوب والجوارح على قدر منازل أهل القوة والضعف. وأول منزلة الرعاية عند الخاطرات التي تدعو إلى اعتقاد ضمير القلوب والتي تدعو إلى الهمّ بحركات الجوارح وسكونها[3].

10 ـ وحدانية العلم الإلٰهي

العلم الإلٰهي خارج التصنيف. يبقى وحدانياً. لا مثيل له ولا قسمة فيه. يبدأ بالحواس، بالتأمل في مظاهر الطبيعة كما هو الحال عند المتكلمين والفلاسفة في الأدلة الطبيعية على وجود الله، وعند الصوفية في «الحكمة في مخلوقات الله عز وجل». ويجمع بين الحس والعقل للتدبر والاستدلال. ثم تأتي معرفة النفس

---

(1) «باب ما يجب أن يلزم القلب عند معرفة النفس ومعرفة الخلال التي يكون عنها نقض العزم عن الطاعة والاهتمام بالتيقظ والحرص بتصحيح التوبة»، السابق، ص 91-93.

(2) «باب رعاية حقوق اللّه تعالى عند الخطرات في اعتقاد القلوب والمعرفة بحركات الجوارح»، السابق، ص105-108.

(3) «باب صفة الراغبين لحقوق اللّه تعالى في رد الخطرات وقبولها في أعمال القلوب والجوارح على قدر منازل أهل القوة والضعف»، السابق، ص109-114.

والقلب لتكمل معرفة الحس والعقل وكما وصف الغزالي في **المنقذ من الضلال**. ثم يتحول العلم إلى معرفة، علم المتكلمين والفلاسفة إلى علم الصوفية. العلم الإلٰهي لا يكون إلا لله عن طريق تجرد النفس عن الأهواء. ولا يكون إلا بالله أي بذاته وصفاته وأفعاله. ولا يكون إلا من الله أي إلى النفس. والعلم بالله ولله ومن الله غير ذات الله. الأول في الذات والثاني في الموضوع.

الله معروف بآياته، مذكور بصنائعه، موجود بأنواره، معبود بكلماته. لا تدركه الأبصار وهو الأزلي المحيط[1]. ورحماته لا تحصى[2]. يُعرف الله بمخلوقاته، آدم وذريته وصنائعه وأسمائه وكلامه[3]. يتجلى صنعة بعد صنعة، ونظرة بعد نظرة، وأنوار وألواح تتوالى إلى يوم القيامة. فمن صادف صنعة التوحيد فقد سُمِّي الاسم، ووصل إلى المقام والقدرة بعد خروجه من الدنيا[4]. ومعرفة الخالق أولى من معرفة المخلوق مثل القرآن والدنيا والنار[5]. فما الذي يصد الخلق عن رسوم الطبيعة خاصة إذا كان الحق هو الخلق؟[6]. وذات الصوفي أعظم من الكون كله. لو ألقيت ذرة منه على الجبال لذابت[7]. نظر الكل إلى العوالم فأثبتوها. ونظر الصوفي إلى نفسه ثم خرج منها ولم يعد إليها. ولماذا لا يثبت الصوفي نفسه كما أثبت الآخرون العالم. بالتالي يكتمل البعدان ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ وَفِيٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾، ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمْ﴾[8].

(1) **الروايات أو الأحاديث**، ص269.
(2) «رحمات ربي لا تحصى. ومن نظر إليه نظر رحمة قد أسعد سعادة الأبد». السابق، ص270.
(3) «إن الملك والملكوت الظاهر في صورة آدم وذريته، وإن اللّه عز وجل ظهر بصنائعه وأسمائه عند نزوله سبحانه من ظهور الملك عند قرآن الكتاب سكن الغار ذا الحسنات». السابق، ص271.
(4) «إن اللّه تعالى يتجلى صنعة بصنعة، ونظرة بعد نظرة، وأنوار وألواح يتلو بعضها بعضاً إلى يوم القيامة. فمن صادف صنعة التوحيد فقد سُمِّي بالاسم، ووصل إلى المقام العزيز، والقدرة بعد خروجه من الدنيا». السابق، ص273.
(5) «إن القرآن قيامة. والدنيا آية الجن وآية النيران. فطوبى لمن شغله معرفة الخالق عن معرفة المخلوقين». السابق، ص270.
(6) الحلاج، **الولاية**، ص261.
(7) **أخبار الحلاج**، ص20.
(8) الحلاج: **الولاية**، ص261.

والحواس لا تُدرك إلا إذا عرف القلب من قبل. فالعلم لا يأتي إلا باجتماع المعارف الحسية الخارجية والمعارف القلبية الداخلية. فالأول دون الثاني أعمى، والثاني دون الأول فارغ[1]. ولذلك كان أصحاب الكهف في ظل المعرفة الأصلية لا يزايلهم حال. خفي على الخلق آثارهم[2]. والعلم اللدني هو علم الأسرار التي أودعها الحق في الإنسان لا يملك لها انصرافاً[3]. والله هو الذي يطمس الرسوم، ويُعمي الفهوم، ويميت الذهن، ويترك الجسم حتى يعجز الكل عن معرفته ثم يظهر من طوالع ربوبيته أسرار أهل معرفته فيعرفونه به[4]. الله هو الذي يمنع ويعطي المعارف. وهو دليل على نفسه، وطريق الوصول إليه[5].

والإدراك قاصر. لذلك يتمُّ الوقوع في التجسيم والتشبيه. ولو حدث إدراك لذابت الحواس. وكيف يدرك الحادث القديم؟[6]. المعرفة بالحوادث محدثة، وبالقديم دائمة. طرقها مسدودة. ولا سبيل إلى الوصول إليها. ينقصها الدليل. ولا تدركها الحواس. ومهما حاول الإنسان الإدراك فإنه لا يستطيع. عليه الكشف عما به وليس كشف ما له[7]. خلق الله القلوب والأبصار على التقليب[8]. وجعل عليها أغطية وستورا داكنة وأقفالا يهتكها بالأنوار. ويرفع الحجب بالأذكار. ويفتح الأقفال بالقرب. فهو مقلب القلوب والأبصار. فالنظر إلى الداخل إلى أفعال الله في الإنسان مع توخي الغفلة[9]. وهي نظرية الشعاع المزدوج في الإدراك، التقابل بين الإحساس والإدراك، بين الشعاع من الخارج إلى الداخل والشعاع من الداخل إلى الخارج[10]. المعرفة إثبات الرب أي الحق خارجا عن كل موهوم[11]. ومن هنا

(1) ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ﴾، السابق، ص122.
(2) ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ﴾، السابق، ص126.
(3) ﴿وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾، السابق، ص127.
(4) ﴿فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا﴾، السابق، ص130.
(5) «بك أدل عليك، وبك أصل إليك». **شطحات الصوفية**، ص170.
(6) ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾، **التفسير**، ص116.
(7) ﴿قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ﴾، السابق، ص116.
(8) ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾، السابق، ص134-135.
(9) ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا﴾، السابق، ص143.
(10) **تأويل الظاهريات**، ص169-176.
(11) **طبقات الصوفية**، ص320.

جاء التمييز بين معرفة الحق وهي معرفة الوحدانية، ومعرفة الحقيقة وهي لا سبيل إليها[1].

وبعد الحس يأتي العقل. ويعني النور لإضاءة المراد من الدنيا والدين في العقول وإبعاد الجهل[2]. والتوبة مشروطة بالتمييز بالعقل المضاد للجهل[3]. لا يُعرف شيء إلا بالعقول، ومع ذلك الله لا تدركه العقول. فالمحدود لا يدرك اللامحدود. معرفة الله بالله لأن العقل عاجز عن إدراكه[4]. ومن هنا لزم الصمت أو الإشارة. فمن وصف معرفة أبناء الآخرة فليس بعارف[5]. ومن عرف الله لم يتكلم[6]. والعارف فوق ما يقول، والعالم دون ما يقول[7]. والعجب ممن لا يحتاج أن يكتم شيئا مما علم الله له ومما يعلم الله عنه[8]. والعارف من نطق بسر أحد وهو ساكت، من لم يأسره لحظة إلا لفظه[9]. والصمت له معنيان: الأول بمعني الإفتاء بعدم العلم. والثاني الصمت عن العلم الباطن[10]. ومع ذلك من يسمع الكلام ويتكلم مع الناس يرزقه الله ما يناجيه به وهو علم الإشارة[11].

والصوفية هم أهل العقل عند الله، يعملون بأحكام الظاهر، ويتنزهون عن الشبه. وكل هذه الأخلاق من فرض العقل[12]. واستعمال العقل لله بترك التدبر،

---

(1) **اللمع**، ص56.

(2) ﴿كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْاْ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُواْ﴾، الحلاج: **التفسير**، ص109.

(3) ﴿فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾، السابق، ص110.

(4) «ويروى أنه عندما خلق اللّه العقل سأله من أنا؟ فسكت فكمله بنور الوحدانية فأجاب: أنت اللّه». **اللمع**، ص63.

(5) السابق، ص61.

(6) «من عرف اللّه بُهت ولم يتفرغ للكلام». **شطحات الصوفية**، ص165.

(7) السابق، ص166.

(8) «من لا يحتاج أن يكتمه شيئاً مما يعلم اللّه منك». السابق، ص174.

(9) **طبقات الصوفية**، ص157-160.

(10) «تفضيل علوم الصمت وطريق الورعين في العلوم». **قوت القلوب**، جـ1، ص277-282. حديث «العلم ثلاثة: كتاب ناطق، وسنة قائمة ولا أدري». حديث «إذا رأيتم الرجل قد أوتي صمتاً وزهداً فاقتربوا منه فإنه تلقى الحكمة». السابق، ص271.

(11) «من سمع الكلام فتكلم مع الناس رزقه اللّه بما يناجي ربه». **شطحات الصوفية**، ص171، 209، 224.

(12) **رسالة المسترشدين**، ص41-42، 105.

والاستعانة بالله على صرف المقادير. فالعقل هو العقل الإلٰهي، العقل الإيماني الذي يتجلى في علاقة الإنسان بالعالم. لا فرح بالغنى والرخاء، ولا قنوط بالفقر، ولا حزن بالبلاء[1]. وما يصل إليه العبد من الفهم بقدر تقديم عقله، وعلمه بقدر تقواه لله وطاعته. فمن وهب له الله العقل وأحياه بالعلم بعد الإيمان وبصّره باليقين عيوب نفسه فقد انتظمت له خصال البر[2]. العقل للإنسان أفضل زينة وأجمل ثوب لأن الله لا يُعرف إلا بالعقل ولا يُطاع إلا بالعلم[3]. ولا يخالط إلا العاقل التقي، ولا يجالس إلا العالم البصير[4]. وكل عقل يصحبه ثلاثة أشياء: إيثار الطاعة على المعصية، وإيثار العلم على الجهل، وإيثار الدين عل الدنيا. العقل معرفة، يكشف ولا يحجب[5]. يتناول نعم الله بالفهم ويردها بحسن الثناء والشكر[6]. ومن أراد الله به خيرا وهب له العقل وحبب إليه العلم[7].

رؤية البصيرة علم ورؤية البصر طريق حصول العلم. المعلومات منحصرة من حيث ما تدرك به في حس ظاهر وباطن وهو الإدراك النفسي. المعنى للعقل، والصورة للخيال. يدل العقل على أن الإيجاد متعلِّق بالقدرة. ومعقولية الأولوية لواجب الوجود وللواجب المطلق. للعقل نور يدرك به أمور مخصوصة، وللإيمان نور يدرك به كل شيء. نور العقل يصل إلى معرفة الألوهية. وبنور الإيمان يدرك العقل معرفة الذات والصفات. لا يمكن معرفة كيفية نسبة الصفات إلى الذات إلا بعد معرفة الذات. والحسن والقبح ذاتيان في الأشياء.

للعقل ثلاثمائة وستون وجهاً. يقابل كل وجه جانب من الحق. فالعلوم تزيد وتنقص[8]. ولا يلزم من انتفاء الدليل انتفاء المدلول. والعلم من اكتساب العقل. ومن ليس له عقل ليس له علم. ليس له عقل مكتسب لكن له عقل تقام عليه

---

(1) السابق، ص51-53.

(2) السابق، ص93-94.

(3) السابق، ص97-99.

(4) السابق، ص59.

(5) السابق، ص101-102.

(6) السابق، ص149-150.

(7) السابق، ص166-168.

(8) «في سبب نقص العلوم وزياداتها». **الفتوحات**، جا، ص165-167.

الحجة[1]. وشرف العلم من شرف العقل. فالعقل منبع العلم. وللعقل أربعة معانٍ. الأول الوصف الذي يفارق به الإنسان سائر البهائم. فالإنسان حيوان ناطق. وهو شرط التكليف وأساس البلوغ. والثاني العلوم التي تخرج إلى الوجود في النفس البشرية بالجواز والمستحيل وهي الضروريات أو البداهات وهو العقل النظري. والثالث العلوم المستفادة من التجارب ومجرى الأحوال وهو العقل التجريبي. والرابع معرفة عواقب الأمور والسيطرة على الأهواء وهي العلوم الأخلاقية. وهو العقل العملي[2]. يتفاوت الناس في العقول الطبيعية والتجريبية والأخلاقية دون العقل الضروري. فالبداهات مدركة للجميع. والصوفية لا يرفضون العقل إلا بمعنى المناظرة والجدل والخصومات[3]. ويسمونه نور البصيرة الباطنة أو نور الإيمان أو عين اليقين.

وبعد العقل تأتي النفس. والنفس هي البداية. إن لم يشغلها الإنسان فإنها تشغله. وهي أيضا أداة للمعرفة. إذ تبين النفس للنفس[4]. والنَّفَس تروح القلب عند الاحتراق، وهو أيضا نفس الإنسان[5]. وكلاهما من نفس الاشتقاق. وفلان بلا نفس أي لا تظهر عليه أخلاق النفس مثل الغضب والحدة والتكبر والشره والطمع والحسد. والنفس سر. ولم يظهر على أحد من الخلق إلا فرعون بقوله ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾. لها سبع حجب سماوية وسبع أرضية. فكلما دفن العبد نفسه أرضاً أرضاً سما قلبه سماءً سماءً. فإذا دفنت النفس تحت الثرى وصلت بالقلب إلى العرش. وهي صور فنية وأشكال للتعبير[6].

---

(1) **التستري**، ص208.

(2) «في العقل وشرفه وحقيقته وأقسامه». **الإحياء**، جـ1، ص88-95.

(3) «فإن قلت: فما بال أقوام من المتصوفة ينعون العقل والمعقول؟ فاعلم أن السبب فيه أن الناس نقلوا اسم العقل والمعقول إلى المجادلة والمناظرة والمناقضات والإلزامات وهو صنعة الكلام. فلم يقدروا على أن يقرروا عندهم أنكم أخطأتم في التسمية إذ كان ذلك لا ينمحي عن قلوبهم بعد تداول الألسنة به ورسوخه في القلب فذموا العقل والمعقول وهو المُسمَّى به عندهم. . . وأكثر هذه التخبيطات إنما ثارت من جهل أقوام طلبوا الحقائق من الألفاظ فتخبطوا فيها لتخبط اصطلاحات الناس في الألفاظ». السابق، ص94.

(4) ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾، السابق، ص147.

(5) **اللمع**، ص424، 436.

(6) السابق، ص299.

والنفس هي منبع الأخلاق. وهي أقرب إلى النفس الأمَّارة بالسوء منها إلى النفس المطمئنة. تشغل الإنسان إن لم يشغلها. وأعدى أعداء الإنسان نفسه التي بين جنبيه. وهي أخبث من سبعين شيطاناً[1]. فالنفس طريق إلى الله، مفتوحة عليه، ومرآة له. تنعكس فيها صورته. العالم يلاحظ نفسه، والعارف يلاحظ ربه[2]. وليت الخلق يعرفون الله كما يعرفون أنفسهم[3]. ونسيان النفس ذِكر بارئ النفس حتى لا يكون الذكر إلا للواحد[4].

وبعد النفس يأتي القلب. فإذا انحل العقل عن القلب صار ربانياً فأشرف عليه الغيب. فالغيب غيب للذات أي للمعرفة وليس غيباً في ذاته. خلق الله القلوب وجعل داخلها سره. وخلق الأنفاس وجعل مجراها من داخل القلب. ووضع معرفته في القلب وتوحيده في السر. وما من نفس تخرج إلا بإشارة التوحيد على دلالة المعرفة في بساط الاضطراب إلى عالم الربوبية. وكل نفس أخرى فهي ميتة وصاحبها مسؤول عنها. وكل قلب تخلى عن غير الله يرى الغيب مكنونه وفي السر مضمونه[5]. والمعرفة بتحقيق القلب بإثبات الوحدانية بكمال الصفات والأسماء[6]. المعرفة تعظيم في القلب يمنع عن التشبيه والتفضيل[7]. يرتبط القلب بالمعرفة. فمن همَّ بشيء مما أباحه العلم تلذذاً عوقب بتضييع العمر وقسوة القلب، وتعب الهمِّ في الدنيا. وقسوة القلب بالنعم أشد من قسوة القلب بالنسيان والشدة لأنها بالنعمة تسكت وبالشدة تذكر. والقلب الريْن والقسوة والعمى عقوبة[8]. القلب لا يخطر فيه إلا شهود الرب. وهو مكان البر لمن كان له بصر ومعرفة ونور[9].

وأول مخالفة للعلم مخالفة النفس ثم المكابرة ثم السهولة ثم المسارعة ثم

---

(1) «هي نفسك إن لم تشغلها شغلتك»، «إن النفس أخبث من سبعين شيطاناً». الحلاج: **الولاية**، ص52.

(2) **شطحات الصوفية**، ص166.

(3) «ليت الخلق عرفوني وكفاهم. وكفاهم من ذلك معرفتهم بأنفسهم». السابق، ص174.

(4) السابق، ص170.

(5) الحلاج: **الولاية**، ص237-238.

(6) السابق، ص63.

(7) هذا رأي أبي بكر الزاهراباذي، السابق، ص64.

(8) ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَـٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾، **التفسير**، ص142.

(9) ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾، السابق، ص46.

درجة الخلق ثم مرتبة الحذاق[1]. ولماذا يكون أقل علم يؤدي إلى الرضا والقناعة والسكون والحمد على الابتلاء، والخوف من العدل الإلٰهي ورجاء الفضل؟[2]. قد يعرف الإنسان شيئاً من نفسه ثم يرجع إلى العلم الإلٰهي محتجاً بأنه كان يمكن أن يفعل أو يصلح لو شاء الله خارج مواضيع الإنكار والجحود والكفر والاستكبار والعجب والدعوى والشك والظن والرياء والجهل[3]. وهو تقابل غير صحيح فيما تعرفه النفس عن الله، فالله صوت الضمير. والله يعلم ما في النفس لأنه هو الذي أوجدها. ولا يعلم الإنسان عما في ذات الله لأنها خارج عن الإدراك[4]. ويذكر الإنسان الله لأنه أشرف موضوع للذِكر[5].

المعرفة قلبية. يهجم القلب عليها ولا تهجم هي عليه. هي قصد متبادل. لا يعتريها الشك مع أن الشك بداية اليقين[6]. والعلم أيضاً هو علم القلوب، ومعرفة الخواطر ومنها الوسوسة والابتلاء ومجاهدة النفس فيها وأولها النيَّة أو كل عمل. ولزوم الإنسان قلبه يمنع كل قاطع عنه يمنعه من دوام الذكر. ولا يستقيم القلب إلا بالاستغناء عن كل ما سوى الله ثم لا يستغني عنه حتى يقطع عن نفسه كل سبب يصله. فكيف يقوم العالم دون الأخذ بالأسباب؟ والريْن هو الصدأ على القلوب. وهو لفظ قرآني. وهو أحد أسباب حجب القلوب مع الختم والطبع على قلوب الكفار. والقسوة مع الريْن لقلوب المنافقين، والصدأ أو الغشاوة لقلوب المؤمنين[7]. والغيْن هو ما كان يعارض قلب النبي. وكان يتوب منه. ويعتمد على حديث ضعيف[8].

---

(1) السابق، ص189-190.

(2) «أدنى عمل العاملين الذين أثبت اللّه أسماءهم عنده في العلماء أن يكونوا راضين عن اللّه، قانعين به عما سواه في كل حالاتهم وسكون أنفسهم في جميع متقلبهم وعلى كل حالاتهم، ويحمدون اللّه عز وجل على ما ابتلاهم، ويخافون عدل اللّه ويرجون فضله». السابق 189.

(3) **التستري**، ص378. ومنذ سقراط وأوغسطين وأنسِلم وديكارت وكانط: اللّه فكرة في النفس. وهو أساس الدليل الأنطولوجي.

(4) ﴿تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى﴾، **التفسير**، ص114-115.

(5) ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ﴾، السابق، ص120.

(6) النفري: **المواقف**، موقف قلوب العارفين، ص159-162.

(7) ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾، **اللمع**، ص450-451.

(8) هو حديث «إنه ليُغان على قلبي فاستغفر اللّه وأتوب إليه في اليوم مائة مرة». السابق، ص451-452.

والروح هو الجامع بين الحس والعقل والنفس والقلب. وسمي الروح روحاً للطافتة. وهو نسيم تتنسم به قلوب أهل الحقائق فيتروح من تعب ثقل ما حُمِّل من الرعاية بحسن العناية. وإذا كانت روح وليّ الله في القدس تشغله بمولاه فمتى ينشغل المولى بتحريرها قبل أن ينتقل إلى مولاه شهيداً وليس فقط عارفاً؟ «وجذب الأرواح» يدل على التوفيق والعناية مثل سمو القلوب، ومشاهدة الأسرار، والمناجاة والمخاطبة، وما يبدو على القلوب من أنوار الهداية[1]. بالله قامت الأرواح والأجساد والخطرات لا بذواتها مع أنها كيانات مستقلة. الأرواح تلطفت فتعلَّقت بالحقيقة. ولم تر معبوداً يستحق العبادة إلا الله مع أن الحديث لا يدرك القديم، والشاهد لا يرى غير الشاهد.

الروح روحان. روح به حياة الخلق، وروح به ضياء القلب، الروح القديم والروح البشري. وإذا أساءت الجوارح الأدب حجب الروح. وكلما تدرب الروح رق على مدار الأيام. عرف المخاطبات، وأشار إلى المعاينات. الروح غير العقل، الروح لا يسدي إلى الروح محبوباً، والعقل لا يرفع عن العقل مكروهاً. والثواب والعقاب للروح والجسد معاً. ولا تتناسخ الأرواح ولا تنتقل من جسد إلى جسد[2].

وأحياناً تكون الدعوة إلى معرفة الله دون معرفة النفس أو رؤية القلب بل يكفي الزهد في الاغترار بما سواه[3]. ومع ذلك همُّ العارف ما يأمله، وهمُّ الزاهد ما يأكله. العارف يقول كيف يُصنع، والزاهد يقول كيف أصنع؟ أمل العارف في الدنيا الإيمان وفي الآخرة العفو. وأمل الزاهد في الدنيا الكرامات، وفي الآخرة المقامات[4]. وأحياناً تكون من الأحوال. فالمعرفة في قلوب المحبين مثل الكأس. ورؤية المحبين لله أحلى من العسل. وطريق الصدق أدق من الشعرة[5].

العارف الواصل يعبده في الحال، والعابد يعبده بالحال. ومعرفة الله تعين

---

(1) **اللمع**، ص427، 445.

(2) السابق، ص293-294.

(3) «اعرف ربك بلا معرفة نفسك بغير رؤية قلبك. وازهد في الاغترار بما سوى ربك». **شطحات**، ص154.

(4) السابق، ص167.

(5) السابق، ص213.

على العبادة[1]. ومع ذلك، المعرفة أفضل من العبادة. ومن لم يقدر على المعرفة يترك الله له العبادة[2]. العابد يعبد الله تحذيراً. والعارف يعرفه تشويقاً. العبادة تقوم على الخوف والرجاء في حين أن المعرفة تقوم على حب الاستطلاع[3].

فإذا عجز الحس والعقل والنفس والقلب والعبادة عن المعرفة فلم يتبق إلا معرفة الله بالله عند العارف. ومن عرف الله بالله هو أشدهم تحيراً فيه. فالمعرفة في البداية حيرة وتشكك وليست قطعاً ويقيناً[4]. المعرفة صحبة العلم بالله. والمعرفة الحقة العلم بالله. تحقق القلب بوحدانية الله[5]. وهي لستة أوجه: معرفة الوحدانية، والتعظيم، والمنة، والقدرة، والأزل، والأسرار[6]. وكلها أوجه لله. ولا توجد معرفة للفرد والجماعة والعالم والتاريخ.

سمت همم العارفين إلى المولى لا تعكف على أحد سواه[7]. وشغل العارف النظر إلى معبوده مستأنساً به، والملاحظة لمنَّته وفوائده شاكراً له، والتذكر لذنبه معترفاً به ومنيباً تائباً إليه. فليس للعارف إلا موضوع واحد هو الله وليس العالم، بعد أن انسلخ العارف منه. من عرف ربه نسي كل ما دونه، ومن جهل به تعلَّق بكل شيء دونه. ومن اعتز بالعلم فاز. ومن اغتر بالجهل خاب وخسر. ولماذا تكون المعرفة بالله والمعرفة بالعالم نقيضين بمنطق «إما... أو»؟ والجاهل في ظلمة جهل. والجاهل في ظلمة علم. وظلمة العلم أشد[8]. الجاهل ليس له بديل والعالم بديله مزيد من العلم. والطمع في المعرفة دون مدارج أحكام الإرادة هو الجهل[9]. ولو أمر الله بمعرفته ولم يتمُّ التعرف إليه لكان الجهل به أكثر مما أنكره[10]. وحق لمن

(1) «يُستعان على العبادة باللّه إن كنت تعرفه». السابق، ص175.
(2) **طبقات الصوفية**، ص375.
(3) السابق، ص379-381.
(4) أبو يعقوب النهرجوري، السابق، ص380.
(5) أبو عمرو الزجاجي، السابق، ص431.
(6) جعفر بن محمد الخلدي، السابق، ص439.
(7) أبو عبد اللّه بن الجلاء، **طبقات الصوفية**، ص179.
(8) شاه الكرماني، السابق، ص192-194
(9) السابق، ص241.
(10) السابق، ص333.

أعزه الله بالمعرفة ألا يذله بالمعصية. فالمعرفة هي المعرفة المؤدية إلى الطاعة. والجهل هو المؤدي إلى المعصية. فالعلم فضيلة والجهل رذيلة.

من أراد أن يعرف قدر معرفته بالله فلينظر قدر هيبته له وقت خدمته له[1]. معرفة الله بالله. ومعرفة ما دون الله بنور الله. ولا يفهم إلا به بتضييع العارف ما له والإبقاء عما لله. والتهاون بالأمر من قلة المعرفة بالآثار. العارفون يقوون بمعروفهم وسائر الناس يقوون بالطعام والشراب[2]. ومن لم يؤثره الله على كل شيء لا يصل إلى قلبه نور المعرفة. فشرط المعرفة التوحيد، توحيد قوى المعرفة، وتوحيد القصد[3]. العارف من شغله معروفه عن النظر إلى الخلق بعين القبول والرد[4]. وهل يجوز للعارف بالله ألا يلتزم بقضايا العالم بين القبول والرفض؟ وأعلى درجة للعارف وجوده. فالمعرفة وجود، في العارف والمعروف[5]. من عرف الله اكتفى به ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾. المعرفة صداقة والعقل تجربة. والعارفون يعيشون في لطف الله.

العارف يدافع عيشه يوماً بيوم. ويأخذ من عيشه يوماً ليوم. وهو معنى «اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً». من استوى عنده ما دون الله نال المعرفة[6]. ومن صحت معرفته بالله ظهرت عليه الهيبة والخشية[7]. ولماذا لا تعطي المعرفة بالله الثقة بالنفس؟ حرام على من عرف الله أن يسكن إلى غيره. لكن هل تغني معرفة المطلق عن معرفة النسبي من أجل مزيد لليقين بالمطلق؟ وأكثر ما يخيف العارف فوت الحق[8]. العارف قلبه لمولاه وجسده لخلقه. ومن عرف الله خضع له كل شيء لأنه عاين أثر ملكه فيه. فالمعرفة بالأعلى

(1) **طبقات الصوفية**، ص455-456. **شطحات الصوفية**، ص165، 170، 172، 207، 225.
(2) أبو بكر الشيهي، **طبقات الصوفية**، ص506.
(3) أبو بكر الفرَّاء، السابق، ص508.
(4) أبو القاسم الفرَّاء، السابق، ص512.
(5) **شطحات الصوفية**، ص116. «من يهتد إلى بيت نفسه فلا يسعه أن يذكر عرشه». «من يهتد إلى بيت نفسه فلا يسعه أن يذكر حديثه». السابق، ص80. «ليس هناك درجة أعلى فائدة من العارف بوجوده». السابق، ص165، 224.
(6) محمد بن الفضل البلخي، **طبقات الصوفية**، ص214-216.
(7) أبو بكر الوراق، السابق، ص226.
(8) علي بن سهل الأصبهاني، السابق، ص234.

تتضمن المعرفة بالأدنى. من عرف الله لجأ إليه. ومن نسي الله لجأ إلى المخلوقين[1].

من لا يجتهد في معرفته لا يقبل خدمته. فالمعرفة شرط السلوك. والعارف بنفسه تشغله الرياضة والمجاهدة، والعارف بربه تشغله خدمته وعبادته ومرضاته[2]. ميزة الأول لإثبات الذات، والخوف من الثاني لفقدانها. في الحالة الأولى إثبات الذات غاية والرياضة وسيلة. وفي الحالة الثانية خدمة الله غاية والذات وسيلة. وإذا كان أحسن لباس العبد التواضع والانكسار فإن أحسن لباس العارف التقوى[3]. ومن علامات قلة معرفة العبد بنفسه قلة الحياء وقلة الخوف. فالحياء يوقظ في النفس معرفتها. أما الخوف فإنه وسيلة سلبية للمعرفة. لا يستعمل في التربية. والمعرفة بالمحبة والثقة المتبادلة خير من المعرفة عن طريق الخوف[4]. وطريق المعرفة الصدق مع الله في جميع الأحوال، والموافقة له، وعدم الرقي أكثر مما هو مقرر وإلا زالت القدم، ويتحول الرقي إلى سقوط. أما إذا رُقي بالإنسان فإنه لا يسقط[5]. الرقي إذن ليس من فعل الإنسان. وإذا احتاج العارفون إلى رعاية الله فما دور المعرفة؟ يحتاج الإنسان إلى شيء يعرف به كل شيء، مصدر رئيسي للمعرفة وهو الله[6].

حد المعرفة التجرد من النفوس وتدبيرها فيما يجل أو يصغر[7]. فالمعرفة عملية وليست نظرية. وخواص خصال العارفين: السياسة والرياضة وهما ظاهران، والحراسة والرعاية وهما باطنان. بالسياسة التطهر، وبالرياضة التحقيق. السياسة حفظ النفس وتحقيقها، والرياضة مخالفة النفس، الحراسة معاينة بر الله في الضمائر، والرعاية مراعاة حقوق المولى بالسرائر. ميراث السياسة القيام على وفاء العبودية، وميراث الرياضة الرضا عن الحكم. ميراث الحراسة الصفوة والمشاهدة،

(1) مظفر القرمسيني، السابق، ص396.
(2) السابق، ص439.
(3) السابق، ص188.
(4) أحمد بن عاصم الأنطاكي، السابق، ص138.
(5) أبو عثمان الحيري النيسابوري، السابق، ص173.
(6) أبو عبد اللّه بن الجلاء، السابق، ص177.
(7) طاهر المقدسي، السابق، ص275.

وميراث الرعاية المحبة والهيبة. الوفاء متصل بالصفاء. والرضا متصل بالمحبة. علمه من علمه، وجهله من جهله[1]. والزهد والصبر والتوكل والرضا لا تليق بالمعرفة لأنها من صفات الأشباح أي الأجساد. فما فائدة المقامات إذن؟ المعرفة صحة التوكل على الله. فالمعرفة تقود إلى المقامات[2]. المعرفة رؤية المنة في كل الأحوال، والعجز عن أداء شكر النعم، والتبري من الحول والقوة[3]. فهي معرفة للاستسلام وليست للإقدام. جماع المعرفة صدق الافتقار إلى الله. لو جمعت حكمة الأولين والآخرين وأحوال الأولياء فلا يمكن الوصول إلى درجات العارفين حتى يسكن السر إلى الله والوثوق به فيما ضحى[4]. للعارف مرآة إذا نظر فيها تجلى مولاه. المعرفة دوام محبة الله ومخافته، والإقبال عليه، وانتصاب القلب بذكره. وهي علم القلوب بفسخ العزوم، وخلع الأدوات، وإحياء المفهوم[5]. ومن عرف ربه طمع في عفوه ورجا فضله. فالمعرفة إذن ليست منزهة عن الغرض.

وتدخل الأحوال مع المقامات طريقاً إلى المعرفة. فالعارف يخاف زوال ما أُعطي، والخائف يخاف زوال ما وُعد. العارف يدافع عن عيشه يوماً ليوم، ويأخذ عيشه ليوم ويوم[6]. وتمام العلم انقطاع الرجاء عن بلوغ كنهه أي الوصول إلى الحد الأعلى للعلم الإنساني ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾[7]. والعارف من يوافق المعروف في أوامره ولا يخالفه في أحواله، ويتحبب إليه بحب أوليائه، ولا يفتر عن ذكره. والمعرفة أيضا بالعصيان والنفي. فشعار التوحيد يبدأ بالنفي. ولا وساطة بين الإنسان والله حتى ولو كانوا من الأولياء. والنسيان أحد مقومات الذكر. ومن عرف الله لم يغتر بالله. فالمعرفة تواضع، والجهل غرور. ولا يصل العارف إلى ربه إلا بقطع القلب عن ثلاثة أشياء: العلم والعمل والخلق[8]. فالعلم وسيلة

(1) أبو عمرو الدمشقي، السابق، ص277.
(2) أبو بكر الواسطي، السابق، ص306.
(3) السابق، ص315/ 203.
(4) ممشاذ الدنيوري، السابق، ص316-317.
(5) السابق، ص203.
(6) أبو حمزة الخراساني، السابق، ص327.
(7) أبو علي الثقفي، السابق، ص363.
(8) أبو بكر الكتاني، السابق، ص374.

للمعلوم، والعمل أداة للتحقق، والخلق ميدان للفعل ولتحقيق الرسالة. وإذا ترك العارف ربه فقد هلك[1]. وعلامته ثلاثٌ: نور الورع شرط نور العلم، واتفاق الظاهر مع الباطن، وعدم هتك أسرار المحارم[2].

وكما أن العلم لا يكون إلا بالله ومن الله ومع الله فإنه لا يكون أيضاً إلا لله حتى تزول عن القلب هموم الدنيا ولا تبقى إلا الآخرة[3]. وهو تعارض مصطنع، فلا فرق بين الدين والدنيا، وهموم الدنيا هي هموم الآخرة. والعلم بالله فقط دون أن يكون عالماً بأمر الله أي بالشريعة وبأيام الله أي بالتاريخ وهو علم المؤمنين. والعلم بالله وبأمر الله دون أيام الله هو علم العلماء. والعلم الكامل هو العلم بالله وبأمر الله وبأيام الله. وهو علم النبيين والرسل والصدِّيقين.

وطلب الزيادة في العلم ينتهي إلى العلم الإلٰهي ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾[4]. ويحصل الصدِّيقون من الله على نطق لا ينفذ حتى ولو نفذ البحر. ويقبلون دون السؤال مما يدل على سعة العلم الموهوب دون اعتراض[5]. وخير صديق العالم والورع المخلص. فالصدِّيقون على مراتب. أعلاها الجمع بين العلم والورع والإخلاص أي العلم الأخلاقي.

إذن تستحيل المعرفة. فقد حجب الله نفسه بالاسم والرسم والوسم، وبالقال وبالحال، وبالكمال والجمال. فالقلب مضغة، ليس أهلاً للمعرفة الربانية. والفهم لا يتعامل إلا مع الأمور المحددة في المكان والزمان بما في ذلك الطاعات. وإذا لم يستطع العارف أن يدرك أصغر ما في الكون وهي الذرَّة فكيف يدرك الأعظم والأدق؟ المعرفة رأي، والمعروف خارج الرؤية. المعرفة بطبيعتها ناقصة والمعروف كامل. المعرفة خاصة والمعروف عام. المعرفة، عينها غائبة في ميمها. والهوية فيها متقطعة. والخواطر منفصلة، لاهية ساهية، رغبة ورهبة، غرب وشرق، عاليها

(1) **اللمع**، ص61.
(2) السابق، ص61.
(3) **التستري**، ص67.
(4) السابق، ص197.
(5) السابق، ص256.

أسفلها، تأويل وتنزيل بالمصطلح الشائع[1]. صاحبها واحد، وماحقها قاصد، وتتوالى الثنائيات الرمزية التي تعبِّر عن الحالات النفسية المتضادة لإثبات استحالة المعرفة[2]. وفي شعر منثور أقرب إلى الشعر الرمزي، يوحِّد الحلاج بين المعرفة والمعروف، وبين المعرفة والمعرفة، وبين المعروف والمعروف، بين الأركان والبنيان، في إطار من الهوية المطلقة بين الطرفين العارف والمعروف[3]. وتتكرر العبارات الملغزة للإيحاء بنفس المعنى في سياقات مختلفة[4]. العارف والمعرفة من العرفان. والحقيقة مع الخواص. والكلفة مع الأشخاص. والنطق مع أهل الوسواس. والفكرة مع أهل الإياسي. والغفلة مع أهل الاستحقاق[5].

(1) السابق، ص214-216.

(2) «صاحبها واحد، وماحقها قاصد، مارسها لاحد، رامقها رامد، لاصقها فاقد، بارقها ماكر، تاركها شاكر، واقعها واجد، سارعها جاهد، صارعها خامد، خائفها زاهد، لاعدها راصد. أطنابها أربابها أسبابها»، الحلاج: **بستان المعرفة، أعمال**، ص215.

(3) وهو ما وصل إليه شِلِّنغ أيضاً في فلسفة الوحدة المطلقة.

(4) كأنها كأنها كأنها، كأنه كأنه كأنه.

كأنها كأنها
كأنه كأنه
كأنه كأنها
كأنه كأنه
بنيانها أركانها
وأركانها بنيانها
أصحابها أصحابها
بنيانها بها
لها بها
لا هي هو
ولا هو هي
ولا هو إلا هي
ولا هي إلا هو
لا هي إلا هو
ولا هو إلا هو، الحلاج: **بستان المعرفة، أعمال**، ص215-216.

(5) السابق، ص216-217.

التفرغ إلى السنن بعد الفراغ من أداء الفرائض[1]. ومن ضيع في أي وقت فريضة حرم لذتها بضع سنين[2]. وما بلغ أحد حالة شريفة إلا بالموافقة والأدب وأداء الفرائض وصحبة الصالحين وحرمة الفقراء الصادقين[3]. وإذا ضيع أحد فريضة ابتلاه الله بتضييع السنن، ثم يبتلى بالبدع، مع أن الله ليس منتقماً. الفريضة واجب والسنَّة نفل. والصدق استقامة الطريقة في الدين، وإتباع السنَّة في الشرع. والإنسان يبغض المعاصي بذنب واحد يظنه، ولا يبغض النفس على ما يتيقنه من ذنوب. فالظن أهون من اليقين[4]. وعلامة محبة الله متابعة الرسول. ولا يصل الإنسان إلى الله إلا بالله وبموافقة الرسول في شرائعه والاقتداء به. ودونه الضلال وليس الهداية. والوصول اتصال، والنكوص لانشغال النفس وطلب الراحة لأن الطريق صعب لمن دخله دون وجد غالب وشوق شديد. فيهون حمل الأثقال وركوب الأهوال. فإذا انقادت النفس وهانَ عليها ما تلقى في طلب المحبوب سهَّل الله لها طريق الوصول[5].

(1) عبد اللَّه بن محمد بن نازل، السابق، ص369.
(2) أبو عمرو إسماعيل بن نجيد، السابق، ص455.
(3) أبو الخير الأفطع، السابق، ص378.
(4) أبو جعفر بن سنان، السابق، ص334.
(5) أبو الحسن الوراق النيسابوري، **طبقات الصوفية**، ص299-300.

الفصل الثاني

المقامات

1 ـ تعريف المقام

تكوَّنت المقامات والأحوال عبر المرحل التاريخية الثلاث، الخلقية والنفسية والفلسفية، في الأعمال الصوفية قبل أن تصبح موضوعاً مستقلاً في التأليف. المقامات والأحوال جزء من التاريخ وهي عصب البِنية على حد سواء. ويتضمَّن هذا الباب الثاني عن التصوف كبِنية تحليل نصوص المقامات والأحوال كموضوع مستقل بعد أن دخلت كجزء من التاريخ وهي في فترة التكوين من خلال الأعمال الصوفية التي ظهرت فيها المقامات والأحوال كموضوع جزئي ضمن الموضوعات الأخرى[1].

والمقامات والأحوال ليست مجرد ألفاظ أو مصطلحات بل هي حقائق وراء الألفاظ، معانٍ وموضوعات. إلا أنها تحولت إلى مصطلحات. ليس القصد منها فقط تقريب الفهم على المخاطبين أو تسهيل على أهل الصفة، الصوفية، الوقوف على معانيها أو استعمال ألفاظ فيما بينهم حماية لهم يتداولونها فيما بينهم حتى لا يطلع عليها الغرباء بل هي معانٍ كشفية مودعة في القلوب، تجارب ذاتية، حقائق موضوعية شعورية[2].

والمقامات منها ما هو مشروط كالورع، ومنها ما هو ثابت إلى الموت ويزول بالتوبة، ومنها ما يصحب العبد في الآخرة مثل بعض الأحوال النفسية[3]. المقامات مكاسب وهي استيفاء الحقوق المرسومة شرعاً على المقام من معاملات

---

(1) وذلك مثل **الرسالة القشيرية**.

(2) «باب في تفسير ألفاظ تدور بين هذه الطائفة وبيان ما يشكل منها». **القشيرية**، ص31.

(3) **الفتوحات**، ج2، ص385-386.

ومجاهدات ورياضات. المقام هو استيفاء حقوق المراسم وإلا لم يترق إلى المقام الذي بعده[1]. فعلاقة المقامات بعضها بالبعض هي علاقة ترقٍّ قد تكون بلا أسماء بل مجرد ترقٍّ في عشرة مقامات، من المشاهدة الأولية إلى الأَحدية إلى الأقربية إلى البصرية إلى العلمية إلى الفاعلية إلى الملكية إلى الحياتية إلى المحبوبية إلى مراقبة التوحيد الشهودي[2]. وقد تعني المقامات درجات الارتقاء إلى أعلى. وهي أقرب إلى الرياضات والمجاهدات وليست المقامات التي هي محطات الوصول والذهاب. فهناك أربع مقامات. الأول الوقوف في ألم من نقل الواردات. والثاني الطرد إلى باب آخر. والثالث التأخير عن عمد وعدم المغادرة. والرابع الإحاطة وعدم القدرة على المغادرة[3]. والخاصة على أربع منازل: المقيمون المبهوتون الذين لا يحتملون ما يرد عليهم ومن يريدون الخلاص منه ولكنهم ممنوعون من الاختيار والذين لا يبرحون، والذين لا يقدرون على البراح[4]. وطريق العبودية لله ومنازلها على ثلاث درجات: عام وخاص وخاص الخاص، والعام على خمس درجات، عبد مذنب مريب غير تائب. وعبد مراء يريد محمدة الناس. وهو العبد الخاسر الغافل. وعبد مطيع وهو العبد الناصح، وعبد راغب في أعمال البر. وهو العبد العامل. وعبد يجتهد في مرضاة الله وهو العبد الصالح. والخاصة والعوام أربع درجات كذلك: عبد تائب، وعبد حزين خائف، وعبد زاهد، وعبد مفوض أمره لله[5].

وقد تكون بعض المقامات أحوالاً، وبعض الأحوال مقامات. فالرضا مقام عند الخراسانيين وهو نهاية التوكل. وهو حال عند العراقيين[6]. ويمكن الجمع بين الرأيين، في البداية مقام مكتسب وفي النهاية حال موهوب[7]. والفصل بين

(1) **اصطلاحات الصوفية**، ص87. **لطائف الأعلام**، ج2، ص660.

(2) **جامع الأصول**، ج3، ص83.

(3) «الاتصال بالله على أربع مقامات: الأول، واقفين متألمين من ثقل ما يرد عليهم من الواردات، وهم المتفرعون والثاني يضطهدهم من حيث لا يعلمون ويردُّهم إلى باب آخر. والثالث يؤخرهم فيقولون لا نبرح. والرابع قد أحاط بهم فليس يمكنهم البراح». **شطحات**، ص95.

(4) السابق، ص 104.

(5) السابق، ص125-127.

(6) السابق، ص286-350. **عوارف المعارف**، ج4، ص383-405.

(7) **القشيرية**، ص89.

المقامات ليس حاسماً. فقد يوضع مقامان معا وهما متمايزان مثل الصبر والشكر أو الفقر والزهد أو التوحيد والتوكل. وقد تتداخل المقامات والأحوال مثل المحبة والشوق والأنس والرضا. فالمحبة مقام، والأنس حال[1]. وتتداخل المقامات والأحوال دون حد فاصل بينهما، وما هو مقام قد يعتبره صوفي آخر حالاً مثل العبودية والحرية، والفناء والبقاء والحزن والفرح[2].

وقد سُمّي الحال حالاً لتحوله، والمقام مقاماً لثبوته، وقد يتحول الحال إلى مقام أو المقام إلى حال مثل المراقبة والمحاسبة، فهي أحوال لتقلبها، ومقامات لدوامها. المقامات مكاسب والأحوال مواهب، المقامات مقامات اليقين، والأحوال أحوال الموقنين، فكلاهما يرتبطان باليقين[3].

وكلها من المنجيات مع بعض الفضائل. فالمقامات والأحوال زبدتها[4]. إذ توضع مع المقامات والأحوال في المنجيات النيَّة والإخلاص والصدق من الفضائل، والمراقبة والمحاسبة والتفكير من التصوف النفسي، وذكر الموت وما بعده من التصوف الفلسفي. ويظل الإشكال في بعض الموضوعات المتأرجحة بين الحال والمقام مثل الحزن ويقابلة الفرح، والعبودية وتقابلها الحرية. ومقياس التمييز للفظي بين المقام والحال هو أن المقام لفظ واحد مثل التوبة الزهد، الصبر، الرضا، التوكل، الشكر، المحبة، في حين أن الحال مزدوج مثل الخوف والرجاء، الهيبة والأنس، الصحو والسكر، الفقد والوجد، الفناء والبقاء.

أما من حيث المضمون، المقام صفة يرسخ فيها العبد ولا ينتقل منها كالتوبة.

(1) **الأحياء**، جـ4، ص 59-138، 185-238، 238، 286.

(2) **عوارف المعارف**، جـ4، ص281-298.

(3) الفصل الثاني والثلاثون: فيه شرح مقامات اليقين وأحوال الموقنين، **قوت القلوب**، جـ1، ص364-550؛ جـ2، ص3-164.

(4) السابق، ص350-381، 409-433، 532. «وهذا الحب الخالص هو أصل الأحوال السنية وموجبها. وهو في الأحوال كالتوبة في المقامات، فمن صحت توبته على الكمال تحقق بسائر المقامات من الزهد والرضا والتوكل. ومن صحت محبته هذه تحقق بسائر الأحوال من الفناء والبقاء والصحو المحو. والتوبة لهذا الحب بمثابة الجسمان». **عوارف المعارف**، جـ4، ص389-390.

والحال صفة وقتية كالسُكْر والمحو والغيبة والرضى أو تنعدم مع شروطها كالصبر مع البلاء، والشكر مع النعمة.

والمقامات قسمان: قسم كماله في ظاهر الإنسان وباطنه كالورع، وقسم كماله في باطن الإنسان كالزهد والتوكل. ولا تقام في الظاهر دون الباطن.

ومن المقامات ما يتصف به الإنسان في الدنيا والآخرة كالمشاهدة أو الجلال والجمال والأنس والهيبة والبسط. ومنها ما يتصف به العبد حين موته حتى القيامة كالخوف والقبض والحزن والرجاء. ومنها ما يتصف به العبد إلى حين موته كالزهد والتوبة والورع والمجاهدة والرياضة والتخلي والتحلي للغربة. ومنها ما يزول لزوال شرطه كالصبر مع الشكر والورع[1].

وتبدو المقامات في نهاية **رسالة المسترشدين** وهي تتبلور في موضوع مستقل ابتداءً من الوقت والتوبة[2]. تحصيل الوقت وأداء الأفعال في أوقاتها[3]. وتجديد التوبة في كل وقت[4]. وتقسيم العمر ثلاث لحظات بين العلم والعمل وحقوق النفس ومستلزماتها، الماضي للاعتبار، والتفكير في المستقبل، والمصير بين النجاة والهلاك، والقُرب والبُعد[5].

ومن أعمال القلوب «اعتقاد الإيمان ومجانبة الكفر، واعتقاد السنَّة ومجانبة البدعة، واعتقاد الطاعة، ومجانبة الأصرار على المكروه». ومنها أيضاً اعتقاد التواضع ونفي الكبر، واعتقاد النصح للعباد والخير لهم، وكراهية نزول البلاء بالمسلمين، والحِلم بدلاً من الغيظ، وطلب الرضى، وتجنب السخط، والاهتمام والعزم، وفرح الرضى، والسلامة من الآثام والذكر. وأحزان القلب، والكد بعد الحزن، والتوبة النصوح[6].

وفي البداية توجد تعريفات للمقامات والأحوال. فالنص الصوفي إبداع خالص

(1) **الفتوحات**، جـ4.
(2) **المسائل**، ص 144-183.
(3) السابق، ص144-147.
(4) السابق، ص 148.
(5) **جامع الأصول**، جـ1، ص67-68.
(6) **المسائل**، ص127-132.

لم يتحول بعدُ إلى صياغات نظرية وتعريفات وحدود كما حدث عند المؤرخين، الطوسي في **اللمع**، وأبي طالب المكي في **قوت القلوب**، والسلمي في **الطبقات**، والقشيري في **الرسالة**[1]. و يظهر موضوع المقامات والأحوال عند الصوفية المبدعين والصوفية المؤرخين مما يدل على أهميته[2]. بل هو في أول كتاب في **اللمع**، فالمقامات حتى القرن الرابع قبل المؤرخين، مثل الطوسي وأبي طالب المكي والسلمي، مازالت عملية في طور التكوين.

ولا تُنال المقامات والدرجات إلا برفض الهنات وما دون الهنات. فالمقامات نتيجة الجهد الإنساني ومقاومة ضعف الذات وتحويله إلى قوة[3]. المقامات والأحوال أوامر وليست فقط حالات[4]. المقام ما يتحقق به العبد بمنازلة من الآداب مما يتوصل إليه بنوع تعرف، ويتحقق به بضرب تطلب ومقاساة تكلف. فمقام كل إنسان موضع إقامته. المقام هو الإقامة بشهود إقامة الله به[5].

والمقامات لا ترى. ورؤيتها اتهام للنفس[6]. وتتفرع المقامات وربما الأحوال من بعضها البعض كالشجرة من البذور إلى الأوراق والثمار. فالصدق والإخلاص أصل كل حال. من الصدق يتشعب الصبر والقناعة والزهد والرضا والأنس. وإذا كمل صدق الصادق لم يملك ما في يديه. وعن الإخلاص يتشعب اليقين والخوف والحب والإجلال والحياء والتعظيم[7]. ولا يكون المخلص مخلصاً حتى يُفرد الله من الأشباه والأنداد وإرادة التوحيد وإقامة النفل والفرض.

ولكل مؤمن في هذه المقامات موطن يعرف به حاله. فالحال متضامن مع

(1) مثل «الشكر الذي به تدوم النعم. أليس من جملة هذه النعم انفتاح باب الشكر على القلب بالتلذذ، وعلى اللسان بالتردد». **الإشارات**، ص7.
(2) الأحوال والمقامات، **اللمع**، ص65-104.
(3) السابق، ص32.
(4) «توكل وخف، وأرجُ وسلّم، وأرض وأصبر، وأشكر وأطمع، وأخلص وتيقن، وأحبب وثق، وأعرف وأسترح». السابق، ص260.
(5) **القشيرية**، ص32.
(6) المحاسبي: **رسالة في التصوف**.
(7) السابق، ص170.

المقام مثل الخوف والرجاء، والصبر والرضا، والحب والحياء. وقوة كل حال وضعفه طبقاً لإيمان العبد ومعرفته[1].

وتتصل المقامات بعضها بالبعض بالرغم من تمايزها. فإذا كان الاسم هو الله، فإن اليقين هو الصبر، والاتصال هو التوكل، والعبد السعيد هو المفوض[2]. وتتداخل المقامات وأحياناً الأحوال في سياق واحد. فالمهم عملية التحول والارتقاء وليس التمييز بينها في حدود فاصلة[3]. والاستعانة بالصبر يؤدي إلى الاستسلام الممزوج بالتوكل، والوصول بالمحبة المتصلة بالصدق يؤدي إلى الإخلاص الذي ينتهي بالوجد والذي يخلق الموجود[4]. الطاعة في الإخلاص، والعطية في الرضا، والإشارة في التجريد. وتتداخل المقامات ويتسلسل بعضها من بعض. فلا رضى لمن لا يصبر، ولا كمال لمن لا يشكر. وقد وصل العارفون إلى محبته وشكروه على نعمته[5]. وتتوالى المقامات، يؤدي كل منها إلى الآخر. فالذِكر يؤدي إلى الشكر، يرزق الله الإنسان حلاوة الذكر فيشكره لحلاوته ويأنس بقربه. وإن قصر في الشكر أجرى الذكر على لسانه وسلبه حلاوته[6]. مع أن المقام من جهد الإنسان لا يتدخل الله فيه. ويصاغ شعراً. ويخضع لضرورات الشعر وتجاربه وليس للتعريفات الصوفية للحزن أو الرضى[7].

وهناك تداخل بين المقامات. فقلوب العارفين أوعية للذكر، وقلوب أهل

---

(1) السابق، ص172-175.

(2) **التستري**، ص322.

(3) «تقلبت في فقرك وصبرك، وبمشهد منا صبرت على بلواك ومحنتك، ونحن سبكناك في اختلاف أحوالك لتصلح في خدمتنا في آخر أمرك». **الإشارات**، ص50.

(4) «واستعن عليه بالصبر، وصل الصبر بالاستسلام، وأمزُج الاستسلام بالتوكل، وخلِّ التوكل بالمحبة،وثبِّت المحبة بالصدق، وجُل في أثناء الصدق بالإخلاص، ومُج في الإخلاص بالوجد، وَجُدْ فَي الوجد بالموجود». السابق، ص64، 326.

(5) أبو علي الروذباري، السابق، ص357.

(6) أبو علي بن الكاتب، السابق، ص387.

(7) كم تجرعت من غيظ ومن أسف — إذا تجدد حُزنٌ هوّن الماضي
وكم غضبت فما باليتمو غضبي — حتى رجَعتُ بقلب ساخط راض
السابق، ص239.

الدنيا أوعية للطمع، وقلوب الزاهدين أوعية للتوكل، وقلوب الفقراء أوعية القناعة، وقلوب المتوكلين أوعية الرضا[1].

ومقامات أهل النظر في النظر شتى: النظر أو الاستفادة أو العيان والمكاشفة أو المنافسة في المشاهدة أو المشاكلة والمماثلة أو الطيبة والملاحظة أو الإشراف والمطالعة[2].

وإذا أوصل الله أحداً إلى مقام ومنع حُرمة أهله والالتذاذ بالوصول، فهو مغرور مستدرج لأن من صفات الواصلين الكشف وعدم الحياء والالتذاذ[3]. وهل يستدرج الله الإنسان ليكشف غروره؟ وتختتم المقامات بمقام الاستغفار ليرى العبد تقصيره في جميع أفعاله وأحواله ليستغفر منها[4].

ولماذا تتوقف المقامات على سبعة أو حتى ثلاثة عشر مقاماً؟ ولماذا لا تدخل بعض محاسن الأخلاق ضمن المقامات مثل التواضع الصدق والإخلاص والوفاء والتقوى والكرم والعدل والجهد؟ وللوصول إلى الحقيقة هناك مقامات أربعين[5]. وهي مقامات أهل الصفا والصفوية. وهي في مجموعها عز مقامات الصوفية المعروفة. ولا يذكر منها إلا الصدق[6]. وهي أقرب إلى الأحوال منها إلى المقامات. والأحوال مزدوجة أحياناً طبقاً للسجع، وأحياناً أخرى مثلّثةً[7]. وأحياناً مفردة وهو الأصل[8]. وهي مقام معلوم، مفهوم وغير مفهوم. والنبوة الحقيقة

---

(1) منصور بن عمار، **طبقات الصوفية**، ص135.

(2) أبو الحسن القوري، السابق، ص169.

(3) أبو بكر بن حامد الترمذي، السابق، ص283.

(4) أبو عبد اللّه محمد بن منازل، السابق، ص368.

(5) «الحقيقة دقيقة، طرقها مضيئة، فيها نيران شهيقة، ودونها مغاور عميقة. الغريب سلكها. يخبر عن قطع مقامات الأربعين». **أخبار**، ص 171.

(6) مثل: الأدب والرهب، السبب والطلب، الشره والنزه، الصفاء والصدق، الرفق والعتق، التسويح والترويح، والشهود والوجود، التعبير والتغيير، والامتداد والاعتداد، والانفراد والأنقياء، والشهود والحضور، والرياضة والخياطة، والافتقاد والاصطلاد، والتدبر والتحير، والرفض والنقض. السابق، ص171.

(7) مثل: العجب والعطب والطرب، العد والكد والرد، التدبر والتحير والتفكر، السابق، ص171.

(8) مثل التماني، المراد، البداية؛ السابق، ص171.

الحق، لا لطريقة الخلق، وهي دائرة الضبط. الحقيقة حق الحقائق في دقيقة الدقائق[1].

وقد يتداخل عدد من المقامات والأحوال معاً في عبارة واحدة، وهي في طريق التفرد مثل: النصيحة بدوام الشكر، وتقصير الأمل، وزيارة القبور بالهم، والجولان في الحشر بالقلب[2].

والتصوف هو طريق التحول من الجهل إلى العلم، ومن الفقر إلى الغنى، ومن الوحشة إلى الأنس، وهو أحد الأحوال، ومن البعد إلى القرب، وهما حالان، ومن التعب إلى الراحة[3]. يعيش أهل الصدق إيمانهم ويشغلهم تعبدهم. فالصدق هو مطابقة الذات لفعليها، الإيمان والعبادة[4].

وقد تتحول بعض المقامات إلى أصول الأشياء، فالصدق والرضا والحب وهي من المقامات بالإضافة إلى النصيحة. ويُعرف كل مقام بالآخر. فالصدق الصبر والرضا بترك الخلاف، والحب رؤية الله في كل شيء[5].

ومقام الصدق التوكل على الله فيما أمر به ونهى عنه[6]. فالمقامات يُعرف بعضها بالبعض الآخر لأنها تقوم بنفس الوظيفة. فالصدق يؤدي إلى التوكل أي السلوك الطبيعي اللاإرادي في تنفيذ أحكام الشرع، الأمر والنهي. من تكلم فيما لا يعنيه حرم الصدق لأنه كلام خارج من اللسان وليس من القلب[7]. وهي قلب التصوف وأطول الفصول.

والمقامات تسعة على وجه الترتيب: التوبة، الصبر، الشكر، الرجاء، الخوف، الزهد، التوكل، الرضا، المحبة، محبة الخصوص، وهي محبة المحبوب[8].

---

(1) السابق، ص81-82.

(2) السابق، ص73.

(3) السابق، ص105.

(4) **التستري**، ص271.

(5) السابق، ص288.

(6) السابق، ص327.

(7) السابق، ص343، 344.

(8) ترتيب المقامات كما 1- التوكل (73). 2- المحبة (65). 3- الزهد (60). 4- الخوف (34). 5- التوبة (30). 6- الرجاء (24). 7- الرضا (22). 8- الشكر (20). 9- الصبر (19).

وقد تتداخل الأحوال معها مثل الرجاء. فهو حال مع اليأس، وقد تتفاضل فيما بينها مثل الصبر والشكر، والخوف والرجاء. والحقيقية أنه لا تفضيل لأن كلاًّ منهما له مقامه ودرجته ووظيفته. ولا يمكن التفضيل بين الأحوال والمقامات لأنهما متمايزان، المقام درجة والحال علامة اجتيازه[1]. ومع ذلك خصوص الشاكرين أفضل من عموم الصابرين،ويعكس المقام الأخير، المحبة، كل المقامات السابقة مثل الخوف. بل وبعض الأحوال مثل البعد والسلو، والإعراض والحجاب والقبض والبسط[2].

والمقام لفظ قرآني[3]. وهو الذي يقوم بالعبد في الأوقات. هو مقام العبد بظاهره وباطنه في المعاملات والمجاهدات والإرادات. فمتى أقام العبد في شيء منه على التمام فهو مقامه حتى ينتقل إلى مقام آخر[4]. وصاحب المقام هو المقيم في مقام من مقامات القاصدين[5]. وهذا هو معنى «بذل المهج» أي بذل الجهد[6].

المقام إرادة. والمقامات إرادات. الأول استيلاء الحق وإلهامه، والثاني مكالمته مع العبد، والثالث رجوع إلى باطن الغلبة في الظاهر. فصار باطن الباطن ظاهر الظاهر، وغيب الغيب عيان العيان، وعيان العيان غيب الغيب. والقرب من الشيء بالتقوى هو البعد، والقرب منها بها هو القرب[7]. يبدو المقام هنا بفعل الله في الوجود الإنساني وعلمه ومكالمته والتوحيد بين القرب والبعد، بين الظاهر والباطن، بين الغيب والعيان، ويأتي الحق فيزيل التوقف. ويجيء الصوفي إلى الله بالله. يبدأ بمقام للمواجهة والمخاطبة والتي سمَّاها النفري فيما بعد «المواقف والمخاطبات». وأفضل الأحوال حل عقدة اللسان لا ترك النطق والبيان[8]. هنا تتداخل المقامات والأحوال، ويتداخل بذل المجهود في المقامات وعين الجود في

---

(1) السابق، ص406-407، 413، 431.

(2) السابق، ص115.

(3) ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾، ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾، **اللمع**، ص65.

(4) السابق، ص411.

(5) السابق، ص436.

(6) السابق، ص443.

(7) ﴿فَأَرَدتُّ﴾، ﴿فَأَرَدْنَآ﴾، ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ﴾، ابن عربي، **التفسير**، ص127.

(8) ﴿رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى﴾، ﴿قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ﴾، السابق، ص129-130.

الأحوال لصالح الأحوال، وتغليب الإرادة الإلٰهية على الإرادة الإنسانية. والمريدون في المقامات يتحركون من مقام إلى آخر. والمرادون تجاوزوا المقامات إلى رب المقامات[1]. والشرط ألا يرتقي إلى مقام حتى يستوفي أحكام المقام السابق. القناعة شرط التوكل. والتوكل شرط التسليم. والتوبة شرط الإنابة، والورع مقدمة للزهد[2].

والمقام هو مقام الرب[3]. ومقام الصديقين التسليم والانصراف. ومقام النبوة التسليم والوقوف[4]. وقد تقاس المقامات بالمدة الزمنية. وهي غير متساوية في الزمن. بعضها أسرع من بعض[5]. وهي مراحل لرقي النفس من الحداد عليها إلى المرآة ترى صورة غيرها. فترى الخلق موتى يكبَّر عليهم في صلاة الجنازة. وقد تكون المدة ثلاثين عاماً. وقد يكون ذكر الله حجاباً[6].

ويختلف الصوفية في عدد المقامات. وهي سبع في **اللمع**. ويخرج كل مقام على نحو تلقائي من المقام الآخر وهي: التوبة، الورع، الزهد، الفقر، الصبر، الرضا، التوكل[7]. فالتوبة تقتضي الورع، والورع يقتضي الزهد، والزهد يقتضي الفقر، والفقر يقتضي الصبر، والصبر يقتضي الرضا، والرضا يقتضي التوكل. السابق شرط واللاحق مشروط. وهي عدد وتر، سبع أم تسع. وتشاهد المقامات بعد كل وتر. لذلك كانت وتراً[8].

كما يختلف في ترتيبها وإن كان الغالب أنها تبدأ بالتوبة[9]. والمادة أولاً من الآيات القرآنية، ثم من الأحاديث النبوية، ثم من آثار الصحابة والتابعين، وأخيراً

(1) ﴿إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾، السابق، ص141.
(2) **القشيرية**، ص32.
(3) «اعرف مقامي وقم فيه». **المواقف**، ص145.
(4) السابق، ص202.
(5) «كنت اثنتي عشرة سنة حداداً على نفسي. وخمس سنين مرآة نفسي: وسنة أنظر فيما بينهما. فإذا في وسطي زنار ظاهر. فعملت في قطعه سنين. أنظر كيف أقطع فكشف لي ذلك. فنظرت إلى الخلق فرأيتهم موتى. فكبَّرت عليهم أربع تكبيرات». **شطحات**، ص97.
(6) «كنت ثلاثين سنة أذكر اللّٰه ثم سكنت فإذا حجابي ذِكر له». **شطحات**، ص104.
(7) **اللمع**، ص65.
(8) **المخاطبات**، ص225.
(9) **اللمع**، ص68.

من أقوال الصوفية دون إحصاء شامل بل اختياراً وطبقاً للقصد. وتغيب مصالح المسلمين. فقد كان التصوف في عصر النشأة، وليس في عصر إعادة البناء، في عصر آخر بعده بألف عام مع اختلاف العصرين، من عصر الانتصار إلى عصر الانكسار، ومن عصر التحرر إلى عصر الاحتلال.

والمقامات درجات في القرب دون الوصول. والمقام الإلهي لا تلجه الأقوال ولا تدخل الأعمال[1]. والمعرفة على قدر المقام[2]. وتتوالى المقامات والأحوال. ويعرّف بعضها بعضاً بالقدر والنسبة والعلاقة[3]. وقد تكون المقامات ألف مقام ومقامٌ مثل ألف ليلة وليلة[4].

وهل يؤدي المقام والوقت إلى غياب يمنع الإنسان من النظر إلى أمامه وورائه؟[5]. بدايات المقامات أرفاق وغنى وكفاية، لكن إذا تمكن أتته البلاء. فنهاية الرفق الوقوع. ولا حافظ له إلا الممسك. بالرغم من أن المقامات من بذل المجهود إلا أن صاحبه يقع وفي حاجة إلى من يمسك به وهو الله ماسك كل شيء.

المقام درجة ارتقاء، ولكن العيب هو أن اتجاه الارتقاء إلى أعلى وليس إلى الأمام، اتجاه رأسي وليس اتجاهاً أفقياً مما يجعل الرقي إلى أعلى وليس إلى الأمام، في الروح المفارقة وليس في التاريخ الحال[6].

(1) السابق، ص228، 236.
(2) السابق، ص234.
(3) وذلك مثل الأشعث الأنظر، والأعرف الأشعث، والأعدل الأعرف، والأعمل الأعدل، والأنفع الأعمل، والأصبر الأنفع، والأشكر الأصبر، والأذكر الأشكر، والأستر الأذكر، والأسهر الأستر، والأجمع الأشهر، والأسرع الأجمع، والأخف الأسرع، والأورع الأخف، والأهيب الأورع، والأرهب الأهيب، والأرغب الأرهب، والأطلب الأرغب، والأنسب الأطلب، والأعظم الأنسب، والأعظم الأعظم، والأحكم الأعظم، والألزم الأحكم، والأكتم الألزم، والأسلم الأكتم، والأقدم الأسلم، والأدوم الأقوم، والأخص الأدوم، والأخلص الأخلص، والأغض الأخلص، والأخلص الأنقذ، والأنصت الأفزع، والأفزع الأنصت، والأقرب الأفزع، والأأدب الأقرب، والأأدب الأدأب، والأنصب الأأدب، والأيقن الأنصب، والأنصب الأيقن، والأشهد الأثبت، والأحضر الأشهد، والأحضر الأحضر، والأكشف الأحضر، السابق، ص238-239.
(4) روزبهان: **مشرب الأرواح**: ألف مقام ومقام من مقامات العارفين بالله تعالى.
(5) أبو عبد الله محمد بن منازل، **طبقات الصوفية**، ص368.
(6) أبو عثمان المغربي، السابق، ص482-483.

والمقام لفظ قرآني أكثر ذِكراً من الحال، ويعني مقام الرب، ومقام إبراهيم. وهو لفظ الكريم والأمين والمحمود والمعلوم وخير مقام[1]. والمعاني القريبة من نفس الحقل الدلالي القيام للصلاة ولممارسة العبادات، وقيام الساعة، والقيام لليتامى، وقيام الروح والملائكة والناس لرب العالمين. ومنها الاستقامة أي القيام الصحيح، ومنها القيام بالقسط أي الالتزام به، والقيام بالشهادة وبآيات الله. بل إن «القيوم» أحد أسماء الله الحسنى. وفي الوجدان العربي المعاصر يغيب «القيام» بأي شيء بمعنى الالتزام القيام بالنفس، وبالوطن، وبالحق، وبالعدل، وبشهادة الحق، وبالدفاع عن العدل ضد الظلم.

وهناك مقامات تختفي وأخرى تظهر، فالسر أحد المقامات. وهي علاقة خاصة بين العبد والرب. يُطلع العبد على سر ذاته وسر ذات الله. ويطلع الرب على سر العبد. وقول «لا إله إلا الله» في السر تعبّد للبشر بالأسامي. وتتضمن الشهادة كل الأسامي ضرورةً. أما الدعاء وطلب العون هو تعبّد بالشر وإن كان دعاءً محموداً. وأدب السر بإظهار الفقر بالعلم وعلم العلم، وبالأدب وأدب الأدب، وليس للسر غاية كما أن ليس للحكمة غاية. وإنما يظهره النطق[2]. وحفظ الأسرار سلامة الدوام. والكسر في العلن، والقطع في الكشف[3]. ومن كان له في سره حال يعرفها بينه وبين الله لا يحفظ الجوارح، ولا يملك النفس، ولا يسلم من الهوى[4].

و«السر» مقولة معرفية ينبثق منها الوجود. والسر في السر ترجمة إلى السر. ويلتقي السران سر الرب وسر العبد في السر. ولا يخضع السر للإرادة ولكنه يهيم بالسر إلى السر في السر[5]. ومن خشي السر ولم يراع العهد كان غشاشاً. ضاع عقله ولا يؤمن على سر بعد ذلك. وتحول من حال الأنس إلى حال الوحشة، ومن

(1) ذكر لفظ «مقام» 14 مرة، مقام الرب (4)، مقامك، مقام إبراهيم، مقام كريم (2)، مقام آمين، محمود، معلوم، خير مقاماً (1).

(2) **التستري**، ص213-214.

(3) السابق، ص244.

(4) السابق، ص246.

(5) سرائر سري في ترجمان إلى سري ... إذا ما التقى سري وسرك في السر
وما أمر سر السر مني دائماً ... أهيم بسر السر منه إلى سري
الديوان، ص306.

القرب إلى البعد. ويكون قد طاش[1]. والسر في القلب. يعبِّر عنه اللسان ولكن ليس تعبيرا كاملاً، فالبعض يظل سراً[2]. ويخفى السر على فهم كل حي[3].

ولم يبعد التصوف عن الوطن وحياة الناس وتظلم الحكم والسلاطين والدول. إنما هو رد فعل على السلب بالإيمان، وعلى السياسة بالأخلاق، وعلى النظام السياسي الخارجي بالنظام الأخلاقي الداخلي. الوطن مقام العاشق حيث انتهى حاله مع الحق. والأوطان مقامات أهل النهايات. لذلك قال الرسول «حب الوطن من الإيمان»، ليس المقصود وطن القلب بل وطن الشعب والأمة[4].

ويمكن إبراز بعض المقامات المهمشة من أجل تحويل التصوف إلى ثقافة سياسية شعبية تقدمية مثل مقام التقدم. فالتقدم لأكابر المعرفة. فإذا كبر العارف في المعرفة وعظم في التوحيد وكمل في العشق. وصار سيداً يتقدم على كل أحد في زمانه فإنه يتقدم على كل شيء[5].

2 ـ التوبة

التوبة أصل كل مقام[6]. وهي أول المقامات، أول ما يؤمر به المبتدئ

(1) من ساوره فأبدى كل ما ستروا ... ولم يراع اتصالا كان غشاشا
إذا النفوس أذاعت سر ما عملت ... فكل ما حملت من عقلها حاشا
من لم يصن سر مولاه وسيده ... لم يأمنوه على الأسرار ما عاشا
وعاقوه على ما كان من زلل ... وأبدلوه من الإيناس إيحاشا
وجانبوه فلم يصلح لقربهم ... ولما رأوه على الأسرار نباشا
من أطلعوه على سر فباح به ... فذلك مثلي بين الناس قد طاشا
السابق، ص311.

(2) قد تحققتك في سر ... ي فناجاك لساني
فاجتمعنا لمعان ... وافترقنا لمعان
السابق، ص328.

(3) سرائر الحق لا تبدو لمحتجب ... أخفاه عنك فلا تعرض لمخفيه
لا تضن نفسك فيما لست تدركه ... حاشا الحقيقة أن تبدو فتوفيه
السابق، ص335.

(4) **مشرب الأوراح**، ص143.

(5) السابق، ص253.

(6) **التستري**، ص302-303.

التحويل في الحركات المذمومة في الحاضر ثم الشغل بالمستقبل والإقلاع عن الماضي ثم التفريد لأمر الله أي الاختصاص به كفرد ثم الرشاد أي حسن التوجه ثم الثبات أي الإصرار والعزيمة، ثم نيل الثواب من الله، ثم البيان أي القدرة على التعبير، ثم المعرفة، ثم القرب، ثم المناجاة، ثم المصافاة، ثم الموالاة. ولا يحدث ذلك إلا بالإيمان. والعلم والقدوة زاد. والرضا والتسليم مراد. والتفويض والتوكل حال. ثم يمن الله بالمغفرة ويصبح المقام مقام حملة العرش بلا حول ولا قوة إلا بالله[1]. فالتوبة عملية طويلة من الوقت حتى القرب. ومن زل أو عثر في فرض أهون ممن زل في سعة في التوبة لأنه زل ضرورة لا اختياراً. الأول خرج على سكون القلب، والثاني على هياجه. الأول خروج غزو أو جهاد أو رباط أو حج. والثاني خروج كسب وإثراء وطمع[2]. التائب لا تقله أرض ولا يظله سماء. وهو معلّق بالعرش، مشتغل بصاحب العرش حتى يفارق الدنيا. وتعني هذه الصورة أن الأرض لم تعد تضيق به بما رحبت، وأنه أصبح محرراً من الإحساس بالذنب، العالم كله فسيح بالنسبة له. ويسمع التائب المخلص لتوبته ولو للحظة أو بنفس أنه قد حيا من جديد. فالذنب موت الضمير. وهو نفس وضع التائب الذي يتوب عن غفلته في الطاعات في كل لحظة ولمحة وطرفة. ولا يوجد أحق على الخلق من التوبة. فالتوبة تجدد مستمر. وليس الذنب له الكلمة الأخيرة بل البراءة الأصلية.

وتبدأ التوبة. يتلوها أدب النفس كي تصح[3]. تبدأ التوبة ثم يتلو الأدب[4]. فمن أدب نفسه صلحت توبته. الغاية من التوبة أدب النفس وتهذيب الأخلاق، حقيقة التوبة أن تضيق الأرض بما رحبت لا ليكون فراراً ثم تضيق النفس[5]. صدق التوبة إن كانت بالبدن فالبدن، وإن كانت بالنفس فبالنفس، وإن كانت بالمال فبالمال. فالتوبة على مستويات. وإذا كان على الرجل مظالم للعباد وأراد أن يتوب لم يسعه شبع من الخير حتى يرد المظالم إلى أهلها. وإذا لم تكن له غلة فليس عليه أن يشبع من خبز غيره. وإذا فوّض أمره إلى الله، إذا أعطاه الله أعطى يوم

---

(1) السابق، ص312.
(2) **عوارف المعارف**، جـ4، ص300-301، 335-345.
(3) **التستري**، ص312.
(4) السابق، ص322.
(5) ذو النون، **القشيرية**، ص47.

القيامة فإنه لا يحق له في الدنيا أن يأخذ إلا ما يسد رمقه[1]. فالتوبة ليست بالقول بل بالفعل. وإن محت حق الله فإنها لا تمحو حق الإنسان. للتوبة إذن ثلاثة معان: الندم، والعزم على ترك العادة إلى ما نهي عنه، والسعي في أداء المظالم[2]. التوبة عدم نسيان الذنب أو نسيانه سواء. هي ترك التسويف[3].

وتتضمَّن التوبة ثلاثة أمور: علم وحال وفعل[4]. العلم معرفة ضرر الذنوب عن طريق الندم، وهي واجبة أي فرض شرعي وأخلاقي على الفور. وهي عامة في الأشخاص والأحوال دون استثناء أحد حتى الأنبياء والأولياء. تتطلب اليقظة قبلها، والانتباه بعدها[5].

وتقوم على أركان أربعة: الأول في نفس التوبة، حقيقتها ووجوبها وعمومها وشروطها. والثاني فيما عنه التوبة وهي الذنوب وأقسامها وثوابها. والثالث تمامها وأقسام التائبين. والرابع دواؤها وعلاجها[6]. وتحتاج إلى المحاسبة[7]. وقد تتفرع إلى مقامَي الندم والإنابة[8]. وهما ركنا الإجابة والإنابة[9]. فهي توبتان: توبة الإنابة خوفاً من العقاب، وتوبة الاستجابة حياء من الكرم.

ويعني اتهام التوبة اتهام الإنسان نفسه في صحة توبته[10]. التوبة الرجوع إلى الله[11]. الرجوع عن كل شيء ذمه العلم إلى كل شيء مدحه العلم. فالعلم شرط التوبة. ولا يتم ذنب إلا عن جهل[12]. والتوبة من التوبة هي التوبة المزدوجة زيادة

---

(1) **التستري**، ص340.
(2) الجنيد، **القشيرية**، ص47.
(3) **التستري**، السابق، ص47.
(4) **الإحياء**، ج4، ص2-12.
(5) **عوارف المعارف**، ج4، ص303-306.
(6) **الإحياء**، ج4، ص2-59.
(7) **عوارف المعارف**، ج4، ص307-315.
(8) **لطائف الأعلام**، ج1، ص248.
(9) السابق، ص269.
(10) **لطائف الأعلام**، ص287.
(11) السابق، ص288-292.
(12) وهو رأي السوسي، **اللمع**، ص68. وهو أيضاً القول الشهير لسقراط «العلم فضيلة والجهل رذيلة».

في التوبة[1]. وقد تكون التوبة من العقوبة نظراً لذروة تكرارها بتكرر الذنوب[2]. وتعني لغة الرجوع. وقد يكون الذنب نتيجة النسيان. فالتوبة تذكر بالذنب[3]. التوبة من الذنب فريضة كما أن التوبة من الكفر فريضة[4]. التوبة خلاص من الذنوب[5]. وتوبة التحقيق هي التوبة الكاملة[6]. وهي توبة الكُمَّل الذين يشعرون بالافتقار إلى الله. وتوبة الانتهاء هي السير إلى الحضرة الإلٰهية. والتوبة المحمدية، وهي التقيد باسم خاص ونموذج معيَّن وهي التوبة الخاصة.

وتتعلَّق التوبة بباقي المقامات، فالتوبة من الزهد للقضاء على ما تبقى من حب الدنيا. والتوبة من التوكل هو التوكل المزدوج من أجل الوصول إلى التوكل التام، والتوبة من الطاعة تقوم على التواضع وعدم الغرور بالطاعة، بمقتضى الطريقة مع بعض الرياضات والمجاهدات. التوبة من الطاعات بمقتضى الحقيقة هو إرجاع الأمر كله إلى الله[7].

وتختلف درجات التوبة بالنسبة إلى درجات التائبين. فهناك توبة المريدين، والمتعرضين، والطالبين والقاصدين. فالمحققون مثلاً لا يذكرون ذنوبهم لعظمة الله في قلوبهم[8]. وهناك توبة العوام من الذنوب وتوبة الخواص من الغفلة، وتوبة خواص الخواص التوبة من كل شيء سوى الله. وذنوب المقربين سيِّئات الأبرار[9]. ورياء العارفين إخلاص المريدين[10]. والتوبة عن الذنوب، كبائرها وصغائرها دون تصنيف لها إلى ربوبية وشيطانية وبهيمية وسبعية. فالذنوب ليست

---

(1) السابق، ص288-292.

(2) هذا هو رأي الجنيد وسهل بن عبد اللّه، السابق، ص68. وهو أقرب إلى رأي أفلاطون: «العلم تذكُّر، والجهل نسيان».

(3) هذا رأي رُوَيْم بن أحمد، السابق، ص68.

(4) **التستري**، ص149.

(5) **طهارة القلوب**، ص101-117.

(6) السابق، ص293-296.

(7) لذلك قال ابن عربي:

تاب من الذنب أناس وما تاب من الطاعات إلا أنا

(8) الأول والثاني رأي ذو النون والثاني لأبي الحسن النوري، السابق، ص68.

(9) ذو النون، **القشيرية**، ص47.

(10) **الإحياء**، جـ4، ص15-32.

طبائع أو جِبِلَّات بل هي أفعال في مواقف. وكيف تكون الرذائل ذنوباً ربوبية؟ وهي ذنوب الجوارح والقلوب، والجوارح مرتبطة بالإرادات أي بالقدرة على أخذ القرار بناءً على التمييز أو الهوى. والكبائر معرفية مثل الكفر أو إنسانية مثل القتل أو مادية مثل السرقة. ولا يمكن الحكم مسبقاً على نتائجها وتقسيم البشر إلى هالكين معذبين وتائبين وثائرين. فهذا تجاوز للحكم الإنساني إلى الحكم الإلٰهي.

وقد تقترن مراتب التوبة بالاستقامة والتهذيب والقرب[1]. وهي أربع مراتب للطريق. التوبة أساس البناء. وهي الإنابة. وتوبة العوام، كافرين وفاسقين، ومؤمنين. وتوبة الخواص وهي عدم الانشغال بالدنيا. وتوبة خواص الخواص. وهي عدم انشغال القلوب بغير الله. وواضح أن المحاسبي هو الصوفي الأخلاقي بالأصالة، اسم على مسمًّى، لقيام أخلاقه على محاسبة النفس. فقد كتب في «التوبة» قبل أن تتحول إلى المقام الأول في الطريق. وتسمَّى أيضاً، «بدأ من أناب إلى الله». «الحجج النقلية أقل من التنظير العقلي»[2]. وقبل أن تصبح «التوبة» مصطلحاً كانت عبارة «بداية العودة إلى الله»، ثم العزم على تأديب النفس، ثم بداية الهداية، ثم خداع النفس، ثم دلائل الصدق في التوبة، ثم عزة مقام التائبين، ثم دلائل صدق الشاكرين[3].

والتوبة عود إلى السلوك القويم ما دام الله هو صوت الضمير في النفس، عود إلى الداخل وليس عوداً إلى أعلى. والعزم على تأديب النفس هو العزم على إصلاحها وتحسينها وإكمالها وتقويمها. التأديب عقاب، ولا يوجد أقسى من عذاب الضمير، عقاب النفس نعم أما تخويفها فلا. فلا تقوم تربية على عقاب أو تخويف. ولا توجد عقوبات مشروعة وغير مشروعة للنفس. فالعقاب نفسه غير مشروع لأنه يقوم على التخويف والزجر، سواءً كان شديداً أم ليناً. وتسليم النفس قيادها لنفسها ولإرادتها الحرة ولعزمها وتصميمها[4]. والتائبون ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ

(1) **جامع الأصول**، جـ1، ص69-75.
(2) المحاسبي، **التوبة**، ص17.
(3) يعتمد النص على آيتين فقط.
(4) تشمل بدايةً العودة إلى اللّه: معرفة اللّه. خلائق النفس الأمّارة بالسوء، وتشمل العزم على تأديب النفس: الوعظ والتذكير، عزل النفس عن مواطن المعصية، إدمان معاتبتها =

﴿يَحْزَنُونَ﴾. وكما التزمت التوبة في البداية بالشريعة قد تؤدي في النهاية إلى سقوط الكلفة. وهو ما سُمِّي فيما بعد «إسقاط التدبير»[1]. والتوبة في النهاية مقام يؤدي إلى مقامات أخرى مثل الشكر وأحوال أخرى مثل الرجاء.

يبدأ باستنفار الإلٰه الواحد القهار الكبير المتعال الذي خلق الناس للبلوى والاختبار، وأعد لهم الجنة والنار، وحذرهم من العصيان. فاشتد الكرب وعظم البلاء. وهو أشبه بنفير يوم القيامة[2]. فلمَ كل هذا التخويف والإذلال للنفس ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾؟ ولماذا توهم الموت وليس عشق الحياة؟ ولمَ هذا الإحساس بالذنب والنظرة السوداوية للنفس وللحياة؟ ولمَ هذا الخوف من العقاب والإنسان بريء يعيش على الفطرة، يفعل الخير قبل أن يميل نحو الشر؟ وأين المغفرة والرحمة وعدم القنوط من رحمة الله الغافر للذنوب جميعاً؟ ولماذا استدعاء آيات الخوف والرعب دون آيات العشق للحياة[3]. ولمَ الخوف مادامت هناك إمكانية للدفاع عن النفس والجدل والاستحقاق؟ لمَ توهم الموت قبل الحياة، والحزن قبل الفرح، والذنب قبل المغفرة، والشر قبل الخير، والتحذير قبل الفعل، والإدانة قبل البراءة، والاتهام قبل الشبهة، والكراهية قبل المحبة، والعزلة قبل الصحبة،

= وتخويفها، إباء النفس مفارقه الشهوات، علاجها بالصوم والجوع والتذكير، الحنين إلى بعض الشهوات دون البعض. عقوبات مشروعة للنفس. وتشمل بدايةً الهداية عقوبتها والتخويف من تسليم النفس قيادها. ويشمل خداع النفس الحنين إلى الشرف بين الناس، توهم فضلها على غيرها من الناس. اعتقاداتها مصطفاة وصادقة. وتشمل دلائل الصدق في التوبة: الجد في الطاعة، الحزن والخوف سقوط الكلفة في الطاعة، العلم بطريق التوبة، علم الرجاء والشكر والخوف.

(1) ابن عطاء اللّه السكندري: **إسقاط التدبير**.

(2) «الحمد لله الواحد القهار، العظيم الجبار، الكبير المتعال الذي جعلنا للبلوى والاختبار، وأعد لنا الجنة والنار، فعظم لذلك الخطر، وطال لذلك الحزن لمن عقل وأذكر حتى يعلم أين المصير وأين المستقر لأنه قد عصى الرب وخالف المولى، وأصبح أمسى بين الغضب والرضا. لا يدري أيها قد حل ووقع له. فعظم لذلك فيه، وطال لذلك حزنه، واشتد كربه حتى يعلم كيف عند اللّه حاله. فإلى اللّه فارغب في التوفيق، وإياه فسل العفو عن الذنوب، وبه فاستعن في كل الأمور. فعجبت كيف تقر عينك أو كيف يزايل الوجل والإشفاق قلبك، وقد عصيت ربك واستوجبت بعصيانك غضبه وعقابه. والموت لا محالة نازل بك بكربه وغضبه ونزعه وسكراته، فكأنك قد نزل بك وشيكاً سريعاً». **التوهم**، ص29.

(3) وذلك مثل ﴿فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ﴾، ﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ﴾.

والخذلان قبل النصر، والبكاء قبل الضحك؟[1]. وبعد الخوف يبدأ الطمع وتوهم السرور والجنان وحسن الأبواب وصحبة الملائكة وسرور القلب وحسن النجائب وصورها والحور العين[2]. وصف الغم أكبر وأكثر أثراً وأشد إيلاماً. العذاب في الدنيا واقع، والنعيم خيال. الخوف ليس أمراً متوهماً في حين أن التعويض عنه في المستقبل حلم. وما أسهل بعد ذلك أن يخاف الإنسان من السلطان وأن يطمع في قربه مادام بناؤه النفس قد قام على الخوف والطمع. وتكبير الصغائر تشديد كما أن تصغير الكبائر تسهيل[3].

والأفضل موقف الحكماء في **دفع الغم من الموت** لابن سينا و**دفع الأحزان** للكندي. إن الغاية من المعاد ليس الخوف منه بل الإعداد للمستقبل، والتوجه نحوه بترك الأثر فيه حتى تتراكم الأعمال الصالحة في الحاضر وينشأ التاريخ.

(1) «فتوهم نفسك لذلك الخوف والفزع والرعب والغربة والتحير إذا تبرأ منك الولد والوالد والأخ والصاحب والعشائر. وفررت منهم أجمعين. فكيف خذلتهم وخذلوك. ولولا عظم هول ذلك اليوم ما كان من الكرم والحفاظ أن تفر من أمك وأبيك وصاحبتك وبنيك وأخيك. ولكن عظم الخطر وأشتد الهول. فلا تلام على فرارك منهم ولا يلامون، ولم تخصهم بالفرار دون الأقرباء لبغضك إياهم. . ». **التوهم**، ص41. «فتوهم حين وقفت بالاضطراب والارتعاد يرعد قلبك. وتوهم مباشرة أيديهم على عضديك وغلظ أكفهم حين أخذوك. فتوهم نفسك كتوتة في أيديهم، وتوهم تخطيك الصفوف، طائر فؤادك، متخلع قلبك. فتوهم نفسك في أيديهم كذلك حتى انتهى بك إلى عرش الرحمن فقذفوا بك من أيديهم». السابق، ص43. «فتوهم ما حل من الوجل بفؤادك حين رفعت طرفك فنظرت إليه مضروباً على جهنم بدقته ودحوضه، وجهنم تخفق بأمواجها من تحته. خياله من منظر ما أفظعه وأهوله. وقد علمت أنك راكب فوقه وأنت تنظر إلى سوار جهنم من تحته، وتسمع قصيف أمواجها، وجلبة ثوراتها من أسفلها. . ». السابق، ص49. «فتوهم محرك على الجسر بشدة الخوف وضعف البدن وأن يكن مغضوباً يحيلك غير معفى عنك ولم تشعر إلا وقد زلت قدمك عن الصراط. . ». السابق، ص5. «فتوهم نفسك وقد طال فيها مكثك ألح العذاب فبلغت غاية الكرب، واشتد بك العطش فذكرت الشراب في الدنيا ففزعت إلى الجحيم فتناولت الإناء من يد الخازن الموكل لعذابك. فلما أخذته نشت كفك من تحته، وفسخت لحرارته وهيج حريقه، ثم قربته إلى فيك فشوى وجهك. ثم تجرعته فساغ حلقك. ثم دخل إلى جوفك فقطع أمعاءك. فناديت بالويل والثبور.وذكرت شراب الدنيا وبرده ولذته. ثم أقلعت الحريق فبادرت إلى حباط الجحيم لتبردتها. فلما اغتمست في الجحيم تسلخ من قرنك إلى قدمك. . . ». السابق، ص51–52.

(2) «بيان ما تعظم الضمائر من الذنوب»، **الإحياء**، ج4، ص32–34.

(3) السابق، ص61–73.

وقد كُتبت في بعض المقامات عدة مؤلفات مستقلة مثل **مقام التوبة**[1]. وفي **التوبة** لابن عساكر (571هـ) مجموعة من الأدلة النقلية وكأنها في علم الحديث أو في الفقه الأخلاقي دون تصورات أو تعريفات أو أي تحليل عقلي. ففي **الذب عمن تاب من الذنب طبقاً لمرضاة الرب** للدمشقي (842هـ) تغيب التصورات والتعريفات والدعوات الإنشائية لصالح الأدلة النقلية وكأنه في علم الحديث أو الفقه الأخلاقي. وأهم ما فيه التركيز على التوبة النصوح، منزلتها، والعبودية لها، والتلطف بالتائبين الصادقين وشرِّهم. أما **الإيضاح لمعنى التوبة والإصلاح** للشوكاني (1250هـ) فهي نظرة فقهيه شرعية وتحليل لغوي اصطلاحي للتوبة. والتوبة الخلقية لا تمنع من تطبيق الحد إذا كان الذنب فيه إضرار بالآخرين.

ويظهر موضوع التوبة في موقف «الموعظة»[2]. وتبدأ التوبة بالإعلان والصبر حتى يتمَّ الاستغفار. وتكون بأقصى العزم وأقوى همة. وهي بالصيام نهاراً، وبالقيام ليلاً. ثم تحولت إلى تعريف دقيق، انتباه القلب عن رقدة الغفلة ورؤية العبد ما هو عليه من سوء الحالة بالتوفيق للأصفاد إلى ما يخطر بباله من زواجر الحق يسمع قلبه[3]. التوبة حق الخلق وواجب عليه[4]. وعلامة صدقها ترك ماله مع ما ليس له[5]. وعدم التوبة من ذنب يجر إلى ذنب آخر مع نسيان الذنب الأول. ومن عمل حسنة تجره أيضاً إلى حسنة أخرى تبصره بتقصيره في الأولى بالتوبة عنه[6]. والتوبة مفتوحة حتى لحظة الغرغرة إلى معاينة الموت. والتائب من الذنب كمن لا ذنب له. التائب حبيب الله. والله أهل لأن يُتقى من جانب الإنسان ولأن يغفر من جانبه. التوبة تمحو كل سيئة وترفع درجة. ولها مقامات وأحوال[7]. التوبة الصحيحة

(1) وذلك مثل: ابن ناصر الدين الدمشقي: **الذب عمن تاب عن الذنب طلباً لمرضاة الرب**. ابن عساكر الدمشقي: **التوبة**. الشوكاني: **الإيضاح لمعنى التوبة والإصلاح**.

(2) «موقف الموعظة»، **المواقف**، ص184-185.

(3) **القشيرية**، ص46.

(4) **التستري**، ص91.

(5) السابق، ص154-155.

(6) السابق، ص181-182.

(7) السابق، ص253-254.

موالاة الله. وما سوى ذلك توبة زائفة. وأحسن عبادة هي حسن الظن باللّه أي الثقة المطلقة. والخطورة نقل ذلك إلى الرئيس أو رب الأسرة، الثقة بالرؤساء. وأدنى توبة عدم التسويف في تجنب النواهي أو إتيان الأوامر. التوبة في الحال، في التو اللحظة، وعدم الإصرار على الفعل. والتوبة الخاصة بها ثلاث لحظات: ترك الزلة في الحال، والندم على ما فات، والعزم على عدم العودة في المستقبل. فالتوبة حركة في الزمان، ارتقاء وتقدم كما هو الحال في **الفصوص**. وهي الندامة والإقلاع والتحويل، الندامة على الماضي والإقلاع في الحاضر، والتحويل في المستقبل من الحركات المذمومة إلى الحركات المحمودة. التوبة ثلاثة أفعال للشعور: الاعتراف، والندم، والإقلاع. وهي أفعال النية في الحاضر والماضي والمستقبل[1]. لها مراحل ثلاث: أولها التوبة وأوسطها الإنابة خوفا من العقاب أو طمعاً في الثواب، وآخرها الأوبة[2]. التوبة للمؤمنين، والإنابة للأولياء والمقربين، والأوبة صفة الأنبياء والمرسلين. ولا تصح التوبة إلا بلزوم الصمت، ولا يصح الصمت دون الخلوة، ولا تصح الخلوة إلا بأكل الحلال، ولا يصح أكل الحلال إلا بأداء حق الله، ولا يصح أداء حق الله إلا بحفظ الجوارح، ولا يصح ذلك كله إلا بالاستعانة بالله، هذا الفكر الشارطي، موقف المشروط على الشرط ثم الشرط على شرط حتى الوصول إلى الشرط الأقصى وهو الله مثل الفكر العِلّيِّ الذي يجعل الله هو العلة الأولى، والفكر الغائي الذي يجعل الله هو الغاية الأولى.

وعلامة صدق التوبة ترك ما ليس للتائب أي خلع العلاقة مع العالم وعدم الندم على حلاوة ما فات، ولذة القلب به. فالحلاوة طبع الجسد، والرجوع إلى الله قادر على تجاوز الطبع حتى لو كثرت الذنوب. ثم يأتي الشكر بالقلب وإلزام النفس بالإنكار والنسيان[3].

والتوبة فريضة. وتتمُّ بأربعة أشياء: إصرار القلب على عدم المعاودة، والاستغفار بالندم، ورد التبعات والمظالم، وحفظ الجوارح من الحواس السبع: السمع والبصر واللسان والشم واليدان والرجلان، والقلب أميرها. وبه يتمُّ صلاح

(1) أبو علي الروزباري، السابق، ص357.

(2) **القشيرية**، ص47.

(3) السابق، ص301-302.

الجسد[1]. بعدها يبدأ الإخلاص في العمل وحسن الظن عند الشبهة. التوبة دواء، غسيل للقلب، تغيُّر دائم، وهي ضرورية في الحياة وقبل الموت لضمان استمرار الحياة[2]. وما يبعث العبد على التوبة ترك الإصرار. وما يبعث على ترك الإصرار ملازمة الخوف[3]. ومع ذلك التوبة أن يرى الإنسان جرأته على الله وحلم الله معه[4]. ولو أن التوبة طرقت باب الصوفي ما أذن لها. إلا أنه ينجو بها من الله[5]. وطلب الإرادة قبل تصحيح مقام التوبة غفلة عن الطلب[6]. التائب هو الذي يتوب من غفلاته وطاعاته[7]. فالتوبة داخلية وليست فقط خارجية، توبة عن أصول النفس وليس عن أعمال اليد. التوبة من الزلات ومن القذلات ومن رؤية الحسنات[8]. والغفلة عن التوبة من ذنب شر من ارتكابه[9]. فالأفعال أفعال الشعور لا أفعال الجوارح.

وللتوبة شروطها[10]. إما قبولها أو عدم قبولها. فلا تُعرف إلا بآثارها الإيجابي في السلوك الإنساني في العاجل القريب وليس في الآجل البعيد. وهي مستمرة إلى آخر العمر. ولا حدود لها في عدد الذنوب[11]. والناس في ذلك طبقات. الأولى العصاة التائبون إلى آخر العمر. والثانية المستقيمون والمطيعون باستثناء بعض الذنوب. والثالثة التائبون الذين غلبتهم الشهوات في بعض الذنوب عن قصد. والرابعة التائبون العائدون إلى الذنب. والسلوك الإنساني لا يصنف وهذا القسم الأخير الذي لم يستفد من التوبة ليس أمامه إلا الاستغفار

---

(1) السابق، ص112-113.

(2) فتب قبل الممات وقبل يوم ... يلاقي العبد ما كتبت يداه
الديوان، ص287.

(3) ذو النون، **طبقات الصوفية**، ص20.

(4) المحاسبي، السابق، ص58.

(5) شقيق البلخي، السابق، ص65.

(6) يوسف بن الحسين البغدادي، السابق، ص189.

(7) محفوظ بن محمد النيسابوري، السابق، ص273.

(8) التميمي، **القشيرية**، ص47.

(9) أبو جعفر بن سنان، **طبقات الصوفية**، ص333.

(10) **الإحياء**، ج4، ص12-15، 34-43.

(11) السابق، ص13-49.

باللسان وبالجوارح. ومن الغرور مقابلة الإساءة بالإحسان، وترك الإنابة والتوبة تحت وهم التسامح في الهفوات وكأنه يكفي لبسط الحق. فالتوبة أعلى من التسامح[1]. وكبير الإساءة مع التوبة والندامة أصغر من صغيرها مع الإصرار[2]. وقليل الإحسان مع الإخلاص أكثر من كثيره مع الرياء والعجب والآفات.

والتوبة لها سندها في الآيات والأحاديث وأقوال الصحابة والتابعين والصوفية الأوائل[3]. التوبة النصوح ندم بالقلب، واستغفار باللسان، وترك بالجوارح، وإضمار بعدم العودة إلى الذنب. وهي طريق الاستقامة. تفرض عشر خصال: فرض عدم عصيان الله، عدم الإصرار على معصية في حالة الابتلاء، التوبة عنها، الندم على ما فرط، عقد الاستقامة على الطاعة حتى الموت، وخوف العقوبة، ورجاء المغفرة، والاعتراف بالذنب، والاعتقاد بأن الله قدر عليه ذلك وأنه عدل عنه، والمتابعة بالعمل الصالح بالكفارات[4].

ولا تصح التوبة حتى تُنسى الشهوات، ويذكر الحزن دون أن يفارق القلب، والابتعاد عن الذنب في السر والعلن. ولا يكون المريد تائباً حتى لا يعصى عشرين سنة أي أهمية العزم في المستقبل[5]. وعلامة صدق التائب أن يستبدل بحلاوة الهوى حلاوة الطاعة، وبحزن الذنب سرور الإنابة.

وأحسن ما يعقل الذنب من الأعمال بعد التوبة ثمانية: أربعة من أعمال الجوارح مثل الصلاة والاستغفار، وأربعة من أعمال القلوب وهي: اعتقاد التوبة، وحب الإقلاع، وخوف العقاب، ورجاء المغفرة. وتتضمن التوبة الكلية الواحدة عشر توبات تفصيلية من العودة إلى الذنب. والقول به، والاجتماع عن سبب الذنب، والسعي إلى مثله، والنظر إليه، الاستماع إلى القائلين به، والهمة، والتقصير، وألا تكون لوجه الله، والارتكان إليها مع التقصير.

والذنوب على درجات، منها مهلكات مثل الكبر والفخر والجبرية وحب

(1) السابق، ص359.

(2) أبو جعفر بن سنان، السابق، ص334.

(3) «ذكر فروض التوبة وشرح فضائلها ووصف التوابين». **قوت القلوب**، جا، ص364-394.

(4) **القشيرية**، ص45.

(5) **لطائف الأعلام**، جا، ص287.

الحمد والمدح، ووصف الأفراد والغنى. ومنها أخلاق الشياطين مثل الحيلة والخداع والفساد والحسد والبغي. وهناك ست من كبائر البدع: القدرية، المرجئة، والرافضة، والإباضية والجهمية الشاطحون من المغالطين. وواضح أن التصوف رد فعل على الفرق الكلامية. وهناك معاصٍ تتعلَّق بالإنسان ومظالم العباد مثل الضرب، وشتم الأعراض، وأخذ الأموال والكذب والبهتان. وهناك أخلاق تتعلَّق بالإنسان وحده مثل الشهوات، الكبائر منها والصغائر.

توبة الناس من الذنوب وتوبة الصوفية من الأقوال، من الحروف واللغة العاجزة عن التعبير عن التوحيد في صيغة «لا إله إلا الله». فكيف يخرج الحق من الآلة وهي اللغة؟[1]. توبة الناس توبة من المعاصي، وتوبة الصوفية توبة الطاعة ألف توبة. الأولى توبة فعل قد يتكرر. والثانية توبة مبدأ عام شامل ينتظم كل الأفعال[2].

وما يبعث العبد على التوبة وترك الإصرار الخوف والرجاء. فالأحوال هنا ليست مجرد عوارض وعلامات وإشارات على الانتقال من مقام إلى مقام، بل هي وسائل لفك أسر القلب، وترك الإصرار. وتتوالي النصوص من القرآن والحديث، وتتكاثر الروايات بحيث يغيب العرض النظري والتحليل النفسي[3]. وما يحل به المُصرُّ إصراره ويبعثه على التوبة من الذنوب هو الخوف والتخويف بالفكر في المعاد وهجوم الموت وعظيم حب الله، ووجوب طاعته وعدم تضييع أوامره، وركوب نواهيه. والفكرة ثقيلة على العباد لقطع راحة القلب عن النظر في الدنيا بذكر الآخرة، وبالتفكر في المعاد وشدته على النفس، والانقطاع عن كل ذلة لا تقربه إلى الرب[4]. وما يُنال به الخوف والرجا هو تعظيم المعرفة بعظم قدر الوعد والوعيد بالتخويف بشدة العذاب والترجي لعظيم الثواب. ويُنال التخويف بالذكر والفكر في العاقبة[5].

---

(1) «توبة الناس من ذنوبهم، وتوبتي من قولي: لا إله إلا اللّه. أني أقول بالآلة والحرف. والحق خارج عن الحروف والآلة». **شطحات**، ص104.

(2) «توبة المعصية واحدة، وتوبة الطاعة ألف توبة». السابق، ص104.

(3) «ما يبعث العبد على التوبة وترك الإصرار». السابق، ص68-71.

(4) «ما يحل به المصر إصراره ووصف ثقل الفكرة على القلب». السابق، ص74.

(5) «ما ينال به خوف وعيد اللّه تعالى». السابق، ص72-73.

والمُصرُّون ثلاث منازل: كثرة الذنوب وطول الغفلة، والاحتجاب عن الآخرة وهدم أثر التخويف، وقلة الذنوب وقصر الغفلة وعدم الاحتجاب عن الآخرة، والتوبة عن بعض الذنوب مع الإصرار على الباقي والتفاوت في الخوف. وما يقوي العزم على التوبة وترك الإصرار هو الندم على الجملة وليس بالأعيان لأن بعض الذنوب يسترها الهوى ويحول النسيان بينها[1]. والمُصرُّون على الذنوب منازل ثلاث: الإقامة على الذنوب وطلب التوبة على غير حقيقتها، وغياب فكرة الطلب والخوف والعمى والجهل والشرود والإقامة على الذنوب. ويمكن قطع التسويف للتوبة بخوف العاجلة، والخوف من الانتقام[2].

تخف الفكرة على القلب بالعناية. وتنتج عن عظيم المعرفة بعظم قدر الفكرة من منافع الدنيا والآخرة أو الغفلة عنهما[3].

والتوبة ليست من فعل العبد إلى الرب، بل من فعل الرب إلى العبد. مع أنها مقام والمقامات مكاسب والحالات مواهب[4]. ومن ثم يُسلب من العبد جهده لحساب الرب. والله كهف التائبين. وإليه ملجأ الخاطئين[5]. وللعبد أن يستغفر ويتوب. ويفتح له الله باب التوبة أكثر من مرة حتى آخر باب[6]. من استغفر الله وهو ملازم للذنب حرم عليه التوبة والإنابة إليه[7]. والاستغفار من غير إقلاع توبة الكاذبين[8]. وزلة واحدة بعد التوبة أقبح من سبعين قبلها. التوبة من كل شيء سوى الله. ليس للعبد في التوبة شيء لأنها إليه لا منه. ولو تاب الله على المذنب لتاب[9]. التوبة دوام الانكسار وملازمة التنصل والاستغفار. هي استشعار الوجل

(1) «وصف منازل المصرين، وبم يقوى العزم على التوبة وترك الإصرار». السابق، ص81-83.

(2) «منازل المُصرِّين المقيمين على الذنوب وذِكر ما يبعثهم على التوبة وقطع التسويف». السابق، ص148-153.

(3) «ما تخف به الفكرة على القلب»، السابق، ص75-77.

(4) «لا بل لو تاب عليك لتبت». **رابعة**، ص124، 138. «إذا لم يتفضل عليه اللّه بالتوبة فكيف يتوب؟ وإذا تاب عليه فلا شك أنه سيتقبل توبته». السابق، ص151.

(5) **المخاطبات**، ص233.

(6) السابق، ص250.

(7) أبو بكر بن يزدانيار، السابق، ص409.

(8) النوري، **القشيرية**، ص47.

(9) رابعة، **القشيرية**، ص48.

إلى الأجل[1]. والسؤال هو: هل التوبة محو البشرية وإثبات الإلٰهية، وفناء النفوس عمن سوى الله حتى ترجع إلى أصل العدم ويبقى الحق في أزليته؟[2]. التوبة إثبات للبشرية وسعي نحو التغير إلى الكمال، واستئناف الحياة الخلقية حتى لو تعثرت بعض الأفعال. والله يقبلها، ويمحو الذنب بالمغفرة. وقتل النفس بعد التوبة مجاز عن الإحساس بالذنب والحياء أمام الله مثل تمني العاصي يوم القيامة أن يعود إلى الدنيا ليعمل صالحاً أو يكون تراباً غير مسؤول. وترك التوبة أهم من تحقيقها. فالسلب أقوي من الإيجاب، والعصيان أولى من الطاعة. فالفعل الإلٰهي في النهاية له الأولوية على كل شيء[3].

ودواء التوبة وطرق علاج الذنوب تحل عقدة الإصرار[4]. وتاريخ الأنبياء والأولياء الصالحين شاهد على ذلك، والتوبة فرض على جميع المذنبين والعاصين كبر الذنب أو صغر. وليس لأحد عذر في ترك التوبة. ولا يسقط الوعيد إلا بها. والحقيقة أن التوبة اعتراف أمام النفس، وفعل تلقائي حتى يعود الشعور إلى حالة البراءة الأصلية[5]. التوبة النصوح لا تبقي على صاحبها أيَّ أثر من المصيبة ولا جهراً[6]. ومن كانت توبته نصوحاً لا يبالي كيف أمسى وأصبح[7]. وشجرة التوبة تسقى بماء الندامة[8]. وخير الذنوب ذنب أعقب توبةً وندماً[9].

ليست التوبة مجرد تصور بل تتضمن أيضا كيفية تحقيقها والرجوع إلى الله، ودعوات بالتوبة، أقوال وصياغات[10].

وتتحرك التوبة لتصبح عملية متحركة، وليست مقاماً ثابتاً. أصلها في البداية

---

(1) يحيى بن معاذ، **القشيرية**، ص48.
(2) ﴿فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾، ابن عربي، **التفسير**، ص110.
(3) **الفتوحات**، ج2، ص139–150.
(4) **الإحياء**، ج4، ص49–59.
(5) مثل اعتراف راسكولينكوف بقتل المرابية العجوز لحبيبته سونيا في **الجريمة والعقاب** لدستويفسكي.
(6) الواسطي، **القشيرية**، ص47.
(7) عمرو بن عثمان المكي، السابق، ص202.
(8) أبو العباس بن مسروق الطوسي، السابق، ص241.
(9) أبو العباس بن هناء الآمدي، السابق، ص272.
(10) **رسالة الإخوان**، ص19–22.

الرجوع عن المعاصي. وفي المعاملات الإعراض عن رؤية فعل الخير والاجتناب عن الدواعي وأحوال النفس برؤية أفعال الحق. وفي الأخلاق التوبة عن رذائل النفس. وفي الأصول الرجوع عن الالتفاف إلى الغير والفتور في العزم. وفي الأدوية الانخلاع عن العلم في علم الحق. كما تتحرك الإنابة مع التوبة، والإنابة في البداية الرجوع إلى الحق بالوفاء بعد التوبة. وفي الأبواب تعديل القوي ليتحد في الآية. وفي المعاملات وجود النفس إلى جناب القلب. وفي الأخلاق مطاوعة القلب عند الترقي إلى جناب الرب. وفي الأصول طيران القلب في الترقي. وفي الأدوية الانخراط في التوحيد. وفي الأحوال الانجذاب إلى الجناب الإلٰهي. وفي الولايات الاستشراق في سبحات الجمال. وفي الحقائق اللياذ بنور أَحدية الذات. وفي النهاية الاضمحلال في عين جمع الوجود[1].

ثم تتحول التوبة من مقام نفسي إلى مقام وجودي في التصوف الفلسفي[2]. فالتوبة ليست رجوع الشخص إلى الأصل بل رجوع الكون كله، التوبة العامة وليست التوبة الخاصة.

وذُكر لفظ التوبة في القرآن عشرات المرات مما يدل على أنه موضوع رئيسي. ذكرت الصيغة الفعلية أكثر من الاسمية مما يدل على أن التوبة فعل وحركة، وذاتية أكثر منها موضوعاً وجوهراً[3]. وهي فعل إنساني قبل أن تكون فعلا إلٰهياً. فالإنسان يتوب قبل أن يتوب الله عليه. وشرط التوبة الإيمان والعمل الصالح لأن العمل هو جوهر الإيمان[4]. وتكون التوبة والصلاح بعد الظلم. والتوبة لمن عمل السوء بجهالة ثم أصلح. وتتطلب الاستقامة والكف عن الطغيان. وهي للذين عملوا السيِّئات. التوبة من الفتنة والجهل وضعف الإرادة وعمل السوء. شرطها الفعل الصالح وليس انتظار الساعة الأخيرة أما الأسماء فإنها مع التوبة، التائبون والتائبات. والله هو التواب[5].

---

(1) السابق، جـ3، ص104-106.

(2) **الفتوحات**، جـ2، ص139-150.

(3) ذكر لفظ «التوبة» 87 مرة، فعلاً (63)، اسماً (24)، الفعل الإنساني (49)، الفعل الإلٰهي (38)، التوبة والعمل الصالح (9)، الإيمان والعمل الصالح (5)، التوبة والصلاة والزكاة (2)، التوبة (5).

(4) ﴿فَمَن تَابَ مِنۢ بَعۡدِ ظُلۡمِهِۦ وَأَصۡلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيۡهِۚ﴾.

(5) توبة (7)، تائبات، تائبون، توابون (1)، مثاب (2)، التواب (10).

وفي الوجدان العربي المعاصر التوب باللسان دون الأفعال، وبالدعاء وليس بتغيُّر ظروف أفعال الجهل والسوء. خلاص فردي وليس تغييراً اجتماعياً شاملاً. بكاء وعويل مثل النساء وليس بإعادة الكرَّة والاستفادة من الماضي مثل الرجال.

3 ـ الزهد، والورع والقناعة، وقصر الأمل

أ ـ الزهد. الزهد ثاني المقامات بعد التوبة وقبل العبودية[1]. تتلوه أربعة أخرى: قلة الكلام، وقلة الطعام، وقلة النوم، واعتزال الناس. الزهد مقام شريف من مقامات السالكين، علم وصال وعمل، والزهاد أفضل الخلق وأعلاهم مرتبة بعد العامة وأهل التخليط والنساك وأهل الورع[2]. وقد ينكر كمقام[3].

كل زاهد لا يقوم بمخالفة النفس فهو جهل لا زهد، وكذلك المعصية. فالزهد حالة نفسية وليس فقط بُعداً عن العالم. وهو ربح لا ينمو إن لم يكن في الذات وليس تجاه الموضوع[4]. الزهد في الحرام فريضة، وفي المباح فضيلة، وفي الحلال قربة[5]. فتتعدد معاني الزهد طبقاً لأحكام التكليف. الزهد في الحرام فريضة وليس زهداً صوفياً والزهد في الحلال لأنه لا يجوز تحريم ما أحله الله، والزهد في المندوب مثله لأنه ندب وليس حراماً. والزهد في المكروه أيضاً اختيار. والزهد في الحرام فرض، وفي الحلال نفل. لا يكون الزهد إلا في الحلال[6]. ويُسمَّى الزهد في الحرام الذِكر الذي به تطمئن القلوب[7]. الزهد في الحرام واجب، وفي الحلال فضيلة[8]. أزهد النفس في الدنيا أصفاهم مطعماً[9]. فالزهد

---

(1) **عوارف المعارف**، جـ4، ص320.
(2) **التستري**، ص154.
(3) الرواس: **الحكم المهدوية**، ص23-25.
(4) السابق، ص253.
(5) أبو عثمان الحيري النيسابوري، **طبقات الصوفية**، ص174. أبو حفص، **القشيرية**، ص56.
(6) **التستري**، ص291.
(7) السابق، ص298.
(8) **القشيرية**، ص55.
(9) **التستري**، ص371.

في الطعام لإبقاء أصفاه. الزهد في البطن. وبقدر الزهد في البطن يكون الزهد في الدنيا. والحقيقة أن الزهد ليس في البطن وحدها بل هو موقف عام من الحياة، استقلال الوعي عن حوامله. والزهد في البطن حالة خاصة من الزهد في الدنيا ولا يمكن رد الكل إلى أحد أجزائه[1]. الزهد في ضرورات الحياة وهي ست: الأولى الطعام وادخاره ليوم أو شهر أو سنة دون اهتمام بالمستقبل على عكس ما فعل يوسف في مصر. والثانية الملبس وأقلها ما يستر العورة ويقي البرد والحر بداية بورق الشجر. والثالثة المسكن ابتداءً من زوايا المساجد حتى المسكن الخاص. والرابع أثاث المنزل ابتداءً من المشط والكوز. والخامس المنكح على سبيل الاعتدال وعدم الانشغال به عن الله. والسادس المال والجاه وهو ما يؤدي إلى هذه الضرورات الخمس طبقاً للحاجة دون زيادة أو ادخار أو الحذر من المستقبل[2].

الزهد على ثلاث مراتب: ترك الحرام وهو زهد العوام، وترك الفضول من الحلال وهو زهد الخواص، وترك ما يشغل العبد عن الله وهو زهد العارفين. الزهد درجات بالإضافة إلى نفسه وإلى المرغوب عنه وإلى المرغوب فيه[3]. الأولي الزهد في الدنيا مع الميل إليها. والثانية ترك الدنيا طوعا لما هو أفضل. والثالثة الزهد في الزهد. والرابعة الزهد في العلم والقدرة والمال والجاه.

رأس الزهد وأصله في القلوب احتقار الدنيا واستصغارها والنظر إليها بعين القلة[4]. هو النظر إلى الدنيا بعين النقص والإعراض عنها تعززاً وتطرفاً. فمن استحسن من الدنيا شيئاً فقد نبّه على قدرها[5]. الزهد ترك الدينار والدرهم[6]. ومصاحبة الزهاد بحسن المداراة[7]. ومن اكتفى في العلم بالكلام دون الزهد والفقه

(1) محمد بن الفضل البلخي، **القشيرية**، ص214، 216.
(2) **الإحياء**، جـ4، ص224-236.
(3) السابق، ص220، 224.
(4) عمرو بن عثمان المكي، **القشيرية**، ص203.
(5) محمد بن الفضل البلخي، السابق، ص214، 216.
(6) عبد الواحد بن يزيد، السابق، ص56.
(7) أبو بكر الوراق، السابق، ص223.

تزندق لأن الكلام يصبح بضاعة وتجارة. ومن اكتفى بالزهد دون الفقه والكلام تبدع لأن العمل بلا نظر وشريعة يؤدي إلى البدعة. ومن اكتفى بالفقه دون الزهد والكلام تفسق لأن الشريعة لها ظاهر وباطن. ومن تفنن في هذه الأمور كلها تخلص وحقق المطلوب. فالزهد خروج من رسوم النفس والهوي[1].

الزهد في الدنيا راحة البدن، والرغبة فيها تورث الهم والحزن، وهي استعداد للمعاد وليس للوراثة. صوم الدهر وإفطار الموت. لا يشغل الزاهد عن الله طرفة عين[2]. الزهد ترك الدنيا وعدم المبالاة بمن أخذها[3]. هو ترك الدنيا كما هي دون بناء رباط أو مسجد[4]. هو النظر إلى الدنيا بعين الزوال لتصغر في العينين فيسهل الإعراض عنها[5]. الزهد في الدنيا يُقِل إغراءاتها بما في ذلك الرياسة[6]. من أراد أن يزهد فليزهد أولاً في الرياسة ثم في قدر نصيب نفسه ومراداتها[7]. فالرياسة مفسدة ومطمع وسباق وحسد. لذلك يتمُّ التخلي عنها أولاً ثم عن باقي رغبات النفس. عزوف النفس عن الدنيا بلا تكلف. الزاهد غريب في الدنيا، والعارف قريب في الآخرة وهو خروج الدنيا من القلب. الزهد في الدنيا سخاوة النفس ونصيحة الخلق[8]. فالزهد كرم النفس، ونصيحة للخلق وإجماع لهم. ومن صدق زهده أتته الدنيا راغمة. فقد سلب الله الدنيا عن أوليائه وحماها عن أصفيائه. وأخرجها من قلوب أهل وداده لأنه لم يرضها لهم[9]. علامة الزهد وجود الراحة

---

(1) **مشرب الأرواح**، ص30.

(2) «أما بعد. فإن الزهد في الدنيا راحة البدن، والرغبة فيها تورث الهم والحزن. فهيّئ مزادك. وقدِّم لمعادك. وكنْ وحي نفسك. ولا تجعل الرجال أوصياءك فيقتسموا تركتك. وصم الدهر. وأجعل فطرك الموت. وأما أنا فلو خوّلني اللّه أمثال ما خولك وأضعافه، فلم يسرني أن اشتغل عن اللّه طرفة عين والسلام». **رابعة**، ص136.

(3) أبو عثمان، السابق، ص56.

(4) أبو علي الدقاق، السابق، ص56.

(5) ابن الجلاء، **القشيرية**، ص56.

(6) أبو بكر الوراق، **طبقات الصوفية**، ص227. **القشيرية**، ص56. النصرأباذي، **القشيرية**، ص56.

(7) جعفر بن محمد الخلدي، السابق، ص438.

(8) السابق، ص376.

(9) السرقسطي، **القشيرية**، ص56.

في الخروج عن الملك[1]. والزاهد الذي لا يملكه مع الله سبب[2]. والأسباب هي التي تربط الظواهر والأشياء والبشر والعالم. والزمن استصغار الدنيا ومحو آثارها من القلب[3].

الزهد فقد الشيء والسرور من القلب بفقده أو ملازمة الجهد إلى الموت واحتمال الذل صبراً والرضا به حتى الموت. هو فقد الشيء والسرور بالتحرر منه.. وهو أحد أبعاد ثقافة الموت بعد احتمال الذل والصبر والرضا[4]. هو خلو القلب عما خلت منه اليد[5].

الزهد في الدنيا بغض أهلها وبغض ما فيها[6]. وترك ما فيها على من فيها[7]. ويبدأ بالزهد في النفس[8]. الزهد في الدنيا، وسخاوة النفس، والنصيحة للخلق عليها إجماع العقلاء.

الزهد كله أخذ ما لا بد منه وإسقاط ما بقي[9]. هو الحد الأدنى من الكفاف. لقب الزهد على البدن ولقب المعرفة على القلب[10].

وقد يكون الزهد سلبا وهو الطمع. فمن أراد أن يعيش غنيا في حياته فلا يسكن الطمع في قلبه[11]. الطمع ابن الشك في المقدور. ومعرفته اكتساب الذل وغايته الحرمان[12]. فالطامع لا يعلم أن رزقه مقدور له. يذل نفسه لتحقيق غايته. وأساسه الحرمان. يعطى الزاهد فوق ما يريد، والراغب دون ما يريد، والمستقيم

---

(1) ابن خفيف، **القشيرية**، ص56.
(2) أبو العباس بن مسروق، **الطوسي**، ص239.
(3) رُويْم، **القشيرية**، ص56.
(4) أبو بكر الكتاني، السابق، ص374.
(5) الجنيد، **القشيرية**، ص56.
(6) الحسن البصري، السابق، ص56.
(7) محمد بن الفضل، السابق، ص7.
(8) ذو التوبة، السابق، ص56-57.
(9) أبو سعيد بن الأعرابي، السابق، ص438.
(10) أبو عبد الله الدينوري، السابق، ص516.
(11) عبد الله بن خبيق الأنطاكي، **طبقات الصوفية**، ص144.
(12) أبو بكر الوارق، السابق، ص225.

موافقة ما يريد[1]. إيثار الزهد عند الاستغفار، وإيثار الفتيان عند الحاجة[2]. الزهد ملك لا يسكن إلا في قلب مخلي[3]. هو إسقاط الرغبة في الشيء بالكلية. هو إمساك النفس عن اشتغالها بمطالبها. فالعافية في الزهد. والزهد على أنواع: زهد العارفين هو الإعراض عن الدنيا والتوجه إلى الله بعد معرفة قيمة الشيء وقيمة المعرفة. وزهد العامة التنزه عن الشبهات، وزهد أهل الإرادة التنزه عن الفضول، وزهد خاصة الخاصة الإعراض عما سوى الله، والزهد في الزهد هو الزهد المزدوج، الزهد الصافي[4].

وتتداخل المقامات مثل الزهد والفقر والرضا. فأصل الزهد الرضا عن الله[5]. والفقر من الزهد. فالزهد حب الفقر، والزهد قبل التوكل لأن آخر أقدام الزاهدين أول أقدام المتوكلين[6]. الخير في كل بيت ومفتاحه الزهد، والشر في كل بيت ومفتاحه الرغبة في الدنيا. والزاهد هو الذي يقيم زهده بفعله. والمتزهد يقيمه بلسانه، الأول صادق. والثاني كاذب. الأول طبيعي والثاني متصنع[7].

وأحد مظاهر الزهد نوع ثمن عباءة الزاهد، ألاّ يكون الثمن زهيداً وهو يتمنى عباءة بثمن أعلى، دون حياء من الله. والزهد فيما به ورع، والورع فيما يبين الدين[8]. الزاهد ثلاثة أشياء: القلة والخلوة والجوع[9].

والزهد ألا يكون الإنسان بما في يده أسكن قلبا من آخر بضمان سيده[10]. هو خلو اليد من الملك والقلب من الشبع[11]. هو عدم الفرح بالوجود وعدم الحزن

(1) أبو عثمان، **القشيرية**، ص56.
(2) **لطائف الأعلام**، ج2، ص415-417.
(3) بشر الحافي، **القشيرية**، ص57.
(4) الكتاني، **القشيرية**، ص57.
(5) الفضيل بن عياض، **طبقات الصوفية**، ص10-13.
(6) أبو سليمان الداراني، السابق، ص64.
(7) شقيق البلخي، السابق، ص64.
(8) حاتم الأصم، السابق، ص97.
(9) يحيى بن معاذ، السابق، ص110، 113.
(10) حمدون القصار، السابق، ص128.
(11) الجنيد، **القشيرية**، ص56.

على المفقود[1]. الزهد فيما يمتلك الإنسان وليس فيما يمتلك، الزاهد من لا يملك شيئاً ولا يملكه شيء. ومن استوى عنده المدح والذم، فالزاهد معنوي ومادي في آنٍ واحد. ومن حافظ على الفرائض في أول مواقيتها فهو عابد مسبقاً. ومن رأى الأفعال كلها من الله فهو موحد لأن الله هو الفاعل الحق وغيره فاعل بالمجاز كما قال الكندي[2]. وهو مقام وفضيلة تشمل أعمال البر كلها. وإذا كان العباد في موازين العلماء فالعلماء في موازين الزهاد.

والزهد فيما يحب الإنسان وليس فيما يكره. هو مخالفة للهوى، ومجاهدة للنفس، وهو قيمة في القلب وليست في اليد، في الموجود وليس في المعدوم، وفي الممكن وليس في المستحيل، شرط إخلاص التوحيد[3].

الزهد في الجوف وفي أطماع الدنيا. وحب الدنيا أساس كل ذنب. الزهد فيما بين أيدي الناس حق الطمع فيه. وهو التزام بالأخلاق. أرواح الناس أبدان الزهد في الدنيا. وأذهبهم قلوباً وأكثرهم انشغالاً أهل الاهتمام بالدنيا.

أول الزهد التوكل، وأوسطه إظهار القدرة، ولا ينقص الزهد من الرزق ولكن يزيد في الصبر أي أنه يساعد على التخدير لقبول الأمر الواقع. وهو ترك فضول البنيان، الزهد في اللباس والطعام والشراب والسكن وهو ما يعارض رغبة الإنسان الطبيعية في تحسين الأوضاع. والزهد في النساء، اختيار المرأة الدون أو اليتيمة على المرأة الجميلة أو الشريفة[4]. وهي حالة نادرة الوقوع في حالة الفقر الاضطراري أو عدم الكفاءة.

الزهد ترك الادِّخار مما يؤدي إلى هدم الاهتمام بالمستقبل على مستوى الفرد والأسرة والدولة والأُمة. هو ترك الاهتمام مثل التفويض والرضا ضمن النسق السلبي للمقامات. الزهد الصبر على الأذى وترك الشهوات وأكل الحلال. يشمل

(1) السابق، ص56.
(2) أبو عبد اللّه بن الجلاء، السابق، ص178.
(3) «شرح مقام الزهد ووصف أحوال الزاهدين». **قوت القلوب**، جـ1، ص491-550.
(4) هذا رأي مالك بن دينار. أما عند سهل بن عبد اللّه التستري فلا يصح الزهد في النساء أنهن قد حببن إلى سيد الزاهدين ووافقه ابن عيينة، وكان لأزهد الصحابة عليّ أربع نسوة وبضعة عشر سرية. السابق، ص541-542.

المعرفة والمحبة. الورع يقود إلى الزهد، والزهد إلى الحب والأنس باللطيف. الزاهد قوته ما وجد، وثوبه ما ستر، وبيته ما أواه، وحاله وقته. الزهد ترك التدبير والاختيار، والرضا والتسليم. إتباع العلم ولزوم السنَّة ليس زهداً بل طاعة. الزهد هو التواضع، والتواضع فضيلة. وهو مع الأشياء، والتواضع مع الأشخاص. هو إعطاء الجهود وخلع الراحة. فالزهد مقاومة حاجات النفس. هو خروج الأنواح والأحزان من القلب. يتمُّ في الفناء وفي البقاء أي الرغبة في العدم.

وهو على ثلاثة أوجه: إخلاص العمل، ترك ما لا يصلح، الزهد في الحلال وكلها فضائل أخلاقية، الزهد ثلاثة أصناف: زهد فرض، وزهد فضل، وزهد سلامة. الأول: زهد في الحرام، والثاني زهد في الحلال، والثالث زهد في الشبوهات، وكلها من الفقه الأخلاقي أو من الأخلاق الشرعية، الزهد أوله الثقة، وأواسطه الصبر، وآخره الإخلاص. وهو عدم علم الإنسان بأن له أجلاً أو رزقاً وإذا تحرك فلا استجابة لحركته.

الزهد أساس الأحوال الرضية والمراتب السنية، أول قدم القاصدين إلى الله والمنقطعين له والراضين عنه والمتوكلين عليه[1]. وهو على ثلاث طبقات: الأول زهد العوام وهم المبتدئون وهو خلو اليد من الأملاك[2]. ثم خلو القلب مما خلت به اليد والطمع فيه[3]. والثاني زهد الخواص وهم المتحققون في الزهد[4]. وهو ترك حظوظ النفس من جميع ما في الدنيا، الراحة والثناء والمحمدة والجاه. والثالث زهد خواص الخواص وهم العارفون المتيقنون. وهو الزهد فيما غير الله حتى لو كان في الدنيا والآخرة. هو الغفلة عن الدنيا[5]. والزهد به ثلاث خصال: عمل بلا علاقة، وقول بلا طمع، وعز بلا رياسة[6].

(1) **اللمع**، ص72-73.
(2) هو رأي السرقسطي.
(3) هو رأي الجنيد.
(4) هو رأي رُويْم ويحيى بن معاذ.
(5) هذا هو رأي الشبلي.
(6) يحيى بن معاذ، **القشيرية**، ص56.

الزهد ثلاث مراتب: زهد العوام وهو الزهد في الدنيا، وزهد الخواص وهو الزهد في الآخرة، وزهد خواص الخواص الزهد في النفس، مقاماتها وأحوالها[1]. فماذا يبقى؟

والزهد له ثلاث علامات يُعرف بها كحال: خلع الأيدي من الأملاك، ونزاهة النفس عن الحلال، والسمو عن الدنيا بكسر الأوقات. ويكون الإنسان متزهداً بثلاث علامات أخرى: حمية النفس عند ترامي الإرادات، والهرب من مواطن الغنى، وأخذ المعلوم عند الحاجة[2].

يورث الزهد السخاء في الملك كما أن الحب يورث السخاء بالروح[3]. ليس الزهد فضيلةً في التصوف الخلقي أو مقاماً فقط في التصوف النفسي بل هو زهد في العالم في التصوف الفلسفي. هو بُعدٌ عن العالم وإدراك لظاهريته[4].

وقد يقرن الزهد بالإعراض. فالزهد لغة الميل إلى الشيء ضد الرغبة فيه وفي الإصلاح بغض الدنيا والإعراض عنها، هو خلو اليد، خلو البدن من الدنيا، وخلو القلب من طلبها، وعدم الفرح بالوجود أو الحزن على المفقود، والزهد في الناس أيضاً.

الزهد سلو القلب عن الأسباب ونفض الأيدي من الأملاك[5]. هو عملية وحركة من البداية إلى النهاية. في البداية ترك الشواغل، وقطع العلائق. وفي الأبواب الرغبة عن الشيء بالكلية. وفي المعاملات الزهد في الفضول والاقتصار على الحقوق. وفي الأخلاق التبري عن الميل الثاني. وفي الأصول لزوم الفقر لفناء القلب بالحق. وفي الأدوية تصفية الباطن. وفي الأحوال الإعراض عما سوى المحبوب. وفي الولايات الاستيحاش عن ما ينطق عليه اسم الصبر. وفي الحقائق

(1) **رسالة الإخوان**، ص22-23.
(2) السابق، ص171-172.
(3) يحيى بن معاذ، **القشيرية**، ص56.
(4) **الفتوحات**، ج2، ص177-178.
(5) **القشيرية**، ص56.

رفع محاسبة الصفاة عن مزاحمة شهود حال الذات. وفي النهايات نفي البنية بمحو الاسمية[1].

والزهد هو التحول كلية إلى الله أي هو الاغتراب الديني، ويطلب الصوفي من الله الفضل دون أن يرغب حتى لا يخرج من مقام الزهد في حين أن الله لا يرفض له طلباً[2]. هو الثقة بالله مع حب الفقر[3]، ترك ما يشغل عن الله[4]. هو الزهد فيما سوى الله[5]. الزاهد يزهد فيما سوى الله، ورغبته أيام الله وحب الله[6]. علامة كمال العقل والهداية الزهد في كل شيء إلا الله[7]. وهو لفظ قرآني، ذُكر مرَّةً واحدةً بمعنى عدم الرغبة أو بالثمن القليل، وصْفاً لمن اشتروا يوسف ﴿وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ﴾. بيع النفس والمال. وهو غير المعنى المقصود في التصوف، ولا يوجد لدى عامة الناس اليوم ما يزُهد فيه نظراً للفقر الشديد لعامة المسلمين. ومن ثم لا يوجد الزهد إلا للأغنياء، ليس فقط الزهد في الحلال بل أيضاً الزهد في الحرام، وهو المصدر الرئيسي للرزق اليوم.

وعلامة الزهد قصر الأمل. في حين قد يكون الزهد في الأشياء طول الأمل في الغايات والأهداف كما هو الحال في زهد الأنبياء، وكبار القادة العظام[8]. ولماذا يكون التمني والأمل من فساد الطبع؟ وهل الحياة إلا تمنٍ وأمر وغاية وتحقق؟[9]. والأخطر أن يكون هدف التصوف هو قصر الأمل، وقلة الطموح، ومن أطلق بصره طال أسفه. ومن أطلق سمعه ساءه عمله، ومن أطلق لسانه قتل نفسه[10]. والعبد

---

(1) **جامع الأصول**، جـ3، ص121-122.

(2) ما طلب منك الفضل من غير رغبة — فلم أر قبلي زاهداً وهو راغب
الديوان، ص293.

(3) عبد الله بن المبارك، شقيق البلخي، يوسف بن أسباط، **القشيرية**، ص56.

(4) الداراني، السابق، ص56.

(5) الشبلي، السابق، ص56.

(6) التستري ص191.

(7) **جامع الأصول**، جـ2، ص256-258.

(8) الشاه الكرماني، السابق، ص193

(9) أبو الحسين بن الصائغ الدينوري، السابق، ص314.

(10) إبراهيم بن أدهم، **طبقات الصوفية**، ص36.

يسير في الزمان لتحقيق الأماني. ولا يتوقف مساره لتحقيق الوعد[1]. وكيف يكون أصل التعلق بالخيرات قصر الأمل؟[2]. وهل يؤدي غياب الطموح إلى تحقيق شيء؟

ب ـ **الورع**. ويرتبط الزهد بالورع، والورع لغةً هو الاجتناب، وشرعاً هو اجتناب الحرام، والشبهة «دع ما يريبك إلى ما لا يريبك». وعلامة الورع الوقوف عند الشبهات[3]. ومن شغل جوارحه بغير ما أمر الله به حُرم الورع[4]. وقد يصبح مقاماً مستقلاً وقد يُقرن بالصبر والقناعة. وهو ليس مجرد رهبانية بل هو الصبر واليقين في الهداية. الصبر عدم مقابلة الأذى بالإيذاء. وهو فيما يخرج وما يدخل في الفم والقلب. واليقين في الرزق والمعرفة بالحق[5]. وهو مثل الزهد أيضا في الحلال وليس في الحرام[6]. هو أكل الحلال وخدمة الفقراء[7].

وهو ليس فضيلة فقط كما هو الحال في التصوف الخلقي أو مجرد مقام كما هو الحال في التصوف النفسي بل هو حركة كونية وقانون تاريخ كما هو الحال في التصوف الفلسفي[8].

والورع أيضاً على ثلاث طبقات[9]: الأول ورع العموم وهو التورع عن الشبهات، وهو ما بين الحلال والحرام، وترك الشيء إذا راب، «ملاك دينكم الورع»[10]. والثاني ورع الخصوص، وهم أرباب القلوب والمتحققون، وهو

(1) على عكس ذلك ما يقوله الشاعر الحديث:
من طلب العلا سهر الليالي
والشاعر القديم:
ونحن قوم لا توسط بيننا لنا الصدر دون العالمين أو القبر
(2) أبو عثمان الميري النيسبوري، السابق، ص174.
(3) شاه الكرماني، السابق، ص193.
(4) **التستري**، السابق، ص210.
(5) **جامع الأصول**، جا، ص147-148.
(6) **مشرب الأرواح**، ص29-30.
(7) **جامع الأصول**، ج3، ص123-124.
(8) **الفتوحات**، ج2، ص 175-177.
(9) **اللمع**، ص70-71.
(10) وهو رأي ابن سيرين.

التورع عما يقف في القلب ويحيك الصدر عند الفعل «الإثم ما حاك في صدرك»؟ هو التبرأ من مظاليم الخلق من مثاقيل الذر[1]. هو عدم مد اليد إلى شيء فيه شبهة وإلا نفر عرق فيها كما كان يحدث لبشر الحافي. فالنفس تؤثِّر في البدن. والحلال هو ما يعصى فيه الله، وليس فقط الحكم الشرعي عند العامة[2]. ويحتاج إلى إشارة من القلب وليس فقط إلى الامتناع عن النواهي «استفت قلبك وإن أفتاك المفتون». والثالث ورع خواص الخواص، وهم العارفون الواجدون، وهو الابتعاد عن كل ما شغل عن الله[3]. وهو الحلال الصافي الذي لا يُنسى الله فيه في حين أن الحلال الشرعي ما لا يعصى الله فيه.

لا يطلب الإنسان الورع بتضييع الواجب. فالمغالاة تدل أحيانا على الزيف والمزايدة والرياء[4]. فالورع أن لا يتكلم الإنسان إلا بالحق غضب أم رضي. ويكون همه رضاء الله[5]. الورع شجاعة في القلب وطلاقة في اللسان. والورع واليقظة يضيِّقان على الخلق معايشهم في حين توسعها الغفلة[6]. ولماذا يكون الخلق للضيق وليس للوسع؟ ولماذا يكون الضيق أكثر أخلاقية من الوسع؟

عقدة الورع أن الشريعة تأمره وتنهاه فيتبع ولا يخالف[7]. وهل ثمن الورع أن يصبح الإنسان آله صماء لتنفيذ؟

ويتخلق مقام الورع من التصوف الخلقي[8]. وهو تجنب كل مكروه في قول أو فعل، بقلب أو جارحة، والخوف من ضياع الفرص. ويُنال بالمحاسبة. وهي

(1) وهذا هو رأي أبي سعيد الخراز.
(2) وهو رأي أبي سليمان الداراني والشبلي.
(3) وهو رأي سهل بن عبد اللّه.
(4) المحاسبي، **طبقات الصوفية**، ص58.
(5) أبو إسحق إبراهيم الخواص، السابق، ص285.
(6) أبو علي الثقفي، السابق، ص365.
(7) إبراهيم بن شيبان القرمسيني، السابق، ص404-405.
(8) «باب صفة الورع». السابق، ص200-204: «واختارت طائفة من القراء والمتصوفة التقلل من كد اليد، وعرق الجبين، والسعي في طلب الأسباب ليأخذوا الكسرة واجتهدوا في طلب ذلك مع أهل الثغور خوفاً أن يكونوا من أعوان الظالمين». السابق، ص206.

التثبت قبل الفعل والترك من عقد الضمير، وترك ما نُهيَ عنه من مكروه أو حرام وترك الشبهات «من ترك الشبهات استبرأ لذمته ودينه وعرضه. من واقع الشبهات فكأنما واقع الحرام»، كالراعي يحوم حول الحِمَى يوشك أن يقع فيه، والأفضل الابتعاد عنه. «ولا يكون العبد من المتقين حتى يدع ما لا بأس به حذر لما به بأس». وذلك يتطلب سلامة الصدر، وإصلاح الكسرة. وتستلزم سلامة القلب أن يأمن القلب أن يفوته ما قدره له وأن ييأس من أن ينال ما قدر له. وهو نوع رفيع من التوكل.

وحرصاً على التراكم التاريخي، ومذاهب السلف في الورع ثلاثة. الأول ترك ما حاك في الصدور. والثاني الوقوف عند كل شبهة. والثالث ترك ما لا بأس به مخافة ما به بأس طبقاً للحديث[1].

ومذاهب السلف في المطاعم والملابس متعددة. الأول، العزلة عن أئمة السلطان وأعوانهم وأعيانهم. والثاني، مجانبة كل من اتصل بهم وهو غلو في الدين. والثالث، اعتزال الفِرق لقول الرسول ﷺ: «هلاك أُمتي على أيدي أغلمة من قريش... لو أن الناس اعتزلوهم»، وإجابة على غياب الإمام نصح الرسول ﷺ: «فاعتزل تلك الفِرق حتى تموت على ذلك». كما قال للأنصار: «إنكم سترون بعدي فتناً وأثرة فاصبروا حتى تلقوني على الحوض». وقال لأبي ذر: «كيف أنت إذ رأيت حجارة الزفت قد غرقت في الدم. اصبر حتى تلحق بمن أنت معه». وفريق احتج بالقوت كما يقول الأوزاعي: «اشتبهت الأمور فليس نأخذ غير القوت». وعند الحسن: «إن المكاسب قد فسدت خذوا منها القوت». وأخذت طوائف من القراء والمتصوفة والنساك مذاهب في الكسب، المباح من الجبال والأودية والرمال والبذر والحشائش، أو ما ألقته الرياح أو المنبت ذو المطروح المُلقى أو مسألة لأخذ القوت منها أو الجمع بين اللقاط أو كد اليد وضرب السيف في سبيل الله أو الرباط أو الغزو والحج والشراء والبيع والمعاملات والوكالات والصنائع. والمكاسب لا تفسد بجوْر الأئمة وإنما تفسد بترك العلم، وتعدد المذاهب في ميراث الابن للأب. الظلم بين الحلال والوزر والاحتياط.

---

(1) **مذاهب السلف في الورع**، السابق، ص205–208.

وفضلت طائفة من القراء والمتصوفة رأي سفيان الثوري الخروج من كل ذلك احتياطاً للنفس[1].

وقد تكون الشبهة حلالاً أو حراماً لقول الرسول ﷺ: «لا تقربوا أو تدانوا من الحرام». وقد تكون ساقطة مجهولة «لا يعلمها كثير من الناس». وقد لا يكون علمها فرضاً بل حلالاً. وقد يكون التحرز منها أفضل. وقد لا يكون في الأموال المعروفة. إذا اختلط الحلال والحرام في الأموال فنصف الربح هو الحلال. وقد تكون الشبهة بغلبة الظن. في الأموال والنكاح، «الحلال بيِّن والحرام بيِّن وبينهما أمور متشابهات». والتحرز واجب «لولا أني أخشى أن تكون من تمر الصدقة لأكلتها»[2]. وقد يشمل التعاون على الإثم والعدوان سقي الماء للعاصي وإرشاده إلى الطريق. وقد تكون المعونة على حرام بعينه[3].

ويكون الورع في جوائز السلطان بين التحليل والتحريم أو الكراهية. وقد حرَّمت فرقة من الصوفية أخذ العطايا من السلاطين، والعجيب تخطئة المحاسبي لها[4]. وهو ما يتطلب دراسة «فقه الصوفية» مثل فقه المتكلمين وفقه الفلاسفة. وهو يشبه موقف أبي موسى المردار من شيوخ المعتزلة وتكفير كل من جالس السلطان كرد فعل على تحريم نقد حتى بغلة السلطان.

ويجوز السؤال للغريب عما لا يعرف. وقد لا يُسأل إلا إذا كان هناك شبع. وامتنع بعض الأتقياء عن طعام مصر لأنه فتحت عنوة، وهو موقف شبيه بموقف الخوارج. فلهم مثل الصوفية مواقف حدية. وحرَّم البعض سبَّ السلطان وأوجبه البعض الآخر. وحرم البعض الصلاة في الأرض المغصوبة، وهي موضوعات جديرة بالاهتمام بفقه الصوفية وأصول الصوفية، وفلسفة الصوفية، وكلام الصوفية، والشعر الصوفي[5].

ويكفي الشبع من الحلال لإذهاب الجوع دون تكلف الفضيلة. والجوع على

(1) السابق، ص 209-212.
(2) «مذاهب السلف في الشبهات ومعناها». السابق، ص213-315.
(3) «معنى التعاون على الإثم والعدوان». السابق، ص226-219.
(4) «الورع في جوائز السلطان». السابق، ص220-225.
(5) «السؤال والتحري». السابق، ص 229-234.

معانٍ عدة: التأديب للنفس والابتعاد عن الشبهات، ما يتبعه من عواقب الغفران، وعقوبة للنفس لدرعها عن الشهوات واحتساب عند الله مثل جوع أهل الصفة. وهو أعلى مرتبة عند إحدى الفِرق. يولد الخشوع[1].

جـ ـ القناعة[2]. والقناعة مثل الفقر والزهد والجوع والورع والرضا والتوكل ولو أنها ليست مقاماً مستقلاً. فالقناعة هي الرضا بالمقسوم، وأخذ القوت من الله. القناعة من الزهد. وهي ضمن نسق خماسي: العز في الطاعة، والذل في المعصية، والهيبة في قيام الليل، والحكمة في البطن الخالي، والغنى في القناعة.

والقناعة لغة الرضا بالقسم، وفي الإصلاح مسكون عند عدم الوقوف والمألوفات[3]. وهي الاكتفاء بالقليل[4]. وهي الاستغناء بالموجود وترك التطلع إلى المفقود. وفي القناعة كفاية لكل الناس[5]. وهو أشبه بقول غاندي: «في العالم ما يكفي الناس. وفي العالم ما لا يكفي لطمّاع واحد». وقد يوضع الزهد والقناعة والتوكل في باب واحد.

وللقناعة أيضاً ثلاث علامات لا تتمُّ إلا بها: قلة الغذاء بعد توافره، وصياغة الفقر عند عدمه، وقلة الأسباب والسكون إلى أوقات الله مع حلول الفاقة. وللقناعة أول وآخر. أولها ترك الفضول مع وجود الاتساع. وآخرها وجود الغنى مع فقد الأسباب. لذلك قد تكون أعلى من الرضا[6].

الورع عملية لها بداية ونهاية. في البداية صورته تجنب المحرمات. وفي الأبواب تجنب القبائح. وفي المعاملات الترقي عن الفضول الشاغلة. وفي الأخلاق صون النفس. وفي الأصول التورع عن الالتفات. وفي الأدوية التحقق مما لا تحققه

---

(1) الورع والجوع، السابق، ص226-228.
(2) أبو تراب التخشبي، **طبقات الصوفية**، ص151.
(3) **جامع الأصول**، ج2، ص273-274.
(4) **نزهة المجالس**، ج1، ص241-251.
(5) وما أوسع الصبر والقناعة للناس جميعاً لو أنهم سمعوا
الإشارات، ص42.
(6) السابق، ص171.

البصيرة. وفي الأحوال التحرر مما يستحسنه الذوق. وفي الولايات التورع عن كل داعية. وفي الحقائق التورع عن كل ما يمنع المعاينة. وفي النهاية التولي عن كل ما يعارض حال الجمع[1].

د ـ قصر الأمل. ويرتبط موضوع «قصر الأمل» بالفقر والزهد لأنه طلب الأدنى وليس الأعلى، الأقل وليس الأكثر. ويرتبط بموضوع الهمم، وهو التخلي عن هموم الدنيا. الزهد في الدنيا قصر الأمل[2]. وأعون الأخلاق على الزهد قصر الأمل[3]. قصر الأمل قطع الهموم بالمضمون، والسكون إلى الضمان. لا يأتي الأمل إلا من السنَّة، والتزود للآخرة. مع أن الهم مثل القلق جزء من الوجود الإنساني. ولا ضامن إلا من ألهم نفسه وليس من الضامن. الهم هو نسيج الوجود الإنساني[4]. بل إن فضول الحلال والتزيد منه تعبيراً عن الأمل مذموم. وهو وسوسة في الكتاب والسنَّة. قصر الأمل هو الوسيلة كي ترتحل الدنيا من القلب. ولا يستجيب الله للعبد إلا بقصر الأمل مع أن الوحي يدعو إلى السعي والكد والكدح في الأرض وحمل الأمانة التي رفضت السموات والأرض والجبال أن يحملنها[5]. وعلامات الزهد قد تكون للرياء والافتخار بل هو الزهد في القلب. وأهمها قصر الأمل أي عدم الطموح. وهو ضد الرقي وتحسين الأوضاع كمطلب إنساني. هو تخلٍّ عن الطموح الذي يتطلب طول الأمل[6].

4 ـ الفقر، والغنى، والجوع

أ ـ الفقر. الفقر هو المقام الثالث. وهو مذكور في الكتاب والسنَّة. هو زينة للعبد، ورداء الشرف، ولباس المرسلين. ويمكن الاستمرار في المدح إلى ما لانهاية[7]. ويمكن أيضاً ذمه إلى ما لا نهاية ابتداء من قول عليّ

(1) أبو عثمان المغربي، ص482.
(2) هذا عند كيركغارد وهيدغر.
(3) السابق، ص161.
(4) **التستري**، ص250.
(5) السابق، ص254.
(6) سفيان الثوري، أحمد، عيسى بن يونس، **القشيرية**، ص56.
(7) **اللمع**، ص74-75.

«والله لو كان الفقر رجلاً لقتلته». أفضل المقامات اعتقاد الصبر على الفقر إلى القبر[1]. كانت الطرق إلى الله أكثر من نجوم المساء فما بقي منها إلا الفقر، وهو أصح الطرق[2].

والفقر أيضاً على ثلاث طبقات: الأول فقر العوام وهو عدم امتلاك أي شيء. وإن احتاج سأل من يستحق السؤال ويفرح به. وهو عدم طلب المعدوم حتى يفقد الموجود أو عدم كل موجود[3]. هو عدم امتلاك شيء[4]. والثاني فقر الخواص. وهو عدم امتلاك شيء وعدم سؤال أحد، عدم الطلب أو العرض. وقد يؤخذ من غير عطاء[5]. هو ترك الشكوى وإخفاء أثر البلوى[6]. والثالث فقر خاصة الخاصة، وهو فقر المقربين، عدم امتلاك شيء أو طلب شيء ظاهراً أو باطناً، وعدم انتظار شيء. وعدم الأخذ في حال العطاء. الاكتفاء بالله والغنى به[7].

وطلب الحاجة بلسان الفقر لا بلسان الحكم، طلباً للكرم وليس تحقيقاً للحق مما يجعل طلب الفقير إذلالاً وليس حقاً. والفقراء ثلاثة أنواع. الأول فقير يسأل وإن أُعطي لا يأخذ. وهو من الروحانيين. إن سأل الله أعطاه، وإن أقسم على الله أبر قسمه. والثاني فقير لا يسأل وإن أُعطي قبل وهو من الأواسط، يتوكل ويسكن إلى الله.والثالث صابر راض يسأل الله، وإعطاء الفقير قبل أن يسأل طريق المغفرة.الفقر حال من أحوال التصوف[8].

ومن خدم الفقراء أُعطي ثلاثة أشياء: التواضع وحسن الأدب، وسخاوة

(1) الخراز، **القشيرية**، ص123.
(2) المزين، السابق، ص124.
(3) الأول رأي الجريري، والثاني رأي رُوَيْم.
(4) **عوارف المعارف**، جـ 4، ص357-362.
فقر وصبر هما ثوبان تحتهما قلب يرى ربه الأعياد والجمعا
السابق، ص362.
(5) وهو رأي الجنيد، وسهل بن عبد الله بن الجلاء.
(6) وهو رأي إبراهيم الخواص.
(7) وهو رأي سهل الأصبهاني.
(8) ذو النون، **طبقات الصوفية**، ص24-25، 47.

النفس[1]. التواضع اقتراب من الناس، وحسن الأدب مساواة النفس بهم، وسخاوة النفس الكرم والعطاء. وإن قدّر الله الفقر على أحد فلن يستطيع أحد أن يغنيه. لذلك بقيت الأمة فقيرة ينهبها الحكام في الداخل والسادة في الخارج، وما أعز الفقر إلى الله، وأذله إلى الأشكال. وما أحسن الاستغناء بالله وأقبح الاستغناء بالمقام[2]. هو ما سماه إقبال «الفقر الغيور». إذا صح الافتقار إلى الله صح الاستغناء به، وإذا صح الاستغناء به كمل الغنى به. فلا يقال أيهما أتمُّ: الافتقار أم الغنى، لأنهما حالتان لا تتم إحداهما إلاّ بالأخرى[3]. الفقير إرسال النفس في أحكام الله[4]. وعلامة سخط الله على العبد خوفه من الفقر[5]. الفقر سر الله لا يضعه إلا عند من يحمله إلى من يريد[6].

ليس الفقر فقط هو الفقر المادي، بل هو آداب الفقر مثل حفظ حركات المشايخ، وعدم التطاول عليهم، وحسم العشرة مع الإخوان وعدم الإساءة إليهم، والنصيحة للأصاغر وعدم إهمالهم، وترك الخصومات في الأرزاق، فالرزق مكفول للجميع ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾، وملازمة الإيثار، وتفضيل الآخرة على النفس، ومجانبة الادِّخار كما هو الحال في المثل الشعبي «أنفق ما في الجيب يأتيك ما في الغيب»، وترك صحبة من ليس من العليقة حتى تنشأ جماعة العلماء، والمعاونة في أمور الدين والدنيا أي العمل الجماعي[7].

وجمال الفقير في تواضعه. فإذا تكبر بفقره فقد زاد تكبره على تكبر الأغنياء[8]. ويخشى إبليس من رجل في قلبه الفقر. الفقر شعار الأولياء، وحلية الأصفياء، واختيار الحق لخواص من الأتقياء والأنبياء[9]. الفقراء صفوة الله من

(1) أحمد بن خضرويه، السابق، ص105.
(2) أبو قصص النيسابوري، السابق، ص117، 121.
(3) الجنيد، **القشيرية**، ص123.
(4) الخراز، السابق، ص123.
(5) ذو النون، السابق، ص123.
(6) أبو علي الدقاق، **القشيرية**، ص123.
(7) حمدون القصار، السابق، ص128.
(8) حمدون القصار، السابق، ص123.
(9) **القشيرية**، ص122.

عباده، وموضع أسراره بين خلقه. بهم يصون الخلق، وببركاتهم يسقط عليهم الرزق[1]. هم الصابرون جلساء الله يوم القيامة[2].

نعت الفقير حفظ السر، وأداء الفرض، وصيانة الفقر[3]. والفقراء مرادون بالبلاء[4]. ولماذا لا يراد الأغنياء بالبلاء كذلك، وأيهما أولى بالبلاء والامتحان؟ ويكون حفظ الفقر بأن يراه الإنسان منة من الله عليه حيث لم يُضمّنه رزق غيره، ولم ينقص ما قسمه[5]. وأصل الثبات على الحق دوام الفقر إلى الله[6]. الفقر عام وخاص. العام افتقار الإنسان إلى الله، والخاص افتقاره إلى ذات اليد[7]. حقيقة الفقر ألا يستغني إلا بالله ورسمه وعدم الأسباب كلها[8]. أدنى علامات الفقر أنه لو كانت الدنيا بأسرها لأحد فأنفقها في يوم ثم خطر بباله أنه لو أمسك منها قوت يوم ما صدق في فقره[9]. حقيقة الفقر عدم الاستغناء بشيء دون الله[10]. الفقير هو الذي لا يكون له إلى الله حاجة[11]. وقد يسيء الفقراء الأدب مع الله في أحوالهم لأنماطهم عن حقيقة العلم إلى ظاهره[12].

وأنفع الفقر ما أدى إلى التجمّل والرضا. الفقر ليس زينة بل قبحاً. ولا يرضى به أحد وإلا ففيم كانت ثورة الفقراء «الجياع»[13]. الفقير قوته ما وجد، ولباسه ما ستر، ومسكنه صبُّ نُزُل دون جهد للتحسين أو للتغيير والاكتفاء بالأمر الواقع[14].

(1) السابق، ص122.
(2) السابق، ص122.
(3) بشر الحارث، السابق، ص123.
(4) الشبلي، السابق، ص123.
(5) أبو بكر محمد بن داود الرقي، السابق، ص448.
(6) محمد بن الفضل، السابق، ص216.
(7) **طهارة القلوب**، ص246-251.
(8) يحيى بن معاذ، **القشيرية**، ص123.
(9) الشبلي، السابق، ص123.
(10) الشبلي، السابق، ص123.
(11) ابن خفيف، السابق، ص125.
(12) أبو بكر محمد بن داود الرقي، السابق، ص449.
(13) أحمد بن عاصم الأنطاكي، **طبقات الصوفية**، ص138.
(14) أبو تراب التخشبي، السابق، ص149.

والبداية مع الفقير بالعلم بل بالرفق فإن العلم يوحشه، والرفق يؤنسه[1]. والفقير الصادق لا يهتم إلاّ بالله في الأسباب ويسكن إليه في كل حال. وهو ما يمنع من تحليل أسباب الفقر كما يفعل الأصوليون في البحث عن العلل[2]. والفقر الصادق هو إيثار الوقت الأول دون الثاني أي العيش في اللحظة دون الديمومة، وفي الحاضر دون المستقبل. وقد أدى ذلك بالمسلمين إلى ترك المستقبل وعدم إحساسهم بالحاضر وحضور الماضي الطاغي في شعورهم بالزمان[3]. الفقير الصادق هو الذي يأنس بالعدم كما يأنس الجاهل بالغني ويستوحش منه. والعدم لا يؤنس أحد لأنه طارئ على الوجود. فالوجود وهو الأصل. والعدم مجرد غياب مؤقت[4]. الفقر الصادق هو الشعور بأن حاله ليس له وأن ما له ليس له[5]. وهو ألا يستغني الفقير في فقره بشيء إلا بمن إليه فقره. حقيقة الفقر أخذ الشيء من جهته، واختيار القليل على الكثير عند الحاجة. هو أقصر الطرق إلى عالم الأشياء، والحياة البسيطة[6]. الفقير الصادق الذي يملك كل شيء ولا يملكه كل شيء. هو الإنسان الحر الموجود في العالم وليس منه. وهو ما سماه إقبال «الفقر الغيور».

والفقير الطموع أذل الناس[7]. الفقير الصادق الذي يسكن إلى مضمون الله ويزعجه دخول الأرفاق عليه[8]. الفقر إذن وسيلة لتوحيد قوى الذات. الفقير الصادق أن يكون العطاء أحب إليه من الأخذ. أصل الفقر معرفة التقصير[9]. والفخر في الفقر[10]. والفقير المجرد من الدنيا، وإن لم يعمل شيئاً من أعمال الفضائل. ذرة منه أفضل من هؤلاء المتعبدين المجتهدين، ومعهم الدنيا[11].

(1) الجنيد، السابق، ص159-160.
(2) أبو الحسن النوري، السابق، ص169.
(3) يوسف بن الحسين البغدادي، السابق، ص188-189.
(4) سمنون المحب، السابق، ص216.
(5) ابن الجلاء، **القشيرية**، ص124.
(6) رُويْم بن أحمد البغدادي، السابق، ص 182.
(7) يوسف بن الحسين البغدادي، **طبقات الصوفية**، ص188-189.
(8) عبد الله بن محمد بن منازل، السابق، ص169.
(9) سمنون المحب، السابق، ص198.
(10) علي بن سهل الأصفهاني، السابق، ص236.
(11) أبو عبد الله المغربي، السابق، ص243-244.

والفقراء الراضون هم أمناء الله في أرضه، وحجته على عباده بهم يندفع البلاء عن الخلق[1]. الفقر لباس يورث الرضا إذا تحقق العبد فيه[2].

من آداب الفقير في فقره تركاً لملامة، والتعبير لمن ابتلي بطلب الدنيا، والرحمة والشفقة عليه أو الدعاء له ليريحه الله من نعمه فيها. وأقرب القلوب إلى الله رضي بصحبة الفقراء، وآثر الباقي على الفاني، وشهد سوابق القضاء فأيي من أفعاله[3]. الفقر هو البقاء والغنى هو الفناء. القضاء هو البقاء، وأفعال الإنسان هي الفناء، وتتوالى المقامات مثل الفقر والزهد والصبر، ببطن جائع، وقلب قانع، وفقر دائم، وزهد حاضر، وصبر كامل، وذكر قائم، سبيل النجاة من الآفات[4].

حب الفقر شديد ولا يصبر عليه إلا صديق[5]. أفقر الفقراء من ستر الحق حقيقة حقه عنه[6]. وهو الفقر المعرفي. كل فقر لا يكون عن ضرورة لا يكون فيه فضيلة. مع أن الفقر اختيار حر. من حكم الفقير ألا يكون له رغبة. فإن حدث فإنها لا تتجاوز عنه كفايته. مع أن الوجود رغبة[7]. الخلق كله فقراء لا تمييز بينهم في الخدمة[8]. والناس كلهم عيال الله. الفقر لباس الأحرار والغنى لباس الأبرار. وماذا لو أراد أحد أن يكون من الأحرار الأبرار؟ ومن صحب الفقراء فليصحبهم على سلامة السر وسخاء النفس وسعة الصدر وقبول المحن بالنعم[9]. فصحبة الفقير صحبة أسوياء وليست صحبة يد عليا ليد سفلى.

ليس السخاء أن يعطي الواجد المعدم إنما السخاء أن يعطي المعدوم الواجد[10].

(1) أبو عبد اللّه المغربي، السابق، ص245.
(2) إبراهيم القصار، **القشيرية**، ص123.
(3) أبو بكر بن حامد الترمذي، السابق، ص282.
(4) أبو حمزة البغدادي البزاز، السابق، ص296-287.
(5) أبو بكر الواسطي، السابق، ص303.
(6) أبو حمزة البغدادي البزاز، **طبقات الصوفية**، ص298.
(7) أبو بكر بن طاهر الأبهري، السابق، ص394.
(8) إبراهيم بن شيبان القريسيني، السابق، ص418.
(9) محمد بن غليان النسوي، السابق، ص418.
(10) أبو حفص، السابق، ص126.

الفقر فقد ما يحتاجه الإنسان[1]. وهو فضيلة على الإطلاق[2]. الفقير هو الذي لا يرى لنفسه حاجة من الأسباب[3]. من حكم الفقير ألا تكون له رغبة وإن كانت فلا تجاوز كفالته[4]. هو الذي لا يملك ولا يحيل[5]. ولئن يبيت الفقر في عقارب تلدغه خير له من أن يبيت وفي بيته معلوم[6]. إلى هذا الحد تبلغ البطولة حتى ولو كانت زائفة. والفقير لا يطلب منه السلطان الخراج في الدنيا. ولا يطلب الله منه الحساب في الآخرة[7].

وللفقر آدابه مثل عدم السؤال وعدم كراهيته فهو ابتلاء. وهو شغلٌ وهمٌّ وطول حساب، وتحريم السؤال من غير ضرورة. فالغنى يَحْرم السؤال، ومن لا يسأل خير من أن يسأل، ومن يسأل الضروري خير من أن يسأل الزيادة، التحسينات بلغة «الأصوليين». ليس الفقير من يظهره فقره إنما الفقير من يكتم فقره ويأنس به ويفرح[8].

أحسن وسيلة للقرب من الله دوام الفقر على جميع الأحوال، وملازمة السنَّة في جميع الأفعال، وطلب القوت من وجه حلال[9]. يلزم الفقير أربعة أشياء: علم يسوسه، ودرع يحجزه، ويقين يحمله، وذكر يؤنسه[10]. فالفقر جزء من منظومة أعم، نعت الفقير السكون عند العدم، والإيثار عند الوجود[11]. الفقر عدم الأملاك والخروج من أحكام الصفات[12]. هو التحرر من الملكية. يكون مع العز

(1) **الإحياء**، جـ4، ص185-189.
(2) السابق، ص189-211.
(3) محمد الموصي، السابق، ص125.
(4) السابق، ص125.
(5) أبو بكر المصري، السابق، ص125.
(6) **الولاية**، ص235.
(7) أبو بكر الوارق، السابق، ص126.
(8) أبو الحسن الصيرفي، السابق، ص503.
(9) أبو حفص، **القشيرية**، السابق، ص124.
(10) السابق، ص124.
(11) الثوري، السابق، ص124.
(12) ابن خفيف، السابق، ص125.

وليس مع الذل، ومع العرش وليس مع الثري[1]. الرفق يؤنس الفقير، والعلم يوحشه[2].

وقد لا يكون الفقر معلوماً من الدنيا وغير معروف أسبابه. فالعبد لا ينقطع رزقه منذ خلقه. وقد يأتي في حالة السكون والعقود فيكون عطاءً، أو في حالة الحركة والقيام فيكون كسباً. وعلى الأخذ لمن لا معلوم له من الأسباب التورع وتحري المثبطين أهل المكاسب. أما القاعد عن المكاسب فإنه يكون تاركاً لها من أجل الله.

الفقير هو الذي عدم الأسباب من ظاهره، وعدم طلب الأسباب من باطنه[3]. وهنا يتداخل الفقر مع التوكل. والأشياء على جزءين مسخَّرة للإنسان ومسلَّطة عليه. الأول نعمة يوجب الشكر، والثاني بلاء يوجب الصبر.

ولا يؤخذ مما هو مستحب ومعلوم إلا قدر الحاجة. إما يؤخذ في العلم ويُعطى في السر وإما لا يأخذه ليُعطى لمن هو أحوج. وهذا هو زهد الزهد، فالإنسان مندوب إلى الإيثار، ومتفق مع السنَّة. وفضول الدنيا، ما هو زيادة، لا يحتاج إليه في حين يحتاج إلى الدين. ومن لا معلوم له، له أحكام عطاء على الإنسان أن يعرفها. فالابتلاء له أسبابه. والاختيار هو أن ينوي الفقير ترك كل شيء يتقلل فيه قربه إلى الله ومخالفةً لهوى النفس وعملاً في صلاح القلب.

وقد يأتي الإنسان عطاءً رفقاً أو منفعة أو معونة. وقد أوصى بعض السلف بإعطاء تركته إما للأقوياء وهم أهل التوكل على الله أو للأسخياء وهم أهل حسن الظن بالله أو للأغنياء وهم أهل الانقطاع إلى الله. والعالم القاعد أفضل من الجاهل المتصرف،والعالم المتكسب أفضل من القاعد الجاهل. والقوي التارك للتصرف أفضل من الضعيف المتصرف. والقوي المتصرف أفضل من الضعيف التارك للصرف. والأفضل الفقراء الذين أُحصِروا في سبيل الله وعفيفون في الدنيا[4].

(1) السابق، ص124.
(2) الجنيد، السابق، ص125.
(3) أبو بكر محمد بن داود الرقي، السابق، ص449.
(4) **قوت القلوب**، ج2، ص406-417.

ويعود موضوع الفقر من جديد ليس كحال بل كموضوع مستقل. فضائله وفرائضه وعموم الفقراء وخصوصهم وقبول العطاء ورده وطريقة السلف فيه[1]. يبدو فيه الفقر فضيلة. فمن فرائض الفقر عند الفقراء الصبر عليه بترك المسألة قبل ورود الفاقة،وقطع الهم عن التشرف إلى الخلق. وعدم تناول عند الحاجة ما حظره العلم، وعدم تجاوز الحدود والأحكام، وعدم الاستكثار والادِّخار عند السؤال، وعدم سؤال من لا يُعلم مصدر رزقه. وقد يكون العطاء كفارة. ومن فرائض الفقر عدم سكوت الفقير عن حق، وعدم الكلام عن هوى لدوام العطاء واجتلاب المنافع.

ومن فضائل الفقر عدم الادخار، وعدم الاهتمام برزق الغد، والاغتمام بالاتساع، والفرح بالضيق والمصيبة، وحب السالكين، والرحمة بالأغنياء، وإيثار الفقراء والإحسان إليهم، والتستر بالتعفف، وعدم الشكوى. الفقر أفضل من الغنى. فقد كان أفضل الخَلْق فقيراً. وكان داود وسليمان أغنياء. الغنى باب الدنيا، والفقر باب الآخرة. الغني يحب البقاء والفقير يحب الفناء، والبقاء أجدى من الفناء. الفقر شرف المؤمن. والفقراء على ثلاث منازل: الأولى فقراء الأغنياء وهم الكافون نفوسهم، طهرة الأغنياء. والثانية فقراء الفقراء وهم المتحققون بالفقر المختارون له على الغنى لفضيلته، لا يبتذلون السؤال. والثالثة أغنياء الفقراء وهم الأجواد الأسخياء، أهل النبل والعطاء.

والفقراء ثلاثة: فقير لا يسأل، وإن أُعطي لم يأخذ، وهو مع الروحانيين في عليين. وفقير لا يسأل وإن أُعطي أخذ، فهو مع المقربين. وفقير يسأل عند الفاقة، وهو مع الصادقين[2].

الفقر بحر البلاء، وبلاؤه كله عز. وأعز الناس هو الفقير الراضي. الفقر هو ألا ينفك الفقير عن الحاجة، ولا يتحقق الإنسان بالفقر حتى يتقرر عنده أنه لا يرد القيامة أفقر منه. ويصحبه الورع وإلا أكل الفقير الحرام وهو لا يدري.

وأنه لخير للعبد أن يكون فقيراً، فلا الزهد أو التعبد أو العلم

(1) السابق، جـ2، ص398-423.

(2) السابق، ص398-405.

يبقى[1]. وللزهد منازل، الزهد في الدنيا، ثم الزهد في الآخرة، ثم الزهد فيما دون الله[2]. والرابعة لا يقوى عليها الزاهد إن وجد. قد يكون الزاهد محجوباً عن الله بزهده لأنه ما زال يعطي الأشياء قيمة ولو صغيرة[3].

يمرُّ الصوفي على عدة مقامات، العلماء ثم العارفين ثم المصلين ثم الساجدين ثم الصائمين ثم الزائرين لبيت الحرام، ثم المجاهدين، ويستقر أخيراً في مقام ذوي الفقر والفاقة. وهنا تحدث الكرامات[4].

كان الحلاج محبّاً للفقراء. والفقراء وعي كامن ليس في حاجة إلى إيقاظ[5]. الفقر قيمة لأنه تحرر الإنسان من المال[6]. والفقير هو المحروم من الإرفاق ومن السؤال[7]. فالفقر ليس مادياً بل هو اتجاه في العالم. وليس ضيق ذات اليد بل هو الفقر الروحي. وهو ما سماه إقبال «الفقر الغيور»[8]. ليس الفقير فقط اقتصاد الملكية بل هو أيضاً أخلاق النفس، فأخلاق الفقراء السكون في الفقر، والاضطرابات في الوجود، والأنس بالهموم، والوحشة في الأفراح[9]. فالفقر وعي النفس وبالعالم دون الانغماس والضياع فيه.

---

(1) «ليس للعبد خير من أن يكون أبداً فقيراً ليس معه شيء، لا التزهد ولا التعبد، ولا العلم، ولا شيء من الأشياء يبقى. . .». **شطحات**، ص142.

(2) السابق، ص151، 210.

(3) «مسكين الزاهد، قد يلبس الزهد، ويجري في ميدان الزهاد، ولو علم قلة الدنيا وفي أي شيء زهد، وكم مقدار ما زهد فيه وأين يقع هو في الدنيا من الزاهدين. إن الزاهد يلحظ فيبقي عنده فلم يرجع بطرفه إلى غيره»، السابق، ص155–163.

(4) «اللّهم أشرف بي على ذوي الفقر والفاقة فأشرف بي فإذا هم شرذمة قليلون لا أرى هناك ازدحاماً ولا تنافساً ولا أرى لهم على الباب جلبة ولا صياحاً. . . لا أوثر على الفقر والفاقة شيئاً، فها أنا معه على هذا العهد. . .». السابق، ص161–163.

(5) «إنما يوقظ النائم وقوال الفقر ليس بنائم». **أخبار**، ص34.

(6) «الفقير إذا بات في عقارب تلدغه خير له من أن يبيت مع المعلوم». السابق، ص36.

(7) **الولاية**، ص238–239.

(8) «إلهي أليس لي من الطاقة ما يبلغني هذه المرتبة. ولست أطلب إلا ذرة من الفقر الروحي». **رابعة**، ص146.

(9) أبو سعيد بن الأعرابي، السابق، ص430.

الفقر هو البراءة من الملك[1]. هو الخلو التام من جميع آثار الكثرة والعادات والمرادات. وفقر الرضا والسخط هو تجاوز الانفعالات بالموجود والمفقود. وفقر الفقر هو ترك الحظ من الفقر. الفقير من يستغني عن كل شيء إلا الحق، الفقر التام هو الله، والفقراء هم الذين وقفوا مع الحق ورضوا بجريان إرادة الحق فيهم، سلبيون قابلون طائعون طيعون[2]. ودخول الرجل البادية بلا زاد فعل رجال الله. والدية على القاتل[3]. وقد أمر الله بألا يلقي الإنسان نفسه إلى التهلكة. فالفقر هنا حرام شرعاً ورذيلة أخلاقاً. والفقر عملية ذات أبعاد ومراحل متعددة: أصله الرجوع إلى العدم الأصلي بحكم السبق الأزلي. في البدايات ترك الناس. وفي الأبواب تجريد النفس من التعلق. وفي المعاملات الذهول عن تركها. وفي الأخلاق الشكر عند وجودها. وفي الأدوية رؤية الدنيا ملك الحق. في الأحوال رؤية النفس ملك الحق. وفي الولايات الفناء في الصفات. وفي الحقائق في يد المنقطع الوحداني. وفي النهاية الطمس في عين الجمع[4].

وقد ذُكر الفقر نسبياً في القرآن عدة مرَّات، كلها أسماء. الفقر أقلها، والفقير أوسطها، والفقراء أكثرها، فالفقر ليس وضعاً مجرداً بل وضع الفقير. والفقير ليس فرداً أو جماعة صغيرة بل مجموعة الفقراء[5]. الفقير يغنه الله[6]. وهو أيضاً وضع إنساني يُغنه الإنسان بالإطعام والصنعة والعمل[7].

وليس الفقر صفة إيجابية بل صفة سلبية. فالله هو الغني وليس الفقير. ويعد

(1) **لطائف الأعلام**، جـ2، ص565-570.
(2) ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ﴾، **التفسير**، ص139-140، 151.
(3) أبو عبد الله بن الجلاء، السابق، ص178.
(4) **جامع الأصول**، جـ3، ص161.
(5) ذكر لفظ الفقر، ومشتقاته (12 مرّة)، الفقراء (7)، الفقير (4)، الفقراء (1).
(6) ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾، ﴿إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا﴾، ﴿إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ﴾.
(7) ﴿فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ﴾، ﴿وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾، ﴿وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾، ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَـٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱلْعَـٰمِلِينَ عَلَيْهَا﴾، ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ﴾.

الشيطان بالفقر[1]. فالفقر ليس قيمة إرادية على الإطلاق بل هو وضع اجتماعي يتغيَّر. وإذا كانت الصفات الإلٰهية نموذجاً للحياة الخلقية فالله غني وليس فقيراً. والدعوة إلى الفقر لا توجَّه في مجتمع غالبيته فقراء بل إلى الأغنياء منهم. ولما كان التصوف ممارسات شعبية في الأحياء الفقيرة فإن الدعوة إلى الفقر تكون في غير مكان. وفي الأمثال العامية «الفقر حشمة والعز بهدلة» على عكس قول عمر الشهير «لو كان الفقر رجلا لقتلته».

ب ـ **الغنى**. وهو أحد تعيُّنات مقام الفقر سلباً أم إيجاباً. إظهار الغنى في الفقر أحسن من الفقر[2]. لا يهم الفقر أم الغنى بل الأهم الأعلى رتبة، والأسنى قدراً[3]. فقر الغنى هو تحول الفقر إلى ثمن واستغناء من الداخل. من أراد الفقر لشرفه مات فقيراً. ومن أراد الفقر لئلا يشتغل عن الله مات غنياً[4]. حقيقة الفقر، وحقيقة الغنى أن تفتقر أو أن تغتني إلى غير الفقير وغير الغني. أعظم الناس ذلاً فقير داهن غنياً وتواضع له. وأعظم الناس عزّاً غني تذلل لفقير وحفظ حركته. ليس الغنى والفقر فقط مستويان في المعيشة بل أيضاً صراع قوى[5].

لا يوزن في الغد لا الفقر ولا الغنى بل الصبر والشكر. فالفقر والغنى أحد مستويات الوجود الذي مازال على مستوى الملكية[6]. وصحبة الأغنياء بالتعزز، والفقراء بالتذلل. فالتعزز على الأغنياء تواضع، والتذلل للفقراء شرف[7].

والفقر فضيلة بالنسبة للغنى. الفقر أفضل من الغنى[8]. ويعرف الفقير أنه

---

(1) ﴿لَقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾، ﴿وَٱللَّهُ ٱلْغَنِيُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ﴾، ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ﴾.

(2) عبد الله بن المبارك، **القشيرية**، ص124.

(3) ولست بنظار إلى جانب الغنى — إذا كانت العلماء في جانب الفقر
أبو علي بن الكاتب، السابق، ص387.

(4) السابق، ص124.

(5) أبو عبد الله المغربي، السابق، ص243-244.

(6) يحيى بن معاذ، السابق، ص125.

(7) أبو عثمان الحيري النيسابوري، السابق، ص175.

(8) **الإحياء**، جـ4، ص196-201.

كذلك بأن يخشى من الغنى ويفرح بالفقر[1]. وتجنب الأغنياء يحمي القلب من العقد معهم والطمع فيهم وأخذهم أرباباً من دون الله[2]. ويعرف الإنسان بأنه اختار الفقر على الغنى بأن يخاف أن يصير غنياً فيحتفظ الفقر بالخوف. كما خاف من قبل أن يصير فقيراً فحافظ على الغنى بالخوف[3]. وهو ما يُقال للأغنياء دون الفقراء دون فائدة. ولا يقال للفقراء دون الأغنياء لأنه مضرة بهم.

أفقر الفقراء من لا يهتدي إلى من يقدر على أن يغنيه[4]. فالفقير حقاً هو من ليس له إمكانية الغني، الفقير المصمت. والأغنياء أربعة: غني بالله، وغني بغنى الله، وغني باليقين، وغني لا يذكر غنىً ولا فقراً، كفى سره هيبة القدرة[5]. الطرف المقابل للغنى ليس الثروة بل الله، غني به وبغناه وبيقينه وبسره.

وقد تساءل علماء أصول الدين الأشاعرة: أيهما أفضل الغنى أم الفقر؟[6]. وأجاب الصوفية على السؤال بأن سواء من فضل الغنى على الفقر أو الفقر على الغنى فهو مربوط بهما، وهما محلاً علل[7]. فالصوفي في دائرة مغلقة بينهما، من الغنى الروحي إلى الفقر المادي، ومن الفقر المادي إلى الغنى الروحي. الغنى في العلم وليس في المال[8]. والفقير أفضل من الغني. الفقير الصادق الذي يسميه إقبال «صاحب الفقر الغيور»، هو الذي يدخل الجنة فبل الغني بمائة عام. وهو من يعامل الله بقلبه، ويوافقه في نواهيه. يعتبر الفقر نعمة عليه يخاف على زوالها كما يخاف الغني على زوال غناه، ويكون صابراً محتسباً بسرور باختيار الله له الفقر، وصون دينه. يكتم الفقر، ويظهر الأياس من الناس، ويستغني بربه عن فقره[9].

---

(1) شقيق البلخي، السابق، ص64-65.
(2) أبو بكر محمد بن داود الرقي، السابق، ص448.
(3) علي بن سهل الأصفهاني، السابق، ص236.
(4) السابق، ص418.
(5) أبو العباس القاسم السياري، السابق، ص444.
(6) **من العقيدة إلى الثورة**، جـ3؛ **التوحيد**، ص364-371.
(7) أبو بكر الطمستاني، **طبقات الصوفية**، ص472.
(8) إذا ما أتاني الذل من جانب الغنى سموت إلى العلياء من جانب الفقر
أبو العباس بن عطاء الأدمي، السابق، ص269.
(9) **اللمع**، ص292-293.

من مدَّ يده إلى طعام الأغنياء بشَرَهٍ وشهوة لا يفلح أبداً. وليس يُعذر فيه إلاَّ المضطر[1]. وما يمنع الأغنياء عن رد فضولهم إلى الفقراء ثلاثة أسباب: الأول أن ما لديهم غير طيب والله لا يقبل إلا الطيب. والثروة لها طرقها. والثاني استحقاقهم وحرمان الآخرين. وفي هذه الحالة يمكن القسمة بالتساوي على الجميع. والثالث أنهم مقصد دون البلاء. ولماذا يكون القصد شرًّا وليس خيراً؟ ولماذا لا يكونوا أصحاب حق؟ ولماذا لا يكون الغنى ابتلاءً للأغنياء كما أن الفقر ابتلاءٌ للفقراء؟ من تواضع لغني من أجل غناه ذهب ثلثا دينه[2].

محبة الغني مع اختيار الله لعبده الفقر تسخط. ومحبة الفقر مع اختيار الله لعبده الغني جور، وذلك هرباً من الشكر لقلة المعرفة، وتضييعاً للأوقات من قصر العلم. إيمان الغني لا يصلحه الفقر. وإيمان الفقير لا يصلحه الغني[3]. يطلب الصوفية الفقر فيعطون الغنى. ويطلب الناس الغنى فيعطون الفقر[4]. ويحترز الفقير الصادق من الغني أن يدخله الغنى فيفسد عليه فقره. كما يحترز الغني من الفقر ألا يفسد عليه غناه[5].

الغنى الصادق هو الرضا والقنوع. والفقر هو الاختيار. فالحرية في الفقر وليست في الغنى، ليس الغنى هو الثروة بل الرضا والقناعة، الغنى غني النفس[6]. الغنى هو القناعة والرضا. والقناعة اختيار بسبب التدبر. والفقر الذي استعاذ منه النبي ﷺ هو الجهل. الغنى والفقر هما المعرفة والجهل والرضا مع الوصول يؤدي إلى الطمأنينة.

الفقر عز والمسكنة ذل[7]. وكل واعظ لا يقوم الغني من مجلسه فقير. والفقير من مجلسه غني ليس بواعظ، الواعظ هو تغيير الطبقات الاجتماعية. الغنى يؤدي إلى الذل، والفقر يؤدي إلى العلياء.

---

(1) أبوعثمان المغربي، السابق، ص480.
(2) أبو علي الدقاق، السابق، ص124.
(3) السابق، ص163.
(4) إبراهيم بن أدهم، **القشيرية**، ص123.
(5) **جامع الأصول**، جـ3، ص60.
(6) **التستري**، ص251.
(7) السابق، ص252.

والفقير هو الذي يُظهر فقره إلى الله أي احتياجه إليه، وليس المتخلي عن زاد الدنيا[1]. الفقر باب خُصَّ به النبي ﷺ. فلما توفي فُتح باب الغنى. ولا يسد ذلك باب خصه الله بقوم يقتفون أثر الرسول[2]. على قدر افتقار العبد إلى الله يكون غناؤه به. وكلما ازداد افتقاراً ازداد غنى[3].

ويتخلق مقاما الفقير (الغني) والشكر من مسألة «الغني والشكر والفقر». وقد يقال إن الفقير والغني حالان لتضادهما وازدواجهما، وهو ما يميِّز الحال. وقد يكون الفقر مقاماً، والغنى مقاماً آخر، فقر بالدنيا وغنى بالآخرة[4]. الغنى أعظم النعم والدوام في الشكر. وقد قال الحكماء: لا يهتم عاقل إلا باللّه، و«من لجأ إلى غني جود: حلَّ بالغنى واستراح من تعب العنا»[5]. والشكر ضروب، فرض ونفل. الفرض حمد الله وطاعة أوامره، والنفل جهد الطاعة بعد اجتناب المعصية.

الغنى هو الملك التام. والغنى بالذات هو الحق، والغني من العباد استغنى بالحق[6]. وهو عملية شعورية ذات مراحل، بداية ونهاية. غني القلب وسلامته من السبب. في البداية القناعة بالرزق. وفي الأبواب ترك الطمع واليأس مما في أيدي الناس. وفي المعاملات الاستغناء بما قدَّر الله. وفي الأخلاق الغنى بالحق، والتخلّق بأخلاقه. والعلم والحكمة والسكون. وفي الأحوال الغنى بالرزق من الرزق. وفي الولايات التحقق بملكية الحق. وفي الحقائق الغنى بسمات الذات عن أنوار الصفات. وفي النهاية الغنى بالحق[7].

والدافع عليه ضروب: الحرص على مداومة النعم، والخوف من حلول النقم، واستكثار المنن وشدة الحياة، والحياء من التقصير[8].

ويبعث على الفقر حب الاختيار والاشتغال بالغنى وترك القيام

---

(1) السابق، ص255.
(2) السابق، ص312.
(3) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ﴾، **التفسير**، ص139-140، 151.
(4) **المسائل**، ص51-54.
(5) السابق، ص51-52.
(6) **جامع الأصول**، جـ3، ص60.
(7) السابق، جـ3، ص161-162.
(8) السابق، ص51-52.

بالأولي[1]. وينفي الفقر إظهار اليسر وانتظاره من الله مع قطع الطمع ونفي الجوع. لذلك قال الحكماء «كل من سألته فهو فوقك، وأنت بمسألته ذليل. فلا تسأل إلاَّ من لا أحد فوقه، من يعزك بمسألته ويعينك بعطيته».

وقد ذكر لفظ «غني» بالمعني الدقيق كصفة لله[2]. فالله «غني حليم»، «غني حميد»، «غني عن العالمين» «الغني ذو الرحمة»، «الغني». وهي صفة إيجابية. والإنسان أيضاً غني لكن بمعنى سلبي. فالغني الوصي على أموال اليتيم لا يستعفف في أجره. والغني يستأذن في عدم الجهاد وهو قادر. والأغنياء يديرون المال حكراً بينهم[3]. وذُكرت معانٍ أخرى في نفس الحقل الدلالي وهو العرض الزائل[4].

والجود والغنى تشبيهات إنسانية تدفع إلى حد التجريد لوصف مبادئ الوجود وحركات الأفلاك. كما أن الخير والشر مقولتان إنسانيتان[5]. والغنى مقولة إنسانية تسقط على الطبيعة لأنها واعية بالقصد، وسلبها عن الوجود تجريد وتنزيه مفتعل يتنافى مع جعل واجب الوجود غاية جميع الموجودات. كما أن مقولات الشرف والكمال مقولات إنسانية خالصة. وألفاظ القهر والانطواء، ألفاظ إنسانية خالصة، إسقاط من الإنسان على الطبيعة.

جـ ـ الجوع، والشبع، وآداب الطعام. وهو أحد تعيُّنات مقام الفقر. الجوع طعام الزاهدين. والذِكر طعام العارفين[6]. والمتقلب في جوعه كالشهيد المتقلب في دمه، له الجنة[7]. ليس الجوع مقاماً مستقلاً بل هو مُلحق بالفقر. هو حلية أهل

---

(1) السابق، ص53-54.

(2) ذُكر لفظ «غني» (24 مرَّة)، صفة لله (18)، صفة للإنسان (6).

(3) ﴿وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ﴾، ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ﴾، ﴿كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ﴾.

(4) ذُكر اللفظ بمعنى العرض الزائل (49 مرَّة)، مثل ﴿كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ﴾، ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ﴾، ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ﴾، ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾، ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنِّى مَالِيَهْ﴾، ﴿لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم﴾، ﴿وَمَا يُغْنِى عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ﴾.

(5) **المشارع والمطارحات**، الشرع السادس: في الجود والغنى وإشارة إلى مبادئ الوجود وحركات الأفلاك وترتيب الوجود والخير والشر، ص427-473.

(6) عبد اللّه بن محمد الخراز الرازي، السابق، ص289.

(7) بشر الحافي، **طبقات الصوفية**، ص44.

الله. وهو جوع العادة. وهو الموت الأبيض. إذ يواجه أهل الله أربع موتات، الجوع أحدها. موت أخضر وهو لبس المرقعات. وموت أسود وهو تحمل الأذى. وموت أحمر وهو مخالفة النفس وهو لأهل الملامية. الجوع هو جوع السالكين، جوع اختيار لتقليل فضول الطبع ولطلب السكون عن الحركة. فإن علا فلطلب الصمدية، وإن علا فإلى السحر. هو الجوع المشروع الاختياري. وترك الجوع ليس الشبع بل إعطاء النفس حقها من الغذاء الذي به صلاح لها. هو جوع العادة الذي يُتعوذ منه[1].

ويقنع الغني وإن جاع. ويحرص الفقير وإن ملك[2]. فالطبع يغلب على التطبع، الجوع إذا قارنته القناعة أصبح مزرعة للفكرة، وينبوع للحكمة، وحياة الفطنة، ومصباح القلب[3].

ولا يُعرف الله إلا ببطن جائع وبدن عار[4]. الجوع سحاب. فإذا جاع العبد مطر القلب الحكمة[5]. جوع التوابين تجربة. وجوع الزاهدين سياسة. وجوع الصدِّيقين تكرمة. الأول ابتلاء، والثاني اتِّباع وقصد، والثالث صدقة[6].

والقوت ضروري. وما لا بد منه أيضاً ضروري[7]. وإذا كانت خفة المعدة من الشهوات والفضول قوي على العبادة، ففيم الطعام الحلال؟ ألم يكن الرسول يحب كتف الشاة وشرب العسل ويتلذذ بأنواع الطعام وينفر من آخر مثل الضب الذي عافته نفسه؟ وهل كثير على الله الجوع كأمل للإنسان فيه[8]. ولماذا لا يكون الشبع؟ وأين حقوق الفقراء في أموال الأغنياء؟ ولماذا يكون الله بديلاً عن الجوع ومسكناً له؟ وقد يقرن الجوع بالصبر «الشاهد والجذب والمجذوب»[9].

(1) «في معرفة الجوع المطلوب»، **الفتوحات**، ج2، ص187-189.
(2) المحاسبي، السابق، ص60.
(3) مظفر القرمسيني، **طبقات الصوفية**، ص397.
(4) البسطامي، السابق، ص74.
(5) السابق، ص173.
(6) يحيى بن معاذ، السابق، ص111.
(7) أبو تراب التخشبي، السابق، ص149.
(8) يوسف بن الحسين البغدادي، **المواقف**، ص188.
(9) **جامع الأصول**، ج2، ص172-175.

ولا يكون الجوع إلاً من المذنبين. فإذا تاب المذنب ذهب الجوع[1]. والحكمة والعلم في الجوع. والجهل والمعصية في الشبع، فهناك تعارض بين إشباع العقل وإشباع المعدة[2]. والعصر يُثبت أن الجائع جاهل يبغي البقاء. وقد يكون الشبعان عالماً. وقد يكون شبقاً إذا أراد مزيداً من الشبع.

والجوع يدفع إلى أكل النخل وليس ثقل الخبز والأدام. ثم يتلوه الصوم حتى لا يشتهي الطعام، فيأكل الخبز وحده. ولا خوف من الأمراض والأسقام. فالصحة والمرض من الله. والهواء أساس الأمراض. والتمسك بالسنَّة ومجانية المعاصي لا تُصيب بالأمراض بسبب العون الإلٰهي[3]. ومن جاع لله نفر منه الشيطان لأن الجوع قربٌ من الله[4]. ومن جوَّع نفسه لا يقترب منه الشيطان والجوع كفر ويدفع إلى الجريمة. هو تقوية للإرادة، والشيطان ضعيف للإرادة.

والجوع على درجات: جوع طبع وهو موضع القوة وفساد، وجوع شهوة وإسراف. وجوع الكياسة وفيه علم، وجوع فهم وفطنة. يبدأ الجوع من الغريزة إلى الشهوة، وهو الجوع المادي، إلى العلم والفهم وهو الجوع المعنوي[5]. ويؤدي تجويع النفس إلى انقطاع الوسوسة من القلب. بل لو أن المجنون جوَّع نفسه لأصبح صحيحاً. فالجوع صحة للبدن والعقل معاً[6].

والجوع على ثلاث منازل: جوع طبع وهو موضع العقل، وجوع قوة وفيه الفساد، وجوع شهوة وفيه الإسراف. فالجوع زهد طبيعي وهو من طبيعة العقل أو هو جوع بدافع الشَرَه وهو الجوع الفاسد، وجوع بدافع شهوة الطعام وفيه الإسراف. وجوع الأكياس ثلاثة: جوع علم، وجوع فهم، وجوع فطنة. وهو الجوع بدافع العلم وإيثار الأعلى على الأدنى، وجوع فهم بدافع المعرفة، وجوع فطنة حذراً من الأمراض[7].

(1) **التستري**، ص88.
(2) السابق، ص237-238.
(3) السابق، ص102-104.
(4) السابق، ص109.
(5) السابق، ص232.
(6) السابق، ص242.
(7) السابق، ص328-329.

ومن جوَّع نفسه انقطعت عنه الوساوس. ولو أن مجنوناً جوَّع نفسه لصار صحيحاً. فجوع البدن صحة للنفس وإبراء للمرهق حتى ولو كان الجنون[1]. أدنى ما ينال العبد في الشبع أن يفقد علمه الذي يريد أن يؤدي به حق الله. وأدنى ما ينال من الخير في الجوع إدراك ذلك العلم[2].

والجوع أحد أركان المجاهدة. وبسببه تتغيَّر ينابيع الحكمة. وهو من صفات أهل الحقيقة، وهو مفتاح الآخرة كما أن الشبع مفتاح الدنيا. وهو أفضل شيء للأكياس للدين والدنيا. اكتسب به الناس الأخلاق والأدب والمروءة بعد أن غابت.

ويُكثر الصوفية من تفصيل آداب الطعام من أجل التركيز على قيم الجوع والفقر ضد الشبع والبطنة. فالأكل خمسة: الضرورة للحياة، والقوام للصحة، والقوت للطاقة والعمل، والعلوم للشائع، والفقر للزهاد. والسادس التخليط من ذلك كله. وأول شر في الشبع فقد العلم. وأول خير في الجوع حصول العلم الذي يؤدي إلى الخشوع لله[3]. وعدم الاهتمام بالرزق سلام من الدنيا وآفاتها. ومن الأفضل أن تكون آلة البيت من الخزف[4].

وحب الخبز يُبعد حب الرب. وحب الدرهم ضد حب الدين، وحب الدنيا يُذهب حب الآخرة. وحب وجه الأرض يستبعد حب باطنها. وهو موقف السيد المسيح، أن الإنسان لا يستطيع أن يخدم سيدين في وقت واحد. ومن سأل عن طعام اليوم بدلاً من عمل القبر فإنه يوم شؤم. والطعام المتشابه لا تمييز فيه بين العقل والعدو حتى يظهر الحلال ويسكن إلى اليقين وهو الله[5]. ولا يوجد عمل للإنسان أفضل من ترك فضول الطعام والاقتداء بالنبي[6].

(1) السابق، ص354.
(2) السابق، ص371.
(3) الجنيد، السابق، ص159-160.
(4) وأفضل الطعام الشعير، والأدام الجوع، والحلوى التمر، والدسم اللبن، واللباس الصوف، والبيوت المساجد، والدفء الشمس، والسراج القمر، والطيب الماء، والبهار النظافة، والزينة الحذر، والعمل الارتضاء، والزاد التقوى، والطعام بالليل، والنوم بالنهار، والكلام للذِكر، والصمت للتفكر، والنظر للعبر، «وملجأكم إلى سيدكم وناصركم ومولاكم»، «واجعلوا صبركم على هذا إلى الممات». السابق، ص196.
(5) **التستري**، ص1010-103.
(6) السابق، ص185، 187.

وإذا كان لا يوجد كيس يُطعم ضعفاء الناس عامةً، أهل البلاء والنعم وكبار السن فلمن يُعطى الطعام إذن؟ والأكل مثل أكل المرضى، القليل عديم الطعم الذي يقيم الأود[1]. ويصالح الله كل الأعمال إلا الأكل. وماذا عن النفاق والغيبة والتخلف عن القتال؟ والنبي ﷺ نفسه كان يحب كتف الشاة والزبد والعصيد وتعاف نفسه الضب.

الأكل مذموم في كل الحالات. فالغنى كسل عن الطاعة. ولا يوجد للأكياس أنفع من الجوع للدين والدنيا. يُكتسب به الدين لأهل الدين، والأخلاق والآداب والمروءة لأهل الدنيا[2]. ولا يكون صافي المطعم كثير الأكل. الطعام والشراب أدنى درجات العيش الأربع. الأولى عيش الملائكة في الطاعة. والثانية عيش الأنبياء في العلم وانتظار الوحي. والثالثة عيش الصدِّيقين في الاقتداء. والرابعة عيش سائر الناس في الأكل والشرب مثل البهائم[3]. مع أن القرآن حرَّم تحريم الزينة ومباهج الحياة والمال والبنون والطعام والشراب. وصوَّر الجنة على هذا النحو، قياساً للغائب على الشاهد. والعبد الذي لا ينال الوصال هو الذي يأكل الطيب، ويلبس اللين، ويكثر النسب، ويجيز الأمر. فهذا قطع الخلق عن الله ﴿وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾. الطعام خمسة أشياء: الضرورة، والقوام، والقوت، والعلوم، والفقر، وما لا خير فيه وهو التخليط أي السفه والزائد والإسراف والاستهلاك من أجل الاستهلاك والتبذير. ومن أحب الخبز لا يحب الرب مع أن الله هو الذي يُطعم ويُؤمِّن ﴿ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ﴾. فالله مرتبط بالخبز والأمن. ومن أحب الدراهم لا يحب الدين. وهو تعارض نفسي. فلا قوام للدين إلا بالحياة المادية. ومن أحب الدنيا لا يحب الآخرة، مع أن السعي والكد والكدح في الدنيا هو طريق إلى الآخرة. ومن أحب وجه الأرض لا يحب باطن الأرض، وهو تعارض متكلف. فالثروة على سطح الأرض وفي بطن الأرض كالمعادن[4]. ولا يكون صادق الطعم كثير الأكل. فالطعام كيفٌ وليس كمّاً.

(1) السابق، ص294.
(2) السابق، ص103-105.
(3) السابق، ص107.
(4) السابق، ص237.

وللعبد سبعة أمعاء. الأولى طبع، والستة الأخرى حرص، الأولى للمؤمن. يأكل بأمعاء الطبع، أما الستة الأخرى فهي الأكل والشرب عليه أطيط، والمؤمن لا يأكل إلا ما يصح في إيمانه. إذا حرَّكه طبع الشياطين اعتصم بدين الملائكة بالتسبيح والتقديس والتحميد والتهليل. ويعتصم من أخلاق السحرة بأخلاق الأنبياء والاقتداء والإتباع وترك الأحداث. ويعتصم من الأخلاق بإظهار الفقر والفاقة إلى الله. وواضح تداخل الأخلاق بالخيال، والبدن بالروح[1].

والليل اثنتا عشرة ساعة لا يحتاج الإنسان فيها إلى طعام. وللنهار اثنتا عشرة ساعة. لكل منها أوقية طعام طبقاً لعلم السَحَر المعروف. وإن استحال الوزن فليأكل الإنسان رطلين، رطلاً للعشاء، ورطلاً للسحور، دون إفطار، مع أن الحديث يعطي الثلث للطعام، والثلث للشراب، والثلث للنفس. ولكل ساعة طعام في النهار. لكل ساعة أوقية، وكأن الطعام كل ساعة بالميزان. أما صاحب العلم فطعامه وقت السحر. فالطعام طعامان طعام للبدن، وطعام للروح.

أدنى شر في الشبع انتهاء العلم وهو حق الله. وأدنى خير في الجوع يعطي العلم الذي هو حق الله، الخشوع والمراقبة[2]. وطلب الشبع من الله من غير ابتلاء بالجوع ضد قوانين الهضم، الطعام بدافع الجوع[3].

والخنزير أدنى المخلوقات. وهو رمز الانكفاء على طعام القاذورات. ولا يشبع ملأ بطنه إلا هو. لا يوجد أشر من الخنزير. ولو أن عبداً كان شيطاناً لنفسه وأطعمه خنزير لكان أفضل مما لو أطعم نفسه. وجميع الأعمال الصالحة مقبولة إلا الأكل الخاضع للعقاب. وأفضل عمل ترك فضل الطعام اقتداءً بالنبي ﷺ مع أنه قد يكون ضد التبذير واحتراماً للنعمة. ولو أن مجنوناً جوَّع نفسه بالحقيقة لصار صحيحاً[4]. فالجوع الحقيقي صحة للأبدان. والأكل مذموم في كل حالاته للغني لأنه كسل على الطاعة ولأن الكسب لا يسلم من الآفات. وإن كان متشابهاً فإنه لا ينصف الله ولا الخلق.

---

(1) السابق، ص240، 352.

(2) السابق، ص198.

(3) السابق، ص107-108، 340.

(4) السابق، ص351-352.

ويفقد الأكل المراقبة للانشغال بالنهم. والأدم مع الخبز شَرَه. بل إن أكل الحلال بشهوة فإنه حَصَر على الطعام فكيف يُتاب حتى تخرج منه هذه القوة؟ إنه في حاجة إلى أربعين يوماً أو على الأقل سبعة أيام كذلك. كل طعام أو شراب له شكر. شكر للخبز، وشكر للأدم، وشكر لفضل الأدم، وشكر للتمر، وشكر للفواكه، وشكر للشراب، وهو الماء البارد، وشكر للنوم والراحة. المهم الشكر لمن؟ للخباز أو لزراعة القمح أو لصانع الأدم أو لمنقي الماء أو لصانع السرير المريح؟ ولو كان الإنسان في كل لحظة شاكراً فما هي الحقوق؟ لا شكر على واجب. وإذا كان الشكر للماء واجباً فكيف الشبع عن الطعام؟[1]. وإذا جاع الإنسان فليطلب الشبع ممن ابتلاه بالجوع. وإذا أُشبع فليطلب الجوع ممن ابتلاه بالشبع، وإلاّ وقع في التمادي والطغيان. فالجوع والشبع من الله وليس من البطن، من النفس وليس من البدن.

التقشف هو ما فعله الصحابة، الإضرار بالأبدان، وذل النفوس، وترك الفطر، وأكل الشعير، ولبس الخشن، وشم النتن. ولم يرض الله ذلك لهم وأمرهم بالتوسع على النفس ونظافة البدن دون غلو أو تقصير[2]. والصوفي لا يشبع من الخبز حتى لا يشارك أهل الدنيا في غيره. يكفه أقل القليل. وماذا عمن يأخذ أكثر الكثير ويحرم الناس من أقل القليل؟ ألا يشعر الصوفي بمسؤولية عن الجياع وهو الذي يعرف آلام الجوع؟ ألا يعرف الصوفي مضار الغنى وهو الذي رفض المال والثروة؟[3].

ولا يأتي الفرج مع الترف لأن الفرج مكافأة على التخلي. ولا يأتي مع الحاجة لأنها تتضمن طلب الزيادة، وحب الرياسة، ومنع الفضل أي المواساة.

ويعظُم البطن بثلاثة أشياء: الشهوات، والاهتمام، وقلة الشكر. ومستويات العيش أربعة من الأعلى إلى الأدنى: الطاعة لدى الملائكة، والعلم والوحي عند الأنبياء، والاقتداء عند الصدِّيقين، والأكل والشرب مثل البهائم عند باقي الناس علماء أو جُهالاً، زهَّاداً أو عبَّاداً. وأخذ الحلال بالشهوة معصية يجب التوبة منها،

(1) السابق، ص238-239.
(2) السابق، ص234.
(3) السابق، ص296.

وكل شهوة تكون قوة للدين والبدن فليس شهوة. فلا تعني الشهوة فقط شهوة الطعام والشراب بل أيضا شهوة الحق، وشهوة المعرفة،وشهوة الوجود، لا يكون صاحب الشهوات أميناً على الدين إلا أن تكون لعلة. ومن كمال الرحمة النصح، ومن كمال النصح النهي[1]. فالشهوة ضرورة ولكن يمكن تجاوزها بفعل الحرية.

والرغبة قبل الشهوة. وهي شؤم. وتعني عدم الطعام إلا بعد تهيئته، والشرب بعد العطش، والشبع بعد الجوع. وهي نعم لله على الخلق عامة. وصاحب الشهوات ليس أميناً على الدين[2]. فهو خالٍ من التقوى والود والصفا والمحبة للإخوان والوصال مع الله. والمرأة من الشهوات، وما دونها الدنيا. مع أن الله قد خلقها سَكَناً للرجل، ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾، والخبز رأس الشهوات[3]. وكيف يقيم الإنسان أوده إذن، ولماذا طوابير الخبز؟ وهل ينتهي الإنسان وهو يأكل الخبز أم هو الحد الأدنى للإبقاء على الحياة؟ وهل يُؤكل الخبز بنيَّة الشهوة أو من أجل سدِّ الرمق؟

والشهوة تعارض التقوى. وكل شهوة حجاب من الله. تمنع الود والحب. فالشهوة حرام في حد ذاتها، وجريمة لا تُغتفر مع أنها طبيعة وجِبِلَّة. قهرها رد فعل على إشباعها بلا حدود. ما يحتاج الإنسان إليه هو الضرورة، لكن الخوف من قوة الشهوة وما تدعو إليه النفس[4]. وما أخذ إنسان شهوته من الدنيا إلا بعقوبة[5]. وهي فطرة سوداوية. فالشهوة تكوين طبيعي في الإنسان في بِنية الوجود، ودافع فيه. ويتحول الجوع إلى مجموعة من الأحاديث والروايات بما في ذلك الإسرائيليات والحكايات والمنقولات وأقوال الصوفية دون أي تحليل نظري[6].

(1) السابق، ص341-342.
(2) السابق، ص105-107.
(3) السابق، ص291.
(4) السابق، ص239-240.
(5) السابق، ص292-293.
(6) **نزهة المجالس**، جا، ص176-179.

وذُكِر الجوع في القرآن مرّات قليلة، كاسم أكثر منه كفعل[1]. وكلها معانٍ سلبية. فالجنة لا جوع فيها ولا عري للمؤمنين. وبها طعام لا يغني من جوع للكافرين[2]. والجوع والخوف من بلايا الدنيا[3]. والله هو الذي يطعم الجائع ويؤمن الخائف[4]. وحال المسلمين الآن هو الجوع مع الفقر، الملايين التي تموت جوعاً وعطشاً. فكيف يكون الجوع لديهم فضيلة؟.

5 ـ التوكل

أ ـ تعريفات التوكل. التوكل هو المقام الرابع، ولا يصح الإيمان إلا بالتوكل، ولا يصحّ التوكل إلا بالتقوى، ولا تصح التقوى إلاّ بالتبريء[5]. وهذا ربط الأصل بالفرع، والدوران بين الشرط والمشروط. التوكل هو قلب المقامات وأعلاها. وأكبرها حجماً. وهو أعلى مقامات اليقين وأحوال المقربين، بل هو نظام التوحيد، هو التفويض إلى الله، وهو قصر الأمل مثل الزهد. لذلك تتداخل المقامات، التوكل والزهد والإخلاص والرضا والورع. هو ترك الأماني. التقوى واليقين كفّتا ميزان، والتوكل لسانه. وهو مذكور في القرآن، هو مقام شريف، وأمر مقرون بالإيمان. هو الاكتفاء بالله مع الاعتماد عليه[6]. هو العيش مع الله بلا علاقة[7]. الطعن في التوكل طعن في الإيمان لأن التوكل صلب الإيمان وجوهره[8]. يتوحد التوكل بالإيمان. وهو خلط بين الجزء والكل. فالتوكل جزء والإيمان كل. وهو الأخذ من الله. لا يتكلم في التوكل إلا من يصح لديه حال الإيمان[9]. التوكل لا يهتدي إلا إلى ربه، كالطفل لا يعرف شيئاً يأوي إليه إلاّ

(1) ذُكر لفظ «الجوع» خمس مرات، مرّة واحدة فعلاً، وأربع مرّات اسماً.
(2) ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ﴾، ﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ﴾.
(3) ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ﴾، ﴿فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾.
(4) ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾.
(5) **التستري**، ص157-160.
(6) الحيري، **القشيرية**، ص77.
(7) **التستري**، السابق، ص77.
(8) «إجابة جِنّي في الطريق إلى مكة»، لإبراهيم الخواص. **القشيرية**، ص77.
(9) حمدون، السابق، ص77.

ثدي أمه[1]. هو ورود الفاقات فلا تسمو النفس إلا من إليه الكفايات[2]. هو الثقة في ما بين أيدي الله واليأس مما في أيدي الناس. لذلك تمَّ الربط بين التوكل والتوحيد[3]. وهو الحال الذي هو وديعة يُحافَظ عليها. ويقارب التوكل التنزيل[4]. هو اعتماد القلب على الله مع عدم الاضطراب عند فقد الأسباب الموضوعة في العالم التي تركن إليها النفوس. فإن اضطرب فليس بمتوكل. والله لا يجب عليه شيء عقلاً، بل يفعل أحد الممكنين. فقد خلق الله الأشياء من أجل الإنسان. وخلق الإنسان من أجله. التوكل أن يكون الإنسان كالميت بين يدي الغاسل يقلِّبه كيف يشاء دون اعتراض. ومع ذلك لا يصح التوكل في الإنسان على الكمال لأن الاعتماد على الذات طبيعي[5]. لذلك يُترك التوكل خارج الحد المشروع. فالتوكل لا يكون إلا المعدوم وفقدان الذات[6]. وهو يعارض الاستقلال الذاتي وتحويله إلى الاعتماد على الآخر[7].

والطعن في المكاسب بمعنى الأرزاق هو طعن في السنَّة، ردُّ الكل إلى أحد أجزائه. فالسنَّة بها مكاسب وسعي، وكد واجتهاد، وجمع حطب كمصدر للرزق. التوكل منزل في الدين، ومقام الموقنين ودرجة المقربين[8]. وهو من أبواب الإيمان[9]. وأصله في حقيقة التوحيد[10]. التوكل عدم طلب رزق ولا عمل غد

---

(1) **التستري**، ص271.

(2) **القشيرية**، ص78.

(3) **الإحياء**، ج4، ص238-286.

(4) إن الذي فيه يوكل ربه عبد الإله يقارن التنزيلا

الفتوحات، ج2، ص199.

(5) «والذي عليه المحققون وبه تقول إن التوكل لا يصح في الإنسان على الإطلاق على الكمال لأن الافتقار الطبيعي بحكم ذاته فيه، والإنسان مركب من أمر طبيعي وملوكي». السابق، ص200.

(6) «والتوكل الحقيقي غير واقع من الكون في حالة وجوده فما هو إلا للمعدومين في حال عدمه.. فمن أسرار التوكل ترك التوكل فإن ترك التوكل يبقي الأغيار، والتوكل للأغنياء». السابق، ص201.

(7) **الفتوحات**، ج2، ص199-202.

(8) **الإحياء**، ج4، ص238.

(9) فضيلة التوكل، السابق، ج4، ص238-240.

(10) السابق، ص240-253.

والرضا بالمقسوم. هو الصبر على حسن المعاملة وترك الطلب. والمعارضة حياء من الله، هو التسليم للحكم والرضا به. وهو على ثلاث مقامات: عام وخاص العام، وخاص الخاص. الأول الأخذ بالأسباب والتوكل. والثاني ترك الأسباب والتوكل. والثالث الخروج من الأسباب ثم الدخول فيها. فالمتوكل المتسبب على يقين بأن الله هو المعطي والمانع. فالأشياء على التوسط. التوكل مقام الأشياء، ودرجة الصدِّيقين والشهداء[1].

التوكل إرجاع الأمر إلى مالكه والتعويل عليه. وهو من أشد الأمور على النفس لضرورة ترك الأسباب[2]. ولا يُكتفى بعرض التوكل كنظرية بل يُوصف كطريق. وهي ثلاث مرّات: توبة العوام، وهو ترك ما في الأيدي والأسباب، وتوبة الخواص، الخروج عن الأسباب، وتوبة خاصة الخاصة وهو التنازل عن النفس ذاتها[3].

وإذا فقد الإنسان بيته فعليه التصرف طبقاً لسبعة مستويات: الأول: التوكل على الله والرضا باختياره. وهو تسليم واستسلام. والثاني: ابتلاء من الله واختيار له «المؤمن المصاب». طبقاً للمثل الشعبي. ولماذا هو دون غيره؟ والثالث: الصبر والصمت دون شكاية. ومع ذلك «للصبر حدود». والرابع: الاعتذار لله عما وقع له من عقوبة، وكيف تكون عقوبة دون معرفة الجريمة؟ والخامس: إنفاق في سبيل الله وقبول التعويض، بكل درهم سبعمائة درهم. وهذا في الآخرة، وماذا عن الدنيا؟ والسادس: صدقة على أخيه. وهو أقرب إلى الوهم الخادع أو الدواء الشافي. فمازال أخوه في حاجة إلى صدقة. والسابع: الزهد فيما ذهب. والزهد فعل حر وليس فعلاً مجبراً عليه صاحبه. الزهد في الموجود وليس في المفقود[4].

والتوكل على ثلاث طبقات: الأول: توكل المؤمنين، وهو توكل العوام، طرح البدن في العبودية، وتعلُّق القلب بالربوبية، والطمأنينة إلى الكفاية[5]. إن أعطي

(1) «شرح مقام التوكل، ووصف أحوال المتوكلين»، **قوت القلوب**، جـ2، ص3-75.
(2) **لطائف الأعلام**، جـ1، ص296.
(3) **رسالة الإخوان**، ص23-24.
(4) السابق، ص62-65.
(5) **اللمع**، ص78-79.

شكر، وإن منع صبر، راضياً موافقاً لقدره[1]. هو ترك تدبير النفس والانخلاع من الحول والقوة[2]. وهو رد العيش إلى يوم واحد وإسقاط هم الغد[3]. وهو الثقة بالوعد[4]. وهو الاسترسال مع الله على ما يريد[5]. والثاني: توكل المتوكلين وهو توكل الخاصة. وهو التوكل على الله دون سواه، توكل على الله بالله لله، التوكل في التوكل دون الأسباب[6]. هو موت النفس عند ذهاب حظوظها من أسباب الدنيا والآخرة[7]. أصله الفاقة والافتقار[8]. ولا يصح إلا لأهل المقابر[9]. والثالث: توكل خاصة الخاصة، وهو أن يكون الإنسان لله[10]. هو الاعتماد على الكمال الذي هو لله وحده، وهو الإيواء لله وحده[11]. وهو اعتماد القلب على الله[12].

لو أن إنساناً فتح فمه إلى السماء ونزل فيه المطر وكان ناسياً الله فالماء حرام. إلى هذه الدرجة تبلغ الحساسية مما يدخل الفم[13]. وحرام على المتوكل أن يطمئن لغير الله. فالله هو المُطعم. وكيف يتمُّ ذلك دون سعي كما يفعل الطير الذي يسعى للرزق. ولا يطعم المتوكل طعاماً لا يرى غيره أحق منه. وهو إحساس بالغيرية والأثرة وبالآخر وليس بالتوكل. فليس من الأمة من بات شبعاناً وجاره طاوياً.

وشرط المتوكل ألاً يسأل ولا يرد ولا يدَّخر. والاقتصاد يقوم على السؤال والبحث عن الأسباب، وعلى التنمية وقبول المعونات والاستثمارات. كما يقوم

---

(1) هذا هو رأي أبي تراب التخشبي.
(2) وهو رأي ذو النون.
(3) وهو رأي أبي بكر الدقاق.
(4) وهو رأي رُوَيْم.
(5) وهو رأي سهل بن عبد اللَّه.
(6) وهو رأي أبي العباس بن عطاء.
(7) هو رأي أبو يعقوب النهرجوري.
(8) هو رأي أبي بكر الواسطي.
(9) هو رأي سهل بن عبد اللَّه.
(10) هو رأي الشبلي.
(11) هو رأي أبي عبد اللَّه بن الجلاء.
(12) وهو رأي الجنيد.
(13) **التستري**، ص244.

على المدخرات الوطنية كمصدر أول لرأس المال. والتوكل على درجات أدناه أن يكون الإنسان كالميت بين يدي الغاسل فما بال أعلاه؟[1].

والدعوة إلى عدم الاتكال على النفس وتركها كالوليد الصغير. هو استدعاء القوة الكامنة في النفس وليس التخلي عنها[2]. في التوكل يصح للسلطان سلطانه، والتاجر في تجارته، والصانع في صنعته، فالتوكل هو الفعل المباشر واللا مباشر العاجل والآجل [3].

والتوكل هو الكفاية بالله في الدنيا والآخرة، حضور الله في كل شيء، وغياب العالَم والتاريخ[4]. ولا انزعاج من التوكل لأنه عيش لأهله. الاسم الله، والعلم التوحيد، واليقين الصبر، والاتصال التوكل، والمتوكلون يأكلون حسناتهم. ومن ظهرت لهم القدرة يأكلون من إيمانهم. والأقوياء، الله يطعمهم ويسقيهم[5].

والسعادة في التوكل، والشقاء في الدعوى[6]. والتوكل بلا بصيرة تهلكة. والدعوى الفاتحة على التخطيط إنجاز. علامة المتوكل ثلاث، لا يسأل، ولا يرد، ولا يحبس[7]. وألا يتحرك السر لو كانت الأفاعي على اليمين والسباع على اليسار[8]. وعدم التمييز بين نعيم أهل الجنة وعذاب أهل النار[9].

أول درجة في التوكل أن يكون العبد بين يدي الله كالميت بين يدي الغاسل يقلِّبه كيف يشاء، لا يكون له حركة ولا تدبير. هو الاعتصام بالله[10]. هو الرضا

(1) «أول مقام من مقامات التوكل أن يكون العبد بين يديه كالميت بين يدي الغاسل يقلِّبه كيف يريد». السابق، ص244.
(2) **التستري**، ص267.
(3) السابق، ص287.
(4) السابق، ص295.
(5) السابق، ص311-312.
(6) السابق، ص348.
(7) السابق، **القشيرية**، ص76.
(8) البسطامي، السابق، ص76.
(9) السابق، السابق، ص76.
(10) حمدون، السابق، ص76.

بما يفعله الله[1]. وشرط التوكل فرح البدن في العبودية، وتعلُّق القلب بالربوبية، والطمأنينة إلى الكفاية[2].

وفي الليل عدم السؤال في القبر عن العمل يوم شؤم لأنه قد يأتيه شيء ليس في الحسبان، والمعنى المقصود الاستعداد للآخرة وليس للدنيا . وتتحدانا حضارة مجاورة استعدَّت للدنيا وتركت الآخرة. ومن زعم أن معاشه مفقود فقد اتهم الكريم وأخزى عليه. والمعاش من الدولة وسياسة الأجور[3].

المتوكل الحق لا يأكل وفي البلد من هو أحق منه[4]. والتوكل الأكل بلا طمع[5]. وعلامة التوكل انقطاع المطامع[6]. وكيف يحدث ذلك في عالم يقوم على المطامع وبجوار دولة محتلة أطماعها بلا حدود؟ القلب المجتهد للعبودية يقبل شاهد الأقدار، وإسقاط الأسباب. وتقديس الأسرار، وعدم الالتفات إلى الوسائط. فالتوكل هدوء الضمير عند هجوم التقدير[7].

التوكل هو أن يطمئن القلب بموعود الله[8]. والتوكل على الله أن يكون الله هو المعلم والمؤنس والمشتكى إليه وليس الناس الذين لا ينفعون ولا يضرُّون. مع أن النفع والضرر في موقف، والإنسان وسطه[9].

ولماذا خُيِّر للصوفي أن يكون مفوضاً لا مدبراً خاصة إذا كان من الملامية؟[10]. التوكل طمأنينة القلب إلى الله[11]. والخوف أن تكون الطمأنينة

(1) بشر الحافي، السابق، ص76.
(2) التخشبي، السابق، ص76.
(3) **التستري**، ص237.
(4) الحلاج، **القشيرية**، ص77.
(5) الدقاق، السابق، ص77.
(6) ذو النون، **طبقات الصوفية**، ص25.
(7) **مشرب الأرواح**، ص42-43.
(8) شقيق البلخي، السابق، ص63.
(9) معروف الكرخي، السابق، ص87.
(10) حمدون القصار، السابق، ص127.
(11) أبو تراب التخشبي، السابق، ص150.

زائفة. التوكل محله القلب. والحركة بالظاهر لا تنافي التوكل بالقلب بعد ما تحقق العبد أن التقدير من قِبَل الله. وإن تعسَّر شيء فبتقديمه. وإن اتفق شيء فبتيسيره[1]. لا يعتمد التوكل على أي إنسان في قضاء حاجة له لأن الله يقضيها له. فكيف يُفسر الإحساس بالإحباط والحرمان إذا لم تُقضَ حاجات الناس؟ أليس من واجبات المسلم السعي في قضائها؟

التوكل تدبير النفس والانخلاع من الحول والقوة[2]. فماذا يبقى؟ هو العيش إلى يوم واحد وإسقاط الغد[3]. وماذا عن التخطيط للمستقبل الذي قام به يوسف في مصر ومراكز التنبؤ بالمستقبل حالياً؟

التوكل الاسترسال مع الله على ما يريد[4]. وكيف يُعرف مراد الله وكيف يُطمئن إلى عدم خلط مراده بالأهواء البشرية؟ التوكل على الله بكمال الحقيقة[5]. وكيف تُعرف الحقيقة؟ التوكل التعلُّق بالله في كل حال[6]. هو إلقاء النفس في العبودية وإخراجها من الربوبية[7].

التوكل كل اضطراب بلا سكون، وكل سكون بلا اضطراب[8]. واستواء الكثير والقليل[9]. هو اعتماد القلب على الله[10]. من توكل على الله أسكن قلبه نور الحكمة وكفاه كل هم، وأوصله إلى كل محبوب[11]. هو الاشتغال عما للإنسان بما عليه، والخروج مما عليه لمن له وإليه[12]. هو الأكل بلا طمع ولا

(1) السابق، ص76.
(2) ذو النون، **القشيرية**، ص76. السرقسطي، **طبقات الصوفية**، **عوارف العارف** جـ4، ص372.
(3) أبو بكر الدقاق، السابق، ص77.
(4) **التستري**، السابق، ص77.
(5) النهرجوري، السابق، ص77.
(6) القرشي، السابق، ص77.
(7) ذو النون، السابق، ص77.
(8) الخراز، السابق، ص77.
(9) السابق، ص77.
(10) محمد بن علي الترمذي، **طبقات الصوفية**، ص219.
(11) أبو عبد الله بن سالم البصري، السابق، ص414-416.
(12) أبو العباس بن مسروق الطوسي، السابق، ص239.

شَرَه[1]. وهو على مستوي الغذاء الكافي. هو حسن المطمع عن كل ما يميل إليه القلب والنفس[2]. هو استواء الحال عند العدم والوجود. هو الغثيان وسكون النفس عند مجاري المقدور[3]. هو الاستسلام، السكون إلى مضمون الحق[4]. وهل الحق يُسكن له أم يتحقق في العالم حتى يتحد مع الواقع؟ التوكل عدم العجز عن حكم الوقت، والمعرفة عدم تضييع حكم الوقت[5].

والتوكل هو عدم التمييز بين نعيم أهل الجنة، وعذاب أهل النار[6]. هو إسقاط همّ الوقت الغائب[7]. هو سرٌّ بين الله والإنسان لا يطَّلع عليه أحد[8]. وعلى الله فريضة[9]. والحركة في طلب الرزق مباح لمن عجز عن التوكل. ما يأتي بالكسب منه طيب وخبيث. وما يفتح بالتوكل لا يكون إلا طيباً. هو استواء القلب عند الوجود والعدم بل الطرب عند العدم والخمول عند الوجود، والاستقامة مع الله على الحالين[10]. هي حالة الغثيان لأن الوجود أولى من العدم ولا يتساويان عند الله فالله أقرب إلى الوجود منه إلى العدم.

أدنى التوكل حسن الظن بالله[11]. والمتوكل يرضى بحكم الله تعالى فيه دون اعتراض[12]. وهو ما تفعله الحكومات والإدارات والهيئات والمؤسسات والنظم السياسية والاجتماعية بالأفراد، حقوق بلا واجبات. التوكل الاكتفاء بضمان الله وإسقاط التهمة عن قضائه. أحوال التوكل طبقاً لتعريفاته التي تكشف عن هذه

(1) محفوظ بن محمود النيسابوري، السابق، ص273.
(2) ممشاذ الدينوري، السابق، ص318.
(3) أبو الحسين الوراق النيسابوري، السابق، ص300.
(4) إبراهيم القصار، السابق، ص320.
(5) أبو بكر بن ظاهر الأبهري، السابق، ص395.
(6) «لو أن أهل الجنة في الجنة ينعمون، وأهل النار في النار يعذبون، ثم وقع بك تمييز عليها خرجت من جملة التوكل». السابق، ص139، 210.
(7) **جامع الأصول**، جـ2، ص322-325.
(8) إبراهيم بن شيبان القرمسيني، **طبقات الصوفية**، ص404.
(9) أبو عبد اللَّه بن سالم البصري، السابق، ص414-416.
(10) جمعة بن محمد الخلدين.
(11) أبو عمرو إسماعيل بن نجيد، السابق، ص454-455.
(12) أبو عبد اللَّه محمد بن خفيف، السابق، ص465.

الأحوال وأعمال المتوكلين[1]. بل هناك توكل للمعيل[2]. التوكل أن تكون لله كما لم تكن فيكون الله لك كما لم يكن[3]. وهناك فرق بين توكل العناية وتوكل الكفاية[4]. الأول عام، والثاني خاص. التوكل لسان الميزان بين كفتي التقوى واليقين ويقدح فيه الأسباب والوسائط.

التوكل هو أن يجد المتوكل كل ما همَّ به دون أن يسعى إليه[5]. هو نصرة النفس، وخزن الرزق، وشهادة العمل[6]. هو حفر حفرة للنفس حتى يدفنها فيه وينسى الدنيا وأهلها لأن أحداً لا يقوم على كماله. هو رد العيش إلى يوم واحد وإسقاط الغد، صدق الفاقة والافتقار. التوكل أصل المقامات. فالعلم من التعبد، والتعبد من الورع، والورع من الزهد، والزهد من التوكل[7].

المتوكل على الحقيقة لا يأكل شيئاً[8]. هو الثقة بما عند الله واليأس مما في أيدي الناس[9]. هو استواء الأكفاء والإقلال[10]. هو بقاء العبد مع الله بلا علاقة. هو تمام اليقين بالله.

---

(1) **الإحياء**، جـ4، ص253-265.

أنا حامد، أنا شاكر، أنا ذاكر ... أنا جائع، أنا ضائع، أنا عاري
هي ستة وأنا الضمير لنصفها ... فكن الضمير لتصفها يا باري
مدحي لغيرك لهب نار خضتها ... فأجر عبيدك من دخول النار

السابق، ص264.

(2) السابق، ص265-268.

جرى قلم القضاء بما يكون ... فسيان التحرك والسكون
جنون منك أن تسعى لرزق ... ويُرزق في غشاوته الجنين

السابق، ص266.

(3) الجنيد، السابق، ص372.

(4) السابق، ص372.

(5) **شطحات**، ص125.

(6) «حسبك من التوكل ألا ترى لنفسك ناصراً غيره، ولا لرزقك خازناً غيره، ولا لعملك شاهداً غيره». السابق، ص182-183.

(7) أبو بكر الواسطي، **عوارف المعارف**، جـ4، ص372-376.

(8) ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ﴾، ص125.

(9) ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ﴾، السابق، ص152.

(10) **جامع الأصول**، جـ2، ص322-325.

وحقيقة التوكل طرق التوكل. وهو أن يكون الله لهم حتى وإن لم يكونوا موجودين. فالتوكل فيض كرم، وفعل مجاني. علامة التوكل عند العوام ثلاث: أن يسأل الفقير ولا يرد ولا يدخر، وعلامة توكل الخواص أن يسكن الفقير لا يتحرك حتى لو أحاطت به الأفاعي والسباع

والتوكل عملية متدحرجة. في البدايات ترك الأفعال العادية الصادرة عن الهوى. وفي البدايات اعتقاد الحول والقوة. وفي المعاملات رد الأمر إلى موكله. وفي الأخلاق الحياء من التوكل. وفي الأصول الاتكال في القصد والعزم. وفي الأدوية الانسلاخ عن العقل، والتعويل على علم الله. وفي الأحوال الانقياد بجذبه. وفي الولايات الفناء في أفعال. وأدنى الحقائق شهود مالكيه وقادريه وعجز الكل. وفي النهايات القيام بالله في كل الأمور لا بنفسه[1].

والتوكل يؤدي إلى التهوين وترك السعي والثقة بأن الرزق مضمون[2]. وينتهي بمجموعة من النصوص والحكايات والمرويات والإسرائيليات والقصص الخيالية وأقوال الصوفية[3]. بها لطائف وفوائد وحكايات ومواعظ ومسائل وأجوبة[4].

ولفظ «وكيل» لفظ قرآني، حاضر باستمرار[5]. صحيح أنه يشير إلى التوكل على الله في عدة صيغ فعلية واسمية، والفعلية أكثر لأن التوكل فعل إرادي ذاتي. فالتوكل على الله، والرحمن، والرب والحي الذي لا يموت، والعزيز الحكيم، والخالق. وفي نفس الوقت التوكل مع العزم أي الفعل[6]. وليس للرسول وكالة على قومه إلا على الضالين منهم أو على من اتخذ إلٰهه هواه[7]. فلا أحد وكيل

---

(1) **جامع الأصول**، جـ2، ص324.

(2) هوّن عليك، وكن بربك واثقا فأخو التوكل شأنه التهوين
طرح الأذى عن نفسه في رزقه لما تيقّن أنه مضمون
الإشارات، ص42.

(3) «وقابل التوكل بالتعرض مقابلة صحيحة ثم أجعل الرحمان في جانب التوكل إنه أشبة بحال العبد». السابق، ص48.

(4) **نزهة المجالس**، جـ1، ص251-257.

(5) ذكر لفظ «وكيل» ومشتقاته 70 مرّة، فعلاً (42)، اسماً (28).

(6) التوكل على اللّه هو الغالب (62)، ومع العزم (2)، وليس للرسول وكالة (6)، والوكالة لقوم (1)، ولملك الموت (1).

(7) ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾.

على أحد[1]. وكل إنسان ألزم طائره في عنقه، ومن يتخلَّ عن حمل الأمانة يتوكل إلى قوم آخرين[2]. ملك الموت وحده هو الموكل بقبض الأرواح[3].

ومع ذلك فقد تحول التوكل الصوفي إلى عديد من الأمثال العامية التي مازالت تؤثِّر في وجدان الناس مثل «توكلنا على الله»، كما أصبح السلوك الاجتماعي الشعبي يعتمد على التوكل أي حد كبير كردٍّ فعل على العجز عن أخذ زمام المبادرة.

ب ـ **الاختيار والتدبير**. ويرتبط التوكل بإسقاط الاختيار والتدبير، وردّ الاختيار والأمور إلى الله[4]. وإسقاط الاختيار والتدبير مكسب للعيش[5]. وما استخار أحد الله فاختار له شيئاً من الدنيا أو شيئاً يُنال من آخرته[6].

والاستخارة جزء من سبعة أجزاء هي: الاستشارة، والاستعانة، والاستغفار، والشكر، والتوبة، والشكوى من النفس. وكلها أفعال الشعور منفتحة إلى أعلى وليست إلى الداخل ثم إلى الأمام. وهذا ليس اختياراً بل ضرورة لأنه محدد لا بديل عنه. وإذا كانت النتيجة معروفة سلفاً فلمَ الاستخارة؟ فالضرورة تحكم الطرفين، المتخير والمستخار. الاستخارة تخل الإنسان عن حقه في الاختيار والتنازل عنه للغير. والمبادرة أولها استخارة ثم المشورة ثم العزم ثم التوكل. والحقيقة أن المبادرة أولها العزم وهو ما يسمَّى بالجبر الذاتي.

ويقتضي نفي الاختيار نفي التحليل. فالله أوجد الأجسام بلا علة. وأوجد فيها صفاتها بلا علة[7]. وأدنى التوكل ترك الاختيار وأعلاه ليس له غاية.

(1) ﴿وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ ۚ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾، ﴿وَمَا جَعَلْنَـٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾، ﴿وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾، ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾.

(2) ﴿فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَـٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَـٰفِرِينَ﴾.

(3) ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾.

(4) **التستري**، ص70.

(5) «دع التدبير والاختيار تكن ربح العيش، طيب العيش، فإن التدبير والاختيار هو الذي كدر على الخلق عيشتهم». السابق، ص77، 363.

(6) **التستري**، ص276.

(7) **الولاية**، ص229.

والتدبير هو الاختيار، وبتعبير المعتزلة خلق الأفعال، وبتعبير المحدثين الحرية. وعند الصوفية هو فضيلة سلبية تعكر على الناس عيشتهم. بل إن التوفيق في ترك التدبير والاختيار. ومن آثار ترك التدبير إتّباع الأمر والنهي والسنَّة والآداب والأخلاق والترغيب والترهيب تحويل الإنسان إلى مجرد آله للتنفيذ دون اختيار حر وتدبر.

وطعم الإيمان في الفَرَج على غير انتظار، ودون إعداد أو تدبير كما هو الحال في الدين الشعبي والأمثال العامية. والفرج من تدبير الله، والشقاء من تدبير الإنسان. ولا يجد أحد السلامة إلا أن يكون تدبيره كأهل القبور أي بلا تدبير. هل الاختيار في الأمور لله، والاقتداء بالنبي يؤدي إلى الإمامة للخلق؟[1].

ولا يأتي نصر الله إلا بعد اليأس من التدبير، فإذا ترك الإنسان التدبير وصل إلى مقام العبودية، والتدبير هو النسيان، والنسيان إسقاط التدبير[2]. ولا تعني آية ﴿حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ﴾، أي استبطاء بل اليأس من التدبير[3]. واليأس ضد روح الأمل بل يعني الاستعجال وليس الاستبطاء.

كل ما كان بالعلم والاقتداء والإجابة فليس بتدبير. فالتدبير هو الدنيا المذمومة والاحتيال للوصول إليها. وماذا لدى الإنسان لتدبير أموره إلا العلم أو الاقتداء أو الاستجابة لطلب؟ وهل التدبير بالضرورة لنيل مغانم الدنيا والوصول إليها؟ ولماذا لا يكون التدبير للغايات القصوى والأهداف العليا؟ والخدمة خدمة أي إسقاط التدبير والاختيار. وهذا هو التوفيق.

التدبير من الرغبة؟ والرغبة من طول الأمل، حسب طول الحياة وهو الهلاك[4]. والرغبة أساس الوجود، والأمل عشق له. وإذا كان أصل التدبير من الرغبة،وأصل الرغبة من الأمل وحب الحياة، فكيف يكون ذلك هو الهلاك؟ وهل العيب في الرغبة في طول العمر لأداء الرسالة وحمل الأمانة؟ كيف لا يجد العبد

(1) السابق، ص164.
(2) **التستري**، ص141-142.
(3) السابق، ص383.
(4) السابق، ص297.

السلامة حتى يكون في التدبير مثل أهل العبور؟ ومن الذي يعيش إذن إذا كان الجميع من الموتى؟[1].

أصل التدبير إتِّباع الأمر والنهي والسنَّة والآداب والأخلاق والترغيب والسعة.وكلها آفاق الوجود الإنساني فكيف يمكن إسقاطها؟ والتدبير حجاب. فقد خلق الله الخلق ولم يحجبهم عن نفسه وجعل حجابهم تدبيرهم[2].

لا تبذل الروح إلا بترك التدبير، ولا التدبير إلا بالتبري، ولا التبري مما سوى الله إلا أن يكون في النزع صارخاً أو في القبر أو على الصراط أو في الهاوية[3]. وتجاوز الهمّ أيضاً بالتبرّي. القوة سبب العصيان أما التبرّي فسبب الطاعة والإخلاص وكأن الإرادة الإنسانية باستمرار خاطئة في منع أن إسقاط التدبير هو الصواب. الاستطاعة الطريق إلى النار، والتبرّي الطريق إلى الجنة. الاستطاعة ضد الجود والكرم والعون والفضل الإلٰهي، وكأن الإنسان لا يستطيع فعل شيء بنفسه، وأن الله هو الذي يفعل له. لا يواجه الإنسان البلاء بالتدبير بل إذا سكت اتصل أي إذا تخلى عن المواجهة ـ أصل الوصال ترك القرار[4]. ولماذا يكون الأخذ بالأسباب اغتراراً؟ ولماذا يكون الوقوف مع الأحوال قطع عن المحوّل؟ أليس الأخذ بالأسباب ثقة بالنفس وقدرة على السيطرة على مجريات الأمور؟[5].

ليس للصوفي اختيار إذا أراد أن يختار حُسن نزع ما يتعلّق بالقدم أثناء السير[6]. ليس في الضرورة تدبير. فإذا صار إلى التدبير خرج من الضرورة. التدبير والضرورة نقيضان. فلما يُؤثِر الصوفي الضرورة على الحرية؟ ومن لم تكن ضرورته لربه فهو مدَّعٍ لنفسه. ولماذا تكون الضرورة خارجية وليست داخلية؟ لماذا تكون جبراً إلٰهياً ولَيس جبراً ذاتياً؟ وهل التدبير والاختيار يكدِّران على الناس عيشهم!

---

(1) السابق، ص345.
(2) السابق، ص311.
(3) السابق، ص157-160.
(4) محمد بن الفضل، السابق، ص216.
(5) أبو العباس بن مضار الآمدي، السابق، ص272.
(6) أحمد بن خضرويه، **طبقات الصوفية**، ص105.

صحيح أن الحرية تبعث على الخوف من المسؤولية، والقلق من ممارستها وأخذ القرار. وهو موقف إيجابي وليس موقفاً سلبياً[1].

ويترك الصوفي التكلف والتدبير وينظر إلى الحال والتحويل[2]. والحال ليس بيده ولا بإرادته. يموت الإنسان ولا يخلُف بعده شيئاً أكثر من التدبير. فالإنسان إذن له تدبير، وهو الذي يبقى له بعد وفاته. والتفويض مع الكسب خير خلوة منه[3]. الكسب بديهي لا يمكن إنكاره تحت أي دعوى. والعافية إسقاط التكيف، وهو تناقض إذ أن العافية ممارسة القوة إلا في حال الحب.

والعافية أن يلي الله أمر العبد وألا يكله إلى نفسه في كل حال وفي أي حال للعبد. وهو استسلام تام لإسقاط التدبير[4]. وتتطلب تقوى الله عدم ادعاء الحول والقوة يبرأ منهما ويعتمد على حول الله وقوته. فلا يصح التوكل إلا للمتقين. ولا تكون التقوى إلا بالتوكل وهو دور[5].

وبالرغم من أن إسقاط التدبير هو الغالب إلا أن هناك أيضاً تدبير القدرة مثل يوسف وإِخوته. ولا يغني تدبير الخلق عن تدبير القدرة[6].

وقد هدى الله الإنسان النجدين أي معرفة الخير والشر مثل الشمس والظل[7]. والهدي يقتضي الاختيار وليس الجبر.

تركُ التدبير هو أساس كل شيء. إذ لا تصح الأمور إلا بالمشورة والعزم. ولا يصح العزم إلا بالتوكل. ولا يصح التوكل إلا ببذل الروح، ولا يصح بذل الروح إلا بالتبريء من سوى الله، ولا يصح التبرئ إلا بترك التدبير. وأحياناً تفهم من بعض الأقل عدم إسقاط علة المعاملة لأنها ضرورية ويقع الحمل فيها[8].

---

(1) **التستري**، السابق، ص208-209، وعند هيغل الحرية هي فهم الضرورة والتوافق معها.

(2) عبد الله بن محمد بن منازل، **طبقات الصوفية**، ص368-369.

(3) أبو سعيد بن الأعرابي، السابق، ص428.

(4) السابق، ص171.

(5) السابق، ص204-205.

(6) أبو عثمان المغربي، **طبقات الصوفية**، ص482.

(7) **التستري**، ص200.

(8) أبو محمد الجريري، السابق، ص262.

جـ ـ الكسب والرزق. لا يصح الكسب لأهل التوكل إلا باتّباع السنَّة، ويصلح لغيرهم للتعاون. ولا يؤخذ منهم إلا العشار والصدقات بسبب التعاون وسريان رأس المال. والإنسان مستعبد بالكسب وحر بالتوكل، التوكل حال الرسول، والكسب سنته. الكسب في حالة ضعف التوكل وأقل درجة في الكمال. ومن استطاع التوكل فالكسب عير مباح إلا كسب معاونة لا كسب اعتماد. فالتوكل هو الأساس، والكسب استثناء. التوكل فرض والاستثناء سنَّة. فكيف تستقيم أحوال الناس؟ ونظراً للتوكل فبالكسب لا تحصل القربة. المتوكل من يمشي منقور رجلاه في كنز[1]. ولا يدخل العبد في المكاسب حتى لا يكون فيها حرج مع مولاه في آخرته. فعليه الصبر حتى يأتي الفرج. فالمقامات متصلة. التوكل قائم على الصبر، وفي غياب التوكل ينشأ الحسد والتحاسد الذي يُميت. ويصح الكسب بسبع خصال: المعرفة، والإقرار، والعلم، واليقين، والتمييز، والشهادة، والحكم. وقد يتحول الكسب إلى مقام إذا ما تشبعت المقامات. والقصد منه قطع الطمع عن غير الله[2].

والتجارة مع العبادة. والتجارة مع العلم عبادة. لا يجب طلب رزق الغد. تكفي عبادة يوم بيوم، وهو ما تعانيه الأمَّة بعدم دراسة أزمات المستقبل، ولا تفكر في حلها إلا بعد وقوعها. ادعاء الكسب في المعاش فرية وتجديف مع الله وشرك. ولا تصح طاعة لا يكون الله سببها، ويكون المطيع راضياً بها. فالله خلق الناس في الأصلاب، ورزقهم في الأرحام، ثم يميتهم في الدنيا، ويحييهم في الآخرة[3]. والكسب قطيعة مع التوكل بالرغم من أنه نصف حرية[4].

من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس يقسم الله الأرزاق[5]. ومن سأل الله شيئاً ينظر في حياته إلى الإجابة. وأفعال الله فيها اللطف والجود والكرم. ويستوي عنده كل شيء مع كل شيء، الليزل والنهار، والظلمة والنور، والبر والبحر، والعمران والخراب، والجن والإنس، والغنى والفقر، واليابس والرطب، والحياة

(1) **شطحات**، ص122.
(2) **مشرب الأرواح**، ص34.
(3) خلقكم في الأصلاب، ثم رزقكم في الأرحام، ثم يميتكم في الدنيا، ثم يحييكم في الآخرة. **التستري**، ص102.
(4) السابق، ص203.
(5) السابق، ص127-129.

والموت، والنار والثلج. يصل إلى حد استواء الطرفين والحياد فينفق لغياب الدافع كما نفق حمار «بيوريدان» في الفلسفة الغربية.

الكسب لأهل التوكل لاتِّباع السنَّة. ويصح لغيرهم للتعاون. ويدخل العقد من ضمن هموم المكاسب إذا كان فيها فرج، بين الكاسب والمولى في الآخرة. فإن غاب الفرج حضر الضمير أو يموت الإنسان ثم يلقاه الله في الآخرة[1].

وإذا كانت الطوبى لمن كان ما له عند مولاه فكيف يسعى الإنسان للحال؟[2]. وكل من كان طعامه من اكتسابه فَقَدَ القدرة على التمييز في السائل، بين الصديق والعدو، وبين العقل والهوى حتى يسكن إلى الحلال. ومن سأل عن طعام اليوم فقد انحرف عن الطريق[3].

وكل من ظن أن طعامه من اكتسابه لم يميِّز بين العقل والعدو، وكأن العقل يقول بالجبر والعدو يقول بالاختيار. وترك الكسب والتصرف في هذا الزمان أفضل من التكسب.

وفي «المكاسب» يتضح ارتباط التصوف الخلقي بعلم الكلام في قضية الكسب والتي تفسح المجال للتوكل لمَّا كانت الإرادة الإنسانية متوقفة على الإرادة الإلٰهية، وتكسب فعلها بشرط هذا التدخل الخارج وتحت الفعل فقط لا قبله ولا بعده. فبين التصوف والأشعرية هناك شراكة في الرؤية والقصد. وكما اتضح ذلك عند الغزالي في الصلة بين **الاقتصاد في الاعتقاد**، «أشعرية الحاكم» و«التوكل» أيديولوجية المحكوم في **إحياء علوم الدين**[4].

ويبدأ الكتاب تحت عنوان «عونك اللهم» ويحل المشكلة والموضوع لم يبدأ بعدُ عن طريق إعطاء الأولوية المطلقة للإرادة الإلٰهية على كل شيء، الإرادة الإنسانية وقوانين الطبيعة[5]. هو الذي قسَّم الرزق بين خلقه ودوَّن كل ذلك في كتابه. عليه التوكل حتى لا ينشغل الناس عنه بالعبادة[6].

(1) السابق، ص257-258.
(2) السابق، ص268.
(3) السابق، ص350.
(4) السابق، ص173-234.
(5) الآيات (46)، الأحاديث (45).
(6) السابق، ص 200-208.

وهو كتاب مؤلَّف وليس سؤالاً وجواباً بطريقة الفتاوي، يعتمد على كثير من الحجج النقلية. وعلى درجة أقل من التنظير العقلي. والتحليل النفسي[1]. ويعبِّر عن مواقف أشعرية صوفية مسبقة. وفي بعض الأبواب يعود أسلوب السؤال والجواب[2].

فالله هو الذي فرض الأرزاق وقسَّم الأقوات، وما على الإنسان إلا التسليم كما تقول الأشاعرة في أن الله هو الذي حدد الآجال والأرزاق والأسعار[3]. ما عليه إلا الاعتقاد بالقلب. وما سواه الكفر حتى ولو كان هناك إيمان بحركات الطباع، وما في الخليقة من محبة للكثرة، وتعجيل الوقت، والتسبب إليه بالأسباب. فالله قادر على استعباد الناس بإزائها. إنما استعبدهم بإقامة الطاعة. فالكسب عند المحاسبي هو التوكل عند الصوفية، ولم يعد به ما تبقى من قدرة إنسانية شاحبة وقت الفعل بالرغم من حديث «أطيب ما أكل المؤمن من كسبه» الذي يمكن تأويله بمعنى الكسب الأشعري أو التوكل الصوفي. وكان الأنبياء يسعون لقوتهم طالبي الرزق، محمد راعي الغنم، «ما بعث الله نبياً إلا راعي الغنم. كنت أرعاها لأهل مكة بالقراريط». وكان بيد موسى عصا يهشُّ بها على غنمه، ويتوكأ عليها. وتزوج ابنة شعيب بالأجر والكسب ثمان سنين أو عشر. وقام داود بتصنيع الحديد. والسؤال عن طعام اليوم وعمل اليوم إصرار على الارتباط بالدنيا. فالله هو الرازق والواهب.

---

(1) «الحمد لله القاهر بقدرته، الظاهر بعزته، الغالب بجبروته الذي بدأ خلق ما خلق من غير سبق. بل هو الأول قبل الأبد، والآخر إلى غير أمد، المنشيء لما شاء بمشيئته لما سبق ذلك من علمه، واستتر في خفي غيبة فكان أمره جل ثناؤه ﴿إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ بمحكم الصنعة، وإتقان الحكمة، بتفصيل عقائد أحكمها بتدبيره، وأجراها بعلمه، وأبقاها بقدرته، على ما أراد من ذلك في اختلاف الأزمنة، وتقلب الدهور ليبدو الغيب المعلوم عند أوانه. ويزول الكائن الموقوت لأجله، فسبحان من ﴿بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾، وله الحمد جل ثناؤه، وتقدست أسماؤه، على ما يستحق من ذلك على خلقه، وكما هو أهل لذلك في كبريائه وعظمته وجلاله. وجل المخبر عن نظر خلقه لما كان عن العقول غائباً، وعن الأوهام في غيبه محتجباً ليدل الخلق بذلك على نفسه، وإلى إثبات توحيده، وينبههم بذلك على معرفته، ليعرفوه بالقدرة، ويفردوه بالأمر كله، وليعلموا أنه هو إله واحد، لا إله إلا هو سبحانه...». **المكاسب**، ص173.

(2) السابق، ص173-179.

(3) «باب بيان فرض التوكل الذي يجمع فيه خواص الخلق وعامهم مع الحركات في احتباس الرزق وتركه». السابق، ص180-184.

وعند المحاسبي أن الاعتقاد أن الحركة في الكسب طلب للرزق، بناءً على السببية التي يسميها العقود، اعتقاد مذموم لأنه ضد التوكل الذي فرضه الله على خلقه كسباً للعباد. المذموم تعدي الحد، ومخالفة الأمر. والمحمود الحركة من أجل الطاعة وهي مقامات المؤمنين ومنازل السائرين، بالرغم من أحاديث الرسول ﷺ عن العول «كفى بالمرء شراً أن يضيع من يعول». وعن الرعاية والمسؤولية «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته».

ولماذا تحديد أفضل الأفعال بأدائها مما أدى بعد ذلك إلى فكرة الطبقات: الطبقات الصوفية، وطبقات الشافعية، وطبقات المعتزلة، وطبقات الحنابلة، اعتماداً على أحاديث مثل «لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهباً ما بلغ حد أحدهم ولا نصفيه»، «خير أُمتي أولها»، «خير الناس قرني ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم»، «خير الناس القرن الذين بعثت فيهم»، «إن الله اختار أصحابي على جميع الأمم». وهل المقاومة في فلسطين والعراق وأفغانستان وكشمير أقل من مقاومة المسلمين الأوائل؟ وهل الحركات الاستشهادية الآن أقل قيمة من استشهاد المسلمين الأوائل؟

وكان الصدِّيق يعمل بيده ليكسب قوته بعد أن أصبح خليفةً للمسلمين حتى اعترض الصحابة عليه وقوله «لا يقر ذنبي على عيالي، افرضوا لي فرضاً» تكسباً بالمناصب العامة، وتحويل الرسالة إلى مهنة، والأمانة إلى وظيفة[1].

وبالرغم من نقد المحاسبي ترك الحركة في الكسب كما يفعل شقيق البلخي ومواجهته بعديد من الآيات والأحاديث عن الكسب والتجارة والبيع وكتابة الدين، وبيان خطبتهم بحجج نقلية وعقلية وتاريخية من حياة الصحابة الأوائل فإنه لا يخرج عن نظرية الكسب المتشابهة التي يمكن تأويلها على الوجهين، التوكل وخلق الأفعال. وهو عيب كل نظرية وسطية. وكثير من الحجج النقلية ضده مثل ضرورة السعي والكد على العيال والجار مثل حديث «من كسب حلالاً استعفافاً عن المسألة، وكداً على عياله، وتعطفاً على جاره لقي الله ووجه كالقمر ليلة البدر»،

(1) «باب الحركة في الكسب ولطلب الرزق، واختلاف ذلك من محمودة ومذمومة». السابق، ص186-193.

والله لا يتدخل في السوق والرزق كما جاء في حديث «إن الله جل وعز تعجب من الذي يذكره في السوق»[1].

والمتوكل إذا رأى السبب فهو مدع[2]. فالتوكل قطعٌ للأسباب والأفعال. في العالم كل الأفعال أفعال مسببة. والسبب مع الشرط والمانع ثلاثة مكوِّنات للفعل الموضوعي في علم الأصول[3].

ولا تصح طاعة لعبد لا يكون الله سببها، ويكون راض بالله وأفعاله. فالله هو الفاعل الحق وما دونه فاعل بالمجاز، كما قال الكندي والأشعري من قبل. فكيف تكون المسؤولية وكيف تكون المساءلة؟ التوكل إسقاط رؤية الوسائط، والتعلُّق بأعلى العلائق[4]. هو إلغاء الأسباب والتعلُّق بمسبب الأسباب وهو غير معروف. التوكل خلع الأرباب وقطع الأسباب. ترك كل سبب يوصل إلى سبب حتى يتولى الحق كل ذلك.

رؤية الأسباب على الدوام قاطعة عن مشاهدة المسبِّب. والإعراض عن الأسباب جُملةً يؤدي بصاحبه إلى ركوب الباطل[5]. والوسط بينهما هو ضد الاعتدال. والتعلُّق بسبب في البرية سقوط وفناء له عدم ارتفاع عن حدود الأسباب[6]. التوكل ترك الاختيار وعدم الأخذ بالأسباب أو مراعاة ذم أو مدح. وإذا رأى المتوكل السبب فهو مدح[7]. فليس مع الإيمان أسباب. ولا ينفي التوكل الأخذ بالأسباب وإلاّ انتفت المسؤولية، واعتبار الأسباب ضروري دون النظر في المسببات وهو الموقف الأصولي في تحليل السبب كأحد أحكام الوضع[8]. ومن

(1) «باب ترك الحركة في الكسب وما في ذلك من محمودة ومذمومة». السابق، ص194-199.

(2) السابق، ص353.

(3) **من النص إلى الواقع**، ج2، «بِنية النص»، ص 537-554.

(4) رُويم بن أحمد البغدادي، السابق، ص183.

(5) بنان بن محمد الحمال، السابق، ص294.

(6) أبو إسحق إبراهيم الخواص، السابق، ص286.

(7) «التوكل على اللّه في الأسباب لا يوجب بقاؤها للعبد ولا إيثاره بها ولا حفظها عليه، ولا يقومن شيئاً عن شيء ولا يؤخره لصلاح دنيا أو اختيار عبد بل هو إلى الإذهاب والإتلاف أقرب لأن التوكل قرين الزهد». السابق، ص68.

(8) ذكر إثبات الأسباب والأوساط لمعنى الحكمة ونفي أنها تحكم وتجعل لثبوت الحكم والقدرة. **قوت القلوب**، ج2، ص19-29.

ثم لا يترك المتوكل التكسب والتصرف في المعايش[1]. ومن فقد الأسباب ضعف قلبه. ولا يضر التوكل الأخذ بالادّخار والاستعداد للغد، ولا ينقص التوكل التداوي. فكلاهما المرض والصحة قضاء الله.

ومن لم يهتم بالرزق سَلِمَ من الدنيا وآفاتها لأن السعي إليه يؤدي إلى التواطؤ معها والتكيف مع مقتضياتها وتلبية مطالبها. ضمن الله للعباد الرزق، وفضًّل عليهم التوكل. وهم لا يفعلون شيئاً لكسب قوتهم أو السعي إليه.

وأبواب الرزق ثلاثة، واحد مفتوح، والثاني باختيار، والثالث مُغطًّى مُعطى، طرفان والانغلاق مثل الواجب والمحرم، ووسط مثل المباح[2].

ولا يدخل رزق على عبد يحل به أو يمنع عنه فيحرم عليه إلا فريضة أو سنَّة. فالرزق هو الشرعي منعاً أو منحاً[3]. من لا يهتم بالرزق يسلم من الدنيا وآفتها. وكيف يسعى الإنسان على نفسه أسرته؟ أليس أفضل للإنسان أن يجمع حطباً ويبيعه خيراً من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه؟ ألا يوجد أفضل من أن يأكل الإنسان من عمل يده؟

لا يدخل شيء على عبد من الرزق فيحرم عليه ولا يتعرض لشيء منه فيحل له[4]. الرزق نتيجة للعمل، والعمل تحقيق للنيَّة. فالشيء في نفسه ليس حلالاً أو حراماً إلا بمقدار ما يتعلَّق بالفعل الإنساني. التوكل فراغ السر عن التفكر في التقاضي في طلب الرزق[5]. الرزق حظ النفس في الدنيا، وللقلب رزقه في الآخرة. وحقيقته فيض القديم[6]. أبى الله أن يجعل أرزاق المتقين من حيث لا يحتسبون. ولذلك تفسير علمي. فالتقي تهفو إليه الناس وتحب التعامل معه والثقة به. فتزدهر بضاعته[7].

---

(1) «ذكر التكسب والتصرف في المعايش». السابق، ص29-37. «ولا يضر التصرف والتكسب لمن صح نقله. ولا يقدح في مقامه ولا ينقص من ماله». السابق، ص29.

(2) **التستري**، ص237، 349-350.

(3) السابق، ص271.

(4) السابق، ص378.

(5) **القشيرية**، ص78.

(6) **مشرب الأرواح**، ص71.

(7) الفضيل بن عياض، **طبقات الصوفية**، ص14.

خير رزق ما سلم من إثم في الاكتساب، والمذلة والخضوع في السؤال، والغش في البضاعة، والأثمان آلة المعاصي، ومعاملة الظلمة[1]. ورزق الإنسان لا يعطى لأحد سواه، وكيف يُعرف ذلك. ولا يوجد من هم أحب من الضعيف لأن رزقه ومؤنته على الله وللإنسان أجره[2].

والواثق في رزقه من لا يفرح بالغنى، ولا يهتم بالفقر، ولا يبالي أصبح في عسر أم في يسر[3]. وهي حالة من الاستكانة والحياد واللامبالاة التي جعلها الكواكبي في **أم القرى** أحد أسباب تخلف المسلمين، لا مبالاة الناس، واستبداد السلطان في **طبائع الاستبداد**. لا يعرف الصوفية من أين يأكلون ولا الأسباب التي بها تجلب الأرزاق لأن الله يدبر لهم رزقهم[4]. والاهتمام بالرزق يزيل عن الحق ويفقر إلى الخلق[5]. والحقيقة أنه لا تناقض بين السعي للرزق والحق. فقد أمر الحق بالكد والسعي والكفاح. ولا يعني السعي للرزق الافتقار إلى الخلق بل الاعتماد على الجهد الذاتي وعمل اليد. وخير الناس من أكل من عمل يده.

الرزق من غير طلب دلالة على أنه مأمور بطلب صاحبه. طلب الرزق ليس قبل الوقت. ولا بعده ولكن فيه فيأتي، مثل الاستطاعة عند الأشاعرة لا قبل الفعل ولا بعد الفعل بل معه. وسبب الرزق التكلف والعناية عند المعتزلة أو التقوى عند الأشاعرة. وقد يكون سببه الخلقة دون تحديد بإيمان أو كفر ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾. وهو لفظ قرآني[6].

المعاش عند الحكيم من عند من ضيَّق المعاش على من شاء، ووسع على من يشاء من غير علة[7]. فأين كسب الإنسان وعمله وجهده؟

---

(1) السرقسطي، السابق، ص54.

(2) شقيق البلخي، السابق، ص63، 65.

(3) حاتم الأصم، السابق، ص94.

(4) أبو الحسن النوري، السابق، ص169.

(5) أبو عبد الله بن الجلاد، السابق، ص178.

(6) **اللمع**، ص296-297.

(7) أبو العباس القاسم السياري، **طبقات الصوفية**، ص446.

د ـ **إسقاط الأسباب والتفويض والتسليم.** الطعن في الأسباب طعن في السنَّة، والسكون إلى الأسباب طعن في الإيمان[1]. فالأسباب واجبة في الشريعة، ومحرَّمة في الطريقة والحقيقة. ومن زعم أن له سبباً يكون معاشه منه لم تصح طاعته حتى يكون الله سببه فقط ويرضى بما قسمه الله له. فيلتزم بحق من حقوق الله، وهان عليهم ترك الفضول، وهو القيام بحقوق الناس فآثروا الجوع وقلة الشيء وأقاموا أنفسهم على الضرورة، ونفي الأسباب بضرب الأمثال مثل إثباتها أيضاً بضرب الأمثال[2]. ولا تصح طاعةٌ لعبد لا يكون الله سببها، ويكون راضياً بالله وأفعاله. فالله هو الفاعل الحق، وما دونه فاعل بالمجاز كما قال الكندي والأشعري من قبل. فكيف تكون المسؤولية وكيف تكون المُساءَلة؟ يمحو الله الأسباب، ويثبت قدرته، مع أن الله أمر بالأخذ بالأسباب[3]. علامة التوكل ترك الأسباب وصحة السكون إلى الله مع قطع الطمع من كل مخلوق. وهو ترك النفس على ما هي عليه بلا فعل أو باعث أو هدف. من الأفضل عدم القعود عن الكسب ولا يُسأل الناس إلحافاً. التعلُّق بسبب في البرية سقوط وفناء لأنه عدم ارتفاع عن حدود الأسباب[4]. رؤية الأسباب على الدوام قاطعة عن مشاهدة المسبِّب. والإعراض عن الأسباب جملةً يؤدي بصاحبه إلى ركوب الباطل. والوسط بينهما هو حد الاعتدال[5]. من أراد السلامة فليصل كل ما قطع من أسباب العبودية وكل ما وصل من أسباب الحرية[6]. ومن ثم يظل الإنسان معلَّقاً بين السماء والأرض، لا هو حر، ولا هو عبد، في حالة من الخمول والغفلة أو الجنون والخبل[7].

والتوكل قادر على إحضار المتاع المسروق[8]. وهو قادر على إزالة الضرر ومداواة المرض[9]. ويُحمد ترك التداوي في بعض الأحوال. ويدل على قوة

(1) **التستري**، ص304.

(2) «بيان أحوال المتوكلين في التعلُّق بالأسباب بضرب الأمثال». **الإحياء**، ج4، ص268-274.

(3) السابق، ص291.

(4) ذو النون، **طبقات الصوفية**، ص77.

(5) أبو إسحق إبراهيم الخواص، السابق، ص272.

(6) بنان بن محمد الجمال، السابق، ص294.

(7) **التستري**، ص326.

(8) «بيان آداب المتوكلين إذا سرق متاعهم». السابق، ص274-276.

(9) «في السعي في إزالة الضرر كمداواة المرض وأمثاله». السابق، ص276-286.

التوكل واتفاقه مع سنَّة الرسول ﷺ مع أنه أقربها بالأسباب قبل التوكل «أعقلها وتوكل». ويسهل الرد على من قال إن ترك التداوي أفضل. والمتوكلون قادرون على إظهار المرض وكتمانه بالرغم من وجود علامات المرض الجسمية التي لا تخفى على أحد. السبب مدارج المعاملات. وهو نفس الإرادة. مرقاة للمقامات[1].

وإذا كانت الكائنات محتومة، والأسباب معروفة، والأوقات معلومة، واعتراض السريرة عليها رعونة، فما قيمة الإنسان في الحياة، فعله وجهاده، ونشاطه وحرمته؟[2]. الأسباب علائق. وفي التعريج موانع، والاستثناء إلى مسبوق القضاء مزاغة. وأحسن الناس حالاً من أسقط عن نفسه رؤية الخلق ورعى سره في الخلوات، واعتمد على الله في جميع الأمور[3]. فكيف تقوم الحال دون الأخذ بالأسباب؟ ولماذا تكون المكاسب ذلاً وهي لب العقائد الأشعرية؟ صحيح أن السؤال ذل وأن الرد ذل، لكن المكاسب شرف[4]. والصوفي لا يغتر بلعل وعسى. ولا يذهب إلى التعليل وهو أساس علم أصول الفقه[5]. وقد خوطب آدم وهو في مقام العلل والأسباب ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ﴾، وليس مقام القرب أو المجاوزة[6]. والأخذ بالأسباب قد ينقطع، والأخذ بالأنساب قد تُفرق[7]. وانقطاع الأسباب مرحلياً إلى أن يسيطر الإنسان على ميدان الفعل وعوامل الحركة فيه. وانقطاع الأنساب دائم لأن قيمة الإنسان بفعله وليس بنسبه.

والأسباب على مستويات عدة، السبب الأول هو الخاطر الأول الذي يدعو إلى أمر إلٰهي، وسبب الإجابة هو صحة التوجه، وسبب المطاوعة هو سبب الإجابة، وسبب تعلُّق الإرادة هو سبق العلم بمواقع الحكمة، وسبب إرسال البلايا هو الحكمة منها، وسبب الشطح التحلي بالأحوال[8].

---

(1) **مشرب الأرواح**، ص61.

(2) أبو بكر الواسطي، السابق، ص304.

(3) ممشاذ الدينوري، السابق، ص318.

(4) عبد اللّٰه بن محمد بن منازل، السابق، ص363.

(5) أبو بكر الطمستاني، السباق ص472.

(6) أبو الحسن المصري، السابق، ص489.

(7) «يا عبد لا تكن بالأسباب فتنقطع بك، ولا تكن بالأنساب فتتفرق عنك». **المخاطبات**، ص235.

(8) **لطائف الأعلام**، ج2، ص421-423.

والتفويض في الإيمان. والادعاء أي نسبة شيء إلى النفس ضد التفويض. وبهذا المعنى التفويض تخلٍّ عن العبادة. أما المعنى الإيجابي فهو شحذ القوى أولاً ثم الانطلاق إلى الفعل. وهو الفرق بين «التوكل»، المعنى الإيجابي، و«التوكل» المعني السلبي. ولا يعني التفويض التسليم بل الثقة بإتمام الفعل إذا ما توفرت الأسباب. وهو إحدي درجات التوكل. فالتوكل ثلاث درجات: التوكل ثم التسليم ثم التفويض. فالتفويض قمة التوكل. والمتوكل يسكن إلى وعده. وصاحب التسليم يكتفي بعلمه. وصاحب التفويض يرضى بحكمه[1].

التوكل بداية، والتسليم واسطة، والتفويض نهاية. التوكل صفة المؤمنين، والتسليم صفة الأولياء، والتفويض صفة الموحدين. التوكل صفة العوام، والتسليم صفة الخواص، والتفويض صفة خواص الخواص. التوكل صفة الأنبياء، والتسليم صفة إبراهيم، والتفويض صفة النبي[2]. التوكل نفي الشكوك، والتفويض إلى ملك الملوك. التفويض تلطيف الروح بمعرفة لطائف علم الغيب وخروجها من الاختبار، وهو فعل مقام التسليم[3]. والفرق بين التوكل والتسليم والتفويض أن التوكل سكون إلى وعد الله، والتسليم الاكتفاء بعلم الله، والتفويض الرضا بحكم الله[4].

والتفويض في المعرفة في علم أصول الدين أحد أصول المرجئة، تفويض المعرفة إلى الله. وهو أيضاً في علوم التصوف رد المجهول إلى علم الله. والإنسان في سجنٍ ما تبع شهواته فإذا فوَّض سَلِمَ واستراح. التفويض هو الحل[5]. هو الطمأنينة عند الموارد[6]. هو استناد الأمور كلها قبل وقوعها وبعده إلى مُجريها، فهو أعلم بالمصالح وأرحم وأشفق. وإن عارض العقل والوهم فهو التسليم[7]. والتفويض عملية متدحرجة، في البدايات الانقياد للأمر والاستسلام

(1) أبو علي الدقاق، **القشيرية**، ص77.
(2) **التستري**، ص267.
(3) **مشرب الأرواح**، ص43.
(4) **نزهة المجالس**، ص157.
(5) أبو عثمان الميري النيسابوري، **طبقات الصوفية**، ص174.
(6) ابو سعيد بن الأعرابي، السابق، ص429.
(7) **لطائف الأعلام**، جـ1، ص276.

للطاعة بترك التدبير. في المعاملات ترك التعرض للعلم. وفي الأخلاق تفويض النفس إلى حاكمها. وفي الأصول ترك الأسباب بمعاينة الاضطرار، وترك الاختيار، ودوام الافتقار، واقتفاء الأقدار. وفي الأدوية الانسلاخ عن حكمه، والانخلاع عن همته معتمداً على هدايته لا بصيرته. وفي الولايات شهود تعرف الحق إياه. وفي النهايات سلام الوجود لمن له الوجود ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ﴾[1].

و«التفويض» مصطلح كلامي من المرجئة مما يدل على بداية التصوف كرد فعل على الجدل الكلامي. وهو مصطلح قرآني في الأساس ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾، وحديث «فوضا أمركما إلى الله عز وجل تستريحا». فالتفويض راحة للقلب من الهم والغم، والاهتمام والاختيال. هو توكل على الله وثقة به والمعرفة بنفاذ قدرته. هو لجوء القلب إلى الله في كل الأمور. وهما طريقان: الأول، التفويض الكامل لله دون فعل وهو مذموم. والثاني، التفويض النسبي إلى الله مع الفعل. التفويض إدارك للقدر وأن العالم عصِيٌّ على إرادة الإنسان، وأن الله قادر عليه. التفويض قبل نزول القضاء. لذلك يُسمَّى إلجاءً. وبعده يُسمَّى انتظاراً. والرضى والسرور بما نزل من القضاء والقدر «وأسألك الرضا بعد القضاء»[2]. التوكل على الله، والتفويض إليه، والصبر عليه[3].

والتفويض ليس حالا بل هو نتيجة للمقامات مثل التوكل، وتفويض كل شيء إلى الله. الهلاك في التدبير، والنجاة في التفويض. التفويض إسقاط التدبير. وهو شائع في حياة الإنسان من المهد إلى اللحد، في بطن أمه مدبَّر غير مدبِّر، مرزوق من حيث لا يعلم أو في قبره لا حيلة له أو يوم القيامة بعد أن انقضى التكليف[4]. كيف تكون النجاة في التفويض، والهلاك في التدبير، والإنسان قبل الولادة حتى الممات لا تدبير له؟ في بطن أمه مدبَّر غير مدبِّر، مرزوقاً غير رزقه من حيث لا يعلم. وفي قبره لا يستطيع أن يدبِّر شيئاً. فالضرورة نسيج حياته. وفي القيامة الإنسان يتحمل مسؤولية اسمه ولونه ووطنه وجنسه وبيته وأعماله.

---

(1) **جامع الأصول**، جـ3، ص143.

(2) السابق، ص143-147. ويحيل المحاسبي إلى **كتاب الرضا**، السابق، ص147.

(3) **المخاطبات**، ص266.

(4) الحلاج: «نصوص الولاية»، **أعمال**، ص223-224.

ويُقرن بالتفويض التسليم. والتسليم هو أن يَكِلَ العبد نفسه إلى ربه في جميع أحواله مع بقاء مزاحمة العقل والوهم. لذلك تميَّز عن التفويض. فالتسليم به بقايا معارضة من العقل والخيال[1].

وتسلم الحق هو تسليم النفس إلى الحق بالحق، وليس عن طريق العقل والحكمة. والتسليم عملية تتكشف تدريجياً. في البدايات تسليم الأحكام الشرعية بلا اعتراض ولا تعليل. وفي الأبواب الاستسلام القوي لها والإذعان لمقتضياتها. وفي المعاملات تسليم ما يزاحم العقول، وفي الأخلاق الإذعان لِما تنبت النفس على خلاف طبعها، الصبر لا الطيش، والإيثار لا الشح، والعدالة لا التطرف. وفي الأصول تسليم القصد إلى الكشف لقوة الأنس. وفي الأدوية تسليم البصيرة والحكمة إلى الهمة والحق. وفي الأحوال تسليم إلى الحق ليقوى الحب وينشدُّ الجذب. وفي الولايات تسليم الرسم إلى الحقيقة والانخلاع عن الخليقة. وفي الحقائق تسليم المعاينة إلى المعاين. وفي النهايات تسليم ما دون الحق إلى الحق[2].

هـ ـ **القضاء والقدر**. والإيمان بالله هو الإيمان بالقدر. والإيمان بالقدر من علم الله. وهو عالم في الأصل لا يُنسب إلى الجهل، وعادل في الفرع لا يُنسب إلى الظلم. المعصية من الله بالرجوع إلى الإنسان لمغفرة الخطيئة. والطاعة من الله لشكر المولى. الحركة والسكون، والطاعة والمعصية، كلاهما من الله[3]. وهو خلط بين علم الله وقدرته. علم الله مسبق لا يفرض نفسه إلى فعل. والطاعة من الله والمعصية من النفس قسمة صغيرة تقوم على تبرئة الآخر وتخطئة النفس. ولا حيلة للعبد أمام جريان الأقدار. فقد أُلقي في الماء مكتوفاً وطلب منه ألا يبل[4]. وهو نوع من الظلم والتناقض والعبث.

وكل شيء يقع في هذا العالم بقضاء الله وقدره بما في ذلك المعاصي لأنها محدودة. وكل محدود مقدور مما يجعل الله مسؤولاً عن الشر وانتفاء المسؤولية الإنسانية بالتالي الحساب والعقاب. والقدرية هم الذين ينفون قدرة الإنسان.

---

(1) **لطائف الأعلام**، جـ1، ص260.
(2) **جامع الأصول**، جـ3، ص146-147.
(3) **التستري**، ص174-177.
(4) يحيى بن معاذ، **طبقات الصوفية**، ص107-114.

والصوفية أولى بالاسم من المعتزلة. المشيئة باب العلم. والإرادة باب القدرة. ومن لا يؤمن بالقدر لا إيمان له. ومن تكلم بعد الإيمان به فقد خرج من السنَّة. والفرقة الناجية تؤمن بالقدر خيره وشره، حلوه ومره[1].

الطاعة والمعصية من الله على عكس القدرية. أرادوا وأراد الله. التوكل استسلام لجريان القضاء والأحكام[2]. ومن لم يؤمن بالقدر فقد كَفَر. ومن أحال المعاصي إلى الله فقد فَجَر. فما العمل إذن؟ إذا كان الإنسان صاحب أفعاله كفر، وإن عزاها لغيره فقد فَجَر؟ وهو قائم على القدر. وكلاهما سلب.

والأسماء التي تعلمها آدم هي السر. والسر هو القدر. والوسوسة من إبليس لآدم وذريته إلى نهاية الزمان. وآدم لم يعتصم من التدبير ومارس حرية الاختيار فأخطأ. سجود الملائكة وإباء إبليس في الأرض وليس في السماء في دائرة الاختيار الحر. والحديث في القدر حديث في الله لأن القدر فعله، وهنا يبدو الإنسان مجرد وسيلة أو أداة لإظهار الفعل الإلٰهي، والسؤال عن القدر مقام. فطلب العلم بسر القدر اقتحام الأسرار في أنوار الألوهية والربوبية ولا يرجع إلا بنعت الفناء والحيرة[3].

وتُؤَوَّل كل آيات الاختيار على أنه من فعل المشيئة الإلٰهية. فالتأويل هو إحالة الآية على جنبها المسبق عكس التفسير الذي يضع الآية على جوانبها كلها. وأحياناً يتمُّ اللجوء إلى الطبع. إذ تحتاج المشيئة الإلٰهية إلى أداة. والطبع هو الفطرة أو الخلقة. وهو جزء من العلم الإلٰهي والعقل الإنساني.

والكفر قدر الكافر. والإيمان قدر المؤمن. وهي الأشعرية المتضمنة في التصوف. الهداية والضلال، والتوفيق والخذلان من الله. كل شيء مَنٌّ من الله على عباده، الهداية والعداوة[4]. وهي الأشعرية التقليدية، أفعال الشعور الداخلية

---

(1) السابق، ص94-95.

(2) ابن مسروق، **القشيرية**، ص77.

(3) **مشرب الأرواح**، ص314-315.

(4) «يمن الله على من يشاء من عباده فيهديه، ويسلِّط عدوه على من يشاء من عباده فيغويه. فلا يكون كون بغير إرادته. ولا يقوم شيء بغير مشيئته. أحب الطاعة من أوليائه بتوفيقه. وزجر عن المعاصي ونهى عنها وشاء كونها... وجلَّ أن يكون في ملكه ما لا يشاء». السابق، ص98-99.

وخصال الجوارح الخاصة من كسب ورزق كلها من الله. والبلاء والعافية، والأمر والنهي، والعصمة والتوفيق، والولاية والهدي، والثواب والعقاب من الله[1]. خلق الله اللسان والحركة والقوة والكفر والمعصية[2]. وخلق الله الخلق على معرفته ولكن أفعال الإنسان من وجود الإنسان دون أن تكون محددة من قبل.

والإقرار بالغيب جزء من الإيمان بالقدر. عمل الخلق ومصيرهم وثواب الجنة وعذاب النار بفعل الله وقدره المسبق، وليس نتيجة للاستحقاق. فالعمل بعون الله، والمعصية في حاجة إلى عصمة[3]. فالإنسان لا عقل له ولا إرادة، وليس عليه مسؤولية ولا جزاء، وفي مقام كشف علم المجهول من القدر يُري جميع الخلائق في الجنة، المؤمن والكافر والفاسق. فالقدر ليس فقط ما تمَّ في الماضي بل ما يحدث في الحاضر وما يقع في المستقبل. وهو كشف خاص عن حقائق الغيب[4].

ويرتبط العلم بالقدر. فالقدر هو العلم المسبق. لم ينسب القدرية العجز والجهل لله بل أثبتوا القدرة والعلم للإنسان. والخلق مأمورون بالطاعة دون إجبار، ومكلفون عصمة. مأمورون وليس ممنوعين، ومنهيون وليسوا بمجبورين[5].

الملائكة مأمورون منهيون مبتلون معصومون. وهذه جبرية طبيعية. والأنبياء مأمورون منهيون مبتلون معصومون بالوحي. وهذه جبرية إلٰهية. والناس مأمورون مبتلون معصومون وغير معصومين وهذه حرية إنسانية.

---

(1) السابق، ص79.

(2) «خلق لهم اللسان، وخلق الحركة فيهم، وأعطاهم القوة، ثم تركهم حتى كفروا. ولو حرسهم لما كفروا. وإنما ظهر فعل العبد بعد فعل اللّٰه فقال «بقوة اللّٰه عصموه، ولا يقال بولايته عصوه، ولو منعوه لم يكفروا فتركهم حتى كفروا. فتبرأ من أفعالهم. «فهم لا يختارون غيره». **التستري**، ص179–180. «قد علم اللّٰه من هذا الخلق أنهم يعصونه لو أهملهم وأخلاهم. فلو أن الرب عصمهم ما عصوه. وهم مستعدون لطلب العصمة». السابق، ص180.

(3) يقول الإنسان يوم القيامة «اللّٰهم أمرتني بالعمل فلا أقدر عليه إلا بعونك، ونهيتني عن معصيتك فأعصمني وإلا فأنا هالك. اللّٰهم لا تكلني إلى نفسي ولا إلى عقلي». السابق، ص78.

(4) السابق، ص315–316.

(5) «ولو أن أهل سبع سموات وسبع أرضين جهدوا على أن يدفعوا ما قدروا». السابق، ص183–184.

والإيمان بالقدر خيره وشره من ضمن قواعد الإيمان. ويعني الخير الإيمان، والشر الكفر. حلو الخصب والصحة والفرح والمال مما يوجب الشكر. ومرة القحط والأمراض والأسقام والصبر عليه، وإبليس قاس. والقياس إعمال للعقل، ورفض، والرفض ممارسة للحرية. الخير عدم الاتكال إلى النفس والعقل والعمل، والشر الاتكال إلى النفس والعقل والعلم. والاعتماد على حديث «لا تكلني إلى نفسي» أو «لا تكلني إلى عقلي وعملي ورأيي»، في حين أن هناك أحاديث أخرى تحثُّ على الاعتماد على النفس والعقل والعمل[1]. فالله في كل مكان بالعلم والقدرة لا بالكينونة في حين أنه يستحيل الفصل بين الصفات والذات. من تكلم في القدر بعد الإيمان فقد خرج على السنَّة لقوله «عزمت على أُمتي ألا يتَّكلوا في القدر». والكلام شك في حرية الفعل الإنساني ودعوى للتوكل، والقذف بالمسؤولية على الغير.

ولا يجد أحد السلامة إلا في التسليم بالقضاء كما قال سحرة فرعون ﴿فَٱقۡضِ مَآ أَنتَ قَاضٍۖ﴾ مع أن الإنسان يتفرد عن الله بالحرية «أنا حر فأنا إذن موجود» كما هو الحال في النسق الاعتزالي. وهل الإنسان عصفور يقع في فخ الله كما يقع الغريق في لجج البحر؟ فإن كان كيِّساً ترك دفة السفينة من يده حتى يفقد السيطرة كلية على السفينة ويتركها تتقاذفها الأمواج. لا يصل أحد إلى التوحيد إلا بالتجرد والتجلد والتبريء والتعري أي بالفناء عن الذات كلية[2].

ويقتضي الإيمان بالقدر السكوت عنه، والرضا به دون اعتراض. وسر القدر ما علمه الله في الأزل عن كل نبي بما أنطبع فيها من الأحوال التي تظهر في وجودها[3].

الرياء في أهل القدر اعتقادهم أن أعمالهم من عند أنفسهم وباستطاعتهم، وهي من عند الله وإلا لما قدروا عليها[4]. وكيف يكون الإنسان صاحب أفعاله مرائياً؟

---

(1) السابق، ص254-255.

(2) «لا يصل أحد إلى علم التوحيد إلا بالتجرد والتجلد والتبريء والتعري». السابق، ص244.

(3) **اصطلاحات الصوفية**، ص101.

(4) **التستري**، ص320.

وفتح باب المعاش بمفاتيح الأقدار وإلا وكل إلى المخلوقين وكأن الاعتماد على المخلوقين فيه إجحاف وتجديف[1]. ومن اعتمد في حياته على غير مفاتيح الأقدار وُكل إلى حوله وقوته والاتكال على حول الإنسان وقوته خير من الاتكال على مفاتيح الأقدار. فهو يعرف قدراته وقوته ولا يعرف مفاتيح الأقدار. فكيف يعتمد على المجهول دون المعلوم[2]. ولا مهرب من القضاء إلا إلى القضاء[3]. والفرار من قضاء الله إلى قدر الله. ففي هذه الحتمية الشامل، من أين تبزغ الحرية إلا من الوعي الذاتي والفعل الحر؟، ولا حيلة للعبد أمام جريان الأقدار. فقد ألقي في الماء مكتوفاً وطُلب منه ألاً يبتل[4]! وهو نوع من الظلم والتناقض والعبث.

والمتوكل وحده يحق له الكسب إذا كانت النيَّة التعاون. ويحق له ترك الكسب ضماناً من الله. ومن خالف في كلتا الحالتين فقد أخطأ[5]. وماذا عن الكسب لقيام الذات؟ أليس للعبد أن يأكل من عمل يده خيراً له من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه؟ التوكل هو الخضوع تحت موارد القضاء[6]. في حين أنه في بعض الأغاني الشعبية النادرة «قدر أحمق الخطى، سحقت قامتي خطاه». وإذا كانت النجاة بحكم القضاء والنجاة لمن سبق له الاختيار[7]. فمن الذي يقوم بفعل النجاة؟

و ـ العافية والحول والقوة. العافية هي العصمة مما يكره الله والتوفيق لما يحب. وإن كان هو مغموساً في البلاء. وهو تعريف بالضد. العافية هنا غياب العافية وسلبها من الإنسان وإعطاؤها للّه كما يفعل الأشاعرة في مباحثهم عن الأفعال، وجعل الهداية والضلال والتوفيق والخذلان من الله[8]. والهدي والضلال من الله

(1) يحيى بن معاذ، **طبقات الصوفية**، ص109.
(2) أبو تراب التخشبي، السباق ص151.
(3) أبو العباس الدينوري، السابق، ص475.
(4) ما حيلة العبد والأقدار جارية عليه في كل حال أيها الرائي
ألقاه في اليم مكتوفاً وقال له إيّاك إيّاك أن تبتلّ بالماء
الديوان، ص288.
(5) ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ﴾، **التفسير**، ص114.
(6) **جامع الأصول**، ج2، ص322-325.
(7) **القشيرية**، ص53.
(8) **التستري**، ص290.

كما هو الحال عند الأشاعرة[1]. والموفق لا يخاف غير الله، ولا يرجو غيره. فيؤْثِر رضاه على هوى نفسه[2]. العصمة هي التي تحفظ الصوفي من غضبه برحمته، وعدم التوفيق هو تلفظ شيء باللسان فيما لا يعنيه. ويضل المتعبدون إلا من عصمه الله. وهو دستور المتكلمين[3]. فالعصمة هي التي تمنع من الضلال. والأنبياء معصومون في الوحي، وذنوبهم داخلة في العصمة في أمر النبوة[4].

الغضب والحدة من سكون الإنسان إلى حوله وقوته. فإذ خرج السكون إلى الله لا إلى حوله وقوته وشعر بالضعف نالته الرحمة واللطف. وهو التسليم[5]. خلق الله الخلق وجعل الهمَّ في قلوبهم وستره. وأمر بعدم انتهاكه، وعدم إفشائه. وجعله متحركاً. فالوجود همٌّ[6]. والهمُّ أساس الحركة. الستر سَكَن، والكشف حركة. الأمر ستر، والنهي كشف للسر. الأمر سكون، والنهي حركة.

السكون والحركة من الله[7]. والتحريك من الله. وإذا كان كل تحريك يقود إلى الله، فأين حركة الإنسان؟[8]. ومن طعن على السكون فقد طعن على الإيمان. ومن طعن على الحركة فقد طعن السنَّة[9]. فهل السكون هو الأساس والحركة الفرع؟ هل السكون القاعدة، والحركة الاستثناء؟ أما الشريعة فتتطلب الحركة. والطعن في الحركة طعن في الحكم الشرعي، والأمر والنهي، لا يدرك العبد طعم الإيمان حتى يكون في سكونه فَرَجَه. والربح في تدبير الله له. والشقاء في تدبير العبد لنفسه[10]. وهو ما يعارض الحركة الإصلاحية بالدعوة إلى الحركة والفعل، وأخذ زمام المبادرة. فالكسب في الحركة، والخسارة في السكون، آفة الخلق السر

(1) **من العقيدة إلى الثورة**، مجـ3، «العدل»، ص303-339.
(2) أبو عثمان الحيري النيسابوري، **طبقات الصوفية**، ص172.
(3) **التستري**، ص298.
(4) السابق، ص306.
(5) السابق، ص150.
(6) هذا هو أيضاً موقف هيدغر، السابق، ص158.
(7) السابق، ص177.
(8) السابق، ص288.
(9) السابق، ص323.
(10) السابق، ص344.

والعلم والسكون إلى الله. فالاستعاذة به واجبة وطلب السلامة. فهل الارتكان إلى الغير من طبائع الأشياء أم الاعتماد على النفس؟[1].

الشقاء إنكار القدرة، والسعادة الإيمان بها. فالشقاء والسعادة مرتبطان بإنكار أو إثبات القدرة الإلٰهية. وليس بالوضع الإنساني ووجود الإنسان في العالم[2]. السعادة الغنى في القلب، والعصمة في الطاعة. والتوفيق في الزهد. السعادة في القلب والقدرة على التجرد والطاعة في الأفعال. هي في قلة المُؤْنَة، وخفة الحال، وتسهيل الصلاة، ولذة الطاعة. هي الحياة البسيطة التقية الطائعة، والشقاء في فوات صلاة الجماعة بالقرب من المسجد، وفوات الحج في المدينة ومكة. الشقاء إذن في الامتناع عن أداء الشعائر في أوقاتها وأماكنها.

حول الله فعل، وحول العبد وقوته دعواه بأنه يملك الساعة وهو لا يملكها. الحول والقوة فعلان لله مسلوبان عن الإنسان. ويعاقبه الله إذا ادَّعى امتلاكهما[3]. وعلى قدر فقر الإنسان إلى الله يستغني به عن كل شيء. ويتولاه الله في كل شيء. فيتحول الفقر من المادة إلى الوجود، ومن تقوية الإرادة إلى إنكار الذات والتسليم إلى الله في كل شيء[4]. لا يفكر العبد أو ينظر أو ينطق أو يدبر أو يتحول إلا بأمر مولاه! فماذا يتبقى للإنسان أن يفعل؟[5].

6 ـ الصبر

وهو لفظ قرآني. ويعني الخير والفضيلة. وبالرغم من أن الصبر هو التالي في الترتيب بعد التوبة إلا أنه أقل المقامات من حيث الكم، وهو لفظ وارد في الآيات والأحاديث بل وفي كتب الأنبياء والسابقين وعند الصحابة التابعين. وهو أحد أركان الإسلام مع اليقين والجهاد والعدل. ومنزلته من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد. فلا جسد لمن لا رأس له. ولا إيمان لمن لا صبر له. وهو مذكور في القرآن كمقام

---

(1) السابق، ص367.
(2) السابق، ص271.
(3) السابق، ص260.
(4) السابق، ص290.
(5) السابق، ص361.

شريف[1]. هو حمل المُؤنَة عن الله حتى تنقضي أوقات المكروه[2]. هو هرب أكثر الخلق من حمل الأثقال واللجوء إلى الطلب والأسباب[3]. وأشد أنواع الصبر على الصابرين ليس الصبر في الله أو الصبر لله أو الصبر مع الله بل الصبر عن الله. لا عمل إلا بالصبر في حين أن العمل إزاحة الصبر[4]. العمل حركة، والصبر سكون. الصبر نفسه سكون الاستعانة بالله على السكون بل على الحركة. وأرفع الحكمة وأعلاها انتظار الفرج من الله المولى الحميد سبحانه. وهو ضد المبادرة والمبادأة والعمل، الصبر انتظار الفرج من الله[5]. وأقوى منه الصبر في الصبر دون انتظار الفرج.

وإذا كان لا عمل إلا الصبر فمتى يكون العمل؟ وإذا كان لا ثواب أكبر منه فماذا عن الثواب عن العمل؟ وإذا كان لا زاد إلا التقوى فمتى تتحقق التقوى في الخارج وتصبح نظاماً مثالياً للعالم؟ وإذا كان لا يُعين على ذلك إلا الله فكيف يستعد الإنسان ويعمل بيده؟ وإذا كان من لا صبر معه لا عمل معه إذن يؤدي الصبر إلى عمل؟ وهذا هو الفرق بين الصبر والمصابرة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ﴾. الصبر مع العمل موضع الرأس من الجسد. هو تصديق للتصديق. والتصديق عمل. الصدق مطابقة النظر للعمل وليس الصدق المنطقي النظري مطابقة النتائج للمقدمات أو الصدق العلمي مطابقة النتائج للوقائع[6]. دواؤه علم وعمل، هو كمال العمل والأجر.

الصبر أقسام: صبر على كسب العبد وهو قسمان، الأمر والنهي، وصبر على غير كسب العبد وهو الصبر على حكم الله ومشقته[7]. والصبر مع الله أشد شيء[8].

---

(1) **اللمع**، ص76-77.

(2) هو رأي الجنيد.

(3) وهو رأي إبراهيم الخواص.

(4) السابق، ص96.

(5) السابق، ص348-357.

إن صوت المحب من ألم الشوق وفوق الفراق يورث ضرا

صابر الصبر فاستغاث به الصبر فصاح المحب للصبر صبرا

الشبلي، السابق، ص 354.

(6) السابق، ص314.

(7) **القشيرية**، ص85.

(8) الجنيد، السابق، ص85.

والصبر من الإيمان. فالإيمان نصفان، نصفه صبر، ونصفه شكر[1]. وهو مقام من مقامات الدين، ومنزل من منازل السالكين. وينتظم بثلاثة أمور: معارف، وأحوال، وأعمال. المعارف تورث الأحوال، والأحوال تورث الأفعال[2].

وهو نوعان: بدني تحمل الشقاق ونفسي مثل الهلع والجوع والتذمر والغضب والحنق، وضيق الصدر. وتختلف أقسامه: قوةً وضعفاً. مرَّةً يتغلب الهوى عليه، ومرَّةً ثانية يتغلب على الهوى، ومرَّةً ثالثةً يتنازعان قوةً وضعفاً. لذلك كان الصابرون على ثلاثة مقامات: ترك الشهوة، ورمية التائبين، والرضا بالمقدور وهي درجة الزاهدين، والمحب لما يصنع المولى وهي درجة الصدِّيقين[3]. ولا يستغني أحد عن الصبر سواءٌ ما وافق الهوى أو ما خالفه، طاعة أو معصية.

والصبر على البلاء في الشدة. ويكون فضيلة إذا كان استعداداً للخروج منه طبقاً للمثل الشعبي «الصبر مفتاح الفرج»، ويكون رذيلة إذا أدى إلى قبول الضيم والاستكانة وعدم الاعتراض. والصبر هو احتمال الأذى في الدنيا أو في الدين، ثلاث مرَّات بعدها يصبح الصديق عدواً. فالصبر موقف إيجابي محدد بالوقت. والهدف منه تحويل العدو إلى صديق، ومقابلة القوة المادية بالقوة المعنوية[4]. والوقوف مع البلاء بحسن الأدب[5]. والفناء في البلوى بلا ظهور شكوى[6]. والمقام مع البلاء بحُسن الصحبة كالمقام مع العافية[7]. النيات مع الله، وتلقي البلاء بالرحب والدعة، ولا يقتضي الصبر الشكوى للناس[8].

والوجل في القلب هو الوقوف بين يدي الله على فكر والصبر عليه. الوجل

اصبر نكن بك صابرين فإنما صبر الرعية بعد صبر الرأس

الإحياء، جـ4، ص128.

(1) السابق، جـ4، ص59-67.

(2) السابق، ص67-71.

(3) **عوارف المعارف**، جـ4، ص316-320.

(4) **التستري**، ص266-268.

(5) ابن عطاء، **القشيرية**، ص85.

(6) السابق، ص85.

(7) أبو عثمان الصبار، السابق، ص85.

(8) بشر الحافي، **طبقات الصوفية**، ص43.

هنا هو الترقب والانتظار من أجل الفعل. لا يعين إلاً الله، ولا دليل إلاً الرسول، ولا زاد إلا التقوى، ولا عمل إلا الصبر[1]. فأين إرادة الإنسان؟ لو أعطي الخلق فهم الصبر كان عيشهم فيه فكيف نفهم بالصبر[2]؟ فهم الصبر أخف وطأة من العيش لأن الفهم قد يخرج منه.

الصبر عن الشهوات هو صبر النفس على النفس[3].ومن صبر على صبره فهو الصابر لا من صبر وشكا كما هو الحال في الأغاني والمواويل الشعبية[4]. والتصبر هو الصبر على الصبر كما هو الحال في الأغاني الشعبية، والصبر والمصابر والصبور والصبور أبلغ. والصبور هو عدم علاج العصاة بالانتقام. هي صيغة المبالغة الصبر ثلاثة: متصبر، وصابر، وصبار. المصابرة هي الصبر على الصبر حتى يستغرق الصبر في الصبر فيعجز الصبر عن الصبر[5]. والصبر على ثلاث طبقات: الأول المتصبر في الله وهو صبر العوام مرَّةً يصبر ومرَّةً يجزع. وهو ملازمة الواجب في الإعراض عن المنهي عنه، والمواظبة على المأمورية[6]. والثاني الصابر وهو من يصبر في الله وله ولا يجزع ولا يشكو وهو صبر الخواص، مثل صبر المحب على الضرب[7]. والثالث الصبار وهو الصبر في الله ولله وبالله وهو صبر خاصة الخاصة. لا يعجز ولو وقعت عليه جميع البلايا[8]. وهو المعنى السائد في الأمثال العامية بطلب المزيد من الصبر على الصبر. فقد أُمر العبد بصبر الصبر إذا ما عزَّه الصبر. ويتكرر لفظ الصبر في العبارة، كما هو الحال في المواويل الشعبية[9]. وهو صيغة المبالغة[10].

---

(1) **التستري**، ص276.

(2) السابق، ص282.

(3) السابق، ص 274.

(4) أحمد بن خضرويه، السابق، ص104.

(5) صابر الصبر فاستغاث بالصبر فصاح المحب بالصبر صبرا، السابق، ص86.

(6) وهو رأي القناد.

(7) وهو رأي ذو النون.

(8) وهو رأي الشبلي، وهو معنى هذا البيت من الشعر:

صابر الصبر فاستغاث به الصبر فصاح المحب بالصبر صبرا

(9) وما أمر صبر الصبر مني دائماً أمرت بصبر الصبر إذ عزَّني صبري

السابق، ص306.

(10) **الفتوحات**، جـ2، ص206-208.

الصبر جوهر العقل والحنكة والفطنة والتدبر والحذر. والعقل جوهر الإنسان. ولماذا لا يكون جوهر العقل هو الثورة والتمرد والمبادرة؟

الصبر والرضا شكلان، بداية ونهاية في العمل. الصبر أوله، والرضا آخره[1]. الصبر من أخلاق الرجال وإخفاء الضر والبلوى[2]. والصبر على النوائب لأن الله أثنى عليه[3]. وحدود ﴿فَمَآ أَصۡبَرَهُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ﴾. يظهر الصبر عند البلاء[4]. هو تلقي البلاء بصدر رحب فمتى تتمُّ مقاومته؟ هو ترك الشكوى. وتحمل الأذى بلا شكوى[5]. وعدم الشكوى خضوع. والشكوى حيلة الضعفاء. ولكل فعل صبر، الصبر ترك الشكوى وعدم الاعتراض باللسان أو بالفعل[6]. الصبر ترك الشكوى وإخفاء الضر والبلوى[7]. ولكل صبر حبة، ولكل حبة إرادة، ولكل إرادة أثرة[8]. فالفعل صبر أي انتظار. والصبر حبة أي وسيلة لشيء أبعد وأداة لتحقيق غاية. والحبة إرادة لأنها فعل من أفعالها. والإرادة أثرة أي إيثار الغير على النفس.

والصبر على الخلوة من علامات الإخلاص. والصبر على الطاعة لا يفوِّت طاعة. والصبر على المعصية ينجي من الإصرار عليها[9]. فإخلاص أول الصبر. فالصبر ضد الجزع. وهو ترك الشكوى من ألم البلوى، والرضا بالقضاء مانع من الشكوى.

وأنين العبد إلى الرب ليس شكوى ولا جزع. فلِمَ يكون الأنين إذن؟[10].

---

(1) شقيق البلخي، السابق، ص66.
(2) أبو علي بن الكاتب، **طبقات الصوفية**، ص387.
(3) أبو علي بن الكاتب، السابق، ص 387.
(4) يحيى بن معاذ، السابق، ص109، 113.
(5) يحيى بن معاذ، السابق، ص109، 113.
(6) رُويْم بن أحمد، **طبقات الصوفية**، ص387.
(7) أبو علي بن الكاتب، السابق، ص284.
(8) حاتم الأصم، السابق، ص94.
(9) أبو عثمان الحيري النيسابوري، السابق، ص174.
(10) عمرو بن عثمان المكي، السابق، ص203. وهذا هو معنى أغنية أم كلثوم «أروح لمين وأشكي لمين، وأقول يا مين. ينصفني منك؟».

كيف يكون الصبر قوة والجرأة عجز[1]. ومصاحبة الحمقى بجميل الصبر إلى حين فقط[2]. من لم يصبر لم يظفر[3]. وهذا عندما يكون الاستعداد للعمل مستمراً.

والصبر والإخلاص هما طريقان لتصحيح المعاملات، الصبر عليها والإخلاص فيها[4]. الصبر عطية لا تكبو[5]. ويصل إلى الله من يصبر عليه[6]. فالصبر مفتاح الفرج، وهو ما يتردد أيضاً في الأغاني الشعبية، من صبر على مخالفة نفسه أوصله الله إلى مقام أنسه[7]. فالضد يحيل إلى الضد.

وقد لا يستطيع أحد العطش على الصبر وتضيق عليه المذاهب فيحتاج إلى ري الساقي[8]. صبر المحبين أشد من صبر الزاهدين[9].

والصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد. والمؤمن يختبر صدقه في كل حال[10]. وواضح تخلق المقام من التصوف الخلقي والنصائح العملية[11].

والصدق في الطلب يورث علم البصائر. وهو الذي ينجي من الحزن، واستجلاب الصدق بمباحث الصدق في مواطن التفكر[12]. وعلامة ذلك في الصادق. إذا نظر اعتبر، وإذا صح تفكر، وإذا تكلم ذكر، وإذا مُنع صبر، وإذا أُعطي شكر، وإذا

---

(1) محمد بن الفضل البلخي، السابق، ص264.
(2) أبو بكر الوراق، السابق، ص223.
(3) أبو إسحق إبراهيم الخواص، السابق، ص284.
(4) أبو محمد المرتعش، السابق، ص351.
(5) رُويْم، السابق، ص85.
(6) خير النساج، السابق، ص323.
(7) أبو عبد الله بن سالم البصري، السابق، ص415.
(8) أيا من صفاء الود شرب فؤاده ... فأصبح رياناً لتلك المشارب
أعنتني فما لي عنك بالصبر طاقة ... وجُد لي فقد ضاقت عليَّ مذاهبي
أبو عبد الله الدنيوري، السابق، ص516.
(9) **القشيرية**، ص85.
(10) السابق، ص91.
(11) السابق، ص50.
(12) السابق، ص94، 105.

استبلي استرجع، وإذا جهل عليه حلم، وإذا علم تواضع، وإذا أعلم رفق، وإذا سُئل بذل[1]. الصبر لله ومع الله وبالله[2]. هو عدم الاعتراض على التقدير[3].

والصبر تصديق للصدق. وأفضل منازل الطاعة الصبر على المعصية ثم الصبر على الطاعة. وأعظم أجر هو أجر الصابرين، الصالحون في المؤمنين قليل، والصادقون في الصالحين قليل، والصابرون في الصادقين قليل. الصبر على الطمع في الخلق يورث الورع، والصبر على الورع يورث الزهد، والصبر أشق شيء على النفس وإكراهه وأمرَّه على الطبع وأصعبه[4]. ومع ذلك للصبر فوائد كثيرة في السيطرة على الأهواء والانفعالات، مثل حبس النفس عن السعي في هواها، وكف الجوارح عنها، وحبس النفس على الحق وعبادة الخالق، وكف الأذى عن الخلق. ومنها الصبر على الإنفاق، وإعطاء أهل الحقوق حقوقهم، وعلى العمل في أوله وآخره وبعده، والصبر عن المكافأة وعلى الدين وعلى الأحكام وحبس النفس على النفوس. والصبر عند الابتلاء والمصائب والأوجاع. ومن فضائله حبس النفس عن حب المدح والحمد والرياسة، وعن الخمول والتواضع والذلة، والصبر على العيال في الكسب والإنفاق. ومن الصبر أيضاً إخفاء أعمال البر، ومنع النفس عن الفكاهة، وصون الفقر وإخفاؤه. الصبر إذا سكن السر تجلد القلب في تحمل مشقة البلاء[5].

ولا يصبر الإنسان إلا بمشاهدة العوض وهو الأدنى وهو حال المؤمنين أو النظر إلى المعوّض وهو حال المؤمنين ومقام المقربين. وللصبر ثلاث أحوال أو مقامات. ترك الشكوى وهي درجة التائبين، والرضا بالمقدور وهي درجة الزاهدين، والمحبة للمولى وهي درجة الصادقين. والصبر على ثلاثة أنواع: صبر على المعصية، وصبر على الطاعة، وصبر في المصائب.

---

(1) السابق، ص102-103.

(2) الشبلي، **القشيرية**، ص85.

(3) السابق، ص86.

(4) «الصبر أشق شيء على النفس، وأكرهه وأمرُّه على الطبع وأصعبه فيه الألم والكظم عند الذل والحلم». السابق، ص398.

(5) **مشرب الأرواح**، ص42.

والصبر له أيضاً ثلاث علامات يُعرف به ولا يتمُّ إلا بها: الصبر عن محارم الله، والصبر على اتِّباع أمر الله، والصبر عند المصائب احتساباً بالله[1]. والصبر على خمسة أقسام: صبر للّه وهو غنى، وصبر في اللّه وهو بلاء، وصبر باللّه وهو بقاء، وصبر مع اللّه وهو وفاء، وصبر عن اللّه وهو جفاء.

الصبر حبس النفس على الطاعات، وترك الاعتراض. وحبس الروح يشمل الفضائل والمقامات والأحوال[2]. وقد يُقرن الصبر بالقناعة وعلامة المحبة. فالصبر والاحتساب من عنق الرقاب. يُدخل الله صاحبهن الجنة بغير حساب[3]. الصبر تجرع المرارة من غير تعبيس[4]. هو استقبال البلاء بالرضا والثبات.

ومتاع الدنيا رضا بالميسور وصبر عن غير المقدور[5]. والصبر الجميل هو السكون مع موارد القضاء سرّاً وعلناً وإلقاء العبد عياله إلى مولاه، وتسليم نفسه مع حقيقة المعرفة ولا يجزع بحاله[6]. الصبر توفيق من الله، وشهود غيبة[7]. مع أنه من بذل المجهود، من المكاسب لا من المواهب. والصبر أمر إلٰهي[8]. وإذا أمكن الصبر فهل يصبر القلب عن الفؤاد؟ الصبر كمال القوة الغضبية[9].

وقد ألبس الله العبد لباس الصبر العاصم، دون تحديد معناه[10]. وفي الصبر

---

(1) السابق، ص170.
(2) **لطائف الأعلام**، ج2، ص457.
(3) **جامع الأصول**، ج2، ص271-272.
(4) الجنيد، السابق، ص271.
(5) ﴿يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا﴾، **التفسير**، ص123.
(6) ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾، السابق، ص124.
(7) ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾، السابق، ص147.
(8) قد تصبر، وهل يصبر سر قلبي عن فؤادي
الديوان، ص298.
(9) في البدايات حبس النفس عن المعاصي. وفي الأبواب حبسها عن النزوع إلى الشهوات. وفي المعاملات منعها عن الركون إلى البطالة. وفي الأخلاق الصبر حياء ودعاء. وفي الأصول قصد السلوك إلى الحق. وفي الأدوية الصبر على تعظيم الحق. وفي الأحوال الصبر مع اللّه. وفي الولايات الصبر في اللّه. وفي الحقائق الثبات على دوام المشاهدة. وفي النهاية الصبر باللّه في مقام البقاء بعد الفناء، **جامع الأصول**، ج3، ص148-149.
(10) **المخاطبات**، ص210-211.

العافية. من صبر عما سوى الله أبصر نعمته. فالصبر يؤدي إلى البصيرة[1]. وإذا صبر العبد يوماً كفاه الله باقي الأيام[2]. وفي الصبر متسع لجميع الناس، ولا داعي للنصيحة بالصبر، فالصبر في الطبع. يولد الحسرة والجزع[3]. وهو أفضل شفيع[4]. الصبر مزية[5]. وهو مادة القناعة، والقناعة مادة العز[6].

وقد يقرن بين الصبر والحلم في مؤلف خاص كإجابة على سؤال[7]. والقضية ليست علاقة العموم بالخصوص بينهما كما يفعل الأصوليون لاستنباط الأحكام بل التمايز في التجارب البشرية، الحلم هو الأناة والعقل في اللغة. وهو الطمأنينة عند سورة الغضب.

ثم يتحول الصبر إلى روايات وأحاديث وحكايات وأساطير ومنقولات دون أي تحليل نظري، وتوظف كخيط لتجميع المعلومات[8]. الصبر زاد المضطرين وحيلة العاجزين[9]. وقد وبخ الله تاركي الصبر على دينهم ﴿ٱمْشُواْ وَٱصْبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ﴾[10]. وقد يعني ذلك أن للصبر حدوداً ﴿فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾. الصابر على رجائه لا يقنط من فضله، ولكن للصبر حدود. لذلك ترك الصبر من مقتضيات المقام. فالصبر سوء صنيعة وحيلة الضعفاء[11]. وإذا كان الصبر على الألم طبيعي

---

(1) السابق، ص229.

(2) السابق، ص245.

(3) وما أوسع الصبر والقناعة   للناس جميعاً لو أنهم سمعوا
الإشارات، ص42.

(4) قالوا: تصبَّر قلت: فالصبر شيمتي   ألم تعلموا أن الكريم صبور؟
فلئن صبرت لأصبرن بحسرة   ولئن جزعت فإنني معذور
السابق، ص403.

(5) اصبر فما استشفعت في مطلب   بشافع خير من الصبر
السابق، ص404.
واصبر فإن الصبر عزم ذوي الحجى   ووراء لبك إن غفلت نهار

(6) **المواقف**، ص131.

(7) الشوكاني: جواب سؤال عن الصبر والحلم.

(8) **نزهة المجالس**، جـ1، ص66-71.

(9) أحمد بن خضرويه، السابق، ص104.

(10) عمرو بن عثمان المكي، السابق، ص203.

(11) وفي الصبر من سوء الصنيعة أنه   يقاوم قهر الحق في كل إقدام =

فإن الصراخ منه طبيعي أيضاً. ومن يوضع في النار فإن صبره غير طبيعي ﴿فَمَآ أَصۡبَرَهُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ﴾. والصبر قسمان: الأول ما لا صلاح للدين إلا به، والثاني على الضد، أصل فساد الدين. فليس الصبر كله قيمة. هو حيلة من لا حيلة له.

و«الصبر» لفظ قرآني ورد عشرات المرات في صيغ متعددة[1]. والأغلب الصيغ الفعلية ثم الصفة والاسم، مما يدل على أن الصبر فعل ذاتي واختيار حر، وأنه صفة للصابر أكثر منه جوهراً. وهو ليس جبراً بل هو فعل حر، قد يحدث وقد لا يحدث. لذلك استعمل اللفظ في صيغة الاحتمال والشرط[2].

ليس الصبر مطلقاً لكنه مشروط بالعزم والجهد وهو الصبر الثوري مع الأعداء والعمل للمستقبل حين ينتهي الصبر ويبدأ الفعل[3]. وهو مقرون بالجهاد والرباط والعمل الصالح. وقليل من الصابرين يغلبون الكثير[4].

وله معانٍ سلبية في توظيفه في غير مكانه. هنا يكون الصبر عملاً سلبياً. والأولى الثورة والغضب. فالصبر على عبادة الآلهة ليس في محله. عدم الصبر هو الأضمن والأوفق والأصح. والصبر على عدم المعرفة إصرار على الجهل حتى لو كانت معرفة ظاهرية. وكيف يكون الصبر على الفتنة؟ ورفض أكل طعام واحد أقرب إلى الواقع من الصبر عليه. ومن يوضع في النار ويصبر عليها دون أن يصرخ مدعاة للعجب[5].

= فلا صبر عند العارفين فإنهم   من الضعف في بحر على سيفه ظام
السابق، ص208.

(1) ذُكر لفظ «صبر» 103 مرّات، فعلاً (62)، صفةً (26)، اسماً (15).

(2) ﴿وَلَئِن صَبَرۡتُمۡ لَهُوَ خَيۡرٞ لِّلصَّٰبِرِينَ﴾، ﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ صَبَرُواْ حَتَّىٰ تَخۡرُجَ إِلَيۡهِمۡ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡۚ﴾، ﴿وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمۡ كَيۡدُهُمۡ شَيۡـًٔاۗ﴾، ﴿فَٱصۡبِرُوٓاْ أَوۡ لَا تَصۡبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡكُمۡۖ﴾، ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَجَزِعۡنَآ أَمۡ صَبَرۡنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٖ﴾.

(3) ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾، ﴿فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾، ﴿وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾، ﴿وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾.

(4) ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، ﴿ثُمَّ جَٰهَدُواْ وَصَبَرُوٓاْ﴾، ﴿وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ﴾، ﴿ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾، ﴿إِن يَكُن مِّنكُمۡ عِشۡرُونَ صَٰبِرُونَ يَغۡلِبُواْ مِاْئَتَيۡنِۚ﴾، ﴿وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسۡتَكَانُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾، ﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُمۡ حَتَّىٰ نَعۡلَمَ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ مِنكُمۡ وَٱلصَّٰبِرِينَ﴾، ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلۡبَأۡسِۗ﴾، ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمۡ﴾.

(5) ﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنۡ ءَالِهَتِنَا لَوۡلَآ أَن صَبَرۡنَا عَلَيۡهَاۚ﴾، ﴿وَكَيۡفَ تَصۡبِرُ عَلَىٰ مَا لَمۡ تُحِطۡ =

ويغلب على الوجدان العربي المعاصر المغالاة في الصبر بدافع العجز والاستكانة وقبول الأمر الواقع لاستحالة البديل، وليس بالصبر الثوري القائم على الإعداد والجهد. وقد غذت الأمثال العامية والأغاني الشعبية الصبر في وجدان الناس. وعاشت دون أمثال أخرى مثل «الصبر مر» أو أغانٍ أخرى مثل «للصبر حدود».

7 ـ الرضا

الرضا بنيّة الإخلاص طريق النجاة حتى بحضور العلم. وإذا تحول الرضا إلى الرضوان فهو الطمأنينة، والرضا باليقين. وقد يتحول الرضا إلى مقام مستقل في الرضوان الأكبر[1]. وهو الاتصاف بالله والخروج من امتحانه، وهو القناعة والانتظار للأمر، وتحويل الإنسان إلى مجرد مستقبل.

والرضا متبادل بين الله والإنسان ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ﴾، إذ يرضى الله عن عباده الذين يطيعونه يوماً بيوم، كما يرضى العباد عن الله برزقهم يوماً بيوم، وكأن الأمر تجارة متبادلة، الطاعة في مقابل الرزق، والرزق في مقابل الطاعة[2]. من أراد بلوغ جَدَّ الرضا فعلية الالتزام بما جعل الله رضاه فيه[3]. رضا الرب ثمرة رضي العبد، ورضا العبد ثمرة المحبة. ولا يتحقق مقام الرضا إلا إذا كان الرضا متبادلاً بين العبد والرب، العبد راضٍ عن الرب، والرب راضٍ عن العبد[4]. رضا الخلق عن الله بعلمهم. ورضاه عنهم بتوفيقهم للرضا عنهم[5]. فالرضا متبادل ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ﴾.

= ﴿بِهِۦ خُبۡرٗا﴾، ﴿قَالَ إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرٗا﴾، ﴿قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرٗا﴾، ﴿سَأُنَبِّئُكَ بِتَأۡوِيلِ مَا لَمۡ تَسۡتَطِع عَّلَيۡهِ صَبۡرًا﴾، ﴿ذَٰلِكَ تَأۡوِيلُ مَا لَمۡ تَسۡطِع عَّلَيۡهِ صَبۡرٗا﴾، ﴿وَجَعَلۡنَا بَعۡضَكُمۡ لِبَعۡضٖ فِتۡنَةً أَتَصۡبِرُونَۗ﴾، ﴿وَإِذۡ قُلۡتُمۡ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصۡبِرَ عَلَىٰ طَعَامٖ وَٰحِدٖ﴾، ﴿فَمَآ أَصۡبَرَهُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ﴾.

(1) **مشرب الأرواح**، ص306.

(2) **التستري**، ص251، 317.

(3) النصر أباذي، **القشيرية**، ص89.

(4) «ألا تستحي أن تطلب رضا من لست عنه راض». **رابعة**، ص109، 170.

(5) أبو بكر بن يزدانيار، السابق، ص409.

الرضا قسمان: رضا به وهو التدبير، ورضا عنه وهو القضاء[1]. هو إخراج الكراهية من القلب بحيث لا يوجد فيه إلا الفرح والسرور[2]. هو سكون القلب إلى أحكامه، وموافقة القلب بما رضي الله به واختاره. الرضا نظر القلب إلى قديم اختيار الله للعبد وهو ترك السخط[3].

استعمال الإنسان الرضا دون أن يستعمله الرضا حتى لا يحجبه عن الرؤية[4]. الرضا هو استواء المصيبة والنعمة[5]. ويكون العبد راضيا إذا سرَّته المصيبة كما سرَّته النعمة[6]. حينئذٍ يكون الشعور في حالة حياد تام لا يحزن ولا يفرح.

والعمل الصالح والحياة الطيبة هي القناعة بالله ولا أحد سواه. فالقناعة والرضا صنوان، والراضي يحب الزيادة، والقانع لا يريد غير الله. ولا يقصد غيره[7]. فالقناعة أعلى مقاماً من الرضا. وعلامة الرضا ترك الاختيار[8]. والحياة اختيار، ولا يوجد أفضل في طلب الخير من طلب الاقتصاد في جميع الأمور.

الرضا استقبال الأحكام بالفرح[9]. هو سكون القلب تحت مجاري الأحكام[10]. وهو سرور القلب بمرِّ القضاء[11]. من رضي بقدره رفعه الله فوق غايته[12]. إما الرضا وإما الصبر[13]. وكلاهما ميتتان. مثل الحب بين العذاب والرحمة، بين الهجر والوصل. والحمد مثل الرضا، والشرك جعل الإنسان دائماً خافضاً لمن هو أعلى منه مستجدياً إياه، يد سفلى دون يد عليا. والحمد تصنع

(1) محمد بن خفيف، السابق، ص289، **عوارف المعارف**، جـ4، ص377.
(2) أبو بكر بن طاهر، السابق، ص89.
(3) ابن عطاء اللّه، السابق، ص90، 378.
(4) السابق، ص89.
(5) **رابعة**، السابق، ص89.
(6) «إذا سرته المصيبة كما سرَّته النعمة». السابق، ص124، 164.
(7) ابن خفيف، **القشيرية**، ص89.
(8) السابق، ص311.
(9) رُوَيْم، السابق، ص90.
(10) المحاسبي، السابق، ص90. الحرث، **عوارف المعارف**، جـ4، ص376-383.
(11) الثوري، السابق، ص90.
(12) الجريري، السابق، ص90.
(13) السابق، ص90.

الأعاجيب. لو قرأ على ميت لعاش لأنه اسم من أسماء الله[1]. وتسبيح الله يشمل البسملة والحمدلة والاستغفار والمشيئة والدعاء للرب، والحول والقوة له، والرجوع إليه[2]. الرضا صحة العلم الواصل إلى القلوب[3]. لا ينال الرضا من الله مَنْ للدنيا في قلبه مقدار[4]. وأهل المعرفة بالله أحقهم بالرضا عنه. فالرضا نتيجة المعرفة، رضا الإنسان عن الله[5]. وهو درجة العارفين. ويتوقف الأمر على المعرفة هل هي معرفة المثال بلا واقع أم الواقع بلا مثال؟ وهذا قد يُرضي المثالي والواقعي. أما معرفة المسافة بين الاثنين فهو ما لا يرضاه الثائر. الرضا ثاني درجات المعرفة فمن رضي صحت معرفته بالله بدوام رضاه عنه[6].

ولمَ سهر الليالي وقضاء الأيام في همٍّ وقلق؟ ولمَ التماس الفقير من الغني أعطاه أو منعه؟ الأفضل من ذلك الرضا والقناعة[7]. وأجلد الناس مَنْ ملك غضبه ولكن إلى حين[8]. والراضي بالمقدور هو أقهر الناس لنفسه. ولماذا هذا القهر المزدوج قهر القاهر للمقهور، وقهر المقهور لنفسه؟[9]. الرضا والصبر شكلان في العمل. أوله صبر وآخره رضا. وإذا أراد الإنسان أن يكون في راحة يأكل ما أصاب، ويلبس ما وجد، ويرضي بما قضى الله عليه[10]. ويظهر الرضا عند كشف

(1) **التستري**، ص255.

(2) «سبحان اللّه تعالى كلها في هذه السبع كلمات: بسم اللّه، والحمد لله، واستغفر اللّه، وما شاء اللّه، ويا رب، ولا حول ولا قوة إلا باللّه، وإنا لله وإنا إليه راجعون». السابق، ص261.

(3) الجنيد، السابق، ص378.

(4) أبو تراب، السابق، ص378.

(5) الفضيل بن عياض، **طبقات الصوفية**، ص10.

(6) الجنيد، السابق، ص162.

(7) قطع الليالي مع الأيام في خلق — والنوم تحت رواق الهم والقلق
أحرى وأجدر بي من أن يقال غداً — أني التمست الغنى من كف مختلق
قالوا رضيت بذا، قلت: القنوع غنى — ليس الغنى كثرة الأموال والورق
رضيت باللّه في عسري ويسري — فلست أسلك إلا واضح الطرق
بشر الحافي، السابق، ص44.

(8) السرقسطي، السابق، ص54.

(9) المحاسبي، السابق، ص60.

(10) شقيق البلخي، السابق، ص66.

المقدور[1]. والرضا بموارد القضاء، والإقبال على أوامر الله. والإرادة حبس النفس عن مراداتها[2]. الرضا إذن أقرب إلى الكبت هو ترك الاعتراض[3]. وجوهر الإنسان هو الاعتراض كممارسة للحرية كما فعل إبليس أمام الله ولم يغضب الله منه. ليس الرضا عدم الإحساس بالبلاء بل عدم الاعتراض على الحكم والقضاء[4]. ترك الرضا بالقضاء ضيق الصدر[5]. ويرضى الحق من نفسه بما أوجد من العدم. الرضا قضاء، والقضاء رضا. الرضا بالقضاء أوائل العبودية. ويستويان عند أهل الكمال في نهاية الطريق[6]. أهل الرضا يستروحون[7]. والرضا فضيلة وهو نتيجة المحبة. فالمحبة تورث الرضا[8]. ويناقض الدعاء لأن الراضي لا يطلب، والدعاء طلب. والفرار من البلاد مظان المعاصي وذمها يقدم في الرضا لأنه فعل. الرضا سكون. وحكايات الراضين لها عدة تأويلات مع الرضا وضده. ولها من نسيج الخيال الشعبي.

والرضا أيضاً هو خروج الشهوات من القلب. فالرضا حالة من السكينة التامة لا صراع فيها بعد أن ماتت الرغبات والميول والدوافع والبواعث. بالتالي تتحول الحياة إلى جماد[9]. ولمقام الرضا أربعة شروط: الثقة بالله، ثم التوكل، ثم المعرفة، ثم الحصول على كل شيء بالمعرفة[10].

ولا يقتضي الرضا طاعةً لله السخط عليه وردً حكمه. فكيف يكون الرضا في السخط؟ وكيف يكون الرضا من طرف واحد، رضى الله على الإنسان وسخط الإنسان على الله؟[11]. والاستعاذة برضا الله من سخطه، وبعفوه من عقوبته[12].

---

(1) يحيى بن معاذ، السابق، ص113.
(2) أبو حمد المرتعش، السابق، ص351.
(3) أبو سعيد بن الأعرابي، السابق، ص428.
(4) أبو علي الدقاق، **القشيرية**، ص89.
(5) الجنيد، **طبقات الصوفية**، ص380.
(6) المحاسبي، السابق، ص59.
(7) أبو الحسين النوري، السابق، ص167.
(8) **الإحياء**، جـ4، ص334-349.
(9) أبو سليمان الداراني، **طبقات الصوفية**، ص79.
(10) حاتم الأصم، السابق، ص94.
(11) أحمد بن خضرويه، السابق، ص104.
(12) أبو عثمان الحيري النيسابوري، **طبقات الصوفية**، ص175.

الرضا استلذاذ البلوى وهو نوع من الماسوشية[1]. الراضي لا يسأل في حين أن السؤال هو طريق المعرفة. ليس من شرط الرضا المبالغة في الدعاء[2]. والمبالغة في الدعاء سمة المؤمنين.

علامة الرضا النشاط في الطاعات والتثاقل عن المعاصي[3]. والرضا أساساً رضا عن النفس قبل أن يكون رضى عن الغير، سلامة الضمير الداخلي قبل أن يكون في الأفعال الخارجية.

الرضا عن الله فيما تحب النفس وتكره من ضمن أخلاق المقربين[4]. الرضا بالحق مدبراً ومختاراً، والرضا عنه قاسماً ومعطياً، والرضا له إلٰهاً ورباً[5]. الرضا من الرب والسخط على النفس على كل قاطع يقطعه عن الله[6]. الراضي مَنْ لم يندم على فائت من الدنيا ولم يأسف عليها[7].

يقوم الرضا على أصول أربعة، قبول العطاء، ورضى المنع، وعبادة الترك، وإجابة الدعوة[8]. الرضا عدم ترجيح البلاء على العطاء[9]. مقام الرضا إنابة الخاصة، عدم وجود شيء في قلب العبد قبل وقوعه أو بعده[10].

ولا يجتمع التسليم والدعوى. فالتسليم رضا، والدعوى مطالبة، التسليم هو الثبوت عند نزول البلاء وعدم المقاومة أو الاعتراض. ولا فرق بين البلاء الديني، والبلاء السياسي، والبلاء الاجتماعي[11].

وفي وقت الرضا يتمُّ تقبيل الصفات الخاصة المتشابهة وجه العارف، تلطفاً

---

(1) رُويْم بن أحمد البغدادي، السابق، ص183.
(2) إبراهيم القصان، السابق، ص320.
(3) محمد بن عليان النسوي، السابق، ص418.
(4) السرقسطي، **عوارف المعارف**، جـ4، ص378.
(5) ابن شمعون، السابق، ص378.
(6) أبو سعيد الخراز، السابق، ص378–379.
(7) السابق، ص380.
(8) ابن معاذ، السابق، ص380.
(9) **مشرب الأرواح**، ص43.
(10) **لطائف الأعلام**، جـ2، ص662.
(11) **مشرب الأرواح**، ص216.

من الحق على عشاقه. وبالتالي يزيد عشق المشاهدة القديمة في العاشقين. وهو موضع انبساط الله إلى المصطفين[1]. الرضا هو الوقوف الصادق دون تقدم أو تأخر أو استزادة حال. وهناك رضا العامة. وهو الإيمان بالعقائد، ورضا الخاصة وهو الإيمان بالتسليم، ورضا المحب من رضا الخاصة. ليس الرضا مجرد تصور نظري بل هو ممارسة عملية. وله ثلاث مراتب: رضى العوام وهو قبول القدر، ورضى الخواص وهو قبول إرادة الله، ورضى خاصة الخاصة وهو الرضا بذات الله وصفاته[2]. والرضا أيضاً على ثلاث مراتب: الأول رضا العامة وهو إسقاط الجزع حتى يستوي القلب أمام الله يجري عليه من حكمه ما يشاء، والثاني رضا الخاصة رضا الله عن الإنسان أفضل من رضا الإنسان عن الله، والثالث ارتفاع الجزع في أي حكم[3]. لا ترضيه ولا تسخط أعمال الخلق. إنما رضي عن قوم فاستعملهم بعمل أهل الرضا. فالرضا من الله على الإنسان وليس من الإنسان على الله بالرغم من ﴿رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ﴾[4].

وليس إخاء الرجل في الرضا بل في الغضب إذا غضب[5]. الرضا ضد الطموح والغضب والتخدير والاستكانة. والله نفسه يرضى ولا يرضى ﴿وَلَا يَرۡضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلۡكُفۡرَۖ﴾[6]. وكيف لا يغضب الملامتي في الدنيا وهي عرضة للذم من الناس؟ ولماذا يرضى العبد والغضب روحه؟[7].

وقد يُقرن الرضا بالصدق والصديق والسماع[8]. وهو من أعلى مقامات

---

(1) السابق، ص283.

(2) **لطائف الأعلام**، ج2، ص402-404.

(3) هذا هو رأي أبي سليمان الداراني، **اللمع**، ص59.

(4) **اللمع**، ص80-81.

(5) الفضيل بن عياض، **طبقات الصوفية**، ص10.

(6) **الفتوحات**، ج2، ص212-213.

ترك الرضا عند أهل الرسم مثلبة ... وعند أهل وجود الله آيات...
وما سوى النفس من عقل فليس له ... رضى وليست له فيها نهايات

السابق، ص213.

(7) «يا عبد ارض بما قسمت. اجعل رضاك في رضاي، فلا تستكن على هواك، ولا تشدد على ندبي إياك». السابق، ص261.

(8) حمدون القصار، السابق، ص126.

اليقين مثل التوكل[1]. وهو التسليم بكل شيء له أو في العالم[2]. لا حد له مثل الزهد والورع. في الرضا يستوي العطاء والمنع، والصحة والسقم، والوجود والعدم. وهي حالة من الحياة والتبلد واللامبالاة التي جعلها الكواكِبيّ أحد أسباب تخلف المسلمين في **أمُ القرى**. الرضا هو الرضا بالقضاء دون اعتراض. وهو الاعتراض عن الاعتراض. ولا يحصل إلا بالصبر والشكر. والرضا عملية وجدانية حركية، فالرضا سرور القلب بمرّ القضاء[3]. التحقق من عدل الله في قضائه غير متَّهِم في حكمه، عدم سؤال الله الخير أو التعوذ به من النار، عدم ضيق الصدر عدمَ رضا بالقضاء (الجنيد)، عدم الاعتراض على التقدير، علامة الرضا عدم تمني المريض الصحة، ولا الفقير الغنى. هو نهاية التوكل.

ويُساء تأويل الرضا عند بعض الصوفية ويجعلونه مسؤولاً عن المعاصي والأهواء. فالكل بقدر الله[4]. العمل بالرضا، رضاء بالقضا[5]. وضيق الصدر لترك الرضا بالقضاء[6]. الرضا ترك الاختيار قبل القضاء، وفقدان المرارة بعد القضاء،

---

(1) أحكام مقام الرضا، **قوت القلوب**، جـ2، ص76-99.

(2) «فمن الرضا سرور القلب بالمقدور في جميع الأمور، وطيب النفس وسكونها في كل حال، وطمأنينة القلب عند كل مفزع مهلع من أمور الدنيا، وقناعة العبد بكل شيء، واغتباطه بقسمة ربه، وفرحه بقيام مولاه عليه، واستسلام العبد للمولى في كل شيء، ورضاه منه بأدنى شيء، وتسليمه له الأحكام والقضايا، باعتقاد حُسن التدبير وكمال التقدير فيها، ولتسليم العبد إلى مولاه وما في يده رضا بحكمه عليه، ولا يتبرم بفعل الحبيب، ولا يفقد في كل شيء حُسن صنع القريب. ومن الرضا عند أهل الرضا أن لا يقول العبد هذا يوم شديد الحر، ولا هذا يوم شديد البرد. ولا يقول: الفقر بلاء ومحنة، والعيال همٌّ وتعب، والاحتراف كد ومشقة، ولا يفقد بقلبه من ذلك ما لا يقره به، بل يرضى القلب ويسلم، ويسكن العقل ويستسلم بوجود حلاوة التدبير، واستحسان حكم التقدير». السابق، ص79.

(3) **جامع الأصول**، جـ2، ص326-331.

(4) «وقد غلط في باب الرضا بعض البطالين من المتأخرين ممن لا علم له ولا يقين فحمل الرضا على جميع ما يكون منه من معصية وهوى... وقد يحتج أيضاً بطال لبخله وقلة مواساته وبذله أو يعتل لاتساعه في أمر الدنيا واستتاره على الفقر أن الذي يمنعه من البذل والإيثار والزهد فيما في يديه والإخراج رضاه بحاله وقله اعتراض على مجريه فيه..». **قوت القلوب**، جـ2، ص91.

(5) أبو علي الدقاق، **القشيرية**، ص89.

(6) الجنيد، السابق، ص90.

وهيجان الحب في حشو البلاء[1]. قبل القضاء هو عزم على الرضا، وبعد القضاء هو الرضا[2]. هو استواء الوضع في الجنة أو في النار[3]. وهو عدم سؤال الله الجنة والاستعاذة من النار[4]. وماذا عن قانون الاستحقاق ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾؟ وهو باب الله الأعظم، ورفع الاختيار[5]. هو سكون القلب بحر القضاء[6]. وهو سرور القلب بحر القضاء[7]. هو نظر القلب إلى قديم اختيار الله للعبد فقد اختار له الأفضل فيرضى ولا يسخط[8]. وكما هو الحال في أحد المطارات العربية «لا تفكر نحن نفكر لك»، واستعمال الإنسان الرضا خير من استعمال الرضا للإنسان[9].

وللرضا أيضاً علامات ثلاث: نظام المحبة، ونفس التوكل، وروح اليقين[10]. من ظن أنه يرضيه بالخدمة فقد جعل لرضاه ثمن[11]. والرضا أفضل من الزهد في الدنيا لأن الراضي لا يتمنى فوق منزلته[12]. وهو شرط طلب العفو عن المعاصي[13]. وهو بحر يسعى إليه الحبيب[14]. وهو موقف بين يدي الله[15]. ورضا الله سكن لقلوب العارفين، وصفه وليس وصف سواه[16]. ولا يهمُّ وضع

(1) ذو النون، السابق، ص90.
(2) **القشيرية**، ص90.
(3) رُويم، السابق، ص89.
(4) الداراني، السابق، ص90.
(5) هذا هو رأي الجنيد. **القشيرية**، ص89.
(6) رأي القناد.
(7) رأي ذو النون.
(8) هو رأي ابن عطاء اللّه.
(9) هو رأي أبي بكر الواسطي.
(10) السابق، ص172.
(11) **الولاية**، ص259.
(12) الفضيل بن عياض، **القشيرية**، ص90.
(13) أتطمع أن تنال العفو ممن عصيت وأنت لم تطلب رضاه
الديوان، ص287.
(14) أُجري حشاشة نفسي في سفن بحر رضاك
السابق، ص317.
(15) «موقف بين يديه». **المواقف**، ص135.
(16) **الخطابات**، ص259.

الإنسان إذا كان غريباً أو يتيماً أو أسيراً أو عبداً بل ما يهمُّ هو معرفة رضا الله عنه[1]. ولا يسأل العبد أحداً غير الله[2]. دواء الراحة الرضا عن الله[3]. ولا يسأل العبد الله الرضا دون أن يفعل شيئاً لرضاه[4].

والله يرزق الأغنياء كما يرزق الفقراء، وعلى العباد الرضا[5]. وبطبيعة الحال يرضى الأغنياء فكيف يرضى الفقراء هذه القسمةَ الضِّيزَى؟

والرضا عملية حركية. في البداية الرضا بالله ربًّا وبالإسلام ديناً وبمحمد رسولاً ونبيًّا. وفي الأبواب وحقوق العبد حيث ما وافقه الله. في المعاملات بذل الوسع. وفي الأصول قصد السلوك. وفي الأدوية رؤية هداية الله. وفي الأحوال حب الله وحده. وفي الولايات فناء إرادته في إرادة الحق. وفي الحقائق الانطماس في نور تجلي الهوية، وعدم الشعور بالِأَثْنَيْنِيَّة. وفي النهاية القيام في صفة ذاته[6].

ثم يتحول الرضا إلى مجموعة من النصوص والحكايات والإسرائيليات والمنقولات لا تقدم جديداً باستثناء ترتيب الرضا بعد الصبر فهو أعلى من الصبر لأن من رضي صبر[7].

و«الرضا» لفظ قرآني في صيغ فعلية أكثر منها اسمية[8]. ومن الأسماء التراضي بين الأزواج والعيشة الراضية والرضوان والمرضاة. وهي في الغالب فعل إلٰهي، والأقل فعل إنساني[9]. ومع ذلك الفعل الإلٰهي مشروط بالفعل الإنساني.

---

(1) «يا ربي أنا غريبة ويتيمة وأسيرة وقد صرت عبدة، لكن همِّي الكبير هو أن أعرف أراضٍ عني أنت أم غير راض؟». **رابعة**، ص144.

(2) «منذ أربعين سنة وقد عاهدت اللّه على ألا أسأل شيئا غيره». السابق، ص148.

(3) السابق، ص180.

(4) «ألا تخجل من أن تقول لله: ليتك ترضى عني دون أن تفعل شيئاً لرضاه؟». السابق، ص155.

(5) «إن اللّه تعالى هو الذي يرزقني. أفمن يرزق الأغنياء لا يرزق الفقراء؟ فإذا كانت هذه مشيئته فمن جانبنا نرضى عنها كل الرضى؟». السابق، ص155.

(6) **جامع الأصول**، جـ3، ص150-151.

(7) **نزهة المجالس**، جـ1، ص71-75.

(8) ورد لفظ «رضى» 73 مرّة، فعلاً (46)، اسماً (27).

(9) الفعل الإلٰهي (42)، الإنساني (31).

فالرضا ليس مطلقاً بل مشروط بالمبادرة الإنسانية[1]. وذلك مثل الإتباع بإحسان والبيعة، والخشية، والقرب من الله،والعمل الصالح، وشراء النفس بالتضحية. فالرضا فعل تبادلي بين الله والإنسان[2].

والأهم من ذلك عدم الرضى. فالله يرضى ولا يرضى. لا يرضى لعباده الكفر والفسق[3]. والإنسان أيضاً لا يرضى كما يرضى. والأفضل له ألاً يرضى بالقعود والتخلف عن القتال، والرضا بالحياة الدنيا، والرضا المشروط بالمنفعة والمصلحة الشخصية، والرضا عن اليهود والنصارى لأنهم لن يرضوا عن المسلمين، والارتكان إلى السكن أو إرضاء الأزواج حتى لو كان من الرسول[4].

8 ـ الشكر

هو ثاني ركن بعد الصبر لأنه ثبات على الطاعة في حين أن الشكر اعتراف بالنعم. وهو فضيلة من جملة مقامات السالكين. هو علم وحال وعمل، العلم بالنعمة، وكشف الغطاء عن الشكر في حق الله، والتمييز بين ما يحبه الله ويكرهه.

يعجز الصوفي عن شكر الله. ومن ثم يشكر الله نفسه نيابةً عنه. فالمهم الشكر، لا من يشكر من؟[5]. ويؤدي الشكر إلى استحالة التفرقة بين النعمة

---

(1) ﴿وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾، ﴿لَّقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾، ﴿رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾، ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ﴾، ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ﴾، ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾، ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾، ﴿كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي﴾.

(2) ﴿رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾.

(3) ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾، ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾.

(4) ﴿أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ﴾، ﴿إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ﴾، ﴿رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ﴾. ﴿فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾. ﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ﴾، ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾، ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ﴾، ﴿يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ﴾، ﴿وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾، ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ﴾.

(5) «إلٰهي أنت تعلم عجزي عن مواضع شكرك. فأشكر نفسك عني فإنه الشكر لا غير». =

والبلوى لحظة واحدة. الشكر عند البلاء عدم البوح به إلى الغير. الشاكر على الموجود، والمشكور على المفقود. الشكر على ما لا يعلم الإنسان. والتوبة على ما يعلم. أصل الشكر إعلام حال مثل التوبة. وبها يتمُّ الشكر.

الشكر نوع من الذكر باللسان[1]. والشكر باللسان اعترافاً بالنعمة، وبالبدن إلحاقاً بالخدمة، وبالقلب اعتكافاً على الشهود[2]. تعويد اللسان والقلب على الشكر على النعمة، والاستغفار عن التقصير فيه والتوبة عن ذلك من أجل العفو[3]. من شكر النعمة التحدث بها[4]. ودوام ذكر العافية يكفي[5].

والثناء على المحسن بذكر إحسانه. وقد يصل إلى التملق وطلب المزيد، والتقرب والمداهنة والزلفى دون الوصول بالضرورة إلى حد الرياء والنفاق، الشكر إضافة النعم إلى موليها بنعت الاستكانة. والاستكانة ذل. الشكر هو الغيبة عن النعمة برؤية المنعم[6].

شكر المعلم العمل به. وشكر العمل مزيد من المعرفة، وشكر الله على النار عقاب العاصي، وشكره على الجنة ثواب المطيع، شكر النعمة مشاهدة المنة وحفظ الحرمة[7]. فالشكر بالفعل وليس بالقول، بالإعلان وليس الإخفاء.

والجاهل من أطاع الله واجتهد دون اعتبار ذلك نعمة، والمُدَّعي من لم يتبع التقصير في الشكر. والناجي من يعتبر نعمة الله عليه رحمة، وحسناته مضاعفة،

= **أخبار**، ص58.

(1) **الولاية**، ص235-236.

(2) **القشيرية**، ص81. **الإشارات**، ص81.

إذا لم يكن عون من اللّه للفتى   فأكثر ما يجني عليه اجتهاده

الأحياء، جـ4، ص105.

(3) **التستري**، ص70.

(4) الفضل بن عياض، **طبقات الصوفية**، ص13.

(5) بشر الحافي، السابق، ص45.

(6) «ولما كنتَ سليماً، هل عصبت رأسك يوماً علامة نعمة حتى تشكو اللّه تعالى بسبب ألم يوم وتعصب رأسك؟». **رابعة**، ص152.

(7) أبو بكر الوراق، السابق، ص223.

وذنوبه مغفورة. وأفضل شكر، شكر العبد للسيد[1]. وهو استمرار للعبودية. والشكر على النعم في الدنيا وعدم تلفها في الآخرة، وعلى الستر في الدنيا وعدم الفضح في الآخرة، وعلى العون في الدنيا واستمراره في الآخرة.

وشكر العلماء في طبيعة الخلق، لذلك يستحقون الرحمة، وتصغير الأعمال المذمومة. مع أنه في الأمثال العامية «لا شكر على واجب». وأدنى الشك عدم عصيان الله لنعمه[2]. الشكر أدنى الثناء والمحمدة[3]. ويستبعد الله الإنسان بالشكر. وأدنى شكر الطاعة[4]. والشكر ليس استعباداً بل اعترافاً بفضلٍ لآخر.

الشكر هو طلب الشبع من البحث. وهو سبعة: شكر البحث والأدام والفواكة والماء البارد والنوم والراحة[5]. وهي أفعال طبيعية لا إرادية أقرب إلى الحلال أو العفو، الحكم الشرعي المتوسط بين الحكمين الموجب الضروري (الواجب) والممكن الإيجابي (المندوب)، والسالب الضروري (الحرام)، والممكن السلبي(المكروه)[6].

ولو أن رجلاً بكى. وتصدَّق وصلَّى ثم تكلَّم فيما لا يعنيه لم يكن شاكراً لأن الشكر يمنع من التدخل في شؤون الآخرين[7]. هي عملية شكر لآلاء الله دون تحديد[8]. شكر النعمة أن يرى الإنسان فيها طفيليّاً[9]. وهل الوجود الإنساني طفيلي كالنبات المتسلق؟والشكر من الله والزيادة من الله[10]. ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ

(1) السابق، ص147-148، 150.
(2) السابق، ص209
(3) **التستري**، ص67.
(4) السابق، ص98.
(5) السابق، ص105.
(6) **من النص إلى الواقع**، ج2، «بِنية النص».
(7) **التستري**، ص291.
(8) «فكن لِآلاء اللّه من الشاكرين». **الإشارات**، ص48.
(9) حمدون القصار، **القشيرية**، ص81.
(10) «يا عزيز في قلوب أوليائك، الشكر منك والزيادة منك». **شطحات**، ص167، «النعمة أزلية يجب أن يكون لها شكر أزلي». السابق، ص126.

﴿لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾. الغاية من الشكر الزيادة في النعم. والغاية من شكر النعم السابقة الحصول على نعم جديدة آتية ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾. ويختلف العامة والخاصة في الشكر، عند العامة للزيادة، وعند الخاصة اعتراف بالجميل. لدى العامة الشكر الكمّي ولدى الخاصة الشكر الكيفي. الأول ناتج عن الجهل والطمع. والثاني ناتج عن التعويض والعجز. لذلك من ضمن المقام ترك الشكر[1]. فإذا كان الفعل ذاتياً فلا شكر طبقاً للمثل الشعبي، «لا شكر على واجب». شكر في الظاهر على ما فات وطلب المزيد في الباطن مما هو آت[2]. ويضم الصدق والتواضع والحياء والخلق والإيثار والكرم والفتوة. ومن النعم بعد الإيمان التوفيق والتيسير والحياء، فالشكر له سبب. وهو طلب المزيد للنفس والوقوف مع الله لحظ النفس. الشكر عدم رؤية الإنسان نفسه أهلا للنعمة أي أنه لا يستحقها وهو ضد قانون الاستحقاق[3].

الشاكر على النفع والشكور على المنع[4]. فزيادة الشكر زيادة في الضجر والتأذي من المنع. الشاكر على العطاء، والشكور على البلاء. الشاكر عند البذل، والشكور عند المطل. وشكر العبد للرب في حالة الصحة قبل حالة المرض[5]. الشكر على البلاء والشكر على النعماء على حد سواء دون أن يتحول ذلك إلى رضى وقبول بالبلاء[6].

الشكر رؤية المنعم لا النعمة، وهو تشخيص للعمل الموضوعي. شكر العامة على الأشياء، وشكر الخاصة على القلوب، الحمد على الدفع والشكر على الصفح[7]. والنتيجة واحدة. ويغيب الشكر ما دام الإنسان شاكراً. الشكر ملاحظة

---

(1) فقد زال حكم الشكر من كل عالم   بما قلته فالترك للشكر قد شكر
السابق، ص203.
(2) الجنيد، السابق، ص81.
(3) السابق، ص 81.
(4) السابق، ص82.
(5) «ولما كنت سليماً، هل عصبت رأسك يوماً علامة نعمة حتى تشكو اللّه تعالى بسبب ألم يوم وتعصب رأسك». **رابعة**، ص152.
(6) أبو بكر بن أبي سعدان، السابق، ص421.
(7) السابق، ص82.

المرء ما أنعم عليه به، الشكر على نعمة الخلق ثم الهداية والتوفيق ثم التأييد في الحق ثم التحقق[1].

من لم يشكر الله على النعمة استدعى زوالها، وكأن النعمة مشروطة بالشكر في حين أن نعمة الله مجانية بلا مقابل[2]. النعمة أزلية والشكر عليها دائم[3]. والشكر لمن لا تنقطع النعم منه[4]. وهو شكر مصلحي. والشكر عملية متصلة على مراحل. في البداية الثناء على النعم باللسان والجوارح. وفي الأبواب معرفة المنعم. وفي المعاملات معرفة النعم. وفي الأدوية سلوك مسلك العلم. وفي الأحوال استحلال البلاء. وفي الولايات الشهادة على المنعم. وفي الحقائق الاستغراق في نور الجمال. وفي النهاية شهود الحق في عين الجمع ومحض التوحيد[5]. ولا يكون الشكر إلا على فعل خالص[6]. وثمرة الشكر الحب لله والخوف منه[7].

ومن لم يعرف قدر النعمة سُلِبها من حيث لا يعلم. فالنعمة ليست شيئاً بل شيئاً مدركاً أي قيمة[8]. ليس من طلب الحق بآلاته كمن طلبه بنعماته[9]. الأول لذاته، والثاني لنعمه. ومن لاحظ شكره استصغر نعمه[10]. وإذا فتح الله طريق الخير لأحد فلا يفتخر به ولكن يشكره لتوفيقه لأن النظر إليه يفقد المقام، والشكر يوجب المزيد[11]. وظهور النعم دليل على الكرم[12]. ليس السخي من طالع ما بذله أو ذكره. وإنما السخي من إذا تسخى استحى من ذلك، واستصغره وأنف من

(1) **لطائف الأعلام**، ج2، ص446-447.
(2) المحاسبي، السابق، ص60.
(3) البسطامي، السابق، ص74.
(4) محمد بن علي الترمذي، السابق، ص220.
(5) **جامع الأصول**، ج3، ص149.
(6) معروف الكرخي، السابق، ص88.
(7) محمد بن الفضيل البلخي، السابق، ص216.
(8) السرقسطي، السابق، ص52.
(9) أحمد بن خضرويه، السابق، ص106.
(10) خير السناج، السابق، ص324.
(11) أبو حمزة البغدادي البزاز، السابق، ص298.
(12) أبو علي الروزباري، السابق، ص359.

ذكره، وإلا كان مراءً ورياءً[1]. رؤية المنة مفتاح التودد. فالمنة مؤشر على القصد[2]. وهي قبول الآخر لما يُعطي دون الوفاء واجبها أبداً[3]. فصاحب المنة هو المستفيد وليس أخذها.

والشكر له ثلاثة أركان: حقيقته وأقسامه وأحكامه، حقيقة النعمة وأقسامها الخاصة والعامة، بيان الأفضل من الشكر والصبر[4].

وتنقسم الأمور الإنسانية إلى ما هو نافع في الدنيا والآخرة مثل العلم وحُسن الخلق، وما هو ضار في الدنيا والآخرة، وإلى ما هو نافع في الآجل وضار في العاجل أو ضار في الآجل ونافع في العاجل. وقد تكون القسمة طبقاً للنفع والضرر، قلة وكثرة، وقسمة أخرى طبقاً للأثر في الذات والغير أو الأثر في الذات دون الغير أو الأثر في الغير دون الذات. وقد تنقسم إلى النفع واللذيذ والجميل أو طبقاً للإنسان بمفرده أو بمشاركته مع غيره أو قسمة أخيرة إلى الغاية المطلوبة لذاتها أو لغيرها[5].

ونعم الله متعددة: خلق أسباب الإدراك، وخلق الإرادات، وخلق القدرة وآلات الحرة. ومن النعم الأصول التي تحصل منها الأطعمة وتصير صالحة للآدمي بصنعته، والأسباب الموصلة إليها، وإصلاح الأطعمة. أما نعم خلق الملائكة فمن الصعب الحكم عليها لأنها موضوع خارج الحكم. والشكر واجب لأن نعم الله لا تحصى لأنها لا تتناهى، والشكر متناه. ونعم الله التي توجب الشكر كثيرة. نعم للخواص ونعم للعوام. الأولى نعم الآخرة، والثانية نعم الدنيا. الأولى نعم الروح، والثانية نعم البدن[6]. والأسباب الصارفة للشكر الجهل والغفلة[7].

ويشترك الشكر والصبر في شيء وهو النعم الحاصلة التي توجب الشكر أو

(1) أبو القاسم المقري، السابق، ص511.
(2) أبو عبد الله بن سالم البصري، السابق، ص416.
(3) أبو عبد الله المقري، السابق، ص511.
(4) **الإحياء**، جـ4، ص78-138.
(5) السابق، ص78-107.
(6) السابق، ص239.
(7) السابق، ص120-124.

غير الحاصلة التي توجب الصبر[1]. ومن ثم يتساويان في الفضل. وقد يتفاضلان، كل منهما أفضل من الآخر في جانب أو طبقاً للأحوال[2].

والشكر في موضع الاستغفار ذنب، والاستغفار في موضوع الشكر ذنب[3]. فالشكر والاستغفار على طرفَي نقيض الشكر بلا ذنب والذنب لا شكر عليه.

لا زوال للنعمة إذا شكرت، ولا بقاء لها إذا كُفرت[4]. والنعمة لها أسبابها المادية قبل أسبابها المعنوية. الغني الشاكر كالصديق. شكر وقدم ماله إيثار الله فأدركه الله غنى الدارين وملكهما[5].

ويتفاوت الشكر بين الأدنى والأعلى، فأدنى شكر عدم معصية الله بنعم الله. وهو الشكر على المقابل. وأول الشكر الطاعة وآخره السنَّة أي الاقتداء[6]. فالشكر عملي. وشكر الشكور طاعة الشاكر.

والعلم هو الشكر في الحديث الشهير «طلب العلم فريضة على كل مسلم». والشكر للنعم على الخلق والاقتداء بالنبي والاستغفار بالله عن كل شيء[7]. وأول الشكر معرفة النعم أنها من المولى. الشكر في النعمة وفي البلاء، في العطاء والمنع في القبض والبسط، وفي المصائب نِعم. ليست في الدين، ولم تكن أكبر منها، مكتوبة، وأنها عجلت في الدنيا، وأن لها ثوبها. والمصائب ثلاث وكلها نعم من الله: درجة للمقربين والمحسنين أو كفارة لأصحاب اليمين والأبرار أو عقوبة لكافة المسلمين.

والشكر شكر الجوارح وشكر القلب، الأعمال الصالحة والتقوى الباطنة. وله مقامان، الشكور وهو الشكر على البلاء والمكاره والشدائد. وهو مقام الرضا وحال المحبة. والشكر بُعد النظر إلى من هم دونه وفضله عليهم. ونعمة الإيمان أفضل

(1) **الأحياء**، ج4، ص124-132.
(2) السابق، ص132-138.
(3) أبو بكر الكتاني، **طبقات الصوفية**، ص374.
(4) أبو يعقوب النهرجوري، السابق، ص380.
(5) أبو عثمان الفريد، السابق، ص483.
(6) السابق، ص260.
(7) السابق، ص348.

النعم. ومن كبائر النعم، استتار الله عن الأبصار، وإخفاء القدر والآيات عن عموم الخلق. وغيب الآجال. وللشاكرين طريقان: أدناهما شكر الراجين، وأعلاها شكر الخائفين، وأكثر عقوبات الخلق من قلة الشكر على النعم، ومنها الخلق والإحداث من النطفة إلى الحرث إلى الماء إلى النار[1].

الشكر هو الثناء على الله. جعله المعتزلة من قبل أحد الواجبات العقلية، شكر المنعم. والشكر على إعطاء الكثير على العمل القليل ضد قانون الاستحقاق.

وذُكر لفظ «شكر» في القرآن عشرات المرات في صيغ فعلية أكثر منها في صيغ اسمية مما يدل على أن الشكر فعل ذاتي أكثر منه جوهراً موضوعياً[2]. وهو فعل إنساني أكثر منه فعلاً إلٰهيًا. والغالب في الفعل الإنساني ضمير المخاطب «تشكرون» ثم ضمير الغائب «يشكرون» ثم صيغة الأمر «اشكروا»[3]. والغالب على الفعل الإلٰهي الصيغة الاسمية مثل «شاكر» أو «شكور» أو «مشكور»[4]. والشكر كفعل إنساني شكر للنفس أي أنه فعل ذاتي وليس شكراً لفعل خارجي دون خوف من العذاب[5]. وهو اختيار حر[6]. والغالب على الناس عدم الشكر جحوداً للنِعم[7]. والأفضل الشكر[8]. وقد يشكر البعض طمعاً في الزيادة[9].

---

(1) «شرح مقام الشكر ووصف الشاكرين». **قوت القلوب**، جـ1، ص413-432.

(2) ذُكر لفظ «شكر» 75 مرَّة، فعلاً (46)، اسماً (29).

(3) «تشكرون» (19)، «يشكرون» (9)، «اشكروا» (5).

(4) ﴿وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾، ﴿إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾، ﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾، ﴿وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾، ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾، ﴿وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا﴾.

(5) ﴿وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ﴾، ﴿وَإِن تَشْكُرُواْ يَرْضَهُ لَكُمْ﴾. ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ﴾.

(6) ﴿قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾، ﴿لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾، ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾.

(7) عدة صيغ ﴿لَا يَشْكُرُونَ﴾ (4)، ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ (3)، ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾ (2)، ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ (2).

(8) وتكرَّر ذلك في صيغة ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (14).

(9) ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾.

9 ـ المحبة (الشوق، العشق، الهوى، الشجن، والخُلَّة، والصَبابة)

أ ـ المحبة. إذا كانت التوبة أول المقامات فإنَّ المحبة آخرها، من أول الطريق إلى نهايته. التوبة وسيلة والمحبة غاية. وكما أنه ليس قبل التوبة مقام فكذلك ليس بعد المحبة مقام. ومن أدرك مقام المحبة فاتته باقي المقامات. وتكثر فيه الأدلة النقلية والشواهد الشعرية. فالشعر أكثر قدرة على التعبير عن تجارب الحب من الصياغات النظرية. وتكثر فيه الروايات عن الكتب المقدسة والأنبياء السابقين.

والمحبة اشتقاق من الحب أي العمق. هي الغاية القصوى من كل المقامات. وكل ما سوى ذلك كالشوق من مآثرها[1]. والعشق والهوى والشجن والوجد والوله والصَبَا من مجالها الدلالي. إلخ. وهو لفظ قرآني[2]. يعني محبة الله للناس، والمحبة المتبادلة بين الله والناس، ومحبة الناس لله. وهو حال من نظر بعينه إلى نعم الله ونظر بقلبه إلى قرب الله. وكل المقامات من أنوار الصفات والأفعال والأسماء إلا المحبة فإنها من أنوار الذات. وإذا كانت المحبة ليست من كسب الخلق إنما هي من مواهب الحق وفضله فهي حال[3]. فالمقامات مكاسب والأحوال مواهب. وهي إلى المقام أقرب. ويتداخل مقام المحبة مع مقام الرضا. فالمحبة داخلة في الرضا. فلا محبة إلا بالرضا، ولا رضا إلا بالمحبة[4]. والدعوة بالمحبة والرضا[5]. لذلك تقترن المحبة بالرضا[6]. ويتصل مقام المحبة بالذِكر. فمن المحال حب الله دون ذِكره. ويستحيل ذِكره ثم لا يذيق ذِكره ومن المستحيل ذوق ذِكره ثم يشغل الذاكرة عنه[7]. وللمحبة مقامان، مقام محب ومقام محبوب، مُريد ومُراد. والمحبة أعلى من مقام العلم. كما أن مقام العلم أعلى من مقام الخوف. وأعلى مقام الخوف أدنى مقام من اليقين.

---

(1) **الإحياء**، جـ4، ص286-290.

(2) **اللمع**، ص86-88.

(3) معروف الكرخي، **طبقات الصوفية**، ص89.

(4) عمرو بن عثمان المكي، السابق، ص204.

(5) السابق، ص209.

(6) «عرج قلبي إلى السماء، وطاف ودار ورجع فقلت أيش جبت معك؟ قال: المحبة والرضا». السابق، ص146.

(7) أبو حمزة البغدادي البزاز، السابق، ص296.

ونظراً لأن المحبة هي ذروة المقامات فإنها تضم الزهد والتوكل والرضا والعبودية بل وبعض الأحوال مثل الخوف والرجاء والفناء والبقاء. ولا فرق بين تحليل الصوفية وتحليل الفقهاء إلاً في التركيز عند الفقهاء على الارتباط بالشرع والعبادة. كما يستشهد الفقهاء بأقوال الصوفية مثل الجنيد، ويفصلون في أنواع المحبة مثل العشق والخُلَّة[1]. المحبة هي الطرق إلى الأنس[2]. المحبة الميل الدائم للقلب الهائم.

وحقيقة المحبة أنها تتمُّ بعد معرفة وإدراك ثم طبقاً للحواس بالإضافة إلى حب النفس ثم الإحسان أي حب الآخر[3]. حقيقتها دوام الأنس بذِكره[4]. والمحبون يعيشون في الأنس بالله والشوق إليه[5]. والمحبة مقرونة بالاختيار[6]. وهي كمال المعرفة[7]. وازدياد الإيمان زيادة في الحب. وشرطه ترك الدنيا وقطع الطمع والخوف والرجاء والصبر والسكينة واستواء الطرفين[8]. ويحب الإنسان الحُسن والجمال. ومع ذلك المستحق للمحبة هو الله وحده، ذروة الحُسن والجمال والجلال والكمال. ومعرفة الله من أجل اللذات وأعلاها، والنظر إلى وجهه الكريم. ولذة النظر في الآخرة أعظم من لذة الدنيا. والإخلاص تقوى محبة الله. ويختلف الناس فيها طبقاً لصدقهم. وهي على ثلاثة أحوال: الأولى محبة العامة لإحسان الله عليهم. وهو صفاء الود مع دوام الذكر. وهي موافقة القلوب لله[9]. وهو بذل المجهود والحبيب يفعل ما يشاء. والثانية محبة الخاصة. وهو حب الصادقين والمتحققين. هو هتك الأستار وكشف الأسرار. هو محو الإرادات،

(1) ابن تيمية: **محبة الله تعالى**، ص137، 145، 153، 176-178.

(2) «إذا شربوا بكأس حبه وقعوا في بحار أنسه، وتلذذوا بروح مناجاته، وإذا عرفوه حق معرفته وَلِهوا في عظمته». السابق، ص131.

(3) **الأحياء**، جـ4، ص286-290.

(4) محمد بن علي الترمذي، السابق، ص219.

(5) علي بن سهل الأصبهاني، السابق، ص234.

(6) أبو العباس بن عطاء الأدمي، السابق، ص269.

(7) «كمال العارف احتراقه بحب ربه». السابق، ص105.

(8) «ظاهر الصدق وباطنة سواء. ولقد اشترك الإيمان والحب في قلب الصديق، فكلما ازداد الإيمان ازداد الحب». السابق، ص135.

(9) **اللمع**، ص86-88.

واختراق جميع الصفات والحاجات. وليس للمحب سكن غير الحبيب، ولا مألوف سواه. والثالثة لخاصة الخاصة. وهي محبة الصدِّيقين والعارفين. وهو محبة بلا علة نتيجة معرفتهم به. وهي المحبة الصافية بالله ولله. وهي الانتقال من رؤية المحبة إلى رؤية المحبوب. هي دخول صفات المحبوب على البدل من صفات المحب كما هو الحال في الحديث المشهور عن تبادل الحواس[1].

والفرق بين الحب والود أن الحب فيه بُعد وقرب. والود لا فيه قطع ولا بُعد ولا قرب. شاهد الحب حق اليقين. وشاهد الود عين اليقين. وشاهد الصيانة علم اليقين. الود وصل بلا مواصلة لأن الوصل ثابت. والمواصلة تصرف الأوقات[2].

والمحبة جنون. وجنون المحبة غير الأرواح في الأفراح. هو استهتار المحب في المحبة بنور الحب وصار والهاً. ولا يعرف أوقاته وزمانه وما يجري عليه من أحكام العبودية من غيبة في الحق وفناء العقل واللب فيصبح عاقلاً مجنوناً. وتتغيَّر الأشياء المحبوبة. ما يكون محبوباً اليوم قد يصير مكروهاً غداً، وما قد يكون مكروهاً اليوم قد يكون محبوباً غداً. ومحبة الله دائمة لا تتغيَّر[3]. والحب تجربة حشو الفؤاد من لم يجربها لم يعرف كيف تُفتَّت الأكباد[4]. والحبيب هو قوم النفس وهو الذي يروي العطش[5]. ولا يصبر الحبيب عن حبيبه[6]. وتبكي العين من حرقة الحب راحة للنفس، لكن دمع الشوق يعذب القلب. ولا ينفع الذِكر في التخفيف من لوعة الحب بل يهيج الكرب. ويظل المحب معذباً بناءً على مواجيد يشغلها العذاب. فقد بُلي بمن لا يستطيع عتابه. بل هو الذي يعاتب حتى

(1) وهو معنى قول الشاعر: إن المحب لمن يحب يطيع.
(2) **اللمع**، ص300.
(3) يحيى بن معاذ، السابق، ص113.
(4) أنشد أبو عبد الله بن الجلاء.
من لم يبت والحب حشو فؤاده ... لم يدر كيف تفتت الأكباد
السابق، ص177.
(5) أنت الحبيب الذي لا شك في خَلَدي ... منه فإن فقدتْك النفس لم تعش
يا معطش بوصال أنت واهبه ... هل فيك راحة إن صمتُ وأعطش
(6) أمسى نجدي للدموع رسوم ... أسفاً عليك، وفي الفؤاد كُلوم
والصبر يحسن في المصائب كلها ... إلا عليك فإنه مذموم
سحنون الحب، السابق، ص 197.

يقبل الذنوب[1]. فتنة تقع في الفؤاد من المُراد. الميل إلى الشيء بالكلية ثم الإيثار على النفس والروح ثم الموافقة سرًّا وعلناً ثم الإحساس بالتقصير في الحب، نار في القلب تحرق ما سوى مراد المحبوب، الصبر على البلاء[2].

والحب يُنحل القلب الحنين ويمحوه الهوى فلا يستبين. هو مجرد ظن لا تراوده الظنون[3]. فالحب هنا سلب وليس إيجاباً، والمحبة تتخارج، تبدو تهيج، تُميت وتُحيي، تعتني وتبقي تكشف وتخبئ[4]. من قتله الحب أحياه القرب[5]. الحب يتضمن الشيء ونقيضه، الإيجاب والسلب، الحياة والموت.

وهناك فرق بين المحبة والحياء. المحبة رغبة مزعجة، والحياء خجلة. المحبة طلب غائب، والحياء من حاضر. والمحبة تتطلب الغيبة، والحياء يتطلب المشاهدة[6]. المحب يختار كراهيته لرضاء حبيبه[7]. وهو جدل المحبة والكراهية.

دماء الأقرباء تتحرك عند الالتقاء، ودماء المحبين تجيش وتغلي[8]. فالمحبة أقوى من القرابة، الحب يؤرق ويذهب النعاس. والحبيب يجدد حبه والمحبوب يصده. يسيء إليه دون ذنب. يعترف به ولم يقترفه. وهو حب الذليل كما يبدو في الأغاني الشعبية التي تشكو الصد والهجران.

---

(1) بكيت، ودمع العين للنفس راحة ... ولكن دمع الشوق ينكي به القلب
وذكري لما ألقاه ليس بنافعي ... ولكنه شيء يهيج به الكرب
فلو قيل لي : ما أنت، قلت: معذب ... بناء مواجيد يضرمها العَتب
بُليت بمن لا أستطيع عتابه ... ويُعتبني حتى يُقال لي الذنب
سحنون المحب، **طبقات الصوفية**، ص199.

(2) هي تعريفات أبي علي الدقاق، والشبلي، وابن عطاء، والجنيد، والمحاسبي. **القشيرية**، ص144-146.

(3) أنحل الحب قلبه والحنين ... ومحاهُ الهوى، فما يستبين
ما تراه الظنون إلا ظنوناً ... وهو أخفى من أن تراه العيون
أبو الخير الأفصح التيناتي، السابق، ص371.

(4) أبو الحسين بن بنان، السابق، ص390.

(5) مظفر القرمسيني، السابق، ص397.

(6) بندار بن الحسين الشيرازي، السابق، ص468-469.

(7) أبو العباس الدينوري، السابق، ص478.

(8) أبو القاسم النصرأباذي، السابق، ص488.

والحب يزيد وينقص في المقدار في قلب الصوفي، يشتد ويضعف. وقد يصل إلى درجة عدم السكون بالليل أو الاطمئنان بالنهار[1]. وازدياد الإيمان زيادة في الحب. وشرطه ترك الدنيا وقطع الطمع والخوف والرجاء والصبر والسكينة واستواء الطرفين[2]. الحب نار تحرق قلب المحب[3]. وهو مرض يصاب به الصوفي ولا يستطيع الأطباء علاجه لأن الدواء هو الداء[4]. ولا يمكن أن يشكو المحبوب إلى نفسه، الحب كالشمس تطلع في القلوب تنيرها. وهي شمس لا تغيب[5]. ويأسف المحب على زمان بسط أورثه قبضاً أو زمان أُنسى أورثه وحشة[6].

وأذل الناس المحب لمحبوبه[7]. ولو صاح إنسان من شدة وجده بحبه لملأ بين الخافقين صياحاً[8]. فالحب الشديد وجد، والوجد صياح. ومن تعرَّض لمحبته جاءته المحن والبلايا. محبة النفس تؤدي إلى الهلاك. فالمحبة للغير. ولا يتفرغ الحب إلا إلى محبوبه لأن الحب بلاء دائم وسرور متقطع وأوجاع متصلة لا يعرفه إلا من يكابده. ويغلب على المحبة لغة الصد والهجر والحزن والولع والفراق واللوعة وكما يبدو في الأغاني الشعبية وليس الإباء والشمم[9]. ومن غلبه هواه

---

(1) «قلب وإن مُلِئَ حباً فكم قدره؟... فإنك إن أحببت لم تكن تسكن بالليل، ولم تطمئن بالنهار، ولكنك صادق بذلك المقدار». **شطحات**، ص79-80.

(2) «ظاهر الصدق وباطنه سواء. ولقد اشترك الإيمان والحب في قلب الصديق. فكلما ازداد الإيمان ازداد الحب». **شطحات**، ص135.

(3) «إلٰهي! أتحرق بالنار قلبا يحبك». السابق، ص124.

(4) وقل للحبيب ترى ذلتي فجُد لي بعفوات قبل اللقا
فو الحب لا تنثني راجعاً عن الحب إلاّ بعوض المنى
الديوان، ص287.

(5) فكيف أصنع في حب كلفت به مولاي قد مل من سقمي أطبائي
قالوا تداوَ به منه فقلت لهم يا قوم هل يتداوى الداء بالداء
حبي لمولالي! وأسقمني فكيف أشكو إلى مولاي مولائي
السابق، ص289.

(6) قد كان لي مشرب يصفو برؤيتكم فكدرته يد الأيام حين صفا
الطبقات الصوفية، ص163.

(7) يوسف بن الحسن البغدادي، السابق، ص189.

(8) سمنون المحب، السابق، ص195-196.

(9) إلى كم يكون الصد في كل ساعة ولم لا تملين القطيعة والهجرا =

توارى عقله. وإذا كان الإسلام يقوم على العقل فكيف يقيم الإنسان حياته على الهوى؟ والمحبة نار ولهيب واختراق. أهل المحبة في لهب شوقهم إلى المحبوب ينعمون باللهيب أفضل مما يتنعم أهل الجنة بالنعيم. ويتسلى الإنسان في المحبة وبروح المحب عن هيجان الفؤاد[1]. بلاء المحبين أعظم من سائر الأحوال لأنهم آثروه على أرواحهم فابتلاهم بمحبته. وفي المثل الشعبي «الحب بلوه». ومن يطيق سماع هذا الكلام تبدو له قيمة الحقائق[2]. الحب ابتلاء من الله. فإذا كان حب الرسول يؤدي إلى الفقر فإن حب الله يؤدي إلى الابتلاء[3]. والغيرة حال سنيَّة من أحوال المحبين عند العامة الذين لم ينفعوا بحد إلى مقام التوحيد، الإيجاد بالوحدانية والانفراد بالفردانية[4]. ولقاء الحبيب علاج المحبين، وليس أدوية الأطباء. وعلل المحبين ليست أمراضاً. وآلام المحبين ليست آلاماً، كلها آيات وكرامات تسميها العامة معجزات[5]. وتعني الدراية طريق المحبة، والسلوك فيه[6]. كما تعني الهداية إلى الطاعة والتوحيد. والحب والهجر واحد[7]. والمحبة خير عبادة[8].

= رويدك أن الدهر فيه كفاية لتفريق ذات البين فارتقبي الدهرا
السابق، ص364. وهو الفرق بين أغاني أم كلثوم وأغاني فيروز.

(1) السابق، ص314-315، وهو معنى المثل الشعبي «الحب بهدلة»، أبو الحسين بن الصائغ الدينوري.
لو أشربُ السلوان ما سليت ما بي غنى عنك وإن غنيت

(2) أبو عبد اللّه محمد بن خفيف، السابق، ص466.

(3) **قوت القلوب**، جـ1، 100، 124، 133، 135.

(4) وإن أشرح ثناءك غير أني أجلكَ عن كتاب في كتاب
السابق، ص153.

(5) يا حبيباً بذكره تتداوى وصفوه لكل داء عجيب
من أراد الطبيب سَر إذا اعتل اشتياقاً إلى لقاء الطبيب
من أراد الحبيب سار إليه وجفا الأهل دونه والقريب
ليس داء المحب داء يداوى إنما برؤه لقاء الحبيب
قوت القلوب، جـ2، ص85.

(6) ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾، **التفسير**، ص109.

(7) وأني، وإن أهجرت فالهجر وكيف يصح الهجر والحب واحد
السابق، ص298.

(8) «ما تعبَّد اللَّهَ خلقُهُ بشيء أعز من المحبة له وفيه». **الروايات أو الأحاديث**، ص169.

والكذب بادعاء ثلاثة أشياء: حب الله من غير ورع في المحارم، وحب الجنة من غير إنفاق المال، وحب النبي من غير محبة الفقر. فالمحبة مشروطة بالفعل وليست محبة مطلقة، يدعيها بنو إسرائيل مع الله ﴿إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾. ولا يكون العبد محباً للّه حتى يبذل نفسه للّه وطلب مرضاته سرّاً وعلانية، ويعلم الله من قلبه أنه لا يريد إلا هو[1]. والمحبة مشروطة في النص القرآني بين الله والإنسان ﴿إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾[2]. ولها ثلاثة شروط لا تكتمل إلا بها: محبة المؤمنين في الله. وعلامتها كف الأذى عنهم وجلب المنفعة إليهم. ومحبة الرسول وعلامتها إتّباع سنّته، ومحبة الله في إيثار الطاعة على المعصية.

وعلاقة محبة الله إيثار طاعته ومتابعة نبيه. وللمحبة علامات منها كثرة ذِكره الحبيب[3]. ودوام ذِكره في القلب، حب لقاء الحبيب على العيان أي المعاينة والمشافهة والمجالسة والمعانقة واللقاء والقرب معه والموت في سبيله والاشتياق إليه، وسماع كلام الحبيب مثل القرآن، تقديم أمور الآخرة من كل ما يقرب من الحبيب على أمور الدنيا من كل ما تهوى النفس، المجاهدة في طريق المحبوب بالمال والنفس ليقرب منه ويبلغ مرضاته، ومن ترك السكون إلى غير محبوبه لأنه هو السكن وليس الحركة معه، والموافقة معه[4]. والصبر على الطاعات، والمسارعة إلى ما نُدب إليه من أنواع البِر، ووجود الروح بالشكوى إليه والاستراحة إلى علمه له وحده ومن علامات طول التهجد، والخروج إلى الحبيب من المال بالزهد في الدنيا، والخروج إليه بالنفس وإيثار الحق على جميع الأهواء، ودوام النشاط الدؤوب بشهوة. يفتر البدن ولا يفتر القلب. وقد صيغت الدلائل شعراً، التنعم بالبلاء من الحبيب، والسرور بكل فعل منه. منعه مقبل، وفقره إكرام، وطاعته وسماع صوته وفهم كلامه عن

(1) السابق، ص129.
(2) **شطحات**، ص129.
(3) السابق، ج2، ص101، 105-106، 109-110.
(4) ألذ جميل الصبر ما ألذه وأهوى لما أهوه تركاً فأتركه.......
وأترك ما أهوى لمن قد هويته وأرضى بما يرضى وإن سخطت نفسي
السابق، ص108.

قصد[1]. ومن الدلائل أيضاً السير مستمراً على الشطآن، والحزن والنحيب في جوف الظلام دون عزال، والسفر إلى الجهاد وكل فعل فاضل والزهد في الدنيا، والبكاء حين فعل القبيح، وتسليم كل الأمور إلى الله، والرضى بأحكامه، والضحك بالغم والقلب حزين[2]. والحبيب في حاجة إلى الإشارة إليه، والدلالة عليه[3]. والحبيب وحده في القلب. إذا ما غاب عن البصر حضر في الفؤاد[4]. والحب وشم في الفؤاد، علامة على الحبيب[5].

لا يعبِّر عن شيء إلا بما هو أرق منه، ولا شيء أرق من المحبة[6]. والحب

---

(1) من شعر أبي تراب:

لا تخدعني فللمحب دلائل ... ولديه من تحف الحبيب وسائل
منها تنعمه بحر بلائه ... وسرور في كل ما هو فاعل
فالمنع منه عطية مقبولة ... والفقر إكرام ولطف عاجل
ومن اللطائف أن يُرى من عزمه ... طوع الحبيب وإن ألح العاذل
ومن الدلائل أن يُرى متبسماً ... والقلب فيه من الحبيب بلابل
ومن الدلائل أن يُرى متفهماً ... لكلام من يحظى لديه المسائل
ومن الدلائل أن يُرى متقشفاً ... متحفظاً من كل ما هو قائل

(2) من شعر يحيى بن معاذ:

ومن الدلائل أن تراه مشمِّراً ... في خرقتين على شطوط الساحل
ومن الدلائل حزنه ونحيبه ... جوف الظلام فما له من عاذل
ومن الدلائل أن تراه مسافراً ... نحو الجهاد وكل فعل فاضل
ومن الدلائل زهده فيما يرى ... من دار ذل والنعيم الزائل
ومن الدلائل أن تراه باكياً ... أن قد رآه على قبيح فعائل
ومن الدلائل أن تراه مسلِّماً ... كل الأمور إلى المليك العادل
ومن الدلائل أن تراه راضياً ... بمليكه في كل حكم نازل
ومن الدلائل ضحكة بين الورى ... والقلب محزون كقلب الثاكل

قوت القلوب، ج2، ص125.

(3) «من يدلنا على حبيبنا»، السابق، ص 121.

(4) حبيب ليس يعدله حبيب ... ولا سواه في قلبي نصيب
حبيب غاب عن بصري وشخصي ... ولكن في فؤادي ما يغيب

السابق، ص130، 178، 180، 182.

(5) قد وسم الحب في فؤادي ... بميسم الشوق أي وشم

السابق، ص317.

(6) يوسف بن الحسين البغدادي، السابق، ص189.

لا يمكن التعبير عنه ولا كتمانه. فالعبد لا يستطيع أن يحبس الدمع. والمحب يحمل جبل الحب، وهو لا يقوى على حمل القميص[1]. الوجد فياض، يبين عن نفسه، ولا يمكن كتمانه لا عن منبعه ولا عن مصبه، لا في البداية ولا في النهاية، تكشف عن الشوق حتى في لحظة الأفول. فهو مستودع، صيانته ضرورية[2]. تفوح روائح المحبة من المحبين، وإن كتموها تظهر عليهم دلالاتها. فالحب يتخارج. يجهد المحب في كتمان حبه. وتأبى المحبة إلاَّ الظهور. كل شيء ينمُّ عن المحب فيظهر[3]. وكل شيء يمكن التعبير عنه إلا المحبة لأنه لا يوجد ألطف منها أو مرادف لها. المحبة إذا ظهرت افتضح المحب. وإذا كُتمت قتلت المحب كمداً[4]. فالحب قاتل في كلتا الحالتين، الكشف والستر. وهي ليست من تعليم الناس بل بتجربة الحبيب. ولا يخبر الحكماء بحقائق أربع: حقيقة التوحيد، وحقيقة المعرفة، وحقيقة الإخلاص، وحقيقة المحبة[5]. ومن المحبة كتمان بلاء الحبيب بعد الرضا به. والإنسان يخفي محبته لله ويعلن وجده[6]. ولماذا تخفى المحبة ويعليه الوجود والوجد في الظاهر يكشف عن المحبة في الباطن؟ لذلك تأتي رابعة بأخلاق فريدة، أخلاق المحبة بدلاً عن أخلاق الكراهية، والثقة بالنفس بدلاً من الخوف من العذاب. الحب لذاته لا طمعاً في جنة ولا خوفاً من نار. الحب مكتوم في القلب يُحذر منه للوصول إلى بر الأمان. وأطيب حب ما كشفته لغة الحب كما تخرج

---

(1) ظفرتم بكتمان اللسان فمني لكم ... بكتمان عين دمعه الدهر يذرف
حملتم جبال الحب فوقي، وإنني ... لأعجز عن حمل القميص وأضعف
إبراهيم القصار، **طبقات الصوفية**، ص320-321.

(2) بك كتمان وجده بك، عنه ... لك ومنه، وعنه، مالك منه
من إذا لاح لائم بالشوق ... هام وجداً إن لم تكنه
وإذا أفل الأفول يبين ... بان عنه، فبان إن لم تبنه
يا فتى الحب، بل يا فتى الحق سرى ... عنك مستودع لديك فصنه
أبو علي الروذباري، السابق، ص358-359.

(3) جعفر بن محمد الخلدي، السابق، ص438.

(4) ولقد فارقه بإظهار الهوى ... ليستر سره إعلانه

(5) وإن أشرح ثناءك غير أني ... أجلك عن كتاب في كتاب
السابق، ص153.

(6) ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعۡلَمُ مَا نُخۡفِي وَمَا نُعۡلِنُۗ﴾، السابق، ص125.

النار من الحجر. وإذا أمكن التبرؤ من السمع والبصر أمكن التبرؤ من حب الحبيب[1]. ويشهد بالحب رقيبان: السر، الخاطر واللسان[2].

ويتوزع معنى المحبة على مراحل التصوف الخلقية والنفسية والفلسفية. ففي المعنى الخلقي المحبة صفاء المودة، وخوف ترك الحرمة مع إقامة الخدمة، ومعانقة الطاعة ومبياتة المخالفة، وإقامة العتاب على الدوام. حقيقة المحبة ما لا ينقص بالجفاء. وليس بصادق من أدعي المحبة ولم يحفظ الحدود. ومع ذلك إذا صحت المحبة سقطت شروط الأدب[3]. والمعنى النفسي، المحبة غليان القلب وثوارته عند العطش، والاهتياج إلى لقاء المحبوب. هو الميل الدائم إلى القلب الهائم، وإفراط الميل بلا نيل، وأغصان في القلب تثمر على قدر العقول، ولذة ومواقع الحقيقة دهشة، والغيرة على المحبوب لأنه يحبه مثله، ومجانبة السلو على كل حال، وتعلق القلب بين الهمة والأنس في البذل والمنع، وتشويش في القلب يقع مع المحبوب، وفتنة تقع في الفؤاد من المراد، والميل إلى شيء بالكلية ثم الإيثار على النفس والروح ثم الموافقة سراً وعلناً ثم الإحساس بالتقصير في الحب، ونار في القلب تحرق ما سوى مراد المحبوب، والصبر على البلاء[4]. والمعنى الفلسفي لقاء قلبين، وعدم فراق أحدهما للآخر[5]. محو المحب بصفاته وإثبات المحبوب بذاته، وإيثار المحبوب على جميع المخلوق. فالمحبة تضحية بالذات في سبيل المحبوب، وموافقة الحبيب في المشهد والمغيب، مواطأة القلب لمرادات الرب. حول صفات المحبوب على البدل من صفات الحب. حقيقة المحبة القيام مع

(1) الحب كا دام مكتوما، على ... وغاية الأمن أن تدنو من الحذر
وأطيب الحب ما نم الحديث به ... كالنار لا نأت نفعاً وهي في الحجر...
أرجو لنفسي براء من صحبتكم ... إذن تبرأت من سمعي ومن بصري
السابق، ص304.

(2) رقيبان مني شاهدان لحبه ... وثنان من شاهدان تراني
فما حل في سري لغيرك خاطر ... ولا قال، إلا في هواك لساني
السابق، ص328.

(3) **القشيرية**، ص144-145.

(4) هي تعريفات أبي علي الدقاق والشبلي وابن عطاء والجنيد والمحاسبي. **القشيرية**، ص44-46.

(5) السابق، ص144.

المحبوب وخلع الأوصاف[1]. هي وهب النفس للحبيب وعدم بقاء شيء، محو ما سوى المحبوب من القلب. محبة توجب حقن الدماء، ومحبة توجب سفك الدماء[2]. سقوط كل محبة من القلب إلا محبة الحبيب[3]. أوله ختل، وآخره قتل. لا تصلح المحبة بين اثنين حتى يقول كل واحد للآخر يا أنا. المحب إذا سكت هلك، والعارف إن لم يسكت هلك. هي بذل المجهود والحبيب يفعل ما يشاء[4]. وهي هتك الأستار وكشف الأسرار[5]. ولا تصح المحبة إلا بالخروج عن رؤية المحبة إلى رؤية المحبوب بفناء المحبة، والتوجه من الحالة إلى الشخص، ومن الذات إلى الموضوع[6]. المحبة ما يمحو الأثر[7]. هو سكر لا يصحو صاحبه إلا بمشاهدة محبوبة. لها الأولوية على المعرفة، وقد تكون للمعرفة الأولوية على المحبة. هو استهلاك في لذة، والمعرفة شهود في حيرة وفناء في هيبة[8]. المحبة الموافقة. وأشدها الموافقة بالقلب. توجب انتقاء المباينة فإن المحب أبداً مع محبوبه[9]. هي حالة تستولي على المحب حتى لا يشهد إلا المحبوب، هي لذة. والحقيقة دهش واستيفاء وحيرة، وإذا اشتدت المحبة للمحب يشاهد المحبوب ويسقط شعوره بنفسه ومحبته. الحبيب يُزار في الخلوات. غائب حاضر عن اللحظات[10]. وهي آية الاختصاص ونتيجة الاصطفاء. المحبة عملية متدحرجة في البدايات التلذذ بالعناد والتسلي. وفي الأحوال أصلها الابتهاج لشهود الحق. وفي الأبواب الباطن بالسلو عما سوى المحبوب. وفي المعاملات شغل القلب بالحبيب، وفي الأخلاق محبة الخلاص. وفي الأصول تجريد القصد. وفي الأدوية إباحة

(1) الحلاج، السابق، ص145.
(2) أبو القاسم النصرأباذي، السابق، ص145.
(3) محمد بن الفضيل، السابق، ص145.
(4) السابق، ص145-146.
(5) النوري، السابق، ص146.
(6) أبو يعقوب السوسي، **القشيرية**، ص146.
(7) السابق، ص 146.
(8) السابق، ص147.
(9) السابق، ص 148.
(10) لي حبيب أزور في الخلوات حاضر غائب عن اللحظات
السابق، ص295.

دواعي العشق. وفي الولايات الابتهاج بحب الصفات. وفي الحقائق الخطف عن أدوية التعرف إلى جمع الذات. وفي النهايات حب المعزة الإلٰهية[1].

وتتنوع أنواع المحبة الفلسفية. المحبة الذاتية هي التعيُّن الأول، والمحبة الأصلية المناسبة الجامعة بين اثنين. والمحبة الأصلية الذاتية هي المحبة المنتشية من اللذات، والمحبة الفعلية هي المحبة المنتشية من الذات لصفة أو معنى. والمحبة الحالية هي المحبة المنتشية من الذات بين شخصين في حالة الوجد والسماع وتنتهي بانتهاء الحال. والمحبة الرتيبة هي المحبة المنتشية من الذات لصفة أو معنى ثابت ودائم. والمحبة الصفية هي المحبة المنتشية من الذات لمعنى أو صفة ثابتة دون أن تكون مرتبة. المحبوب لعينه هو الإنسان الكامل، والمحبوب المقرب لا غيره بل للمناسبة[2]. وطريق المحبين وأحوالهم وبحار الطريق هو طريق واحد دون سواه. هو أول قدم في نور الذات، وطرح النفس عدماً بلا علة[3]. ومعنى ذلك المحبوبية الذاتية الصرفة. فالذات تحب الذات قبل الصفات. وهي الحقيقة المحمدية أو الأحمدية. والثاني الخُلّة وهي الحقيقة الإبراهيمية، والمحبوبة الذاتية الصرفة منشأ الحقيقة الموسوية، دوائره المحبة الممتن جذباً بالمحبوبة هي دائرة المحمدية الحقيقة، ودوائره المحبوبة الصرف وسيرها هي الحقيقة الأحمدية، دوائره الحب الصرف والتوجه وسيرها هو كمال العلوم[4].

ويأتي الفرج بالمحبة، واتصال الأفعال بالحبيب وإيتاء الفرح منه[5]. والحب يغلب على كل شيء. لا حلاوة للدنيا، ولا حلاوة للآخرة، بل حلاوة الرحمن[6]. والمحبة استقلال الكثير من النفس، واستكثار القليل من الحبيب[7]. والحب نتيجة

(1) **جامع الأصول**، جـ3، ص171-172.
(2) **لطائف الأعلام**، جـ2، ص617-620.
(3) **جامع الأصول**، جـ1، ص189-191.
(4) السابق، ص240-246.
(5) **التستري**، ص268.
(6) **شطحات**، ص165.
(7) السابق، ص211.

للشرب[1]. وهو كأس لا يروي[2]. وتُقام صلاة الحق على المحبين فوق السموات السبع[3].

ويستمر الحب بعد الموت، ويظل صادقاً، يفجّر الجوانح. فالمحبوب هو المنى الذي يتمناه والأمل والضمير. يحمل الهمّ وإن مرض. مازال المحبوب حالاً في الضلوع والأحشاء. هو دليل الرب ومنقذ الهالك. يهدي بنوره. ويعفو بعفوه، ويحيي بقربه، ويعوض بيسر. والحب حشو الفؤاد، لوعة تحرق، تفتت الأكباد[4]. وسر الحب لا يموت بل يظل باقياً مع الباقيات[5]. والمحبون صرعى في ديارهم كأهل الكهف لا يدرون كم لبثوا من الزمان. فالمحبون في غير زمانهم[6]. المحبة إفراط الميل بلا مثل. تقلق القلب بين الهمة والأنس في البذل والمنع. ثم تتحول المحبة إلى موضوع إنشائي تطبيقي. ليس المقصود تعريفها وحقيقتها بل دورها في الإنسان وفي الكون. المحبة في سياق الاتحاد بين المحب والمحبوب. وبين المحب والكون[7]. ألوهية الحبيب والمحبوب، وإنسانية الحبيب والمحبوب، يملأ

(1) «إن لله تعالى شراباً، يسقيه في الليل قلوب أحبائه، فإذا شربوه طارت قلوبهم في الملكوت الأعلى حب لله تعالى وشوق إليه». السابق، ص210.

غرست الحب غرساً في فؤادي ... فلا سلو إلى يوم التنادي
درجت القلب مني باتصال ... فشوق زائد والحب بادي
سقاني شربه أحيا فؤادي ... بكأس الحب من بحر الوداد
فلولا الله يحفظ عارفيه ... لهام العارفون بكل وادي

السابق، ص210.

(2) عجبت لمن يقول، ذكرت ربي ... وهل أنسى فأذكر ما نسيت
شربت الحب كأساً بعد كأس ... فما نفد الشراب وما رُويت

السابق، ص212.

(3) **مشرب الأرواح**، ص301-302.

(4) من لم يبت والحب حشو فؤاده ... لم يدر كيف تفتّت الأكباد

السرقسطي، السابق، ص55.

(5) تجدو سر حبيبي ... في طوايا الباقيات

الديوان، ص294.

(6) ترى المحبين صرعى في ديارهم ... كفتية الكهف لا يدرون كم لبثوا

السابق، ص297.

(7) **الفتوحات**، جـ2، ص320-362.

المحبوب الحواس الخمس. تعشقه السمع والبصر واللمس والشم والذوق. وأشدها العشق بالنظر يملأ الحس والوجدان[1]. الحب هو الانشغال بالحب عن متعلَّق. عشق الحب أولى من عشق المحبوب. فالحب أمر عدلي وليس أمراً وجودياً. يفصّل الفقهاء مقام المحبة كما يفعل الصوفية. فالحب أصل الدين، كل عمل وحركة وعبادة وأي كائن حي بل ووجود العالم. فالدين دينان، دين عبادة ودين محبة. والمحبة هي محبة الله. لها درجاتها ومراتبها. وتنتهي بالفناء. لها أسبابها ودوافعها وثمارها. هي خلاصة التوحيد. وتستبعد الشرك. تؤدي في النهاية إلى لذة القرب من الله والنظر إليه. تبدأ بعشق الصور، وتنتهي بمحبة الله ومن ثم لا مجال لأدائه الجمال الحسني.

وللأدباء تحليلاتهم للمحبة. بحيث لا يبدو فرق بين تحليل الصوفية وتحليل الأدباء. ألفاظها كثيرة وليس فقط ما اقتصر عليه الصوفية مثل العشق، والشوق، والهوى، والشجن، والخُلَّة[2]. كما يتمُّ بحث الدوافع والبواعث مثل علماء النفس. وأحكام النظر مثل الفقهاء، والحلال والحرام منها، والفرق بين المحبة والعشق والغيرة والهوى. وعلاماتها مثل ذكر المحبوب والانقياد لأوامره، والإقبال عليه، ومحبة داره وموطنه وزيارته وانجلاء الهموم معه ورضاه، وإدخال السرور عليه، والاستكانة له أو حجره، والاتفاق معه والخلاف[3].

والمحبة محبة الله، ومحبة الله لا عيش أي العيش نفسه وهو الطاعة، حب الله والنبي وبيت النبي، وكأن المحبة مازالت من أحكام الشريعة. والسكوت عن مساوئ الصحابة فرض. وهو تخل عن النقد ووقوع في التقديس. وإظهار الفضائل

---

(1) خيالك في عيني وذكرك في فمي ومثواك في قلبي فأين تغيب
السابق، ص325.

(2) يضيف الزرعي: العلاقة، الصبوة، الصبا، الصبابة، الشغف، الوجد، التتيُّم، الجوى، الشجو، الخلابة، الحرق، اللوعة، الفتون، الجفون، الهيام، التدليه، الرقة، الود. وهناك أسماء أخرى أقل شيوعاً مثل: المقه، الكلف، الدنف، التباريح، السدم، الفحرات، اللاعج، الوهيب، اللوغ، الأرق، التباله، الرسيس، الخلم... إلخ. **روضة المحبين**، ص16-40.

(3) **روضة المحبين دواعي المحبة**، ص48-65. **أحكام النظر**، ص65-75. **العشق**، ص96-108، 117-139. **حب الجمال**، ص139-177. **علامات المحبة**، ص177-195.

فرض وهو ما قد يوقع في الكذب والمحاباة والتخريب للفرق[1]. وإذا كان الحب اقتداءً بسنَّة النبي فإنه يكون تقليداً لا إبداعاً، تبعيَّةً لا انطلاقاً، شريعةً لا حقيقةً[2]. ثلاثة من علامات المحبين لله. ذكر اللسان للحبيب على الدوام بالشكر والحمد، والوجود معه دائماً، وانشغال الجوارح به وبرضاه. وكثر النساء المتعبدات محبات. فعبادة المرأة حب من تُحب[3]. المحبة نتيجة للعبادة[4]. والمحبة لله، حب ما يحبه اللّه وبغض ما يبغضه، وفعل كل الخير، ورفض كل ما يشغل عن اللّه، وعدم خوف لومة لائم، مع العطف على المؤمنين، والغلظة على الكافرين. فالمحبة لها طريقان: رأسي إلى اللّه وأُفقي مزدوج، محبة المؤمنين وكراهية الكافرين. ويمتد البُعد الأُفقي إلى التاريخ في اتِّباع الرسول[5]. ومن علامات المحب لله متابعة المحبوب في أخلاقه وأفعاله وأوامره وسننه. فالمحب لمن يحب يطيع. يتوحد معه ويفنى فيه، ولا خطر من الجنة على أهل الجنة لأنهم محجوبون عنها بمحبتهم[6]. ومن عَبَدَ اللّه على المحبة فإنه لا يريد إلا خدمة الحبيب، ودون ذلك شرك[7]. وعلامة حب اللّه طاعته وحب ذكره. إذا أحب اللّه الإنسان أحبه

(1) **التستري**، ص 95. **جامع الأصول**، ج2، ص273.
(2) السابق، ص96.
(3) السابق، ص295.
(4) **طهارة القلوب**، ص252–258.
(5) أنشد ذو النون:

أموتُ وما ماتت إليك صبابتي ... ولا قضيتُ من صدق حبك أوطاري
مناي، المنى كل المنى، أنت لي مُنى ... وأنت الغنى، كل الغنى عند افتقاري
وأنت مدى سُؤالي وغاية رغبتي ... وموضع آمالي ومكنون إضماري
تحمَّل قلبي فيك ما لا أبثه ... وإن طال سُقمي فيك أو طال إضراري
وبين ضلوعي منك ما لك قد بدا ... ولم يبدُ باديه لأهل ولا جار
وبي منك في الأحشاء، داء مُخاصر ... قد هدَّ مني الركن وانبث إسراري
ألست دليل الركب، إن هم تحيروا ... ومنقذ من أشفى على جُرف هاري؟
أنرت الهدى للمهتدين ولم يكن ... من النور في أيديهم عشر معشاري
فنلني بعفو منك، احيا بقربه ... أغثني بيسر منك، يطرد إعساري

طبقات الصوفية، ص18، 21–22.
(6) البسطامي، السابق، ص70.
(7) معروف الكرخي، السابق، ص89.

الإنسان. فالمبادرة للّه وليست للإنسان[1]. وكيف يعرف الإنسان مبادرة اللّه وهو الذي يعيش تجربة الحب؟ وإذا أحب اللّه قوما أفادهم في اليقظة والمنام لأنهم طلبوا رضاه أيضاً فحب اللّه مشروط بطلب الإنسان[2]. وإذا كان المحب ساكناً هادئاً فقد وَرَدَت عليه الغفلة لأن الحب لا يترك المحب هادئاً بل يزعجه بالقرب والبُعد، وباللقاء وبالحجاب[3]. وعتاب المحب يبسط القبض ويسكن الروع عند العتاب. وهو حب قديم منذ الصبا لا يكون فيه التصابي[4]. ويستمرُّ الحب طول الزمان، ليل نهار. فزمان الشوق مستمر دائم[5]. المحب يتعلل إلى محبوبه بكل شيء. ولا يتسلى عنه بشيء. يتبع آثاره ولا يدع استخباره[6]. والحبيب أسير يسري إليه الهوى فيصبح الأسير قتيل الغرام. ولا يُبقي منه إلا العاشق النحيل الحزين السقيم[7]. وأهل المحبة هم أهل الهمة[8]. ولا يتحقق بالحب من راقب أوقاته أو تحمل في كتمان حبه حتى يتهتك فيه فيفتضح ويخلع العذار. ولا يبالي عما يرد عليه من جهة محبوبه أو بسببه. ويتلذذ بالبلاء في الحب كما يتلذذ الأغنياء

(1) أحمد بن أبي الحواري، السابق، ص101.
(2) يحيى بن معاذ، السابق، ص111.
(3) أبو حفص النيسابوري، السابق، ص119.
(4) يعاتبني فينبسط انقباضي — وتسكن روعتي عند العتاب
جرى فيّ الهوى منذ كنت طفلاً — فمالي قد كبرت على التصابي
السابق، ص198.
(5) أحن بأطراف النهار صبابة — وفي الليل يدعوني الهوى فأجيب
وأيامنا تغنى وشوقي زائد — كأن زمان الشوق ليس يغيب
السابق، ص98.
(6) أبو سعيد الترمذي، السابق، ص232.
(7) أسير يسير إليه هواه — فيُضحي الأسير قتيل الغرام
فلم يبق منه سوى أنه — يقال له عاشق والسلام
لفرط النحول وحر الغليل — وحزن مذنب لطول السقام
طاهر المقدسي، **طبقات الصوفية**، ص276.
وكذبت طرفي فيك والطرف صادق — وأسمعت أذني منك ما ليس تسمع
ولم أسكن الأرض التي تسكنونها — لكيلا يقولوا إنني بك مولع
فلا كبدي تعدي ولاءك رحمة — ولا عندك إقصار ولا فيك مطمع
(8) أبو بكر بن حامد الترمذي، السابق، ص182.

بالنِعم[1]. ومن لم يتحقق في وداد ربه ومحبته جعل مكان الوفاء في المحبة غدراً، ومكان الأُلفة نفاراً. المحبة إخلاص للحبيب وأنس به. وكيف لا يحب الإنسان من لا ينفك عن بِرّه لحظة؟ وكيف يدَّعي الحب من يخالفه؟[2]. المخالفة في الحب نوع من الإيمان. فالحب للصفات وليس للذات. الواصل من اتصل بمحبوبه دون كل شيء سواه. وغاب عن كل شيء سواه. قد يحب الإنسان دون أن يصل[3]. لمّا بذل المحبون مجهودهم في طاعة اللّه عطف عليهم مرَّةً بعد أخرى حتى أحبوه[4]. وهل الإنسان موضع عطف أم صاحب حق؟ أَهْلُ المحبة واقفون مع الحق على مقام. إن تقدموا غرقوا، وإن تأخروا حجبوا[5]. وهو جدل التأخر والتقدم. التأخر غرق، والتقدم مغامرة. والمحب لا يحتشم أو يفزع من الحبيب. الحب استهلاك لا تبقى معه صفة[6]. ومن علم المحبة الليل بمناجاة الجليل، والحنين إلى الغروب شوقاً إلى الخلوة بالمحبوب، ومناجاة القلب سرائر الوجود ومطالعة الغيب[7]. ومثل المحبوب من المحبة مثل الرسول من موسى، ومناجاته تجمع بين مناجاة موسى. وروحانية عيسى. ومن المحبة كتمانها إجلالاً للحبيب وهيبةً له، وتعزيزاً وتعظيماً وحياءً. فأبعد الناس عن اللّه أكثرهم إشارة إليه. وهل يتضمن حب اللّه بغض النفس أو بغض الدنيا بالضرورة؟ وهل يتضمن الوصول إلى الخالق والأنس به ترك المخلوق؟[8]. والحب للرسول ولكن حب الخالق يشغل عنه. وهي بداية

---

(1) لحاني العاذلون فقلت مهلاً ... فإني لا أرى في الحب عارا
وقالوا: قد خلعت فقلت لسنا ... بأول خالع خلع العذارا
بنان محمد الحمال، **طبقات الصوفية**، ص 294.

(2) محمد بن عليان النسوي، السابق، ص417.

(3) أبو عبد اللّه محمد بن خفيف، السابق، ص466.

(4) أبو عثمان المغربي، السابق، ص482.

(5) أبو القاسم النصر أباذي، السابق، ص488.

(6) قالت: لقد سوأتنا في غير منفعة ... بقرعك الباب والحُجَّاب ماهمعوا
ماذا يريبك في الظلماء تطرقنا ... قلت: الصبابة هاجت ذاك والطمعُ
قالت: لعمري لقد خاطرت ذاع جزع ... حتى وصلت فهلّا عاقك الجزعُ
فقلت: ما هو إلا القَتْلُ أو ظَفَرٌ ... فما يزول به عن مهجتي الهلعُ
أبو الحسين الحصري، **طبقات الصوفية**، ص492.

(7) **قوت القلوب**، ج2، 119، 126–127، 132، 143، 155.

(8) «أحببتُ اللّه حتى أبغضتُ نفسي. وأبغضتُ الدنيا حتى أحببتُ اللّه. وتركتُ =

ظهور الرسول كموضوع متميِّز في الحب[1]. ودلال الحبيب مستعار، ظاهر وباطن[2].

ومحبة اللّٰه لعبده ليست مثل محبة الخلق. وهو الفرق بين الحب الإلٰهي والحب الإنساني. الحب الإنساني لطبع أو جنس أو نفع أو صف أو هوى، أو رحم أو تقرُّب. أما الحب الإلٰهي فهو مجرد من هذه المنافع كما هو الحال في الأبيات الشهيرة لرابعة[3]. فالمحبون قسمان: محبون للأفعال ومحبون للذات. الأولون هم العامة والآخرون هم الخاصة.وللمحبين والمحبوبين مقامات ومراتب، محبة العوام لأفعاله، ومحبة الخواص لصفاته، ومحبة خواص الخواص لذاته. ولهم طُرُقهم ومقاماتهم ومخادمهم وأوصافهم واشتياقاتهم[4]. وللمحبة أول وآخر. أولها محبة اللّٰه بالأيادي والمنن، وأعلاها المحبة لوجوب حق اللّٰه[5]. وهناك نوعان من الحب. حب الهوى، وحب الذات. حب الهوى الشغل بالذكر عما سوى اللّٰه. وحب الذات هو كشف الحجاب حتى تتمَّ الرؤية. والصوفي ليس له الحمد فيما معه بل اللّٰه[6]. فهل الصوفي لم يكسب بجهده وهما موهبة من اللّٰه؟. ففي هذه الحالة تكون المحبة حالاً لا مقاماً. وقد تُنسب أبيات مشابهة إلى جارية. فالبِنية الشعرية واحدة مع تغيير حب الوداد بحب الهوى. والحب يملأ القلب ولا يترك فيه

= الدنيا حتى وصلتُ باللّٰه. واخترتُ الخالق على المخلوقين حتى آنستُ له». السابق، ص108.

(1) «واللّٰه أني لأحبه حباً شديداً، ولكن حب الخلق شغلني عن حب المخلوقين». **رابعة**، ص122.

(2) دلال يا حبيبي مستعار ... دلال بعد أن شاب العذار

السابق، ص300.

(3) أحبك حبين: حب الهوى ... وحباً لأنك أهل لذاكا
فأما الذي هو حب الهوى ... فشغلي بذكرك عمن سواكا
وأما الذي أنت أهل له ... فكشفك للحجب حتى أراكا
فلا الحمد في ذا ولا ذاك لي ... ولكن لك الحمد في ذا وذاكا

السابق، ص114.

(4) **رسالة الإخوان**، ص27-53.

(5) **المسترشدين**، ص177-180.

(6) «ما كنت أحب أن في قلبك موضعاً فارغاً لمحبة غيره تبارك اسمه». السابق، ص111، 122.

مكاناً لغير اللّه. وتُؤَوِّلُ رابعة اسمها بأنه ليس لأنها كانت البنت الرابعة في الأُسرة بل لأنها رابعة الكأس والخمر والنديم. الكأس كأس المسرة يديرها النعيم وساقي المدام واحداً تلو الآخر، إذا نظرتَ لا ترى إلاَّه. وإذا حضرت فلا تحضر إلاً معه. تحب جماله ولا تسمع للعاذل. تدمع العيون من الحرقة. ولا تنام من رغبة الوصل[1]. الحب الإلٰهي غير الحب الجسدي. هناك تعارض بينهما عند الصوفي. فهل هما كذلك عند سائر البشر؟ ألا توجد روحانية الجسد؟[2]. الحب الجسدي رمز للحب الإلٰهي. فاللّه محدث الصوفي يبيح له جسده ويؤنسه[3]. فالأنس بالجسم وبالروح. الجسم يؤانس الجسم، والروح يؤانس الروح. المحبة الأصلية هي محبة الذات عينها لذاتها إما للمناسبة بين الذاتي أو الاتحاد بينهما أو حال. يصل إلى درجة الاتحاد[4]. المحبة لذة، ومواضع الحقيقة دهشة.

لا يُعطي اللّه كنوزه إلا لمن أحبه بلسان صادق، وقلب راضٍ، وبدن صابر[5]. وكذلك تصور الإنسان اللّه على صورته ومثاله. يعاتب الخلق بالأرفاق. ويعاتب الحب بالغلظة[6]. مع أن الظاهر يقتضي العكس معاتبة الحبيب بالرفق، والغريب بالغلظة. وقد يعني الصوفية أن الغريب في حاجة إلى رقة في حين أن الحبيب «عشم». وفي المثل «ليس بين المحبين عتاب»، أصلاً، لا رقة ولا غلظة.

---

(1) كأسي وخمري والنديم ثلاثة ... وأنا المشوقة في المحبة رابعة
كأس المسرة والنعيم يديرها ... ساقي المدام على المدى متتابعة
يا عاذلي! إني أحب جماله ... تاللّه ما أذني لعذلك سامعة
كم بت من حُرقي وفرط تعلقي ... أُجري عيوناً من عيوني الدامعة
لا عبرتي ترقى، ولا وصلي له ... يبقى ولا عيني القريحة جامعة
رابعة، ص173–174.

(2) «يا شهواني أطلب شهوانية مثلك». **رابعة**، ص112، 118.

(3) إني جعلتك في الفؤاد محدثي ... وأبحت جسمي من أراد جلوسي
فالجسم مني للجليس مؤنس ... وحبيب قلبي في الفؤاد أنيس
السابق، ص120، 130، 137، 166.

(4) **جامع الأصول**، ج3، ص76.

(5) السابق، ص94.

(6) ولو قلت لي مُتْ مُتُّ سمعاً وطاعة ... وقلت لداعي الموت أهلاً مرحباً
رُويم بن أحمد البغدادي، السابق، ص183–184.

ويأخذ الحبيب قلب المحب ويستحوذ عليه دون أن يستطيع استرداده[1]. وإذا دخل الحب في القلب فإنه لا ينشغل إلاً بالحبيب. ولا يفرح في الدنيا إلاً به. ولا يسر إلاً برؤيته. ويكون في القلب في وصال دائم[2]. إن اللّه تعالى في كل يوم وليلة يقبض روح الحبيب ويستخلفه بأحد خلفائه، ويرحم من يدعي محبته[3]. الغيرة على المحبوب أنه يحبه مثله.

وهناك فرق بين الحب والمحبة. الحب من طرف واحد، والمحبة من طرفين. محبة متبادلة. الحب يقال بين حبيبين، الإنسان والإنسان أو الإنسان واللّه. والمحبة أكثر ما تكون بين الإنسان واللّه. وتكون المحبة مع الجنس والمثال. واللّه على مثال الإنسان. لذلك تقع المحبة المتبادلة. فقد خلق اللّه الإنسان على صورته ومثاله. وكذلك تصور الإنسان اللّه على صورته ومثاله. والحبيب يطالب بالتسليم، والخليل يبادر به[4]. وشجرة المحبة تُسقى بماء الاتفاق والمراقبة والإنذار[5]. ومهما صد المحبوب فإن الحبيب لا يقابل الصد بالصد، ومهما خالف العهد فإنه يبقي عليه. فالوجد هو الذوبان في الوجد. ويتطلب جهداً يزيد على الجهد[6]. ولا يشكو الحبيب من المحبوب. ولا يشير إليه بالإصبع بل إلى

---

(1) كان لي قلب أعيش به ضاع مني في تقلُّبه
رب، فاردده عليَّ فقد ضاق صدري في تطلُّبه
وأغث، مادام بي رمق يا غياث المستغيث به
سحنون الحب، **طبقات الصوفية**، ص197.

(2) وكان فؤادي خالياً مثل حبكم وكان بذكر الخلق يلهو ويخرج
فلما دعا قلبي هواك أجابه فلست أراه عن فنائك مبرح
رُميت ببَين منك إن كنتُ كاذباً أن كنتُ في الدنيا بغيرك أفرح
وإن كان شيء في البلاد بأسرها إذا غبت عن عيني بعيني يَمْلَح
فإن شئت واصلني، وإن شئت لا تصل فلست أرى قلبي لغيرك يصلح
السابق، ص198.

(3) «إن اللّه تعالى في كل يوم وليلة ثلاثمائة وستين لمحة تقبض روح الحبيب من أحبائه إليه. ويستخلف بدله واحداً من خلفائه. ويرحم بنظر إلى حبيبه سبعين ألفاً ممن يدَّعِي محبته». السابق، ص273-274.

(4) أبو الحسن الثوري، **طبقات الصوفية**، ص166.

(5) أبو العباس بن مسروق الطوسي، **طبقات الصوفية**، ص241.

(6) إذا صد من أهوى صددت عن الصد وإن حال من عهدي أقمت على العهد =

الآخرين فيرجع الإصبع إليه[1]. ويلاحظ الحبيب المحبوب بطرف فيه. ويسمع تنهيداته بأذنه. ولا يسكن في نفس الأرض حتى لا يقال إنه يحب الجدار والمحبوب لا يهدي الكبد، ولا يرحم، ولا يمكن الابتعاد عنه ولا مطمع فيه[2]. وبين المحبين لا ستر ولا خفاف بل كشف ومكاشفة، لا بُعد ولا مسافة بل قياد وعناق. ففي لقاء الخل والخليل شفاء[3]. مجانبة السلو على كل حال.

وإذا كان الوصال ذنباً فإن الصوفي يرتكبه. وإذا كان الذنب حب اللّه فإن الصوفي لا يتوب منه[4]. المحبة هي طريق الوصال. وإن لم تتحقق تفشل الخطة كلها[5]. وتؤدي المحبة إلى إسقاط التكاليف. فليس بين المحبين عتاب. اللّه يحب العبد حتى يبلغ درجة أن يقول له «اصنع ما شئت فقد غفرت لك»[6]. فإذا أحب

= في الوجد إلا أن تذوب من الوجد   وتصبح في جهد يزيد على الجهد
السابق، ص271.

(1) أجلك أن أشكو الهوى منك أنني   أجلّك أن توحي إليك الأصابع
وأصرف نظري نحو غيرك عامداً   على أنه بالرغم نحوك راجع
أبو العباس بن عطاء الأمدي، السابق، ص271.

(2) أسير يسير إليه هواه   فيضحي الأسير قتيل الغرام
فلم يبق منه سوي أنه   يقال له عاشق والسلام
لفرط النحول وحر الغليل   وحزن مذنب لطول السقام
طاهر المقدسي، **طبقات الصوفية**، ص276.
وكذّبتُ طرفي فيك والطرف صادق   وأسمعت أذني مثل ما ليس قسم
ولم السكة الأرضية التي تشكونها   لكيلا يقولوا إنني بك مولع
فلا كبدي تعدي ولا لك رحمة   ولا عندك إقصار ولا فيك مطمع

(3) برج الخاء، وفي التلاقي راحة   هل يشتقي خل بغير خليه
أبو إسحق إبرهيم الخواص، السابق، ص285.

(4) يا من يُعدُّ الوصال ذنباً   كيف اعتذاري ولي ذنوب
إن كان ذنبي إليك حبي   فإنني منه لا أتوب
أبو عبد اللّه المغربي، السابق، ص244.

(5) قفي بالديار، فهذه آثارهم   تبكي الأحبة حسرةً وتشوقا
كم قد وقفت بها، أسائل مخبرا   عن أهلها أو صادقا أو مشفقا
فأجابني داعي الهوى في رسمها   فارقت من تهوى قفر الملتقى
أبو محمد الجريري، السابق، ص264.

(6) **قوت القلوب**، جـ2، ص99، 105.

=

اللّه العبد استخدمه واقتطعه ولم يعذبه. لا يوجد سر بين الحبيبين بل الكشف المتبادل[1]. بل تصل المحبة المتبادلة إلى درجة التوحيد بين الاثنين[2]. ومع ذلك لا ترفع المحبة الهيبة، وترفع العبادة عن المحب. إذا دام الشهود وسقطت عنه كلفة التكلف. إذا صفا الحال اشتد الوجد، واستنار السر، واستقامت المحبة، وصفا اليقين، وبقي في الأنس، وشاهد الحق، رفعت عنه العبادات حتى لا يُثقل عليه ولا يتكدر صفوه ﴿طه مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ﴾[3]. وتؤدي المحبة إلى إسقاط التدبير أي إسقاط إرادة العبد وهو معنى العبودية. والإرادة هي مجموع الإتيان والرغبات والشهوات. تريد اللّه، واللّه يريده. فالمحبة المتبادلة إرادة متبادلة. بين الإنسان واللّه[4]. وبقدر ما يحب الإنسان اللّه يحب اللّه الإنسان. ولها علاماتها. وما أكثر من حكايات المحبين وأقوالهم ومكاشفاتهم[5]. تشويش في القلوب يقع من المحبوب.

وعلى قدر حب الإنسان للّه يحبه الخلق. وبقدر خوف الإنسان منه يهابه الخلق، وعلى قدر انشغال الإنسان به ينشغل الخلق بالإنسان. فالعلاقة باللّه لا تنفصل عن العلاقة بالآخرين. فاللّه هو الآخر المطلق. ويتجنب الإنسان محبة العلماء الغافلين، والقراء المداهنين، والمتصوفة الجاهلين[6]. والمحبة إيثار

= كل شيء لك مغفور ... سوى الإعراض عني
قد رحبنا منك ما فا ... ت بقي ما فات مني
السابق، ص115.

(1) أنشد الجنيد:
ومن بعد هذا ما تدق صفاته ... وما كتمه أحظى لديه وأعدل
إلا أن للرحمن سرا يسره ... إلى أهله في السر والستر أجمل
السابق، ص117.

(2) فمنك بدا حب بعز تمازجا ... بحار وصال كنت أنت وصلته
ظهرت لمن أبقيت بعد فنائه ... فكان بلا كون لأنك كنته
السابق، ص117.

(3) **مشرب الأورواح**، ص242.

(4) معنى العبودية عند البسطامي: «إذا لم يكن له إرادة... تكون إرادته وتمنيه وشهوته داخلة في محبة ربه. ولا تتقدم له إرادة في شيء أبداً حتى يعلم إرادة اللّه ومحبته فيه». **شطحات**، ص109.

(5) «بيان محبة اللّه للعبد ومعناها». **الإحياء**، ج4، ص318-333، 345-350.

(6) يحيى بن معاذ، السابق، ص113.

المحبوب على الكل[1]. فالحب توحيد للآخرين في واحد، والحزن على فراق الأحبة. والفراق أمرُّ من الحنظل[2]. واللَّه في محبة العبد ما دام العبد في محبة أخيه طبقاً للحديث المشهور «اللَّه في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه». ينظر اللَّه في قلوب أوليائه لعله يجد أحداً يحبه ممن يحبونه[3]. ومحبة اللَّه للمحبين جزء من مقام المحبة[4]. يكون في البداية، ويتطلب إفشاء الأسرار المحبة متبادلة بين الإنسان واللَّه. فالحق يوصف بأنه يحب العبد، والعبد يوصف بأنه يحب الرب[5]. محبة العبد للرب طاعة، ومحبة الرب للعبد إنعامه[6]. المحبة المتبادلة ليست فقط بين الإنسان واللَّه، ولكنها أيضاً بين الإنسان والإنسان وبين الإنسان والناس[7]. ليست فقط رأسية بل أيضاً أُفقية[8]. فالمحب يكون بين الناس مقبولاً على عكس المرائي. ويتحول حب الأزواج إلى حب الإخوان[9]. الزواج ضروري لمن له الخيار. واللَّه هو الذي يختار[10]. وثلاثة أشياء تمنع من الزواج: عدم

---

(1) أبو سعيد بن الأعرابي، السابق، ص428.

(2) يقولون: ثكلي، ومن لم يذق فراق الأحبة لم يثكل
لقد جرعتني ليالي الفراق شراباً أمرُّ من الحنظل
جعفر بن محمد الخلدي، السابق، ص437.

(3) «أحب أولياء للَّه ليحبوك. فإن اللَّه تبارك وتعالى ينظر إلى قلوب أوليائه في كل يوم وليلة سبعين مرة. فلعله أن ينظر إلى اسمك في قلب وليه فيغفر لك». **شطحات**، ص99، 115.

(4) **مشرب الأرواح**، ص113.

(5) **القشيرية**، ص144.

(6) **عوارف المعارف**، جـ4، ص387-388.

(7) الحب ينسب للإنسان واللَّه بنسبة ليس يدري علمنا ما هي
الفتوحات، جـ2، ص320.

(8) **مشرب الأرواح**، ص241-242.

(9) «لست أحبك حب الأزواج. وإنما أحبك حب الإخوان. وإنما رغبت فيك رغبة في ضمتك. وإنما كنت أتمنى أن يأكل مالي مثلك ومثل إخوانك». السابق، ص130، 177، 182». «لست أستحل أن أمنعك نفسي وغيري. إذهب فتزوج». السابق، ص130، «إذهب بقوتك إلى أهلك». السابق، ص130، 167-177، «باللَّه لا تفطرني اليوم». السابق، ص131، 177، «أسألك باللَّه لما وهبتني للَّه الليلة». السابق، ص131، 140، 166، 177.

(10) «الزواج ضروري لمن له الخيار. أما أنا فلا خيار لي من في نفسي. إني لربي وفي أوامره، ولا قيمة لشخص». **رابعة**، ص150.

الطهارة مع الإيمان بعد الموت، والشك في عدم إعطاء الكتاب باليمين، والحيرة في أي مكان يكون المصير المشأمة أو الميمنة[1]. ولا يحتاج الإنسان إلى زوج وهو في كرب وقلق على مصيره منذ سؤال المَلَكين حتى الجزاء[2]. وكانت رابعة تساعد الأزواج على الباه. وتتصف حتى يتزوج شاب أو يتسرى وتستغفر له. وتطبخ اللحم وتعطيه لزوج شاب لأنه عهد بغرس ويحتاج إليه[3].

والمحبة الموافقة في جميع الأحوال بين المحبين إلى درجة التماهي في الإرادتين. الموافقة أصل المحبة[4]. والمحبة أصلها الموافقة. والمحب يؤثر رضا محبوبه في كل شيء[5]. وهذه هي التبعية. فبين المحب والمحبوب علاقة خيالية مستقلة مثل الوفاء والإخلاص. ومن ثم تكون المخالفة أحياناً أدل على الحب من الموافقة. والموافقة شرط للصحبة ضد الملامتية، فالحب لمن يحب يطيع. الحب مبايعة[6]. والمحبة إشارة ودعوى وحقيقة، أن يحب الإنسان ما يحب اللّه ويكره ما يكرهه[7]. وهو ما يقتضي المعرفة. وينال الإنسان حب اللّه ببغض ما يبغضه، الدنيا والنفس[8]. فالمحبة تحدد سلباً. ولماذا الدنيا والنفس موضوعان للبغض وهي الإنسان في العالم؟ ويغلب على المحبة لغة الصد والهجر والحزن والولع والفراق أي لوعة الحب وكما يبدو في الأغاني الشعبية وليس الإباء والشمم[9]. وتنتهي

(1) السابق، ص150-151.
(2) «فإذا كان الأمر كذلك وأنا في قلقل وكرب من هذه الأربعة فكيف أحتاج إلى الزوج وأتفرغ له». السابق، ص163.
(3) السابق، ص180.
(4) محمد بن علي الترمذي، السابق، ص219.
(5) أبو بكر بن يزدانيار، **طبقات الصوفية**، ص408.
(6) «ليس للمحب وحبيبه بين، وإنما هو نطق عن شوق، ووصف عن ذوق. فمن ذاق عرف. ومن وصف فما اتصف. وكيف تصف شيئاً أنت في حضرته غائب. وبوجوده دائب، وبشهوده ذاهب. وبصحوك منه سكران. وبفراغك له ملآن. وبسرورك له ولهان. فالهيبة تخرس اللسان عن الأخبار. والحيرة توقف الجبان عن الإظهار، والنيرة تحجب الأبصار عن الأغيار. والدهشة تعقل العقول عن الإقرار خمائم إلا دهشة دائمة، وحيرة لازمة، وقلوب هائمة، وأسرار كاتمة، وأحياء من السقم غير سالمة، والمحبة بصولتها الصارمة، في القلوب حاكمة». **رابعة**، ص172-173.
(7) الحنبة، السابق، ص163.
(8) أبو محمد المرتعشي، السابق، ص351.
(9) إلى كم الصد في كل ساعة ولم لا تلين القطبية والهجرا =

المحبة إلى التوحيد بين المحببن[1]. وثمار المحبين هي القطب والأوتاد السبعة والأبدال الأربعون. وتنتهي المحبة بالسكون إلى الأشياء، والفرح بالموجودات. وتنتهي الحمية والفورة والغليان مما يؤدي إلى نهاية الطريق. ولماذا يكون هوى الإنسان مخالفاً لإرادة اللّه بالضرورة. والفطرة خيرة. فالاتفاق أولى من الخلاف؟ وهل تطلب محبة اللّه بالضرورة بغض النفس؟[2]. و«إغراق العبد في حب الرب لا يشغله شيء سواه»[3]. ومن يحب اللّه يرزقه من حيث لا يحتسب. الحب إذن يؤدي إلى التوكل وعدم السعي[4]. فإذا ما أنارت النجوم، ونامت العيون، وغلقت الأبواب، وخلا كل حبيب بحبيبه، فهذا هو مقام المحب. وإذا أدبر الليل، وأسفر النهار فهل يقبل اللّه الليلة فيهنأ الصوفي أم يردها عليه فيحزن؟ ولو طرده اللّه عن بابه لِما تركه لمحبته له ورجاؤه وشوقه وزاده، وأمنه وسلامته. لأنه سروره ونيَّته وعماده وأنيسه وعدته ومراده. هو روح الفؤاد. ولله على الصوفي منن وعطايا ونِعم وأيادٍ، حبه للّه بغيته بعد أن تمكن في فؤاده. يكفيه رضاه عنه حتى يكون سعيداً[5]. ليس للمحب سوى المحبوب. هو الذي بيده الرحمة إذا أتاه الحبيب.

= رويدك إن الدهر فيه كفاية ... لتفريق ذات البين فارتعبي الدهرا

السابق، ص364. وهو الفرق بين أغاني أم كلثوم وأغاني فيروز.

(1) ظهرت لمن أقنيت بعد بقائه ... فصار بلا كون لأنك كنته

(2) «أطلب هواه في طلاق هواك، ومحبته في بغض نفسك، فإنه معروف عند مخالفة الهوى، محبوب عند بعض النفس». السابق، ص130.

(3) «إلٰهي أغرقني في حبك حتى لا يشغلني شيء عنك». السابق، ص153.

(4) «إن اللّه يعطي الطعام لمن لا يركعون له. فكيف لا يعطيه من يصلي قلبه حباً لجلاله؟ وهو يرزق من كسبه، ألا يرزق من يحبه»؟ **رابعة**، ص154.

(5) «يا إلٰهي! هذ الليل هو أدبر، وهذا النهار قد أسفر. فليت شعري، أقبلت مني ليلتي فأهنأ أم رددتها عليَّ فأعزى؟ فوعزتك هذا دأبي ما أحييتني وأعنتني. وعزتك لو طردتني عن بابك ما برحت عنه لِما وقع في قلبي من محبتك».

يا سروري ومنيتي وعمادي ... وأنيس وعُدتي ومرادي
أنت روح الفؤاد، أنت رجائي ... أنت لي مؤنس، وشوقك زادي
أنت لولاك، يا حياتي وأنسي ... ما تشتت في فسيح البلاد
كم بدت منة، وكم لك عندي ... من عطاء ونعمة وأيادي
حبك الآن بغيتي ونسيمي ... وجلاء لعين قلبي الصادي
ليس لي عنك ما حييت براح ... أنت مني ممكَّن في السواد =

ويأبى قلبه أن يحب سواه[1]. راحة الحبيب في خلوته ومحبوبه في حضرته. لا يجد عوضاً عن محبته مع أن هواه محنته. هو محرابه يشاهد فيه حسنه. قد يموت في الوجد إن غاب الرضا. المحبوب هو طبيب القلب، كل المنى. بوصله يتحقق الشفاء. هو السرور والحياة، النشأة والنشوة، هجر الخلق بسببه[2]. وقلوب العاشقين هائمة في ميدان المحبة. قامت قيامة عشقهم. فقامت نفوسهم على قدوم التدلل إما إلى جنة الوصل أو إلى نار الصد[3]. ولا يوجد فرق بين المحب والحبيب بل نطق عن شوق، ووصف عن ذوق. فمن ذاق عرف. ومن وصف فما اتصف. ولا يمكن وصف شيء غائب، ووجوده دائب، وشهوده ذاهب، سُكْر بصحو، وفراغه ملاء، وسروره وَلَه. وتُخرس الهيبة اللسان عن الإخبار. وتُوقف الحيرة الجبان عن الإظهار. تحجب النيرة الأبصار عن الأغيار. وتعقل الدهشة العقول عن الإقرار. دهشة دائمة، وحيرة لازمة، وقلوب هائمة، وأسرار كاتمة، وأجساد من السقم غير سالمة، ودولة المحبة صارمة، وفي القلوب حاكمة[4].

= إن تكن راضياً عليَّ فإني يا منى القلب، قد بدا إسعادي
السابق، ص161-162.

(1) يا حبيب القلب ما لي سواكا فأرحم اليوم مذنبا قد أتاكا
يا رجائي وراحتي وسروري قد أبى القلب أن يحب سواكا
رابعة، ص162.

(2) راحتي يا إخوتي، في خلوتي وحبيبي دائماً في حضرتي
لم أجد لي عن هواه عوضاً وهواه في البرايا محنتي
حيثما كنت أشاهد حسنه فهو محرابي إليه قِبلتي
إن أمت وجداً وما ثم رضا وأتِعناني في الورى، واشقوتي
يا طبيب القلب يا كُل المنى جُد بوصل منك يشفي مهجتي
يا سروري وحياتي دائماً نشأتي فيك وأيضاً نشوتي
قد هجرتُ الخلق جمعاً أرتجي معك وصلاً، فهو أقصى منيتي
السابق، ص163.

(3) وا رحمة للعاشقين قلوبهم في نيَّة ميدان المحبة هائمة
قامت قيامة عشقهم فنفوسهم أبداً على قدم التدلل قائمة
إما إلى جنات وصل دائم أو نار صد للقلوب ملازمة
السابق، ص173.

(4) وليس للمحب وحبيبه بين. وإنما هو نطق عن شوق. ووصف عن ذوق. فمن ذاق عرف. ومن وصف فما اتصف. وكيف تصف شيئاً أنت في حضرته غائب. وبوجوده دائب، =

وحقيقة المحبة القيام مع المحبوب بخلع أوصافه والاتصاف بصفاته[1]. والحب هو الموضوع الرئيسي في ديوان الحلاج خليفة رابعة على ما توفر من نصوص. وهو الحب الشائع في الأغاني الشعبية مثل ذل الحبيب، ورجاء العفو من المحبوب. وهو رفض هجر المحبوب إلا بعد أمل اللقاء. ويسكن الأحباب بقرب اللّه ويطيب لهم النعيم وحسن النضارة[2]. وحب الحبيب وسط الحشا. لو شاء مشى على الخوف[3]. وما أحسن عين تفيض من رؤية الحبيب. يملك القلب ولا يكون فيه مكان لغيره[4]. الحبيب هو مراد المحب. وهو شهيد للحب بعد أن يفنى في الحبيب[5]. يُسكر اللّه بحبه، ويحير في قربه. وهو المتفرد بالقدم، التوحد بالصدق. قيامه بالعدل لا بالاعتدال. وحضوره بالعلم لا بالانتقال. وغيبته بالاحتجاب لا بالارتحال. لا يظلّله شيء فوقه. ولا يقلّه شيء تحته ولا أمامه ليجده، ولا وراءه ليدركه. ويدعو الحلاج «ألا يرد إلى ذاتها بعد اختطافها ولا إلى نفسها بعد الاحتجاب عنها». وهذا أول مقام المريدين. بل هو أول مقام المسلمين. بل هو أول مقام الكافرين. فلا فرق بين المريد والمسلم والكافر[6]. محبة أهل

= وبشهوده ذاهب. وبصحوك منه سكران. وبفراغك له ملآن. وبسرورك له ولهان. فالهيبة تُخرس اللسان عن الأخبار. والحيرة توقف الجبان عن الإظهار. والنبرة تحجب الأبصار عن الأغيار. والدهشة تعقل العقول عن الإقرار. فما ثمَّ إلا دهشة دائمة، وحيرة لازمة، وقلوب هائمة، وأسرار كاتمة، وأجساد من السقم غير سالمة، والمحبة بدولتها الصارمة، في القلوب حاكمة. **رابعة**، ص172-173.

(1) ﴿فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾، السابق، ص112.

(2) ويسكن أحبابه قربه بطيب النعيم وحسن النضارة
الديوان، ص309.

(3) إلى حبيب حبه وسط الحشا لو يشاء يمشي على خدي مشى
السابق، ص311.

(4) طوبى لعين محب حبوتها من رؤاك
وليس في القلب والـ ب موضع لسواك
السابق، ص317.

(5) يا حبيبي أنت سؤلي قد تراني في مكاني...
أنا في الحب قتيل ومع الأحباب فاني
السابق، ص326-327.

(6) «يا من أسكرني بحبه، وحيرني في ميادين قربه. أنت المنفرد بالقدم، والمتوحد بالقيام =

المحبة للّه دليل على محبته، وإرادتهم دليل على إرادته ومشيئتهم دليل على مشيئته. فكل شيء بعلمه وقدرته وإرادته[1].

استحسان الكون على العموم دليل على محبة المحبة. واستحسانه على الخصوص يؤدي إلى فتن وظلمات[2]. فالمحبة محبة العالم وليس محبة شيء فيه. وبين المحبين لا شر ولا إخفاق بل كشف ومكاشفة، لا بُعد ولا مسافة بل علاقة وعناق. ففي لقاء الخل بالخليل شفاء[3]. حقيقة المحبة القيام مع المحبوب بخلع أوصافه والاتصاف بصفاته[4]. ويُسمَّى كله الحب الإلٰهي. وهو حب للنفس وحب للآخر أو حب لكليهما، أو حب لأحدهما. وينقسم إلى حب روحاني وحب طبيعي، طبيعي وعنصري، ولا يوجد ترك لمقام المحبة كما هو الحال في سائر المقامات. فالمحبة لا تُترك. وهي غاية المرام.

ب ـ **الشوق**. وللمحبة أسماء عديدة: العشق، والود، والشوق، والهوى، والوجود، والخُلَّة، والشجن، والصبا، والصبابة[5]. المحبة أعلى من الشوق لأن الشوق يتولد منها، والشوق إلى اللّه مقدِّمة للحب والطريق إليه[6]. الشوق من المحبة كالزهد من التوبة. إذا استقرت التوبة ظهر الزهد، وإذا استقرت المحبة ظهر الشوق[7]. الحب يوجب الشوق، والشوق يوجب الأنس، ومن فَقَدهما فقد

= على مقعد الصدق. قيامك بالعدل لا بالاعتدال. وبُعدك بالعزل لا بالاعتزال. وحضورك بالعلم لا بالانتقال. وغيبتك بالاحتجاب لا بالارتجال. فلا شيء فوقك يظلك. ولا شيء تحتك فيقلك. ولا أمامك شيء فيحملك، ولا وراءك شيء فيدركك. أسألك... ألا تردني إليك بعدما اختطفتني مني. ولا تريني نفسي بعدما حجبته عني..». **أخبار**، ص14-15.

(1) «محبة أهل محبتي هي الدليل على محبتي. وإرادة أهل ولايتي هي الدليل على إرادتي، ومشيئة أهل معرفتي هي الدليل على مشيئتي، وكل شيء بعلمي وقدرتي وإرادتي». السابق، ص272.

(2) أبو عمر الدمشقي، السابق، ص279.

(3) برج الخفاء، وفي التلاقي راحة هل يشتقي خل بغير خليله
أبو إسحق إبراهيم الخواص، السابق، ص285.

(4) ﴿فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾، السابق، ص112.

(5) **الفتوحات**، ج2، ص323، 363-364. ابن القيم: **محبة اللّه تعالى**، ص195-386.

(6) السابق، ص150.

(7) **الإحياء**، ج4، ص314-318.

الحب[1]. والشوق درجة أشد من المحبة[2]. فالشوق المتزايد في القلوب يغلب على الصوفية لجلاله وجماله. وينتهون إلى مشاهدة وجودية، فلا يبقى لهم سواه. فلو كان على مشيئة له يكون هو المشتاق إليهم إلى أن يعود إليهم الغطاء فيدور الشوق إليهم[3]. الشوق أجلُّ مقام للعارف إذا تحقق فيه[4]. وفي المشاهدة مقامان: مقام شوق ومقام أنس. الأول خلق وانزعاج وحزن وانكسار. والثاني قرب ومكاشفة وحضور وسرور واستبشار[5]. والشوق مُعلن لا يحتاج إلى سؤال عنه[6]. للخلق كلهم مقام الشوق وليس الاشتياق. ومن دخل في الاشتياق هام فيه حتى لا يرى أثر ولا قرار[7]. وأهل الاشتياق على ثلاثة أحوال: الأول للعامة. الاشتياق إلى وعد اللّه لأوليائه من التواب والكرامة العمل والرضوان. والثاني للخاصة، الاشتياق للمحبوب من شدة المحبة، والثالث لخاصة الخاصة، مشاهدة قرب السيد وحضوره الدائم، والاشتياق صور نيران الشوق من نور الصدق، أول الشوق المحبة، وأوسطه الصبابة، وآخره الاشتياق، ومن الدلال لا تأرق عين باشتياق ولا قلب يغلق بذكر[8]. علامة الشوق فطام الجوارح عن الشهوات. حب الموت مع الراحة[9]. يحس المشتاقون الموت عند وروده فقد كشف لهم عن روح الوصول أحلى من الشهد. الشوق لهيب ينشأ بين الحشا، يسنح عن الفرقة. فإذا وقع اللقاء طفى، وإذا كان الغالب على الأسرار مشاهدة المحبوب لم يطرقها الشوق. ومن

---

(1) أبو حمزة البغدادي البزاز، السابق، ص296.

(2) وهو نفس التميُّز في اللغات الأجنبية بين ÈPos,âyanm. أبو الحسين بن الصائغ الدينوري، **طبقات الصوفية**، ص314-315. وهو معنى المثل الشعبي «الحب بهدلة».

(3) لو أشرب السلوى ما سليت ... ما بي غنى عنك وإن غنيت
الولاية، ص260.

(4) **القشيرية**، ص149.

(5) الأنس باللّه لا يحويه بطال ... وليس يدركه بالحول محتال
والإنس رجال كلهم نجب ... وكلهم صفوة للّه عمال

(6) يا واهبي السؤال أما ... ترون شوقي معلنا
الديوان، ص332.

(7) النصر أباذي، **القشيرية**، ص148.

(8) فلا عين يؤرقها اشتياق ... ولا قلب يقلقه إذكار
السابق، ص293.

(9) **القشيرية**، ص148.

تجرع كأس الشوق يهيم هياماً لا يفيق إلا عند المشاهدة واللقاء[1]. الشوق إلى آثار المحبوب والفناء بمشاهدته[2]. والشوق نار تحت الحب والعشق. هو الدافع الذي يحرك الحبيب نحو المحبوب، والعاشق نحو المعشوق لكنه أيضاً يؤدي إلى الذل، إذ ضعفت الإرادة ووهنت القدرة واشتد الوَلَه وليس الإباء والشمم والعزة والكرامة[3]. هو الذي يدفع الحبيب إلى الاندفاع نحو المحبوب[4]. الشوق إلى حاضر وغائب[5]. هو ارتياح القلوب بالوجد ومحبة اللقاء والقرب[6]. قلوب المشتاقين منورة بنور اللّه[7]. وقد لا يخاف الإنسان لكنه يستحيل ألا يشتاق[8]. من اشتاق إلى اللّه لاشتاق إليه كل شيء[9]. فالشوق إحالة متبادلة بين الإنسان والعالم. يشتاق المشتاق إلى الأشياء، والأشياء تشتاق إليه[10].

وهو مذكور في القرآن والحديث. شوق إلى لقاء اللّه والنظر إليه ولقاء المحبوب[11]. هيمان القلب عند ذكر المحبوب. نار أشعلها اللّه في قلوب الأولياء لحرق ما فيها من الخواطر والإرادات والعوارض والحاجات. هو متعة دون ضرر[12]. هو الملل من المحبة والهيام باللّه اشتياقاً[13]. وقد يصبح الاشتياق مقاماً مستقلاً. وهو نفت للروح الهائمة في جريانها في سُرادق التجريد، ويذهب

---

(1) السابق، ص406.

(2) رُويْم بن أحمد البغدادي، السابق، ص184.

(3) كبد الحقائق نار الشوق تلتهب ... عن الحقيقة إن باتوا وإن ناءوا
فلو بغير اقتدار عندما ولهوا ... إن الأعز إذا اشتاقوا أذلاء
الديوان، ص288.

(4) من أحب الحبيب طار إليه ... اشتياقاً إلى لقاء الحبيب
السابق، ص293.

(5) السابق، ص149.

(6) ابن خفيف، السابق، ص149.

(7) السابق، ص149.

(8) بشر الحافي، **طبقات الصوفية**، ص44.

(9) السرقسطي، السابق، ص149.

(10) السابق، ص150.

(11) **اللمع**، ص94-95.

(12) هو رأي الجريري.

(13) هو رأي أبي سعيد الخراز.

الشوق في الشوق من وجدان المشوق في الفقد[1]. فالشوق مرحلة إلى مرحلة أبعد.

والذِكر يؤدي إلى الشوق، والشوق إلى القلق. كما أن الغفلة عنه تؤدي إلى أحزان وأوجاع[2]. ويطير القلب بريش الشوق كالمركب وسط الرياح[3]. والشوق لا نهاية له ولا وعد بالوصول إلى المشوق[4]. ومن كثرة الشوق في الحب تتلف المهجة[5]. ولم يزاد اللفظ في القرآن الكريم.

جـ ـ **العشق**. وهو لفظ من نفس الحقل الدلالي للمحبة مثل الشوق. وهو دفع الحب إلى حده الأقصى[6]. فالعشق قديم لا يتعلّق بموضوع أو شخص مثل الحبيب بل هو سر الحركة في الكون، بل هو سر الخلق والبعث، البداية والنهاية. وقتلى العشق أحياء. العشق مجاوزة الصوفي المحبة. العشق موت[7]. وإذا كانت المحبة نوراً فالعشق نار. يتلوّن ويبدو بكل صفة. يلتهب ويتشفع، ظهر وباطن. وركعتان في العشق لا يصح وضوؤهما إلا بالدم[8]. ومدامع العشاق من نار وماء، نار العشق وماء الدمع[9]. ولو حلف العشاق أنهم ماتوا قتلى من الحب ما حنثوا

---

(1) السابق، ص128.

(2) إذا ذكرتك كاد الشوق يقلقني … وغفلتي عنك أحزان وأوجاع
السابق، ص313.

(3) وطار قلبي بريش شوق … مركب في رياح عزمي
السابق، ص321.

(4) عجبت أني أموت شوقاً … وأنت -يا سيدي- تعدمني
السابق، ص329.

(5) أتلفت فيه مهجتي … وصار شوقي فيه دينا
السابق، ص332.

(6) العشق في أزل الأزل من قدم … فيه منه يبدو فيه إبداء
العشق لا حدث إذا كان هو صفة … من الصفات لمن قتلاه أحياء
الديوان، ص288.

(7) القشيرية ص145.
من مات عشقاً مات هكذا … لا خير في عشق بلا موت
يحيى بن معاذ، **القشيرية**، ص147.

(8) **الولاية**، ص244.

(9) لولا مدامع العشاق ولوعتهم … لبان في الناس عز الماء والنار =

في طعنهم[1]. العشق هو خطاب عام، خروج نطق اللَّه عن كل شيء في وقت المراقبة للحاضر[2]. قد يغلو العاشق إذا ظهرت عليه بعض أسرار التَّوحيد. في العشق. الغلو في الكلام حوَّله الحال على العلم والرسوم. وهي الشطحات[3]. ويصل العشاق إلى درجة عالية من السعادة[4]. فالعشاق لا يؤاخذون بأقوالهم[5]. وتتجلى الحقيقة للعاشق إذا استقرت في العشق وذاب في الشوق والتجلي ظهور وجود القديم لبصائر الأسرار[6].

وأصل العشق على ثلاث مراتب: العشق الإنساني، والعشق الروحاني، والعشق الرباني، أول العشق ووسطه ونهايته. لذلك كان العشق انجذاب نور ومقود بنعت الشوق إلى معادن القدس[7].

الإنسان عاشق على شقاوته. فالعشق ليس موضوعاً بل ذاتاً، في العاشق وليس في المعشوق. العشق للنفس ثم عشق من يعشقها[8]. وهذه هي النرجسية. وقد تؤدي رقة الطبع إلى رعونة العشق. وينتج ذلك من مباشرة نور الجمال في قلبه[9]. ويتواضع المعشوق للعاشق. وهو مكر أشبه بالحقيقة من أجل تطييب قلب العاشق[10]. ولم يرد لفظ العشق في القرآن الكريم.

د ـ الهوى والشجن والخُلَّة والصبابة. وقد يبطر الصوفي بنعمة الهوى فتدركه

= فكل نار فمِن أنفاسهم قدحت وكل ماء فمِن دمع لهم جاري
أبو إسحق إبراهيم بن المولد، السابق، ص412.

(1) واللَّه لو حلف العشاق أنهم موتى من الحب أو قتلى لما حنثوا
السابق، ص296.

(2) **مشرب الأرواح**، ص132.

(3) السابق، ص136.

(4) «إلٰهي! دعني أرى مثلاً على درجة السعادة التي يصل إليها هؤلاء العشاق». السابق، ص146-147.

(5) **القشيرية**، ص148.

(6) السابق، ص142.

(7) السابق، ص146-147.

(8) أبو عبد اللَّه محمد بن منازل، **طبقات الصوفية**، ص368-369.

(9) **مشرب الأوراح**، ص290.

(10) السابق، ص299.

عقوبة البطر. فالهوى ميل النفس إلى مقتضيات الطبع والإعراض عن الجهة العلوية بالتوجه إلى الجهة السفلية. وهو معنى قدحي للهوى بمعنى المحبة[1]. الهوى كالموج يرفع صاحبه ويحطّه. ثم يسيِّره في مكان ليس له شط. ومع ذلك لا يخون[2]. هو مثل الهواء يسكن ويتحرك[3]. وقد يكون مقاماً مستقلاً، مقام الاحتجاب بالهوى[4]. ومن عرف هواه عرف مناه. قد يؤدي إلى البعاد وإلى خرق العقد بين المحبين. فليست النهاية سعيدة دائماً. وقد لا يكون هناك تعريف مستقل للمحبين لكن الدَّنِف من احترق في الأشجان ومُنع من بث الشكوى[5].

ومن الأسماء «الخُلَّة». ومنها خليل اللَّه. فالصداقة درجة عالية من المحبة. وتعني لفظاً الاختراق من خلال أي سريان الحب في الجسد[6]. وهي تحقق العبد بصفات الحق بحيث يتخلله ولا يخل منه فيكون العبد مرآة للحق[7]. والخلة عامة وخاصة. العامة، ما يتخلل كل شيء. والخاصة، ظهور العبد بصفات الخلق. والخلة الكاملة هي المناسبة الذاتية التي تقتضي التحقق بصفات الحق[8]. والصبا مثل الصبابة من أسماء المحبة[9]. وهو ما يأتي من الريح من الشرق. والمقصود قبول الروحانيات. والهوى والشجن والخلة والصبابة ألفاظ في الشعر وليست في القرآن.

10 ـ العبودية والحرية. ولا يُذكران ضمن المقامات أو الأحوال بل مجرد

---

(1) **اصطلاحات الصوفية**، ص46.

(2) قد كنت في نعمة الهوى بطر ... فأدركتني عقوبة البطرا
الديوان، ص306.

(3) فني النوى عهد الهوى
فكن هواء في الهوى ... من الهوى قد كمنا..
ينقضها عهد الهوى ... وما من المهيمنا
السابق، ص333.

(4) **مشرب الأرواح**، ص23-24.

(5) أبو عبد اللَّه محمد بن خفيف، **طبقات الصوفية**، ص466.

(6) **الفتوحات**، ج2، ص362-364.

(7) **اصطلاحات الصوفية**، ص161.

(8) **لطائف الأعلام**، ج2، ص369-370.

(9) السابق، ج1، ص457-458.

لفظين أو مصطلحين دون وضعهما في نسق. تبدو العبودية مقاماً، والحرية المقابل لها. وتبدو العبودية والحرية حالَيْن نظراً لازدواجية المصطلح. وتبدو العبودية أحياناً ثالث المقامات[1]. ومن خرج من مقام العبودية صنع به ما يُصنع بالآبق[2]. ولا يقال إن العبودية أو الحرية مقام أو حال ولكنها كذلك. العبودية هي خلو الإنسان من أي ملك، وأنه لا يملك لنفس ضرًا ونفعاً مثل العبد تماماً لا فرق بين العبودية الدينية والعبودية السياسية والعبودية الاجتماعية[3]. في الحرية تمام العبودية، وفي تحقيق العبودية تمام الحرية. وهو ما يثير الاشتباه والشك. والعبودية مقام. وبالرغم من أنه لفظ إيجابي في التصوف إلا أنه لفظ سلبي في اللغة المتداولة. فمن مِن المعاصرين يريد أن يكون عبداً بعد إلغاء الرق وبعد حركات التحرر الوطني؟ ومن يرضى تسمية الإنسان عبداً؟ إن كان متداولاً في التراث القديم على نحو إيجابي في مقابل الرب إلا أنه لفظ سلبي في المعنى التداولي المعاصر. فالعبد هو الأسود، الخادم، النوبي، السوداني، الأفريقي. دار العبودية الرضا، والصبر بابه، والتفويض بيته[4]. ليست العبودية مقاماً دائماً بل تسقط في مقام الهوية. فالهوية في العارف مقتضى فناء الرسوم فيه[5].

العبودية ترك التدبير والاختيار[6]. هي رفض الاختيار بصدق الافتخار. هي الرجوع إلى اللّه في كل شيء على حد الاضطرار. هي اضطرار لا اختيار فيه[7]. ثم تأتي بعد ذلك لحظة تمرد وعصيان. العبودية أتمُّ من العبادة، والعبودة أتمُّ من العبودية. العبادة للعوام من المؤمنين، والعبودية للخواص، والعبودة لخاصة الخواص[8]. العبادة لمن له علم اليقين، والعبودية لمن له عين اليقين، والعبودة لمن له حق اليقين، العبادة لأصحاب المجاهدات، والعبودية لأرباب المكابدات،

---

(1) **عوراف المعارف**، جـ4، ص302.
(2) أبو بكر الوراق، السابق، ص332.
(3) المحاسبي، **طبقات الصوفية**، ص59.
(4) السابق، ص92.
(5) **مشرب الأرواح**، ص303.
(6) **التستري**، السابق، ص332.
(7) عبد اللّه بن محمد بن منازل، **طبقات الصوفية**، ص368-369، 390.
(8) أبو علي الدقاق، **القشيرية**، ص91.

والعبودة صفة لأهل المشاهدات، من لم يدَّخر من نفسه فهو صاحب عبادة. ومن لم يضمن على قلبه فهو صاحب عبودية. ومن لم يبخل عليه بروحه فهو صاحب عبودة[1]. وتظهر جميع صفات العبودية في الروح[2]. العبودية اتحاد الروح بالصورة واكتمال العقل في القلب[3]. وهل العبودية وجدان لذيذ وخضوع الملكوت على بساطك الجبروت؟[4]. وهل لابد للعبد من الوصول إلى مقام القهر؟[5].

وقد تفضل العبودية وكيفية ترسيخها دون التحول منها الحرية. فالعبودية مكتفية بذاتها[6]. والعبودة صفة من شاهد نفسه لربه[7]. ومن يدَّعي الجمع بابتلاء الحق يلزم نفسه علل العبودية. فلا جمع مع الحق دون العبودية[8].

أبناء الدنيا تخذلهم الإماء والعبيد، وأبناء الآخرة يخذلهم الأبرار والإصرار. والإماء والعبيد في الدنيا للتحرر. والأحرار في الآخرة لا يكونوا عبيداً لأحد[9]. العبودية ترك مال الإنسان والالتزام بما أُمر به أي انسلاخ الإنسان عن العالم ثم تحويله إلى آله للتنفيذ[10]. ولا يكون الإنسان على الحقيقة عبد اللَّه. ويظل شيء فيه مسترق. ومادامت هناك بقية من عبودية فلا يمكن الوصول إلى الحرية المطلقة. العبودية للَّه تحرُر مما سواه. ومع ذلك، لماذا لا يكون الإنسان حراً؟ والحرية في الموقف الإنساني. ولماذا يمرُّ التحرر من الغير بالعبودية له؟ ألا يكون تحرراً منقوصاً؟ ومن جهل أوصاف العبودية فهو بنعوت الربانية أجهل[11]. فمعرفة الإنسان تقود إلى معرفة اللَّه. مقام العبودية ترك التدبير[12]. وبطبيعة الحال ترك

(1) السابق، ص91.
(2) **مشرب الأرواح**، ص13.
(3) السابق، ص21.
(4) السابق، ص21-22.
(5) السابق، ص22.
(6) **طهارة القلوب**، ص181-190.
(7) **لطائف الأعلام**، ص746.
(8) البسطامي، السابق، ص70.
(9) يحيى بن معاذ، السابق، ص114.
(10) أبو حفص النيسابوري، السابق، ص121.
(11) محمد بن علي الترمذي، السابق، ص219.
(12) **التستري**، ص327.

التدبير لمصلحة السيد. فالعبد ليس حراً. ويسهُل بعد ذلك استبدال الرب بالسيد نظراً لأن البِنية النفسية والوظيفة الاجتماعية واحدة. العبودية ترك الاختيار فيما يبدو من الأقدار. من علاماتها ترك التدبير وشهود التقدير(1).

وادعاء العبودية مع وجود مرادٍ باقٍ كذب. وتصح العبودية بفناء المرادات وبقاء مرادات السيد في الاسم والنعت والانضواء تحت عبودية السيد(2). العبودية في الظاهر حرية في الباطن. وهي أخلاق الكرام. وأحسن العبد من أبصر نعم اللّه، بأن أوصله إلى معرفته، وأذِن له بقربه، وأباح له سبيل مناجاته. وخاطبه على لسان أعز السفراء وهو النبي ﷺ، وعرف تقصيره في أداء واجبه وشكره. فهي عبودية النعمة كما تفعل القوى الكبرى مع القوى الصغرى. أحسن العبيد عبد عد تسبيحه وصلاته. ورفض أن يستحق مقابلاً إلا بالفضل والرحمة حتى لا يكون في مقام الإفلاس. والرسول ﷺ وهو الأجلُّ حالاً، والأقرب منزلةً والقائم بالصدق أيضاً لا ينال شيئاً بالاستحقاق بل بالفضل(3).

والربوبية اسم للمرتبة المقتضية للأسماء التي تطلبها الموجودات. وكل اسم له وجهان. الأول نحو الخالق والثاني نحو المخلوق. ولها تجليان: معنوي وصوري. المعنوي، ظهوره في أسمائه، وصفاته طبقاً للتنزيه. والصوري، ظهوره في المخلوقات طبقاً للتشبيه(4). الربوبية نفاذ الأمر والمشيئة والتقدير والقضية. والعبودية معرفة المعبود والقيام بالعهود(5). فأين الحرية بين الربوبية والعبودية؟ هناك واجبات دون حقوق بالنسبة للإنسان، وحقوق بلا واجبات بالنسبة لله. لذلك لم تعش الواجبات العقلية عند المعتزلة في أصول الدين، ويتوقف سر الربوبية على المربوب. وسر سر الربوبية ظهور الرب بصور الأعين. هي الربوبية في الحقيقة بالحق(6). سر الربوبية لا يظهر وإلا بطلت، وسر سر الربوبية هو سر السر وهي

(1) **القشيرية**، ص91.

(2) لا تَــدْعُــنــي إلا بــيــا عــبــدهــا … فــإنــهــا أصــدق أســمــائــي

أبو عبد اللّه المغربي، **طبقات الصوفية**، ص245.

(3) عبد اللّه بن محمد الخراز الرازي، السابق، ص289-290.

(4) **الإنسان الكامل**، جـ1، ص29-30.

(5) أبو العباس القاسم السياري، **طبقات الصوفية**، ص445-446.

(6) **اصطلاحات الصوفية**، ص102.

الربوبية العظمى[1]. كل شيء في اللّه لائق بالربوبية. وكل شيء في ما سوى اللّه يتوق إلى العبودية ثم يُعزِّز اللّه الموجود ويُكرِّم المعبود ويُحضر مشهوداً ويُسأل مقصوداً[2]. وفتح باب الربوبية لاستيعاب العبودية ثم الارتقاء إلى الحرية[3]. وكرد فعل على الرب يأتي العبد[4]. والمسافة بعيدة بينهما. أما الإنسان فإنه قريب من اللّه. فاللّه هو الإنسان الكامل والإنسان صورة اللّه. الاختيار طلب الربوبية، والثمن الخروج من العبودية وسبب عقوبة اللّه عباده ظفرهم تمنيهم[5]. فالحرية مطلب تظهر الجوارح الربوبية على العبودية. والربوبية تحرر من العبودية[6].أهل العبودية صنف، وأهل الربوبية صنف، والموجودون كثير، والتوحيد قليل[7]. فالبشر أهل العبودية. والأحرار أهل الربوبية. والصبر كثير، والإصرار قليل.

لا يرى الموحد إلا الربوبية. وفيها معالجة الأقدار ومغالبة القسمة[8]. فالعبودية والربوبية متضايفان لصالح الربوبية التي تقدِّر المصائر وتقسِّم الأرزاق. الربوبية سبقت العبودية. وبالربوبية ظهرت العبودية. وتمام وفاء العبودية مشاهدة الربوبية، فهناك جدل بينهما وعلاقة دائرية بين العلة والمعلول. الربوبية علة العبودية، والعبودية شهود الربوبية[9]. إظهار دعوى العبودية إضمار لأوصاف الربوبية مع أن التوحيد إعلان للحرية الإنسانية بفعلَي النفي

(1) **لطائف الأعلام**، ج2، ص430-432. كما قال ابن عربي:
الرب عبد والعبد حق ... ياليت شعري، من المكلَّف
إن قلت عبد فذاك ميت ... أو قلت رب أنّى يُكلف
السابق، ص431.

(2) «فكل شيء منك لائق بالربوبية. وكل شيء لك شائق إلى العبودية. عززت موجوداً، وكرَّمت معبوداً. وحضرت مشهوداً، وسُئلت مقصوداً». **الإشارات**، ص385.

(3) «إن فُتح عليك باب الربوبية باستيعاب العبودية. ورُقيت إلى الحرية بعد ذل الرق في الخدمة..». السابق، ص158.

(4) «ليس للعبد إلا ما هو به عبد. فإن جُنَّ قليلاً وظن أنه رب فهناك هلاكه، بِطولِه وهبوطه وسفوله». السابق، ص168.

(5) ﴿أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ﴾، **التفسير**، ص148.

(6) ﴿وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب﴾، السابق، ص156.

(7) السابق، ص379.

(8) أبو بكر الواسطي، السابق، ص303.

(9) أبو عبد اللّه الصبيحي، السابق، ص320.

والإثبات[1]. والربوبية تحرر من العبودية. مقام التحقق بمعرفة الربوبية. والعبودية مقام الإحسان[2].

وأفضل الأعمال تصحيح العبودية على المشاهدة وملازمة الخدمة على السنَّة[3]. والعبودية لا تصحح إلا بالحرية، وملازمة الخدمة. لا تصحح إلا بالقدرة على السيد. وكيف يكون كمال العبودية العجز والقصور عن تدارك معرفة علل الأشياء بالكلية، والتعليل هو أساس علم الأصول؟

والحرية أن يكون السر حراً إلا من العبودية للسيد وهو تناقض[4]. فالحرية لا تقبل العبودية لأحد. وإذا كانت العبودية للحق والحرية للخلق تكون الحرية سالبة بالابتعاد عن الخلق وليست الحرية الملتزمة بالتفاعل مع الخلق. وإذا كان الإنسان للّه عبداً خالصاً أصبح من الأغيار حراً[5]. والحرية لا تتجزأ فهي حرية من كل قيد، إلٰهي أو إنساني. العبودية هي الحرية معكوسة. فمن أراد الحرية فليصل إلى العبودية. إذا استوفى الإنسان مقام العبودية يصير حراً من العبودية فيقبلها بلا عناء ولا كلفة. وهو مقام الأنبياء والصدِّيقين. فهل التحرر من العبودية للعودة إلى العبودية من جديد؟[6]. وإذا أصبحت العبودية للّه تنحَّت الحرية. فالعبودية تحرر. ومن الخشية أن تتحقق العبودية دون التحرر[7]. وكيف تكون العبودية طريق السلامة. وهي التبريء مما سوى اللّه أي التنازل عن الفعل وإسقاط التدبير؟ وهل الإخلاص والوحدانية والاتصال بالفردانية مظاهر للعبودية أم للحرية؟[8].

ومن لزم مقام العبودية يتنابه حالان: الخوف من الذنب، ومفارقة العجب من عمله[9]. العبودية القيام بحق الطاعات بشرط التوقير والنظر إلى المنام بعين

---

(1) عبد اللّه بن محمد بن منازل، السابق، ص368-369.
(2) **لطائف الأعلام**، جـ2، ص661.
(3) أبو محمد المرتعشي، السابق، ص351.
(4) أبو الحسين بن بنان، السابق، ص390.
(5) جعفر بن محمد الخلدي، السابق ص437.
(6) **الولاية**، ص240-241.
(7) **جامع الأصول**، جـ3، ص37.
(8) **التستري**، ص341.
(9) «من لزم العبودية لزمه اثنان: يأخذه الخوف من ذنبه، ويفارقه العَجَب من عمله». **شطحات**، ص156.

التقصير، وشهود ما يحصل من المناقب من التغيير. هي التبريء من الحول والقوة، معانقة ما أُمرتُ به ومفارقة ما زُجرتُ عنه. تصح إذا طُرح كله على مولاه وصبر معه على بلواه.

العبودية هي إيثار اللَّه على كل مجهول ومعلوم[1]. وأن يكون الإنسان عبده في كل حال كما أنه ربه في كل حال[2]. ولا تصفو العبودية لأحد حتى يشاهد أعماله رياءً وأحواله دعاوى. ولا تحتاج إلى خادم. العبودية هي زينة العبد. فمن تركها تعطل من الزينة. ولها أربع خصال: الوفاء بالعهود، والحفظ للحدود، والرضا بالموجود، والصبر عن المفقود[3]. وليس أشرف منها للمؤمن[4]. تقتضي سقوط اللذة والحركة، وترك الأشغال، والاشتغال بالشغل[5].

والعبودية والعبادة من نفس الاشتقاق. ومن يمارسها فهو عبد ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾. ﴿إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾. وهي للخلق جميعاً. ليست مظهراً من مظاهر النقص. وفي اللغة التداولية اللفظ سلبي: عبد الدولة، عبد الدينار والدرهم، عبد الخميصة، العبد الأسود، الذليل. . . إلخ. فكيف يُستخدم «عبد اللَّه» بهذا المعنى السلبي؟

محو العبودية هو إسقاط إضافة الوجود إلى الأعيان. ويُسمَّى أيضاً محو عنق العبد[6]. العبودية للخاصة الذين شهدوا أنفسهم بصدق النية في سلوك الطريقة، ولخاصة الخاصة الذين شهدوا نفوسهم قائمة في عبوديتهم[7].

لا يصفو لأحد قدم في العبودية حتى تكون أفعاله وأحواله دعاوى. فالعبودية عبودية الأحوال والأفعال. لا بد للعبد من ملازمة العبودية على السنَّة ودوام المراقبة[8]. من تحقق في العبودية ظهر سره في مشاهدة الغيوب، وإجابته القدرة

(1) **المخاطبات**، ص214.
(2) ذو النون، **القشيرية**، ص91.
(3) ابن عطاء، السابق، ص91.
(4) السابق، ص91.
(5) السابق، ص92.
(6) **اصطلاحات الصوفية**، ص80.
(7) السابق، ص107.
(8) أبو عمرو إسماعيل بن نجيد، السابق، ص455.

إلى كل ما يريد[1]. وماذا عمن تحقق في الحرية؟ العبودية الوفاء بالعهود وبالموجود والصبر على المفقود، والتبريء من الحول والقوة، ومعانقة المأمورات، ومفارقة المنهيات[2].

والعبودة ستة: الرضا بلا فتور، والصبر بلا شكاية، واليقين بلا شكوك، والشهود بلا غيبة، والتوجد بلا قصور، والاتصال بلا قطيعة، ومحو العبودية ممكن من طريق إسقاط إضافة الوجود إلى الأعيان[3]. ويتم التأليه تدريجياً. في حين أن الفرق شرط في العبودية[4]. الحرية أولاً هي حرية الذات والتحرر من الأهواء والانفعالات، والمطامع والشهوات[5]. والحرية طبيعية. فكل كبد حر[6]. والاستيحاش من رِقّ العبودية تَهيُّؤ لخلعة الحرية[7]. الحرية نهاية التحقق في العبودية. وتعني ألا يمتلك الإنسان شيئاً من المكوّنات. يكون الإنسان حراً إذا كان عبداً للَّه. فقد خلقه اللَّه حراً، وعلى الإنسان أن يكون كما خلقه اللَّه. فلا مراءاة للأهل في الحضر، ولا للرفاق في السفر بل العمل للَّه وترك الناس. الحرية آخر مقام العارف. ولا يكون العبد عبداً حقاً ويكون لما سوى اللَّه مسترقاً[8].

والعبادلة هم أرباب التجليات الأسمائية إذا تحققوا بحقيقة اسم من أسمائه الحسنى. ينسبون إليها بالعبودية بشهودهم ربوبية الاسم[9]. عبوديتهم للحق من حيث ربوبيتهم بكمال الاسم. وهو كل الأسماء الإلٰهية. يسبقها «عبد» مثل عبد اللَّه، عبد الرحمن. . . إلخ[10].

الحرية هي العبودية للبدن، والعبودية هي الحرية للنفس. والانقطاع عن

(1) أبو عثمان المغربي، السابق، ص102.
(2) **جامع الأصول**، ج2، ص263-264.
(3) السابق، ص77.
(4) «فإن الاستدراج شرط في الإلٰهية، والفرق شرط في العبودية». السابق، ص389.
(5) «وهذا لأني أطعت مطامعي فاستعبدتني. ولو أني قنعت لكنت حراً». **الإشارات**، ص30.
(6) السابق، ص160.
(7) السابق، ص216.
(8) **اللمع**، ص450.
(9) **اصطلاحات الصوفية**، ص108-130. **لطائف الأعلام**، ج2، ص497-520.
(10) **جامع الأصول**، ج3، ص56.

الحرية يؤدي إلى العبودية[1]. الناس عبيد حكم متشابه. والسؤال: عبيد من؟ عبيد لبعضهم البعض أم عبيد لغيرهم؟ وفي كلتا الحالتين البِنية النفسية واحدة وهي العبودية. وما أسهل أن يستبدل بالله السلطان وبالرب العبد. وهل استعبد الله العباد بالعقل والقوة والروح أم أنه حررهم بها؟ وذهاب العقل وذهاب الروح يُذهب التكليف. وذهاب القوة يُذهب العزيمة. وتبقى الرخصة.

مقام العبودية هو مقام إسقاط التدبير. فالعبودية تنازل عن الحرية. والعبد الآبق لا صلاة ولا صوم له حتى يعود إلى سيده وكأن العبادات تسبق الحرية، وكأن الهروب من العبودية إلى الحرية كفر[2].

والعبودية في المعنى التداولي لفظ كريه على النفس. فمن منا يريد أن يكون عبداً أو أن تكون علاقته بالعالم وبالآخرين علاقة عبودية! والتمييز بين العبودية والعبودة، وهي العبودية الذاتية وليست للغير، لا يغيِّر شيئاً[3]. العبودية هي الذل والعبد هو الذليل. والتسميات العبد في مقابل الرب أو عبد الله أيضاً كريه على النفس. إن كان ترك العبودية ترك حال لا ترك حقيقة، فالحقيقة أحوال والإنسان أوضاع.

ولفظ «عبد» المستعمل ليس في التصوف وحده بل في كل العلوم القديمة لفظٌ كريه. فلا أحد يرضى أن يكون عبداً طبقاً لمعاني اللفظ في اللغة التداولية. كما أنها في المصطلح القديم كانت تُستعمل في مقابل «حر». وفي أحد المواقف للنفري طلب الله ألا يكون الإنسان عبد الله وهو يخبر الناس[4]. وحين يعود إلى الله لا فرق بين المحبين في العبودية والحرية. فكلاهما عبد للآخر. ويخصص النفري

(1) «من أراد السلامة فليصل كل ما قطع من أسباب العبودية، ويقطع كل ما وصل من أسباب الحرية»، «أنتم عبيد. فلا يفقدكم من حيث أمركم، ولا يراكم من حيث نهاكم». **التستري**، ص224–225.

(2) «العبد الآبق ليس له صوم ولا صلاة حتى يرجع فيدع يده في يد مولاه». السابق، ص243.

(3) **الفتوحات**، ج2، ص213–216. «فمقام العبودية مقام الذلة والاختصار وليس بنعت إلٰهي». السابق، ص214.

(4) «وقال لي: لا تكن لي عبداً وأنت تخبر الناس بك، أو بما منك. فإذا جئت إليَّ فكأن الذي جرى كله لم يكن». **المواقف**، ص145.

للموضوع موقفاً خاصاً «موقف العبدانية»[1]. فالعبد عبد اللّه، وعلاقة به، وصفة ليس جوهرية فيه. ومع ذلك فالعبدانية مرتبطة بالخوف. فالعبد يقف خائفاً أمام مولاه.

وقد جعل اللّه ملكاً في الكون لتحريره من رقبته[2]. فالحرية مقابل العبودية. ولا تعني الحرية المعنى الفقهي في مقابل الرق بل الحرية الذاتية، حرية الشعور من أسر المادة والمجتمع. ويذكران دون إيضاح هل هما مقام أم حال أم كلاهما معاً. فالحرية هي ألا يكون العبد تحت رق المخلوقات. ولا يجري عليه سلطان المكوِّنات. وعلامة صحته سقوط التمييز عن قلبه بين الأشياء. فتتساوى عنده أفكار الأعراض. حقيقة الحرية في كمال العبودية. فإذا صدقت العبودية للّه خلصت عن رق الأغيار حريته. الحرية ألا يكون العبد بقلبه تحت رق شيء من المخلوقات، لا من أعراض الدنيا ولا من أعراض الآخرة. الفرد لا يسترقه عاجل دنيا ولا حاصل هوى ولا آجل منى ولا سؤال ولا قصد ولا أرب ولا حظ. وهي على ثلاث مراتب، حرية العامة عن رق الشهوات، وحرية الخاصة عن رق المرادات لفناء إرادتهم في إرادة الحق، وحرية خاصة الخاصة عن الرقى والرسوم لاغمائهم في تجلي نور الأسرار[3]. الحرية استواء الحجر والذهب، من دخل الدنيا وهو عنها حراً ارتحل إلى الآخرة وهو عنها حر[4]. فمقام الحرية عزيز. من أراد الحرية فليصل إلى العبودية[5]. لا يمكن الوصول إلى صريح الحرية ومازالت للعبودية بقية. إذا استوى للعبد مقامات العبودية كلها صار حراً من لقب العبودية فيترسم بالعبودية بلا عناء لا كلفة. وذاك مقام الأنبياء والصدِّيقين. من أراد أن يذوق طعم الحرية ويستريح من العبودية فليُظهر السريرة بينه وبين اللّه[6]. ومن أراد أن يكون حرا من الكون يخلص في عبادة اللّه فيصير حراً عمن سواه. ومعنى ذلك أنه يستبدل عبداً بعبد، وبالكون اللّه[7]. تسمي الأحرار لإخوانهم لا

(1) **موقف العبدانية**، السابق، ص172-174.
(2) ﴿وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا﴾، **التفسير**، ص114.
(3) **اصطلاحات الصوفية**، ص58-59. **جامع الأصول**، ج3، ص28. **لطائف الأعلام**، ص335.
(4) أبو علي الدقاق، السابق، ص100.
(5) الجنيد، السابق، ص100.
(6) بشر الحافي، السابق، ص100.
(7) إبراهيم بن شيبان القرمسيني، **طبقات الصوفية**، ص100.

لأنفسهم[1]. فالحرية أثرة لا إيثار، وغيرية لا أنانية. الحرية موافقة الإخوان فيما هم فيه ما لم تكن خلافاً للعلم[2]. وهي الحرية الجماعية والاتفاق على هدف موضوعي مشترك. لو جازت الصلاة بالشعر مكان الآية لكان.

أتمنى على الزمان محالا أن ترى مقلتاي طلعة حر

فهل الحرية مستحيلة. وهل تجوز الصلاة بالتعبير عن استحالة الحرية أم عن إمكانيتها بالنضال ضد العبودية؟

الحرية هي الخروج من رق الأغيار. إن معظم الحرية في خدمة الفقراء[3]. أبناء الدنيا تخدمهم الإماء والعبيد، وأبناء الآخرة يخدمهم الأحرار والأبرار[4]. الحر الكريم يخرج من الدنيا قبل أن يخرج منها. لا تصحب الأحرار كريماً يسمع ولا يتكلم[5].

إذا استوفى العارف مقام الحرية يتحول إلى مقام الحرية. فالعبودية شرط الحرية. الحر هو الذي يخرج باللّٰه بنعت التنزيه عن كل رسم رسوم. الحرية تحرر. والسؤال هو: هل يولد الإنسان عبداً يتحرر أم حراً يُستعبد؟

والحرية، مقاماً أم حالاً، درجة في الوجود، وضع اجتماعي أم حالة نفسية. وربما كلاهما. الحرية ثورة على العبودية، عبودية الكون وعبودية الإلٰه[6]. ولا تضاف إلى الأُلوهية أو الربوبية مثل الابن والابنة، والكبير والصغير. هي استقلال ذاتي. فإذا كانت الحرية عبودة محققة لله، والتحرر من البشر والكون فإن السكوت عنه قد ينزوي ويضمر ويتلاشى لصالح المعلن عنه، وهنا يكون ترك الحرية عوداً إلى العبودية. واحتياج الإنسان لا يعني عبوديته لحاجاته. وكونه فقيراً لا يعني استعباد الفقر أو الغنى له، وإذا كانت الحرية درجة أعلى في القرب فإن العبودية درجة أدنى[7].

(1) جعفر بن محمد الخلدي، السابق، ص437.
(2) أبو القاسم المقري، السابق، ص511.
(3) **القشيرية**، ص100.
(4) إبراهيم بن أدهم، السابق، ص100-101.
(5) **مشرب الأرواح**، ص156.
(6) **الفتوحات**، ج2، ص226-228.
(7) عبد الهوى أبق عن ملك مولاه وليس يخرج عنه فهو تيّاهُ =

وقد ذُكر لفظ «عبد» ومشتقاته في القرآن على نحو بارز. والصيغ الاسمية مثل «عبد»، «عباد»، «عبيد»، «عبادة»، أو الوصفية مثل «عابد»، «عابدون»، أكثر من الصيغ الفعلية مع مختلف الضمائر. ويغيب اللفظ المشتق «عبودية» كما يغيب لفظ الحرية. والمعني الغالب هو «عبد اللّه»، وليس العبد بمعنى المملوك إلا ثلاث مرات. الأول دفاعاً عن العبد المملوك الذي لا يقدر على شيء ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾. والثاني في القصاص ﴿ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ﴾ ﴿وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ﴾ ﴿وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ﴾، وهو ما اختلف عليه الفقهاء في نفي إزهاق الروح لا فرق بين عبد وحر أو ذكر أو أنثى. والثالثة تفضيل العبد المؤمن على الحر المشرك. فجوهر الإنسان ليس فقط روحه بل أيضاً إيمانه ﴿وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ﴾. ومع ذلك المعنى التداولي للفظ سلبي للغاية بالرغم من ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ﴾، وأن الرسل كلهم عبيد اللّه، وأن الخلق كلهم عباده. فقد مرَّت الإنسانية بمرحلة طويلة من العبودية الحرفية، ملكية الفرد، أو المعنوية استعمار الشعوب. والكل يستنكف اليوم أن يكون عبداً بالمعنى التداولي. ومن الصعب زحزحته وإحلال المعنى الاصطلاحي مكانه «عبد اللّه». لذلك يُستبدل به الإنسان الذي ليس عبداً لأحد. ولفظ «الحر» له معنىً تداولي إيجابي ليس بالمعنى الاصطلاحي الفقهي في مقابل العبد نظراً لانتهاء نظم العبودية، بل بالمعنى التداولي حرية الرأي والتعبير والحركة.

= الحر من ملك الأكوان أجمعها ... وليس يملك مال ولا جاه
فإن تعرض للتكوين أبطل ما ... قد كان أصله من ملك مولاه
السابق، ص226.

الفصل الثالث

الأحـــوال

1 ـ تعريف الحال

الحال أحد مصطلحات الصوفية تُفرد له بعض الأبواب أو الفصول[1]. هو التبريء من النفس والقوة والاستطاعة والعقل، ترك النفس على سجيتها، وليس الاجتهاد في العبادات. الحال هبة من اللَّه. إذ لا يصل أحد إلى اللَّه إلا من الآخرة، ولا يصل إلى الآخرة إلا من بابها وهو الموت، ولا إلى الموت إلا بالاستعداد له، ولا استعداد له إلا بعلم قيام اللَّه عليه. ولا يقوم عليه إلا بحال عبد لا يتحرك في شيء مما في قلبه حتى يستأذن فيه. ويُعرض على الكتاب والسنَّة وإلا خمد في مكانه وسره. وهذا هو الحال الذي لا يعلمه أحد. ولا يتمُّ إلا بعفو من اللَّه.

وعلم الحال فريضة. يتمُّ بالإيمان. وهو الأمن. العبادة بدافع الخوف، والاطمئنان بدافع الأمن. وأصل الحال أمر بالعلم والعمل أو أمر بالعمل بناءً على العلم. وهذا هو شرط الخروج من حد العبودية. وأفضل العلم الحال، وحفظ الحال[2]. فالعلم حالة شعورية والحال متضاد كالأبيض والأسود[3]. والنظر إلى الحال أهم من إخراج المال. ولا يوجد أحد من الأكياس أخذ على أحد في إخراج حاله لكن نُظر إلى حاله. وكل حال لا يكون عن علم فإن ضرره يكون أكثر من نفعه[4]. ليس الحال مجرد عاطفة هوجاء بل يقوم على علم رصين. ولا يفارق الحال العلم إذ يظل كشفاً، ولا يقارن القول حتى لا يسطح، ويكون علامة على

---

(1) **التستري**، ص252-254.

(2) السابق، ص290.

(3) السابق، ص295.

(4) أبو عمرو إسماعيل بن نجيد، **طبقات الصوفية**، ص455.

الحركة والانتقال من مقام إلى مقام، فهو دلالة بلا نطق، ومعنى بلا لفظ[1]. ومن تحقق في حال لا يخبر عنه لأن الحال في باطن النفس لا يمكن التعبير عنه[2]. لذلك لم يردّ الملامتية على نقد الناس لهم.

علم الحال أقرب إلى اليقين من علم القيام وأعمال القلوب أفضل من أعمال الجوارح. والحال الشعوري أصدق من حركة البدن. وعلم القيام أعلى وأشرف[3]. فالحال علامة من اللّه، والمقام اكتساب من الإنسان. بالتالي فالحال أكثر يقيناً. فاللّه لا يخطئ. والمقام أقل يقيناً لأنه من كسب الإنسان. وهو تقابل وعظي. الحال يشعر به الإنسان كعلامة على الطريق. وقد يخطئ في الإدراك. والمقام يناله بجهده، وهو أقل عُرضةً للخطأ. ولكل صوفي حاله ينطق به على حد الغلبة أو السكر فلا يحكي عنه. المطلوب من الصوفي ملازمة المجاهدة وتقطع المعاملة دون الارتقاء إلى هذا المقام. فإذا بلغ الحال يمكن فهم الكلام، دون تضييع الأدنى وادعاء الأعلى[4]. أحوال الصوفية الثقة بالمضمون، والقيام بالأوامر، ومراعاة السر، والتخلي عن الكونين بالتشبث بالحق[5].

والحب الخالص أصل جميع الأحوال مثل الفناء والبقاء، والصحو والمحو. كالتوبة في المقامات. والأحوال مثل المراقبة، والقرب، والمحبة، والشوق، والطمأنينة، والمشاهدة، واليقين.

الحال ما يرد على القلب من غير تعمُّل ولا اجتلاب ولا اكتساب فتتغيَّر صفات صاحبه. قد يدوم وقد لا يدوم. فالعَرَض لا يبقى زمانين عند الأشاعرة. فإذا دام صار مقاماً. الحال هو ما يحلُّ بالقلب أو يحلُّ القلب به. هو نازلة بالقلب لا يدوم[6]. هو الذِكر الخفي. هو معنى يرد على القلب. فالأحوال مواهب، والمقامات مكاسب. الأحوال من عين الجود والمقامات ببذل الجهود. وصاحب

(1) أبو حفص النيسابوري، السابق، ص119.
(2) حمدون القصار، السابق، ص127.
(3) أبو العباس بن مسروق الطوسي، السابق، ص240.
(4) أبو علي الجوزجاني، السابق، ص248.
(5) **الفتوحات**، ج2، ص384-385.
(6) هو رأي الجنيد، السابق، ص66.

الحال مترقٍّ عن حاله، وصاحب المقام ممكَّنٌ في مكانه[1]. الأحوال هي المواهب الفائضة على العبد من الرب، ميراثٌ للعمل الصالح أو نازلة من الحق امتناناً. هو ما يرد على القلب بمحض الموهبة كحزن أو بسط أو قبض أو ذوق. ويزول بظهور صفات النفس[2]. الأحوال اضطرارية وليست اختيارية. وهي عبءٌ ثقيل وليست التذاذاً بالشواهد والأعراض[3]. وهذا هو معنى البصير كصفة للّه. لا يأتي بالمجاهدات والرياضات والعادات كالمقامات. وهو معنى «نحن مسيَّرون» في الانتقال من حال إلى حال. وهو معنى «التلوين» أي التغيُّر من حال إلى حال.

وهي مزدوجة مثل الخوف والرجاء، والهيبة والأنس، والصحو والسُكْر، والفقد والوجد، والغيبة والحضور، والفناء والبقاء. ومن ثم ليس الرضا حالاً[4].

وتخرج الأحوال من بعضها البعض. فالمراقبة تقتضي القرب. والقرب يقتضي حال المحبة. وحالا الخوف والرجاء مقرونان بالخوف. والرجاء والمحبة يقتضيان الشوق. والشوق يقتضي الأنس. والأنس باللّه يقتضي الطمأنينة. والطمأنينة تقتضي حال المشاهدة. والمشاهدة تقتضي حال اليقين. وأحوال القلوب المتحققة في الذِكر والتعظيم للّه مثل: الغيبة والحضور، الصحو والسكر، والفقد والوجد، الهجوم والغلبات، الفناء والبقاء[5]. هي الواردات التي يحصل بعضها من ثمرات الأعمال الصالحة، وبعضها من المواهب الإلٰهية. وهي اسم العشرة منازل: المحبة، والغيرة، والشوق، والقلق، والعطش، والوجد، والدهش، والهيجان، والبرق، والأرق. وسُمِّيت أحوالاً لتحول الإنسان عن التقييدات بالأوصاف المانعة عن الترقي في حضرات القلوب.

الحال نازلة بالعبد في الحين[6]. وهو ما يحلُّ بالأسرار من صفاء الأذكار ولا

(1) **القشيرية**، ص32.
(2) **جامع الأصول**، ج3، ص12، 27.
(3) ﴿وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾، السابق، ص136.
(4) **القشيرية**، ص32.
(5) السابق، ص420.
(6) السابق، ص411.

يزول، والأحوال ذاتية، حال المتكلم غير حال السامع[1]. والذاتية زمان الحال الدائم باطن الزمان[2]. وصاحب الحال هو صاحب الوقت والزمان[3].

ويخاطب اللّه الإنسان على قدر أحواله واحتياجاته فيطلب من الكافر الإيمان، ومن المنافق الإخلاص، ومن العاصي الرجوع، ومن المحب الرضى، ومن العارف الصبر[4].

وتعني الأحوال أيضاً حالات النفس. مثل التسرع والهرب والاعتصام، والخوف، والاستسلام، والانبساط، وغاياتها مثل النجاة والوصلة والتلطف والقرب والبعد[5]. هي كالبروق. كما تَرِد على القلب نزولاً. فالحال من التحول[6].

وقد تتحول الأحوال النفسية إلى درجات كونية. فهناك سبع سموات، في كل سماء خلق وجنود. والكل له مطيع. وطاعتهم على سبع مقامات: طاعة أهل السماء، الدنيا خوف ورداء، والثانية حب وحزن، والثالثة منَّة وحياء، والرابعة شوق وهيبة، والخامسة مناجاة وإجلال، والسادسة إنابة وتعظيم، والسابعة منة وقربة[7]. وتختلط الأحوال والمقامات.

مَن حالَ به الحال انصرف عن التوحيد. وانقطع ولا وصل[8]. فالتوحيد ثمرة

---

(1) **شطحات**، ص125.

(2) **لطائف الأعلام**، جا، ص158-159، 332-333.

لو لم تحل ما سُمِّيت حالا وكل ما حال فقد زالا

السابق، ص232.

(3) **لطائف الأعلام**، ج2، ص455.

(4) «إنما يخرج الكلام مني على حسب وقتي ويأخذه كل إنسان على حسب ما يقوله ثم ينسبه إليَّ». **شطحات**، ص161.

(5) «التسرع إلى استدراك علم الانقطاع وسيلة. والوقوف على حد الانحسار نجاة. واللياذ بالمهرب من علم الدنو وصلة واستفتاح. فقد ترك الجواب ذخيرة. والاعتصام من قبول دواعي استماع الخطاب تلطف. وخوف فوت ما انطوى من خصاصة الفهم في حين الآذان مساءة. والإصغاء إلى تلقي ما يفضل من معدته بُعد. والاستسلام عند التلاقي جرأة. والانبساط في محل الأنس غرة». أبو محمد الجريري، **طبقات الصوفية**، ص261.

(6) **القشيرية**، ص32.

(7) بنان بن محمد الحمال، السابق، ص293.

(8) أبو بكر الواسطي، السابق، ص304.

الحال. الأحوال كالبروق فإذا ثبتت فهي حديث النفس وملاءَمة الطبع[1]. وإذا لم تدوّن وتتوال فهي لوائح وبواده. ومع ذلك هي طوارق لا تدوم. الانقطاع عن الأحوال سبب الوصول إلى اللّه[2]. فاللّه ما بعد الأحوال[3]. الحال وجدان القلب بروز بديهة كشف الصفة من الحق بنعت الخروج عن ظاهر الرسوم.

وتعرف الحالات بعضها بالبعض في دائرة جدلية. التجمع عن التفرق، والتفرق عن التجمع، والحضور عن الغيبة، والغيبة عن الحضور[4]. ومن تكلم عن حال لم يصل إليه كان كلامه فتنةً لمن يسمعه ودعوى زائفة، وحرمه اللّه من الوصول إلى حال[5]. فالحال طبيعي لا زيف فيه. ومن عطش إلى حال دهش فيه. ومن وصل إليه لم يستقر فيه[6]. فالحال من التحول أي الحركة، هشة في بدايتها وعدم استقرار في نهايتها.

تملّك الأنبياء الأحوال. وتملّكت الأحوال غيرهم. يصرّفونها ولا تصرّفهم. ظهرت على أهل الكهف[7]. وقهرتهم لِما كانوا فيه من قرب ومشاهدة. وفي **نصوص الولاية** يستعرض الحلاج بعض المقامات والأحوال مثل الأنس والتجلي. فأصحاب المقامات والأحوال هم الأولياء[8].

الحال حفظ الأنفاس والأزفات والساعات. فإذا وردت بعض الإشارات والرموز وكانت الواردات متصلة والأحوال مشتركة لما أمكن تقابل الواردات أو تساوي الحالات أو عللت الخافيات. فمقياس الصدق في الحال هو تطابقه مع الوارد. حال دلال الجَمال يجلب أهل الوصال[9]. فالحال رؤية جمالية صوفية.

(1) أبو الحسين بن الصائغ الدينوري، السابق، ص 32، 315.
(2) أبو بكر بن أبي سعدان، السابق، ص421.
(3) **مشرب الأرواح**، ص99-100.
(4) **الإشارات**، ص47.
(5) أبو عمر الزجاجي، **طبقات الصوفية**، ص432.
(6) أبو العباس الدينوري، السابق، ص477.
(7) ﴿لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ﴾، **التفسير**، ص126.
(8) نصوص الولاية، **أعمال**، ص221-238.
(9) السابق، ص222.

ويمتلئ **ديوان الحلاج** بمصطلحات الصوفية المقامات والأحوال. فكلاهما حالات نفسية تتفق مع التجارب الشعرية[1].

وقد تتداخل الأحوال مثل البُعد والخوف والشوق في تجربة واحدة. وهناك ثنائيات أقل في نظرية المعرفة منها في الأحوال مثل، المحاضرة والمكاشفة والمشاهدة والمعاينة. وليست بالضرورة على التقابل مثل الذوق والشرب. وقد توجد ألفاظ ثنائية لا تكون بالضرورة أحوالاً مثل الهجر والوصل، الخلق والبعث، الحق والخلق، المولى والعبد. . .. إلخ[2]. وقد تتداخل الأحوال مع المقامات ولا يكون في القلب معها غيرها. الخوف من اللّه وحده، والرجاء للّه وحده، والجد للّه وحده، والأنس باللّه وحده[3]. والحزن والبعد والغيبة.

علم الحال أقرب إلى اليقين من علم القيام. وعلم القيام أعلى وأشرف[4]. فالحال علامة من اللّه، والمقام اكتساب من الإنسان بالتالي فالحال أكثر يقيناً فاللّه لا يخطئ. والمقام أقل يقيناً لأنه كمن كسب الإنسان. وهو تقابل ونمطي فالحال يشعر به الإنسان كعلامة على الطريق. وقد يخطئ في الإدراك. والمقام يناله بجهده وهو أقل عرضةً للخطأ. ولكل صوفي حاله ينطق به على جد الغلبة أو السُكْر فلا يمكن عنه؟

---

(1) أدنو فيبعد في خوفي فيقلقني　　شوق تمكَّن في مكنون أحشائي
الديوان، ص289.
قوم إذا هجروا من بعد ما وصلوا　　ماتوا وإن عاد وصل بعده بُعثوا
السابق، ص297.

(2) تأمل الوجد وجد　　والفقد في الوجد فقد. . .
وكيف ينبت ثان　　وأنت يا فرد فرد
أعدني الناس مولى　　لأنني فيه عبد
السابق، ص297.
مواصلني بالوصال، صلني　　وصل وصالا بلا تجني. . . .
مواصلي بالصدود لما　　يحق حق الصدود صلني. . . .
السابق، ص329.
فأوصلوا الوصل له　　بهجر هجر القرنا
السابق، ص332.

(3) السرقسطي، **طبقات الصوفية**، ص54.

(4) أبو العباس بن مسروق الطوسي، السابق، ص240.

المطلوب من الصوفي ملازمة مجاهدة وتقطع العلامة دون الارتقاء إلى هذا المقام فإذا بلغ الحال يمكن فهم الكلام[1]. دون تضييع الأدنى وادعاء الأعلى[2]. وتتوالى الأحوال ليست فقط كحالات نفسية بل كمراتب للوجود وظواهر للطبيعة[3].

ولفظ حال لفظ قرآني ليس بمعنى الحال النفسي الصوفي. إذ يعني «حال» «منع» أو «حول» بمعنى المكان وهو الأكثر استعمالا أو بمعنى «الحول» أي السنة الزمنية أو البدل والتغيُّر في «حِوَل» أو «تحويل». ومع ذلك تشارك هذه الاستعمالات المعنى الصوفي في دلالة التحول والتغير[4].

2 ـ الحزن والفرح

وبالرغم من أن الحزن مقام إلا أن له مقابله وهو الفرح. ومن ثم يصبح حالاً. هو بين الحال والمقام. والعجيب مدح الحزن وذم الفرح؟ فعندما يمتلئ القلب فرحاً يتوقف اللسان عن النطق[5].

الحزن مشتق من الحزن وهو الوعر الصعب. والحزونة الأخلاق الصعبة[6]. لا يكون إلا على فائتٍ ماضٍ لا يرجع، لكن يرجع المثل. ويبدأ الحزن على فعل وينتهي إلى الوجود كله[7].

---

(1) أبو علي الجوزجاني، السابق، ص248.

(2) بنان بن محمد الحمال، السابق، ص294.

(3)
وسكوت ثم صمت ثم خرس   وعلم ثم وجد ثم رمس
وطين ثم نار ثم نور   وبرد ثم ظل ثم شمس
وحزن ثم سهل ثم قفر   ونهر ثم بحر ثم يبس
وسكر ثم صحو ثم شوق   وقرب ثم بعد ثم أنس
وقبض ثم بسط ثم محو   وفرق ثم جمع ثم طمس
عبارات لأقوام تساوت   لديهم هذه الدنيا وفلس

الديوان، ص309.

(4) اللفظ مذكور 24 مرّةً في معانٍ مختلفة عن الحال النفسي.

(5) «إنما معنى أن أجيبك أن قلبي قد كان امتلأ فرحاً فلم أقدر أن أجيبك». **رابعة**، ص131، 140، 178.

(6) **الفتوحات**، ج2، ص186–187.

(7) دار التكاليف دار مابها فرح   فالله ليس يحب الفارح اللسنا
السابق، 186.

والحزن نتيجة اتصال حبال جذب المحبة في قلب المهموم حيث تراكم أوجاع قلب الأسرار نيران الشوق في جميع الأنفاس بنعت الفكرة الدائمة والحيرة الغالبة على الأسرار الهائمة، «إن اللّه يحب كل قلب حزين»[1]. والحزن ناتج عن الحب والعذاب والقلق والحزن في المهجة، والنار في الكبد، والدمع شاهد والبصر يشهد[2].

الحزن توجع القلب لفائت أو تأسفه على ممتنع. يتضمن الخوف والإشفاق والخشوع والإخبات. حزن العامة لتفريطهم في القيام بالخدمة، وحزن الخاصة على غيرهم، وحزن المريدين وهم المتوسطون بين العامة والخاصة لِما قد يعرض لقلوبهم من التفرقة حرصاً على الجمع.

ويسأل اللّه الصوفي عن حزنه؟[3]. ويقضي عليه[4]. فالحزن ليس حالة دائمة. الحزن هم. وهو موضوع العلم[5]. والإنسان عبد الحزن عليه أن يعرف حقيقته. واللّه عند الحزين. وكيف يحزن العبد على من لم يره أو رآه؟ ويتوارى الحزن إذا ما وقف العبد أمام اللّه وجعل من قلبه وطناً له. فالشكر للهم المحزون. وهو كالمعول في الجدار المائل[6]. ولو ألف العبد بحزنه ما يختلف عليه، وبفرحه ما يلائمه كان مراد اللّه هو الغالب[7]. الحزن انكسار القلب وخشوعه. علامته انكسار الجوارح الظاهرة من الانبساط لانكسار الباطن الذي يجلب الحزن. وما يجلب الحزن ثلاثة: التفكير في الذنوب الماضية أو التفكير في الموت، والنظر إلى ما هو أتقى من الإنسان.

---

(1) **مشرب الأرواح**، ص40. **لطائف الأعلام**، ص336.

(2) الحزن في مهجتي، والنار في كبدي ... والدمع يشهد لي فاستشهدوا بصري
السابق، 306.
أنا حزين معذب قلق ... روحي من أمر حبها أبقت
السابق، ص296.

(3) أرسلتني تسأل عني كيف كنت؟ وما ... لقيت بعدك من همٍّ ومن حَزَنِ؟
السابق، 327.

(4) أرد وجواب واله ... خاصم فيك الحزنا
السابق، 332.

(5) **المخاطبات**، ص216-217.

(6) السابق، ص245.

(7) **جامع الأصول**، ج2، ص259-260.

والحزن من آثار الخوف. وبه عمارة القلوب، والفرح والغفلة خرابها. والفرح غير الغفلة. الفرح سبب الفن والسعادة[1].

لو كان العبد محزوناً لما هَنِئ له العيش[2]. إذ يقتضي الحزن ألا يكون الإنسان مسروراً في الحياة الدنيا[3]. وليس الحزن الآن فقط بل الحزن على عدم الحزن في الماضي[4]. الحزن يكون على فَقْد أمر يتمنى وجوده أو حزن من أمر مستقبلي أو حزن من تأخر حدوث أمر وارد أو حزن من تذكر مخالفات النفس[5]. فالحزن متصل الأفعال في الزمان الماضي والحاضر والمستقبل.

ولا كبد إلا وهو مقرون بالحزن[6]. فالحزن مرتبط بالحياة ورمزه الكبد[7]. وهو مقام حركي يقترب من الحال، عملية لها بداية ونهاية،ومداخل ومخارج، وأصول وفروع، ومرض وعلاج، وأحوال وحقائق[8].

ويرتبط الحزن بالبكاء. ولكل شيء علم، وعلم الخذلان ترك البكاء. والخذلان مرَّةً لا يعني الخذلان كل مرَّةً. ولا يؤدي إلى البكاء. فالبكاء شيمة النساء. ولو أن محزوناً بكى في أمة لرحم اللّه تلك الأمة. المسؤولية فردية، وكل إنسان ألزم طائره في عنقه، وآتى يوم القيامة فرداً. أما إنقاذ الجماعة من أجل البقية الصالحة فهي نظرية الخلاص في اليهودية. وإنقاذ الجماعة بالإيمان بفرد واحد

(1) «إن اللّه يحب كل قلب حزين». ﴿لَا تَفْرَحْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾.

(2) «واقلة حزناه. لو كنت محزونا ما هنأ لك عيش»، **رابعة**، ص127، 138، 170، 175.

(3) «إن كنت أنت محزوناً لا تكن مسروراً في الحياة الدنيا». السابق، ص181.

(4) «لا يكون حزني أن أكون محزونة. بل حزني أني ما كنت محزونة». السابق، ص181.

(5) المحاسبي، طبقات الصوفية ص59.

(6) الإشارات ص46.

(7) **جامع الأصول**، جـ3، ص113-114.

(8) في البدايات الإحساس باليقظة وتألم الباطن. وفي الأبواب الحزن على التقصير في الطاعات. وفي المعاملات الحزن على تفرقة الخاطر وتعلُّق القلب بالغير. وفي الأخلاق توجُّه الباطن على فَقْد من الملكات الفاضلة. وفي الأصول الحزن على فتور العزم. وفي الأدوية الحزن على الجهل والاشتغال عن شهود الحق وذهاب الهمة. وفي الأحوال الحزن عن السلو عن المحبوب وعلى فقدان الوجد ولوعة الشوق. وفي الولايات انقلاب الحزن سروراً. وفي الحقائق التحزن عند الاحتجاج بالصفات عن شهود الذات. وفي النهايات وجود الحزن عند أوائل الفرق بعد الجمع.

نظرية الخلاص في المسيحية[1]. ليس المهم البكاء والندب بل الإخلاص للخلاص[2]. وأفضل بكاء بكاء الإنسان على ما فاته من أوقاته على غير الموافقة أو على ما سبق له من المخالفة[3]. البكاء نتيجة العصيان. والبكاء على أنواع، بكاء فرح لوجود حال عدمها من قبل، وبكاء أسف لفقد حال كان مقروناً بها[4]. بكاء الزاهدين بعيونهم وبكاء العارفين بقلوبهم[5]. فهناك بكاء في الضحك، فالضحك والبكاء في الوجد يكون من مراعاة اللّه عاشقه في مقام الأنس[6]. البكاء في أكثر من ألف مقام وأخصها المعرفة[7]. ويثبت البكاء بعبادة محققة، وسعادة كبرى، ونجاة عظمى. والكمد هو الحزن الشديد الذي يؤدي إلى البكاء. يقتل صاحبه كما يهدم المطر الساقط على سطح المنزل دون أن يتسرب في الميزاب. وميزاب الكمد هو الموت أو الشوق.

الحزين هو المؤمن المستور وليس المسلم المهتوك[8]. وهو أفضل من إدخال الغم والحزن والخوف عليه.

ويظهر الفرح أحياناً كمصطلح صوفي بل كمقام. فالفرح نشاط الروح بلطائف الفتوح[9]. يفرح الصوفي باللّه حين يخافه فما مدى فرحه حين يؤمنه؟[10]. ولأول مرّة يتحدث الحلاج عن «الفرح الصوفي» بعد أن استوفى الصوفية الحديث في الحزن. وهو ناتج عن الكشف واليقين والفرح به[11]. والأبرار ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ

(1) أبو سليمان الداراني، السابق، ص81-82.
(2) معروف الكرخي، السابق، ص89.
(3) أحمد بن أبي الحواري، السابق، ص100.
(4) محمد بن الفضل البلخي، السابق، ص215.
(5) عبد أرين الحسين الشيرازي، السابق، ص468.
(6) **التستري**، ص287.
(7) **مشرب الأرواح**، ص290، 295.
(8) المحاسبي: «الحسبة في إدخال السرور على المؤمن»، **المسائل**، **أعمال القلوب والجوارح**، ص91-98.
(9) **مشرب الأرواح**، ص107.
(10) «هذا فرحي بك وأنا أخافك، فكيف فرحي بك إذا أمنتك». **شطحات**، ص89، 207، 225.
(11) **الولاية**، ص259.

وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾[1]. ويحمد الإنسان أن يُذهب عنه اللَّه الحَزَن ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَذۡهَبَ عَنَّا ٱلۡحَزَنَۖ﴾[2]. ويَترك الحزن أيضاً. فلا جدوى من الحزن على ما فات[3]. وقد عُرفت الشخصية المصرية بالحزن. آلتها الموسيقية المفضلة الناي. وهي آلة حزينة. وإذا ضحك الإنسان بكى وقال «اللَّهم أجعله خيراً وكأنَّ الفرح نذير شؤم».

والحزن موضوع قرآني يغلب عليه النفي «لا تحزن» أكثر من الإثبات[4]. فالقرآن أقرب إلى اعتبار الحزن سلباً ومن ثم لا ضرورة منه، والآية النموذجية ﴿فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ للذي اتَّبع الهدى وله أجره عند ربه ولمن آمن وعمل صالحاً واتقى واستقام وأصبح وليَّاً من أولياء اللَّه. ويطلب الرسول ﷺ من صاحبه في الغار ألاَّ يحزن، وألاَّ يحزن من ألاعيب النساء ومكرهن، وألا تحزن الأم من فراق وليدها مؤقتاً مثل أم موسى، والأعلون لا يحزنون. ولا يحزن الرسول ﷺ ممن لم يؤمنوا له ولا من أقوالهم. إنما الحزن من الشيطان ونجواه. ولا خوف على المؤمن من يوم الفزع الأكبر. والصيغة فعلية أكثر منها اسمية[5]. والاسم هو الحَزَن وليس الحُزْن أي حالة نفسية وليس جوهراً ثابتاً. لذلك انتشر الحزن في عمق الشخصية المصرية بالرغم من أنها تكوَّنت حول البحر الأبيض المتوسط المعروف بالمرح والنكتة.

صحيح أن لفظ «فرح» ذُكر في القرآن أقل من لفظ «حزن»[6]. وصحيح أن أكثر استعمالاتها سلباً. وهو الفرح الزائف مثل فرح الخلفين بمقعدهم خلف الرسول، والفرح بالنعيم الدنيوي الزائل، والفرح بالسيِّئات تصيب الآخرين، والفرح بما لم يفعل الإنسان، والفرح بالمغفرة قبل أن تتمَّ، والفرح بالشيعة

---

(1) **الإشارات**، ص183.

(2) السابق، ص220.

(3) الحق أعطى كل شيء خلقه ثم هدى
فما ترى من فائت قد فات فالحزن سدى
الحزن حكم واقع لفائت وما عدا
هذا فلا تحفل به فإنه حكم البدا

الفتوحات، ج2، ص187.

(4) ذُكر لفظ «الحزن» في القرآن 42 مرَّةً، نفياً 36 مرَّةً، وإثباتاً 6 مرَّات.

(5) ذُكر اللفظ 37 مرَّةً فعلاً، 5 مرَّات اسماً.

(6) ذُكر لفظ فرح 22 مرَّةً.

والحزب. ومع ذلك يُمدح الفرح. فرح المؤمن بالثواب وبالرحمة والفضل، وبما أُنزل إلى الرسول من وحي[1]. وبالرغم من غلبة الحزن على روح الشعب المصري في العمق لتراكم القهر والفقر عليه عبر السنين، إلا أن المرح يبدو عليه في الظاهر ممثَّلاً في «النكتة»، و«القفشة»، و«السخرية»، و«القافية». يقوم بها الحشاشون وأصحاب الغرز والظرفاء والأفندية والمشايخ وأولاد البلد. وأصبح من المآثر في الشخصية «خفة الدم»، و«خفة الروح».

3 ـ الخوف والرجاء

كما تظهر ألفاظ الأحوال والمقامات مثل الجمع والفَرق، القرب والبُعد، والخوف والرجاء. والأصح اليأس والرجاء لأن الخوف مقابله الثقة بالنفس أو الشجاعة[2]. وهما جناحا العمل لا يتمُّ إلا بهما. الخوف رقيب العمل، والرجاء شفيع المحن. والخلق مأذونون بالخوف والرجاء. وهما زمامان للنفس حتى لا تخرج إلى رعوناتها من الإذلال والأمن، والأياس والقطع. الخوف ظلم، والرجاء راحة[3].

الخوف علامة من عَلِمَ عاقبته. والرجاء من جَهِلَ عاقبته[4]. فكلاهما بالنسبة للمستقبل. وبناء الأعمال على الخوف خير من بنائها على الرجاء[5]. وهو ما يثير في النفس الشك والريبة والتردد. فالخوف ليس مجرد حال، بل هو أمر. وخوف كل عارف بقدر ما تقدم معرفته من نفع وكأن المعرفة نظرية خالصة بالرغم من ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذۡهَبُ جُفَآءٗۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمۡكُثُ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾. ويصاحب الخوف المعرفة وإلا فسدت. ويصاحب الرجاء الخوف وإلا انقطع[6]. فالخوف هو القاسم

(1) مدح الفرح أربع مرَّات ﴿وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾، ﴿قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ﴾، ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَفۡرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَۖ﴾، ﴿فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ﴾.

(2) **المواقف**، ص66-67.

(3) **اللمع**، ص91-93.

(4) السابق، ص97.

(5) «ابن أمرك على الخوف. أثبته بالهم. ولا تبن أمرك على الرجاء، تهدمه إذا تكامل العمل». السابق، ص108.

(6) السابق، ص131.

المشترك بين المعرفة والرجاء. الخوف والرجاء في الطرد عن الله، والعلم والمعرفة في الطرد عن الإنسان[1]. والخوف عند العلماء ليس ما يتصوره العامة، القلق أو الوله أو الانزعاج. إنما هو اسم تصحيح العلم والمشاهدة. الخوف أرض العارفين. يجلب المعرفة، والخوف والرجاء طريقان إلى مقامين. الخوف طريق العلماء إلى مقام العِلم، والرجاء طريق العمال إلى مقام العاملين.

وقد يصل الخوف إلى موقف «اقشعرار الجلود». من آثار النظر إلى الله على باب الحضرة. وهو الميزان والمعيار والعلامة لليقين والتحقيق[2]. ومع ذلك هو الطريق إلى باب الرجاء. فلماذا يكون التخويف طريق الرجاء ولا يكون الرجاء نتيجة للتخطيط والثقة بالنفس؟[3]. الخوف وحشة السر لما قصر في الأمر[4].

وقد لا تأتي الأحوال مزدوجة. يكفي واحد مثل الرجاء دون اليأس[5]. وأحياناً تتمُّ معالجة حال واحد، اليأس، وليس اليأس والرجاء. لا ييأس العبد من اللّه لِيُبرئ ذمته. وكيف ييأس منه وهو يحدثه في قلبه؟[6]. ويوزن الرجاء بالخوف[7]. فعلى قدر الخوف يكون الرجاء، وهما الأهمُ من المنجيات. ويتمُّ التركيز عليهما دون غيرهما. وهما جناحان يطير بهما المقربون. يقويَان على الصبر. أول مقامات الدين اليقين وهو قوة الإيمان باللّه واليوم الآخر، وهو ما يهيج الخوف من النار والرجاء في الجنة. والصبر بعد الخوف والرجاء لا فرق بين المقام والحال. الخوف ناشيء عن اليقين. فإذا صح اليقين في القلب نشأ الخوف. فالخوف دافع سلبي للوصول إلى قيم إيجابية مثل الصدق مع النفس، وطلب

(1) **المخاطبات**، ص270.
(2) السابق، ص194-195.
(3) **مشرب الأرواح**، ص42.
(4) **طهارة القلوب**، ص82-100.
(5) إذا دعـــمـتـك خـيـول الـبـعـاد ونـادى الأيـاس بـقـطـع الـرجـا
الديوان، ص287.
فـمـن بـالـعـفـو يـا إلـهـي فـلـيـس أرجـو سـواك أنـت
السابق، ص296.
(6) **المخاطبات**، ص233.
(7) «وزِن رجاءك بالخوف وزناً عدلاً ثم رجِّح الرجاء فإنه أدلُّ على كرم المرجو». **الإشارات**، ص48.

الكمال. ولا يكون الخوف إلا بعد اليقين. والصبر بعد الخوف والرجاء، لا فرق بين المقام والحال.

وقرين الخوف في القرآن الحزن ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾، وكلاهما حالتان سلبيتان وليس الرجاء. وعلامة الخوف الحزن. وعلامة الرجاء حسن الطاعة[1].

الخوف تألم القلب واحتراقه بسبب توقع مكروه في المستقبل، وهو حال ينتظم من علم وحال وعمل. الخوف حجاب بين اللّه والعبد، وثمرته العلم باللّه والحياء منه. من خاف اللّه فاته كل شيء[2]. فالخوف من اللّه يعطي قوة لإخافة الآخرين. وإذا كان الواصل يفرح بلقاء اللّه وهو خائف منه فماذا يكون فرحه وقد استأمنه؟[3]. الخوف من اللّه علة وحجاب. فإذا كان الموقف منه لا يزيل مراده في الإنسان وإذا كان رجاؤه لا يوصل الإنسان إلى مراده منه فقد تعطل حكم الخوف والرجاء. أما سوى الصوفية من أرباب الرسوم والعلوم. فعليهم فقط التزام الأدب[4]. وإذا خاف العبد من غير اللّه ورجا اللّه فرَّج اللّه خوفه وهو محجوب عنه. فالرجاء من اللّه يكفر الخوف من البشر ويمحوه، ويرفع عنه الحجاب[5]. والخوف من اللّه يمنع الصادقين من الشكوى إلى غير اللّه[6]. والشكوى لا يُذهبها الخوف بل التحقيق فيها وإحقاق الحق منها. الخوف من اللّه يوصل إلى اللّه[7]. والخوف من غير اللّه يُذهب خوف اللّه من القلب. والرجاء من دون اللّه يُذهب الرجاء من اللّه من القلب[8]. ولا يجوز الخوف من إنسان فإن قلبه بيد مَنْ يرجوه[9]. الخوف عدم خوف أحد مع اللّه[10]. الخوف حجاب بين الإنسان واللّه.

(1) أبو عثمان الحيري النيسابوي، السابق، ص172-173.
(2) السرقسطي، السابق، ص53.
(3) البسطامي، السابق، ص71.
(4) أبو عبد اللّه محمد بن خفيف، السابق، ص465.
(5) السابق، ص303.
(6) أبو تراب التخشبي، **طبقات الصوفية**، ص150.
(7) أبو عثمان الحيري النيسابوري، السابق، ص172-173.
(8) شاه الكرماني، السابق، ص193.
(9) أبو بكر الوراق، السابق، ص224.
(10) أبو عمر الدمشقي، السابق، ص279.

الخوف هو الأياس والرجاء هو الطمع[1]. الخوف سوط اللّه في الأرض يقوّم به النفوس التي تعوّدت على سوء الأدب. ومتى أساءت الجوارح الأدب أصبح القلب في غفلة وظلمة[2]. من أحب رؤية خوف اللّه في قلبه فلا يأكل إلا حلالاً أي إتّباع أحكام الشريعة، ولتكن جوارحه في مرضاة اللّه فيباهي اللّه به الملائكة، وتخصه بالدعاء من بين الخلق[3]. من خاف شيئاً سوى اللّه أو رجا سواه أغلق عليه أبواب كل شيء وسلّط عليه الخوف وحجبه بسبعين حجاباً أيسره الشك. ومما يزيد الخوف التفكر في العواقب وخشية تغيُّر الأحوال[4]. وخوف الصوفي من أن يُردَّ عليه عمله، فلا يقبل[5]. خوفه من قلة الزاد وطول المسافة. كما يخاف الحرق بالنار. وكله رجاء وخوف من اللّه[6].

وللخوف درجات تختلف قوةً وضعفاً. وله أقسام بالنسبة إلى ما يخاف منه إما من مكروه أو من مصيبة. الخوف فضيلة تحتذى. والأفضل غلبة الخوف أو غلبة الرجاء أو اعتدالهم، ويستجلب الخوف. فالخوف ليس طبيعةً ولا جوهراً ولا بناءً ثابتاً للنفس بل هو عَرَض طارئ. ينشأ في ظروف وينتهي في ظروف أخري[7].

وهو لفظ قرآني وفي السنّة. وهو أكثر ذِكراً من وصف الرجاء. وهو اسم جامع لحقيقة الإيمان. وهو علم الوجود والإيقان، وسبب اجتناب كل نهي، وإتيان كل أمر. يحرق شهوات النفس، ويزيل آفاتها. وهو كمال العلم، كما أن العلم كمال الإيمان. العلم كسب الإيمان، والخوف كسب المعرفة[8].

---

(1) أبو بكر الواسطي، السابق، ص303.
(2) **خير النساج**، ص325.
(3) **التستري**، ص68.
(4) **الولاية**، ص 232.
(5) «إن كان شيء فخوفي من أن يُردَّ عليَّ». **رابعة**، ص108، 126، 137، 175.
(6) وزادي قـلـيـل مـا أراه مُـبـلـغـي الـلـزاد أبـكـي أم لـطـول مـسـافـتـي؟
أتـحـرقـنـي بـالـنـار غـايـة الـمـنـى فـأيـن رجـائـي فـيـك؟ أيـن مـخـافـتـي؟
السابق، ص130، 166، 178، 180، 182.
(7) **الإحياء**، ج2، ص152.
(8) «شرح مقام الخوف ووصف الخائفين». **قوت القلوب**، جا، ص457-490.

ومن خوف العارفين خوفهم بأن اللّٰه يُخيفُ عباده، وخوف النفاق الذي لا يعتري الصدِّيقين والشهداء والصالحين، وعلاماته كثيرة، وخوف سلب الإيمان، وخوف قطع المزيد من علم الإيمان، وخوف السوابق والخواتم. وتعتري الملائكة والأنبياء والصحابة والتابعين والسلف والصالحين شدة الخوف[1]. وهو الخوف من الحساب. نيام الناس إلا الخائفين. والخائفون متقطعون إلا الراجين والراجون لم يصلوا إلى المخلصين[2]. والخوف أنواع. خوف الأنبياء والأولياء وأرباب المعارف، وخوف التسليط، وخوف الملائكة، وخوف مكر الحق، وخوف العامة، وخوف تلف النفس[3].

الخوف رقيب العمل، والرجاء شفيع المحن. إذا سكن الخوف القلب أحرق الشهوات وطرد الغفلة منه. أليس إحراق الشهوات إماتة النفس، والقضاء على البواعث والرغبات؟ فإلى أي شيء ينتبه القلب إذا ماتت النفس من الاختراق؟[4]. حتى لو كان للسلطان فراسة في الأشرار، لماذا لا يخرج الخوف من السلطان من قلب الصوفي خاصة، لو كان من الملامتية؟ أيكون هنا يستحق الملامتية اللوم[5].

وأبلغ الخوف ما حجز من العاصي، وأطال الحزن على ما فات، وألزم الفكرة بقية العمر. والكف عن المعاصي خوفاً هو أجير السوء. والحزن على ما فات لا يجدي إلا بالعزم في الحاضر، والنيَّة في المستقبل. وإلزام فكرة بالخوف لا يبقى طول العمر وينتهي بنهاية الخوف[6].

وللخوف ثلاثة أشياء: خوف الإيمان وعلامته مفارقة المعاصي والذنوب، وهو خوف المريدين، وخوف السلف وعلامته الخشية والإشفاق والورع، وهو خوف العلماء، وخوف الفوت وعلامته بذل الجهد في طلب مرضاة اللّٰه يوجه

(1) **الإحياء**، جـ4، ص177-185.
(2) السابق، ص87.
(3) ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾، ابن عربي، **التفسير**، ص138.
(4) أبو سليمان الداراني، السابق، ص81.
(5) حمدون القصار، السابق، ص26.
(6) عبد اللّٰه بن حبيب الأنطاكي، السابق، ص145.

الهيبة والإجلال للَّه وهو خوف الصدِّيقين. ويُضاف إليه مقام رابع خص اللَّه به الملائكة والأنبياء وهو خوف الإعظام[1].

وما يُذهب الخوف هو الأنس والأمن[2]. والكل من اللَّه[3]. وكلما اقترب السالك من الطريق انتابه الخوف وأعطاه الحب والأمان[4]. الخوف انعدام الأمن من القلب.

ويُتصور الخوف على نحو عضوي جسمي. فقد يفيض الخوف من القلب إلى المرارة أو إلى الدماغ أو إلى الرئة أو إلى الكبد أو إلى الفرائص أو إلى العقل أو إلى النفس، وعلى النقيض. يرتبط الخوف بالفِرَق الكلامية. فقد انتشر عند البصريين والعسكريين. وتبنوا القدر واللطف وتفويض المشيئة وتقديم الاستطاعة. وله علاقة بالخروج على السلطان مثل الخوارج.

ويؤدي الخوف إلى التقوى عند المتقين الصالحين، والحذر عند الزاهدين الورعين الخائفين، والخشية عند العاملين العابدين المحتسبين، والوجل عند الذاكرين العارفين، والإشفاق عند الصدِّيقين.

---

(1) السابق، ص176–177.

مقامات الخوف

خوف الإعظام	↑	(الملائكة والانبياء)
خوف الفوت	↑	(الصدّيقون)
خوف السلف	↑	(العلماء)
خوف الإيمان	↑	(المريدون)

(2) أنفسك نفسك كن خائفاً ... على حذر من كمين الجفا
الديوان، ص287.

(3) مالي بغيرك أنس ... إذا كنت خوفي وأمني
السابق، ص326.

(4) وخفت مما جنيت قدماً ... فوقع الحب بالأمان
السابق، ص330.

وأتمُّ الخوف ما كان على صفة الوجد لا على فَقْد ما يرجو أو يتمنى[1]. وهو الخوف الموضوعي وليس الخوف الذاتي. وفي الوقت نفسه، الخوف والرجاء في القلب. فهما فعلان من أفعال الشعور[2].

إذا سكن الخوف في القلب لم ينطق اللسان إلا بما يعنيه[3]. فالخوف يسيطر على النطق من زلات اللسان، إذا سكن الخوف أحرق مواضع الشهوات وطرد رغبة الدنيا. والركون إلى الدنيا هو الذي يقطع ويهلك[4]. الخوف اضطراب القلوب بما علمت من سطوة المعبود. وماذا عن المعبود باعتباره حبيباً كما هو الحال عند رابعة؟.

الخوف والرجاء والحب ثالوث واحد. الخوف بداية، والرجاء وسط، والحب نهاية. الخوف الأرض، والرجاء البنيان، والحب السقف[5]. يخاف المحب بل هو أشد الناس خوفاً أن يفقد حبيبه أو ينقطع حبه[6]. الخوف ذَكَر والرجاء أُنثى[7]. فعلاقة الحالين المتضادين علاقة الذَكَر بالأُنثى مثل القبض والبسط، والهيبة والأنس.

وهو لفظ قرآني[8]. فحال القرب يقتضي المحبة والخوف على ثلاثة أوجه: الأول، خوف العامة من السخط والعقاب، واضطراب القلوب من سطوة المعبود. والثاني، خوف الأواسط وخوف الخاصة، فوق القطيعة واعتراض الكدورة على صفاء المعرفة. هو خوف ألا يسلم اللّه الإنسان إلى نفسه[9]. هو الخوف على النفس من اللّه[10]. وهو حكم الوقت[11]. وعلامته ألاَّ يعلل النفس بعسى وسوف[12].

---

(1) أبو عبد اللّه الصبيحي، **طبقات الصوفية**، ص331.
(2) أبو علي الروزباري، السابق، ص259.
(3) أبو علي بن الكاتب، السابق، ص387.
(4) إبراهيم بن شيبان القرمسيني ص404.
(5) **التستري**، ص255.
(6) السابق، ص295.
(7) السابق، ص303.
(8) **اللمع**، ص 89-93.
(9) هذا هو رأي الشبلي.
(10) رأي أبي سعيد الخراز.
(11) رأي ابن خبيق.
(12) رأي الفناء.

وعلامته أيضاً هيجان القلوب، وشدة الذعر من الترهيب. هو الخوف من النفس أكثر من الخوف من الشيطان[1]. والثالث خوف خاصة الخاصة. وهو الخوف المقرون بالإيمان[2]. لو قُسّم على أهل الأرض لسعدوا به. وهو الخوف من اللّه[3]. وهو الخوف من القطع وليس من العقوبة كما هو الحال عند العوام[4].

والخوف من القطيعة يُذبل نفوس المحبين، ويُحرق أكباد العارفين، ويُوقف ليل العابدين. ويُظمئ نهار الزاهدين، ويُكثر بكاء التائبين، ويُنغّص حياة الخائفين[5]. الخوف والرجاء مرتبطان بالتصوف الخلقي. فهما زمانان يمنعان من سوء الأدب[6].

الخوف اجتناب النواهي ورجاء الأوامر[7]. وهذا هو أجر السوء عند رابعة، والخائف هو من يترك ما نهاه اللّه خوف التعظيم وخوف الخشية وهو ميراث هذا الخوف. هو من يعبد اللّه عن خوف، ويخشى الخوف، فيرث الخوف. وبالتالي يقع الخوف في دائرة مُفرغة ويصبح مقدّمةً ونتيجةً، علةً ومعلولاً. الخائف لا يقصر. ولا يكون صافي المطعم كثير الأكل[8]. يفقد الشهية. الخائف لا يعصى، ولا يصر على المعصية[9]. الخوف ليس وسيلة للطاعة. فالطاعة حسنة في ذاتها، والأفضل أن تكون، الرجاء يقود المؤمن، والخوف يسوقه[10].

والخوف عملية متدحرجة تنكشف تدريجياً من البداية إلى النهاية. في البداية خوف العقوبة بتصديق الوعيد ومراقبة العافية. وفي المعاملات خوف المكر بالصدود والإعراض. وفي الأخلاق خوف النقص وفقدان الكمال. وفي الأصول

(1) رأي ابن خبيق.
(2) هو رأي سهل بن عبد اللّه.
(3) رأي ابن الجلاء.
(4) رأي الواسطي.
(5) أبو الحسن الوراق النيسابوري، السابق، ص300.
(6) أبو بكر الواسطي، السابق، ص303.
(7) السابق، ص96.
(8) السابق، ص351.
(9) السابق، ص103/ 237.
(10) السابق، ص200.

الخوف بالصدود والنقض وفقدان الأنس والعزم والإرادة. وفي الأدوية خوف قصور مهمة والبقاء في الجهل والذلة. وفي الأحوال زوال السوء والوجد. وفي الولايات جعل الحزن هيبة الإجلال بتجلي العظمة. وفي الحقائق هيبة تمنع المشاهد من الانبساط. وفي النهايات هيبة القهر عند مناداة الذات[1].

إزالة الخوف ممكنة إذن وليس فقط تثبيته كحال ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾. بالأمن والغرة يحلّان في القلب والهلاك في اثنين القنوط والعجب أي الخوف والرجاء.

الخوف مقام الإلٰهيين، وهو متناقض للخوف من الحجاب والخوف من رفع الحجاب في آن واحد. فالخوف حيرة. وكما يوجد الخوف هناك ترك الخوف. فالخوف متعلّق بالعدم. والعدم لا يبعث على الخوف. والوجود أقوى من العدم[2].

وواضح أن الخوف هو الموضوع الرئيسي في الأحوال. ويتقدمها جميعاً بل ويكون بديلاً عنها كلها[3]. ويتحول من تصور إلى خيط ينظم عديداً من الحكايات والروايات والمسائل واللطائف والإسرائيليات والفوائد والمواعظ، بالإضافة إلى الأدلة النقلية المعروفة، تدور حول موضوعات متشعبة، معظمها خارج موضوع الخوف. الخشية هي الخوف من الخوف أي الارتعاش. هو الخوف من الوهم بعد تحوله إلى بناء نفسي. فكيف يمتلك القلب بكمال الخشية؟[4] كمال الخشية ترك الآثام في السر والعلانية. الخشية نعم اللّٰه وفضله. والسيِّئة إيغال الإنسان نفسه إليها. الخشية سر، والخشوع ظاهر[5].

---

(1) **جامع الأصول**، ج3، ص115.

(2) **الفتوحات**، ج2، ص184-185.

لما تعلّق علم الخوف بالعدم — لم أخش منه فَحُزْنا رتبةَ القدم
أنا الوجود فلا خوف يصاحبني — لأن ضدي منسوب إلى العدم
إن الذي خفت منه لا وجود له — فاترك مخافته لحماً على ضم

السابق، ص184.

(3) **نزهة المجالس**، ج2، ص35-44.

(4) محمد بن علي الترمذي، **طبقات الصوفية**، ص220.

(5) السابق، ص257.

والرجاء حال في مقابل الخوف عندما تكون الأحوال مزدوجة. وهو أيضاً لفظ قرآني[1]. هو ترويح من اللّه لقلوب الخائفين وإلاَّ تَلِفَتْ النفوس، وذهبت العقول. وهو على ثلاثة أقسام: الأول رجاء العوام في اللّه ثواب اللّه، من الفضل والجود. والثاني رجاء الخواص في سعة رحمة اللّه[2]. والثالث رجاء خواص الخواص في اللّه وحده دون سواه[3]. وللمؤمنين الخوف والرجاء مقامان. أعلاهما مقام المقربين، مقام مشاهدة الصفات. والثاني مقام أصحاب اليمين، ما عرفوه من بدائع الأحكام. الخوف والرجاء سبب اعتدال حال المؤمن. ويتفاوت الراجون في فضائل الرجاء. المقربون يرجون النصيب الأولي من القرب والمجالسة والتجلي بمعاني الصفات. وأصحاب اليمين يرجون النصيب الأوفر من العطاء. واللجأ هو توجع القلب إلى اللّه بصدق الفاقة والرجاء[4].

ويُستعمل الرجاء في ثلاثة مواضع. عدم القنوط بعد الذنوب، والإمساك عن العمل الصالح بعد تذكُّر الذنوب، والحث على العمل الصالح. وتُستعمل وصايا لقمان لابنه ربما من الإسرائيليات[5]. الرجاء طلوع صبح اليقين في قلوب أهل الحزن والحنين[6].

الرجاء اسم لقوة الطمع في شيء عكس الخوف. وهو اسم لقوة الحذر من شيء. والتعارض بين اليأس والرجاء وليس بين الخوف والرجاء. وكلاهما ضروري كجناحَي الطير أو النهار والليل. ومن لم يعرف الخوف لم يعرف الرجاء. ومن علامة صحة الرجاء كمون الخوف في باطنه. ومن الرجاء القنوت ساعات الليل، والأنس باللّه في الخلوات. ومن الأنس به الأنس بالعلماء، والتقرب من

(1) **اللمع**، ص91-92.
(2) هو رأي ذو النون.
(3) هو رأي الشبلي وذو النون.
(4) **اللمع**، ص444.
(5) السابق، ص118-120.
(6) **لطائف الأعلام**، جـ2، ص396-398. الرجاء الطمع في طول الأجل وبلوغ الأمل. وهو حال الضعفاء، رجاء المجازاة هو الرجاء الذي يبعث على الاجتهاد. رجاء أرباب الرياضات تصفية القلوب لتستعد للقاء المحبوب، ورجاء أرباب القلوب لقاء المحبوب الحق، الرجاء ابتهاج النفس.

الأولياء[1]. ومن الرجاء التلذذ بدوام حسن الاستقبال، والتفهم بمناجاة ذي الجلال، وحسن الإصغاء إلى محادثة القريب، والتلطف في خُلق الحبيب، وحُسن الظن في العقل الجميل، والفضل الجليل. ومن الرجاء شدة الشوق إلى ما شوَّق إليه الكرم، وسرعة التنافس فيما ندب إليه الكريم. ومن الرجاء تحسين الأخلاق مع الخَلق، والصبر عليهم، وحُسن الصفح. ومن الرجاء ترك الأهواء الرديئة والشهوات المطية.

الرجاء من جملة أحوال السالكين وأحوال الطالبين. ويسمَّى الوصف مقاماً إذا كان ثابتاً. وحالاً إذا كان عارضاً. والرجاء في الأحوال مثل العوافي والغنى في الإنسان. هي حالة آثرها العلم بجريان الأسباب. وهو فضيلة تُحتذى[2].

ويمد الصوفي كفة إلى اللّه داعيا جزاء سهوه ولا يقطع رجاءه منها بالرغم مما فعلت يداه. واللّه يعلم بحاله قبل الدعاء[3]. الرجاء هو الطمع في فضل اللّه ورحمته وصدق حُسن الظن عند نزول الموت[4]. وإذا غلب الرجاء على الخوف فسد الوقت لأن الرجاء نتيجة وليس مقدِّمة[5]. الرجاء بسط والخوف قبض. الرجاء إيجاز إيجاب والخوف سلب. والسلب قبل الإيجاب. وأنفع رجاء ما سهل العمل كي يتحقق. فالرجاء ليس مجرد تمني بالقلب بل تحقيق بالفعل[6]. والرجاء على صلة بالمقامات، داخل في تحقيق الرضا[7]. وهو طريق الزهاد. والخوف سلوك الأبطال، وهل يخاف بطل؟ وكيف يرجو زاهد؟[8].

من عرف ربه لم ينقطع رجاؤه[9]. فاللّه هو المثل الأعلى الذي يحاول الإنسان الاقتراب منه. وهما حالان طبيعيان تلقائيان. من حمل نفسه على الرجاء

(1) «شرح مقام الرجاء ووصف الراجين»، **قوت القلوب**، جـ1، ص432-456.
(2) **الإحياء**، جـ4، ص139-152.
(3) ذو النون، **طبقات الصوفية**، ص22.
(4) المحاسبي، السابق، ص59.
(5) أبو سليمان الداراني، السابق، ص76.
(6) عبد اللّه بن خبيق، السابق، ص145.
(7) عمرو بن عثمان المكي، السابق، ص204.
(8) أبو محمد الجريري، السابق، ص264.
(9) أبو بكر محمد بن داود الرقي، السابق، ص449.

تعطل. ومن حمل نفسه على الخوف قنط، ساعة ساعة، ومرَّةً مرَّة[1]. فما العمل بين تعطل الرجاء وقنوط الخوف؟ والرجاء ضد القنوط ﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾[2].

ولا يُترك الرجاء كما يترك الخوف. فالرجاء نصف الإيمان. أما النصف الآخر فليس الخوف بل الثقة بالنفس[3]. والرجاء يُذهب الخوف. وهو مجاورة الأماني. والمجاورة اطِّلاع وثقة بالنفس[4]. والرجاء يبعث في النفس الأمل وليس بدافع الخوف.

ويتضمن الرجاء الأماني. فمن أعطى نفسه الأماني قطعها بالتسويف والتواني[5]. هو الذي يساعد الإنسان على الإقالة من العثرة. هو الأمل في الشفاه بعد أن عجز الأطباء. والشفاء هو اللقاء مع الحبيب وتحقيق الرجاء[6].

وأعلى درجات الخوف هو الخوف من الخاتمة. فقد يقع سوء الخاتمة لأهل البدع والزيغ في الدين لارتباطهم بالمعقول، وأهل الكبر والإنكار لآيات اللّه بسبب الشك، والوعي المتظاهر، والفاسق المعلن والمصر المدمن. والرجاء عملية متدحرجة من البدايات إلى النهايات[7].

والعجيب أن الخوف والرجاء ينتهيان بسوء الخاتمة وليس بحسن الخاتمة[8].

---

(1) أبو عثمان المغربي، السابق، ص482.

(2) **الإشارات**، ص217.

(3) **الفتوحات**، جـ4، ص185-186.

(4) السابق، ص110.

(5) أبو عثمان المغربي، **طبقات الصوفية**، ص482.

(6) أقلني عثرتي، وأسمع دعائي — فأنت اليوم في الدنيا رجائي
لقد أعيا الأطبة ما دوائي — وعندك يا عزيز دواء دائي
دوائي نظرة فيها شفائي — شفائي في لقائك يا منائي
أبو القاسم المغري، **طبقات الصوفية**، ص511.

(7) في البدايات توقع النجاة. وفي الأبواب رجاء الثواب. وفي المعاملات رجاء التقرب والكرامات بالحرمة والرعاية. وفي الأخلاق رجاء مقام الفتوة لصحة المروة. وفي الأصول بالأنس والغش بالحق عن الأنس. وفي الأدوية توقع نزول السكينة عند وقوع البلية. وفي الأحوال توقع اللقاء عند البرق والسرور والذوق. وفي الولايات توقع التمكين عند ظهور التلون. وفي النهايات استيهاب مقام أحد الجمع والفرق.

(8) **الإحياء**، جـ4، ص170-177.

وهي على رتبتين أحدهما أعظم من الأخرى. العظمى ما يغلب على القلب عند سكرات الموت، أو الجحود حين قبض الروح. والصغرى غلبة حب الدنيا حال قبض الروح.

والخوف لفظ قرآني أكثر ذِكراً من لفظ «الرجاء». نصف الاستعمالات منع الخوف في صيغة «لا تخف»[1]. فالمؤمن الذي يعمل صالحاً ولا يتبع الهوى لا يخاف من الشرك والشركاء ولا من الآخرة. والمرسلون لا يخافون المرسل إليهم. ولا يخاف من الناس ولا من أولياء الشيطان، ومن يجاهد في سبيل اللَّه ولا يخشى في اللَّه لومة لائم، ومن أسلم وجهه للَّه وهو محسن فلا خوف عليه. إنما يأتي الخوف من النفس وظلمها. تخشى المرأة من بعلها. ويخشى الرجل من ترك ذرية ضعافاً. ويخشى من قومه. وتخشى الأم على طفلها. والخوف من الظلم والطغيان والشقاق والفتنة والفقر، والخوف من افتراس الذئب ومن الكذب والقتل وتبديل الدين، والخوف من عدم تطبيق حدود اللَّه والوعيد، ومن عذاب الآخرة ومن اللَّه. أصبح الخوف هو السنَّة الغالبة على الوجدان العربي المعاصر، الخوف من الحاكم والرئيس والوزير والمدير والأب والأخ الكبير، الخوف من «سي السيد» القابع في الوجدان عبر تراكم طويل. لا فرق بين الخوف من الواقع والخوف من الوهم. طبقاً للمثل العامي «اللي يخاف من عفريت يطلع له». فالوهم توهم، من خلف النفس، وعجزها عن السيطرة على الواقع بالعقل وبالفعل، بالفهم وبالتأثير.

أما الرجاء فقد ذُكر في القرآن أقل من الخوف إما رجاء لقاء اللَّه وكتابه ورحمته واليوم الآخر أو رجاء أمور دنيوية كنكاح أو تجارة[2].

ويغلب على الوجدان العربي المعاصر اليوم نغمة التشاؤم بعد الهزائم المتكررة أمام العدو الصهيوني بالرغم من المقاومة. ولم يستطع بعض الانتصارات لَأْمَ الجراح. وازداد الغم بعد الموجة الثانية من الاستعمار الجديد والغزو المباشر. واشتد اليأس بعد الاعتراف والمفاوضة للصلح والتحالف الاستراتيجي مع أعداء الأمس، وقهر الشعوب وعدم أخذ مصائرها بأيديها.

---

(1) وَرَدَ لفظ «الخوف» ومشتقاته في القرآن 124 مرَّةً، لا تخف 40 مرَّةً، ومن 124 مرَّةً 20 أمر الخوف من اللَّه، وليس من البشر أو من الأشياء أو من الأوضاع.

(2) ذكر اللفظ 27 مرَّةً أكثرها رجاء لقاء اللَّه (5)، رحمة اللَّه (5)، للَّه (4)، اللَّه (3)، من =

4 ـ القبض والبسط

لفظان قرآنيان. وهما حالان شريفان لأهل المعرفة إذا قبضهم الحق أحشمهم عن تناول الحرام والمباحات والطعام والشراب والكلام. والبسط العكس، العودة إلى هذه الأشياء. القبض حال رجل عارف، والبسط حال رجل عارف حفظه اللّه. وهما مثل الخوف والرجاء. القبض من الخوف، والبسط من الرجاء. الخوف يقبض عن المعصية، والبسط يؤدي إلى الطاعة عند العارف. فالعارفون على ثلاثة أصناف. الأول ليس لهم نفس، والثاني يحثه الوجد إلى الحال الذي يتولاهم الحق، والثالث غاب عنهم العرف والعادة، واستوى عندهم النطق والصمت[1]. يأتيان بعد الخوف والرجاء. فالقبض للعارف مثل الخوف للمستأنف. والبسط للعارف مثل الرجاء للمستأنف. والخوف والرجاء يتعلّقان بالمستقبل. أما القبض فيتعلّق بالحاضر، بالوقت واللحظة. يأتيان في وقت معلوم في أول حال المحبة. وبعد المحبة يظهر حالا الخوف والرجاء[2]. البسط بالنسبة إلى القلب مثل الرجاء بالنسبة إلى النفس. وهو وارد يقتضي قبولاً ولطفاً ورحمة وأنساً. القبض والبسط مثل الحزن والرجاء[3].

القبض هو حال الخوف في الوقت. الأسف للماضي، والخوف للحذر في المستقبل والقبض للمعني الحاصل في الوقت. فهو حال ينتجه الخوف. القبض وارد يرد على القلب. إشارة إلى عتاب أو زجر باستحقاق تأديب بحكم قهر وغلبة. والبسط حال الرجاء في الوقت لرفيع المنزلة. وهما حالان فلسفيان كونيان وليسا فقط حالين نفسيين[4]. القبض سلب الصفات بالصفات، وامتناع الذات بالذات عن مطالعة العلات. والبسط إرسال الحق قلب المقبض بالعظمة إلى فضاء العالم بلغة الروح والأنس[5].

= اللّه (2)، اللّه واليوم الآخر (2)، اليوم الآخر (1)، نشور (1)، كتاب اللّه (1)، حساب (1)، نكاح (1)، تجارة (1).

(1) **اللمع**، ص419-420.

(2) **عوارف المعارف**، جـ4، ص432-440.

(3) **جامع الأصول**، جـ3، 19.

(4) **الفتوحات**، جـ4، ص509-512.

(5) **مشرب الأرواح**، ص207.

وعندما يقبض اللّه ويبسط يبرئ من الأنساب ويعري من الأحساب[1]. ولا يؤذن لأحد بالانبساط على بساط الحق لأنه عزيز، حواشيه قهر وجبروت. فمن انبسط عليه رُدَّ عليه[2]. وقد يُسمَّى البسط الانبساط وهو سقوط الاحتشام عند السؤال ووضع الكلفة ونهاية الوحشة[3]. القبض وارد يرد على القلب إشارة إلى عتاب أو تأديب. والانبساط وارد معاكس، التقريب دون التبعيد، والإقبال دون الإدبار «قف على البساط وإياك والانبساط».

القبض هو حال الخوف في الوقت الحاضر. والخوف حذر من المكروه في المستقبل، والرجاء هو ما يتوقع من السرور في المستقبل، القبض حزن النفس على وجه يُبطل دواعيها[4]. القبض للعارف والخوف للمستأنف. الخوف والرجاء متعلِّقان بالمستقبل والقبض والبسط متعلِّقان بأمر حاضر، القبض التام وارد غيبة قوية والقبض الناقص وارد غيبي ضعيف. القبض والبسط مرتبطان بباقي الأحوال. الخوف يقبض، والرجاء يبسط. الحقيقة تجمع والحق يفرِّق[5].

الشاهد يرى الحق بنعت الجمال ويبسط له روح الوصال والسرور بالجلال. وهو بسط الشهود وليس بسط التوحيد[6]. وارد يشير إلى قبول لطف ورحمة وأنس[7]. الانبساط زوال الاحتشام بين العاشق والمعشوق[8]. هو السير مع الجِبِلَّة بإرسال السجيَّة، والتحاشي من وحشة الحشمة. وهو قسمان: انبساط مع الخلق، وانبساط مع الحق. الأول إيثار الغير على النفس والمواساة له وتحمل سوء العشرة. والثاني عدم حبس الخوف والرجاء. ينطوي الانبساط في الانبساط، انبساط الإنسان في انبساط الحق[9].

---

(1) **المخاطبات**، ص275.

(2) ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ﴾ ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي﴾ ﴿قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَ﴾، ابن عربي: **التفسير**، ص123.

(3) **القشيرية**، ص33.

(4) **لطائف الأعلام**، ج2، ص577-579.

(5) **جامع الأصول**، ج2، ص232-236.

(6) **مشرب الأرواح**، ص168.

(7) **اصطلاحات الصوفية**، ص37.

(8) **مشرب الأرواح**، ص189.

(9) **لطائف الأعلام**، ج1، ص210-211.

القبض أول أسباب الفناء. والبسط أول أسباب البقاء. حال من قبض الغيبة، وحال من بسط الحضور ونعت من قبض الحزن. ونعت من بسط السرور[1]. فالأحوال متتالية يتخلق بعضها من بعض، من عطش إلى حالة أتمّ ممن دهش منها. وليس من دهش بها أتم ممن عطش إليها. وهذا شأن قبض الحق بالفناء وبسطه بالبقاء[2]. فتوالي الأحوال بين الدهشة والعطش.

البسط حال من يسع الأشياء ولا يسعه شيء. وهو حال الرجاء. وهو وارد يوجب الرحمة والأنس. والقبض ضده. والنفس فيه على نشاط وطرب وبهجة. وبسط الزمان هو جعل الزمان القصير طويلاً[3].

القبض والبسط ليسا حالتين نفسيتين ولكنهما حالتان طبيعيتان كفيض نور مثل الطي والنشر والإخفاء والإظهار وليسا فعلين إلٰهيين على غير ما يبدو من ظاهر الآية. واللَّه يقبض ويبسط. فأفعال الشعور الداخلية والخارجية أفعال حرة[4]. يتعاقبان كتعاقب الليل والنهار. القبض مثل الليل والبسط مثل النهار، وكذلك يتعاقب الفَقْد والوجد.

وأسباب القبض ثلاثة: ذنب وقع أو دين ذهب أو أذى ظالم. وأسباب البسط المعلوم ثلاثة: هي زيادة الطاعة كالعلم والمعرفة، وزيادة في الدنيا كالكسب والكرامة، والثالث المدح والثناء من الناس. وتقتضي العبودية رؤية المنة. وأسباب البسط المجهول فحق العبودية ترك السؤال والصولة على النساء والرجال. والشكر لنعم اللَّه، والرضا عنه إذا فقدت، وتسليم الوجه له[5]. والقبض عملية تتكشف تدريجياً على مراحل. والقبض على مستويات ينفضُّ بعضها عن بعض[6].

(1) أبو عبد اللَّه محمد بن خفيف، **طبقات الصوفية**، ص464.
(2) أبو عبد اللَّه الروذباري، السابق، ص499.
(3) **لطائف الأعلام**، جـ1، ص234.
(4) «موقف نور». **المواقف**، ص134.
(5) **جامع الأصول**، جـ1، ص125-127.
(6) وهي قبض الحق عبده عن الخلق بستره وتلبيسه الشريعة وصورة العوام صياغة عن النفس. في البدايات القبض عن المخالفات. وفي الأبواب القبض عن الفضول الشاغلة عن المناجاة. وفي المعاملات القبض عن رؤية الأفعال من المسببات. وفي الأخلاق القبض من صفات النفس واستيلاء الرذائل. وفي الأصول القبض عن الفوز في السير وحُدِّدت العلائق =

والانبساط عملية تدريجية من البداية إلى النهاية[1]. والبسط عملية متدحرجة. وهو بسط الحق عبده لقوة معناه وكمال عرفانه بحيث يشهد الحق في الخلق[2].

والقبض مذكور في القرآن بالعباد ﴿وَٱللَّهُ يَقۡبِضُ وَيَبۡصُۜطُ﴾، ويعني المَسْكَ باليد حقيقةً أو مجازاً. حقيقة بيد الرسول ﷺ أو الإنسان أو الطير. والمعنى الشائع هو المجازي أنه فعل إلٰهي[3]. وذُكر لفظ البسط ومشتقاته في القرآن أكثر من القبض وبمعانٍ أكثر تعدداً. بسط الرزق المادي هو الأكثر استعمالاً ثم بسط اليد للفعل للقتل أو صورة للبخل بربط اليد إلى العنق أو مدِّها صورة للكرم والعطاء والزيادة. وهو فعل إلٰهي طبيعي في مدِّ الأرض والبسط الأرواح أو الريح أو قبضها أو صورة للفعل غير المؤثِّر وهو باسط كفيه إلى الماء.

وفي الوجدان العربي المعاصر يعمل القبض أكثر من البسط. القبض همٌّ وضيق وحصر وهو الغالب. والبسط هو الراحة والانبساط والاطمئنان وهو الأقل[4].

= والموانع. وفي الأدوية القبض عن السلو والبطالة. وفي الولايات القبض عن كثرة الصفات إلى وحدة الذات. وفي النهايات القبض عن رسم العبد.

(1) **جامع الأصول**، جـ3، ص156–157. وهو إرسال النفس على مقتضى السجية والتحاشي عن وحشة الحشمة. في البداية ترك التكلف. وفي الأبواب تغليب الرجاء على الحق بحسن الظن بالرب. وفي المعاملات المباسط مع الخلق بحسن العشيرة. وفي الأصول درجته الانبساط في الإقدام على طلب القرب. وفي الأدوية الخروج عن قيد العقل بنور البصيرة. وفي الأحوال الانبساط بفرط السرور في طلب السر. وفي الحقائق الانبساط ببسط الحق. وفي النهايات التحقق بالاسم الباطن بعد طمسه والتبسط ببسط الحق في مقام البقاء بعد الفناء.

(2) **جامع الأصول**، جـ3، ص187–188. وفي البدايات الفرح للتوفيق بالموافقات. وفي الأبواب غلبة الرجاء على الخوف حُسن الظن بالرب. وفي المعاملات بسط القلب برماية الأفعال كلها لله. وفي الأخلاق البسط مع الخُلق الحَسن للوقوف على أسرار القدر. وفي الأصول البسط لغيرة اليقين والأنس بالله. وفي الأدوية البسط بشهود أنوار التجليات وذوق الوصول إلى المحبوب. وفي الولايات البسط بتولي الحق إياه. وفي النهايات البسط ببهجة الجهل المطلق وشهود الكل.

(3) ورد اللفظ 9 مرَّات. فعل إلٰهي 4 مرَّات، فعل الرسول مرَّتان، الإنسان مرَّتان، فعل الطير مرَّةً واحدة.

(4) ذُكر اللفظ 25 مرَّة، بسط الرزق (10)، بسط اليد (8)، بسط الأرض (1)، بسط الروح (1)، بسط الطير (1)، بسط الريح (1)، بسط الذراع (1)، بسط الكف (1)، البسطة (2).

5 ـ الهيبة والأُنس

الهيبة والأنس بعد القبض والبسط. الهيبة مثل القبض، والأنس مثل البسط، سلب وإيجاب. فإذا ما ضاقت على الصوفي الأوقات والأنفاس فإنه يلجأ إلى أنس البسط، وصفاء الود، حصوناً عن سوء الأكدار(1). الهيبة والأنس حالتان شبيهتان بالقبض والبسط، حالان فوق القبض والبسط كما أن القبض والبسط فوق الخوف والرجاء، وقد يكون الأنس مع الخوف، فاللَّه أنيس الصوفي وخوفه وأمنه(2). الأنس هو ارتفاع الحشمة مع وجود الهيبة(3). والإنسان هو انبساط المحب إلى المحبوب. هو الأنس محادثة الأرواح مع المحبوب في مجالس القرب(4).

الأنس بغير اللَّه وحشة(5). ومَنْ عَدِمَ الأنس من حاله لم يزده التنزه إلا وحشة. ومعظم التحليلات للأنس وليس للهيبة. وكلاهما لفظان قرآنيان وأحياناً يرد لفظ الاستيحاش بدلاً من الهيبة، وأحياناً يُستعمل لفظ الأُلفة بدلاً من الأنس.

وحق الهيبة الغيبة. فكل هائب غائب. ويتفاوت الهائبون في الهيبة حسب تفاوتهم في الغيبة. الهيبة والأنس مثل الغيبة والحضور. وهي مثل السُّكْر والصحو. فالهيبة سُكْر والأنس صحو. ومثل الفناء والبقاء، فالهيبة فناء، والأنس بقاء(6).

والتأنيس تجلي الظاهر تأنيساً للمريد في بداية الطريق(7). وهي عملية الأنس، التجلي في الظاهرة الحسية تأنيساً للمريد المبتدئ بالتزكية والتصفية(8). ما ازداد أحد من اللَّه قربة إلا زاده هيبة(9). والهيبة هي التي تشاهد جلال اللَّه في

---

(1) أبو الحسن البصري، السابق، ص493.

(2) مـــالـــي بـــغـــيـــرك أنـــس وأنت عند الدجى سميري

الديوان، ص305.

(3) الجنيد، **عوارف المعارف**، جـ4، ص412.

(4) الخراز، السابق، ص415.

(5) أبو عمرو إسماعيل بني نجيد، **طبقات الصوفية**، ص457. **القشيرية**، ص33.

(6) **عوارف المعارف**، جـ4، ص418-419.

(7) **لطائف الأعلام**، جـ1، ص243.

(8) **جامع الأصول**، جـ3.

(9) ذو النون، **عوارف المعارف**، جـ4، ص423.

القلب، وقد تكون عن الجَمال أو جَمال الجلال. وحق الهيبة الغيبة. فكل هائب غائب. وشقاوة الغيبة على حسب تفاوت الهيبة. يتولد الأنس من السرور باللّه. وإن صح استوحش من كل شيء سواه[1]. والأنس باللّه استيحاش بالناس[2]. فالرأسي تعويض عن الأُفقي[3]. وكل إنسان مستوحش من اللّه إلا الصوفي فإن بينه وبين اللّه أُنس وأُلفة. والناس شعور حامل لا يدرك مدى القرب أو البعد أو الوحشة أو الأنس مع اللّه[4]. وحشة الإنسان عن الحق أوحشت القلوب. والأنس باللّه والالتزام بالحق يدخل الأنس بهم كل الناس. فالأُلفة مع اللّه تجعل أفئدة الناس تهوي للأليف[5]. الأنس باللّه الاستوحاش من الخلق إلا أهل الولاية فإن الأنس لأنفسهم أنس باللّه[6]. ومن لم يكن أنسه في خدمة ربه فهو من أنسه في وحشة[7]. ومن وحشة القلوب عن مصادر الحق أنسها بالأجناس. ومن أنس قلبه باللّه استوحش مما سواه[8]. وكيف يكون الأنس بالخلق وحشة، والطمأنينة إليهم حمق، والسكون إليهم عجز، والاعتماد عليهم وهن، والثقة بهم ضياع، وليس للإنسان إلا الخَلْق الذي يعيش بينهم؟ وكيف إذا أراد اللّه بعبده خيراً جعل أنسه به وذكره له وتوكله عليه وصانه من النظر إليهم والاعتماد عليهم وجعله مغترباً في العالم[9]. الغريب هو المستوحش عن الإلف[10]. ومن استوحش عن نفسه أنس قلبه بموافقة مولاه. وأدنى درجات المعرفة استئناس المستوحش نفسه فيسكنها ثم يجمع الجوارح ثم تسكن إليه الوحوش ثم السباع.

والأنس باللّه من صفاء القلب مع اللّه، والتفرد باللّه والانقطاع عن كل شيء سوى اللّه. الأنس وحدة الهدف والغاية. ولا يكون الاستئناس بالخَلْق بل بالحق.

(1) **جامع الأصول**، جـ3، ص65-66.
(2) الفضل بين عياض، **طبقات الصوفية**، ص14، 19، 22-23.
(3) يحيى بن معاذ، السابق، ص112.
(4) عبيد اللّه بن خبيق، السابق، ص145.
(5) الجنيد، السابق، ص161.
(6) علي بن سهل الأصبهاني، السابق، ص235.
(7) أبو العباس بن مسروق الطوسي، السابق، ص241.
(8) أبو العباس بن مضاء الأدمي، السابق، ص472.
(9) أبو الحسين الوارق النيسابوري، السابق، ص301.
(10) أبو حمزة الخراساني، السابق، ص326-327.

الأول للفراعنة والثاني للأولياء. ومن غاب عن نفسه حضر باللَّه. ومن كان حظه في الأشياء ليس له حظ مع اللَّه. والأنس باللَّه نور ساطع، والأنس بالخَلْق غمٌّ واقع، الأنس بالناس وحشة من اللَّه، والوحدة مع اللَّه أنس به كما يريد الصدِّيقون[1]. الأنس هو الاستيحاش لما سوى المحبوب. فالأنس يتحدَّد سلباً بالاستيحاش مع غير المحبوب، أهل المعرفة وحش اللَّه في الأرض لا يأنسون إلى أحد. وأدنى منازل الأنس أنه إذا ألقي في النار فلا يغيب همه عن مأموله. فاللذات تجبُّ الأفعال. فثمرة الأنس بالحق[2]. لا يصل إلى محل الأنس من لم يستوحش من لا كون كلها[3].

وعلامة الأُلفة قلة الخلاف وبذل المعروف. الخلاف فرقة أما الاختلاف والتعدد فمتضمنان في الوحدة. الهوية والاختلاف، والوحدة والتعدد واجهتان لشيء واحد. وقد يكون الأنس بالمواعيد أي بلحظات الزمن. فلماذا يكون التعويل عليها خلل في الشجاعة؟ من وصله إلى وده أنس بقربه. ومن توسل بالوداد فقد اصطفاه بين العباد[4]. ولا يجتمع الأنس باللَّه مع الأنس بالناس. ولا حب اللَّه وحب الفضول، ولا منزلة عند اللَّه مع منزلة عند الناس[5]. ولماذا لا يكون الأنس بالناس هو الأنس باللَّه، لا فرق بين الآخر الفردي والآخر العام، بين الناس والعالم.

الأنس استبشار القلوب بقرب اللَّه وسرورها به وسكونها إليه وأنها معه، وإعفاؤه لها من ما دونه حتى يكون هو المُشار إليه. لا تحمل جفاء غيره[6]. ولا يطيب العيش إلا من وطئ بساط الأنس وعلا سرير القدس، وغيبه الأنس بالقدس، والقدس بالأنس ثم غاب عن مشاهدتهما بمطالعة القدوس[7].

---

(1) رُويْم بن أحمد البغدادي، السابق، ص184 .

(2) **لطائف الأعلام**، ، جـ1، ص313.

(3) الواسطي، السابق، ص414.

لقد جعلتك في الفؤاد محدثي   وأبحت جسمي من أراد جلوسي
فالجسم مني للجليس مؤانس   وحبيب قلبي في الفؤاد أنيس

رابعة، السابق، ص414-415.

(4) أبو الحسن بن خفيف، **طبقات الصوفية**، ص145.

(5) أبو بكر بن مضاء الآدمي، السابق، ص472.

(6) أبو سعيد الخراز، السابق، ص230.

(7) طاهر المقدسي، السابق، ص275.

الأنس ضيق الصدر عن معاشرة الخلق[1]. والأنس باللَّه نهاراً وليلاً لا ينقطع[2]. ولا يكون الأنس باللَّه إلا ومعه التنظيم، ومن لم يأنس بمحادثة اللَّه عن محادثة المخلوقين قلَّ علمه، وعَميَ بصره، وضيَّع عمره[3].

المستأنسون هم العارفون[4]. فالمعرفة نتيجة للأنس. وهي هبة. والمجتهدون هم السابقون. ففي الاجتهاد منافسة. والأنس مع ما عنده مراد الإنسان[5]. الأنس علاقة مشتركة ورغبة متبادلة.

والأنس على درجات. الأولى استئناس الجوارح بالفعل، واستئناس العقل بالعلم، واستئناس العقل والعلم والجوارح بالعبد، واستئناس العبد باللَّه. فالأنس درجات متتالية من التآلف، تآلف الإنسان مع نفسه وتآلفه مع اللَّه. وأول ما يستأنس الإنسان في الظاهر الطير والوحش والسباع. واستئناس السباع يذهب الطير والوحش. وإذا استأنس الوحش بالسباع، والسباع بالوحش والعبد واقف بحاله أصبح العبد حراً. وقد يكون الاستئناس بين الإنسان والملائكة والجن، والأنس باللَّه ذَوب الفؤاد بنعت الراحة في جمال الحق[6].

واستئناس العبد باللَّه ذكره في القلب ونظره إليه، والعلم به، والحمد له. في هذه الوحشة حتى يستأنس اللَّه بالعبد فيهب وحشته. الاستئناس فعل متبادل بين الإنسان واللَّه. ويعني الأنس باللَّه الاعتماد عليه، والسكون إليه، والاستعانة به. وتقابله الهيبة، والأنس بطاعة اللَّه وذكره وتلاوة كلامه[7]. الأنس روح القرب، أثر مشاهدة جَمال المعزَّة الإلٰهية في القلب، جَمال الجلال[8]. هو حصول الصحو بالحق، وأدنى مرتبة له أنه لو طُرح أحد في لظى لم تكدر عليه أنسه وهو فرح

(1) أبو حمزة الخراساني، السابق، ص326-327.
(2) تؤنسني بالنهار حقاً وأنت عند الدجى سميري
الديوان، ص305.
(3) مالك بن دينار، السابق، ص415.
(4) **التستري**، ص255.
(5) السابق، ص300-301.
(6) **مشرب الأرواح**، ص169.
(7) السابق، ص417.
(8) **لطائف الأعلام**، جـ1، ص208-210.

بسام بشاش هشاش مزاح. الأنس هو الرضى بالحق لا يسخط ولا يستوحش، وهو التحقق ببطون الذمة.

وهو على ثلاثة أحوال: الأول الأنس بالذكر والاستيحاش بالغفلة، الأنس بالطاعة والاستيحاش من الذنب. أول الأنس أن تأنس النفس والجوارح بالعقل، ويأنس العقل والنفس بعلم الشرع، ويأنس العقل والنفس والجوارح بالعمل الخالص للَّه *فيأنس العبد باللَّه ويسكن إليه*[1]. *والثاني الأنس باللَّه* والاستيحاش عما سواه مما يشغل. الأنس بالخَلْق وحشة من النفس، والوحشة من الخَلْق أنس بالنفس[2]. هو ارتفاع الحشمة مع وجود الهيبة[3]. وهو فرح القلب بالمحبوب[4]. والثالث الذهاب من الأنس إلى الهيبة، والقرب والتعظيم مع الأنس. هو الوحشة من النفس والكون[5].

وللأنس ثلاث علامات: أنس بالعلم والذِكر في الخلوة، وأنس باليقين والمعرفة مع الخلوة، وأنس باللَّه في كل حال[6].

والأنس هو فرح القلوب بالمحبوب. هو محبة مما يدل على تداخل المقامات والأحوال، والأحوال مع بعضها البعض. هو انبساط الحب إلى المحبوب. الأنس بسط والهيبة قبض، والأنس الاستئناس بالأركان فيغيب عن رؤية الأعيان، هو قلب النظرة من الخارج إلى الداخل[7].

ولفظ «الهيبة» غير مذكور في القرآن، وإن كان معناه موجود في ألفاظ أخرى مثل الخشية والخوف. ومن ثم كل ما قيل عن الهيبة يمكن تجاوزه في إعادة بناء التصوف. في حين أن «الأنس» ومشتقاتة لفظ قرآني. ذُكر عدة مرَّات بمعانٍ عديدة أقلُّها الأنس بالمعنى الصوفي ﴿ءَانَسْتُ نَارًا﴾ أي وجدت ناراً واطمأننتُ إليها. آنست

(1) هو رأي سهل بن عبد اللَّه.
(2) هو رأي ذي النون.
(3) هو رأي الجنيد .
(4) هو رأي إبراهيم المارستاني.
(5) هو رأي الشبلي.
(6) **المسترشدين**، ص172.
(7) **الولاية**، ص221.

رشاداً أي وجدت رشداً وعقلاً وحكمةً. ﴿تَسْتَأْنِسُوا﴾؛ أي الشعور بالأنس مع أهل بيت قبل الدخول. ﴿وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ﴾ أي الشعور بالأنس والاطمئنان إلى الحديث. وما سوى ذلك وهو الغالب. و«الإنس» في مقابل الجن. والإنسان في مقابل الشيطان، و«أناس» بمعنى قوم أو رهط[1].

أما المعاني المشتقة من الأنس فهي «الإنس» في مقابل الجن والإنسان، خلقه وضعفه وعظمته ومسؤوليته. وهو ما يخرج عن المعنى الأول إلا مجازاً. فالإنسان من الأنس أي الثقة والاطمئنان مع النفس ومع الآخرين ومع اللّه. أما «أناس» فيعني القوم، ولكل أناس مشربهم وطريقهم واختيارهم.

والغالب على الوجدان العربي المعاصر هو الهيبة غير المذكورة في القرآن أكثر من الأنس. الهيبة من الحاكم والرئيس والوزير والمدير والأب والأخ الأكبر والشرطي والفتوة. أما الأنس فمع جماعة من الأصدقاء أو العائلة أي المجتمع الصغير بما في ذلك «شلّة الأُنس» و«الغرزة» وجلسات الحشيش.

6 ـ الصحو والسُكْر

وعادةً ما يبدأ السلب قبل الإيجاب: اليأس والرجاء، القبض والبسط، الهيبة والأنس، الغيبة والحضور، الفقر والوجد، المحو والإثبات، الستر والتجلي، الفرق والجمع، الفناء والبقاء إلا أن في الصحو والسُكّر يبدأ الإيجاب قبل السلب. والتركيز على السُكْر ولواحقه مثل الشرب والذوق أكثر من الصحو. الصحو والسكر مثل الغيبة والحضور إلا أنهما أتمُّ وأقهر. والفرق بين السُكْر والغشيه أن السُكْر لا ينشأ من الطبع ولا يتغيَّر بتغيُّره في حين أن الغشية ممزوجة بالطبع، تتغيَّر بتغيُّره. السُكْر يدوم والغشية لا تدوم. والفرق بين الحضور والصحو أن الصحو حادث، والحضور دائم[2]. وقد يسبق السُكْر الصحو. السُكْر غيبة بواردٍ قوي عن كل ما يناقض السرور والطرب والفرح وتجلي الأماني، مع أن السُكْر لا يكون إلا في جلسات المرح بين الأصدقاء. قد يبدأ السُكْر قبل الصحو في «السُكْر

(1) آنستُ ناراً 3 مرّات. آنستُ رشداً (1)، حتى تأنسوا، الإنس في مقابل الجن (20)، الإنسان (65)، أناس (6).

(2) **اللمع**، ص416-417.

والصحو»[1]. الصحو رجوع العارف إلى الإحساس بعد غيبة. والسُّكْر غيبة بواردٍ قوي بسبب الرغبة أو الرهبة أو الخوف أو الرجاء. سببه المكاشفة بنعت الجَمال لأنه طرب الروح وهيام القلب عند أصحاب الوجد والمشاهدة والوجود، وليس عن رغبة ورهبة وخوف ورجاء.

الصحو رجوع إلى الإحساس بعد الغيبة. والسكر غيبة بواردٍ قوي. وهو زيادة على الغيبة. وقد يكون السكر أشد غيبة من الغيبة. وقَدْر الصحو على قَدْر السكر. لا يكون السكر إلا لأصحاب الوجد وهو غليان القلب عند ذكر المحبوب[2]. والسكر ثلاثة أنواع: سكر طبيعي وهو ما تشربه النفوس من طرب ولذة وسرور وابتهاج بوارد الأماني، وسكر عقلي بمعرفة الحقيقة، وسكر إلٰهي بمشاهدتها. الأول سكر المؤمنين. والثاني سكر العارفين. والثالث السكر الإلٰهي، سكر الكمَّل من الرجال، ابتهاج وسرور بالكمال. لا صحوة منه بل فيه فناء دائم[3].

الإنسان في سكره يشاهد الحال وفي صحوه يشاهد العِلْم. في حال السكر الإنسان محفوظ بلا تكلف. وفي الصحو متحنط بتصرفه. السكر ابتلاء سلطان الحال. والصحو العود إلى ترتيب الأفعال وتهذيب الأقوال[4]. السكر والصحو من مقامات الوجد مع الذهول والحيرة[5]. السكر لأرباب القلوب والصحو للمكاشفين بحقائق الغيوب[6]. السكر غيبة العاشق في المعشوق بوصف ذهاب الإحساس واحتراق الأنفاس. والصحو بقاء العِلْم مع شاهد الحق بنعت السكر والوجد[7]. نسيان حال الصحو في السكر والسكر في الصحو هو الغيبة في شهود حُسن اللّه وجَماله.

أما الصحو فهو رجوع إلى الإحساس بعد الغيبة بواردٍ قوي. ولا يصحو إلا

(1) **جامع الأصول**، ج2، ص295.
(2) **عوارف المعارف**، ج4، ص464-465.
(3) سكران سُكْر هوى، وسُكْر مدامة ... فمتى يفيق وفتي به سكران
السابق، ص545.
(4) **القشيرية**، ص38-39.
(5) **مشرب الأرواح**، ص130.
(6) السابق، ص133-134.
(7) السابق، ص238.

بعد سُكْر لا قبله[1]. الصحو قرار نعوت الروحانية تحت نعوت الربانية[2]. وإذا كان الصحو أدنى إلى الكرب فما بال السكر؟[3]. السكر غيبة بواردٍ قوي. والصحو لأهل السماع[4]. وصحو الجمع الإفاقة من سكر التفرقة والغيرية بالتحقق بأَحدية الجمع التي تنفي الأغيار والمغايرة، وصحو الحقائق وهو مقام أَحدية المجمع، وقد يستعمل الصحو والسكر لغير ما قُصد به[5]. إذ تبرز الصفات الخاصة بصورة الإنسان الحسن في زمان الصحو والسكر فهذا مقام المكر يريد أن يدركه عاشقه بوصف الأزل في نعت آدم ليكون رفيع القَدْر في البسط والأُنس[6].

والسكر ليس مرضاً يداويه طبيب بدواء، بل هو حال صعقة يفيق بعدها السكران، وينتقل إلى حالة الصحو[7]. السكر غليان القلب عند معارضات ذِكر المحبوب[8]. ولا يملُّ الساقي ولا الشارب من أجل السكر. يطوف الساقي وبيده كأس من نور يخطف القلب. ويعبِّر بألفاظ الحب ما يُخجل. السكر وجد، والصحو شرب[9]. وقد يحدث السكر دون شراب. وقد يحدث الشراب دون سكر. والسكر من رؤية الجلال، ومشاهدة الجَمال[10]. والشرب ليس هو الشراب المادي بل هو تلقي الأرواح والأسرار الظاهرة لِما يَردُ عليها من الكرامات وتنعمها بذلك وهو

(1) **الفتوحات**، جـ2، ص544-547.
(2) **مشرب الأرواح**، ص194.
(3) كفاك أن الصحو أوجد كربتي ... فكيف بحال السكر، والسكر أجدر؟
فحالان لي: صحو وسكرة ... فمازلت في حالي أصحو وأسكر
الديوان، ص300.
(4) السابق، جـ2، ص458.
(5) السابق، جـ2، ص458.
(6) السابق، ص283.
(7) ذو النون، **طبقات الصوفية**، ص20.
(8) أبو عبد اللّه محمد بن خفيف، السابق، ص464.
(9) فما مل ساقِيها، وما مل شارب ... عُقار لحاظ كأسه يسكر اللجا
يطوف بها طرف من السحر فاتر ... على جسم نور ضوؤه يخطف القلبا
يقول بلفظ، يخجل الصب حُسنه ... تجاوزت يا مشغوف في حالك الحُبَّا
فسُكْرك من لحظي هو الوجد كله ... وصحُوك من لفظي يبيح لك الشربا
أبوعبد اللّه الروذباري، السابق، ص500.
(10) ﴿سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ﴾، **التفسير**، ص131.

شراب المحبة[1]. والذوق ابتداء الشرب. فقبل الشرب من كأس المحبة بذوق الشارب[2].

والسكر حيرة بين الفناء والوجود. وفي مقام المحبة بين الشهود والعلم. فالشهود يحكم بالفناء والعلم يحكم بالوجود.وهو عملية متدحرجة تنفض تدريجياً[3].

والصحو صنو الشهود، وهو أيضاً عملية تتفتح تدريجياً[4]. والذوق والشرب يسبقان الصحو السكر. وصاحب الذوق متساكر، وصاحب الشرب سكران. وصاحب الري صاح. ومن قوي حبه بشربه شربه. فإذا دام ذلك لم يورثه السكر سكراً. فكان صاحب الحق فانياً عن كل حظ لم يتأثر بما يَرِد عليه. ومن صفا سره لا يتكدر عليه الشرب. ومن صار الشراب له غذاء لم يصبر عنه، ولم يبق بدونه. الشرب هو ما يستفاد في النفس الثاني بالإضافة إلى ما يستفاد من نفس الذوق سواءٌ حدث الري أم لم يحدث. وقد يكون الشرب عن عطش أو التذاذ مثل الشرب من الحوض عن ظمأ ومن أنهار الجنة عن التذاذ. ويختلف الشرب طبقاً للمشروب، ماءً أو لبناً أو خمراً أو عسلاً، وأمزجة الشاربين، وطبقاً لدرجات الفضل. الذوق حياة المريدين وفيه عيش الماكرين[5]. الشرب شرب شراب صفو الوصال في المشاهدة من بحر الأسرار بقدح الأنوار[6].

---

(1) **اللمع**، ص449.

(2) **عوارف المعارف**، جـ4، ص470.

(3) في البدايات الحيرة في سماع الآيات الدالة على الجبر والقدر. وفي الأبواب التردد بين الخوف والرجاء. وفي المعاملات الحيرة بين رعاية الأعمال والأحوال. وفي الأخلاق سكر الانبساط. وفي الأصول الحيرة بين الحكمة والقدرة، وفي الأحوال الحيرة بين التجلي والاستتار. وفي الولايات السكر بين حسن الصفات وجمال الذات. وفي النهايات بين العناء والبقاء. **جامع الأصول**، جـ3، ص188.

(4) في الأبواب السلو عن الخوف والرجاء. وفي المعاملات السلو عن التدبير وحظوظ النفس للاشتغال بالرعاية والمراقبة. وفي الأخلاق ذكاء النفس وصفاء القلب. وفي الأصول السلو عن الخلق للتوجه إلى الحق. وفي الأدوية صفاء العقل للتنوّر بنور القدس. وفي الأحوال صفاء الحال بقوة الحب. والسلو عما سوى المحبوب. وفي الولايات صفاء الوقت بالسرور بوصل المعشوق. وفي النهايات صفاء العشق والذوق بأحدية الجمع والفرق. **جامع الأصول**، جـ3، ص189.

(5) **مشرب الأرواح**، ص129.

(6) السابق، ص130.

وقد يكون النسق اللفظي ثلاثياً: الذوق والشرب والري. وهي نتائج التجلي. الذوق إيمان، والشرب علم، والري حال. الذوق لأرباب البواده، والشرب لأرباب الطوالع واللوائح واللوامع. والري لأرباب الأحوال[1]. الذوق أول مبادئ التجلي. حال يفاجئ الإنسان في قلبه. فإن استمر نفسين فصاعداً كان شرباً. وقد يستمر الشرب بري أو دون ري. ويختلف الذوق باختلاف التجلي. فإن كان التجلي في الصور فالذوق خيالي. وإن كان في السماء الإلٰهية والكونية فالذوق عقلي. الذوق الخيالي أثره في النفس. والذوق العقلي أثره في القلب. الأول لا يحتاج إلى رياضة ومجاهدة. والثاني يحتاج الذوق ثبات البرق وزيادة السرور[2].

والري ما يحصل به الاكتفاء ويضيق به المحل عن الزيادة لأن له نهاية وغاية. وهم المكشوف عنهم في الدنيا ومدتها. والثاني غير متناهٍ يطلب المزيد ولانهاية له ولا غاية. وهو عدم الري في الدنيا والآخرة[3]. إذا سكن بالمشاهدة وبقي بها عن الفناء فيها فهو مُرْتَوٍ صاحب حظ. وإذا فني بالحق في الحق ولا يبقى للحدث في القدم أثر لا يكون له ري لأن بحار الأزلية ليست بمتناهية، وليس لشراب أهل الوصال نهاية[4]. لولا مشرب شراب الوصل من يد الحق بغير واسطة في هذا العالم في مقام الأنس ما وصف ذلك الحال[5]. الشرب هو السكر المحض.

وكما تظهر ألفاظ الشرب والري يظهر لفظ العطش، وهو عطش الشوق من حرق القلب بنيران الجلال فيطلب مزيداً من الإحراق[6]. والعطش نقيض الري. فكما أن لكل حال مقابلاً. لكل مقابل نقيض، والعطش أيضاً له معانٍ عديدة. وكلها على نحو مجازي[7]. ولفظ «صحو» غير مذكور في القرآن وهو ما تحتاجه

(1) **الفتوحات**، جـ2، ص547-549.
(2) السابق، جـ3، ص177.
(3) السابق، ص551-252.
(4) **مشرب الأرواح**، ص130.
(5) السابق، ص288.
(6) السابق، ص114-115.
(7) **جامع الأصول**، جـ3، ص174.
في الأحوال عطش السالك إلى ما يبلغه المطلوب. وفي البدايات عطش المريد. وفي الأبواب، العطش إلى الألطاف. وفي المعاملات العطش إلى الاستقامة. وفي الأخلاق =

الأُمة. لذلك انتشرت ألفاظ مشابهة منذ فجر النهضة العربية الحديثة مثل النهضة والبعث واليقظة. وقد استُعمل لفظ «سُكْر» ومشتقاته في القرآن بمعانٍ مختلفة. الأول معنى السكران جمعاً «سكارى» حرفياً من شرب الخمر ﴿لَا تَقْرَبُوا الصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ﴾، أو معنوياً يوم القيامة ﴿وَتَرَى النَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ﴾، وسكرة الموت، والسكر كطعام. وفعل «سكّر» أي أغلق العين. والسكر المعنوي هو السائد في الوجدان العربي المعاصر أي الغيبة وعدم اليقظة والضياع والتوهان. أحياناً السكر الحسي كما يبدو في الأفلام والواقع والسكارى العاطلين لنسيان الهمّ[1].

7 ـ الغيبة والحضور

ومن الأحوال الغيبة والحضور. الحضور غياب عن حضور. والغياب حضور عن غياب[2]. وقد يتمُّ ذِكر حال واحد من الحالين الزوجين مثل الغيبة ودون الحضور[3]. الغيبة غيبة القلب عن مشاهدة الخلق بحضور ومشاهدته للحق، غيبة القلب عن علم ما يجري من أحوال الخلق لشغل القلب بما يَرِد عليه. ولا تكون إلاَّ عن تجلٍ إلٰهي وليس الانشغال بأمور الدنيا[4].

وكما يتردد حالا الخوف والرجاء كذلك يتكرَّر حالا الغيبة والحضور. السؤال في الغيبة والدعاء في الحضور[5]. الغيبة تأمر وتنهي، والحضور لا يأمر وينهي.

= القبول إلى وصول الخلاص. وفي الأدوية العطش إلى علو الهمة. وفي الولايات العطش إلى الخلاص بشهود الصفات والتمكين إلى شهود الذات. وفي الحقائق العطش إلى الاتصال. وفي النهايات العطش إلى جلدة دون حجبة، وجمع دون فرق.

(1) ذُكر لفظ «سكر» 7 مرّات. السكر من شرب الخمر (11)، السكر من الفزع يوم القيامة (2)، سكرة الموت (2)، سَكّر (1)، أغلق(1).

(2) «وما وجدوا الواجدون شيئاً من الحضور إلاَّ كانوا غائبين في حضور عنهم وكنت أنا المخبر عنهم في حضورهم. وما غاب إلاَّ وقد حضرت. وما حضرت إلاَّ وقد غبت. وذلك أن الشيء لا يتفق وضده». **شطحات**، ص147، 159.

(3) فكيف، والكيف معروف بظاهره ... فالغيب باطنه للذات بالذات
الديوان، ص295.

(4) **الفتوحات**، جـ2، ص543-544.

(5) السابق، ص118.

وقد يكون التقابل بين الغيبة والشهود. فالحضور شهود، والشهود حضور بنعت المراقبة أو وصف المشاهدة[1]. وأحياناً يسمَّى الحضور اللبث. فمقام اللبث في الغيبة. اللبث في الحال والوجد والغيبة من استئناس الروح بروح الملكوت[2].

فإذا ازادت الغيبة تحولت إلى غشية، والغشية غيبة القلب بما يَرِد عليه. والحضور حضور القلب لما غاب عن عبادته بصفاء اليقين[3]. وإذا كان القلب في غيبة فإنه يعيش مكروباً كاليتيم يلوذ بأب له بديل[4]. والغياب نسبي، فغياب الحبيب نوع من الحضور[5]. وإذا كان الغيب عن العين فإن الوجد في الأحشاء[6]. والحضور هو الحضور مع اللّه. ولا تكون غيبة إلا بحضور لقوة سلطان المشاهدة[7]. الحضور مع الحق غياب عن الخلق.

والغياب قد يكون للّه وليس للصوفي بعد أن كان له وطن. وهو قصد متبادل بين الذات والموضوع مثل الموت، هل هو غياب الذات عن العالم أمن غياب العالم عن الذات؟[8]. حياة القلب باللّه، وبقاء القلوب مع اللّه، والغيبة عن اللّه

(1) **عوارف المعارف**، جـ4، ص469.
(2) **مشرب الأرواح**، ص238.
(3) **اللمع**، ص416.
(4) إنـي يـتـيـم ولـي أب ألـوذ بـه ... قـلبي لـغيبته لـما عشت مكروب
الديوان، ص292.
(5) غـبـت ومـا غـبـت عـن ضـمـيـري ... فَـمـازجـتَ تـرحـتـي وسـروري
واتـصـل الـوصـل بـاخـتـراق ... فـصـار فـي غـيـبـي حـضـوري
فـأنـت فـي سـر غـيـب هـمـي ... وأخـفـى مـن الـوهـم فـي ضـمـيـري
السابق، ص204-205.
(6) إن يـكـن غـيـبـك الـتـعـ ... ظـيـم عـن لـحـظ عـيـانـي
فـلـقـد صـيـرك الـوجـ ... د مـن الأحـشـاء دانـي
السابق، ص328.
(7) حـضـوري مـع الـحـق فـي غـيـبـتـي ... حـضـوري بـه فـهـو الـحـاضـر
هـو الـبـاطـن الـحـق فـي غـيـبـتـي ... وعـنـد حـضـوري هـو الـظـاهـر
فـإن فـتـه فـأنـا أول ... وإن فـاتـنـي فـأنـا الآخـر
السابق، ص544.
(8) وغـاب مـن عـذت بـه ... ولـم يـزل لـي وطـنـا
السابق، ص332.

باللّه[1]. فإذا كان الحضور مع اللّه فإن الغيبة أيضاً باللّه. الغيبة هي غيبة المسالك عن رسوم القلم لقوة نور الكشف، ولها مستويات عدة، ينقصه كل منها عن الآخر[2]. العبرة جعلُ كلِّ حاضر غائباً، والفكرة جعلُ كلِّ غائب حاضراً[3]. وحضور الحبيب دائم، حضوراً أو غياباً[4].

وتبقى الغيبة ما بقي الليل والنهار فرقاً في الرؤية. الغربة الوعيد في الدنيا. والرؤية مقام في الدنيا. تظلم في الغيب وتضيء في الرؤية. الغيبة توحش كالليل، والرؤية تشرق كالنهار. ويثبت العبد اللّه في الغيبة فتتحد الغيبتان. ويثبت في الرؤية فتتحد الرؤيتان، والعبد يطلب اللّه في الغيبة ويجده في الرؤية. ويواري العبد اللّه في الغيبة ويواريه اللّه في الرؤية، رؤية العبد للرؤية غيبة. وغيبته عن رؤية الرؤية رؤية[5]. واستبدال الغيبة بالرؤية استبدال بالنعمة. ولا يوجد في الرؤية إحقاق أو استحقاق. يبني العبد الغيبة ويهدم الرؤية[6].

والغيبة ألا يرى العبد اللّه في شيء، والرؤية أن يراه في كل شيء[7]. وتبقى الغيبة ما بقي العبد من اللّه وتكون له المطالبة[8]. وصاحب الغيبة أولى أن يعلم ويعمل حتى يتحول من غيبة إلى حضور.

ومجمع الألسنة في الغيبة لأن الحضور صمت، والصمت على فكر، والنطق

---

(1) أبو بكر الواسطي، السابق، ص305.

(2) في البداية الغيبة عن رسوم العادات. وفي الأبواب الغيبة عن مُتَع الدنيا. وفي المعاملات الغيبة من أفعال الخلق. وفي الأخلاق الغيبة من أهواء النفس. وفي الأصول الغيبة عن القصد عما سوى المقصود. وفي الأدوية الغيبة عن الظلمات. وفي الأحوال الغيبة عما يحول عن المحبوب. وفي الحقائق الغيبة عن الأكوان بشهود نور العيان. وفي النهايات الغيبة عن الغيبة لسقوط الثنوية في الحضرة. **جامع الأصول**، جـ3، ص183-184.

(3) أبو عبد اللّه السجزي، **طبقات الصوفية**، ص254.

(4) حبيب ليس يعدله حبيب ... وما لسواه في قلبي نصيب
حبيب غاب عن بصري وشخصي ... ولكن عن فؤادي لا يغيب
رابعة، ص166.

(5) **المخاطبات**، ص245-246.

(6) السابق، ص252.

(7) **المخاطبات**، ص245-246.

(8) السابق، ص248-250.

على قصد. وليس في الرؤية فكر يكون عليه صمت ولا قصر فيكون عليه نطق. وفي اللّه لا رؤية ولا غيبة، الغيبة والنفس فَرَسا رهان، يتقلب القلب في الغيبة، ويسلم في الرؤية. فالغيبة حركة نحو الحضور. ويحترق نور الغيبة في الرؤية، والعبد في كل شيء واللّه منه في الغيبة، وليس منه ولا هو من العبد في الرؤية.

العبد في الغيبة بعد أن يرى اللّه كالجسر يعبر عليه إلى كل شيء[1]. والرؤية باب الحضرة. وإثبات الأشياء في الرؤية ومحوها في الحضرة. يسع العلم كل شيء في الغيبة، ويضيق عن كل شيء في الرؤية[2]. والغيبة في الآخرة الغطاء، والمقام في الآخرة الكشف.

«الغيبة» ومشتقاتها لفظ قرآني. والمعنى الصوفي لا يظهر إلا في أقل القليل. وأقرب الاستعمالات له هو صفة «الغائب» بالجمع ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ﴾. ﴿مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ﴾. فالغياب هنا سلب. وغيابة الجب أي أعماقه. وهو بعيد عن المعنى الصوفي لكنه في نفس الحقل الدلالي، غياب النفس وغياب الجب. والمعنى الأعم والأكثر استعمالاً هو «الغيب» علم الغيب. ﴿ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾[3]. وفي الوجدان العربي المعاصر هناك ميل نحو الغيب أكثر من الشهادة. والحديث عن الأمور الغائبة أكثر من الأمور الحاضرة.

ولفظ «حضور» ومشتقاته لفظ قرآني بمعانٍ متعددة، في مقابل الغياب. والأكثر استعمالاً «يحضرون» اسم مفعول بمعنى حضور المكذبين والكافرين يوم القيامة. ثم حضور الموت، وحضور الأفعال، وحضور التجارة والقسمة والماء، وحضور عيوب النفس مثل الشح، وحضور الجن، وحضور الأهل والقربة. فالشائع هو حضور الغيب أكثر من حضور الشاهد. فالمعنى الغالب هو الإحضار أو المحضر وهو المعنى المتداول في أجهزة الأمن، إحضار المواطنين في أقسام الشرطة، والمعنى الشعبي إحضار الجنّ أيضاً متداول عند العامة والمشعوذين[4].

---

(1) السابق، ص255-256.

(2) السابق، ص266.

(3) ذُكر لفظ «غيب» 59 مرَّةً، علم الغيب (51)، علاَّم الغيوب (4)، «غائبين» (3)، غيابة الجب (2).

(4) ذُكر اللفظ 25 مرَّةً اسم مفعول «محضر» (10)، محتضر (1)، واسم فاعل «حاضر» (4)، وفعل (10)، حضور الكاذبين والكافرين (11)، حضور الموت (4)، حضور الأفعال =

8 ـ القُرب والبُعد

وقد تتوالى الثنائيات مما يدل على أنها تقوم بوظيفة مترادفة واحدة، بالرغم من اختلاف الألفاظ[1]. ويُعبِّر بعض الشطحات عن بعض الأحوال والمقامات مثل القُرب والبُعد[2]. وهما حالتان نفسيتان وإن بديا في الظاهر وصفين للمكان، القرب طي المسافات بلطيف المداناة. فهو قرب نفسي وليس قرباً مكانياً[3]. والبعد قرب والقرب بعد[4]. والقريب منه لا يحتاج أن يحشر لديه[5]. وأكثر الناس إشارة له أبعدهم عنه[6]. والأقرب إلى اللّه أوسعهم على الخلق. فالقرب من اللّه مشروط بالقرب من الخلق[7]. القرب دنو القلب من الرب بنعت رؤية الذات والمعرفة بالصفات. والبعد استغراق العارف في بحر الهوية لا يدرك معصماً ولا ملجأ في استغراقه[8]. والبعد والقرب ليسا على التضاد.

فالبعد قرب والبعد قرب، كما هو الحال في الأغاني الشعبية «القريب منك بعيد، والبعيد منك قريب»[9]. ويستجير الصوفي بدعوة حتى يقترب بعد

= (2)، الحضور المادي (القسمة والتجارة والماء) (3)، حضور الجنّ (2)، حضور عيوب النفس (1)، حضور الأهل والقُرْيَة (2).

(1) ظاهر باطن، قريب بعيد — وهو لم تمحوه رسوم الصفات
السابق، ص295.

(2) «رب أحد قريب منا بعيد عنا، ورب أحد بعيد عنا قريب منا». **شطحات**، ص85.

(3) أبو عبد اللّه محمد بن خفيف، السابق، ص466.

(4) بعدك مني هو قرباك — أخذتني عنك بمعناك
شطحات، ص85.

(5) «من كان عنده فلا يحتاج أن يحشر لأنه جليسه أبداً». السابق، ص174.

(6) «أكثر الناس إشارة أبعدهم عنه». السابق، ص174، 208.

(7) «أقربهم من اللّه أوسعهم على خلقه». السابق، ص174. «أبعد الخلق من اللّه أكثرهم إشارة إليه». السابق، ص226. «إن اللّه رزق العباد والخلاق. فمن أجل فرحهم بها يمنحهم حقائق القرب». السابق، ص226.

(8) **مشرب الأرواح**، ص191-192.

(9) عذابه فيك عذاب — وبعده عنك قرب
والبعد لي منك قرب — والقرب لي منك بعد
الديوان، ص290، 297.
وهي أغنية نجاة «القريب منك بعيد، والبعيد منك قريب». =

البعاد[1]. والقرب اصطفاء[2]. القرب هو الوفاء بما سبق في الأزل من العهد الذي بين الحق والعبد، القرب هو الإقامة على الموافقة لأوامر اللّه والطاعة والاتصاف في دوام الأوقات بعبادة[3]. قرب العبد للرب بُعده عن الخلق. وهذه من صفات القلوب دون أحكام الظاهر والكون[4]. وقد يتحول القرب إلى تقرب، والاسم إلى فعل. فيكون التقرب بذل الروح إلى الحبيب بنعت ذبح النفس على باب الشوق بسيف المحبة كما يفعل المريد الوَالِه في طلب الوصلة. التقرب طلب مراد الحبيب بترك حظوظ البشرية[5]. ويرزق اللّه الإنسان الحلاوة. فإذا فرحوا بها يمنعهم حقائق القرب لانشغالهم بها عنه[6].

ومناجاة الرب ضرورة في حالتَي القرب والبعد[7]. قلب العبد في يد الرب قرب. وقلبه بين يديه بعد[8]. اللّه قريب ولا يعرف قربه العارفون. وبعيد لا يدركه العالمون[9]. وكلما ظن السالك أنه قريب بَعُدَ[10]. والقريب من الظنون، بعيد عن الحقائق. البعيد هو القريب، والقريب هو البعيد عن وطنه وهو مقيم فيه[11]. القريب من لا جنس له[12]. القريب من صحبته الأجناس. علامة القرب الانقطاع

= فمالي بعد بُعد بعدك بعدما تيقنت أن القرب والبعد واحد
السابق، ص298.

(1) أيا مولاي، دعوة مستجير بقربك في بعادك والتسلي
السابق، ص318.

(2) **اصطلاحات الصوفية**، ص144.

(3) **لطائف الأعلام**، ج2، ص580.

(4) **القشيرية**، ص42.

(5) **مشرب الأرواح**، ص38.

(6) البسطامي، **طبقات الصوفية**، ص73.

(7) **المخاطبات**، ص260.

(8) السابق، ص272.

(9) السابق، ص276.

(10) ليتني مت خاسراً حتى فإني كلما قلت قد قربتُ بعدتُ
فقلت لأصحابي: هي الشمس ضوؤها قريب ولكن في تناولها بُعد
علي بن سهل الأصفهاني، السابق، ص235-236.

(11) أبو عبد اللّه الصبحي، السابق، ص320.

(12) مظفر القرمسيني، السابق، ص397، أبو الحسن بن هند الفارسي، السابق، ص400.

عن كل شيء سوى اللّه[1]. والقرب منه بملازمة الموافقات. والقرب من النفس بدوام التوفيق. فشرط القرب الاتفاق في الإرادات[2]. القرب من اللّه. فمن آواه اللّه إلى قربه أرضاه بمجارة المقدور عليه. فالقرب أداة لجريان القدر. فلا يوجد شرط على بساط القرب ولا اعتراض ولا تذمر ولا رفض.

والقرب لفظ قرآني[3]. وهو قرب متبادل من الإنسان إلى اللّه بمعنى التوسل، ومن اللّه إلى الإنسان بمعنى الرضا. التقرب إلى اللّه بالطاعة، وهو على ثلاثة أحوال: الأول تقرب العامة بالطاعات، والثاني تقرب الخاصة بالتحقق من الطاعات[4]. ويقترب اللّه من العبد قدر اقتراب العبد منه[5]. والثالث تقرب خاصة الخاصة وهم الكبراء وأهل النهايات، وهو قرب القرب بعد بُعد البعد، الغيب من القرب بالقرب[6].

وأول رتبة للقرب القرب من طاعته ودوام عبادته. وأول رتبة في البعد التدنس بمخالفته والتجافي عن طاعته. أول البعد عن التوفيق ثم الثاني عن التحقيق[7]. وإذا مكث الإنسان في مقام المخالفة واتبع الشهوة احترق سره بنيران النفس، وقلبه بنيران الهوى، وروحه بنيران الشيطان، وعقله بنيران الطبيعة[8].

القرب والبعد كلاهما لا ينفع، وإذا استولى على قلب العبد أخلاه عن غيره[9]. وإذا لازم أحداً أفناه عمن سواه. وإذا أحب عبداً عاداه الناس حتى يتقرَّب

---

(1) أبو بكر محمد بن داود الرقي، السابق، ص448.

(2) أبو عبد اللّه محمد بن خفيف، السابق، ص466.

(3) **اللمع**، ص84-85.

(4) وهو معنى قول الشاعر:

وتحققتك في السر فناجاك لساني ... فاجتمعنا لمعان وافترقنا لمعاني
إن يكن غيبك التعظيم عن لحظ عياني ... فقد صيَّرك الوجد من الأحشاء داني

(5) وهو رأي الجنيد.

(6) وهو رأي أبي يعقوب السوسي.

(7) **القشيرية**، ص42.

(8) **مشرب الأرواح**، ص25.

(9) «يا من لازمني في خلدي قربا، وباعدني بعد القوم من الموت غيبا، فلا بعدك يبقى، ولا قربك ينفع...». **أخبار**، ص13.

إليه. والناس يُعادون الحلاج ولم يقترب من اللّه بعدُ[1]. وقد يباعد اللّه بينه وبين العبد حتى يختبر قربه منه[2]. وهو قريب لا يشعر به العلم، وبعيد لا يدركه[3]. فمن يقرب من؟ ومن يبتعد عن من؟ اللّه قريب بلا بيان قرب، وبعيد بلا بيان بعد[4]. والقرب والبعد أهم من القاصدين والمُعرضين[5].

قربُ الحق بالعلم والقدرة عام للكافة. وباللطف والنصر خاص بالمؤمنين. وخصائص التأنيس مختصة بالأولياء. وهنا يعني القرب القيام بالطاعات، مرتبة قاب قوسين، وهما قوسا الدائرة إذا قُطعت بخط. وهي صفة للّه وصفة للإنسان، في آنٍ واحد، يقترب اللّه من الإنسان ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾، كما يقترب الإنسان من اللّه. فهو قربٌ متبادل. ولا يزال العارفون في شهود القرب. أما قرب العامة فهو قرب من السعادة[6]. أما البعد فهو الإقامة على المخالفة. ويختلف باختلاف الأحوال فيدل على قرائنها، مثل بُعد العبد عن السيد[7].

ولفظ «البعد» لفظ قرآني. ويعني البعد في المكان وفي الوجدان وفي الأفعال. وكلها بمعنى سلبي. والأكثر استعمالاً صفة «بعيد» ثم إبعاد الكافرين والظالمين والدعوة عليهم «بعداً» وصفاً للشقاق والضلال والوعد والمكان، والرجع، والجنة، والأمد[8]. وقد يُشار إلى القرب بنفي النقيض وهو البُعد ﴿وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ﴾، ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾.

والقُرب والبُعد نفسيان وليسا مكانيين ﴿وَإِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ﴾، ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا﴾.

---

(1) «إذا استولى الحق على قلب أخلاه من غيره، وإذا لازم أحداً قفاه عمن سواه، وإذا أحب عبداً حثَّ عباده بالعداوة عليه حتى يتقرب العبد مقبلاً عليه، فكيف لي ولم أجد من اللّه شمة، ولا قرباً منه لمحة، وقد ظل الناس يعادونني». السابق، ص31-32.

(2) رأيتك يدنيني إليك تباعدي فباعدت نفسي لابتغاء التقرب
أبو العباس الدنيوري، **طبقات الصوفية**، ص478.

(3) **المواقف**، ص132.

(4) السابق، ص148.

(5) السابق، ص179.

(6) **القشيرية**، ص42.

(7) **الفتوحات**، جـ2، ص558-561.

(8) ذُكر اللفظ 36 مرَّةً، بعيد، (25)، بُعداً (6)، مبعدون (1)، بعد (1)، بعدت (2)، باعد (1).

والمعنى الوحيد الإيجابي هو إبعاد المؤمنين عن النار ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾.

9 ـ الفَقد والوجد (المحو والإثبات)

ثم تبدأ الأحوال على نحو صُوَري. إذ يخفُّ مضمونها الانفعالي من حزن وفرح، ويأس ورجاء، وقبض وبسط، وهيبة وأنس، وصحو وسُكْر، وغيبة وحضور، وقرب وبعد، إلى مجرد حركات تكفي بدلالاتها مثل: الفقد والوجد، المحو والإثبات، الستر والتجلي، الفرق والجمع، ثم يعود الفناء والبقاء إلى المضمون من جديد، الفناء عن الذات الإنسانية والبقاء في الذات الإلٰهية، قمة الاغتراب، تحول الذات إلى غير.

وهما لفظان متضادان مثل تضاد الأحوال. الموجود ما خرج من حيِّز العدم إلى حيِّز الوجود. والمفقود عكسه، ما خرج من حيِّز الوجود إلى حيِّز العدم. وقد يكون نقيض الموجود المعدوم على طريقة المتكلمين والحكماء. المعدوم لا يوجد ولا يمكن وجوده على عكس المفقود الذي وُجد ثم عدم[1]. الوجود بين عدمين، فقد نشأ من العدم وينتهي إلى العدم. وهي نظرة تجعل العدم أساس الوجود. في حين أن اللّٰه سابق على العدم وتالٍ له. الوجود ناشيء، من الوجود وصائر إليه[2]. العدم ميراث بقاء كشوف جلال السرمدية في قلب العارف. والوجود بقاء عين العارف في مشاهدة الجَمال[3]. يقوم الوجود على فقد الوجود، والتحول من الوجود إلى العدم ومن العدم إلى الوجود[4].

وقد تُفقد آلام السيف في الوجد. لا يوجد المشاهد في المشاهدة، آلام السيف والسكين. مقام الوجد بالبديهة الذي لا يعرف العارف سببه في مقام الوجد من اشتياق رائحة الطيب[5]، الوجد هو الوجدان للشيء والوجود له. وهو ما

---

(1) **اللمع**، ص415-516.
(2) **القشيرية**، ص34.
(3) **مشرب الأرواح**، ص211.
(4) وكنت الوجود بفقد الوجود وقلبي على قسوة ولا يرق
السابق، ص315.
(5) السابق، ص293-294، 296.

يصادف القلب من الحزن على فوت مطلوب. هو كل ما يَرِدُ على النفس. هو ما يصادف القلب من الأحوال المُغيِّبة عن الشهود، الوجد ثمرة الواردات التي هي ثمرة الأوراد، الوجد ما يرد على الباطن من اللّه يكسبه فرحاً أو حزناً. وهو ما يصادف القلب ويرد عليه بلا تكلف أو تصنع. هو السماع هو بروق تلمع ثم تخمد، تظهر ثم تختفي. الوجد حالة يُباح بها أو لا يُباح[1]. الوجد مصادفة والمواجيد ثمرات الأوراد. وهو ما يصادفه القلب من أحوال. هو ثمرة الحزن في القلب. هو من مقام المحبة وغير ذلك صفاء ورقة. وحكمة أن يكون الواجد غائباً عن الخلق والنفس حاجزاً في مشاهدة القرب. لا يمكن التعبير عنه إلا من أصحابه. الوجد هو المصادفة[2]. صفة الوجود مباشرة نور الغيب. قلبه الواجد بالهيبة، وذلك سلب. إذا تحقق الوجد في الواجد واستعمل الوسائط فإنه تواجد. التواجد من العارف مُباح، ومن المريد حرام. أول التواجد صدق، وآخره إخلاص[3]. والدنو في الوجد دنو في الحجاب، حجاب الرصد. فإذا تحول من الوجد إلى الصحو يصبح في حقيقة الدنو بغير حجاب[4]. ويُستعمل لفظ اللبس. وهو مقام المحو في الحق.

الفقد استثناء الجَمال بلباس الأحوال[5]. والتفقد إقبال السر إلى الرب بنعت طلب الوصال بعد الانفصال[6].

الوجود وجدان الشيء في نفسه. هو في التعيُّن الأول والمرتبة الأولى وجدان الذات نفسها، الوجود في التعيُّن الذاتي هو وجود الذات من حيث ظهورها، الوجود الظاهر في المراتب الكونية هو ظهور في مرتبة الأرواح، الوجود الظاهري

---

(1) لو شئت كشفت أسراري بأسراري وبحت بالوجد في سري
السابق، ص301.

(2) الجنيد، السابق، ص97.

(3) **مشرب الأرواح**، ص96-98.

(4) الوجد يطرب من في الوجد راحته والوجد عند ظهور الحق مفقود
فقد كان يطربني وجدي فأشعلني من رؤية الوجد من في الوجد موجود
الحلاج، السابق، ص124.

(5) **مشرب الأرواح**، ص184-185.

(6) **لطائف الأعلام**، ج2، ص704-706.

هو تجلي الحق باسمه الظاهر، الوجود الباطن هو وجود باطن كل حقيقة ممكنة الوجود، والوجود العام هو الوجود باعتباره انبساط على الممكنات.

والوجود اتساع فرصة الوجد بالخروج إلى فضاء الوجدان فلا يعد مع الوجدان ولا خبر مع العيان[1]. والوجود فقدان العبد بمحق أوصاف البشرية ووجود الحق. فلا بقاء للبشرية عند ظهور سلطان الحقيقة[2]. المدد الوجودي هو وصول كل ما يحتاج إليه الممكن في وجوده على الولاء حتى يبقى. فالوجود سيال[3].

وقد يكون النسق ثلاثياً، التواجد، والوجد، والوجود[4]. التواجد استدعاء الوجد باختيار دون الوصول إلى كمال الوجد والتفاعل وأكثر إظهار الصفة. وقد يوجد التواجد بالتكلف. التواجد اهتزاز الروح إلى معادن الفرح من الغيب. هو استدعاء الوجود واستجلابه بالتفكر والتذكر[5]. التواجد هو استدعاء الوجد تكلفاً واختياراً. وهناك فرق بين الوجد والتواجد. الوجود سكون، والتواجد حركة. الوجود شيء والتواجد عملية. لا يُدرك الوجود إلا بتجربة التواجد. وبالتواجد يحدث الوجد فيُدرك الوجود[6]. الوجود ظاهر والتواجد باطن مثل السحابة الثابتة وهي تمرُّ مرَّ السحاب، التواجد ابتداء الوجد. والوجد ما يصادف على القلب ويرد عليه بلا تعمد أو تكلف. التواجد بداية، والوجود نهاية. والوجد وسط بين البداية والنهاية. صفو وجد العشاق مصادفة الأرواح، جمال الأزل بغير الالتباس[7]. التواجد يوجد استيعاب العبد. والوجد يوجد استغراق العبد. والوجود يوجب

(1) **عوارف المعارف**، ج4، ص462-463.
(2) **جامع الأصول**، ج1، ص67-68.
(3) السابق، ج3، ص78.
(4) **القشيرية**، ص34.
(5) **لطائف الأعلام**، ج1، ص298.
(6) هيهات يدرك ما الوجود وإنما ... لهب التواجد رمز عجز يقهر
لا الوجد يدرك غير رسم دائر ... والوجد يدثر حين يبدو المنظر
قد كنت أطرب للوجود مروعاً ... طوراً يغيبني وطوراً أحضر
أفني الوجود بشاهد مشهودة ... أفنى الوجود وكل معنى يذكر
السابق، ص299.
(7) **مشرب الأرواح**، ص134-135.

استهلاك العبد. قصودٌ ثم ورودٌ ثم شهودٌ ثم وجودٌ ثم خمودٌ. الوجد له صحو ومحو. الصحو بقاء، والمحو فناء. التواجد استدعاء الوجد. وهو كسب واكتساب. الوجود قد يحضر وقد يغيب. قد يفرح وقد يحزن. ويفنى في الشهود. ولا يوجد تحليل مماثل للفقد والتفاقد لأن الفقد ليس أصلاً بل هو غياب الوجود. واللَّه لا يفنى. وإذا كان الإنسان هو اللَّه فإنه لا يفنى كذلك[1]. الوجود وجدان الحق في الوجد.

وقد يوحي إلى أنه خاص بالفقراء الذين يحاولون إيجاد فسحة في العالم لوجودهم. وكما أن الحلاوات ثمرات المعاملات فالمواجيد نتائج المغازلات. والوجود بعد الارتقاء من الوجد. فالوجد نهاية عملية وليس بدايتها إلى وسطها. لا يكون الوجود الحق إلا بعد خمود البشرية لأن البشرية لا بقاء لها بعد ظهور سلطان الحقيقة. وهذا هو الفقد. إذا وجد الرب فقد القلب وإذا وجد القلب فقد الرب.

الراحة في الإياس أي في الإيجاد، عملية التواجد الذاتي[2]. الوجد الغالب يُسقط التمييز. ويجعل الأماكن كلها مكاناً واحداً، ولا لوم لمن غلب عليه وجده، فاضطره إلى أن يُبديه[3]. الواجد في حال وجده محفوظ لا يجري عليه لسان الذم[4]. فالذم حكم. والحكم يقتضي المسافة بين الذات والموضوع، بين الواجد والموجود. والذوق أول المواجيد. فأهل الغيبة إذا شربوا طاشوا. وأهل الحضور إذا شربوا عاشوا[5]. الوجد شعلة متأججة من نار العطش. وله عدة معانٍ متتالية[6].

(1) وأنت محل الكل بل لا محلة وأنت بكل الكل ليس بفاني
السابق، ص328.
(2) علي بن سهل الأصفهاني، السابق، ص236.
(3) أبو حمزة الخراساني، السابق، ص328.
(4) أبو عبد اللَّه الصبيحي، السابق، ص230.
(5) أبو عبد اللَّه الروذباري، السابق، ص498.
(6) في البدايات لهب مشتعل تستفيق له الحواس. وفي الأبواب وجود عارض يستفيق له الفكر. وفي المعاملات لهب يستفيق له القلب. وفي الأخلاق لهب متأجج من نار الحب ينبعث من القلب لطلب الفضائل والكمالات. وفي الأصول نار في القلب لطلب الحق. وفي الأدوية شعاع نوري يُضاء من عالم القدس، ويستفيق له طالب الحكمة. وفي الولايات وجد =

والفقد والوجد لفظان قرآنيان وليس التواجد وهو الأهم لأنه اسم فعل يدل على الحركة، وأن الوجود إيجاد، ذُكر لفظ الفقد أقل من الوجد عشرات المرّات في صيغ فعلية وليس في صيغة اسمية. هو فعل الفقد وليس شيئاً مفقوداً. الفقد ناتج عن عملية ضياع الوجود، والفقد للشيء، لصُوَاع المَلِك في سورة يوسف مثلاً أو للطير عندما تفقد سليمان فلم يجد الهدهد[1].

والفقد في الوجدان العربي المعاصر أكثر حضوراً من الوجد. فكل شيء يضيع، الوطن والناس والكرامة والضمير. وهناك إحساس عام بفقد ما وجد من قبل، وأن الأوطان على مشارف الانهيار التام.

أما لفظ «وجد» ومشتقاته فهو أكثر ذِكراً عشرات المرّات من لفظ «فقد» مما يدل على أن الوجود هو الأساس، والعدم هو الطارئ. وكلها أفعال إلا مرّةً واحدة ﴿وُجْدِكُمْ﴾، وتعني حضوركم ووجودكم. ولا يوجد لفظ وجود لأنه لا وجود له إلا كعملية وجود. والوجد في الوجدان العربي المعاصر هش، استُبدل به الوجود الثابت الذي لا وجود له. ونظراً للقهر والقمع فإن الوجد انتهى إلى وجود، وتحول الوجود الحي في الزمان إلى وجود مصمت، إلى شيء في المكان. مما يدل على أن الوجود عملية وجد أو وجدان أو إيجاد. الوجود مشروع في لغة المعاصرين. وأكثر الاستعمالات في الأفعال هو فعل المخاطب «تجد» ثم المتكلم الجمع «وجدنا» ثم الغائب الجمع «يجدون». فالوجود أساس تبادل مع الآخر[2]. ويتعلّق فعل وجد بشيء[3].

= يخطف العبد يخلصه من الأين والبين. وفي الحقائق وجد يمحص معناه من دون الحظ والرسم. وفي النهايات يتبدل الوجد بالوجود. **جامع الأصول**، ج3/ 174-175.

(1) ذُكر لفظ فقد ومشتقاته (3 مرّات)، ﴿وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ﴾، ﴿نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ﴾، ﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ﴾.

(2) ذُكر لفظ وجد ومشتقاته 105 مرّة. «تجد» (17)، «وجدنا» (13)، «يجدون» (10)، «يجد» (8)، «تجدوا» (7)، «يجدوا» (6)، «أجد» (5).

(3) مثل: رزق، شيء، جدار، متاع، بضاعة، ركب، بيت، بشر: قوم، رجلان، أمة، امرأتين، عبد، امرأة، آباء، الرسول، أكثر، ولي، يتيم، كاتب، ناس، مؤمنون، صالحون، مرشد، صابرون، ملتحد. وعد، مكان الوجود، مظاهر الطبيعة: سماء، شمس، ريح، نار، سنة، ماء، أرض، أو باللّه أو بالعمل: نصير، سبيل، خير، غلظة، صرف، مرتل، أنصار، حيص، ملجأ، جهد، إنفاق، نكاح، ضيق.

ويتوازى المحو والإثبات مع الفقد والوجد. فالمحو فقد، والإثبات وجد. وهما ليسا على التناقض بل على التكامل والدوران. فالإثبات محو، والمحو إثبات. إثبات اللَّه في القلب، ومحو للعالم فيه. وإثبات العالم في القلب ومحو للَّه منه. وبالرغم من أنهما حالان أي مواهب من اللَّه إلا أن للعبد مبادرة فيهما. إذ يطلب العبد من اللَّه أن يثبته بما أثبته[1]. إذا ثبت العبد أثبته اللَّه[2]. المحو رفع أوصاف العادة، والإثبات إقامة أحكام العبادة. ويكون المحو والإثبات على المستوى الخلقي، محو الصفات الدنيّة وإثبات الصفات الحميدة، وكلاهما ضروري. لا محو بلا إثبات، ولا إثبات بلا محو، وإلا كان التعطيل.

وهناك محو الذلة لإثبات المعاملات ومحو الغفلة لإثبات المنازلات، ومحو العلة لإثبات المواصلات. وهذا هو المحو والإثبات بشرط العبودية، وكلاهما صادران عن القدرة. الحق ما ستره الحق ونفاه، والإثبات ما أظهره الحق ونفاه. فهما فعلان من أفعال المشيئة، المحو بإزالة أوصاف النفوس والإثبات بما أدبر عليهم من آثار الحب[3]. ويستعمل لفظ «اللبس»، وهو مقام المحو في الحق.

والمحو ذو أبعاد متعددة، فتاج المحو هو تحقيق العبد بالانفصال عن رجس الأكوان والاتصال بقدس الكون[4]. ومحو أرباب السرائر هو إطالة العلل والآفات في مقابل إثبات المواصلات. ومحو الجمع هو فناء الكثرة في الوحدة. والمحو الحقيقي هو رؤية الأشياء بعين أَحدية الجمع المانعة للأغيار والغيرية. ومحو العبودية هو المحو بشرط العبودية. المحو محو الإنسانية في العبودية ومحو العبودية في الربوبية، محو عين العبد من الوجود. ومحو وجود عين العبد هو محو أهل الخصوص. ومحو أهل الخصوص هو محو وجود العبد، ومحو التشتت هو محو الغيرية في العين، والغيرية في الهوية. ومحو المحو هو البقاء بعد الفناء. المحو رفع أوصاف العامة، والإثبات إقامتها. هو انسلاخ العارف عن كل وجود غير وجود الحق.

وهو ثلاثة أقسام: محو العدم وإثبات المعاملات، ومحو الخواص، إثبات

(1) **المخاطبات**، ص213.

(2) السابق، ص248.

(3) **عوارف المعارف**، جـ4، ص465-466.

(4) **لطائف الأعلام**، جـ1، ص244.

النازلات، ومحو العارفين وإثبات المواصلات. ويفصل المحو، ويجمل الإثبات، والإثبات أحكام العبادة وهي تصفية السرعة كدورات الإنسانية[1].

وقد يُستبدل بالمحو المحق. ومعرفة محق المحق هو الثبات في العين. المحق هو الظهور في الكون بطريق الاستخلاف، والنيابة من أجل التحكم في العالم، ومحق الحق هو الظهور بطريق الستر عليه والحجاب. فالحجاب في محق المحق. وهو مبالغة في الحق مثل عدم العدم[2]. المحو يبقي أثراً والمحق لا يبقي شيئاً[3]. المحق هو الفناء في العين، عين الحق. وهو الطمس، فناء الصفات. المحو فناء الأفعال، والطمس فناء الصفات، والمحق فناء الذات[4]. الحق فوق المحو. والمحو يبقى معه أثر. والحق لا يبقى منه شيء. المحق هو فناء وجود العبد في ذات الحق. والمحو هو فناء أفعاله في فعل الحق. والطمس فناء الصفات في صنف الحق الأول. لا يرى في الوجود فعلاً لشيء إلا للحق. والثاني لا يرى لشيء صفة إلا للحق. والثالث لا يرى وجود إلا للحق[5]. والحق انمحاق وجود العارف في وجود المعروف بحيث لا يبقى اسمه ولا رسمه. وذلك من غيره عين الوحدة بعين قهر الربوبية على وجود وموجود متصف بالصفات متحد بالذات[6].

المحو رفع أوصاف العادة وإزالة العلة وما ستره الحق. وهو ما سماه الأصوليون النسخ. المحو نسخ إلٰهي، رفعه اللّه ومحاه بعدما كان له حكم في الذنوب والوجود،انتهاء مدة الحكم أو انتهاء وحدة الوجود. وقد يكون المحو للظاهر أو للباطن، أما الإثبات وهو أحكام العادات وإثبات المواصلات ضد خرق العادة إلا إذا تحول إلى عادة. وصاحب الإثبات له وصلة بالحق[7]. والإثبات عملية متدحرجة تنكشف تدريجياً[8].

(1) **جامع الأصول**، جـ2، ص349-350.
(2) **الفتوحات**، جـ2، ص554-555.
(3) **القشيرية**، ص39. **لطائف الأعلام**، جـ1، ص150.
(4) السابق، جـ2، ص621-625.
(5) السابق، جـ3، ص77.
(6) **مشرب الأرواح**، جـ1، ص210-211.
(7) **الفتوحات**، جـ2، ص552-553.
(8) إثبات المعاملات في مقابل محو الزلات، وإثبات الموصلات في مقابل تطهير الشرائر =

والغلبة والمسامرة لفظان قرينان بالوجد والفقد، الغلبة وجد متلاصق. يبدو كالبرق والغلبة كتلاحق البرق. ينطق الوجد سريعاً. وتبقى الغلبة للإسراء حرزاً منيعاً[1]. والمسامرة تفرد الأرواح بخفي مناجاتها في سر السر بلطيف إدراكها للقلب لتفرد الروح بها.

والمحو والإثبات لفظان قرآنيان قليلا الذكر[2]. ويعني المحو المحو الطبيعي مثل محو النهار آية الليل، والمحو الإنساني، محو الباطل بالحق والمحو الإلٰهي، محو كل شيء وإثباته في أم الكتاب.

أما الإثبات فقد ورد أضعاف المحو. المحو سلب والإثبات إيجاب معظمها أفعال، وأقلها أسماء «ثابت»، و«تثبيت»، و«ثبوت»[3]. ويعني الإثبات تثبيت الأقدام في الحرب، وتثبيت المؤمنين على الحق، وتثبيت الفؤاد على الإيمان، وتثبيت الرسول على الدعوة، وتثبيت القول في الحياة الدنيا، وتثبيت أصل الشجرة في الأرض، وتثبيت النفس. والتثبيت في الغالب فعل إلٰهي أضعاف الفعل الإنساني. فالقدم هي التي لا تثبت، والشجرة أصلها ثابت، وفي الحياة القول الثابت، والإنفاق من النفس الثابتة، والفعل وليس القول تثبيت للنفس.

وفي الوجدان العربي المعاصر، المحو أكثر حضوراً من الإثبات، محو التاريخ ومحو الثوابت، لقد تمَّ تغير كل شيء. شيء واحد فقط هو الثابت هي قوائم الأمن. فمن كتب فيها لا يُمحي كاللوح المحفوظ.

10 ـ الستر والتجلي (التجريد والتفريد)

والتجلي أقرب إلى الأحوال في مقابل الستر. وعلامته ألا يخونه التعبير أو

= من الآفات، وإثبات الخصوص إثبات الحق، ونفي ما سواه، وإثبات الحقيقة إثبات خلاصة أهل الخصوص، إثبات الحق عيناً، وإثبات الخلق تعيُّناً بحيث لا يفرد الحق عن الخلق ولا الخلق عن الحق، إثبات خلاصة أهل الخصوص إثبات الحقيقة. **لطائف الأعلام**، جـ1، ص150-151.

(1) **عوارف المعارف**، جـ4، ص464.

(2) ذُكر لفظ «محو» ثلاث مرَّات، المحو الطبيعي ﴿فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ﴾، والمحو الإنساني ﴿وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ﴾، والمحو الإلٰهي ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾.

(3) ذُكر لفظ «ثبت» 18 مرَّةً، الأفعال (13)، الأسماء (5)، الفعل الإلٰهي (13)، الفعل الإنساني (5).

يحويه الفهم. وإن حدث فهو خاطر الاستدلال. وقد يتجلى اللَّه تلطفاً بالخلق ثم يستتر منهم تربيةً لهم. فلولا التجلي لكان الكفر. ولولا الستر لكان الافتتان. أما الولي فلا يستتر عنه اللَّه لحظةً. ويستريح عن استهلاك ناسوتيته في لاهوتيته، ويتلاشى جسمه في أنواره فلا يبقى له عين ولا أثر، ولا وجه ولا خبر[1].

العوام في غطاء الستر والخواص في دوام التجلي. فهما مقولتان إنسانيتان وليستا إلٰهيتين. الستر للعوام عقوبة، وللخواص رحمة. والتجلي رفع حجية البشرية. ويقال الاستتار إشارة إلى غيبة صفات النفس بكمال قوة صفات القلب. ويكون التجلي بطريق الأفعال أو بطريق الصفات أو بطريق الذات، وقد خص اللَّه الخواص بالاستتار. وهو أن تحجب البشرية بين الإنسان والغيب[2]. وقد يأتي الستر وحده دون التجلي[3]. وهو غطاء الكون والوقوف مع العادات ونتائج الأعمال. والأسباب حجب الهيبة لا تُرفع[4].

ويطلب الصوفي الستر[5]. فإذا تجلى فإنه لا يعود صوفياً، فشرط الصوفي ألاً يعرف الناس أنه صوفي على عكس الطرق الصوفية بالإعلام والطبل والزمر والرقص والسماع والهيئات والمجالس والتشريعات والتعيينات من رؤساء الجمهوريات. والحجاب حجاب ستر يحول بين الطالب والمطلوب، والمريد والمراد، والقاصد والمقصود، ولا يحجب الحق بل الخلق[6]. فالحجاب من الذات وليس من الموضوع.

والستر والتجلي صفتان للَّه وليستا فقط حالتين للصوفي. إذ يتجلى اللَّه تلطفاً بحديثه ثم يستتر تربيةً للناس. ولولا تجليه لكفروا به. ولولا ستره لافتتنوا به. فلا يديم الحالتين، ولا يستتر عن الحلاج لحظة ليستريح ويستهلك ناسوتيته في لاهوتيته، ويتلاشى جسمه في أنوار ذاته، فلا عين له ولا أثر ولا وجه ولا خبر.

---

(1) الحلاج: «نصوص الولاية»، **أعمال**، ص223.
(2) **القشيرية**، ص39-40.
(3) **عوارف المعارف**، جـ4، ص460-461.
(4) **الفتوحات**، جـ2، ص553-554. **لطائف الأعلام**، جـ2، ص424.
(5) «سترك اللَّهم سترك». **رابعة**، ص126.
(6) **الولاية**، ص230.

وعلامة تجلي الحق على الأسرار وعدم مشاهدة السر ما سُلِّط عليه التعبير أو يحويه الفهم. فالتعبير أو الفهم خاطر استدلال لا نظر جلال[1]. وإذا تجلى اللّٰه لشيء خشع له.

التجلي هو التلبس بالصادقين بالأقوال، وإظهار الأعمال. وهو لفظ الحديث «ليس الإيمان بالتجلي ولا بالتمني ولكن ما وقر في القلب وصدقته الأعمال». والسؤال هو: تَجَلٍّ مَنْ؟ تجلي الذات الإنسانية واكتمالها أم تجلي الذات الإلٰهية وظهورها؟ بتجلي الذات الإلٰهية حسنت المحاسن وجملت وباستتاره قبحت وسمجت[2]. والتجلي عملية تنفض تدريجياً وعلى مستويات عدة[3]. وتتكاثر التجليات وتتعدد إلى درجة يصعب استيعابها[4].

الستر للعوام والتجلي للخواص. الستر عقوبة للعوام، ورحمة للخواص[5]. الستر قباب الحجب المانعة من المشاهدة خشوعاً. وللخواص ستر من أنهم في دوام التجلي والاستغفار طلب المغفرة وهو الستر. الستر هو ما يحجب غطاء الكون والوقوف مع العادات والأعمال. والستار هو صُوَر الأكوان كلها لأنها مظاهر

---

(1) **أخبار**، ص19. **الولاية**، ص223.

(2) قال الشاعر:

من تجلى بغير ما هو فيه فضحته شواهد الامتحان

وقال آخر:

فقد تجلى لقلبه منه نور فاستضاءت به الظلمات

اللمع، ص439-440.

(3) التجلي الأول ظهور الذات نفسها بنفسها، أول تعينات الذات، وهو التجلي الأُحدي الجمعي. والتجلي الثاني ظهور الذات في الأسماء، والتعين الثاني في الحضر العملية وحضرة المعاني. وتجلي الغيب المغيب، وتجلي الغيب الثاني، تجلي الغيب الأول، تجلي الهوية، تجلي الهوية، تجلي الشهادة، والتجلي المعطى للاستعدادات، والتجلي المعطى للوجود، والتجلي السادس في جميع الذراري، والتجلي السادس في حقائق المكنات. التجلي الغامض، التجلي المضاف، التجلي الفعلي. **لطائف الأعلام**، جـ1، ص244-253.

(4) منها التجلي التأنيسي، التجلي الصفاتي، تجلي الاسم الظاهر. التجلي الظاهري، التجلي الباطني، التجلي الجمعة، التجلي المحبي، التجلي المحبوبي، التجلي الجامع، التجليات الذاتية، التجليات الاختصاصية، التجليات البرقية، التجليات التجريدية، التجلي الاتصاف بالأخلاق الإلٰهية.

(5) **جامع الأصول**، جـ2، ص357-360.

الأسماء الإلٰهية. والمستور الهياكل البدنية الإنسانية المرخاة بين عالم الغيب والشهادة، والحق والخلق[1].

التجلي هو ما يظهر للقلوب من أنوار الغيوب. وهو على عدة مستويات: التجلي الأول هو التجلي الذاتي، تجلي الذات وحدها لذاتها وهي الحضرة الأَحدية التي لا نعت فيها ولا رسم. والتجلي الثاني هو الذي يظهر به أعيان الممكنات. والتجلي الشهودي هو ظهور الوجود المسمَّى باسم النور، ظهور الحق بصُوَر أسمائه في الأكوان[2].

والستر لفظ قرآني قليل الذِكر، اسم أكثر منه فعلاً. له معنى سلبي وهو التستر حتى لا يشهد السمع والبصر. وله معنى إيجابي بمعنى رفع الستر والحجاب على المؤمنين وإنزاله على الكافرين[3]. وذُكِر لفظ «تَجَلٍّ» أقل من لفظ «ستر» بمعنى جغرافي تجلي اللَّه للجبل وتجلي النهار بعد الليل. أما المشتقات الأخرى مثل «جلي» و«جلاء» فيعني الجلاء[4].

فاللفظان ليس لهما هذا القدر من الحضور في التصوف. والوجدان العربي المعاصر أقرب إلى الستر منه إلى التجلي، وإلى الخفاء والمداراة منه إلى الكشف والظهور. الدولة تخفي أكثر مما تظهر، والمواطن يستر أكثر مما يكشف. عالم الستر مثل عالم الغيب وعالم البواطن عوالم متحركة لكنها لا تظهر. فالمجتمع هو مجتمع الخفاء.

ويُقرن بالستر والتجلي التجريد والتفريد. التجريد هو تجرد الإنسان عن الأغراض في الدنيا والآخرة. والتفريد عدم رؤية النفس آتية بشيء بل كل شيء منّة

(1) السابق، ج3، ص41.

(2) **جامع الأصول**، ج3، ص21–22.

(3) ورد لفظ الستر ثلاث مرّات، الأول بمعني سلبي ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ﴾. والثاني إيجابي ﴿وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا﴾، ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾.

(4) وَرَدَ لفظ «تَجَلٍّ» مرّتين ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ﴾، ﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ﴾. والمرّات الثلاث الأخرى ﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا﴾، ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ﴾، ﴿وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا﴾.

من اللّه. التجريد بنفي الأخيار. والتفريد بنفي النفس، والاستغراق في رؤية نعم اللّه وغيبته عن الكسب[1]. هو خروج الإنسان من الحدثان والفناء حتى جَمال الرحمن. والتفريد محو الصفات في الصفات[2].

والتجريد عملية متدحرجة من البداية إلى النهاية[3]. والتفريد أيضاً عملية متدحرجة من البداية إلى النهاية[4].

ولم يرد لفظ «تجريد» ومشتقاته في القرآن وذلك لأن التوحيد عياني وليس مجرداً. توحيد الذات، وتوحيد الأسرة، وتوحيد المجتمع، وتوحيد الأمة، وتوحيد الأمم والقبائل والشعوب والأقوام.

وورد لفظ «فرد» ومشتقاته[5]. وكلها صفة للإنسان فالإنسان هو الفرد أي المسؤولية الفردية على الأفعال يوم الحساب[6]. خلق اللّه الإنسان فرداً، ويموت فرداً، ويبعث فرداً، ويحاسب فرداً. والرسول وحده هو الذي يناجي ربه، ولا يريد أن يتركه وحيداً[7].

(1) **عوارف المعارف**، ج4، ص461-462.
(2) **مشرب الأرواح**، ص206-207.
(3) في البدايات التجريد عن المخالفات واللذات والأهواء. وفي المعاملات تجريد النفس عن نسبة الإقبال إلى المخلوقات. وفي الأخلاق تجريدها عن الهيئات النفسانية والملكات الرديَّة. وفي الأصول التجريبية الفتور في السيور والالتفات إلى الغير. وفي الأدوية التجريد عن العلة الاستدلالية بالعلوم اللدنية. وفي الأحوال التجريد عن محبة السوى. وفي الولايات التجريد من الأسماء والصفات عن رسوم الكائنات. وفي الحقائق تجريد عين الجمع عن درك العلم. وفي النهايات تجريد الخلاص عن شهود التجريد.
(4) في البدايات تخليص الإشارة إلى الحق بالعبادة. وفي الأبواب تخليص الإشارة إلى الحق بالعقيدة. وفي المعاملات تخليص الإشارة إلى الحق بالعناية والتعريف. وفي الأخلاق تخليص الإشارة إلى الحق بالحق والبعث. وفي الأصول تخليص الإشارة إلى الحق قصداً. وفي الأدوية تخليص الإشارة بالحق لافتخار أو بوح. وفي الولايات تخليص الإشارة بالحق محبة وغيرة. وفي الحقائق تخليص الإشارة بالحق شهوداً واتصالاً. وفي النهايات تفريد الإشارة عن الحق بالحق. **جامع الأصول**، ج3، ص195-196.
(5) ورد لفظ «فرد» في القرآن خمس مرات.
(6) ﴿وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾، ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾، ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ﴾.
(7) ﴿وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾.

والوجدان العربي المعاصر أقرب إلى التجريد الذي لا وجود له في القرآن منه إلى التفريد. فقد أصبح فارغاً صُوَرياً خاوياً. وضاعت الفردية وتمَّ ابتلاعها في مجموعات قاهرة صغيرة مثل الأسرة وسلطة الأب أو الأم أو الأخ الأكبر أو المجتمع وسلطة التقاليد الموروثة أو النظام السياسي وسلطة نُظُم القهر أو تعظم التعليم القائمة على التلقين والنمطية وليس الإبداع والفردية.

11 ـ الفرق والجمع (الفصل والوصل)

وهما لفظان قرآنيان. وعليهما تبنى الآيات. والفرق والجمع مثل البعد والقرب يدلان على المسافة بين الإنسان وهو في طريق الوصول إلى اللّه، القرب بالوجد جمع، والغيبة بالبشرية فرق(1). الجمع بالحق تفرقة من غيره، والتفرقة من غيره جمع به(2). المهم هما الحركتان وليس الشيئين الثابتين مما يتمُّ الفرق ومع ماذا يتمُّ الجمع. الجمع عين الحق الذي قامت به الأشياء. والتفرقة صفوة الحق من الباطن(3). الجمع للمتفرقات، والفرق للمجموعات. الجمع في اللّه والفرق في الكون، وهي قضية الوحدة والكثرة، اللّه والعالم، الجمع في آدم، والفرق في ذريته(4). فالجمع والفرق ليسا فقط حركتين أساسيتين بين الإنسان واللّه بل حركتين أُفقيَّتَيْن بين الماضي والمستقبل، الجمع ما كان بالحق، والفرق ما كان للحق(5).

الأقرب أن يسبق الفرق الجمع كما يسبق السلب الإيجاب(6). قلب الجمع والوجود إشارة إلى الإنسان صورة البرزخية الكبرى(7). والفرق له مستويات عدة بين الحق والخلق(8). الفرق ما نسب إلى الإنسان والجمع ما سلب

(1) الجنيد، **طبقات الصوفية**، ص157.
(2) أبو الحسن النوري، السابق، ص166.
(3) أبو يعقوب النهرجوري، السابق، ص280.
(4) أبو بكر بن طاهر الأبهري، السابق، ص393.
(5) بنداري الحسن، السابق، ص468.
(6) «عند القشيري يسبق الجمع الفرق». **القشيرية**، ص25-26.
(7) **لطائف الأعلام**، ص585.
(8) الفرق إشارة إلى رؤية خلق بلا حق إلى مشاهدة العبودية. الفرق الأول بقاء العبد بأحكام خلقيته قبل الفناء. والفرق الثاني بقاء العبد بربه عندما يغنى عن نفسه. والفرقان الفرق بين =

عنه[1]. الفرق كسب للعبد من إقامة العبودية وما يليق بأحوال البشرية. والجمع ما يكون من قِبل الحق من لطف وإحسان. إثبات الخلق فرق وإثبات الحق جمع. وكلاهما ضروري. من لا فرق له لا جمع له[2].

الجمع هو اعتبار الذات بحسب واحديتها المحيطة بجميع الأسماء والحقائق وهي رتبة الجمع والوجود. وأَحدية الجمع هي الجمع بين الأَحدية والوحدانية[3]. إن صدام الجمع هو الفرق بظهور الكثرة في الوحدة واعتبارها فيها[4]. الجمع شهود الحق بلا خلق، جمع الجمع شهود الخلق بالحق وهو فرق الجمع. وجمع الجمع جمع مزدوج، درجة أعلى من الجمع. وتُسمَّى أحياناً الفرق الثاني[5]. والفرق عملية متدرجة على درجات[6].

= الحق والخلق والعكس. وفرق الجمع تكثُّر الواحد بظهوره في المراتب. وفرق الوصف وفصل الوصل ظهور الذات بالأوصاف. الوحدة والكثرة. والفرق بين المتخلف والمتحقق. التخلق بالأسماء الإلٰهية. والمتحقق بالمناسبة الذاتية. الفرق بين الشريف والكامل وتفاوت الموجودات بالشرف والكمال. والفرق بين الخاصة والعامة. مبدأ الفرق هو الوحدة والكثرة. **لطائف الأعلام**، ج2، ص561–563، 612.

(1) أبو علي الدقاق، **القشيرية**، ص35–36.

(2) وتحققتك في سري فناجاك لساني
فاجتمعنا لمعاني وافترقنا لمعاني
إن يكن غيبك التعظيم عن لحظ عياني فقد صَيَّرك الوجد من الأحشاء داني

الجنيد، **القشيرية**، ص36.

(3) **جامع الأصول**، ج3، ص12.

(4) السابق، ج3، ص16، 25.

(5) **اصطلاحات الصوفية**، ص136.

(6) الفرق الأول الاحتجاب بالخلق من الحق وبقاء الرسوم الخلقية. الفرق الثاني شهود قيام الخلق بالحق، ورؤية الوجود في الكثرة، والكثرة في الوحدة من غير احتجاب أحدهما عن الآخر. الفرقان علم التفصيل، الفارق بين الحق والباطل، فرق الجمع تكثر لوحدة بظهوره. وفرق الوصف ظهور الذات الأَحدية بأوصافها في الحضرة الواحدية. الفرق الأول هو احتجاب الخلق عن الحق وبقاء الرسوم الخلقية. والفرق الثاني هو شهود قيام الخلق بالحق ورؤية الوحدة في الكثرة، والكثرة في الوحدة. والفرقان هو العلم، التفصيل الفارق بين الحق والباطل. وفرق الجمع هو تكثر الوحدة، بظهور في المراتب التي هي ظهور شؤون الذات الأَحدية. وفرق الوصف هو ظهور الذات الأَحدية بأوصافها في الحضرة الواحدة. الفرق بين المتخلق والمتحقق، الأول اكتساب والثاني موهبة. والفرق بين الكمال =

والفرق يثبت اثنين المولى والعبد. والجمع يثبت واحداً[1]. الجمع يفقد، والفرق يوجد. الجمع غياب، والفرق حضور[2]. الجمع إشارة إلى الحق بلا خلق. والعكس الفرق هو التمييز بين الحق والخلق. التفرق بلا جمع جحود للخالق، والجمع بلا فرق جحود للمخلوق[3]. الجمع والفرق اسمان. الجمع جمع المتفرقات، والفرق تفرقة المجتمعات. في حالة الجمع يقال: اللّه ولا سواه. وفي حالة الفرق يقال: الدنيا والآخرة والكون. الجمع أصل والتفرقة فرع. ولا تفرق الأصول إلا بالفروع. ولا تثبت الفروع إلا بالأصول. كل جمع بلا تفرقة زندقة. وكل تفرقة بلا جمع تعطيل. الجمع في المعرفة، والفرق في الأحوال. الجمع بالحق تفرقة عن غيره. والتفرقة عن غيره جمع به. الجمع اتصال، والتفرقة شهود. الجمع قرب بالوجد، والفرق غيبة في البشرية[4]. والجمع له أبعاد عدة[5]. الجمع شهود الحق بلا خلق[6].

= والشرف، والنقص والجنة أن الكمال هو حصول الجمعية الإلٰهية والحقائق الكونية في الإنسان أوفر، وظهورها بها أتمُّ. والشرف هو ارتفاع الوسائط بين الشيء ووجوده. **جامع الأصول**، جـ3، ص63-64.

(1) وفـي الـتـفـرق اثـنـان إذا اجـتـمـعـا ... بـالافـتـراق هـمـا: عـبـد ومـولاه

الديوان، ص288.

(2) الجمع أفقدهم ـ من حيث هم ـ قِدماً ... والـفـرق أوجـدهـم حـيـنـا بـلا أثـر

فـاتـت نـفـوسـهـم والـفـوت فـقـدهـم ... في شاهـد جـمـعـوا فـيـه عـن الـنـشـر

وجـمـعـهـم عـن نعوت الرسم محوهم ... عـمـا يـؤثـره الـتـلـويـن فـي الـغـيـر

والـعـيـن حـال تـلاشـت فـي قـديـمـهـم ... عن شاهد الجمع احتمالاً بلا صُوَر

حـتـى تـوافـى لـهـم فـي الـفـرق مـا ... عليهم من علوم الوقت في الحضر

فـالجمع غيبتهم والفرق حضرتهم ... والـوجـد والـفـقـد في هـذيـن بـالـنـظـر

(3) **اللمع**، ص416.

(4) السابق، ص283-284.

(5) **اصطلاحات الصوفية**، ص41.

(6) وجمع الجمع شهود الخلق قائماً بالحق ويسمَّى الفرق بعد الجمع. الجامع اسم اللّه. وهو التعيُّن الأول، جامع التجليات العقل الأول، الروح الأعظم. الجمع هو جمع الحق بلا خلق. والتفرقة العكس الخلق بلا حق. الجمع هو الاشتغال بالحق والتفرقة العكس الاشتغال بقوة البدن. الجمع اجتماع الهمة على العبادة، الاشتغال بشهود اللّه عما سواه. والتفرقة العكس. الجمع حال إثبات النفس والحق، وجمع الجمع الاستهلاك بالكلية. وجمع الفرق، توحيد المتفرق، جمع التفرقة، جمع تفرقة العامة النسبة للأوامر والنواهي. وجمع تفرقة =

والجمع نظراً إلى الرب، والفرق نظراً إلى النفس. نزول الجمع ورطة وغبطة. وحلول الفرق فكاك وهلاك. وبينهما يتردد الخاطران. جدل الجمع والفرق، والنجاة والهلاك، والأزمة والحل، بين القدم والحدث، والوجود والعدم[1]. والجمع فرق، والفرق جمع[2]. يقتضي الجمع العبودية ومشاهدة الحق. ويقتضي الفرق جمع الجهد في العبودية[3].

والجمع جمع الأسرار بما ليس له بد ولا ند ولا شبيه ولا ضد، فتصير مجموعة بالحق. فالجمع هنا جمع الحقائق وليس جمع النفس وضمها. وهو حال موسى لما بدا له الحق. فلم يبق له أثر في موسى ولم يكن له خبر عن نفسه. كلم نفسه. وأداه الجمع إلى الفناء لم يطق موسى حمل الخطاب أو رفضه[4]. عين الجمع من فرط البلاء وغلبة الشوق، وحصول الجمع في الجمع لِما ورد عليه من الحق للحق[5]. والجمع له أبعاد عدة[6]. الجمع أصل والتفرقة فرع. الجمع بلا تفرقة زندقة، والفرق بلا جمع تعطيل[7]. الجمع هو جمع عين الأَحدية أي

= الخاصة اتفاق المرادات. وجمع تفرقة خاصة الخاصة، الإغماق في نور العين، جمع تفرقة خلاصة خاصة الخاصة العين الواحدة الجامعة. **لطائف الأعلام**، جـ1، ص319، 322-325.

(1) «نزول الجمع ورطة وغبطة. وحلول الفرق فكاك وهلاك. وبينهما يتردد الخاطران. إما متعلّق بأشعار القِدم أو مستهلك في بحار العدم». **أخبار**، ص30. **الولاية**، ص230.

(2) لا تُفرق الأوصاف ما بيننا   أن قيل لي: يا، كنت إياك
السابق، ص167.

(3) «من صدق في عين الجمع بالحرية كان لازماً بجوارحه على آداب العبودية وسره في مشاهدة الحق. فإن كان في عين الافتراق فإنه يجمع جهد المجتهدين في عبوديته ويكون ذلك كالعباد». السابق، ص183.

(4) الولاية ص229-230.

(5) أبو العباس الدينوري، السابق، ص476-477.

(6) الجمع عين التوحيد. إذا أدركت الذات بالذات فهو الجمع. الجمع في المعرفة والتفرقة في الأحوال والمقامات. التفرقة أن يكون في العبودية والجمع أن يكون في الربوبية، عين الجمع حقيقة الاتحاد، وجمع الجمع من حقائق تجلي الربوبية التي تتولى للعارف عند مشاهدة القِدم. **مشرب الأرواح**، ص160-161، 173.

(7) **عوارف المعارف**، جـ4، ص454-460.

التلاشي في عين الأَحدية بالحقيقة[1]. وهو عملية متدحرجة من البداية إلى النهاية[2].

وكل التعريفات تدور حول معنى واحد الجمع حق بلا خلق. والفرق خلق بلا حق[3]. ولفظ «الفرق» لفظ قرآني، أقلُّ ذِكراً من لفظ «الجمع». فالقرآن حركة تجميع لا تفريق. ومعظم المعاني سلبية من فعل «فرَّق» أو «تفرَّق» للقوم والدين والرسل والزوجين ويعني فعل «فرق» فصل مثل فرق البحر وفرق القرآن وفرق البشر بين مؤمنين وكافرين[4].

والوجدان العربي اليوم أقرب إلى الفرق منه إلى الجمع، وإلى التجزئة منه إلى الوحدة، ومن التفريق في الوطن الواحد بين مذاهب وملل وطوائف وأعراق ودول وأقطار ورؤساء ونُظُم سياسية بين مَلَكية وجمهورية وجماهيرية وسلطنة ودولة وإمارة. والتوحيد أقرب إلى الجمع منه إلى الفرق.

---

(1) القرب بالوجد جمع وغيبة بالبشرية فرق. الجمع في المعرفة والفقر في الحال. الجمع اتصال. والفرق شهود بالمباينة. الجمع تجريد التوحيد. والفرق الاكتساب. إذن لا جمع بلا فرق، ولا فرق بلا جمع. الجمع عين الفناء باللّه، والفرق العبودية. تثبيت المجمع هو تشتت الشمل. **لطائف الأعلام**، ص262.

(2) في البدايات جمع الهمة والخاطر في الطاعة. في الأبواب اجتماع جميع القوى في التوجه إلى الحق. وفي المعاملات اجتماع القلب في المراقبة والإخلاص. وفي الأخلاق موافقة جميع القوى في الفضيلة والعدالة. وفي الأصول اتحاد الوجه والقصد في السلوك. وفي الأدوية جمع العقل في التوجه إلى عالم القدس. وفي الولايات جمع الروح في المشاهدة. وفي الحقائق جمع الروح في المقام الخفي في المعاينة والاتصال. **جامع الأصول**، ج3، ص196.

(3) الجمع إشارة إلى حق بلا خلق، الجمع هو ما سلب عن الإنسان، ما أشهد الحق من فعله بالإنسان حقيقة، مشاهدة المعرفة، إثبات الخلق قائماً بالحق، الجمع الفناء عن مشاهدة كل شيء سوى الحق، شهود الأغيار باللّه، مشاهدة تعريف الحق، الجمع بين ما له ووصفت به النفس، فيكون الأنا هو، والهو أنا. وجمع الجمع هو الجمع بين ما له وما للإنسان وإرجاع الكل له، الاستهلاك بالكلية وفناء الإحساس بما سوى اللّه عند غلبة الحقيقة. أما الفرق أو التفرقة فهو إشارة إلى الخلق بلا حق. هو ما ينسب إلى الإنسان دون اللّه أدباً. الفرق مشاهدة العبودية، وإثبات الخلق. الفرق شهود الأغيار للّه، مشاهدة تنوع الخلق في أحوالهم. أبو علي الدقاق، **الفتوحات**، ج2، ص516-519.

(4) ذُكر فعل «فرق» 23 مرَّةً، والاسم تسع مرَّات: فراق (2)، فرق، فرق، فرقة، الفارقات، تفريق، متفرقون، متفرقة (1)، وذُكر لفظ فرقان سبع مرات. ولفظ فريق (29)، فريقان (4).

وقد ذُكر لفظ «جمع» ومشتقاته بمعانٍ عدة، وفي صيغ معظمها فعلية، مما يدل على أن الجمع فعل وليس اسماً، حركة وليس جوهراً. والمجموع هو جمع البشر إلى يوم القيامة أو جمع حطام الدنيا أو جمع المال أو جمع الكيد، أو جمع الناس أو البشر أو الفكر أو الآخر أو الرسل أو الهدي أو الأختين أو الإخوة أو الإنس والجنّ أو الشجرة أو الظواهر الطبيعية، مثل الشمس والقمر. والاسم «الجمع»، أما الأسماء البعيدة مثل الجامع والمجموع والجمعان والمجمع والجمعة، وصفة جميعاً، أجمعين فهي ألفاظ محايدة تتجاوز السلب والإيجاب[1].

وبناءً على هذا المنطق الجدلي الثنائي يمكن إضافة ثنائيات أخرى تَرِدِ عند الصوفية دون أن تصبح مصطلحات وذلك مثل الفصل والوصل. فالوصل يلي الفصل. وإذا جاء الفصل فلا وصل، مع أن الأحوال تتوالى منتقلة من مقام إلى مقام[2]. والفصل والوصل مثل الفرق والجمع من الحالات. والوصل يؤدي إلى علم الغيب[3].

وأحياناً يُستعمل لفظا الاتصال والانفصال، الاتصال ملاحظة الإنسان عينه متصلاً بالوجود الأَحدي بقطع النظر عن تقيد وجوده بعينه وإسقاط إضافته إليه. اتصال مدد الوجود ونفس الرحمن على الدوام بلا انقطاع حتى يبقى موجوداً به[4]. الاتصال هو توارد الإمداد الجواد فينتهي إلى مقام البسط الذي يوجب الشكر ثم الصحو. واتصال الاعتصام هو اتصال الخاصة أهل الوصول إلى الحضرة. هو شهود الحق تفريداً.

الوصل الوحدة الحقيقة الواصلة بين البطون والظهور، وهو قيومية الحق للأشياء. وقد يكون هو فناء العبد بأوصافه في أوصاف الحق. الوصل دوام نظر الروح إلى جَمال الحق بنعت الوجد والحال بلا كلفة الأفعال في زمان الوصال إلا جريان تقدير بغير علة، والفصل فناء العارف العاشق في اللّه باللّه عن اللّه[5]. الفصل البُعد الحقيقي لأحكام المباينة والامتياز. أيضاً فوت ما يُرجى من المحبوب.

---

(1) ورد اللفظ بمشتقاته المباشرة 38 مرّةً. الأفعال (29)، الأسماء (9).

(2) أبو بكر الطجستاني، **طبقات الصوفية**، ص472.

(3) «الوصل مثل الفصل، ثم الفصل من الوصل. ولكل واحد منهما اسم ومجرى. ولكل مجرى منه علم فصل. فإذا وصل بفصله أعطى علم غيب أزله. فإذ أكمل فيه استحكامه رجع الفصل إلى الفصل، بلا إزالة الوصل ولا نفي الفصل». **شطحات**، ص101، 106.

(4) **اصطلاحات الصوفية**، ص34، 50-52.

(5) السابق، ص148.

وهو التميُّز عن اللّه بعد حال الاتحاد، والفصل الأزلي للذات وإطلاق أزليتها وسقوط الاعتبارات عنها بالكلية. ويعني أيضاً انفصال العبد عن حظوظ نفسه واتصاله بربه، الفصل بين الخاصة والعامة هو مقام المحبة، فصل الفصل هو العود من النزول عن حضرة أَحدية الجمع[1]. الوصل هو التعيُّن الأول لأنه الوحدة الحقيقية الواصلة بين الخفاء والظهور. ووصل الفصل هو سبب الصدع وجمع الفرق. هو العود بعد الذهاب والصمود بعد النزول. والوصول إلى كمال القبول هو أن يصبح الإنسان مرآةً للذات والأُلوهية[2].

واتصال الشهود هو سقوط الحجاب بالكلية. واتصال الوجود وجود عيني أي وجود مُعاينة بالانتهاء إلى حضرة الجمع، واتصال الانفصال محو رؤية وصل الوحدة لفصل الكثرة. واتصال الانفصال زوال حظوظ العبد الموجب الاتصال بالحق، الاتصال هو ملاحظة العبد عينه متصلاً بالوجود الأَحدي[3]. الاتصال كاشفات القلوب ومشاهدات الأسرار، الانفصال مقام فوق الاتصال، وانفصال الاتصال هو الفناء عن الذات وارتفاع المغايرة وقد يعني الانفصال عن الدنيا والآخرة[4]. والاتصال هو اتصال الشهوة بالخلاص والاعتدال رسماً والفناء عن الاستدلال علماً والترقي في صفات الشتات. وهي عملية متدحرجة ذات بداية ونهاية[5]. وهو وصول السر إلى مقام الذهول، ألا يشهد الإنسان غير خالقه ولا يتصل بسر خاطر غير صانعه[6]. الحركة للبلاء، والسكون للاتصال[7].

---

(1) السابق، جـ2، ص564، 613، 711-713.

(2) **جامع الأصول**، جـ3، ص94-95.

(3) **جامع الأصول**، جـ3، ص11.

(4) **لطائف الأعلام**، جـ1، ص212-213.

(5) في البدايات الحضور مع سلامة الفطرة والاعتصام باللّه. وفي الأبواب تصحيح التوجه بقوة التقوى. وفي المعاملات قوة المراقبة واعتقاد المقاربة. وفي الأخلاق الاتصاف بالأخلاق الإلٰهية. وفي الأصول السلو في اللّه بحول اللّه. وفي الأدوية رؤية الحقيقة بعين البصيرة. وفي الأحوال الانفصال عن السلو والفرار بدون المحبوب. وفي الروايات الانفصال عن الأسماء والصفات، وفي النهايات الانفصال عن شهود مزحمة الاتصال والانفصال عين الأَحدية والأزلية. السابق جـ3/ 189.

(6) **عوارف المعارف**، جـ4، ص427.

(7) **التستري**، السابق، ص427.

الواصل لا يحجبه عن الحق شيء(1). لا يصله اللَّه فلا يخشى عليه القطع أبداً(2). هو الحاصل عند ربه(3). وأصل الوصول جعل اللَّه إليهم قلوبهم فهم محفوظو القوى ممنوعون عن الخلق أبداً(4). ولا يرجع أحد إلا من الطريق وما وصل إليه أحد ورجع عنه(5). والمتصل بجهده كلما دنا انقطع. ونعوت الواصل ثلاثة: هممهم لله، وشغلهم في اللَّه، ورجوعهم إلى اللَّه(6). الوصول مقام جليل. إذا أحب اللَّه عبداً أن يوصله اختصر عليه الطريق وقرَّب إليه البعيد(7).

وقد يُستعمل لفظ الصلة، صلة النفوس إلى الطاعات، وصلة القلوب إلى المراقبات، وصلة الأرواح إلى المشاهدات، وصلة الأسرار إلى المعاينات، وصلة الأبدان إلى الخلق. الصلة صلة القلوب إلى الغيوب، وصلة الجذب إلى القلب، وصلة الأنوار إلى الأسرار، وصلة الأرواح إلى عالم الأفراح(8).

ولفظ «الوصل» أقل تردداً وكلها أفعال لا أسماء. فالوصل إيصال واتصال ووصول. والغالب هو وصل أوامر اللَّه، والوصول إلى اللَّه، ووصول الرسول مع اللَّه، ووصول القول والقوم والخطاب(9).

وكما أن الغالب على الوجدان العربي المعاصر هو الفرق لا الجمع فكذلك الغالب عليه هو الفصل لا الوصل. الفصل بين الأفراد صراع على المصالح، وبين الأُسر والعشائر صراع على السلطة، وبين المذاهب والطوائف والأعراق صراع على الدولة، وبين الدول صراع على السيطرة، وصراع بني الأقطاب والمعسكرات من أجل الغلبة. ويتجلى الفصل في تقطيع الجسور، وغياب الحوار، والتنافر والشقاق.

---

(1) يحيى بن معاذ، **عوارف المعارف**، جـ4، ص427-428.

(2) القرشي، السابق، ص428.

(3) الجنيد، السباق ص429.

(4) رُويْم، السابق، ص429.

(5) ذو النون، السابق، ص429.

(6) البسطامي، السباق ص428-429.

(7) السياري، السابق، ص429.

(8) **مشرب الأرواح**، ص70-71.

(9) وَرَدَ لفظ «وصل» 11 مرَّةً كلها أفعال وصل: أوامر اللَّه (4)، الوصل للَّه ووصل الرسول مع اللَّه (1)، وصول القوم (2)، وصول الأيدي (1)، وصول القول (1).

ولفظ «الفصل» لفظ قرآني وَرَدَ فعلاً واسماً على التساوي تقريباً. وفعل الفاصل للآيات ثم للقيامة فهي يوم الفصل، ثم للجنود والعير، ثم للفصل بين الحلال والحرام. وفي الأسماء يوم الفصل وفصل الخطاب والقول الفصل وكلمة الفصل، وكل شيء، والآيات والكتاب والزوجين والأم وطفلها، واللّه خير الفاصلين[1].

12 ـ الفناء والبقاء

وكما أن المحبة آخر المقامات وذروتها فكذلك الفناء والبقاء آخر الأحوال وقمتها. وهما حالتان مثل الموت والحياة والصحو والسُّكْر[2]. وثنائيتهما مثل ثنائية الفقد والوجد. فالفناء فقد، والبقاء وجد. والصوفي مفقود، معلَّق بين السماء والأرض بين الرأس والقدمين[3]. والسؤال هو: هل هما مقامان أم حالان؟ نظراً لازدواجية المفاهيم فهما أقرب إلى الحال منهما إلى المقام.

والسؤال الآخر هو: أي الحالين بداية وأيهما نهاية؟ في رأي بعض الصوفية أن الفناء أتمُّ من البقاء. وفي رأي فريق آخر ومعهم الفقهاء أن البقاء أتمُّ من الفناء. فالإنسان يفنى عن نفسه في اللّه ثم يبقى باللّه. وجود الإنسان في الفناء وجود هش، ووجوده في البقاء وجود أصيل.

ويركز تحليل القدماء على الفناء أكثر مما يركز على البقاء، لأن التصوف لديهم تصوف فناء وليس تصوف بقاء. ولا يمكن تحليل أحدهما منفصلاً عن الآخر نظراً للعلاقة الجدلية بينهما. فلا فناء دون بقاء، ولا بقاء دون فناء. من قال به أفناه

---

(1) وَرَدَ لفظ «فصل» 43 مرَّةً، فعلاً (22)، اسماً (21)، في الأفعال تفصيل الآيات (14)، يوم القيامة (3)، الجنود، العير، الحلال والحرام، الكتاب، كل شيء (1)، يوم الفصل (6)، الخطاب، الكلمة، القول (1)، كل شيء (5)، الآيات، الكتاب (1)، اللّه خير الفاصلين، فصال الزوجين، الفصيلة وهي الزوجة (1)، فصال الطفل أي فطامه (2).

(2) «جنني به فمت، ثم جنني به فعشت، ثم جنني عني وعنه فغبت. ثم أوقعني في درجة الصحو وسألني عن أحوالي فقلت: الجنون بي فناء، والجنون بك بقاء، والجنون عني وعنك ضياء، وأنت في كل الأحوال أولى بناء». **شطحات**، ص184.

(3) «تظن أنهم اشتهوا فضائلكم. بل رأوا رجالاً جاوز رؤوسهم العلا وأرجلهم الثرى. وهم مفقودون فيما بين ذلك». **شطحات**، ص94.

عنه، ومن قال منه أبقاه[1]. فالفناء بالله والبقاء لله. والفناء في الله بقاء للإنسان.

وقد يكون الفناء على مستوى الأفعال الخلقية، فناء عن المعاصي. وقد يكون فناءً معرفياً، فناء رؤية العبد فعله بقيام الله عليه. وقد يكون فناء عن الخلق كله الفناء المطلق، وهو فناء الأدنى بالأعلى. وهو على طبقات سبع: الأولى الفناء عن المخالفات. والثانية الفناء عن أفعال العباد بقيام الله بها. والثالثة الفناء عن صفات المخلوقين. والرابعة الفناء عن الذات. والخامسة الفناء عن كل العالم بشهود الحق أو الذات أو العلم. والسادسة الفناء عن كل ما سوى الله بالله. والسابعة الفناء عن صفات الحق ونسبها بشهود ظهور العالم عن الحق لذات الحق. ثمرة الفناء هو أن تصير الأشباح كالأرواح، توحيد القوى والمدارك. وثمرة البقاء بعد الفناء ظهور العبد بصفات الحق، وثمرة البقاء بالحق، البقاء بعد الفناء. وهو المسمَّى البقاء الحق. أما البقاء فيعني بقاء الطاعات أو بقاء رؤية الإنسان، قيام الله على كل شيء أو بقاء ما يحق وهو يقابل الأنواع الثلاثة الأولى من الفناء. البقاء رؤية دوام جَمال الحق[2]. وبقاء البقاء هو البقاء المزدوج[3].

والفناء أوائل التوحيد. وفناء الفناء هو الفناء المزدوج[4]. الفناء والبقاء هما إخلاص الوحدانية وصحة العبودية[5]. الفاني من فني عن نفسه وخرج عن حظوظها بالكلية. لا يتحرك ولا يسكن إلا بنية القرب إلى الله[6]. والفاني برغبته هو الذي رغب عما سوى الله. والفاني بالحق هو من أفناه الحق فلم يتسع لغيره.

يبدأ بالفناء والبقاء الخلقيين في التوحيد الخلقي ووحدة الذات. فالفناء بسقوط الأوصاف المذمومة، والبقاء قيام الأوصاف المحمودة. وهو مثل تعريف التصوف

---

(1) أبو إسحق إبراهيم بن المولد، السابق، ص412.

(2) **الفتوحات**، ج2، ص512-515.

(3) **مشرب الأرواح**، ص229.

(4) **لطائف الأعلام**، ج1، ص314-315.

(5) إبراهيم بن شيبان، السابق، ص443.

(6) فلم تهوَني ما لم تكن فيَّ فانيا ولم تفنَ ما لم تجتلي فيك صورتي
ابن الفارض، السابق، ج2، ص555.

بأنه إسقاط الصفات الدنية، والتحلي بالصفات السنيَّة. والإنسان أفعال وأخلاق وأحوال. والأحوال بعد الأفعال. الأول عن النفس. والصفات والبقاء بصفات الحق. ثم الفناء عن صفات الحق بشهود الحق ثم الفناء عن شهود الفناء بالبقاء في وجود الحق[1].

وعلامة الفناء أن يكون للدين لا للدنيا. الاستغناء والافتقار بالنسبة إلى اللَّه. فأيهما أتمُّ الاستغناء باللَّه أم الافتقار إليه؟ الافتقار إلى اللَّه موجب للفناء. فإذا صح الافتقار كمل الفناء. وأحياناً يُقرأ اللفظ الغنى في مقابل الفقر. فالفقر أفضل من الغنى[2]. والنفس التي أعزَّها الحق بحقيقة الفناء تزول عنها موافقات الفاقات[3].

والفناء المحمود هو أخذ الشيء من جهته، غير مانع حقه متعاوناً في الكسب على البِرّ والتقوى لا على الإثم والعدوان، دون تعلُّق القلب بما دون اللَّه، ودون استوحاش للنقد أو الإستأناس بالملك، في الفناء افتقار إلى اللَّه، وفي الفقر فناء به. والفناء هو الفناء عن الفناء.

الفناء عدة أشياء، الفناء عن الحظوظ بل عن الأشياء كلها. والبقاء والفناء عما له والبقاء باللَّه مع الموافقة مع اللَّه في كل حركاته وسكناته. وهو قريب من التوبة النصوح. الفناء الغيبة عن الأشياء[4]. والتلاشي بالحق، والبقاء الحضور مع الحق[5]. الفناء استعجام الكل عن الأوصاف واشتغال الكل بالكلية[6]. وفناء المخالفات وبقاء الموافقات مثل التوبة. وزوال الرغبة والحرص والأمل مثل الزهد.

والفناء المطلق هو استيلاء الحق على العبد فيقلب كون الحق على كون العبد. وينقسم إلى ظاهر وباطن. الظاهر تجلي الحق بالأفعال، وسلب اختيار العبد إرادته. والباطن المكاشفة بالصفات والاستيلاء على باطنه حتى ينتهي الوسواس والهاجس. إذ يبلغ الصوفي درجة اختيار اللَّه لأفعاله بالكلية إذ ما فني فيه

---

(1) **القشيرية**، ص36-37.

(2) حديث «يدخل فقراء أمتي الجنة قبل أغنيائها بخمسمائة عام». ص292.

(3) **اللمع**، ص291-292.

(4) **عوارف المعارف**، ج4، ص440-449. الخراز، السابق، ص443.

(5) الخراز، السابق، ص442.

(6) الجنيد، السابق، ص442.

بالكلية[1]. من لم يفن عن نفسه وسره ورؤية الخلق لا يحيا سره لمشاهدة الخيرات والمنن[2]. فالفناء شرط المشاهدة، والباقي في أوصافه يحوم حول الشرك لفرحه ببقائه ومشاهدة شاهده مع أن البقاء بالصفات بعد تحقيقها[3]. فناء رؤية قيام العبد. وبقاء رؤية حكام اللّٰه في الأحكام[4]. الفناء في اللّٰه، والبقاء بالأحكام. والحكم قانون. والقانون قيد. ولا يبقى المحكوم ما دام قد فني في اللّٰه. الفناء فناء رؤيا العبد في أفعاله لأفعاله بقيام اللّٰه له. والبقاء بقاء رؤية العبد بقيام اللّٰه في قيامة الله. وفناء الإنسان عن أفعاله بقيام اللّٰه بقاء له بقيام الذات. هما حالان معرفيان في درجة العبودية أو استعمال علم الرضا. العبد في حالة الفناء محمول، وفي حال الحمل مورود. وهي نعوت تؤدي إلى الموت. وأول مقامات الوجود والمشاهدات للبقاء ولا توجد نعوت تؤدي إلى الحياة؟ ألا يمكن الوصول إلى البقاء دون المرور بالفناء؟ وأول حال الفناء إخلاء العبد من أفعاله. يدور إخلاص الوحدانية وصحة العبودية على الفناء والبقاء[5]. طلب اللّٰه ترك الطلب استحياء من الهيبة في الطلب. فإذا فني العبد في الطلب اختطفه الحق في الطلب عن الطلب. والحق لا يكون نهَّازاً للفرص. فناء الإنسان في الطلب بقاء للمطلوب[6]. وما يفنى لا يبقى للإنسان[7]. الفناء هو فناء بزوال الرسوم بالكلية في عين الذات الأَحدية مع ارتفاع الأِثْنَيْنِيَّة وهو مقام المحبوبية. وهي عملية متدحرجة[8].

---

(1) **رابعة**، ص150.

(2) أبو الحسن الوراق النيسابوري، **طبقات الصوفية**، ص300.

(3) أبو عبد اللّٰه الصبيحي، السابق، ص320.

(4) أبو يعقوب النهرجوري، السابق، ص378.

(5) إبراهيم بن شيبان القرمسيني، السابق، ص404.

(6) أبو العباس النيسابوري، **طبقات الصوفية**، ص475–476.

(7) «يا عبد لا تكن بالفانيات فتخبر عنك يوم الروع فتنوح لفقد ما كنت به فتدخل في جملة أهل الفزع». **المخاطبات**، ص236.

(8) في البدايات الفناء من العادات بامتثال الأوامر. وفي الأبواب الفناء عن الهيئات الطبيعية. وفي المعاملات الفناء عن الأفعال البشرية بالأفعال الإلٰهية. وفي الأخلاق الفناء عن الملكات النفسانية بالأخلاق الإلٰهية. وفي الأصول الفناء عن إرادة الأغيار. وفي الأدوية الفناء عن العلوم الرسمية بالعلوم اللدنية. وفي الأحوال الفناء عن التعلُّق بالأكوان. وفي الولايات الفناء عن الصفات والتوجه نحو الذت. وفي الحقائق الفناء عن الرسوم مع بقاء البقية الخفية وعدم الشعور بالآنية النوارنية الموجبة للأِثْنَيْنِيَّة. **جامع الأصول**، ج3، ص191.

وللفناء عدة مستويات: الزوال والاضمحلال عكس البقاء، فناء المتحقق، بالحق الاشتغال بالحق، عن الخلق. فناء أهل الوجد هو فناء من فني بالحق. فناء صاحب الوجود هو فناء من فني بالحق(1). فناء الوجود في الوجود هو فناء الشهود في الشهود أو اتصال الوجود. هو فناء رسم الموجود في الوجود الحق(2). وفناء الفناء هو الفناء عن شهود الفناء وهو البقاء الثاني. فناء الشهود في الشهود هو فناء الوجود في الوجود. والبقاء هو بقاء ما لم يزل قط بشهود وفناء. والفناء على وجهين: الأول الفناء عن الوجود الظلماني الطبيعي. وهو الفناء عن البدن. والثاني الفناء عن الوجود النوراني الروحاني، وهو فناء عن الروح(3). وهو عملية تتفتح على مراحل(4).

الفناء عن صفة النفس، وفناء المنع والاسترواح إلى حال وقع. والبقاء بقاء العبد على ذلك. والنفس لا تفنى عن ذاتها على الإطلاق إلا في حالة الغيبة أو الاغتراب(5). ويستوي عند العبد المدح والذم إذا دعي أنه مخلوق(6). فالمخلوق ليس ملاكاً ولا شيطاناً.

إذا فني البقاء من أوصافه أدرك البقاء بتمامه. الفناء هو استعجام كل العبد عن أوصافه، واستعمال الكل منه بكليته. أول علامة الفاني ذهاب حظه من الدنيا والآخرة بورود ذكر اللّه، ثم ذهاب حظه من ذكر اللّه، ثم تفنى رؤية ذِكر اللّه حتى

---

(1) **لطائف الأعلام**، جـ2، ص570-573.

(2) فنيت عن الفناء وعن فنائي ... فناء في وجودك عن وجودي

السابق، ص573.

(3) **البهجة السنية**، ص92-93.

(4) في البدايات بقاء الخلق المعدوم بذاته بوجود الحق حتى يقوم بالعبودية. وفي الأبواب توهم الوجود الخيالي الإضافي القائم بالأفعال. وفي المعاملات بقاء الذوات والصفات عند المريد بعد فناء الأفعال والتأثيرات النفسانية. وفي الأخلاق بقاء الذوات بعد فناء الصفات. وفي الأصول بقاء وجود السالك في السير والانتقال بعد فناء الموانع. وفي الأدوية بقاء الأنوار القدسية والحقائق بعد فناء الظلمات الحسية والعوائق. وفي الأحوال بقاء اللوامع وأنوار الوجه بعد فناء الموت وزوال الفاني. وفي الولايات بقاء الأسماء والصفات الإلٰهية بعد فناء السمات الخلقية. وفي الحقائق بقاء المشهود بفناء الشاهد. **جامع الأصول**، جـ3، ص102-191.

(5) **اللمع**، ص417.

(6) السابق، ص297.

يبقى حظه باللّه، ثم ذهاب حظه من اللّه برؤية حظه، ثم ذهاب حظه برؤية حظه بفناء الفناء وبقاء البقاء. دورة لا تنتهي فكيف تنتهي بالبقاء؟[1].

ومن لم يفن عن شاهد نفسه بشاهد الحق، ولم يفن عن الحق بالحق، ولم يغب في حضوره عن حضور لم يقع بشاهد الحق. وكيف يؤدي الفناء عن النفس إلى شاهدة الحق؟ ولماذا يكون الفناء شرط البقاء؟ ومن فني عن الحق بالحق لقيام الحق بالحق فني عن الربوبية والعبودية معاً. فماذا يبقى؟[2].

أول علم الفناء النزول في حقائق البقاء، إيثار اللّه على كل ما سواه حتى تفنى عبادتهم للّه بأنفسهم ببقاء عبادتهم للّه باللّه. بعد ذلك لا يُدرك المعقول بالعقول، ولا تنطق به الألسن. فما الفائدة؟ الفناء زوال الحدث في أول سطوات القدم. والبقاء شهود مشاهدة جَمال الحق مع الصحو على نعت السرمدية[3]. الفناء والبقاء اسمان، نعتان لعبد موحد. يرتقي في توحيده من العموم إلى الخصوص. في أولهما فناء الجهل ببقاء العلم، وفناء المعصية ببقاء الطاعة، وفناء الغفلة ببقاء الذِكر، وفناء رؤية حركات العبد لبقاء رؤية عناية اللّه.

ولماذا يكون البقاء في الصفات البشرية من السيئات؟ إن الصفات البشرية هي جزء من كمال الإنسان. ولا يوجد فيها نقص إلا قياساً إلى كمال متخيل[4]. ولماذا تفنى الذات وتبقى باللّه ولا تبقى الذات ويفنى اللّه فيها فتقوى مضاعفاً؟ ولماذا تمحو الذات اسمها ورسمها وتشير إلى اللّه بدلاً من إثبات ذاتها؟[5]. الحب يبقى ولا يفنى. يبقى مهما رُمي الحبيب بسهام

(1) السابق، ص284-286.

(2) السابق، ص285.

(3) **مشرب الأرواح**، ص208.

(4) وبقائي في صفاتي … من قبيح السيئات

الديوان، ص294.

(5) ففي بقائي ولا بقائي … وفي فنائي وجدت أنت

في محو اسمي ورسم جسمي … سألت عني فقلت: أنت

أشار سري إليك حتى … فنيت عني ودمت أنت

السابق، ص296.

لحظه[1]. فناء الذات يؤدي إلى الجهل بالعالم[2]. والفناء في الوجود إلغاء للفرق. والدنو بالفؤاد إثبات له[3].

يبدأ الفناء بالذِكر، ثم القرب، ثم التوحيد، ثم الكشف، ثم المشاهدة الفردانية، ثم دار الفردانية، ثم كشف الكبرياء والجَمال. فإذا وقع البصر على الجَمال بقي بلا هو، وصار فانياً بالحق باقياً. فيقع في حفظ اللّه، ويُبْرأ من دعوى النفس. أما البقاء فهو مقام النبيين. ولا يمنع لبسهم السكينة ما حلَّ من فرضه. ولا عن فضله. ثم تصير الأشياء شيئاً واحداً. فتوافق كل الحركات الحق. فيفنى من المخالفات ويبقى في الموافقات. بين الفناء والبقاء إذن جدل متبادل. الفناء بالنفس بقاء بالحق. والفناء بالحق بقاء بالنفس. ولا يوجد وصف نازل من الفناء إلى البقاء كما يوجد وصف صاعد من البقاء إلى الفناء[4]. بين الفناء والبقاء جدل لا ينتهي، لا يترك اللّه نفس الإنسان ليأنس بها. ولا يأخذها فيستريح منها. وهو نوع من

---

(1) أنــا حــزيــن مــعــذب قــلــق ... روحـي مـن أسـر حـبـهـا أبـقـت
كـيـف بـقـائـي وقـد رُمـي كـبـدي ... بـأسـهـم مـن لـحـاظـه رشـقـت
السابق، ص296.

(2) لا كـــنـــت إن كـــنـــت أدري ... كـيـف الـسـبـيـل إلـيـهـا
أفـنـيـتـنـي عـن جـمـيـعـي ... فـصـرت أبـكـي عـلـيـكـا
السابق، ص317.

(3) زعـمـت أنـي فـنـيـت عـنـي ... فـكـيـف لـي بـالـدنـو مـنـي
إذا دنـا مـنـك لـي فـؤادي ... فـلا تـسـلـنـي وسـلـه عـنـي
السابق، ص329.

(4) **الولاية**، ص242-243.

الفناء
محو الذات
الكبرياء والجمال
دار الفردانية
مشاهد الفردانية
الكشف
التوحيد
القرب
الذكر

البقاء
التوافق مع الحق
وحدة الأشياء
السكينة

الدلال الإلٰهي[1]. ويكشف اللّٰه للعبد التوحيد ولا يعرف العبد أهو في حالة فناء أم بقاء. ولا يتمُّ ذلك إلا عن طريق الوعي والجهد والتحول من الفناء إلى البقاء[2].

البقاء أتمُّ من الفناء[3]. البقاء بعد الفناء هو رتبة المعرفة[4]. وحكم العقل هو البقاء لكن البقاء لماذا؟ فمن العقلاء من يحب البقاء في الدار الفانية للتلذذ بمناجاة سيده وطاعته بحسب طاقته، وأن يكون تحت أمره ونهيه. ومع ذلك لماذا يُحكم على الدار بأنها فانية وليست باقية مثله كميدان للفعل وساحة للعمل؟ الإنسان موجود في العالم[5]. وكما أن ضعف العبد في قوته، وفقره في غناه وزواله في الدوام فإن فناءه في بقائه[6]. والبقاء أعلى منزلة من الفناء لأن البقاء بالأعلى والفناء عن الأدنى[7].

ولفظ «الفناء» لفظ قرآني دون أن يكون له هذا الحضور الطاغي عند الصوفية. ذُكر مرَّةً واحدة كصفة «فان» في آية ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾. العالم فان، واللّٰه باق. في حين ذُكر لفظ «البقاء ومشتقاته» عشرات المرَّات متساوية بين الأسماء والأفعال. فالبقاء فعل البقاء وحركة وجهد. وهو في نفس الوقت جوهر وثبات، له

(1) «يا أهل الإسلام أعينوني. فليس يتركني ونفسي فآنس بها، وليس يأخذني من نفسي فأستريح منها. وهذا دلال لا أطيقه».
حويت بكلي كل كلك يا قدسي تكاشفني حتى كأنك في نفسي
أقلب قلبي في سواك فلم أرَ سوى وحشتي منه وأنت به أنسي
أنا في حبس الحياة ممنع عن الأنس فاقبضني إليك من الحبس
أخبار، ص33.

(2) «أراني في التوحيد فكنت به لا أعرف فناء ولا بقاء». **المواقف**، ص141.

(3) «والبقاء أتمُّ من الفناء». **عوارف المعارف**، ج2، ص369. «وهذا لأقوام ماتوا، ثم حشروا وأحكموا مقام الفناء. ثم رقوا إلى مقام البقاء». السابق، ج3، ص108.

(4) «أعلم أن نسبة البقاء عندنا أشرف في هذا الطريق من نسبة الفناء لأن الفناء عن الأدنى في المنزلة أبداً عند الفاني، والبقاء بالأعلى في المنزلة أبداً عند الباقي». **الفتوحات**، ج2، ص515.

(5) أبو بكر الطمستاني، السابق، ص473.

(6) «يا عبد أين ضعفك في القوة، وأين فقرك في الغنى، وأين فناؤك في البقاء، وأين زوالك في الدوام؟». السابق، ص259.

(7) **لطائف الأعلام**، ج2، ص662.

معانٍ متعددة. اللَّه هو الباقي وهو لا يُبقي على العصاة والكفار مثل عاد وثمود. وهو خير وأبقى وما عنده خير وأبقى أيضاً. والآخرة أبقى من الدنيا والعذاب أبقى من الثواب. والذرية الصالح باقية، وكلمة اللَّه باقية. والباقيات الصالحات. والربا لا يبقى. وسَقَرُ لا تُبقي ولا تذر[1].

ويغلب على الوجدان العربي المعاصر الإحساس بالفناء والعدم والموت مما جعل العالم يتسرب من بين أيدي المسلمين. وتوارى تراث «اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً»، وبقي تراث «واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً». وتحول الإسلام من دين لإثبات العالم إلى دين لنفيه كما هو الحال في الهندوكية والبوذية وبعض الديانات الشرقية التي تعتبر العالم عدماً، وبعض الفلسفات الوجودية القريبة التي تجعل الوجود عدماً، والعدم أصل الوجود[2].

(1) ذُكر اللفظ 21 مرّةً، فعلاً (10)، اسماً (11).

(2) ﴿وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾، ﴿وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾، ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾، ﴿وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾، ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ﴾ ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾، ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ﴾.